جامعة فؤاد الأول
كلية الآداب
مطبوع رقم ٢٦ 26

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الأول — المجلد الأول

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الأول — المجلد الأول

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

للأستاذ الدكتور طه حسين بك

هذا أصل من أصول الأدب العربي الأندلسي ومرجع من أهم مراجعه، دفع صاحبه إلى تأليفه أمران: أحدهما حبه لوطنه الأندلس وحرصه على أن يثبت لها تفوقها فى الأدب والعلم، وأن يثبت هذا التفوق لمعاصريه خاصةً لكثرة ما رأى من افتتان الناس من أهل أفقه بالشرق وأدبائه وعلمائه وإعراضهم عن الأندلس وما أنتجت من أدب وعلم. والثانى حرصه على تقليد الثعالبي فى كتاب اليتيمة الذى صوّر فيه أدب معاصريه من الشعراء والكتّاب.

وقد أنبأنا المؤلف فى مقدمته بهذين الأمرين فى سذاجة صريحة، وأنبأنا بهما فى الكتاب كله، فهو شديد الحرص على أن يرفع من شأن وطنه، وينوه بأعلام الشعر والنثر فيه، وهو حريص كل الحرص على أن يسير سيرة الثعالبي فى هذا كله، وعلى أن يصطنع المنهج الذى اصطنعه الثعالبي فى تأليف كتابه. فهو يقسم كتابه أربعة أقسام كما قسم الثعالبي كتابه أربعة أقسام. وهو يقسمه باعتبار الأقاليم كما قسم

الثعالبي كتابه باعتبار الأقاليم ؛ فقسم لقرطبة وما يصاقبها من وسط الأندلس ، وقسم لإشبيلية وما يصاقبها من غرب الأندلس ، وقسم لبلنسية وما يليها من شرق الأندلس ، وقسم أخير للملمين بالأندلس والطارئين عليها من أهل الشرق عامةً ومن أهل أفريقيا بنوع خاص .

وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبي من السجع والتأنق فى تقديم الكتّاب والشعراء والتعريف بهم والثناء عليهم والنقد لهم . ولكنه بعد هذا كله يخالف الثعالبي فى أمر ذى خطر ؛ فهو أبعد منه نظراً وأنفذ منه بصيرة وأعمق منه تفكيراً . وهو على تكلفه فى اللفظ لا يُخدع بالرواء الظاهر عمّا وراءه من جودة المعنى أو رداءته ، ومن صواب التفكير أو خطئه ، ولعله أن يكون أفقه من الثعالبي بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم ، فهو أدقّ منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الإقليم وما يُنتج فيه من أدب ، بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب ، بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما ينتج من الأدب . فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين فى الأندلس لأعدائهم من الفرنجة وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر .

وهو قد سار سيرة الثعالبي فى العناية بالملوك والأمراء والرؤساء وما يكون من تأثيرهم فى الأدب ، وما يكون من إنتاجهم الأدبى الخاص . ولكن عنايته بهذه الناحية من الحياة الأدبية كانت أشدّ وأقوم

وأجدى من عناية الثعالبى . فهو لا يكتفى بهذا الإطراء الذى لا غناء فيه ، والذى تمتلئ به اليتيمة . وهو لا يكتفى برواية مقتطفات من الآثار الأدبية للملوك والوزراء والأمراء كما فعل الثعالبى ، ولكنه يعرض تاريخهم عرضاً دقيقاً مفصلا ، يردّ آثارهم الأدبية إلى مصادرها ، بل يردّ الآثار الأدبية التى أُنشئت فى بيئتهم إلى مصادرها . وقد عمد فى ذلك إلى مذهب مستقيم حقا ، ظاهره السهولة وإيثار العافية والاعتماد على غيره ، ولكنه فى حقيقة الأمر خصب دقيق كل الدقة . رأى أنه ليس مؤرخا ، وأنه لعله لا يحسن البحث التاريخى ، وأن كتابه محتاج إلى قسط عظيم من التاريخ ، فلم يتكلف مالا يحسن ، ولم يحاول ما لا يجيد ، وإنما اعتمد على مؤرخ معروف بالصدق والدقة وحسن الاستقصاء ، وحسن العرض أيضاً وهو ابن حيان ، فأخذ من كتابه بالنص أو بالتلخيص ما احتاج إليه من التاريخ السياسى ، وأنبأنا بذلك فى تواضع وصراحة خليقين بالإعجاب .

هذا ما دفع ابن بسام إلى تأليف كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة » ، وهذا مذهبه فى تأليف هذا الكتاب .

وأما الذى دفع قسم اللغة العربية فى كلية الآداب إلى نشر هذا الكتاب ، فهو أيسر من ذلك وأقل تعقيداً . رأى قسم اللغة العربية أن النشاط الأدبى فى مصر الحديثة لم يشمل الأدب العربى فى الأندلس ولم يسع إليه إلاّ فى تردد وعلى استحياء . فأراد أن يغير من هذه الحال ،

وأن يمدّ نشاط الحياة الأدبية إلى هذه الناحية التى لم يبلغها . ورأى أنّ هذا الكتاب قد جمع طائفة ضخمة من أدب الأندلس شعراً ونثراً وتاريخاً ، فرأى فيه مجموعة صالحة من النصوص الأدبية التى تصلح للدرس ، والتى لعلها ، إن درست ، أن تجلّى وجهاً أو وجوهاً من الأدب العربى فى بعض بيئاته وفى بعض عصوره . فأقبل على نشره وإذاعته راجياً أن يكون ذلك سبيلاً إلى درسه وتعمقه واستخراج ما يُمكنّ من ثمرات العلم .

والفضل فى تمكين القسم من نشر هذا الكتاب راجع إلى صديقنا المستشرق الفرنسى المعروف الأستاذ ليفى بروفنصال . فهو قد أنفق جهداً عظيما فى البحث عن هذا الكتاب وجمع أجزائه بعد أن كانت متفرقة ، وسعى فى ذلك سعياً متصلا محموداً حتى وفق إليه . ثم اتصل الحديث بينه وبينى ذات يوم عن هذا الكتاب وكان قد همّ بنشره فى ليدن ، فما أسرع ما رضى أن يعدل عن مدينة ليدن إلى مدينة القاهرة وعن الانفراد بنشر الكتاب إلى المشاركة فيه . وقد دعته الجامعة إلى مصر فصلاً من فصول السنة الجامعية سنة ١٩٣٧ ، فأقبل ومعه ما اجتمع له من نسخ الكتاب . وجمعنا نحن من هذه النسخ ما أتيح لنا جمعه ، ونُظّم العمل على هذا النحو .

كُلِّف الأستاذ ليفى بروفنصال مع طائفة من شباب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب هم : محمد عبده عزام افندى وخليل عساكر افندى

وبخاطره الشافعى افندى أن يهيئوا نص الكتاب للطبع ، معارضين ما اجتمع لهم من النسخ ، مقوّمين ما اعوجّ على النساخ من اللفظ ، مصححين ما يكون من خطأ لا بدّ من تصحيحه . ثم ألفت لجنة من أساتذة الكلية قوامها الأساتذة : أحمد أمين ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الحميد العبادى ، عبد الوهاب عزام ، ليفى بروفنصال ، طه حسين . وكلفت هذه اللجنة أن تقرأ ما هيأت اللجنة الأولى من النص ، يقرؤه كل واحد من أعضائها منفرداً ؛ ثم تجتمع فيقرأ عليها مجتمعة ويعرض كل واحد من أعضائها ملاحظاته ، حتى إذا أقرّوا النص أذنوا بطبعه.

وقد بدىء العمل على هذا النحو واتصل أشهراً ، ولكن الأستاذ ليفى بروفنصال اضطر إلى العودة إلى عمله فى الجزائر وباريس ، ولم تتح الظروف له الرجوع فى السنة الماضية . واضطر الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك إلى ترك المشاركة فى تصحيح الذخيرة إلى المشاركة فى الوزارة . واضطر بخاطره افندى الشافعى إلى السفر فى بعثة قصيرة .

فأما لجنة المراجعة فلم نغير من أمرها شيئاً ، ولم نضف إليها أحداً . وأما لجنة التصحيح فقد أضفنا إليها شابين من شباب القسم المتخرجين فيه هما : عبد العزيز الأهوانى افندى وعبد القادر القط افندى ؛ لأنا نرى عمل هذه اللجنة أشبه بأن يكون مدرسة يتخرج فيها شباب القسم الذين يريدون أن يعنوا بنشر الكتب ونقد النصوص .

وكذلك أتممنا المجلد الأول الذى نقدمه إلى القراء ، والنية أن

يصدر الكتاب إن شاء الله فى مجلدات ثمانية لكل قسم من أقسامه مجلدان ، ثم تصدر اللجنة بعد تمامه مجلدين : أحدهما يشتمل على فهارس دقيقة فى موضوعات الكتاب وما فيه من الأعلام على اختلافها . والثانى يشتمل على ملاحظات مفصلة تمس النص وتتصل بالنسخ المختلفة وبالمراجع التى رجع المؤلف إليها فى تأليفه ، والتى رجع المصححون إليها فى تصحيحهم ، وعلى معجم فى الألفاظ والاصطلاحات الأندلسية التى لا توجد أو لا توجد إلا قليلا فى كتب الشرق .

ومن المحقق أننا بذلنا وسنبذل جهداً عنيفا فى تصحيح هذا الكتاب . ومن المحقق أيضاً أننا لم نبلغ بهذا الكتاب إلى ما أردنا إليه من ردّ الكتاب إلى الصواب الخالص . فهناك نصوص لم تستقم لنا ولم نوفق إلى إقامتها . ومن الجائز ، بل من الراجح ، أن تكون هناك أغلاط قد مرّت بنا أو مررنا بها فلم ترد أن تكشف لنا عن نفسها ، ولم نستطع نحن أن نكشف لأنفسنا عنها . ولكن الإنتاج العلمى مشاركة كله ، بل أخصّ صفاته أنه تعاون بين المنتجين والمستهلكين كما يقول أصحاب الاقتصاد . فليصلحْ القرّاء ما فات الناشرين ، ومن يدرى ؛ لعلهم أن يضطروا فى كثير من الأحيان إلى أن يصلحوا ما فات المؤلف نفسه . والمهم أن نعمل وأن نسعى جهدنا إلى الخير ، وعلى الله قصد السبيل .

طه حسين

أصول الكتاب

اعتمدنا فى نشر هذا الكتاب على عدة نسخ مختلفة أهمها ما يأتى :

(١) نسخة وجدت بمدينة الرباط بالمغرب ، وهى تشمل القسمين الأول والرابع من الكتاب فى مجلدين ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ر)

(٢) ونسخة من دار الكتب الملكية بالقاهرة ، وهى تحتوى على القسمين الأول والثانى من الكتاب ، وقد رمزنا إليها بحرف (ى) .

(٣) ونسخة يملكها الأستاذ المستشرق ليفى بروفنصال فيها النصف الأول من القسم الأول وقد رمزنا إليها بالحرف (ا‍ب) .

(٤) ونسخة موجودة بمكتبة أحمد تيمور باشا وتشمل القسم الأول ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ت) .

(٥) ونسخة أخذت بالتصوير عن الأصل المحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس ، وتشتمل على النصف الأول من القسم الأول ، وقد رمزنا إليها بالحرف (ب) .

هذا عدا نسخة أخرى من دار الكتب الملكية فى القاهرة تشتمل على القسم الثانى ، ونسخة مخطوطة استحضرت من بغداد تحتوى على القسمين الثانى والثالث .

والقسم الأول من نسخة ر مجلد عدد أوراقه ١٦٧ ورقة ، والصفحة فيه ١٩ سطراً طولها ٢٣½ سم وعرضها ١٦ سم . وهى مكتوبة بخط مغربى واضح يقرب من خط النسخ ، وليس بها تاريخ نسخه ولا اسم لناسخ ، ولكن على الصفحتين الأوليين منها تمليكات ثلاثة : أحدها فى سنة ١٠١٩ هـ ، والثانى فى سنة ١٠٢١ هـ ، والثالث فى سنة ١٠٢٧ هـ . وقد جعلنا هذه النسخة أصلا لسائر النسخ لقربها من الصحة ، ولم نحد عن نصها إلّا حين يتبين بها غلط أو سقط ، أو كانت فى النسخ الأخرى زيادات يحتملها النص .

وأما نسخة ى فإن نصها يتفق مع نسخة ر اتفاقا يحمل على الظن أنهما من أصل واحد . ويقع القسم الأول منها فى ١٩٧ ورقة ، فى كل صفحة ٢٥ سطراً طولها ٢٥ سم وعرضها ١٣ سم . وقد كتب الناسخ فى آخر هذا القسم العبارة الآتية : (انتهى القسم الأول من كتاب الذخيرة لابن بسّام رحمه الله تعالى بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين ، كتب من نسخة كثيرة التحريف ، رحم الله من رأى خللا فأصلحه ، ودعا لكاتبه بالمغفرة والرحمة ولمن قال آمين . وكان الفراغ من نسخه فى صفر الخير سنة ١٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين وألف) .

وأما نسخة ب فهى مكتوبة بخط مغربى ، بعض كلماتها

مشكولة ، وهى كثيرة السقط ، وبعض صفحاتها بالية ، وليس عليها تاريخ نسخها ، وقد سقط من أولها ومن آخرها صفحات قليلة ، وعلى حواشيها بعض تعليقات وتصحيحات ، وهذه النسخة ونسخة ب ونسخة ت متقاربة فى النص كما يلاحظ القارئ من مقارنات هذه النسخ فى حواشى الكتاب . ويقع هذا الجزء فى ١٠٤ ورقة مسطرتها ٣٣ سطراً طولها ٢٤ سم وعرضها ١٧ سم .

وأما المجلد الأول من القسم الأول من نسخة ب فيقع فى ١٢٥ ورقة سطورها ٢٣ سطراً ، طولها ٢٢ سم وعرضها ١٣ سم ، وهى مكتوبة بخط مغربى وليس عليها تاريخ نسخها ولا اسم لناسخها ، والورقة الأولى منها ناقصة . وهذه النسخة كثيرة الخطأ والتصحيف .

وأما الجزء الأول من نسخة ت فيقع فى ٢٢٥ ورقة ، وعدد سطور الصفحة فيه ٢٦ سطراً ، طولها ٢٠ سم وعرضها ١٣ سم . وقد كتبت بخط مغربى وليس عليها تاريخ نسخها ولا اسم الناسخ .

ويلاحظ أننا عند مقارنة هذه النسخ جميعها أثبتنا روايات بها وجه ضعيف وربما كان خطؤها ظاهراً ، وإنما فعلنا ذلك فى بدء الكتاب لنقدم للقارئ مثالاً من اختلاف النسخ على علاّتها ، حتى إذا قطعنا فى الجزء الأول شوطاً ، حذفنا الروايات الظاهرة الغلط إلا لسبب خاص يقتضى إثباتها ، واقتصرنا على إثبات الروايات التى يحتملها النص .

كذلك يلاحظ أننا فى ص ١٩٦ وضعنا صورة النص إذ لم تساعدنا النسخ على تقويمه آملين أن نقومه فى المستقبل إن شاء الله .

الرموز المثبتة فى حواشى الكتاب

ب = نسخة باريس

ت = « تيمور

ر = « الرباط

ق = « القاهرة

لب = « الأستاذ ليفى بروفنصال

م = « المقّرى (نفح الطيب)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو الحسن علىُّ بنُ بسَّام الشَّنْتَرِينىُّ الأندلُسىُّ رحمه الله[1] :

أمّا بعدَ حمدِ الله ولىِّ الحمدِ وأهْلِه ، والصلاةِ على سيّدنا محمّد خاتَمِ رُسله .
فإنّ ثمرةَ هـذا الأدبِ ، العالى الرُّتَب ، رسالةٌ تُنْثَر وتُرسَل ، وأبياتٌ تُنْظَم
وتُفْصَل ؛ تَنْثالُ تِلْكَ[2] انثِيالَ القِطار ، على صَفَحات الأزهار ، وتتّصِلُ هٰذِه 5
اتّصالَ القلائد ، على نحور[3] الخرائد ؛ وما زال فى أُفقِنا هذا الأنْدلُسىِّ القَصِىِّ[4]
إلى وَقْتِنا هذا من فُرْسان الفنَّيْن[5] ، وأئمّةِ النوعَيْن ، قومٌ هُمْ ما هُمْ طِيبَ مَكاسِر ،
وصَفاءَ جواهِر ، وعُذُوبةَ مَوارِدَ ومصادر ؛ لَعِبوا بأطراف الكلام المشقّق ، لَعِبَ
الدُّجى[6] بجُفُون المؤرَّق ؛ وَحَدَوْا[7] بفنون السِّحر المنمّق ، حُداءَ[8] الأعْشى
ببَناتِ المحلَّق ؛ فصبُّوا على قوالب النُّجوم ، غرائبَ المنثور والمنظوم ؛ وباهَوْا 10
غُرَرَ الضُّحى والأصائل ، بعجائب[9] الأشعار والرسائل : نَثْرٌ لو رآه البديعُ
لَنَسِىَ اُسْمَه ، أو اجتلاه[10] ابنُ هِلالٍ لَوَلاّهُ حُكْمَه ؛ ونظمٌ لو سمعه كُثَيِّرٌ ما نَسَبَ

(١) مقدمة الذخيرة قد نشرها دوزى عن مخطوطة ب ضمن مجموعته فى تاريخ بنى عباد (ج ٣ ص ٣٩ — ٥٦) ؛ وقد اقتبس المستشرق المذكور الصفحة الأولى الناقصة من مخطوطة ب عن مو (ج ١ ص ٨٠٠ وما بعدها)

(٢) ر : « ينثال ذلك » (٣) ر : « نجوم »

(٤) ر : « القطر » (٥) ر : « الفئتين »

(٦) مو : « الدجن » (٧) مو : « وجدوا »

(٨) مو : « جد » (٩) ر : « بغرائب »

(١٠) ر : « اختلاه »

ولا مَدح ، أو تتبّعه جَرْوَلٌ ما عوى ولا نَبح ؛ إلاّ أنّ أهل هذا الأُفقِ ، أبَوْا إلاّ
متابعةَ أهل الشرقِ ؛ يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوعَ الحديث إلى قَتادة ؛
حتّى لو نَعَق بتلك الآفاق غُراب ، أوطَنَ بأقْصَى الشام والعِراق ذُباب ، لَجَثَوْا
على هذا صَنَما ، وتَلَوْا ذلك كتاباً مُحكَما ؛ وأخبارُهم الباهرة ، وأشعارُهم السائرة ،
٥ مَرْمَى القَصيّة ، ومُناخ الرذيّة ؛ لا يَعْمُر بها جَنانٌ ولا خَلَد ، ولا يُصرّف فيها
لِسانٌ ولا يَد . فغاظَنِى منهم ذلِك ، وأنِفْتُ ممّا هنالِك ؛ وأخذتُ نفسى بجمع
ما وجدتُ من حَسَنات دهرى ، وتتبُّعِ محاسن أهل بَلَدى وعَصْرى ؛ غَيْرةً
لهذا الأُفق الغريب أن تعود بُدُوره أهِلّة ، وتُصْبحَ بحاره ثِمادًا مُضْمَحِلّة ؛ مع
كثرة أدبائه ، ووُفُور عُلَمائه ؛ وقديماً ضَيّعوا العلمَ وأهلَه ، ويا رُبَّ مُحسِنٍ مات
١٠ إحْسانُهُ قبلَه ! وَلَيْتَ شِعرى من قَصَر العلمَ على بعض الزمان ، وخَصَّ أهلَ
المشرق بالإحسان ؟

وقد كَتبْتُ لأرْباب هذا الشان ، من أهل الوقت والزمان ؛ محاسنَ[1] تَبْهَرُ[2]
الألباب ، وتَسْحَر الشعراء والكُتّاب . ولم أعْرِضْ لشىء من أشعار الدولة
المَرْوانيّة ، ولا المدائحِ العامريّة ؛ إذْ كان ابنُ فَرَج الجَيّانىُّ قد رأى رأيِى[3] فى
١٥ النَّصَفَة ، وذهب مذهبى من الأنَفة ؛ فأمْلَى فى محاسنِ أهلِ زمانه «كتابَ الحدائق»
مُعارِضًا لـ «كتاب الزَّهرة» للإصْبَهانِىّ ، فأضْرَبْتُ أنا عما ألَّف ، ولم أعْرِض لشىء
مما صَنّف . ولا تعدّيتُ أهلَ عصرى ، ممّن شاهدتُه بعُمرى ، أو لَحِقَه بعضُ أهل
دهرى ؛ إذ كلُّ مُرَدَّدٍ ثقيل ، وكلُّ متكرّرٍ مملول ؛ وقد مجّت الأسماعُ :
« يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ »[4] ، وَمَلّت الطّباع : « لِخَوْلَةَ أطْلالٌ ببُرْقَةِ

(١) ر : « محاسناً » (٢) هنا تبدأ مخطوطة ب
(٣) ر : « رأيا » (٤) هنا ينتهى ما نقله م من هذه المقدمة .

تَهْمَد » ؛ وَمَحَتْ [١] : « قِفَا نَبْكِ » فى يد [٢] المُتَعَلِّمين ، ورَجَعَتْ على ابن حُجْر بِلَائِمَةِ المُتَكَلِّفِين [٣] ؛ فأمّا « أمِنْ أمِّ أوْفَى » ، فعلى آثار مَن ذَهَبَ العَفَا . أمَا آنَ أنْ يَصَمَّ صَداها ، ويُسْأمَ مَداها ؟ وكم من نُكْتَةٍ أغفلتها الخُطَبَاء ، ورُبَّ مُتَرَدَّمٍ غَادَرَتْهُ الشُّعَراء ؛ والإحسانُ غيرُ محصور ، وليس الفضلُ على زمنٍ بمقصور [٤] ؛ وعزيزٌ علىَّ الفضلُ أن يُنكَر [٥] ، تقدَّم به الزمانُ أو تأخَّر . ولَحَى اللهُ قولَهم : الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّم ! فكم دَفَن من إحسان ، وأخْمل من فلان ! ولو اقتصر المتأخِّرون على كُتُبِ المُتَقَدِّمين ، لَضَاعَ عِلْمٌ كَثِير ، وَذَهَبَ أَدَبٌ غَزِير .

وقد أودعتُ هذا الديوانَ الذى سمَّيتُه بكتاب الذخيرة ، فى محاسن أهل [٦] هذه الجزيرة من عجائب عِلمِهم ، وغرائب نثرِهم ونظمِهم . ما هو أحْلَى من مُنَاجاةِ الأحِبّة ، بين التَّمنُّع والرِّقْبَة [٧] ؛ وأشْهَى من مُعاطاة العُقار ، على نَغَمات المثاليث والأزيار ؛ لأن أهلَ هذه الجزيرة — مُذ كانوا — رؤساءُ خطابة ، ورءوسُ شعرٍ وكتابة ، تَدَفَّقوا فأنْسَوا البُحور ، وأشْرَقوا فبارَوا الشموسَ والبُدُور ؛ وذَهَبَ كلامُهم بين رقّةِ الهواء ، وجزالةِ الصَّخْرة الصمَّاء ، كما قال صاحبُهم عبد الجليل ابن وَهْبُون يصف شعرَه :

رَقِيقٌ كما غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ   وَجَزْلٌ كما شَقَّ الهَوَاءَ عُقَابُ

على كَوْنِهم بهذا الإقليم ، ومُصاقَبتِهم لطوائف الرُّوم ؛ وعلى أنَّ بلادَهم آخِرُ

(١) ر : « وضجت »   (٢) ر : « على بدء »

(٣) ر : « المتكلمين » وزاد ر : « لفروع »

(٤) ب : « على من بمقبور »   (٥) ب : « ينقر »

(٦) مد فى ب   (٧) ب : « بين التمنع من الرقة »

الفتوح الإسلاميّة ، وأقصى خُطَى[1] المآثر العربيّة ؛ ليس وراءهم وأمامهم إلّا البحرُ المحيط ، والرومُ والقوط ؛ فحصاةُ[2] مَنْ هذه حالُه ثَبِير ، وثَمَدُه بحرٌ مسجور ؛ وقد حكى أبو عليٍّ البَغْدادىُّ[3] الوافِدُ على الأندلس فى زمانِ بنى مَرْوان قال : لما وصلتُ القَيْرَوان وأنا أعتبر مَن أمُرُّ بهِ[4] من أهل الأمصار ،

٥ فأجدُهم درجاتٍ فى الغباوة[5] وقِلّةِ الفهم بحسب تفاوُتِهم فى مَواضِعهم منها بالقُرب والبُعْد ، حَتّى كأنَّ منازلَهم من الطريق هى منازلُهم من العلم مُحاصَّةً[6] ومُقايسة .

قال أبو عَلِيٍّ : فقلت : إنْ نَقَصَ أهلُ الأندلس عن مقادير مَن رأيتُ فى أفهامهم ، بقدر نُقصانِ هؤلاء عمّن قبلهم ، فسأحْتاجُ إلى تُرْجُمان ، بهذه الأوطان !

قال ابن بَسّام : فَبلَغَنى أنه كان يَصِل كلامَه هذا بالتعجُّب من أهل هذا

١٠ الأُفق فى ذكائهم ويتغطّى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إنَّ علمى علمُ رِواية ، وليس بعِلْم دِراية ؛ فخذوا عنى ما نقلت ، فلم آلُ لكم أن صحّحت . هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسَعة العلم وكثرةِ الروايات ، والأخذ عن الثقات[7] ؛ ولولا أنّ كلَّ معنى معترَض ، يزيحُ سهمى عن ثُغرة الغرَض ، المقصودِ فى هذا الكتاب ، لأوردتُ فى هذا الباب[8] ، بعضَ ما وقع لأهل الأندلس من عجب ،

١٥ وسُمِع لهم من نادرٍ مستغرَب . وسيَمُرُّ منه فى تضاعيف هذا التصنيف ما فيه كفاية ، ويُرْبى إن شاء الله على الغاية ؛ ولَعَلَّ بعضَ من يتصفّحه سيقول : إنّى أغفلتُ كثيراً ، وذكرتُ خامِلًا وتركتُ مشهورا . وعلى رِسْله ، فإنّما جمَعْتُهُ بين صَعْبٍ

(١) ر : « خظى »
(٢) ب : « محصات »
(٣) راجع مو (ج ٢ ص ١٠٧)
(٤) ب ، ر : « يمر بى »
(٥) مو : « العبارات »
(٦) ب ، ر : « محاصاة »
(٧) انتهى ما اقتبسه مو
(٨) نه فى ب

قد ذَلّ ، وغَرْب قد فُلّ ، ونَشاطٍ قد قلّ ، وشبابٍ ودّعَ فاستَقلّ ؛ من تفاريقَ كالقرون الخالية ، وتعاليقَ كالأطلال البالية ، بخطِّ جُهّال كخُطوط الرّاح [(١)] ، أو مدارجِ النَّمْل بين مَهابِّ الرياح ؛ ضَبْطُهم تصحيف ، ووَضْعُهم [(٢)] تبديلٌ وتحريف ؛ أيْأَسُ الناسِ منها طالِبُها ، وأشدُّهم [(٣)] استرابةً بها كاتبُها ؛ فَفَتحتُ [(٤)] أنا أقفالَها ، وفَضَضْتُ قيودَها وأغلالَها ؛ فأضحتْ غاياتِ تبيينٍ و بيَان [(٥)] ، ووَضَحتْ آياتِ حُسنٍ وإحسان .

على أنَّ عامَّةَ مَن ذَكَرْتُه فى هـذا الديوان ، لم أجدْ له أخباراً موضوعة ، ولا أشعاراً مجموعة ، تفْسَح لى فى طريق الاختيار منها ، إنَّما انتقدتُ ما وجدتُ ؛ وخالستُ فى ذلك الخُمول ، ومارسْتُ هنالك البحثَ الطويل ، والزمانَ المستحيل ؛ حتَّى ضمَّنتُ كتابى هذا من أخبار أهل هذا الأُفق ، ما لَعَلّى سأُربى به على أهل المشرق . وما قصدتُ به — عَلِم اللهُ — الطَّعْنَ على فاضل ، ولا التعصُّبَ لقائلٍ على قائل ؛ لأنَّ من طَلَبَ عيباً وجده ، وكلٌّ يعمل باقتداره ، و بجُهد اختياره ؛ وما أُغفِل ، أكثرُ مما كُتِب وحُصِّل ؛ والأفكارُ مُزْنٌ لا تَنضُب ، ونُجومٌ لا تَغرُب ؛ ومَنْ يحصِّلُ ما تثيرُه القرائح ، وتَتَقاذَف به الجوانح [(٦)] ؟ وقد قال أبو تمَّام [(٧)] :

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَتْ	حِيَاضُكَ مِنْهُ فِى العُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ إِذَا انْجَلَتْ	سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

(١) م : « الرواح »
(٢) ب : « ووثقهم »
(٣) ب : « وأسد »
(٤) ه فى م
(٥) اضطراب فى هذه الجملة فى ب
(٦) اضطراب فى هذه الجملة فى ب
(٧) راجع ديوانه (ص ٤٣)

وهذا الديوان إنّما هو لسانُ[١] منظومٍ ومنثور، لا ميدانُ بيانٍ وتفسير. أُوردُ الأخبارَ والأشعارَ لا أَفُكُّ مُعَمَّاها، في شيء من لَفظها ولا مَعْناها؛ لكن رُبَّما أَلْمَمْتُ ببعض القول، بين ذِكرٍ أُجريه، ووَجْهِ عَذْراءَ أُريه[٢]؛ لا سيّما أنواع البديع ذي المَحاسِن[٣]، الذي هو قَيِّمُ الأَشْعار وقِوامُها، وبه يُعرَفُ تفاضُلُها وتبايُنُها؛ فلا بدَّ أن نُشيرَ إليه، ونُنَبِّهَ عليه؛ ونَكِلُ الأمرَ في كلِّ ما نُثبِتُه، ونَرُدُّ الحُكْمَ في كلِّ ما نُورِدُه، إلى نقد النَّقَدَةِ المَهَرَة، وتمييز الكَتَبَةِ الشَّعَرَة، الذين هم رؤساء الكلام، وصَيارِفَةُ النُّثّارِ والنُّظّام؛ فأمّا من رِينَ على قَلْبِه، وطُبِع بالْجَهل[٤] على لُبِّه، فقد وُضِعَتْ عنّا وعَنْه، كُلْفَةُ الاعْتِذارِ مِنْه. وقد كان في وَقْتي من فُرْسان هذا الشان، مَنْ كان أَجْدَرَ أن يَجْرِي بهذا المَيْدان، ويُعرِبَ عمّا أعرَبْتُ فيه عن القوم بأفْصَحِ لسان، يُثيرُ فيه المَعانِيَ من مَرابِضِها، وأشدِّ عارِضَةً يُظْهِرُ بها الأغراضَ المَقْصودةَ في أَجملِ معارِضِها؛ لكنّي بما أَقْدَمْتُ عليه، وتصدَّيْتُ إليه؛ كالنَّسيم دَلَّ على الصُّبح، والسَّهْمِ نابَ عن الرُّمح[٥]؛ ولا أقول إنّي أغرَبْتُ، لكنْ رُبّما بَيَّنْتُ وأعرَبْتُ؛ ولا أَدَّعِي أنّي اختَرَعْتُ، ولكنّي لَعَلّي قد أحْسَنْتُ حيثُ اتَّبَعْتُ، وأَتْقَنْتُ ما جَمَعْتُ، وتألّفتُ عَنَنَ[٦] الشارد، وأَغْنَيْتُ عن الغائبِ بالشاهد؛ وتَغَلْغَلْتُ بِقارِئه[٧] بين النَّظْمِ والنَّثر، تَغَلْغُلَ الماءِ[٨] أثناءَ النَّوْرِ والزَّهْر؛ وانْتَقَلْتُ[٩] من الجِدِّ إلى الهزل، انتقالَ الضَّحيانِ[١٠] من الشمس إلى الظِّلّ، واستراحةَ البَهِير[١١] من

(١) كذا في جميع النسخ. ولعله «بستان» (٢) ب: «أوريه»

(٣) ر: «التحاسن» (٤) ــه في ب، ر: «بالجبل»

(٥) ب: «الريغ»، دوزى: «الريح» (٦) ب، ر: «عين»

(٧) ــه في ب (٨) ب: «الملد» (٩) ب، ر: «تقلته»

(١٠) ب: «الصحبان» (١١) ر: «البهى»

الحَزْنِ إلى السَّهْل ؛ وتَخَلَّلْتُ ما ضَمَّمْتُه[١] من الرسائلِ والأشعار ، بما اتَّصَلَتْ به أو قِيلَتْ[٢] فيه من الوقائع والأخْبار ؛ واعتمدتُ المائةَ الخامسةَ من الهِجْرة فَشَرَحْتُ بَعْضَ مِحَنِها[٣] ، وجَلَوْتُ وُجُوهَ فِتَنِها ، ولَخَّصْتُ القولَ بين قبيحها وحَسَنِها ؛ وأحْصَيْتُ عِلَلَ استيلاء طوائفِ الرُّوم ، على الإقليم ؛ وألمعتُ بالأسْبابِ التى دَعَتْ ملوكَها إلى خَلْعهم ، واجتِثاث[٤] أَصْلِهم وفَرْعِهم ؛ وعَبَّرْتُ عن أكْثَرِ ذلك ، بلفظٍ يَتتبَّعُ الهَمَّ بَيْنَ الجوانح ، ويُحِلُّ العُصْمَ سَهلَ الأباطِح ؛ وعوَّلْتُ فى ذلك على تاريخِ أبى مَرْوانَ بن حَيَّان ، فأوْرَدْتُ فُصُولَه ، ونقلْتُ[٥] جُمَلَه وتفاصيلَه ؛ فإذا أعْوزَنى كلامُه ، وعزَّنى[٦] سَرْدُه ونظامُه ، عَكَفْتُ على طَلَلِى البائد ، وضَربتُ فى حَديدِى البارد ؛ على حِفْظٍ قد تَشَعَّب ، وحَظٍّ من الدُّنيا قد ذَهَب .

ومع أن الشِّعْرَ لم أرْضَه مَرْكَبا ، ولا اتَّخَذْتُه مَكْسَبا ، ولا ألِفْتُه مَثْوًى ولا مُنْقَلَبا ؛ إنَّما زُرْته لِماما ، ولَمَحْتُه تَهَمُّمًا لا اهْتِماما ؛ رَغْبةً بعِزِّ[٧] نَفْسى عن ذُلِّه ، وتَرْفيعاً لِمَوْطِئ أخْمَصى عَنْ مَحَلِّه ؛ فإذا شَعْشَعَتْ راحُه[٨] لم أذُقْهُ إلاَّ شَمِيما ، ولا كُنْتُ إلاَّ على الحَديثِ نَديما[٩] ؛ وَمَا لِى وَلَه ، وإنَّما أكْثَرُه خُدْعةُ مُحْتال ، وخِلْعةُ[١٠] مُخْتال ؛ جِدُّه تَمْوِيهٌ وتَخْييل ، وهَزْلُه تَدْليسٌ وتَضْليل ؛ وحَقائقُ العُلوم[١١] ، أوْلَى بنا من أباطيلِ المَنْثُورِ والمَنْظُوم ؛ وعلى ذلك فقد وَعَدتُ أنْ أُلْمِعَ فى هذا المَجْموع ، بلُمَعٍ من ذِكْرِ البَديع ؛ وأن أمَهِّدَ

(١) ر : « ضمنته » (٢) ب : « قبلت »
(٣) ب : « منحها » (٤) ر : « أشتات »
(٥) ب : « أو نقلت » (٦) ب ، ر : « عزبى »
(٧) ب : « تعرى » (٨) ر : « تشعشعت رايحته »
(٩) ب ، ر : « قديما » (١٠) سه فى ب (١١) ب : « المعلوم »

جانبًا من أسبابه ، وأشْرَحَ جُملاً من أسْمائه[١] وألقابه ؛ وإذا ظفِرتُ بمعنًى حَسَن ، أو وَقَفْتُ على لفظٍ مُسْتَحْسَن ؛ ذكرتُ مَن سَبَق إليه ، وأشَرْتُ إلى مَن نقَصَ عنه ، أو زاد عليه ؛ ولَسْتُ أقولُ : أخَذَ هذا من هذا قولاً مُطْلَقًا ، فقد تَتَوارَدُ الخواطِر ، ويَقَعُ الحافِرُ حيثُ الحافِر ؛ إذِ الشِّعرُ مَيْدان ، والشعراء فُرْسان .

٥ وَعَلِمَ اللهُ تعالى أَنّ هذا الكتابَ لم يصدُر إلاّ عن صَدْرٍ مَكْلومِ الأَحْناء ، وفِكْرٍ خامِدِ الذّكاء ، بين دَهْرٍ مُتلوِّنٍ تلَوُّنَ الحِرْباء ؛ لانْتِباذِي[٢] كانَ مِن شَنْتَرِينَ قاصِيَةِ الغَرْب ، مَفْلولَ الغَرْب ، مُرَوَّعَ السِّرْب ؛ بعد أن استَنْفَدَ الطريفُ والتِّلاد ، وأتَى على الظاهِرِ والباطن النَّفاد ، بتَواتُرِ طَوائِفِ الرُّوم ، علَيْنا فى عُقْرِ[٣] ذلك الإقْليم ؛ وقد كُنَّا غَنِينا هنالك بكَرَم الانتِساب ، عن سُوء

١٠ الاكتِساب ؛ واجْتَزَأنا بمَذْخورِ العَتاد ، عن التَّقَلُّبِ فى البلاد ؛ إلى أن نَثَرَ علَيْنا الرومُ ذلك النظام ، ولَوْ تُرِكَ القَطَا لَيْلاً لَنام ؛ وحِين أشْتَدَّ الهَوْلُ هُنالك ، أُقْتَحَمْتُ بمَن مَعى المسالِكَ ؛ على مَهامِهَ تكذِّب فيها العينُ الأُذنَ[٤] ، وتُسْتَشْعَرُ فيها المِحَن :

مَهامِهَ لَمْ تَصْحَبْ بِهَا الذِّئْبَ نَفْسُهُ وَلاَ حَمَلَتْ فِيهَا الغُرابَ قَوَادِمُهْ[٥]

١٥ حتّى خَلَصْتُ خُلوصَ الزِّبْرِقانِ من سِراره ، وفُزْتُ[٦] فوزَ القِدْحِ عِنْدَ قِمَاره ؛ فوَصَلْتُ حِمْصَ ، بنَفْسٍ قد تَقَطّعَتْ شَعَاعا ، وذهب أكثرُها اتِّباعا ؛ وَلَيْتَنِي عِشْتُ مِنْها بالّذِي فَضَلا[٧] ! فتغرَّبتُ بها سَنَواتٍ أَتَبَوَّأُ مِنها ظلّ الغَمامة ،

(١) سه فى ب (٢) ر : « لانتباذ » (٣) ب : « قفر » ، ر : « قعر »
(٤) لعلها « تكذب فيها العين والأذن » أخذا من قول المتنبي (الديوان ج ٢ ص ٤٧٠)
(٥) ديوان المتنبي (ج ٢ ص ٢٤٢) والرواية فى أول البيت : « مهالك »
(٦) ب : « وفوزت » (٧) عجز بيت للمتنبي : راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٢٦)

وأعيا بالُتحَوُّلِ عنها عِيَّ الحمامة (١) ؛ ولا أُنْسَ إلاّ الانفراد ، ولا تَبَلُّغَ إلاّ بفَضْلة الزاد ؛ والأدبُ بها أقلّ من الوفاء ، حامله أضْيَعُ من قمرِ الشِّتاء ؛ وقيمةُ كلِّ أحدٍ ماله ، وأُسْوة كلّ بلدٍ جُهّاله ؛ حَسْبُ المَرْءِ أن يَسْلَمَ وَفْرُه ، وإنْ ثُلِمَ قَدْرُه ؛ وأَنْ تَكْثُرَ فِضَّتُه وَذَهَبُه ، وإن قلَّ دينه وَحَسَبُه .

٥ وهذا الدّيوان نيةٌ لم يُفْصِح عنها قولٌ ولا عَمَل ، وأُمْنِيّةٌ لم يكن منها حَوْلٌ ولا حِوَل (٢) ؛ كامنٌ بين العِيانِ والخبر ، كُمونَ النارِ فى الحَجَر ؛ وجارٍ بَيْنَ اللِّسانِ والقَلْب ، جَرْىَ الماء فى الغُصْنِ الرَّطب ، إلى أن طَلَع على أرْضِها شِهابُ سَعْدِها وتَمْكِينِها ، وهبّت لها ريحُ دُنْياها ودِينِها ، ونَفَخَ فيها روحَ تأميلِها وتأمينِها ، مَلِكُ أملاكها ، وجُذَيْلُ (٣) حُكّاكها ، وأسعدُ نُجوم أفلاكها ؛ «فلان» ١٠ ثِمالُ المظلوم ، ومالُ السائِلِ والمحروم ؛ ومُحْيي العِلْمِ ، ومَرْبَعُ (٤) ذَويه وحامِليه ، ومستَدْعِي التأليفاتِ الرائِقَةِ فيه ؛ جعل اللهُ الدهرَ أقصى أيّامه ، والنجومَ مراكزَ أعلامِه ، والأرضَ نُهْبَةَ سُيُوفِه وأقلامِه ؛ فحامَتْ عليه أطْيارُها ، وأهَلَّ إليه حُجّاجُها وزُوّارُها ، وانتثرت فى يديه شموسُها وأقمارُها ؛ من كُلِّ أشْعَثَ ذى طِمْرَيْن ، ومَشْنوءِ الأثَرِ والعَيْن ، محرومٍ محسود ، محلّأً عن طريق الماء مطرود ؛ قد جعلوا ١٥ بُيوتَهم قُبورا ، واتّخذوا بَناتِ أفكارِهم وِلْداناً وحُورا ، وركبوا الحِدْثانَ صَعْباً وَذَلُولا ، وعاهَدوا الحرمانَ لَيُبْلُنَّهُ صبراً جميلا ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا (٥) ، فما هو إلا أن سطع لهم هذا الشِّهاب ، وفُتح بينهم و بين رَوْح الله ذلك الباب ؛ حتّى نفروا خِفافاً وثِقالا ، وابتدروا بِطاءً وعِجالا ؛

(١) اضطراب فى ب (٢) ب : « قول ولا حول »

(٣) ب : « مديل » ، ر : « جديد »

(٤) ر : « مرفع » (٥) سورة ٣٣ : ٢٣

ينظرون بعيون(١) لم تَرْوَ من ماء وجهٍ كريم ، ويُصغون بآذان لم تأنس بنغمة صديق حميم ؛ قد كانوا يئسوا من هذا النشور ، كما يَئِسَ الكفّارُ مِنْ أصْحَابِ القبُورِ (٢) ؛ فسألتهم أيَّ جانب يمّموا ، وبأيِّ جنابٍ خيّموا ، وإلى أيِّ ملِكٍ لُبابٍ أنجدُوا وأتهَمُوا ؛ ويا رحمتا لبحُور أدَب ، وصدورِ رُتَب(٣) ؛ كان نَظَمَنى وإيّاهم وُدٌّ قديم ، ولَفَّ هواىَ بهواهُم عهدٌ كريم ، لا مَنْسِىٌّ ولا مَذْموم ؛ قد طال ما عاطَيْتُهم أكؤسَ(٤) الخمول ، على البُكاءِ والعويل ؛ فى أيّامٍ أوحشَ من توديعِ الشّباب ، وليالٍ أنكدَ من مُناقشَةِ الحساب ؛ ألّا يكونوا قد أخذُوا على القضاء عهْداً مسئولا ، ومُتِّعوا بالبقاءِ ولو قليلا ؛ حتّى يروا حَظَّ الأدبِ كيف نفَق ، وعزَّ الإسلامِ كيفَ اتّفق ، وشَمْلَ الجوْرِ كيفَ تصدّع وتفرّق ؛ ويا حسرتا ألّا ينشقَّ عن حاتِمٍ ضَريحُه ، ويُعادَ(٥) فى جِسْمِهِ رُوحُه ؛ فيرى أنَّ الكرمَ بعده عُلِم ، وأنَّ عُلُوَّ الهِمَمِ بغيرِهِ بُدِئَ وخُتِم .

ولما سمعتُ صوتَ المهيب ، وتنسّمتُ ريحَ الفرجِ القريب ؛ ووجدْتُ لسبيلِ التأميلِ مَدْرَجا ، وجعل الله لى من ربقةِ الخمول مَخْرَجا ؛ طالَعْتُ حضرتَه المقدّسة بهذا الكتاب على حُكْمِه ، مُطرِّزاً بِسِمَتِهِ واسْمِه ؛ مُستدلاً عليه بمَجْدِه ، متوسّلاً إليه بكَرَمِ عَهْدِه ؛ ولِعِلْمِى أنّ الأدبَ ضالّةُ اهتبالِه ، ونَتيجةُ خِلالِه ، وأنّ أهْلَه على ذُكْرٍ من إجماله ، وبمكانٍ مَكينٍ من كماله(٦) ؛ ولمّا سُئِلْتُ أيضاً انْتِساخَ هذا الدّيوان ، ورأيتُ شَرَهَ أهلِ الزّمان ؛ إلى الاقْتِباس من نُورِه ، بما يلتقطونه من شُذُورِه ، أحْبَبْتُ أنْ يجوبَ الآفاق ، وتَسيرَ به الرّفاق ، وعليه مِنَ اسمِ مَنْ

(١) « فى ب (٢) سورة ٦٠ : ١٣
(٣) ب : « ريب » (٤) ر : « أبوء من »
(٥) هنا ابتداء مخطوطة ب (٦) ب : « باله »

له جُمِع ، وإلى جوانبه العليّة رُفِع ، طِرازٌ به تَنْفُقُ سُوقُه ، ولا تَضيعُ إن شاء الله حُقُوقُه .

وقَسَمْتُه أربعةَ أقسام :

الأوّلُ : لأهل حَضْرة[1] قُرْطُبَةَ وما يُصاقِبُها من بلادِ مُتوسّطةِ الأَنْدَلُس ويَشْتَمِل من الأخْبار وأسماء الرُؤساء وأعيانِ الكُتّاب والشُّعَراء على جَماعةٍ هُم : ٥

[١] المُستعينُ باللهِ أبو أيّوبَ سُلَيمانُ بنُ الحَكَم ، وحَرْبُه مع المَهْدِيّ ابنِ عَمّه ومَقْتَلُه .

[٢] والمُسْتَظهِرُ بالله أبو المُطرِّف عبدُ الرحمن بنُ عبد الجبّار الناصِرِيُّ ومَقْتَلُه .

[٣] والأديبُ أبو عُمَر أحمدُ بنُ درّاج القَسْطَلّيُّ ، وإمارةُ عليِّ بنِ حَمُّودٍ ومَقْتَلُه . ١٠

[٤] وأبو حَفْصِ بنُ بُرْدٍ الأكبرُ ، ومَقْتَلُ عِيسَى بنِ سَعِيدٍ القَطّاعِ وَزِيرِ ابنِ أبى عامر .

[٥] والكاتبُ أبو المُغيرة بنُ حَزْم .

[٦] والفقيهُ أبو محمد ابنُ عَمّه الشافِعيُّ وخَبَرُ الأمير مُنذِرِ بن يَحيَى التُّجِيبيّ .

[٧] والوَزيرُ أبو عامرٍ أحمدُ بنُ عَبد المَلك بن شُهَيْد ، والوزيرُ أبو الوَليدِ ابنُ عَبْدُوسٍ ، والفقيهُ أبو العَبّاس بنُ أبى الرّبيع ، والأديبُ أبو عليِّ بنُ عوض ، والكاتبُ أبو بَكرِ بنُ زِياد[2] . ١٥

---

(١) ب ، لب : « لحضرة »

(٢) ز فى ب ، لب : « وقع ذكر هؤلاء فى المسوّدة وسقط عند الانتقاء والنقل »

[٨] والوَزيرُ أبو الوَليدِ بنُ زَيْدُون وإمارةُ المُسْتَكْفِي وخَبرُ وَلَّادَة .

[٩] والأديبُ أبو عَبْدالله بنُ الحَنَّاط المَكْفُوف ، ونَصْبُ المرتضى الناصرىّ خَليفةً بِشَرْقِ الأَنْدَلُسِ ومَقْتَلُه .

[١٠] والأديبُ أبو بَكْر عُبَادةُ بنُ ماء السَّماء ، وإمارةُ القاسمِ بنِ حَمُّودٍ وتَغلُّبُ القاضى ابنِ عبَّادٍ عليه .

[١١] والوَزيرُ أبو حَفْصٍ بنُ بُرْد الاصْغَر .

[١٢] وأبو مَرْوانَ الطُّبْنِىُّ ومَقْتَلُه ، وأَشْعارُ الطُّبْنِيَّة[1] حَفَدَتِهِ .

[١٣] والأديبُ محمد بنُ مَسعودٍ الهُذَلِىُّ وابْنُ مَسعودٍ البَجَّانىُّ .

[١٤] والشيخُ أبو مَرْوَانَ بنُ حَيَّانَ ، وإمارةُ بَنِى جَهْوَر وخَلْعُهم .

[١٥] [والفقيهُ القاضِى أبو الوَليد المعْروفُ بابنِ الفَرَضِىّ[2]] .

[١٦] والكاتبُ أبو جَعْفر بنُ اللَّمائِىّ .

[١٧] والكاتبُ أبو عبد الله بنُ البزِلْيانِىّ .

[١٨] والكاتبُ أبو جَعْفرِ بنُ عبَّاسٍ .

[١٩] والكاتبُ أبو حَفْصٍ بنُ الشَّهيدِ .

[٢٠] والأديبُ أبو عبد الله بنُ الحَدَّادِ ، وإمارةُ بَنِى صُمادِحٍ وخَلْعُهم .

[٢١] والأديبُ ابنُ مالكٍ القُرْطُبِىّ .

[٢٢] والشاعرُ المُنفَتِلُ ، ومَقْتَلُ ابنُ نَغْرِيلَّةَ اليهُودِىّ .

[٢٣] والأديبُ ابنُ فَتوحٍ الإسْفِيرِيَّانِىّ .

[٢٤] والأديبُ بَكْرُ بنُ ظهار .

---

(١) فى جميع الأصول : « الطبانية »

(٢) « فى جميع الأصول ، ولكن هذه الترجمة موجودة فى موضعها من الكتاب .

[٢٥] والأسْعَدُ بنُ إبراهيمَ بن بَلّيطةَ .

[٢٦] والأديبُ أبو عبدِ الله بنُ القزّاز .

[٢٧] والأديبُ ابنُ مالكٍ الطِّغْنَرِىُّ[1] من أهْلِ غَرْناطَة ؛ وجُمْلةُ قصائدَ لِغَيرِ واحدٍ فى تأبينِ ابنِ سِراجٍ .

[٢٨] والوزيرُ أبو مَرْوانَ بنُ شَمّاخٍ .

[٢٩] والفقيهُ أبو عُمَرَ بنُ عيسَى الإلْبيرِىُّ .

[٣٠] والأديبُ العالمُ أبو محمدٍ غانم .

[٣١] وأبو عبدِالله بنُ السَّرّاج المالَقِىُّ .

[٣٢] وأبو القاسمِ المَعْروفُ بالسُّمَيْسِرِ .

[٣٣] وأبو العبّاسِ أحمدُ بنُ قاسمٍ المُحْدَثُ .

[٣٤] والأديبُ أبوطالبٍ عبدُ الجبّار المَعْروفُ بالمُتَنَبّى من أهْلِ جزيرة شُقْرٍ .

والقِسمُ الثّانى : لأهْلِ الجانبِ الغَرْبىّ من الأنْدَلُسِ ، وذِكْرُ أهْلِ حَضْرَة إشبيليَةَ ، وما اتّصَل بها من بلادِ ساحلِ البَحْرِ المُحيطِ الرُّومىّ ، وفيهِ من الأخْبارِ وأسماء الرُّؤساءِ وأعْيانِ الكُتّاب جُمْلةٌ مَوفورةٌ وهى :

[١] القاضِى أبو القاسمِ بنُ عبّادٍ .

[٢] والمُعْتَضِدُ بالله عبّادٌ ابنُه .

[٣] والمُعْتَمِدُ على اللهِ وكَيْفيّةُ خَلْعِه .

[٤] والوزيرُ الفقيهُ أبو حَفْصٍ الهَوْزَنِىُّ .

[٥] والقاضِى أبو الوليدِ الباجِىُّ[2] .

[٦] والوزيرُ أبو عامرِ بنُ مَسْلَمَةَ .

(١) ب : « الصغير » (٢) م فى ب ، لب .

[٧] والوزيرُ أبو الوَليدِ بنُ المُعَلِّم .

[٨] والأديبُ أبو الوَليدِ المُلقَّبُ بالحبيب[١] .

[٩] والأديبُ أبو جعفرِ بنُ الأبَّار .

[١٠] والأديبُ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ حِصْن.

٥ [١١] والوزيرُ الكاتِبُ أبو عَمْرٍو الباجيُّ .

[١٢] والفقيهُ الأديبُ أبو الحسَن بنُ الإسْتِجِّيّ .

[١٣] وفصْلٌ يَشْتَمِل على مَقطوعاتِ أبْياتٍ لجماعةِ أُدباء بعصْرِ المُعْتَضِد .

[١٤] والوزيرُ الفقيهُ أبو العَلاء بنُ زُهْر .

[١٥] والوزيرُ أبو عُبَيْد البَكْرِيُّ .

١٠ [١٦] والوزيرُ الخطيبُ الأديبُ أبو عُمَر بنُ حَجَّاج .

[١٧] وذو الوِزارَتَيْنِ أبو بَكْرِ بنُ سُلَيْمانَ المعروفُ بابنِ القَصِيرة ، وذِكْرُ تَغَلُّبِ ابنِ ذى النُّون على قُرْطُبَةَ وعَودَتِها إلى المُعتَمِد .

[١٨] والوزيرُ الفقيهُ الكاتِبُ أبو القاسِمِ بنُ الجِدّ .

[١٩] والوزيرُ الكاتِبُ أبو محمدِ بنُ عَبدِ الغَفورِ وأبوه قَبْلَه .

١٥ [٢٠] والوزيرُ الفَقيهُ أبو أيوبَ بنُ أبي أُمَيَّة .

[٢١] وذو الوِزارَتَيْنِ أبو بَكْرِ بنُ عَمَّارٍ ومَقْتَلُهُ .

[٢٢] والوزيرُ الكاتِبُ أبو الوَليد حَسَّانُ بنُ المِصِّيصِيّ .

[٢٣] والوزيرُ الفَقيهُ أبو بَكْرِ بنُ المِلْحِ .

[٢٤] والأديبُ أبو محمد عبدُ الجليل بنُ وَهْبُون المُرْسِيُّ .

---

(١) ب ، لب : « إسماعيل بن حبيب . »

[٢٥] [والوزيرُ الأديبُ أبو القاسمِ بنُ مَرْزُبانَ] [١] .

[٢٦] والوزيرُ الكاتبُ أبو بكرِ بنُ عبدِ العزيز .

[٢٧] والوزيرُ الكاتبُ أبو الحسينِ بنُ الجدّ .

[٢٨] والأديبُ أبو الحسينِ غلامُ البكْرِيّ .

[٢٩] والكاتبُ أبو الحسنِ صالحُ الشَّنْتَمَرِيُّ . ٥

[٣٠] وأبو الحكمِ وأبو الوليدِ ابْنا حَزْم .

[٣١] والأديبُ أبو بكْرِ بنُ بَقِيّ .

[٣٢] والأديبُ أبو الحسنِ بنُ هارُونَ الشَّنْتَمَرِيُّ ، وكيْفِيَّةُ إمارةِ بَنِى الأَفْطَس والمتوكِّلِ على الله منهم .

[٣٣] والوزيرُ الكاتبُ أبو عبدِ الله بنُ أيْمَنَ ، والخبَرُ عن فتْحِ مَدينةِ سَبْتَة والتَّعْريفُ بأوَّليَّة أميرِها سُقُّوت . ١٠

[٣٤] والوزيرُ الكاتبُ أبو مُحمّدِ بنُ عبْدون .

[٣٥] والأديبُ أبو جَعْفرٍ أحمدُ بن هُرَيرة الأعْمى التُّطيلِيّ .

[٣٦] والوزيرُ الكاتبُ أبو بكْرِ بنُ سَعيد المعروفُ بابنِ القَبْطُورْنُهْ .

[٣٧] والوزيرُ الكاتبُ أبو بكْرِ بنُ قُزْمان . ١٥

[٣٨] والوزيرُ أبو زيدِ بنُ مَقانَا الأُشْبُونِيّ .

[٣٩] والشَّيخُ أبو الحسَنِ القُرشيُّ الاشْبُونِيُّ .

[٤٠] والأديبُ أبو عبدِ الله بنُ البَيْنِ .

[٤١] وذو الوزارَتيْنِ أبو محمدِ بنُ هُود .

---

(١) ه فى جميع الأصول ولكن هذه الترجمة موجودة فى موضعها من الكتاب . وزاد ر هنا : « وأبو بكر الخولانى »

[٤٢] والشَّيخُ الأديبُ أبو عُمرَ بنُ فَتحٍ البَطَلْيَوْسِيُّ .

[٤٣] والأديبُ أبو عُمرَ بنُ كَوْثرٍ الشَّنترِينِيُّ .

[٤٤] والأديبُ أبو الوَليد النَّخْلِيُّ .

[٤٥] والوَزيرُ الكاتِبُ أبو بَكْرِ بنُ سَوَّارٍ الأُشْبُونِيُّ .

٥ [٤٦] والأديبُ أبو محمد بنُ سارَةَ (١) الشَّنْترِينِيُّ .

وَالقِسْمُ الثالِثُ : ذَكَرْتُ فيه أَهْلَ الجانِبِ الشَّرقِيِّ مِن الأَنْدَلُسِ ، ومَن نَجَمَ من كَواكِبِ العَصْرِ في أُفق ذلك الثَّغرِ الأعْلَى ، إلى مُنتهَى كَلمة الإسلامِ هُنالِك ، وفيه من القِصَص وأسماء الرُّؤساء وأعيانِ الكُتَّابِ (٢) والشُّعَراء طَوائِفُ مِنهم :

١٠ [١] مُجاهِدٌ ومُبارَكٌ ومُظَفَّرٌ من فِتيانِ ابنِ أبي عامرٍ .

[٢] والوَزيرُ الكاتِبُ أبو عبد الرحمن بنُ طاهرٍ ، وتَغلُّبُ العَدُوِّ على بَلَنْسِيَةَ وعَوْدُ المسلِمين إليها .

[٣] [وذو الوِزارَتَيْن أبو عامرِ بن الفرَج .

[٤] وذُو الوزارَتَيْنِ القائدُ أبو عِيسَى بنُ لُبُّون] (٣) .

١٥ [٥] وحُسامُ الدَّولةِ أبو مَرْوانَ بنُ رَزِين .

[٦] والوَزيرُ الكاتِبُ أبو محمَّد بنُ عَبدِ البَرِّ ، ومَقْتَلُ إسماعيلَ بنِ المُعْتَضِد عَبَّادٍ ، وتَغَلُّبُ العَدُوِّ على بَرْبَشْتر وفَتْحُها بَعْدُ .

[٧] والوَزيرُ الكاتِبُ أبو عامرِ بنُ التاكُرُنِّيِّ ، وإمارةُ عَبدِ العزيزِ بنِ أبي عامرٍ وابْنِهِ بِبَلَنْسِيَةَ .

---

(١) ب ، لب « صارة » (٢) ر : « الثقات »

(٣) ر في جميع الأصول ولكن الترجمتين موجودتان في موضعهما من الكتاب .

[٨] والوزيرُ الكاتبُ أبو المُطرِّف بنُ الدبّاغ .

[٩] والأديبُ أبو الرّبيع بنُ مِهْران السَّرَقُسْطِيّ ، وذِكْرُ ابنِ الكَتّانيّ المُتطبِّب .

[١٠] والأديبُ الأستاذُ ابنُ خَلَصَةَ الضريرُ .

[١١] والأديبُ أبو مَرْوانَ بنُ غُصْن الحِجاريّ .

[١٢] والأديبُ أبو عبدِ الله إدريسُ بنُ اليمانيّ .

[١٣] والوزيرُ الكاتبُ أبو الأصبَغ بنُ أرْقم .

[١٤] والوزيرُ الكاتبُ أبو المُطرِّف بنُ مُثنَّى .

[١٥] والوزيرُ الكاتبُ أبو عُمر بنُ القلاس .

[١٦] والوزيرُ الكاتبُ أبو عبدِ الله بنُ مُسْلِم .

[١٧] والوزيرُ الكاتبُ أبو جَعْفر بنُ جُرْج .

[١٨] والوزيرُ الكاتبُ أبو الفضْل بنُ حَسْداي .

[١٩] والأديبُ أبو الربيع القُضاعيّ ، وجُملةٌ من أخْبارِ هشامٍ المُعْتدّ أميرِ قُرطُبةَ يومَئذٍ ، ومَقتلُ وزيره الحائك .

[٢٠] والأديبُ أبو عامر البَارِيّ .

[٢١] والأديبُ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ خَفاجة .

[٢٢] والأديبُ أبو حاتمٍ الحِجاريّ .

[٢٣] والأديبُ أبو بَكْرٍ الدانيّ المعروفُ بابنِ اللَّبّانة .

[٢٤] والأديبُ أبو جعْفر بنُ الدَّوْدين البَلنْسيّ ، ورِسالةُ ابنِ غَرْسِيةَ الشُّعوبيّةُ والرَّدُّ عليه .

[٢٥] والكاتبُ أبو جَعْفرِ بنُ أحمد الدانيّ .

[٢٦] والوزيرُ الكاتبُ أبو الخَطّاب بنُ عَطيُون الطُّلَيطُلِيّ .

[٢٧] والوزيرُ الكاتبُ أبو عبدِ الله بنُ أبي الخِصال .

[٢٨] والأديبُ أبو بَحْرِ بنُ عبد الصّمد ، وذِكْرُ الشيخِ الكاتبِ عبدِ الصّمد السَّرَقُسْطِيّ .

٥ [٢٩] والأديبُ أبو تمّام المُلقّب بالحجّام .

[٣٠] والأديبُ أبو إسحاقَ بنُ مُعَلَّى ، وخَبرُ وَقْعَةِ بطَرْنَة .

[٣١] والأديبُ أبو عامرِ بن الأَصيليّ .

[٣٢] والأديبُ أبو الفضل جَعْفَرُ بنُ محمد بن شَرَف .

[٣٣] وفصلٌ يَشْتَمِل على طوائفَ مُقِلّين من سُكّان ذلك الجانبِ الشّرْقيّ .

١٠ والقِسمُ الرابعُ : أفردْتُه لِمَن طرَأ علَى هذه الجزيرة في المُدّة المُؤرَّخة من أديبٍ شاعرٍ ، وأوَى[١] إلى ظِلّها من كاتبٍ ماهرٍ ؛ واتّسعَ فيها مجالُه ، وحُفِظَت في مُلوكها أقوالُه ؛ ووَصَلْتُ بهم ذِكرَ طائفةٍ من مَشْهوري أهلِ تلك الآفاق ، مِمّن نَجَمَ في عَصْرنا بإفْريقيَةَ والشّامِ والعِراق ، فيَشْتَمِلُ منهم على جُمْلة ، وهُمْ :

[١] أبو العَلاء صاعِدُ اللُّغَويّ ، وتَلْخيصُ التعريفِ بِدَوْلَةِ ابنِ أبي عامرٍ ،

١٥ من المَبْدَأ إلى الآخِر .

[٢] وأبو الفَضْل البَغْداديّ .

[٣] وسُلَيمانُ بنُ محمد الصِّقِلّيّ .

[٤] وأبو الفَتْحِ الجُرْجانيّ .

[٥] والأديبُ عبدُ العزيزِ السُّوسيّ ، ولُمَعٌ من دَوْلَة ابنِ ذي النون ومآلِ

---

(١) ب ، لب : « تولى »

حَفيدِه ، وأَخْذِ طُلَيْطُلَةَ من يَدَيْه ، ودَوَرَانِ الدائرةِ السوءِ بها عليْه ؛ مع ما أُنْدرِجَ فى ذلك من خَبَر ، والْتَفَّ به من قَبيحِ أَثَر .

[٦] وأَخْبارُ أبى عبدِ الله بنِ شَرَف ، وغُرَرُ أشْعارِه ، وذِكْرُ خَرابِ بَلَدِه القَيْرَوَان .

[٧] وأخبارُ ابنِ السَّقَّاء مُدبِّرِ المُلْكِ الجَهْوَرِىّ بقُرْطُبَةَ ومَقْتَلُه . ٥

[٨] وأبو الحَسَنِ المَكْفوفُ الحُصْرِىُّ ، وذِكْرُ تغلُّبِ ابنِ هُودٍ المُقْتَدِر على دَانِيَةَ .

[٩] وأخْبارُ عبدِ الكريم بنِ فَضَّال الحُلْوانىّ .

[١٠] وأبو العَرَب الصَّقِلِّى .

[١١] وأبو عبدِ الله بنُ الصَّبَّاغِ الصَّقِلِّىُّ . ١٠

[١٢] وأبو محمدِ بنُ حَمْدِيسَ الصَّقِلِّىّ .

[١٣] والحكيمُ أبو محمدٍ المِصْرِىُّ .

[١٤] وأبو محمدِ بنُ الطَّلَّاءِ المَهْدَوِىُّ .

[١٥] وأبو بكرِ بنُ الحَسَنِ المُرادِىُّ .

[١٦] والفُكَيْكُ البَغْدادِىُّ . ١٥

[١٧] وأبو زَكَرِيَّاء يَحْيَى الزَّيْتونِىُّ .

[١٨] وأبو بَكْرِ بنُ العَطَّارِ اليابِسِىُّ .

[١٩] وابنُ القابِلَةِ السَّبْتِىُّ .

ذِكْرُ مَن كانَ مِنهم بالمَشْرِق :

[٢٠] الرَّضِىُّ الشَّرِيفُ . ٢٠

[٢١] أبو القاسِمِ المَغْرِبِىُّ .

[٢٢] عبدُ الوَهّابِ المالكيُّ .

[٢٣] أبو عبد الله(١) بنُ قاضى مِيلَة .

[٢٤] أبو الحسن التِّهاميُّ .

[٢٥] مِهْيارُ الدَّيْلَميُّ .

٥ [٢٦] أبو منصورٍ الثّعالِبيُّ .

[٢٧] أبو إسْحاقَ الحُصْرىُّ .

[٢٨] أبو علىٍّ بنُ رَشيقٍ ، وذِكْرُ انحرافِهِ عن القَيْرَوانِ .

[٢٩] أبو الفِتْيانِ العَسْقَلانيُّ .

[٣٠] القاضى أبو محمد بنُ نِعْمة .

١٠ [٣١] جَلالُ الدولة ابنُ عَمّار .

[٣٢] المُجيدُ بنُ الشَّخْباء العَسْقَلانيُّ .

وإنّما ذكرْتُ هؤلاء ائْتساءً بأبى مَنْصُور ، فى تأليفِه المَشْهور ، المتَرْجَم بـ « يَتيمةِ الدَّهْرِ ، فى مَحاسِنِ أَهْلِ العَصْر » .

وتَحَرَّيْتُ فى الجُمْلة حُرَّ النِّظام ، وتَخيَّرْتُ جَيِّدَ الكَلام ، وجَرَّدتُ جُمْلةَ ١٥ الفُصُولِ والأَقْسام ؛ وإذا مَرَّ معْنًى غريبٌ وتعلّقَ به خَبَرٌ مَشْهور ، وأمْكننى فيه شِعْرٌ كثير ، مَدَدْتُ أَطْنابَه ، ووَصَلْتُ أَسْبابَه ؛ وقد أَذْكُرُ الشّاعرَ الخامِلَ ، وأُنْشِدُ الشعرَ النازلَ(٢) ، لأَرَبٍ(٣) يَتَعلَّقُ به ، أوْ لِخَبرٍ أَذْكُرُه بِسَبَبِه ؛ وقد أَذْكُرُ الرَّجُلَ لِنَباهةِ ذِكْرِه ، لا لِجَوْدَةِ شِعره ؛ وأُقَدِّمُ الآخِرَ لاشْتهارِ إحْسانِه ، مع تأخُّرِ زَمانِه .

(١) ب ، لب : « محمد »

(٢) دوزى : « المؤول » (٣) ر : « لأدب »

وبدأتُ بذِكْرِ الكُتَّاب ، إذْ هُمْ صُدورٌ[١] فِي أهلِ الآداب ، إلاَّ أنْ يكونَ [مَنْ] لَهُ حظٌّ من الرِّياسة ، أو يدعُوَ إلى تقْديمه بَعْضُ السِّياسة ؛ فأوَّلُ مَن ذكرتُ من أهْلِ قرْطُبَة مَن كانَ بها من مُلوكِ قُرَيْش فِي المُدَّةِ المؤرَّخة من أهلِ هذا الشأنِ ثمَّ مَن تعلَّقَ بسُلْطانهم ، أوْ دَخَلَ فِي شيء[٢] من شأنهم ؛ وتَلَوْتُهم بالكُتَّاب[٣] والوُزَراء ، ثمَّ بأعيان الشُّعَراء ، ثمَّ بطوائفَ من المُقِلِّينَ منهم . وكذلك فعَلْتُ فى كلِّ قِسْم : بَدَأْتُ بالمُلوك ، ثمَّ أستمِرُّ على ما وَصَفْتُه من التَّرْتيب ، وأنْتَظِمُ على ما شَرَحْتُ من التَّبْويب ، وعَلَى اللهِ أتوَكَّل ، وهو حسبي فيما أقولُ وأفْعَل ! لا إلٰه سِواه[٤] !

---

(١) دوزى « صدر » (٢) ـه فى ب . (٣) ـه فى ب .
(٤) هنا ينتهى ما اقتبسه دوزى من هذه المقدمة فى مجموعته فى تاريخ بنى عباد .

ذِكْرُ الكُتَّابِ وَالوُزَراء، وأعْيانِ الادباء وَالشُّعراء، بحضْرةِ قُرْطُبَة
وما يُصاقِبُها من بلادِ مُتَوَسِّطةِ الأنْدلُس، وتَسْمِيَةُ مَنْ نَشأَ من
فُرْسانِ هذا الشانِ، من آخرِ دوْلَةِ بَني عامرٍ إلَى وَقتِنا،
وَإيرادُ ما انْتَخَبْتُهُ من نَظْمِهم ونَثْرِهم، مع ما يَتَعلَّق
٥ من فُنونِ المعارفِ المُفيدةِ بذكرِهم.

قالَ أبو الحَسَنِ بْنُ بَسَّامٍ رَحِمَه اللهُ:

وَحضْرةُ قُرْطُبَةَ، مُنذُ اسْتُفْتِحَت الجزيرة، هِيَ كانت مُنْتَهَى الغاية، ومَرْكَز الرّاية، وأُمَّ القُرى، وقَرارَةَ أهلِ الفضْلِ والتُّقَى، وَوَطَنَ أولى العِلمِ والنُّهى، وقَلْبَ الإقليم، ويَنْبوعَ مُتَفَجِّرِ العُلوم، وقُبَّةَ الإسلام، وحَضْرةَ الإمام، ودارَ
١٠ صَوْبِ العُقول، وبُسْتانَ ثَمرةِ الخَواطِر، وبَحْرَ دُرَرِ القرائح؛ ومن أُفُقِها طلَعَتْ نُجومُ الأرْضِ وأعْلامُ العَصْر، وفُرسانُ النَّظمِ والنَّثر؛ وبها انْتَشأَت التأليفاتُ الرّائقة، وصُنِّفت التَّصْنيفاتُ الفائقة؛ والسَّبَبُ في ذلك، وتَبْرِيزُ[1] القومِ قَدِيماً وحَدِيثاً هُنالك؛ على مَن سِواهم، أنّ أُفُقَهم القُرْطُبيّ لمْ يَشْتَمِل قط إلا عَلَى أهْلِ البَحْثِ والطَّلَب، لأنْواعِ العِلْمِ والأدَب. وبالجُمْلة فأكْثَرُ أهلِ[2]
١٥ بِلادِ هذا الأفُق أشْرافُ عَرَبِ المَشْرِق افتتحوها، وساداتُ أَجْنادِ الشامِ والعراقِ نزلوها؛ فبَقِيَ النَّسْلُ فيها بكلِّ إقليم، على عِرْقٍ كَريم؛ فلا يكادُ بَلَدٌ منها يَخْلو من كاتبٍ ماهِر، وشاعرٍ قاهِر؛ إنْ مَدحَ ما كُثَيِّرٌ عنده بكثير، وإن

---

(١) ب، لب: «تبريز». (٢) ﻫ في ب، لب.

هجا أخْرَسَ لِسانَ جَرِير ، وَعَدَا عَدِيًّا عن مدح ذَوِيه ، وأنسى[١] جَرْولاً القوافِىَ إثْرَ قوافيه ؛ وإن تغزّل أرْبَى على الساحرات فُنُونا ، وأزْرَى بالغانيات مُجُونا .

وقد وَعَدْتُ فِى صَدْرِ هـذا الـكتاب بأنْ أتَخَلَّلَ أشْعارَ الشعراء ، ورَسائلَ الـكُتّابِ والوُزَراء ، بما عَسَى أن يتعَلّقَ بأذيالها ، ويُسايرَ أفياءَ ظِلالها : من أنباء فِتنِ ذلكَ الزمان البعيد — كانَ — طَلَقَها ، المُفَرِّقِ لِشَمْلِ الأمْرِ فى هـذه الجَزِيرة نَسَقُها . ونُلْمِـعُ بِنُبَذٍ من مَشْهُورِ وَقائعها ، ونُشيرُ بأسْماء طَوائفِ توابِعِها وزَوَابعِها[٢] ؛ الذين استَظْهَرُوا على شَهَواتِهم بجرّ ذُيُولها ، وامْتَرَوْا بِطَلَّاتِهم من أخلافِ أباطيلها ، حتَّى شَقُّوا عَصَاها ، وأدارُوا بدائرة السَّوْءِ على الجَماعة رَحَاها ؛ لِيَجْمَعَ هذا المَجْمُوعُ بينَ الشعرِ والخَبَر ، جَمْعَ الرَّوْضَةِ بينَ الماءِ والزَّهَر ، والزَّمانِ بينَ الأصائلِ والبُكَر ؛ فإنِّى رأيتُ أكثَرَما ذكَرَ الثعالِبِىُّ من ذلكَ فِى « يَتِيمَتِه » مَحْذوفا من أخْبارِ قائليه ، مَبْتورًا من الأسْباب التى وُصِلَتْ بهِ وَقِيلَتْ فيه ؛ فأمَلَّ قارِئَ كتابِه مَنْحاه ، وأحْوَجَهُ إلى طَلَبِ ما أغْفَلَه من ذلك فِى سواه .

وسَيَنْخَرِط فِى سِلْكِ ما أُوَشِّحُ به هـذا التَّصْنِيف ، مِن تَلْخِيصِ التَّعريف ، بأخْبارِ مُلوكِ الجَزِيرة ، وسَرْدِ قِصَصِهم المَأثورة ، ووقائعهم المُبيرةِ المشهورة ، لابنِ حَيّان ، فُصُولٌ من غرائبِهِ ، وجُمَلٌ وتفاصيلُ من عجائبه ؛ لأنِّى إذا وَجَدْتُ من كلامه فصْلاً قد أحْكَمَه ، أو خبراً قد سَرَدَه ونظَمَه ، عوّلْتُ على ما وَصَف ، ووَلَّيتُه خُطّةَ ما سطَّرَ وَصَنّف ، إقراراً بالفَرْق ، وإعفاءً لنفسى من مُعارضةِ مَن أحْرَزَ بأفْقنا فِى وَقْتِه قَصَباتِ السَّبْق ،[٣] وبرَّزَ فى زَمانهِ عَلَى جَمِيعِ الخَلْق[٣] . وأكثَرُ ما يَمُرُّ فِى هذا الـكِتاب ، مِن هذا الباب ، فعَلى

(١) لب : « وأنشر » (٢) ب ، لب : « روابعها » ، ر : « روائعها »
(٣—٣) لم تقع هذه الجملة إلا فى ر .

تأريخه الكبير عوّلت، ومن خطّ يده أكثرَ ما نقلت؛ وتحرّيتُ جهدى اقتضابَ ما طوّل، وتخفيفَ ما ثقّل، وإجمالَ ما شرح وفصّل؛ على أنّه لم يخلُص إلىّ من غمامه إلاّ قطرة، ولا حصلتْ فى يدى من حسامه إلاّ إبرة؛ ولذلك ما ارتشفتُ ثمادى، ونفختُ فيما لم أجدْ من كلامه رمادى، وأنفقتُ فى ذلك من تافهِ زادى؛ وابتدأتُ بمن كان فى ذلك الأوان، من ملوكِ بنى مرْوان، من أهلِ هذا الشان، وارْتسم بهذا الفنّ الذى تصدّيتُ لإقامة أوده فى هذا الديوان.

فصلٌ فى ذكر المستعين بالله أبى أيّوب سليمانَ بن الحكم، والأخذ بطرفٍ مستطرفٍ من أخباره وأشعاره، والسببِ الموجبِ لقيامه، وما حدثَ من نادرٍ مستغربٍ فى أيّامه.

[1] ونقلتُ بعضَه من لفظِ الشيخِ المذكور بنصّه، وأتيتُ من الحديثِ بفصّه، واعتمدتُ الإيجاز، وأتقنتُ الصُّدورَ والأعجاز[1].

هو سليمانُ بنُ الحكم بن سليمانَ بن عبدِ الرحمنِ الناصرِ لدينِ اللهِ بن محمدِ ابن عبدِ الله بن عبدِ الرحمنِ بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشامِ بن عبدِ الملكِ بن مرْوان بن الحكم القرشى. بُويع بقرْطبة منتصفَ ربيعٍ الأوّل سنة أربعمائة بعد وقعةٍ كانتْ له على أميرها قبْلَه محمد [بن هشام] بن عبد الجبّار الملقّب بالمهْدىّ القائم على الدّوْلة العامريّة؛ ثمّ خلعه المهْدىّ بوقعةٍ كانتْ له عليه، ثمّ عاد إليها سليمانُ ثانيةً فى خبرٍ طويل، فملكَ سليمانُ قرطبة

(١ — ١) لا توجد هذه الجملة إلاّ فى ر.

فِى دَوْلَتَيْه سِتَّ سنينَ وعشْرَةَ أشهرٍ ، وكانتْ كُلُّها — كما وصفَ ابنُ حَيَّان — شِدَادًا نَكِدَات ، صِعابًا مَشْئومات ، كَرِيهات المَبْدأ والفاتِحَة ، قبيحةَ المُنْتَهى والخاتِمة ؛ لم يُعدَمْ فيها حَيْف ، ولا فُورِقَ فيها خَوْف ؛ ولا تَمَّ سُرور ، ولا فُقِد محذور ؛ مع تَغَيُّرِ السِّيرة ، وخَرْقِ الهَيْبة ، واشتعالِ الفِتْنة ، واعتلاءِ المَعْصِيَة ، وظَعْنِ الأَمْنِ ، وحُلُول المخافة : دولةٌ كفاها ذمًّا أن أنْشَأَها شَانِجَة ، فقَشَعها أَزْمَقُنْد ، وثَبَّتَتْها الجَلالقة ، ومزَّقَتْها الإفْرِنْجَة ؛ ودبَّرَها فاجِرٌ شَقِىّ ، ووزر لها خَبٌّ دَنِىٌّ(١) ؛ فتمَخَّضَتْ عن الفاقِرةِ الكُبْرى ، وآلت بمَنْ أتى بعدها إلى ما كان أعْضَلَ وأدْنَى ، مِمَّا طوى بِساطَ الدُّنيا ، وعَفَّى رَسْمَها ، وأهْلَكَ أهْلها .

ولمَّا تمَّتْ بَيْعَتُهُ نُفِّذَتْ عنه كُتُبٌ إلى نَواحى الجَزِيرة بخَبَرِ فَتْحِهِ قُرْطُبَة ، وكانَتْ مُوَشَّحَةً بما تُوَشَّح به كُتُبُ الفتوحِ الإسلاميةِ على أهْلِ دارِ الحَرْب ، من وَصْفِ حالِ القَهْر ، وشِدَّةِ السَّطْوَة والاقتدار على الفَتْكِ والاستباحة ؛ فأفْرَطَ فِى ذلك إرهابًا للناس بذِكْرِه ، وتَخْوِيفًا لهم من مِثْلِه ؛ فكان أجْلَبَ لِنفارِ القُلوب ، وقَرْفِ النُّدوب ، وبُعْدِ الشُّرود ، ونَبْشِ الحُقود ، لِما وَتَرَ جميعهم بالحادِثة فى قُرْطُبَتِهِم ؛ فاستَشْعَرُوا بُغْضَه ، وانْقادوا لِكُلِّ مَنْ عانَدَهُ ورَدَّ أمْرَه ، من عَبْدٍ أو حُرّ ، فَزَعًا إليهم مِنه ، ويأسًا مِن خَيْرٍ يجيئهم من بَرابِرَتِه ؛ فكانَ ذلك سَبَبًا فى تَفْرِيقِ البِلادِ وتَمَلُّكِ أصحابِ الطَّوائف .

قال ابنُ حَيَّان : وتَسَمَّى لوقته مِن الألقابِ السُّلْطانيةِ بالمستعين بالله ، وانْتَقَلَ إلى مَدِينَةِ الزَّهْراءِ بجُمْلَةِ جَيْشِه ، رَجاءَ أن يَحْسِمَ عن أهْلِ قُرْطُبَة مَعَرَّتَهم ، فضاقَتِ الزَّهْراء عنهم فنزَلُوا بما يَتَّصِل بها من مَنازِلِ الناس ، ونَزَلَ ابنا حَمُّودٍ : علىٌّ والقاسمُ ، قائدَا فِرْقَةِ المَغارِبَةِ ، بشَقُنْدَة ؛ وامتُحِن هِشامُ المؤيَّدُ

(١) ب ، لب : « دب جرى »

باللهِ معَ سُليمانَ عندَ دُخولهِ القصرَ ؛ فقيلَ إنه قُضِيَ عليْه، وقيل إنه فرَّ من يدَيْه. وكان هِشامٌ — عندَ ما رآهُ من اضْطِرابِ أمرِه، وتيقُّنِه من انصرامِ دوْلتِهِ، بما مُنِيَ به قديمًا وحديثًا، من تمالُؤِ بنى عمِّه آلِ الناصرِ عليه، وقيامِهم واحدًا بعْدَ واحدٍ فى خَلْعِه — صيَّرَ إلى علىِّ بنِ حمُّودٍ ولايةَ عهْدِه، وأوْصى ٥ إليهِ بالخلافةِ مِنْ بعْدِه، وراسَلَهُ بذلك إلى سَبْتة، أيَّامَ تردُّدِه عليها، بمعْنى الاستمداد، وجَمْعِهِ طوائفَ البرابرةِ للجِهاد؛ وولَّاهُ طَلَبَ ذَحْلِه[1]، واستكْتَمَهُ السرَّ فيه إلى أوانِه، وبُلوغِ زمانِه؛ هائجًا للحَفائظِ القُرشيَّة، ومُحرِّكًا للطَّوائلِ الطالبيَّة؛ فرَماهُم يوْمَئذٍ مِنْ علىٍّ هذا بثالثةِ الأثافى، طوَى كَشْحَهُ منها على مُسْتكِنَّةٍ أرْجَأها لوَقْتِها.

١٠ ومن الاتِّفاقِ الغريبِ علَى سُليمانَ أنه لمَّا استوسق له الأمْرُ بعْدَ فراغِهِ من خَبَرِ هِشامٍ المُؤيَّد، أنْفذَ عزْمَه من بين قُوَّادِ جُيُوشه فى اخْتيارِ علىِّ بنِ حمُّودٍ المذكور، فقدَّمَهُ علَى مَدينةِ سَبْتة، رأْيًا ذَهَلَ عنه، ونبَذَها إلى ضِدٍّ له مُكاشِحٍ شَريكٍ فى الدَّعوى والقَرابةِ؛ فتلقَّفَها علىٌّ تَلقُّفَ الأكْياسِ المُقْبِلين، ودبَّ لمَغْبُونِه سُليمانَ مِنْ قِبَلِها الضَّراءَ دَبِيبَ الحَنِقِ المَوْتُور، حتى هجَمَ ١٥ علَيْهِ وسَلَبهُ مُلْكَه، وحوَّلَ دوْلتَه، ومزَّقَ عِتْرتَه؛ وكانتْ غلطةَ سُليْمانَ الّتى لَمْ يسْتَقِلْها هوَ ولا مَن بعْدَه؛ وإذَا أرادَ اللهُ شيْئًا أمْضاهُ!

قالَ أبو الحسَنِ بنُ بسَّام: وذكرْتُ بمَا اتُّفِقَ فى هذَا الخبَر، ما حكاهُ الرُّواةُ فى حُلولِ الفاقِرةِ أيْضًا بالمُتوكِّلِ جعْفر؛ قالُوا: لمَّا عزَمَ بُغا الصَّغيرُ علَى قتلِ المُتوكِّلِ جعْفرٍ بتدْبيرِ ابْنِهِ المُنْتصِرِ دعَا بباغِرٍ، وهو غُلامٌ تُرْكىٌّ، بعْدَ ٢٠ أن اصْطنَعَه بالصِّلاتِ؛ وكانَ مِقْدامًا أهْوجَ، فقالَ له: ياباغِرُ، أنْتَ تعْلَمُ تقْديمى

---

(١) ب: « دمه »

لكَ ، وأنّى قَدْ صِرْتُ عِنْدَكَ فِي مَنْزِلَة مَنْ لا يُعْصَى لَهُ أمْرٌ ؛ وأُرِيدُ أنْ آمُرَكَ بِشَيْءٍ ، فعَرِّفْنى كَيْفَ إقدامُكَ عليْهِ ! قَالَ : قُلْ ما شِئْتَ فإنّى فاعِلُهُ ! فقَالَ : إنّ ٱبْنِي قَدْ فَسَدَ عَلَيّ وَصَحّ عِنْدِى أنّهُ يُحَاوِلُ سَفْكَ دَمِى ، وأرِيدُ إذَا دَخَلَ عَلَيّ غدًا أن أضَعَ ٱلقَلَنْسُوَةَ من رَأْسِى فى الأَرْضِ ، فإذَا أنا وَضَعْتُها فاقْتُلْه ! قَالَ : نَعَمْ ! فلَمّا دَخَلَ ٱبنُهُ عليْهِ لَمْ يَضَعْ ٱلقَلَنْسُوَةَ مِنْ رَأْسِه ، وظَنّ أنه نَسِيَ ، فغَمَزَه بحاجِبِه ، فلَم يَرَ ٱلعلامَةَ ، وانْصَرَفَ ٱبْنُه . فقال له : إنّى فَكَّرْتُ فِي أنه وَلَدٌ وحَدَثٌ ، وأُرِيدُ أن أستَصْلِحَه . فقال له باغِرٌ : فإنّى قد سَمِعْتُ وأطَعْتُ . ثمّ أمْسَكَ عنه مُدَيْدَةً وقال له : إنّ أخِى فَسَدَ عَلَيّ ، وهو عزَمَ عَلَى أن يَقتُلَنى ويَنْفَرِدَ مَكانِى ، وأحِبُّ أن تُبادِرَ غَدًا إذا دَخَلَ عَلَيّ وتَقتُلَه ! قال : نَعَمْ ! وجَعَلَ له عَلامَةً ، فلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ لَمْ يَرَ العلامَةَ ، ووَقَفَ حتّى خَرَجَ أخُوهُ . فقال له : يا باغِرُ ، هُو أخِى وعَسَى أن أستَصْلِحَه ؛ وههنا امْرُؤٌ هُو أعْظَمُ وأكْبَرُ من هذا كلِّه .

قال له باغر : مَن هو ؟ قال : المُنْتَصِر ، قَدْ صَحّ عِنْدِى أنه عَلَى الإيقاع بى وقَتْلى ، وأُرِيدُ قَتْلَه ! فكيفَ تَرَى نفسَكَ فِى ذلك ؟ فَفَكَّرَ باغِرٌ ساعةً ونَكَسَ رَأْسَه طَوِيلاً . ثمّ قال : هذا أمْرٌ لا يَجِئُ منه شَيْءٌ . قال : وَلِمَ ؟ قال : لا نَقتُلُ الابْنَ وَالأبُ باقٍ ، إذْ لا يَسْتَوِى لَكُم شىءٌ ويَقتُلُكُم أبُوه كُلَّكم . قال : فمَا الرّأْى ؟ قال : نَبْدَأُ بالأبِ ويكونُ أمْرُ الصّبِيّ أيْسَرَ ! قال : وتَفعَلُ هذا وَيْحَكَ ؟ قال : نَعَمْ ! أفعَلُهُ وأدْخُلُ عَلَيه إلى قَتْلِه ؛ وادْخُلْ أنتَ فِى إثْرِى ، فإن قَتَلْتُهُ وإلاّ فاقْتُلْنى أنتَ ، وضَعْ سَيْفَكَ عَلَيّ وَقُلْ : أرادَ أنْ يَقتُلَ مَوْلاه ! فَعَلِمَ بُغا حينئذٍ أنه قاتِلُه ، فتمَكَّنَ له التَّدْبيرُ على المتوَكِّل .

وحدَّثَ البُحْتُرِىُّ الشاعِرُ قال : كُنّا عِندَ المُتوَكّلِ مع النُّدماء ، فتذاكَرْنا أمْرَ السُّيُوف . فقال بَعْضُ مَنْ حَضَر : يا أميرَ المؤمنين ، وقَعَ عِندَ

رَجُلٍ من أهل البَصْرة سَيْفٌ من الهِنْدِ لَيسَ له نظير . فأمَرَ المتوَكّلُ بالكِتَابِ فيهِ إلى عامِلِ البَصْرة ؛ فاتّفَقَ أنِ اشْتُرِىَ بعَشْرةِ آلافِ دِرْهم ؛ فَسُرَّ المتوكّلُ بجَوْدَته ، وانتُضِىَ[1] ؛ فاسْتَحْسَنَهُ المُتوَكّلُ وقال للفَتْحِ بْنِ خاقان : اطْلُبْ لِى غُلاماً تَثِقُ بنَجْدَتِهِ وشجاعتِهِ ، أَدفعْ إليهِ هذا السَّيْفَ ليكونَ وَاقِفًا بهِ عَلَى رأسى كلَّ يَوْمٍ ما دُمْتُ جالسا ! قال : فَلَمْ يَسْتَتِمَّ المتوكّلُ الكَلامَ حتّى دَخَلَ باغِرٌ التُّركىُّ المذْكور ، فدَعَا بهِ المُتوَكّلُ ، ودَفعَ إليهِ ذلك السَّيْف ، وأمَرَهُ بما أرادَ وتقدَّمَ بأنْ يُزادَ فِى مَرْتبتِه . قال البُحْتُرِى : فواللهِ ما أُنْتُضِىَ ذلك السّيْفُ ولا أُخْرِجَ من غِمْدِه مُنْذُ الوقْتِ الذى دُفِعَ إليه إلاّ فِى اللّيلَةِ الّتى ضَرَبَه فيها باغِرٌ بذلك السّيْف[2] !

١٠ رجع الحديث :

قال ابنُ حيّان : فلمّا كانت سنةُ خَمْسٍ وأرْبعمائة طلَع النّبأ على سُلَيمانَ أنَّ مُجاهِدًا العامِرِىَّ أقامَ عَلَيْهِ خَليفَةً رجُلاً يُعْرَفُ بالفَقِيهِ المُعَيْطِىّ ، فاستَعْظَمَ ذلك إلى أنْ بَلَغَهُ نُجُومُ عَلِىِّ بنِ حَمُّود الفاطِمِىِّ بسَبْتَة ، فسُقِطَ فِى يَدَيْهِ ، وتفرَّقَت الظِّباءُ عَلَيْه ؛ وكان على أجَلَّ مِنَ الحَرْشِ . وأخَذَ فى استِدْفاعِ ذلكَ جَهْدَه فلم يُغْنِهِ شيئا ؛ وجاءه علىٌّ فى جُموعه بعد أن اجتَمَع بالمَرِيَّة مع خَيْرَانَ صاحِبِ ١٥ المَرِيَّة وغَيْرِه من الفِتْيان ؛ فَخَرَجَ إليهم سُلَيْمانُ وَاقْتَتَلوا فانْهزَمَ سُلَيْمانُ وَقُبِضَ عَلَيه وَعَلَى أخيهِ وَأبيهِ وَسِيقوا أُسارَى إلى علىِّ بنِ حَمُّودٍ . ودَخَلَ القصرَ وخَيْرانُ يَطْمَعُ أنْ يَجِدَ هِشامًا المؤيَّدَ حيًّا ، فلَمْ يُوجَد وَذُكِرَ أنه قُتِلَ وَعُرِضَ عليه قَبْرُه .

(١) ر : « وسيق وانتضى »

(٢) هذه القصة مذكورة بنصها فى « مروج الذهب » للمسعودى (طبعة باريس : ج ٧ ص ٢٦٥ — ٢٦٩)

فأمرَ عليٌّ بنبْشِهِ ، فأُخْرِجَ الشَّخْصُ ، وشُهِدَ أنه هِشَامٌ ، وسُلَيْمانُ يتبرَّأ من دَمِه ، وما كانَ فى جَسَده شىءٌ من أثَرِ السِّلاح ، فتوهَّمَ فيه الخَنْق ، وأمرَ عليٌّ بتجهيزِه إلى أهْلِه ، وأَنْذرَ طبقاتُ النّاسِ للصَّلاةِ عليه ؛ فدُفِنَ لزيقَ أبيهِ الحَكَمِ . ثمَّ دعَا عليٌّ بسُلَيْمانَ وذَوِيهِ فضَرَبَ عُنُقَهُ بيدِهِ وظَهَرَ منه جزَعٌ شديدٌ عند ملاحظتِهِ السَّيْفَ ، خارَتْ منْهُ قُواهُ ، فجَثا على رُكْبَتَيْه ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُ الشيخِ أبيهِ وعُنُقُ عبدِ الرحمنِ ابْنِهِ . وجُعِلَتْ الرُّءوسُ الثَّلاثةُ فى طَسْتٍ ، وأُخْرِجَتْ منَ القَصْرِ إلى المَحَلَّة يُنادَى عليها : هذا جزاءُ مَن قتَلَ هِشامًا المُؤيَّد ! ثمَّ رُدَّت الرُّءوسُ الثلاثةُ ونُظِّفَتْ وطُيِّبَت ؛ وقَدْ كانَتْ جُمِعَتْ رُءوسُ رُؤَساءِ منَ البرابرةِ المقْتولينَ فى الوَقْعَةِ فى قُفَّةٍ ، وجُعِلَ رَأْسُ أحمدَ بنِ الدُّبِّ فى أعْلاها ، وعُلِّقَتْ فى آذانِهم رِقاعٌ بأسْمائِهم . وكَانت فى المَحَلَّةِ تُحْمَلُ من مَضْرِبِ قائدٍ إلى مَضْرِبِ سِواه[1] . وعَجِبَ الناسُ من اجتماعِ رءوسِ مَن ضاقت أرضُ الأَنْدَلُسِ برحْبِها عنها ، وشَمِلَها شرُّها وأذاها طُرًّا فى قُفَّةٍ ضَيِّقَةٍ والأمْرُ لله !

وحُكِىَ أنَّ والدَ سُلَيْمانَ حين عايَنَ قتْلَ ابنَيْهِ بَيْنَ يدَيْه قالَ لهُ عليٌّ : أهكذا يا شَيْخُ قتَلْتُم هِشامًا ؟ قال : لا واللهِ ما قتلْناه وإنّه لَحَىٌّ يُرْزَق ! فحينئذٍ عَجَّلَ علىٌّ بقَتْلِ الشَّيْخ ، وكانَ رحمَهُ اللهُ تقيًّا صالحًا لم يَتَشَبَّثْ بشىء من أمْرِ ابنِهِ .

وكَانَ هِشامٌ يقولُ برُموزِ المَلاحِمِ وكُتُبِ الحَدَثانِ ، وخامَرَ نفْسَه مِنْ ذِكْرِ قائمٍ بسَبتة أوَّلُ اسْمِهِ عَيْنٌ ما لا شىءَ يزيلُه ، ولم يزل مُرْتَقِبًا لظُهوره ؛ فلذلكَ ما كاتبَ عَلِىَّ بنَ حَمُّود لِرَفْعِ بَيْتِهِ ، وبُعْدِ صِيتِه ؛ فكانَ منْه فى أخْذِه بثأْرِه بعْدَ موته ما كان . فإنْ كان كذلكَ ، فهِشامٌ علَى مَشهورِ عَجْزِه أحَدُ كائدى

(١) ز بعد كلمة « سواه » فى ب ، لب : « ومشورة »

الْأَعْداء بغيره من مَنكوبى الْمُلوكِ بما لا شىء فوْقَه ، فما أَدْرَكَ فيه بَعد هَلاكِه بوِتْرِه وَاستَقادَ بِدَمِه وَسَطا بعدُوِّه ! انتهى ما لخَّصْتُه من خَبَرِه مَعَ ابنِ حَمُّود .

فَصْلٌ — قال ابنُ حيَّان : وَأَمَّا حَرْبُه مع المَهْدِىِّ ، فإنّه لما اسْتَوْسَقَ الأمرُ لسُلَيْمانَ حَسْبَما تقدَّم ، وَتَابَعَتْه البَرابِرَة ، اجتمَعُوا لِحَرْبِ قُرْطُبَة ، فنزَلُوا فِى سَفْحِ الجَبَلِ بها وبشَرْقِيِّها يومَ الخَميسِ الحادِىَ عَشَرَ من ربيع الأوّل سنة أَرْبَعمائة . وقد كان واضِحٌ الفتَى وافاها قبْلَهم بيومَيْن فِى أَجْنادِه من رِجالِ الثَّغْر ؛ فقلّدَه المَهْدىُّ أَمْرَ الحَرْبِ ، واحتَشَدَ الناسُ من الكُورِ والبادية ، فعَسْكَروا فِى جُموعٍ لم يُحْصِها إلا خالِقُهم . فتدانَى الزَّحْفانِ يوْمَ السَّبتِ الثالثَ عَشَرَ من رَبيعٍ المُؤرَّخ ، فتَسَرَّعَ إليهم أَهْلُ قُرْطُبَة ، وخالَفُوا واضِحًا فى تَدبيرِ حَرْبِهم ، فاستَجرَّتْهُم البَرابِرَةُ ، حتَّى إذا تمكَّنُوا منهم عَطَفوا عليهم ، فانكَشفُوا عنهم انكشافًا ما سُمِعَ بمِثْله ، وَانْهزَمُوا إلى مَنازِلهم وتَشَعَّبَتْ الطُّرُقُ بهم . وعاد تَضَيُّقُ مسالِكَ كانُوا أعدُّوها لعدُوِّهم سِدادًا دونهم ، فازْدَحَموا وتَناشَبُوا وَقتَل بَعْضُهم بَعْضا . ووَضَع البَرابِرَةُ والنصارَى السُّيُوفَ عليهم ؛ فَقُتِلَ فِى هذه الوَقْعَةِ عالَمٌ ، وأَبادُوا أُمَّةً . وهِىَ وَقْعَةُ قَنْتِيشَ المشهورةُ بالأَنْدَلُسِ التى قطَعَ المَقالُ عَلَى أنّه قُتِل فيها عَشَرَةُ آلافِ قَتيل وأَزْيَد . واللهُ أَعْلَم !

ومالَ[1] النصارَى يَوْمَئذٍ عَلَى المُنهزِمينَ من المسلمين ، فَقَتَلوا منهم فِى صَعيدٍ واحدٍ نَيِّفًا عَلَى ثَلاثَةِ آلافِ رَجُل . وَخَرَجَ الْأَمْرُ عن يَدِ وَاضِحٍ فلم يَثْبُتْ أحدٌ مِمَّنْ كانَ معه ، وَلا كَرَّ فِى تلك الوَقْعةِ عامِّىٌّ وَلا خاصِّىٌّ . وكان أَمْرُه عَجَبًا ، وَنَادَى واضِحٌ بشِعاره ، فاجْتمَعَ إليه رِجالُه وثَبَتَ إلى أن أَجنَّه اللَّيْل ، وَاتَّخَذَهُ

(١) ب ، لب « وأمال »

جَمَلاً (١) ، وَسارَ عَنْ قُرْطُبَةَ هارِبًا إلى الثَّغر . وَانبَسَطَ البَرْبَرُ يومئذٍ فِى أَرْضِ قُرْطُبَةَ يَقتُلون ويأسِرُون .

قال ابنُ حيَّان : وَأُصيب فِى تلكَ الوَقْعةِ من المُؤَدِّبين خاصَّةً نَيِّفٌ عَلَى سِتِّين ، أُعرِيَتْ سَقائِفُهُم (٢) فِى غَداةٍ وَاحِدةٍ منهم ، وَتَعَطَّلَ صِبْيانُهم لعَدَمِهم . وأُصيب فيها زَرْبُوطُ الطنبوريُّ ، وأقام الطُّنبوريُّون أصْحابُه عليه مَأْتَمًا مشهوراً بعد الحادثة . وَهَلَكَ فِى تلكَ الوَقْعةِ أَخْلاطٌ من الناس . وكان بعضُ الظرفاءِ يقول : مِن كُلِّ طَبقةٍ أَخَذتْ وَقْعةُ قَنْتِيشَ حتَّى من أَهْلِ الباطِلِ ؛ فإنها أَلْصَقَتْ بالصَّميمِ فِى قتل قَنْبُوط المُلْهِى ، وَزَرْبُوط المُغَنِّى وَنَمَطِهِما ، فَهَيْهاتَ أن يُخْلِفَ (٣) الدَّهرُ مثلَهما !

وكان المَهْدىُّ ، إذ دَخَلَ قُرْطُبَةَ مُنْتَصَفَ جُمادى الآخِرةِ سنة تِسْعٍ وتسعين وثلاثمائة وَقتَلَ عبدَ الرحمن بْنَ أبِى عامرٍ ، أَظْهَرَ مَوتَ هِشامٍ المؤيَّد فِى رَمَضانَ من العام ، وَوَرَّى الشَّخصَ الذى مَوَّهَ به وَقَسَمَ تُراثَه . فلما كان غداةُ الأَحَدِ ثانِىَ وَقْعةِ قَنْتِيشَ ، أَظْهَرَ المَهْدىُّ هشامًا المؤيَّدَ رَجاءَ أن يَسْتَمِيلَ البَرابِرَةَ به ، لِمَا كانوا يُكثِرون من التَّرَحُّمِ عَلَيه والطَّلَبِ بِدَمه ؛ فأَبْرَزَه (٤) للنَّاسِ وَعَجِبوا من ذلك ، فقال له البَرْبَرُ : اللهُ مَحْمُودٌ عَلَى سَلامتِه ، وَنَحْنُ فلا حاجةَ لنَا فِى إمامتِه ؛ وَلاَ نَرْضَى بغَيْرِ سُلَيْمانَ ! فلمَّا سَمِعَ المَهْدىُّ ذلك ، خَرَجَ فِى اللَّيل عن القصر ، وَتَطَمَّرَ بقُرْطُبَةَ إلى أَنْ لَحِقَ بطُلَيْطُلَة ، وَدَعا الناسَ إلى القيامِ بنُصرَتِه ؛ فَجَمَعَ له وَاضِحٌ عَساكِرَ الإفْرَنْجَةِ وأهلَ الثُّغُورِ ؛ وَجاءَهم مَعَ واضِحٍ إلى قُرْطُبَةَ ؛ فبَرَزَ إليه

(١) ـه فى ب (٢) ب ، ر : « سلائحهم »

(٣) ـه فى ر (٤) ر : « فأظهرهم »

سُلَيْمانُ ، وَالْتَقَى الْجَمْعانِ يومَ الجُمُعَةِ فى شوّال من العام ؛ فانْهَزَمَ سُلَيْمانُ ؛ فَدَخَل المَهْدِىُّ قُرْطُبَةَ وَبُويِعَ له بِهَا ، وَتَرَدَّدَ عليه البَرْبَرُ يُحارِبُونَه ، فَشَرَعَ فِى حَفْرِ الخَنْدَقِ حوْلَ قُرْطُبَة ، وَأَلْزَمَ أهْلَها القيامَ بأمْرِه ؛ فاشتَدَّتْ الكُلْفَةُ عليهم . وَدَبَّرَ وَاضِحٌ مَعَ المَوالِى العامِرِيِّينَ الغَدْرَ بالمَهْدِىِّ ، وَشَغَبُوا عَلَيه فى ذى الحِجَّة

٥ من العام ؛ وأخرجوا هِشاماً المُؤَيَّد من مَحْبِسِهِ بالقَصْر ، وَأَجْلَسُوه للخلافة بالسَّطْح ونادَوْا بِشِعارِه ، وضَرَبوا عُنُقَ المَهْدِىِّ بَيْنَ يَدَيْه ، وأَلْقَوْا جَسَدَهُ مِن أعْلَى السَّطْح ، وَرَفَعُوا رَأْسَه على قَناةٍ طِيفَ بها البَلَدُ كُلُّه ، وقُطِعَتْ يَدُه ورِجْلُه . وعاد هِشامٌ المُؤَيَّدُ إلى الخلافة ، وجُدِّدَتْ له البَيْعةُ ، واستَحْجَبَ وَاضِحًا الْفَتَى ، واستَوْلَى عَلَى تَدْبيرِ الأُمورِ ، وَأَرْسَلَ بِرَأْسِ المَهْدِىِّ إلى عَسْكَرِ سُلَيْمانَ عَلَى مُعاوَدَةِ

١٠ طاعَةِ هِشامٍ ، وقد رَجا استِمالَتَهُم به فأبَوْا ذلك ، وَأَغْلَظَ سُلَيْمانُ عَلَى رُسُلِه ، وأرادَ قَتْلَهُم ، وأظْهَرَ الجزَعَ عَلَى ابنِ عَمِّهِ المَهْدِىِّ ، وبَكَى عليه[1] ، وأَمَرَ بِتَنْظِيفِ الرَّأْس ، وأنفَذَهُ إلى طُلَيْطُلَة ، إلى وَلَدِ المَهْدِىِّ عُبَيْدِ الله ؛ فَأَعْظَمَ قَتْلَ أبيهِ ودفَعَ بَيْعَةَ هِشامٍ . وكان بِعَسْكَرِ سُلَيْمانَ عَبدُ الرحمن بنُ مَتّيوه[2] ، فَلَمَّا بَلَغَه مَهْلِكُ المَهْدِىِّ بن عَبدِ الجَبّار عَدُوِّه ، كاتَبَ واضِحًا وتَوَثَّقَ له ، فَهَرَب

١٥ إلى قُرْطُبَة ، فدَبَّرَ أَمْرَ هِشامٍ مُدَّةً بعدَ قَتْلِ وَاضِحٍ وعلىِّ بنِ وَداعَةَ فى أخبارٍ طَوِيلَةٍ ، إلى أنْ ضَعُفَ أَمْرُ هِشامٍ . ودَخَلَ عَلَيه سُلَيْمانُ دَوْلَتَه الأخيرة ، ودَبَّرَ قُرْطُبَة ، إلى أن وَقَعَ له مع علىِّ بنِ حَمُّودٍ ما وَصَفْناهُ . انتهى ما لَخَّصْتُه مِن كَلامِ ابنِ حَيّان .

قال أبو الحَسَنِ بنُ بَسّامٍ : وكان سُلَيمان مِمَّن مُدَّتْ له فى الأدَب غاية ،

---

(١) [illegible] (٢) ب : « مهوه » — لب : « منهوه » — ر : « منيرة » والتصحيح عن ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » (ص ٢٠٤)

كَفَى دُونَها أهْلَ الآداب ، وَرُفِعَتْ له فى الشِّعْرِ رَاية ، مَشَى تَحْتَها كَثيرٌ من الشعَراء وَالكُتَّاب ؛ غَيْرَ أَنَّ أَيَّامَ الفُتُونِ أَلْوَتْ بذكْره ، وَأَيْدِى تلك الحَربِ الزَّبُونِ طَوَتْ بجُمْلَةِ شِعرِه ! وهو أَحَدُ مَن شَرُفَ الشِّعْرُ باسمِه ، وَتصرَّفَ عَلَى حُكْمِه ؛ مع قُعُودِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ يَوْمَئِذٍ عن البَحْثِ عن مَنَاقِبِ عُظَمَائِهم ، وَزُهْدِهِم فى الإشادةِ بمَراتِبِ زُعَمائِهم[1] . ولم أظْفَرْ له[2] إلاَّ بِقِطْعَةٍ عَارَضَ بها هارونَ الرَّشيد فَتَشَعْشَعَتْ بها الكُئُوس ، وَتهادَتْها الأَنْفَاسُ والنُّفُوس . وَقد أَثْبَتُّ القِطْعَتَينِ معاً لِيُرَى الفَرْق ، ويُعرَفَ الحَقّ . قال هارُونُ الرَّشيد :

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عِنَانِى ... وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِى بِكُلِّ مَكَانِ
مَا لِى تُطاوِعُنِى البَرِيَّةُ كُلُّها ... وأُطِيعُهُنَّ ، وَهُنَّ فِى عِصْيَانِى !
مَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ سُلْطَانَ الهَوَى ... — وَبِهِ قَوِينَ — أَعزُّ مِنْ سُلْطانِى[3]

فقال سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ :

عَجَبًا ! يهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِى ... وَأَهابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ الأَجْفَانِ
فَأُقَارِعُ الأَهْوالَ[4] لاَ مُتَهَيِّبًا ... مِنْها سوى الإعْرَاضِ والهِجْرانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِى ثَلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوُجُوهِ نَوَاعِمُ الأَبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ الظَّلْماءِ لُحْنَ لِناظِرِى[5] ... مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَى كُثْبانِ
هَذِى الهِلالُ ، وَتِلْكَ بِنْتُ المُشْتَرِى ... حُسْنًا ، وَهَذِى أُخْتُ غُصْنِ البَانِ
حَاكَمْتُ فِيهِنَّ السُّلُوَّ إِلَى الصِّبَا ... فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِى
فَأَبَحْنَ مِنْ قَلْبِى الحِمَى وَتَرَكْنَنِى ... فِى عِزِّ مُلْكِى كَالأَسِيرِ العَانِى

(١) يوجد تقديم وتأخير فى هذه الجمل فى ب ، لب — ز فى ب ، لب : « عفى على كثير من جلالة قدره » (٢) ز فى ر : « حين نقل هـذه النسخة المفردة من هذا المجموع فى وقتى المؤرخ » (٣) هذه الأبيات منسوبة أيضاً إلى العباس بن الأحنف ، راجع ديوانه (س ١٦٢) (٤) ر : « الأبطال » (٥) ب : « لناظر »

لا تَعْـذِلُوا مَلِكاً تذلّلَ لِلهوى ... ذُلُّ الهوى عِـزٌّ ومُلْكٌ ثانِى
ما ضَرَّ أنّى عَبْدُهُنَّ صَبابةً ... وبَنُو الزَّمانِ وَهُنَّ من عُبْدانِى
إنْ لمْ أُطِعْ فِيهِنَّ سُلْطانَ الهوى ... كَلَفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوانِ (١)

فَصْلٌ فِى ذِكْرِ المُسْتَظْهِرِ باللهِ أبى المُطَرِّف عَبدِ الرحمٰن ابْنِ هِشامِ بنِ عَبْدِ الجَبّارِ النّاصِرِىّ ، وشَرْحِ مَقْتَلِه ، وإيرادِ جُمْلةٍ مِنْ أشْعارِه ، مع ما يَتعلّقُ بها ويَنْخَرِطُ فِى سِلْكِها من مُسْتَطْرَفِ أخبارِه

٥

قال أبو الحسن : نَقَلْتُ من خَطِّ أبى مَرْوانَ بن حَيّانَ قال : كان عبدُ الرحمٰن هذا لَبِقاً ذَكِيّا ، وأديبًا لَوْذَعِيًّا ؛ لم يكُنْ فِى بَيْتِهِ يَوْمَئِذٍ أبْرَعُ منه مَنزِلةً ، وكان قد نقَلَتْه المَخاوِفُ ، وتقاذفتْ بهِ الأسفار ، فتحنّكَ وتخرّجَ وتمرّنَ فيها ، وكادَ يَسْتَوْلِى عَلَى الأمرِ لو أنّ المَنايا (٢) أنسأَتْه . وكان عاد إلى قُرْطُبَةَ بعد تَجْوالِه ؛ فدخَلَها مُسْتَخْفِيًا أيّامَ القاسمِ بنِ حَمُّود ، وقد اضطرَبَ سُلْطانُه بها ؛ فشاهَدَ الفِتْنةَ الحادِثةَ بين البَرابِرةِ وأهْلِها ، وهمَّ فيها بالوُثُوبِ ، وبَثَّ دُعاتَهُ إلى أهْلِها . فلم يَصِحَّ له شىءٌ مِمّا أرادَه ، وأنكر الوُزَراءُ المُدبّرُونَ قُرْطُبَةَ أمرَهُ ؛ فتجرّدوا (٣) لِطَلَبِه وطُلِبَتْ دُعاتُه ، وسُجِنُوا ولم يُخْرِجُوا من

١٠

١٥

(١) ترتيب البيتين الآخيرن معكوس فى ر

(٢) ب ، لب « الليالى » (٣) ب : « فتجددوا »

الحَبْس إلاّ يَوْمَ جُلوسِ صاحبهم عبدِ الرَّحمٰنِ هذا للإمارة ؛ فبَقِىَ مُسْتَخْفيا ، وهو يُدِبُّ الضَّرَّاءَ فى الدُّعاءِ إلى نفسه ، إلى أن أَعْلَقوهُ بالشُّورى عِنْدَ إيقاعها فى ذلكَ الوَقْتِ لظهُورِ بَراعتـهِ ، وأَجْمَعُوا عليه وعَلَى سُليمانَ بنِ المُرْتَضى ، وَعَلَى محمّدِ ابنِ العِراقىِّ . فتُقُدِّمَ فى إحضارِ الخاصَّة(١) والجُندِ والعامَّةِ بالمسجد الجامع لِمُشاهَدَةِ بيْعةِ مَن يُخْتارُ من هؤلاء الثّلاثة الأُمَراء للخلافة ، فغَدَا النّاسُ لذلكَ على طبقاتِهم . ٥

قال ابنُ حيّان : وكُنتُ فيمَنْ حضَرَ المَقْصُورة يَوْمَئِذٍ فكان أَوّلُ مَن وافَى منهم سُليمانَ بنَ المُرْتَضى ، جاء مع عبدِ الله بنِ مُخَامِس الوزيرِ فى أُبَّهةٍ وشارَةٍ دلَّتْ على المُرادِ فيه ؛ فدخَلَ من بابِ الوُزراءِ الغَرْبىِّ والسُّرُورُ بادٍ عَلَيْه ، فاستقْبلَه أَصْحابُه وقَدَّمُوهُ إلى بهْوِ السّاباطِ ؛ فأُجلِسَ هُنالكَ عَلَى مَرْتَبةٍ لا تَصْلُحُ لأحدٍ سِواه ، وهو بَهِجٌ جَذْلانُ ، لا يَشُكُّ فى تَمامِ الأمرِ له ، وأَصْحابُه يرتقبُونَ مجىءَ ابْنَىْ عَمِّهِ المذكُورَيْنِ — وقد أبْطآ — كَيْما يُحَصِّلُوهُما عنده . فبَيْنا نَحْنُ عَلَى ذلِك ، والقلقُ عَلَى القَوْمِ بادٍ ، إذْ غَشِيَتْنا ضَجَّةٌ وزَعْقةٌ هائلةٌ ارْتَجَّ لها الجامعُ واضْطرَبَ لها مَنْ بالمَقْصُورَة . فإذا عبدُ الرحمٰنِ بنُ هِشامٍ قدْ وافَى شَرْقِىَّ الجامعِ(٢) ، فى خَلْقٍ عظيمٍ من الجُنْدِ والعامَّةِ ، وقد تكنَّفه أميرا الدائرةِ محمودٌ وعُمَيرٌ فى رِجالِهما ، شاهِرَيْنِ سَيْفَيْهما أمامَه ، لَهِجَيْنِ(٣) باسمه ؛ فراعَ الوُزَراءَ ذلك وأَلْقَوْا لِلْوَقْتِ بأيْديهم وخَذَلَتْهم حِيَلُهم ، ودخَلَ المَقْصُورَةَ عبدُ الرحمٰنِ فبُويِعَ لِوَقْتِه . واسْتُدْعِى سُليمانُ بنُ المرتَضى وجِىءَ به مَبْهوتاً فقَبَّلَ يَدَه ، وَهَنَّأَه فأجْلسه إلى جَنْبِهِ ، ثمَّ وافَى مُحَمَّدُ بنُ العِراقىِّ أيضاً فقبَّلَ يدَه وبايعَه ، ثمَّ عُقِدَتْ له البَيْعةُ ، وذلك اليومَ الرابعَ من شَهْرِ رَمَضانَ سنة أربعَ عشْرةَ وأربعمائة . ١٠ ١٥ ٢٠

---

(١) ر : « الجماعة » (٢) يه فى ر (٣) ب ، لب : « هاتفين »

وكان أحمدُ بنُ بُرْدٍ قد تقدَّمَ في عَقْدِها باسمِ سُليمانَ بنِ المُرتَضى فبَشَرَهُ وَحكَّ اسْمَه، وكَتَبَ اسْمَ عبدِ الرحمنِ مكانَه، فكان ذلك من عجائبِ الدُّنيا.

ثمّ رَكِبَ وَحَمَلَ مع نفسه ابنَيْ عَمِّهِ سُليمانَ وابنَ العراقِ فاحْتَبَسَهما عنده وآنَسَهما وظَهَرَتْ من عبدِ الرحمنِ لوقْتِه عَرامةٌ[1]. وكان فتًى لو أخطأَتْه

٥ المَتالِفُ. وكان استقلَّ بما طَلَبَه من السُّلطانِ جُرْأةً وصَرامةً، ورَكِبَ أعناقَ الخُطُوبِ وقد اعْتاصَتْ فأرْدَتْه. وكانَ رَفَعَ مَقاديرَ مَشْيَخَةِ الوُزَراءِ من بَقايا مَواليهِ بَني مَرْوَان، منهم أحمدُ بنُ بُرْد وجماعةٌ من الأغْمارِ، وكانوا عصابةً يَحُلُّ بها المَتاءُ، ويَذْهَبُ بها العُجْبُ؛ قدَّمهم على سائرِ رجالِه فأحْقَدَ بهم أهْلَ السِّياسة، فانقَضَتْ دولَتُه سَريعاً؛ منهم أبو عامرِ بنُ شُهَيْد فتى الطَّوائف،

١٠ كانَ بقُرطُبَةَ في رِقَّتِه وبَراعتِه وظَرْفِه خَليعَها المُنْهمِكَ في بَطالتِه، وأعْجَبَ الناسِ تَفاوُتاً ما بَيْنَ قَوْلِه وفِعْلِه، وأحطَّهُم في هَوى نَفْسه، وأهْتَكَهم لعِرْضِه، وأجرأهم على خالقِه. ومنهم أبو محمّدٍ بنُ حَزْم، وعبدُ الوهّابِ ابنُ عمِّه، وكلاهما من أكْمَلِ فِتْيانِ الزَّمانِ فَهْماً ومَعْرفةً ونَفاذاً في العُلومِ الرَّفيعة.

وأقرَّ المُسْتَظهِرُ يومئذ على مَراتبِ الخِدْمةِ طوائفَ: منهم خِدْمةُ المدينتَيْنِ

١٥ الزَّهْراءِ والزّاهرةِ، وخِدْمةُ كتابةِ التعقُّبِ والمُحاسبةِ، وخِدْمةُ الحَشَمِ، وخِدْمةُ القُطْعِ بالنّاضِّ والطَّعامِ[2]، وخِدْمةُ مَواريثِ[3] الخاصّةِ، وخِدْمةُ الطِّرازِ، وخِدْمةُ المَباني، وخِدْمةُ الأسْلحةِ وما يَجْرى مَجْراها، وخِدْمةُ الخِزانةِ للقَبْضِ والنَّفَقةِ، وخِدْمةُ الهِرايةِ والقَبْضِ والدَّفْعِ، وخِدْمةُ الوَثائقِ ورَفْعِ كُتُبِ المَظالِمِ، وخِدْمةُ خِزانةِ الطِّبِّ والحِكْمةِ، وخِدْمةُ الأنْزالِ والنُّزّالِ. وخِدْمةُ

٢٠ أحْكامِ السُّوقِ.

---

(١) ﺑ: «صرامة» (٢) ليس في ﺑ (٣) ﺑ: «مراتب»

قال أبو الحسن : ولكلّ لقبٍ من أصناف[1] هذه الخدمةِ جماعاتٌ سمّاهم أبو مروانَ بنُ حيّان فى كتابه . ثمّ قال : وهذا زُخْرُفٌ من التّسْطيرِ وُضع على غيرِ حاصلٍ ، ومراتبُ نُصبتْ لغيرِ طائلٍ ، تنافسها طالبُوها يومئذٍ بالأمل فلم يحلَوْا[2] منها بنائل ؛ ولا قبضُوا منها مُرتزقا ، ولا نالوا بها مُرتفقا ؛ وغرّهم بارقُ الطّمعِ وسْطَ بلدٍ محصورٍ ، وعملٍ معصوبٍ ، وخرابٍ مُستوْلٍ ، ومع سُلطانٍ ٥ فقيرٍ ، لا يقعُ بيدِه درهمٌ إلاّ مِن صُبابةِ مُستغلٍّ جوْفَ المدينةِ ، أو نهْبِ مغلولٍ ممّن تقلْقل عنها ؛ يُقيمُ منها رمَقَه ، ويُفرّق جُملته على مَن تكنّفَهُ من جُنْدِه ودائرته ، ويتطرّقُ إلى ما يقبحُ مِنْ ظُلْمِ رعيّته ؛ فلم يلبث الأمرُ أن تفرّى به فسُفكَ دمُه ، وانحسم الأملُ مِنْ دوْلتِه . وكانَ قد بادرَ فى الإرْسالِ عن جماعةٍ من وُزرائه ، فلمّا حصَل جميعُهم عندَه قبَض عليهم وصادرَهم على أموالٍ لِضُرٍّ وفهم ١٠ عنه ، وطالبَهم بجاحٍ الضّاغطُ يومئذٍ عنها . وكان قد استرْجحه خاصّةُ النّاسِ وذوُو الحِجا منهم فى القبْضِ على هؤلاءِ الوُزراء ، واستبطئوا إبادتَه لهم ورجَوْا استظهارَه على الأمرِ بإزالتهم ، وسلامةَ تدبيرِه من اعتراضِهم ، وكان قد أخرَج رُسُلَه إلى جماعة الرُّؤساءِ بالأندلس يلتمس البيْعةَ ، ويسْتنْفرُ الكافّةَ ، ويدعُو إلى كرّةِ الدّوْلةِ ؛ فأخفقَ ما طلبَهُ وعُوجلَ ، ولما تقبْض الأجوبةَ رُسُلُه ، واضمحلّ أمرُه ، ١٥ والبقاءُ لله وَحْدَه !

وكان أيضاً ممّا حرّكَ الناسَ عليه استهدافُه إلى أهْلِ بيتِه مِن وَلَدِ النّاصِر ، ومُبادرتُه لِحَبْسِ سُليمانَ بنِ المُرْتضى وابنِ العراقىِّ المذْكُوريْن ، وتجاوُزُهما إلى نفرٍ غيرِهما اعتقلَ بعْضًا وطلبَ بعْضًا ، حتّى شملهمُ الخوْفُ ؛ فبعثَ اللهُ عليه من جُرْأةِ صاحبِه بكْرِ بنِ محمد بنِ المشّاطِ الرُّعَيْنىِّ داهيةً أدْنتْهُ من حِمامِه ، وسعَى ٢٠

(١) ر : « أنواع » (٢) ر : « يخلوا »

إلى أنْ وَثَبَ عليه محمدُ بنُ عبدِ الرحمن المستكفى ، وأحسَّ المستظهرُ بشىء من ذلك فطلبه ، فأعجزه ؛ ولم يزل السّعىُ عليه حتى قُتل .

ذِكرُ الخبرِ عن كيفيةِ مقتله

قال ابنُ حيّان : وكان سببَ ذلك أنّ حسنَ رأيه فى ابنِ عمرانَ — أحدِ الرّهطِ الذين كان سجنَهم — فأخرجَه ، فقال له بعضُ أصحابه : إنْ مَشى ابنُ عمرانَ فى غيرِ سجنِك باعًا ، بَتَرَ[1] من عُمرِك عامًا ! فعصاهُ المستظهرُ فيه لِغالبِ هواه ، فحاقَ به فى الثالثِ رَداه ؛ وكان وَرَدَ عليه قبلَ إطلاقِه بيومَين فوارسُ من البربرِ ، فكرَّمَ مثواهم وأنزلَهم معه فى دارِ المُلك ، فاهتاجَ لذلك الدّائرةُ وقالوا للعامّةِ : نحنُ الذين قهرْنا البرابرةَ وطردْناهم عن قرطبةَ ، وهذا الرّجلُ يسعى فى رَدِّهم إلينا ، وتمكينِهم من نَواصينا ؛ فهاجُوا العامّةَ ، فوثبُوا عليه بالقصر ، وقُتلَ البرابرةُ حيثُ وُجدوا . ولم يشعُر عبدُ الرحمن إلاّ والرَّجّالةُ قد انتشَروا على سقفِ القصر ، وسمع المسجونون عندَه هُتافَ النّاسِ فاستغاثُوهم ، فدَقّوا الأغلاق[2] دُونَهم ، واختلطَ بالحرَم ؛ فعلِم عبدُ الرحمنِ أنّهُ مقتولٌ . وأُحيطَ به من كلّ جهةٍ ؛ فاستغاثَ الوُزراء : ابنَ جهْوَر ولُمَّتَهُ ، فلم يجدُوا له مَناصاً ولا خلاصاً ، ولا يُصدّقون بنجاةِ أنفُسِهم وقد ذهِلُوا عنه بالحيلة فى تخليصِهم ؛ فأشارَ عليهمُ الدّائرةُ الفسقةُ بتركِه ، والذّهابِ عنهُ ؛ فجعلَ الوزراء يتسلّلون عنْه واحدًا بعد واحدٍ إلى أن أفردُوه . فنجا عامّةُ مَنْ تعجّلَ الفرارَ من الوُزراء وأهلِ الخِدْمةِ على باب الحَمّام من القصرِ فاهتدَى إليه الدّائرة ، وأحلّوا بمَنْ خرجَ منه الفاقِرة ؛ منهم أحمدُ بنُ بسيلٍ مُتقلّدُ المدينة ، قُتلَ يومئذ . وجاء عبدُ الرحمن إلى ذلك الباب

(١) ب : « نتر » (٢) ر : « الأغلال »

يَطْمَعُ فى الخروج ؛ فقام الدائرةُ فى وَجْهِهِ وزرقوهُ وهم يسبُّونه ؛ فارْتدَّ على عقبه ، وترجّل عن فرسه ، وتجرّد من ثيابه ، حتّى بقِىَ فى قميصِهِ ؛ واستخفى فى أبْزَن[1] الحمّام ، ففُقِدَ شخصُه ؛ واستخفى البرابرةُ فى الحمّامِ وفى أكنافِ القصرِ فبُحِثَ عنهم وقُتِلوا . ولاذَ منهم طائفةٌ بالجامعِ فقُتِلوا فيه ؛ وفُضِحَ حريمُ عبدِ الرحمنِ وسَبَى أكثرَهُنَّ الدائرةُ وحملوهُنَّ إلى منازلِهِمْ علانيةً . وجرى عليهن ما لمْ يَجْرِ على حُرَمِ سُلطانٍ فى مُدَّةِ تلكَ الفتنةِ .

قال : ولما فُقِدَ شَخْصُ عبدِ الرحمنِ ظَهَرَ ابنُ عمِّه محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ بنِ الناصِرِ السَّاعى عليه فى المكانِ الذى كان مُتطمِّرًا[2] فيه فهتفَ الدائرةُ باسمه ، وانتهَوْا به إلى دارِ المُلْكِ ، فإذا هى بَلاقِعُ ؛ فأجلسُوه فى مجلسِها القِبْلِيِّ مبهوتًا[3] . وقامَ الفاسِقانِ[4] محمودٌ وعُمَيْرٌ على رأسِه بالسيوفِ مَقامَهما بالأمسِ على رأسِ عبدِ الرحمنِ ابنِ عمِّه وتكاثرتْ الدائرةُ والعامّةُ عليه . وافتَقَدَ عبدُ الرحمنِ المستظهِرُ فوجدُوهُ فى أبْزَنِ[5] الحمّام قد انطوى انطواءَ الحيّةِ فى مكانٍ حَرِجٍ ، فأُخْرِجَ فى قميصٍ مُسْوَدٍّ بحالٍ قبيحةٍ ؛ وجِىءَ به إلى محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ المستكفى وقد بُويِعَ يومَ السبتِ الثالثِ من ذى قعدة سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة[6] ؛ فبطشَ به بعضُ الرجّالةِ القائمين على رأسِه ، فتهلَّلَ وجهُ ابنِ عمِّه ، وأخذَ فى تدبيرِ سُلطانِه . فكانت إمارةُ المستظهِرِ — إلى أن قُتِلَ — سبعةً وأربعين يومًا لم تنتشِرْ له فيها طاعة ، ولا التأمتْ عليه جماعة ؛ ولا تجاوزتْ دعوتُه قُرْطُبَةَ . وكان سِنُّه يومَ قُتِلَ ثلاثًا وعشرين سنة .

---

(١) ب ، لب : « أتون » (٢) ر : « مختفيا » (٣) ب : « مهوبا »

(٤) ر : « الدائران » (٥) ب ، لب : « أتون »

(٦) لم تقع هذه الجملة إلا فى ر

وكان على حداثةِ سِنّه ذَكِيًّا يَقِظًا لَبِيبًا أديبًا حسَنَ الكلامِ جَيِّدَ القريحةِ مليحَ البلاغةِ يتصرّفُ فيما شاءهُ من الخطابةِ بديهةً ورويّةً ، ويَصُوغُ قِطَعًا من الشِّعرِ مُستجادةً . وقد اقتضبَ بحضرةِ الوُزراءِ فى أيّامهِ عِدّةَ رسائلَ وتوقيعاتٍ لم يُقصِّرْ فيها عن الغايةِ ، يَزِينُ ذلك بطهارةِ أثوابٍ وعِفّةٍ وبراءةٍ من شُرْبِ النّبيذِ سِرًّا وعلانيةً . وكان فى وقتهِ نسيجَ وحدِه ، خُتِمَ به فُضلاءُ أهلِ بيتهِ النّاصريّين ، فلم يأتِ بعده مثلُه .

وهذه جُملةُ ما وُجِد له من شعرِه : من ذلك قصيدةٌ كتَبَ بها إلى مُشنّفٍ زوجِ سُليمانَ بنِ الحكم ، أيّامَ خطَبَ بِنتَها من سُليمانَ المسمّاةَ حبيبةَ فلوتَه ؛ وكان بقلبه من هذه الأبنةِ مكانٌ لِنشأتِهما معًا فى ذلك الأوان ؛ يقول فيها :

وجالبةٍ عُذرًا لِتَصرِفَ رَغبتى ... وتأبى المعالى أن تُجيزَ لها عُذرا

يُكلِّفُها الأهلونَ رَدّى جَهالةً ... وهل حسَنٌ بالشّمسِ أن تمنعَ البدرا

وماذا على أمِّ الحُبيبةِ إذ رأت ... جلالةَ قدرى أن أكونَ لها صِهرا

جعلتُ لها شرطًا علىَّ تعبُّدى ... وسُقتُ إليها فى الهوى مُهجتى مَهرا

تعلّقتُها من عبدِ شمسٍ غريرةً[1] ... مُحدَّرةً من صِيدِ[2] آبائها غُرّا

حمامةُ عُشِّ[3] العبشميّين رفرفتْ ... فطِرتُ إليها من سَراتِهمُ صقرا

لقد طالَ صومُ الحُبِّ عنكِ فما الّذى ... يضرُّكِ منهُ أن تكونى لهُ فِطرا

وإنّى لأستشفى بمَرّى بدارِكُمْ ... هُدُوءًا وأستسقى لِساكنِها القطرا

وأُلصِقُ أحشائى ببَردِ تُرابِها ... لأُطفِئَ من نارِ الأسى بكُمُ جمرا

فإن تَصرِفينى يا ابنةَ العمِّ تصرِفى ... — وعيشِكِ! — كفًّا مدَّ رغبتَه سِترا

وإنّى لأرجو أن أُطوِّقَ مفخرى ... بمِلكِكِ لها وهى الّتى عظُمَتْ فخرا

(١) ب ، لب : « غزيرة » (٢) ر : « صبر »

(٣) ر : « عيش » — ب ، لب : « بيت »

وَإِنِّى لَطَعَّانٌ إِذَا الخَيْلُ أَقْبَلَتْ ... جَرَائِدُهَا[١] حَتَّى تَرَىٰ جُونَهَا شُقْرَا
وَإِنِّى لأَوْلَى النَّاسِ مِن قَوْمِها بِهَا ... وَأَنْبَهُهُمْ ذِكْرًا وَأَرْفَعُهُمْ قَدْرَا
وَعِنْدِىَ مَا يُصْبِى الحَلِيمَةَ ثَيِّبًا ... وَيُنْسِى الفَتَاةَ الخَوْدَ عُذْرَتَهَا البِكْرَا
جَمَالٌ وَآدَابٌ وَخُلْقٌ مُوَطَّأٌ ... وَلَفْظٌ إِذَا مَا شِئْتَ أَسْمَعَكَ السِّحْرَا

وإنَّهُ لَمحها يَوْمًا وَأَوْمأَ بالسَّلامِ ، فلم تَرُدَّه عليه خَجَلاً ، فكتب إليها : ٥

سَلَامٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَجُدْ بِكَلَامِهِ ... وَلَمْ يَرَنِى أَهْلاً لِرَدِّ سَلَامِهِ
سَلَامٌ عَلَى الرَّامِى[٢] الَّذِى كُلَّمَا رَمَى ... أَصَابَ فُؤَادِى عَامِدًا بِسِهَامِهِ
بِنَفْسِى حَبِيبٌ لَمْ يَجُدْ لِمُحِبِّهِ ... بِطَيْفِ خَيَالٍ زَائِرٍ فِى مَنَامِهِ
أَلَمْ تَعْلَمِى يَا عَذْبَةَ الإِسْمِ[٣] أَنَّنِى ... فَتًى فِيكِ مَخْلُوعٌ عِذَارُ لِجَامِهِ
وَأَنِّى وَفِىٌّ حَافِظٌ لِأَذِمَّتِى ... إِذَا لَمْ يَقُلْ غَيْرِى بِحِفْظِ ذِمَامِهِ ١٠
يُبَشِّرُ ذَاكَ الشِّعْرُ شِعْرِىَ أَنَّهُ ... سَيُوصَلُ حَبْلِى بَعْدَ طُولِ انْصِرَامِهِ
وَمَاشَكَّ طَرْفِى أَنَّ طَرْفَكِ مُسْعِدِى ... وَمُنْقِذُ[٤] قَلْبِى مِنْ حِبَالِ غَرَامِهِ
عَلَيْكِ سَلَامُ اللهِ مِنْ ذِى تَحِيَّةٍ ... وَإِنْ كَانَ هَذَا زَائِدًا فِى اجْتِرَامِهِ[٥]

وَلَهُ فِيها أيضاً :

تَبَسَّمَ عَنْ دُرٍّ تَنَضَّدَ فِى الوَرْسِ ... وَأَسْفَرَ عَنْ وَجْهٍ يَتِيهُ على الشَّمْسِ[٦] ١٥
غَزَالٌ بَرَاهُ اللهُ مِنْ نُورِ عَرْشِهِ ... لِتَقْطِيعِ أَنْفَاسِى وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسِ
وَهَبْتُ لَهُ مُلْكِى وَرُوحِى وَمُهْجَتِى ... وَنَفْسِى وَلَا شَىْءَ أَعَزُّ مِنَ النَّفْسِ

(١) ر : « جوائدها » ؛ ب ، لب « جرايرها »
(٢) ر « الظبى »
(٣) ب ، لب « الماء »
(٤) ب ، لب « منعقد »
(٥) ر : « احترامه »
(٦) ب ، لب : « ينوب عن »

وهو القائل :

طَالَ عُمْرُ اللَّيْلِ عِنْدِي مُذْ تَوَلَّعْتَ بِصَدِّي
يَا غَزَالاً نَقَضَ الوُدَّ م وَلَمْ يُوفِ بِعَهْدِي
أَنَسِيتَ العَهْدَ إِذْ بِتْنَا عَلَى مِفْرَشِ[1] وَرْدِ
٥ وَاجْتَمَعْنَا فِي وِشَاحٍ وَانْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ
وَتَعَانَقْنَا كَغُصْنَيْنِ وَقَدَّانَا كَقَدِّ
وَنُجُومُ اللَّيْلِ تَحْكِي ذَهَبًا فِي لَازَوَرْدِ!

وَرفع إلَيْه شاعِرٌ مِمَّن هَنَّأَهُ بالخلافةِ يومَ بَيْعَتِهِ[2] شعرًا له كتبه في رَقٍّ مَبْشُورٍ ، واعتذر من ذلك بِهذَيْنِ البَيْتَيْنِ :

١٠ الرَّقُّ[3] مَبْشُورٌ وَفِيهِ بِشَارَةٌ بِبَقَا الإِمَامِ الفَاضِلِ المُسْتَظْهِرِ
مَلِكٌ أَعَادَ العَيْشَ غَضًّا شَخْصُهُ[4] وَكَذَا يَكُونُ بِهِ طَوَالَ الأَدْهُرِ[5]

فأَجْزَلَ المُسْتَظْهِرُ بالله صِلَته ، ووَقَّع له على ظَهْرِ رُقْعَته بهذه الأبيات :

قَبِلْنَا العُذْرَ فِي بَشْرِ الكِتَابِ لِمَا أَحْكَمْتَ مِنْ فَصْلِ[6] الخِطَابِ
وَجُدْنَا بِالْجَزَاءِ بِمَا لَدَيْنَا عَلَى قَدْرِ الوُجُودِ بِلَا حِسَابِ
١٥ فَنَحْنُ المُنْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَنَحْنُ الغَافِرُونَ[7] أَذَى[8] الذُّنَابِ
وَنَحْنُ المُطَالِعُونَ بِلَا امْتِرَاءٍ شُمُوسَ المَجْدِ مِنْ فَلَكِ الثَّوَابِ

---

(١) ب : « معرش » (٢) ب : « بمنه »
(٣) مو (ج ١ ص ٣٢٠) : « الطرس » (٤) مو : « ملكه »
(٥) مو : « الأعصر » (٦) ب : « فضل » (٧) ب : « المغفرون »
(٨) ر : « أزر » ؛ وفي « البيان المغرب » (ج ٣ ص ١٤٠) : « لذى الرئاب »

وهو القائلُ أيضاً — زعموا — يومَ الوُثُوبِ عليه[1] :

يا أيُّهـا القمرُ المنيرْ كُنْ نحوَ شِبْهِكَ لى سَفِيرْ
بتحيّـةٍ أودعْتُها شوقاً بُنَيّاتِ الصُّدُورْ

***

انتهى ما وجدْناه من أشعار بنى أُميّةَ القائمين من أوّل المائةِ الخامسة من الهجْرة ٥
ابتداء من تأريخِ هـذا الدّيوان . وشرحْنا بعضَ ما تعلّق بذلك من خطْب ،
وانْدرج أثناءه من ذِكْرِ حرْب .

ونَتْلوهُ بذكْرِ من تقدّم زمانُه ، واشتهر إحسانُه ، وملأ المسامعَ والمجامعَ
بيانُه ؛ وسارَ فى المغاربِ والمشارقِ ذِكْرُه وشانُه ، وملأ ظهورَ السَّباسبِ وبطونَ
المهارقِ سماعُهُ وعِيانُه . ١٠

فصلٌ فى ذكرِ الأديبِ أبى عُمر[2] أحمدَ بن دَرّاج القَسْطلىّ وإثباتِ جُملةٍ من نظْمِه الفائقِ الدُّرَر ، ونثْرِه المُعْجزِ الوِرْدِ والصَّدَر ، واجتلابِ ما يتعلّقُ به ويتّصِل بسببِه من خبَر .

قال ابنُ بسّام : كان أبو عُمرَ القَسْطلىُّ وقتَه لِسانَ الجزيرةِ شاعِراً
وأوّلاً حينَ عدّ مُعاصريهِ من شُعرائها المشْهورة : وآخرَ حاملِى لوائها ، وبهجةَ ١٥
أرْضِها وسَمائها ، وأُسْوةَ كُتّابِها وشُعرائها ؛ له عُقِدَ فخْرُها المحمولُ وسُهِم ، وبه
بُدِئَ ذِكْرُها الجميلُ وخُتِم : حلّ اسْمُه من الأمانى محلَّ الأُنْس ، وسار نظْمُه

---

(١) ب ، لب : « وله مما قاله زعموا يوم وثوب البرابرة عليه بالدائرة التى أمرت إلى قتله »

(٢) م : « عمرو »

ونثرُه فى الأقاصى والأدانى مَسيرَ الشمس ؛ وأحدَ من تضاءلت الآفاقُ عن جلالةِ قدْرِه ، وكانت الشامُ والعِراقُ أدْنَى خُطى ذِكْرِه .

وقد أجْرَى الثّعالِبىُّ طَرَفاً من أمْرِه ، وأغْرب بلُمَعٍ من شِعره : فقال فى كتابِهِ المترْجَمِ بـ « اليتيمة » : بلغنى أنّ أبا عُمر القَسْطَلّىّ كان عِنْدهم بصُقْعِ الأندلُسِ كالمتنبّى بصُقْعِ الشّام ؛ وهو أحدُ شُعرائهم الفُحُولِ هُنالِكَ . وكان يُجيدُ ما يَنْظِم [1] . انتهى كلامُ الثّعالِبىّ .

وإنّما ذكرْتُه أنا — وكان من شُعَراء ابن أبى عامرٍ — لأنّه تَراخَتْ أيامُه ، وأغْضَى عنه حِمامُه ، حتّى أخْرَجتْه المِحَن ، وسالَتْ به تلك الفِتَن ، الكائنةُ صَدْرَ المائةِ الخامسةِ من الهجرة .

وذَكَرَه ابنُ حيّان مُعْجِباً من أخبارِه ، مُعْرِباً عن جلالةِ مِقدارِه ؛ فقال : وأبو عُمرَ القَسْطَلّىّ سَبّاقُ حَلْبةِ الشُّعَراءِ العامِريّين ، وخاتِمةُ مُحْسنى أهْلِ الأندلُسِ أجْمعين . وكان مِمَّن طرَّحَتْ به تلك الفِتْنةُ الشّنْعاء ، واضْطَرّتْهُ الى النُّجْعة ، فاستقْرَى مُلوكَها أجْمعين ، ما بَيْنَ الجزيرةِ الخضراء ، فسَرَقُسْطةَ مِن الثَّغرِ الأعْلى ؛ يَهُزُّ كُلّاً بمَدِيحِه ، ويستعيُهم [2] على نَكْبتِه ، وليس منهم مَن يُصْغِى له ، ولا يَحْفَظُ ما أُضيعَ من حقّه ، وأُرْخِصَ من عِلْقِه [3] ؛ وهو يَخْبِطُهم خَبْطَ العِضاهِ بمِقْوَلِه ، فيَصمُّون عنه ، إلى أن مَرَّ بعَقْوَةِ مُنذِر بن يَحْيَى أميرِ سَرَقُسْطَةَ ، فألْقَى عَصا سَيْرِه عند مَن بَوّاه ، ورَحّب به وأوْسَع قِراه ؛ فلم يزَلْ عنده ، وعند ابنه بعْدَه ، مادِحاً لهما ، مُثْنياً عليهما ، رافِعاً من ذِكْرِهما ، غيرَ باغٍ بَدلاً بِجوارِهما ، إلى أن مَضَى بسبيله ، بعد أن جرَتْ له رَحِمَه الله ، على إحسانِه الباهِرِ ، فى فِتْنة

(١) راجع « اليتيمة » (ج ٢ ص ٩٠) (٢) ب ، لب : « ويستغيثهم »
(٣) ر : « عقله »

البرابر مع أملاك الجزيرة ، فى طول الاغتراب والنجعة ، أخبارٌ شاقةٌ ، فيها لذى اللب موعظة بالغة[١] .

وذكره أيضاً أبو عامر بن شُهَيد فقال : والفرق بين أبى عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر[٢] الكلام ؛ ثم زاد بما فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة[٣] بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه فى الوصف ، وبغيته[٤] للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس . انتهى كلام ابن شهيد .

قال ابن بسام : وأنا أقول : إن من ذكره لم يوفه حقه ، ولا أعطاه وفقه ، ولا استوفى تقدمه وسبقه ؛ ولو أوفى الأيام ، واستنفد القراطيس والأقلام . [٥]وقد أتيت أنا من شعره بما يبهر نيرات الألباب ، ويظهر خفيات الأسباب ، ومن نثره ما يبهر[٥] العقول ، ويباهى الغرر والحجول ؛ ويسامى التيجان والأكاليل ، ويسهل[٦] التقليد والتأويل .

جملة من فصول اقتضبتها من كلامه الطويل ، فرارا من التطويل . فصل له من رقعة[٧] :

يا سيدى ، ومن أبقاه الله كوكب سعد ، فى سماء مجد ، وطائر يمن ، فى

(١) له فى ر (٢) ب : « أسرار »

(٣) ب : « وحسة » — لب : « وحشة »

(٤) ب ، لب ، ر : « وبقيته »

(٥ — ٥) ب ، لب : « وقد أثبت من نظمه ونثره ما يبهر الخ »

(٦) ب ، لب « يشعل » (٧) هذا الفصل ناقص فى ر

أفناء أَمْن ، مَرْجُوًّا لِدفعِ الأَسواء ، مؤمّلاً فى اللَّأْواء ، وكنتُ قد نشأْتُ فى مَعْقِلٍ من الغِنَى والوفْرِ ، مُحْدقًا بِسُورٍ من الأَمْن والسَّتْر ، حتّى أرْسَلَ إلىّ سُلْطانُ الفقْر ، رَسُولاً من نُوَبِ الدَّهْر ، يُرِيدُ استنزالى إليه ، وخُضوعى بَيْنَ يدَيْه ، فأبَيْتُ من ذلك عَلَيْه ؛ فغزانى بكتائبَ من النَّوائب ، تَسِيرُ تحْتَ أَلْوِيَةِ المَصائب ؛ تُبْرِقُ بسُيوفِ الرَّزايا ، وتُشْهِرُ أَسِنَّةَ المنايا ، يرْمُون عن قِسِىِّ الأَوْجال ، ويَضرِبون طُبُولَ الذُّعْر وسُوء الحال ، بأَيْدٍ باطشةٍ لا تكِلّ ، وبصائرَ ثابتةٍ لا تَملّ ، فلم يرُعْنى ذلك منهم أنْ تلَقَّيْتُهم بِمَنْ معى من جُنودِ الصَّبْر ، فافْتَتح مَعْقِلى سُلْطانُ الفقر[1] ، وأَخذَنى أسْرا ، وطَلَب منِّى فِداءً لا أَقُومُ به قسْرا ، فأوْثَقَنى فى قُيُودِ الانْقِياد ، وشدَّنى فى أَغْلالِ الإصْفاد ، ووَكّل بى الحَيْرةَ والتبلُّد ، وأمَرهما ألاَّ يُطْلِقا سبيلى إلاّ بالفِداء ، فضاقتْ بذلك مَذاهِبِى حتّى أتَى منكَ رَسُولٌ يُسَمَّى حُسْنَ الثَّناء ؛ فَضمِنَ لى عَنْكَ فِدْيتى ، من يدَىْ أَسَرَتى[2] ؛ وسيِّدى أوْلَى مَن وَفَّى بضَمانِه ، وصدَّقَ قوْلَ رسولِه على لسانه .

وله من أُخْرَى إلَى سُلَيمانَ بنِ الحَكَم أميرِ المؤمنين : حاشا للهِ أنْ أَسْتَشِفَّ الحِسْىَ قبلَ جُمُومِه[3] ، وأَسْتكْرِهَ الدَّرَّ قبْلَ حُفُوله ، أو أَتَعامَى عن سِراجِ المَعذِرة ، وأرْغَبَ عن أدَبِ اللهِ فى نَظِرَةٍ إلى مَيْسَرة[4] . ولكن :

مَاذَا تقُولُ لِأَفْراخٍ بِذِى مَرَخٍ	حُمْرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شجَرُ[5]
مَا أَوْضَحَ العُذْرَ لِى لَوْ أَنَّهمْ عَذَرُوا	وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِى لَو أَنَّهمْ صَبَرُوا !
لٰكنَّهُمْ صَغُرُوا عَنْ أَزْمَةٍ كَبُرَتْ	فمَا اعْتِذارِىَ عَمَّنْ عُذْرُهُ الصِّغَرُ !

(١) له فى ب (٢) ب « أسيرى »

(٣) ب : « استشفى الحسى قبل جموحه » (٤) سورة ٢ : ٢٧٩

(٥) هذا البيت للحطيئة (راجع ديوانه ص ٨٠) ويروى : « زغب الحواصل » — راجع ياقوت مثلا فى « معجم البلدان » فى مادة « مرخ »

وقد قلَّبْتُ[١] لهم ظَهْرَ الأُمور ، ومَيَّزْتُ بين المَعْسُورِ والمَيْسُور ، فما وَجَدْتُ أحسنَ بَدْءًا[٢] ، ولا أحمدَ عَوْدًا ، ممَّا[٣] أَذِنَ اللهُ فيه لعبادِه الذين أعْمرَهم أرْضَه ، وسخَّر لهم بَرَّهُ وبحْرَه ، أن يَمْشُوا فى مَنا كبِها ويأْ كُلُوا من رزقِه[٤] ؛ وحَيْثُ نَتقَلَّبُ[٥] ففى كَرَمك ، وأَيْنَ نأْمنُ ففى حَرَمِك ، [٦]وحَيْثُ لا توحِشُنا دَعْوتُك ، ولا تفوتُنا نِعمتُك ، من مُلْكِكَ إلى مُلْكِك[٦] ، ومن يَمِينِك ٥ إلى شِمالِك .

وفى فَصْل من أُخْرَى[٧] :

ولعَلَّ مُقلِّبَ القُلوبِ قد قلَّبَ قَلْبَك الكَرِيمَ للأطْفالِ المُشرَّدين ، الذين دَعَوْكَ مُضطَرِّين ، أنْ تَحُلَّ عنهم عُقَلَ النَّوَى ، وتَكِلَهُم إلى جبَّار السَّما ، الَّذى أمرَ عِبادَه أن يَنْتَشِرُوا فى أرْضِه ، ويبْتغُوا من فَضْلِه[٨] . ١٠

وله من أُخْرَى إلى علىّ بن حَمُّود : حسْبُكَ اللهُ يا ابْنَ رسول الله ، [٩]وعلى هُدًى من الله[٩] ، فيما خَفَقَتْ إليه راياتُك ، [١٠]وصدَقَتْ به آياتُك[١٠] ، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعَتِه نَصْرَك ، كما شرَح بتوْفيقه صدْرَك ، ويُتمّ بتأْييدِه أمْرَك ، بما أوْلَيْتَ أوْلياءه المؤمنين ، وأبْلَيْتَ فى[١١] عِبادِه الصَّالحين ، المُصابينَ فى الأموالِ والأهْلِين ، أيَّامَ تزاحَمَتْ إليهم أسبابُ القضاء بالبأْساء والضَّرَّاء . وأبْرَقَتْ عليهم ١٥

(١) ب ، لب « قبلت » (٢) ب : « بدأ » (٣) ب ، لب « ممن »
(٤) سورة ٦٢ : ١٠ (٥) ب : « تنقلب » (٦ — ٦) نه فى ب ، لب
(٧) هذا الفصل ناقص فى ر (٨) راجع سورة ٦٢ : ١٠
(٩ — ٩) نه فى ب ، لب (١٠ — ١٠) نه فى ب
(١١) نه فى ر

آفاقُ السماء بسُيوفِ الأعـداء ، تَسِحُّ بوابل الدِّماء ، (١) وتموجُ بأسرابِ السِّباء (١) ، فَسُرْعَانَ ما هامُوا فلا وَزَر ، وربَعُوا فلا مُسْتَقَرّ ، ونادوْا (٢) ولاتَ حِينَ مَناصٍ ولا فَوْت ، إلّا مَنْ أعْفاهُ المَوْت ؛ فأصبحوا أنقاضَ (٣) الجلاء ، وأغْراضَ الفَناء ، قد جَهِدُوا بالبَلاء ، وعَيُوا بالدّاء العَياء ، فلَئنْ (٤) زُلْزِلَتْ بهمُ الأرض ، لقَدْ سكَن بهم عِزُّ سلطانِك ، ولئنْ تهافَتَ بهم الذُّعْر ، لقد اُطْمأنُّوا فى مِهادِ أمانِك .

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى (٥) إلى مُنْذِر بن يَحيَى : حيَّاكَ بتحيّةِ المُلك ، مَنْ أحْيا بكَ دَعْوَةَ الحقّ ، وردَّاكَ رِداءَ الإعْظام ، مَنْ أعْلَى بك لِواءَ الإسلام ، مُجْرِى الأقدارِ بإعْلاءِ قَدْرِك ، ومصرِّفُ الليلِ والنهارِ بإعْزازِ نَصْرِك ، ومُظْهِرُ مَنْ أطاعَكَ على مَنْ عصاكَ ، ومُدَمِّرُ مَنْ عاداكَ ، بسُيُوفِ مَن والاكَ . قد جَعلَ اللهُ أوّلَ أسمائِك ، أوْلَى بأعدائِك ، وأقْرَبَ اعْتِزائِك ، صَفْواً لأوْليائِك ؛ ثمّ سمَا بكَ حاجبُ الشَّمس ، نوراً وأُنْساً لهذا الإنْس ، ونفَسَ حَياةٍ لكلّ نفْس .

ثُمَّ أحْيَيْتَ فَجْرَهُمْ يا ابْنَ يحْيى ... بسِراجَيْنِ : نُورِ دِينٍ وَدُنْيا
وَخَلَفْتَ السَّحابَ ظِلاًّ وَجُوداً ... فوَسِعْتَ الإسْلامَ سَقْياً وَرَعْيا
وَتَحَلَّيْتَ مِنْ تُجِيبَ سَناءً ... كُنْتَ فِيهِ للدِّينِ والمُلْكِ مَحْيا

(٦) وِمن كتاب له (٦) :

وأكْرِمْ بها أعْراقاً سَرَتْ إليْك ، وأخْلاقاً نُظِمت عَليْك ، وأعباءَ مُلْكٍ

(١ — ١) نه فى ب ، لب (٢) لب : «وبادوا»
(٣) ر : « أنقاص » (٤) ب ، لب : « الغافلين »
(٥) فى هذا الفصل اضطراب وأخطاء كثيرة فى ب ، لب وإنما اعتمدنا على ر
(٦ — ٦) نه فى ر

حمِّلتْ عاتقيك ، وأعنّة خيلٍ أسلمتْ فى يديك ، [(١)] فإليك أهلَ الدَّليل ، وأزِمّة الحُمول[(١)] ، ومن نداك سُقْيَ الغليل ، وشفْيَ العليل ، وفى ذَرَاك بَرْد المَقيل ، وقصرَ الليلِ الطويل ، وبِعُلاك أمنَ الخائفُ وعزّ الذليل ، وبسناك هُدى ابنُ[(٢)] السبيلِ[(٣)] سواء السبيل[(٣)] ، إلى الظلّ الظليل ، والأملِ المأمول ،

فحبلُ الغريب موصول . وعذرُ المسيء مقبول ، وجفاء الضيف محمول ، فكيف ٥

بضيفك المُجتاب ، إليك غولَ القفرِ اليباب ، وهولَ البحرِ ذى العُباب ، يُهدى إليك لُباب الألباب ، ويتحفك بجواهرِ الآداب ، متضائلاً فى أسمالِ الاغتراب ، مُكفكِفاً[(٤)] من عبراتِ الاكتئاب ، يتسلّى بسلام الحُجّاب ، واستلامِ الأبواب ، إلى أن أكرمتَه برفعِ الحجاب[(٥)] . فيا روحَ ثنائه بكرمِ الأحساب[(٥)] !

ويا فوحَ[(٦)] رياضه بديمِ السحاب ! ويا طيبَ طوبى وحسنِ مآب[(٧)] ! لمن ١٠

نصرتَ وآويتَ ، ووصلتَ وأدنيتَ ؛ ما دعاك حتى لبّيت ، ولا استسقاك حتى سقيت ، ثانىَ عطفِه عن الشكوى إليك ، ناكصَ طرفِه عن الإدلال عليك ، علماً بأنّ الهلالَ ساعٍ إلى الكمال ، وأن البدر مؤدٍّ إلى الفجر ، وأنّ انسجامَ القطرِ زعيمٌ بابتسام الزهر[(٧)] !

إلى شجًا لاعجٍ فى القلب مضطرمِ … جاش إليك به مجرٍ من الكلمِ ١٥

ودمعِ أجفانِ عينٍ قد شرقن به … حتى ترقرقَ بين الرَّقّ والقلمِ

ديناً لذى أسرةٍ[(٨)] دنيا وفيتُ به … ورحمةٍ[(٩)] وُصلتْ منى بذى رحمِ

(١ — ١) ىه فى ب ، لب (٢) ىه فى لب
(٣ — ٣) ىه فى ب ، لب (٤) ب ، لب : «متكفكفاً»
(٥ — ٥) ىه فى ب ، لب (٦) ب ، لب : «فيافرح»
(٧ — ٧) ىه فى ب ، لب (٨) ر : «أسوة»
(٩) ب ، لب : «حرمة»

إذا رَدَدْتُ سُيُوفَ الهندِ عن دَمِه فإنّما رُفِعَتْ[١] عن مُهجَتِى وَدَمِى
وإنْ ضَرَبْتُ رِواقًا دونَ حُرْمته فإنّها سُتُرِى مُدَّتْ عَلَى حُرَمِى
لَهْفِى عليه، وقد أهوَتْ له نُكَبٌ لا تَستَقِلُّ لها ساقٌ على قدمِ
فبات يَسْعَرُ بَرْدَ الليلِ من حُرَقٍ ويَسْتَثِيرُ[٢] دُمُوعَ الصَّخرِ من أَلَمِ
٥ وما بِعَيْنِىَ عن مَثْواهُ مِنْ وَسَنٍ وما بأُذْنِىَ عَنْ شَكْواهُ من صَمَمِ

قال ابنُ بسّام : ونَثْرُ أبى عُمَرَ رحمه اللهُ دونَ نَظْمه الرائقِ بكثيرٍ، فلذلكَ ما ألْمَعْتُ منه بالشئِ اليسيرِ، وعوّلتُ على عارضِ شِعرِهِ المتينِ الغزيرِ.

ما أخرجتُه من قصائدِهِ السُّلْطانيّات :

حَكى أبو مَرْوانَ بنُ حَيّان قال : لما اسْتَوْسَقَ الأمرُ بقُرْطُبَةَ لسُليمانَ
١٠ حَسْبًا وصَفْناهُ، تعرّضَ لمديحه مَن كان ثَوَى بقُرطُبةَ يومئذٍ من بَقِيّةِ الشُّعَراءِ العامِريّينَ رَجاءَ فى ثَمَدِ نَوالِه، فصاغُوا فى مَديحِهِ أشعارًا حَسَنَةً اُستَذَمُّوا فيها إلى الدِّينِ والمرُوءة، وأنْشَدَها أكثرُهم فى مَجلِسِ حَفْلِهِ عَلانِيَةً فأصْغَى وهَشَّ، ثمّ غَلَّ[٣] المديحَ فما بَلَّ ولا رَشَّ؛ وتمّ لذلك تَقْويضُ[٤] الجماعةِ عن حَضْرةِ قُرْطُبَةَ، وتَخَلَّى الكثيرُ منهم عن وِلايته، فامَّحَى[٥] لذلك رَسْمُ الأدَبِ بها،
١٥ وغلَبَ عليها العُجْمة، وانقلبَ أهلُها من الإنسانيّةِ المتعارَفةِ إلى العامّيّةِ الصَّريحةِ، وفارَقُوا الحُرِّيّةَ[٦].

وكان ممّن شُهِرَ امتداحُه للخليفةِ سُليمانَ يومئذ، وحُفِظَ كلامُه مِن تلكَ

(١) ب، لب : « رجعت » (٢) ر : « ينتثر » — ب، لب : « يستعر »
(٣) ب، لب : « على » (٤) ب، لب : « تعوض »
(٥) ب : « فاستحيا » (٦) ب، لب : « الحرفة »

الطَّبقةِ العَليَّةِ كَبيرُها أبو عُمَرَ أحمدُ بنُ محمدِ بن درَّاج القَسْطَلِّىّ وقد كان إلى وَقْتِهِ ذلك ثاوِياً بقُرْطُبَةَ ، يحسَبُ أنّ سُليمان سيُجيرُه من الزَّمان ؛ وكانَ النَّجْمُ أدْنَى من ذلك إليه . دخَل عليه أوَّلَ مجلسٍ كان له بالقصرِ فأنشده قصيدتَهُ التى أوَّلُها :

شَهِدَتْ لكَ الأيّامُ[١] أنَّكَ عِيدُها ... لكَ حَنَّ موحِشُها[٢] وآبَ بَعيدُها ٥

وأضاءَ مُظلِمُها ، وأفْرَخ رَوْعُها ، ... وأطاعَ عاصِيها ، ولانَ شَديدُها[٣]

وصَفَتْ بك[٤] الدُّنيا فشَبَّ كَبيرُها ... فى إثْرِ ما قد كان شابَ وَليدُها

ما كان أجمدَ قبل نَوْئِكَ[٥] بحرَها ... فالآن فُجِّرَ[٦] بالنَّدَى جُلْمُودُها

فارتاحَ بيْتُكَ فى أباطِحِ مَكّةٍ ... لِمَعادِ أيّامٍ دَنا مَوْعودُها

لِمَواكِبٍ صَهلَتْ إليك خُيولُها ... وكَتائبٍ خَفَقَتْ عليك بُنودُها ١٠

شَغَفاً بدَعْوتكَ التى قد طالَما ... عَمَرتْ تَهائمُها بها ونُجُودُها

حتّى ارتقَيْتَ من المَنازلِ رُتْبةً[٧] ... عَزَّتْ بها غُرُّ الرِّجالِ وصِيدُها

فى قُبّةِ المُلْكِ التى صِنْهاجَةٌ ... وزَناتَةٌ أطْنابُها وعَمُودُها

صَدَقَتْكَ أيّامَ النَّوالِ سُيوفُها ... ضَرْباً وفى يَوْمِ النِّفارِ عُهودُها

يا ساعةً مَقْطوعةً أرْحامُها ... لا السِّتْرُ شاهِدُها ولا مَشْهُودُهَا ١٥

يَوْماً أُذِلَّ كِرامُهُ لِلِئامِهِ ... وسَطَتْ بأحْرارِ المُلوكِ عَبيدُها

وتَواكلتْ أبْطالُها فى كُرْبَةٍ ... عَيَّتْ بها ساداتُها ومَسُودُها

---

(١) ب ، لب : « الأعياد » (٢) لب : « عن موشحها »
(٣) لم يقع هذا البيت إلا فى ر (٤) ب ، لب : « لنا »
(٥) ر : « يومك » (٦) ب ، لب : « يجرى »
(٧) الأبيات الآتية إلى آخر القصيدة لم تقع إلا فى ر

لا يهتَـــدِي سَمْتَ النّجاةِ دَليلها ... دَهَشًا ولا وَجْهَ السَّـدادِ سَديدُهَا

حتى طَلَعْتَ لهم بأَسْــعَدِ غُرَّةٍ ... طَلَعتْ عليهم فى السَّماء سُعُودُهَا

ومنها :

واستَوْدَعُوا جُبّىْ شُرُنْبَةَ وقْعةً ... هزَّ الجبالَ الراسِـياتِ رُعُودُها[1]

٥ دَلَفُوا إلى شَهْباء حانَ حَصادُها ... وطُلَى رُءوسِ الدَّارِعين حَصِيدُها

وشِعابِ قَنْتِيشٍ وقد حُشِرتْ لهم ... أُمَمٌ بُغَـــاةٌ لا يُكَفُّ عَديدُها

تَرَكُوا بها ظَهْرَ الصَّعيدِ وقدْ غدَا ... بَطْنًا ، وأَجْسادُ العِداةِ صَعِيدُها

وكَتائبُ الإفْرَنجِ إذْ كادَتْكَ فى[2] ... أشْــياعِها واللهُ عَنْكَ يُعيدُهَا

بسَوابحٍ فى لُجِّ بَحْرٍ سَوابِغٍ ... فاضَتْ على الأَرْضِ الفضاءِ مُدُودُها

١٠ ولقــد أَضافُوا نَسْرَها وغُرابَها ... وقِوامُها طاغُوتُهــــا وعَميدُها

شِلْوُ لأَرْمَنْقُودِهَا[3] حَشَدَتْ بِهِ ... للزَّحْفِ ثُمَّ إلَى الجَحِيمِ حُشُودُها

ودَنَوْا لها فى آرَ[4] تَحْتَ صَوارِمٍ ... وَرِيَتْ بِعِزِّ المسلمينَ زُنُودُهـــا

مِن بعدِ ما قَصَفوا الرِّماحَ وأَصْلَتُوا ... بِيضًا يُشايِعُ حَدَّها توحيدُها

فَكأَنَّما رُفِعَتْ لها صُلْبانُها[5] ... فى ظِلِّ هَبْوَتِها فَحانَ سُجُودُها

١٥ وبِجانبٍ إذ قَدَّمَتْهـــا . . .[6] ... شُعْثًا يُبَشِّرُ بالفُتوحِ شَهيدُها

ضَرَبوا على الأُخْدُودِ هامَ حُماتِهِ ... حتَّى عبرْنَ وَجِسْرُهُنَّ خُدودُها

فى وَقْعةٍ قامَتْ بِعُذْرِ سُـــيُوفِهِم ... لَوْ ذابَ مِن حَرِّ الجِلادِ حَديدُها

ويَضيقُ فيها العُذْرُ عن خَطِّيَّةٍ ... سَمْراءَ لَمْ يُورِقْ بكفِّكَ عُودُها

---

(١) ر : وهدوها » (٢) ر : « كادت فى »

(٣) ر : « شلولان منقودها » ، وفيه تصحيف وقع فى اسم القومس الافرنجى المعروف Ermengaud (٤) آرُ : اسم واد فى جنوب الأندلس يسمى الآن Guadiaro

(٥) ر : « طلبانها » (٦) بياض فى ر

فيها رأيتَ العزَّ حيثُ تريدُه ... وسوابغَ النَّعماء حيثُ تُريدُها
فاقْبَلْ فقد ساقتْ إليك مُهورَها ... أكْفاءَ حَمْدٍ لا يُذَمُّ حميدُها
بِدْعًا من النَّظمِ النَّفيسِ تشابَهت ... فيها الجَواهرُ دُرُّها وفَريدُها
ولَيَهْنِها أيّامُ عِزٍّ كُلُّها ... عِيدٌ وأنْتَ لمن أطاعَك عيدُها

ومَدَحه أيضًا بقصيدةٍ أُخْرَى أوّلُها : ٥

هَنيئًا لهذا المُلكِ رَوْحٌ ورَيْحانُ ... ولِلدِّينِ والدُّنيا أمانٌ وإيمانُ
فإنَّ قَعيدَ الخِزْيِ قد ثُلَّ عَرْشُهُ ... وإنَّ أميرَ المؤمنين سُلَيْمانُ
سَمِيُّ الّذي انْقادَ الأنامُ لأمْرِه ... فلَمْ يَعْصِهِ فى الأرْضِ إنْسٌ ولا جانُ
وقامَ فقامتْ للمَعالى مَعالِمٌ ... ولِلْخَيْرِ أسْواقٌ ولِلْعَدْلِ مِيزانُ[1]
وجدَّد للإسلام سُورَ خِلافةٍ ... عليها من الرَّحْمَنِ نُورٌ و بُرْهانُ ١٠
وأكَّدها عَهْدٌ لأكْرَمِ مَنْ وَفَى ... بعَهْدٍ ، زَكَتْ مِنْهُ عُهُودٌ وأيْمانُ
قريبُ[2] النَّبيِّ المُصْطفَى وابْنُ عَمِّه ، ... ووارثُ[3] ماشادَتْ قُرَيْشٌ وعَدْنانُ
وما ساقَتِ الشُّورَى وأوْجَبَهُ التُّقَى ... وأوْرَثَ ذُو النُّورَيْنِ عَمُّكَ عثمانُ
وما حَكَمَتْ فيهِ السُّيوفُ وحازَهُ ... إليك أبو الأمْلاكِ جَدُّكَ مَرْوانُ

ومِنْها فى صِفَةِ رجالِ[4] حَرْبِه ، وهو من جَيِّد الكلام[5] وحُرِّ النِّظام[6] : ١٥

وقد لَمَعتْ حَوْلَيْكَ منهم أسِنَّةٌ ... تُخَيِّلُ أن الحَزْنَ والسَّهلَ نِيرانُ
أُسُودُ هِياجٍ ماتَزالُ تَراهُمُ ... تَطيرُ بِهِمْ نَحْوَ الكَرِيهةِ عِقْبانُ

---

(١) ر : « ميدان » (٢) ب ، لب : « سمى »
(٣) بياض فى ب ، لب (٤) ب ، لب : « رجل »
(٥) ب ، لب : « كلامه » (٦) ب ، لب : « نظامه »

وأقمارُ حَرْبٍ طالعاتٌ كأنّما عمائمُهم فى موْقفِ الرَّوْعِ[1] تيجانُ[2]

وكلُّ زناتيٍّ كأنّ حُسامَهُ وهامةَ مَنْ لاقاهُ نارٌ وقُرْبانُ

وأبيضُ صنهاجٍ كأنّ سِنانَهُ شِهابٌ إذا أهْوَى لِقِرنٍ وشيطانُ[3]

وَمِنْهَا فى وَصْفِ صُلْحٍ والنَّدْبِ إليه :

٥ وَقُلْتَ[4] لَعًا للعاثِرِين كأنّه نُشُورٌ لقَوْمٍ حَانَ مِنهُمْ وَقَدْ حانُوا

وقد أمِنَ التَّثْرِيبَ إخْوَةُ يوسفٍ وأدْرَكَهم للهِ عفوٌ وغُفْرانُ

وحنّتْ لِداعِى الصُّلحِ بكرٌ وتغلبٌ وشَفَّعَتِ الأرْحامَ عَبْسٌ وذُبيانُ

وفازتْ قِدَاحُ المُشترِى بسُعُودِها وسَالَمَ[5] بَهْرامٌ وأعْتَبَ كِيوانُ

وله من أُخْرَى فى مُنْذِرِ بْنِ يَحْيَى ، حين قَدِم عليه صاعدٌ اللُّغَوِىُّ[6] :

١٠ عَلَا فَحَوَى مِيراثَ عادٍ وتُبَّعٍ بِهمّته العُلْيا ونِسْبَتِه الدُّنْيا

فأعْرَبَ عن أقوامِ يَعْرُبَ واحْتَبَى[7] فلم يَنْسَ مِن هُودٍ سَناءً[8] ولا هَدْيا

ومِن حِمْيَرٍ رَدَّ القَنَا أحْمَرَ الذُّرَى ومِن سَبأٍ قادتْ كتائبُهُ السَّبْيا

وما نامَ عنه عِرْقُ قَحْطانَ إذ فَدَى عُروقَ الثَّرَى من غُلّةِ القَحْطِ بالسُّقيا

وما أسكَنَتْ[9] عَنْهُ السَّكونُ زِيادةً[10] ولا رَضِيَتْ طَىٌّ لِراحتِه طَيَّا

١٥ ولا كَنَدَتْ أسْيافُهُ مُلْكَ كِنْدةٍ فتتْرُكَ فى أرْكانِ عِزّتِهِ وَهْيا

(١) ر : « الحرب » (٢) ترتيب هذا البيت والذى قبله معكوس فى ر

(٣) ر : « من القرن شيطان » (٤) ر : « وقالت »

(٥) ب ، لب : « وساعد » (٦) فى القطعة التالية اضطراب فى ب

(٧) ر : «واحتوى» (٨) ب ، لب : « هناء »

(٩) ر : « وما استكنت » (١٠) كذا فى الأصل

ولا أقْعَدَتْهُ عن إجابةِ صارخٍ تُجيبُ ولَوْ حَبْوًا إلى الطَّعْنِ أو مَشْيَا

وَكانَ لهُ فى الأَوْس[١] من حقّ أُسْوَةٍ بِنَصْبِ الهُدَى جَهْرًا وبَذْلِ النَّدَى[٢] خَفْيَا

هُمُ أَوْرَثُوهُ نَصْرَ دِينِ محمدٍ وحازُوا له فَخْرَ النَّدَى والقِرَى وَحْيَا

مَناقِبُ أَدَّوْهَا إليــه وِراثَةً فكانَ لها صَدْرًا وكانَتْ له حَلْيَا

وصوتُ ثَناءٍ أَسمعَ اللهُ ذِكرَهُ لِيُسْمِعَ منه الصُّمَّ أو يَهدِىَ العُمْيَا ٥

[٣]ومنها فى وُرُودِ صاعِدٍ اللُّغَوِىِّ[٣] :

وَأَهْدَتْ له بَغْدادُ دِيوانَ عِلْمِها هَدِيَّةَ مَنْ وَالَى وتُحْفَةَ مَنْ حَيَّا

فكانت كَمَنْ حَيَّا الرِّياضَ بزَهْرِهَا وأَهْدَى إلى صَنْعاءَ من نَسْجِها وَشْيَا

وحَسْبُ رُواةِ العِلْمِ أن يَتَدارَسُوا مآثِرَه حِفْظًا وآثارَهُ وَعْيـــا

ومنها[٤] : ١٠

ويَكْفِى مُلوكَ الأَرْضِ مِنْ كلِّ مَفْخَرٍ إذا امْتَثَلُوا من بعضِ أفعالِه شَيَّا

إذا لَمَعَتْ زُرْقُ الأَسِـنَّةِ حَوْلَهُ كإضْرامِ نِيرانِ الهُمومِ حَوالَيَّا

وقَدْ لاذَ أَبْطالُ الجِلادِ بِعِطْفِهِ كما لاذَ أَطْفالُ الجَلاءِ بِعِطْفَيَّا

وقَد قَصَّرَتْ عنهُ رِماحُ عُداتِهِ كما قَصَّرَتْ عَنهمْ رِياشُ جَناحَيَّا

ومنها : ١٥

فيالكَ من ذِكْرَى سَناءٍ ورِفْعةٍ إذا وَضَعُوا فى التُّرْبِ أَيْمَنَ مَسْقِيَّا[٥]

وَفاحَتْ لَيالِى الدَّهْرِ مِنِّىَ مَيِّتًا فَأَخْزَيْنَ أَيّامًا دُفِنْتُ بِها حَيَّا

(١) ب : « الأفق » (٢) ر : « وبذل العدا »

(٣—٣) ر فى ب ، لب (٤) مكتوبة بعد هذا البيت فى ب ، لب

(٥) ر ، لب : « شقيا » — ب : « سقيا »

وكانَ ضَيَاعِى حسْرةً وتندُّمًا إذا لم يُفِدْ شيئًا ولم يُغْنِنِى شيّا
وأصْبحتُ فى دارِ الغِنى عن ذوى الغِنى وعُوِّضْتُ فاستقبلْتُ أسْعَدَ يومِيًا
سِوى حسْرَتى عِرْضٍ ووجْهٍ تضَعْضَعا لِقارعةِ البلْوى وكانَا [1] عتادِيًا
فيا عبْرتى سُحِّى لعلّى مبلِّلٌ بجرْيِكِ ما أنْزفْتُ من ماء خَدِيًا
ويا زفْرتى هل فى وقودِكِ جذْوةٌ تُنيرُ لنا صُبحًا نساه [2] الأسَى نَسْيًا [3]

٥

ويا خَلَّتى إنْ سوّفَ الغوثُ بالمُنى ويا غلّتى إن أبطأ الغيْثُ بالسُّقْيا
فقوما إلى ربِّ السماء فأسْعدا تقلُّبَ وجْهِى فى السّماء وكفّيّا
عَسَى ميِّتُ الأظْماءِ [4] فى روْضةِ النّدى [5] سيَرجِعُ عن ربِّ السّماء وقد حَيَا [6]
ويا أوجهَ الأحْرارِ لا تتبدّلى بظلِّ ابنِ يحْيى بعْدُ ظلًّا ولا فيّا

١٠ وله فيه من أخرى :

لبَّيْكَ ! أسْمعنا نِداكَ ودُوننا نَوْءُ الكواكبِ مُخْوِيًا أو مُمْطِرا
فسرَيْتُ فى حَرَمِ الأهِلّة مُظلِمًا ورَفَلْتُ فى خِلَعِ السّمومِ مُهَجِّرا
ظُعُنٌ ألِفْنَ القفْرَ فى غُولِ الدُّجى وترَكْنَ مألوفَ المَعاهِدِ مُقفِرا
يطلُبْنَ لُجَّ [7] البحْرِ حيثُ تقاذفتْ أمْواجُه ، والبرَّ حيثُ تنكّرا

١٥ هِيمٌ وما يَبْغِينَ دُونكَ موْرِدًا أبدًا ولا عن بحْرِ جُودِكَ مصْدَرا
مِن كُلِّ نِضْوِ الآلِ مَحْبُوكِ المُنَى يُزْجِيه نحْوكَ كُلُّ مَحْبُوكِ القرا

---

(١) فى جميع النسخ : « وكان »
(٢) ر : « نناه »
(٣) ر ، لب : « مسيا »
(٤) ب : « الأطماع »
(٥) ر : « الثرى »
(٦) ب ، لب : « أحيا »
(٧) ر . « موج »

بُدْنٌ فَدَتْ مِنَّا دِماءَ نُحُورِهَا ... بِبَقَائِهَا فِى كُلِّ أُفْقٍ مَنْحَرَا[1]
نَحَرَتْ بنا صَدْرَ الدَّبُورِ فَأَنْبَطَتْ ... قَلَقَ المَضَاجِعِ تَحْتَ جَوٍّ أَكْدَرَا
خُوصٌ نَفَحْنَ بِنا البُرَى حَتَّى انْثَنَتْ ... أَشْلاؤُهُنَّ كَمِثْلِ أَنْصَافِ البُرَا
وصَبَتْ إِلَى نَحْرِ[2] الصَّبَا فاسْتَخْلَصَتْ ... سَكَنَ اللَّيالِى والنَّهارَ المُبْصِرَا
نَذَرَتْ لَنَا[3] أَلَّا تُلاقِىَ راحَةً ... مِمَّا تُلاقِى أو تُلاقِىَ مُنْذِرَا ٥
لله أىُّ أَهِلَّةٍ بلغَتْ بنا ... يُمْنَاكَ يا بَدْرَ السَّماءِ المُقْمِرَا
فَلَئِنْ صَفَا ماءُ الحياةِ لَدَيْكَ لى ... فَبِمَا شَرِقْتُ إِليكَ بالماءِ القَرَى
ولَئِنْ خَلَعْتَ عَلَىَّ بُرْدًا أَخْضَرًا ... فَلَقَدْ لَبِسْتُ إِلَيْكَ عَيْشًا أَغْبَرَا

ومنها :

أَبُنَىَّ لا تَذْهَبْ بِنَفْسِكَ حَسْرَةٌ ... عَنْ غَوْلِ رَحْلِى مُنجِدًا أو مُغْوِرَا ١٠
فلئِنْ تَرَكْتَ اللَّيْلَ فَوْقِى داجِيًا ... فلقد لَقِيتُ الصُّبْحَ بعدكَ أَزْهَرَا
وحَلَلْتُ أرضًا بُدِّلَتْ حَصْبَاؤُهَا ... ذَهَبًا يَرِفُّ لِنَاظِرَىَّ وجَوْهَرَا
ولْتَعْلَمِ الأَمْلاكُ أَنِّى بَعْدَهَا ... أَلْفَيْتُ كُلَّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا
ورَمَى عَلَىَّ رِدَاءَهُ مِن دُونِهِم ... مَلِكٌ تَخَيَّرَ لِلْعُلَا فَتَخَيَّرَا
ضَرَبُوا قِدَاحَهُمُ عَلَىَّ ففازَ بى ... مَنْ كانَ بالقِدْحِ المُعَلَّى أَجْدَرَا ١٥

ومنها :

كَلَّا وقد آنَسْتُ مِنْ هُودٍ هُدًى ... ولَقِيتُ يَعْرُبَ فى القُيُولِ وحِمْيَرَا
وأَصَبْتُ فى سَبَإٍ مُوَرَّثَ مُلْكِهَا ... يَسْبِى المُلوكَ ولا يُدِبُّ لَهَا الضَّرَا

(١) هذا البيت ناقص فى ب (٢) ر : « بحر »
(٣) ب ، لب : « بنا »

فكأنّما تابعْتُ تُبّعَ رافعاً أعلامَهُ مَلِكاً يَدينُ لهُ الوَرى
والحارثَ الجَفْنِيَّ مَمْنوعَ الحِمَى بالخَيْلِ والآسادِ مَبْذولَ القِرى
وحَطَطْتُ رَحْلِي بَيْنَ نارَيْ حاتِمٍ أيّامَ يَقْرِي، مُوسِرًا أوْ مُعْسِرَا
ولَقيتُ زَيْدَ الخَيْلِ تَحْتَ عَجاجَةٍ تَكْسُو غَلائِلَها[1] الجِيادَ الضُّمَّرَا[2]
٥ وعَقَدْتُ فى يَمَنٍ مَواثِقَ ذِمّةٍ مَشْدُودَةَ الأَسْبابِ مُوثَقَةَ العُرَى
وأتَيْتُ نَجْدَكَ[3] وهْوَ يَرْفَعُ مِنْبَرًا للدّينِ والدُّنيا ويَخْفِضُ مِنْبَرَا
وخَطَطْتُ بينَ جِفانِها وجُفُونِها حَرَمًا أبَتْ حُرُماتُهُ أنْ تُخْفَرَا
تلكَ البُدُورُ تَتابَعَتْ وخَلَفْتَها سَعْيًا فَكُنْتَ الجَوْهَرَ المُتَخَيَّرَا

قال أبو الحَسَن: أراهُ احتذَى فى هذه الأبياتِ الأخيرة حَذْوَ أبى
١٠ الطَّيِّبِ[4] فى ابن العَميد[5] حيثُ يقولُ:

مَنْ مُبْلِغُ الأعْرابِ أنّى بَعْدَها جالَسْتُ رَسْطالِيسَ والإسكَنْدَرا
ولَقيتُ بَطْلَيمُوسَ دارِسَ كُتْبِهِ مُتَبَدّيًا فى مُلْكِهِ مُتَحَضِّرَا
ولَقيتُ كُلَّ الفاضِلِينَ كأنّما رَدَّ الإلهُ نُفُوسَهُم والأعْصُرَا
نُسِقُوا لَنا نَسَقَ الحِسابِ مُقَدَّمًا وأتَى «فذلكَ» إذْ أتَيْتَ مُؤَخَّرَا

١٥ وقوله «خُوصٌ نَفَحنَ بنا البُرَى» البيت[6]، مَعْنًى مشهورٌ وهُوَ فى الشِّعرِ كثيرٌ، ومنهُ قولُ بعضِ أهلِ العصر وهو أبو جَعْفَرِ بن هُرَيْرَةَ التُّطيلِيّ يَصِفُ إبِلاً:

(١) ر: «علايها» (٢) ر: «الصخرا»
(٣) ر: «مجدك» (٤) راجع ديوانه (ج ١ ص ٣٦٩)
(٥) ر: «أرى القسطلى ذهب مذهب أبى الطيب حيث يقول فى قصيدة يمدح بها ابن العميد» (٦) راجع ص ٥٧ س ٣

كأنصافِ البُرَى وتدقُّ[1] عنها شَوَاهَا دِقَّةً تسعُ الجَـلالا[2]

وكذلك قوله : « لله أيُّ أهلّةٍ[3] » البيت ، كقول أبى جعفر المذكور :

كُلُّ عَوْجاء[4] كالهلال عليها كُلُّ ذِى تُدْرَأٍ[5] كبدرِ الكمالِ

وأنشدتُ لابنِ بيّاعٍ السَّبْتِىّ :

٥ وَرَدْتُ بِهَا التَّنُوفَةَ وهى بَدْرٌ فَلَمْ أَصْدُرْ بِهَا إلاَّ هِلالا

وقوله : « ورمى علىَّ رداءهُ مِنْ دُونِهِم » أشارَ إلى لفظِ الهُذَلِىِّ دُونَ مَعْناهُ وهو :

ولم أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عليهِ رِداءه سِوَى أنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ ماجِدٍ مَحْضِ

وذكر الرُّواةُ أنَّه لا تعرفُ العربُ رَجُلًا مدحَ مَنْ لا يعرفُهُ غيرَ أبِى خِراشٍ
١٠ الهُذَلِىِّ هذا ، وكانَ خِراشٌ وعَمُّه عُرْوةُ غَزَوَا فأُخِذَا ، وهَمُّوا بقتلِهِما ، فَنَهاهُم بنُو دارِمٍ وأبَى بنُو هِلالٍ إلاَّ قتلَهُما ، فأقبلَ رجلٌ من بَنِى دارِمٍ فألْقَى عَلَى خِراشٍ رداءه ، وشُغِلَ القومُ بقتلِ عُرْوَةَ ، وقالَ الرَّجُل لخِراشٍ : انْجُ ، فنجا إلى أبيهِ وأخبرَه الخبرَ فقال الأبياتَ التى أوَّلُها :

حَمِدْتُ إلٰهِى بعدَ عُرْوَةَ إذ نَجَا خِراشٌ وبعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ من بَعْضِ

١٥ وحَكَى علىُّ بنُ العبَّاسِ النَّوْبَخْتِىُّ قال : قال لى البُحْتُرِىُّ : أتَدْرِى مِن أيْنَ أخذَ أبو نُواسٍ قولَه :

ولم أدْرِ مَنْ هُمْ غيرَ ما شَهِدَتْ بهِ بِشَرْقِىِّ سَاباطَ الديارُ البَسابسُ[6]

---

(١) ب : « ويرى » (٢) م : « وتدقّ عما سواها دقة تسع الخلالا »

(٣) راجع ص ٥٧ س ٦ (٤) ر : « هوجاء »

(٥) ر : « تدرك » (٦) راجع ديوان أبى نواس (ص ٢٩٥)

فقُلتُ : لا ، قال : مِنْ قوْلِ أبى خِراشٍ : « ولم أدْرِ مَنْ ألْقَى عَلَيْه رِداءَه » البَيْت ، قلتُ له : والمعْنى مُختلِف ، قال : أمَا ترَى حَذْوَ الكَلامِ واحداً ؟

وقال القَسْطَلِّىُّ يمدحُ الوَزيرَ أبا الأَصْبَغ عيسى بنَ سَعيدٍ القَطَّاع :

أَفى مِثْلِهَا تنبُو أياديكَ عَنْ مِثْلِى ... وهَذِى الأمَانى فيكَ جامِعة الشَّمْلِ

٥ وقد أمِنَ المِقْدارُ ما كُنْتُ أتَّقِى ... وأرْخَصتِ الأيَّامُ ما كنتُ أسْتَغْلِى

وأَذْعَنَ صَرْفُ الدَّهرِ سَمْعاً وطاعةً ... لِمَا فُهْتَ مِن قوْلٍ وأمْضَيْتَ مِن فِعْلِ

ونادَيْتَ بالإنْعامِ فى الأرضِ والتقَتْ ... بيُمْناكَ أشتاتُ الطَّرائقِ والسُّبْلِ

وهَذَا مُقامِى مُنْذُ تِسْعٍ وأرْبَعٍ ... رَجائِىَ فى قَيْدٍ وحَظِّىَ فى غُلِّ

كأنِّىَ لَمْ أحْلُلْ ذَراكَ ولم أُقِمْ ... مُناخَ المَطَايَا فيهِ مُرْتَهَنَ الرَّحْلِ

١٠ وأُغْضِ عَنِ البرْقِ الذى شِيمَ[1] لِلْحَيَا ... وأعقِدْ بحَبْلٍ مِنْكَ بينَ الوَرَى حَبْلِى

ولم تُصْفِنِى خُلْقاً أرَقَّ مِنَ الهَوَى ... ولم تُوَالِى نُعْمَى ألَذَّ مِنَ الوَصْلِ

ولم تَثْنِ عَنِّى فى مَواطِنَ[2] جَمَّةٍ ... سُيُوفاً حِداداً قدْ سُلِلْنَ على قَتْلِى

ولم أطْوِ سِنَّ الإكْتِهالِ مُحاكِماً ... إليكَ خُطُوباً شَيَّبَتْ مَفْرِقَ الطِّفْلِ

وكُنْتَ وَمِفْتاحُ الرَّغائِبِ ضَائِعٌ ... مَلاذِى فهَذَا بَابُها ضَائِعُ القُفْلِ

١٥ وإنِّىَ فى أفْياءِ ظِلِّكَ أشْتَكِى ... شَكِيَّةَ مُوسَى إذْ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ[3]

[4] وهذا البَيْتُ من لَفْظِ القُرآنِ العَزيزِ[5] ، وقد أقْدَمَتْ على مِثْلِ هذا جَماعةٌ من الشُّعَراء من مُحْدَثِينَ وقُدَماء ؛ فمِن غالٍ مُتَسَوِّرٍ ومن آخِذٍ مُعْتَذِرٍ[6] ، قال أبو العَلاءِ المَعَرِّى[7] :

(١) له فى ب (٢) ر : « مواصل » (٣) هذان البيتان ناقصان فى ب

(٤) يبدأ من هنا خرم قدر ملزمة فى مخطوطة لب وسينبه على رجع الكلام فيها بعد

(٥) راجع سورة ٢٨ : ٢٤ (٦) لب : « مقتدر »

(٧) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٥٣)

كُنْتَ مُوسَى وافتْهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ   غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُما مِن فَقِيرِ

وأَخَذَهُ بعْضُ أهلِ عصْرِنا وهو حسَّانُ بنُ المَصِّيصِىِّ فقالَ للمُعْتَمِدِ بنِ عبَّاد :

كَبِنْتِ شُعَيْبٍ اذْ زُفَّتْ لِمُوسَى   ولَكِنْ للثَّراءِ هُنَا مزِيدُ

ومن آخرِ مَنْ رَكِبَ هذا الأُسْلُوبَ فى مُكابَرَةِ الحقائق ، وأَضَلِّ مَنْ ذَهَبَ هذا المَذْهَبَ الغَرِيبَ ، مِنَ الأجْتِراءِ على الخَلْقِ والخالقِ ، المُنْفَتِلُ بقوله : ٥

وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفًا مُتَرَقِّبًا   فَقِيرًا وآمَنْتَ المخَافَةَ والفَقْرَا

وَسَتأْتى قَصِيدَتُهُ هذِهِ فى مَوْضِعِها ، وتُنْتَظَمُ القِصَّةُ عنهُ بأَجْمَعِها ، وفى هذه القَصِيدةِ يَقولُ القَسْطَلِّىُّ :

وَلِىَّ النَّدَى أَصْبَحْتُ فى دَوْلَةِ النَّدَى   كأَنِّى عَدُوُّ البُخْلِ فى دَوْلَةِ البُخْلِ

يُقَتِّلُ أَحْفَى النَّاسِ أَحْيَا مطالِبِى   لَيالِىَ جَلَّ الوَعْدُ عَنْ رُتْبَةِ[1] المَطْلِ ١٠

وأُبْدِى لِلَسْعِ الدَّبْرِ وجْهِى مُنازِعًا   وقَدْ فازَ غَيْرِى سَالِمًا بِجَنَى النَّحْلِ

وقال ابنُ سَارَةَ الشَّنْتَرِينِىُّ :

لَهَا قِسْمَةٌ بَيْنَ الرُّواةِ وبَيْنَكُمْ   فَمِنْ قِسْمَةٍ ضِيزَى ومِنْ قِسْمَةٍ عَدْلِ

بأَفْواهِكُم منها جَنَى النَّحْلِ كُلَّمَا   رَوَوْهَا وَفى أَسْتاهِكُمْ إِبَرُ النَّحْلِ[2]

وَمِنْهَا : ١٥

أُوَاصِلُ آناءَ الأَصَائِلِ بالضُّحَى   وزَادِى مِنْ جَهْدِى ، ورَاحِلَتِى رِجْلِى

وهذا مِمَّا شرَحَهُ وأوْضَحَه أَبُو الطَّيِّبِ بقَوْلِهِ من المُنْسَرِحِ[3] :

---

(١) ب : « ربة »   (٢) هذان البيتان ناقصان فى ر

(٣) « فى ر

لاَ نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ، وَلاَ بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا ، وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا ، وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا[1]

وَمِنْهَا :

إذَا أَحْفَتِ الفُرْسَانُ غُرَّ جِيَادِهِمْ خَصَفْتُ بِرِجْلِي[2] مَا تَمَزَّقَ مِنْ نَعْلِي
٥ وَإِنْ أَقْبَلُوا وَالمِسْكُ يَنْدَى عَلَيْهِمُ أَتَيْتُ وَقَدْ ضُمِّخْتُ مِسْكًا مِنَ الوَحْلِ[3]
وَإِنْ شُغِلُوا لَهْوًا بِأَنْعُمِ كَفِّهِ فَخِدْمَتُهُ لَهْوِى وَطَاعَتُه شُغْلِى
أُقِرُّ عُيُونَ الشَّامِتِينَ وَلَيْتَنِى أُبَرِّدُ مَا تَطْوِى الصُّدُورُ مِنَ الغِلِّ
أَمُرُّ بِهِمْ أَلْقَى الثَّرَى وَكَأَنَّمَا فُؤَادِىَ مِنْ أَحْدَاقِهِمْ غَرَضُ النَّبْلِ
إذا الأَسَدُ الضِّرْغَامُ أَنْفَذَ مَقْتَلِى فَمَا فَزَعِى إلا إلى الأَرْقَمِ الصِّلِّ
١٠ وَإِنْ ذَابَ حُرُّ الوَجْهِ مِنْ حَرِّ نَارِهِمْ فَمَا مُسْتَغَاثِى مِنه إلاَّ إلى المُهْلِ
ومِن شِيمَةِ المَاءِ القَرَاحِ ـ وإنْ صَفَا ـ إذا اضْطَرَمَتْ مِنْ تَحْتِهِ النَّارُ أَنْ يَغْلِى
وَلَا وَزَرٌ إلاَّ وَزِيرٌ لَهُ يَدٌ تَمُلُّ عَلَى أَيْدِى الرَّبِيعِ فَتَسْتَمْلِى
أَبَا الأَصْبَغِ المُغْنِىَّ هَلْ أَنْتَ مُصْرِخِى وَهَلْ أَنْتَ لِى مُغْنٍ وَهَلْ أَنْتَ لِى مُغْلِى؟
فأَكْسُوكَ الأَيَّامَ مِنْ حُرِّ مَا أُثْنِى وأَمْلأُ سَمْعَ الدَّهْرِ مِن سِحْرِ مَا أُمْلِى
١٥ وحَتَّى مَتَى أُعْطِى الزَّمَانَ مَقَادَتِى وَقَدْ قَبَضَتْ كَفِّى عَلَى قَائِمِ النَّصْلِ ؟
أَيَحْتَقِبُ[4] الرُّكْبَانُ شَرْقًا ومَغْرِبًا غَرَائِبَ أَنْفَاسِى وأَلْقَاكَ فِى الرَّجْلِ ؟[5]
ويَنْتَقِلُ الشَّرْبُ النَّدَامَى بَدَائِعِى وَهَيْهَاتَ لِى مِن لَذَّةِ الشُّرْبِ والنَّقْلِ
وضَيْفُ بِحَيْثُ الطَّيْرُ تُدْعَى إلى القِرَى يَضِيقُ بِهِ رَحْبُ المَبَاءَةِ والنُّزْلِ

---

(١) راجع ديوان المتنبي (ج ١ ص ١٩٨) (٢) ب : « بوجهى »
(٣) ر : « الرجل » (٤) ر : « أيجتنب »
(٥) ب : الرحل »

وسَيْفٌ يَقُدُّ البِيضَ والزَّغفَ مُقْدِماً يرُوحُ بلا غِمْدٍ ويغْدُو بلا صَقْلِ
وذُو غُرَّةٍ مَعْرُوفَةِ السَّبْقِ فى المَدَى وقَدْ قرِحَ التَّحْجِيلُ مِنْ حلَقِ الشُّكْلِ

قوْله : « ومِن شِيمَةِ الماء القَراح » البَيْت ، هُو قولُ ابن أَبِى عُيَيْنَة المُهَلَّبِىّ :

وَلَابُدَّ لِلْمَاءِ فِى مِرْجَــلٍ عَلَى النَّــارِ مَوْقُودَةً أَنْ يَفُورَا

ويَنْظُرُ أَيْضًا مَعْنَاهُ — من طَرْفٍ عَليلٍ — إلى بَيْت عُمارة بن عَقِيل[١] : ٥

وما النَّفسُ إلاَّ نُطْفَــةٌ بقَرارةٍ إذَا لم تُــكَدَّرْ كانَ صَفْوًا غَديرُها

وأَخَذَهُ المَعَرِّىُّ[٢] وزاد فيه حتَّى كاد يُخْفيه فقال :

والخِلُّ كالْماءِ تَبْدُو لِى ضَمائِرُهُ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الـكَدَرِ

وقَوْله : « وَذُو غُرَّةٍ » البَيْت ، مِن قول أبى الطَّيِّبِ[٣] :

وإن تكُنْ مُحْكَمَاتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُنى ظُهُورَ جَرْىٍ فَلِى فِيهِنَّ تَصْهالُ[٤] ١٠

وقال أبو العَلَاءِ المَعَرِّىُّ[٥] يَصِفُ قَصيدتَه من جُمْلةِ أَبْياتٍ فَقال :

حُجِلَتْ فلَمْ يرَهَا الَّذِى قِيدَتْ لَهُ وَغدَتْ بآفَاقِ البِــلَادِ تَجُولُ
كالطِّرْفِ يُقْلِقُهُ المَراحُ صَبابَةً بالجَرْىِ وَهْوَ مقيَّــدٌ مَشْكُولُ

وقال أَبُو الوَلِيدِ بنُ زَيْدُون[٦] :

ثَوَى صَافِناً فى مَرْبطِ الهُونِ يَشْتَكِى بِتَصْهالِهِ مَا نَالَهُ مِن أَذَى الشُّكْلِ ١٥

(١) راجع « الكامل » للمبرد (ص ١٩)
(٢) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٣٣) (٣) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٦٩)
(٤) من قوله : « قوله ومن شيمة الماء » إلى هنا لم يقع كله فى ب وإنما هو مذكور فى ب بعد البيت : « ومن شيمة الماء القراح »
(٥) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ١٨٦) (٦) راجع ديوانه ص ١١٤

وكرّره ابنُ زيدون فى موضعٍ آخر[1] ، فقال :

وأنّ الجوادَ الفائتَ الشأوِ صافِنٌ تخوّنَهُ شكلٌ وأزرى به رَبْطُ

وقال عبدُ الجليل[2] للمُعتمِدِ بن عبّاد[3] من جُملةِ أبياتٍ هى ثابتةٌ فى موضِعِها من هذا المجموع[3] :

٥ أتتكَ على خلائقها حِياصٌ وإنْ كانَ الضّياعُ لها شِكالا

وقال القَسْطَلّىّ يمدحُ المُرتَضى ، آخرَ ملوكِ بنى مَرْوان ، من قصيدةٍ أولها :

جِهادُكَ حُكْمُ اللهِ ، مَنْ ذا يَرُدُّهُ ؟ وعَزْمُكَ أمْرُ اللهِ ، مَن ذا يَصُدُّهُ ؟

وطائرُكَ اليُمْنُ الّذِى أنتَ يُمْنُهُ وطالِعُكَ السّعْدُ الّذِى أنتَ سَعْدُهُ

يقُولُ فيها :

١٠ وَبَيْعَةُ رِضْوانٍ رَعَى اللهُ حَقَّها لِمَنْ بَيْعَةُ الرِّضْوانِ إذ غابَ جَدُّهُ

فأصْبحَ فى رأسِ الرِّياسَةِ تاجُهُ ونُظِّمَ فى جِيدِ الخِلافَةِ عِقْدُهُ

مَسَرّتُهُ مأوَى الغريبِ وسِتْرُهُ ، ولَذّتُهُ خَيْرُ المُقِلِّ ورِفْدُهُ

وأجْنادُهُ[4] فى موقفِ الرَّوْعِ رَوْضُهُ وأعْلامُهُ فى مَوْرِدِ المَوْتِ[5] وَرْدُهُ

تُلاعِبُ آرامَ الفَلا مِنْ هِباتِهِ ، وآرامُهُ غُرُّ الطِّرادِ وجُرْدُهُ

١٥ وَتَفْتَرِشُ[6] الدِّيباجَ مِنْ جُودِ كَفِّهِ وَما فَرْشُهُ إلّا الجَوادُ وَلِبْدُهُ

وَمَنْ بَرَّحَ البِيضُ الحِسانُ بِوَجْدِهِ فَبالبِيضِ فى الهَيْجاءِ بَرَّحَ وَجْدُهُ

وَكُلُّ إمامٍ ناصِرٍ أنتَ صِنْوُهُ وَكُلُّ إمامٍ قاهِرٍ أنتَ نِدُّهُ

(١) راجع ديوانه ص ١٥ (٢) يعنى عبد الجليل بن وهبون

(٣ — ٣) نه فى ر (٤) ب : « وأجنده »

(٥) ر : « المزن » (٦) ب : « ويفترس »

نَمَوْكَ إلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَابْتَنَوْا لَكَ الشَّرَفَ الفَرْدَ الَّذِى أَنْتَ فَرْدُهُ
فأَفْخِرْ بِمَنْ قُرْبُ النَّبِيِّينَ فَخْرُهُ وأَمْجِدْ بِمَنْ مَجْدُ الخَلائِفِ مَجْدُهُ(١)

وَلَه من أُخْرَى فى المَنْصُورِ بنِ أبى عَامِرٍ :

أَلَمْ تَعْلَمِى أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وأَنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ(٢) قُبُورُ
تُخَوِّفُنِى طُولَ السِّفَارِ وَأَنَّهُ لِتَقْبِيلِ كَفِّ العَامِرِىِّ سَفِيرُ ٥
ذَرِينِى أَرِدْ مَاءَ المَفَاوِزِ آجِنًا إلَى حَيْثُ مَاءُ المَكْرُمَاتِ نَمِيرُ
فَإِنَّ خَطِيرَاتِ المَهَالِكِ ضُمَّنٌ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الجَزَاءَ خَطِيرُ

وَمِنْهَا فى وَصْفِ وَدَاعِهِ لِمَنْ تَخَلَّفَهُ ، وذِكْرِ ابْنِه الصَّغِيرِ ، بِمَا لا شَبِيهَ له ولا نَظِيرَ(٣) ، ولا مِثْلَ ولا عَدِيلَ :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِىَ مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ ١٠
تُنَاشِدُنِى عَهْدَ المَوَدَّةِ والهَوَى وفى المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ صَغِيرُ(٤)
عَيِىٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطَابِ ، ولَفْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ القُلُوبِ ومُهِّدَتْ له أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ ونُحُورُ
فَكُلُّ مُفَدَّاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعٌ وكُلُّ مُحَيَّاةِ المَحَاسِنِ ظِئْرُ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فيه(٥) وقَادَنِى رَوَاحٌ بِتَدْآبِ(٦) السُّرَى وبُكُورُ ١٥
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِى وهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ
لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّى غَيُورًا فَإِنَّنِى عَلَى عَزْمَتِى مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ

---

(١) لم تقع هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة إلا فى ر (٢) ب : « الفاجرين »
(٣) ر : « بما ليس له من شبيه ولا نظير » (٤) لم يقع هذا البيت إلا فى ر
(٥) د فى ب (٦) ر : « إئمداه »

وَلَوْ شَهِدَتْنِي والهَوَاجِرُ تَلْتَظِي عَلَيَّ ورَقْرَاقُ السَّرابِ يَمُورُ
أُسَلِّطُ حَرَّ الهَاجِراتِ[1] إذا سَطَا[1] عَلَى حُرِّ وَجْهِي وَالأَصِيلُ هَجِيرُ
وأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ وَهْيَ بَوَارِحٌ وأَسْتَوْطِئُ الرَّمْضَاءَ وَهْيَ تَفُورُ
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الجَبانِ تَلَوُّنٌ وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيرُ

٥ وَمِنْهَا[2] :

وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرْقُ المَجَرَّةِ أَنَّهَا عَلَى مَفْرِقِ اللَّيْلِ البَهِيمِ قَتِيرُ
ودارَتْ نُجُومُ القُطْبِ حَتَّى كَأَنَّهَا كُؤُوسُ مَهًا وَالَى بِهِنَّ مُدِيرُ
لَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ المُنَى طَوْعُ هِمَّتِي وأَنِّي بِعَطْفِ العَامِرِيِّ جَدِيرُ

وَمِنْهَا :

١٠ ولَمَّا تَوَافَوْا لِلسَّلامِ ورُفِّعَتْ عَنِ الشَّمْسِ فِي أُفْقِ السَّمَاءِ سُتُورُ
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ دُونَهَا صُفُوفٌ وَمِنْ بِيضِ السُّيوفِ سُطُورُ
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمنِ كَيْفَ اعْتِزَازُهَا وَآيَاتِ صُنْعِ اللهِ كَيْفَ تُنِيرُ
وَكَيْفَ اسْتَوَى بِالبَرِّ وَالبَحْرِ مَجْلِسٌ وَقَامَ بِعِبْءِ الرَّاسِيَاتِ سَرِيرُ
فَجَاءُوا عِجَالاً والقُلُوبُ خَوافِقٌ وَوَلَّوْا بِطَاءً والنَّوَاظِرُ صُورُ

١٥ وَمِنْهَا :

وَضَاءَلَ قَدْرِي فِي ذَرَاكَ عَوَائِقٌ جَرَتْ لِيَ بَرْحًا والقَضَاءُ عَسِيرُ
ومَاشَكَرَ النَّخْعِيُّ[3] شُكْرِي، ولا وَفَى وفَائِيَ — إذْ عَزَّ الوَفَاءُ — قَصِيرُ
أَثَرْنِيَ لِخَطْبِ الدَّهْرِ والدَّهْرُ مُعْضِلٌ وكَلْنِي لِلَيْثِ الغَابِ وَهْوَ هَصُورُ

(١—١) نه فى ب (٢) نه فى ر (٣) ر: « النحنى »

وَقَدْ تُخْفَضُ الأَسْماءُ وَهْىَ سَوَاكِنٌ ... وَيَعْمَلُ فِى الفِعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرُ
وَتَنْبُو الرُّدَيْنِيَّاتُ والطُّولُ وافِرٌ ... ويَبْعُدُ وَقْعُ السَّهْمِ وَهْوَ قَصِيرُ

وله من أُخْرَى (١) فى ابنِ أَزْرَقَ (١) ، وهى (٢) أيضًا من حُرِّ كلامه ، وسِحْرِ نظامه (٢) :

أَخُو ظَمَأٍ يَمُصُّ (٣) حَشَاهُ سَبْعٌ ... وأَرْبَعَــــةٌ وَكُلُّهُمُ ظِمَاءُ
كَأَنْجُمِ يُوسُفٍ عَدَدًا ولَكِنْ ... بِرُؤْيَا (٤) هَـذِهِ بَرِحَ الخَفَاءُ
خُطُوبٌ خَاطَبَتْهُمْ مِنْ دَوَاهٍ ... يَمُوتُ الحَزْمُ فِيهَا والدَّهَاءُ (٥)
تَرَاءَتْ بالكَوَاكِبِ وَهْىَ ظُهْرٌ ... وآذَنَ فِيــهِ بالشَّمْسِ العِشَاءُ
فَهَلْ نَظَرِى تَخَفَّى (٦) أو بِصَدْرِى ... وضاقَ البَحْرُ عنهــا والفَضَاءُ
وَكُلُّهُمُ كَيُوسُفَ إِذْ فَدَاهُ ... مِنَ القَتْــلِ التَّغَرُّبُ والجَلَاءُ
وَإِنْ سِجْنٌ حَوَاهُ فَكَمْ حَوَاهُمْ ... سُجُونُ الفُلْكِ والقَفْرُ القَوَاءُ
نَقَائِذُ فِتْنَــةٍ (٧) وخُلُوفُ ذُلٍّ ... أَلَذُّ مِنَ البَقَــاءِ بهِ (٨) الفَنَاءُ (٩)
وَإِنْ أَقْوَتْ مَغَانِى العِزِّ مِنْهُمْ ... فَكَمْ عَمِرَتْ بِهِمْ بِئْرٌ (١٠) خَلَاءُ
وَإِنْ ضَاقَتْ بِهِمْ أَرْضٌ فَأَرْضٌ ... فَمَا بَكَتْ لِمِثْلِهِمُ السَّمَاءُ
شُمُوسٌ غَالَهَــا ذُعْرٌ وَبَيْنٌ ... فَهُنَّ لِكُلِّ ضَاحِيَــةٍ هَبَاءُ (١١)
فَكَمْ لَبِسُوا مِنَ النُّعْمَى بُرُودًا ... جَلَاهَا عَنْ جُسُومِهِمُ الجَلَاءُ

(١ — ١) ـه فى ر (٢ — ٢) ـه فى ب (٣) ب : « ممض »

(٤) ر : « يروى » (٥) فى ب تداخل هذا البيت فى الذى قبله

(٦) كذا فى الأصل — لم يقع هـذا البيت إلا فى ر

(٧) ب : « فقائده له » (٨) ر : « لها » (٩) ب : « العناء »

(١٠) ر « نفر » (١١) لم يقع هذا البيت إلا فى ر

رَمَتْ بِهِمُ الحَوادِثُ نَحْوَ مَوْلًى ... حَمَاهَا الدِّينُ مِنْــــهُ وَالوَلَاءُ
وَكَمْ عَسَــفُوا إلَيْـهِ لُجَّ بَحْرٍ ... تَلَاقَى المَاءُ فِيـــهِ وَالسَّمَاءُ
فَمَا ظَفِرُوا بِمِثْـلِكَ نَجْمَ سَعْدٍ ... بِهِ لَهُمُ إلى الأَمَلِ انْـتِهَاءُ[1]
وَلَـكِنْ عَدَّلُوا مِنْــهُ حِسَاباً ... لَهُ فِيما دَعَوْكَ لَهُ قَضَـــاءُ
٥ كَما زَجَرُوا مِنَ اسْمِ أَبِيكَ فَأْلاً ... فَرُدَّتْ فِيهِ قَبْـلَ الزَّايِ رَاءُ

وله من أخرى[2] :

فَمَا تَجَاوَزْتُ قِرْنَ المَوْتِ مُعْتَسِفًا ... إلاَّ وقِرْنِى رَخِيمُ الدَّلِّ بَارِعُهُ
تَحِيَّتِى مِنْــهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَنَقٌ ... يَشُدُّنِى غُلُّهُ عَنْـــهُ وَجَامِعُهُ
لَمْ أَخْلَعِ الدِّرْعَ إلاَّ حِينَ شَقَّقَهُ[3] ... عَنْ صُبْحِ صَدْرِيَ مَا تَحْمِى[4] مَدَارِعُهُ
١٠ ولا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ ... يُذِيبُ سَيْفِى وَفِى قَلْبِى مَوَاقِعُهُ
غُصْنٌ تَجَرَّعَ أَنْدَاءَ الغَمَامِ[5] فَمَا ... تَطَوَّقَ[6] الدَّرَّ إلاَّ وهوَ جَارِعُهُ
يَمِيسُ طَوْرًا وسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ ... وَتَارَةً وَانْثِنَاءُ الوَشْيِ لَاذِعُهُ
فَاسْتَفْرَغَ الخَصْرُ كُثْبانًا[7] تُباعِدُهُ ... وأَنْبَتَ الصَّدْرُ رُمَّانًا يُدَافِعُهُ
فَبِتُّ تَحْتَ رُوَاقِ اللَّيْـلِ ثَانِيَهُ ... والشَّوقُ ثَالِثُنَا والوَصْلُ رَابِعُهُ
١٥ والسِّحْرُ يُسْحَرُ مِنْ لَفْظٍ يُنَازِعُنِى ... والمِسْكُ يَعْبَقُ مِنْ كَأْسٍ أُنَازِعُهُ
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحَتِـهِ ... لَوْلَا المَهَا لَجَرَتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ
كَأَنَّمَا ذَابَ[8] فِيها وَرْدُ وَجْنَتِهِ ... وَشَجَّهَا رِيقُـهُ المَعْسُولُ مَائِعُهُ

(١) لم يقع هذا البيت إلا فى ر
(٢) اضطراب كثير فى هذه القصيدة فى ب
(٣) ب : « خففه »
(٤) ر : « وما تحوى »
(٥) ب : « النعيم »
(٦) ب : « يطوق الدر »
(٧) ب : « كثبان »
(٨) ر : « ذيب »

فَيَا ظَلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ عَدِمَتْ ... بَدْرَ السَّمَاءِ وَفِي حِجْرِي مَضَاجِعُهُ
وَيَا حَنِينَ ظِبَاءِ القَفْرِ إذ فَقَدَتْ ... غَزَالَهُنَّ وَفِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ
فَجَالَ طَرْفِي وَمَا حَازَتْ لَوَاحِظُهُ ... وَحَنَّ صَدْرِي ومَا ضَمَّتْ أَضَالِعُهُ[١]
والطَّرْفُ مِرْآةُ عَيْنِي أَسْتَدِلُّ بِهَا ... عَلَى الصَّبَاحِ إذا مَا خِيفَ سَاطِعُهُ
جَوْنًا أَزِيدُ به لَيْلَ الرَّقِيبِ دُجًى ... ويَسْتَنِيرُ[٢] لِيَ الإِصْبَاحَ لَامِعُهُ
فَبَاتَ يَعْجَبُ مِنْ ظَبْيٍ يُصَارِعُنِي ... وَقَدْ يَرِقُّ عَلَى لَيْثٍ أُصَارِعُهُ
وَمَا رَأَى قَبْلَهَا قِرْنًا أُعَانِقُهُ ... إِلَّا وَوَدَّعَ نَفْسًا لَا تُرَاجِعُهُ
حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ مُشْمَطًّا ذَوَائِبُهُ ... يُطَارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيًّا أَكَارِعُهُ
كَأَنَّ جَمْعَ ضَلَالٍ حَانَ[٣] مَصْرَعُهُ ... وَأَنْتَ بالسَّيْفِ يا مَنْصورُ صَارِعُهُ

قال أبو الحسن : قوله « مَوْشِيًّا أكارِعُه » : جعَلَ ذوائبَ الصُّبْحِ مُشْمَطَّةً مِن مُمازَجةِ اللَّيْلِ له ، وجعل أكارِعَ اللَّيل مَوْشِيَّةً مِن مُمازَجةِ الصُّبْحِ لها ، وجَعَل آخِرَ اللَّيلِ من مَواخِرِه وهى المُتَّصِلَةُ بأوّلِ الصُّبح ، وآخِرَ الصُّبْح من مَقادِمِه وهى المُتَّصِلةُ بآخِرِ اللَّيل ؛ وأصابَ فى الإشارةِ إلى التَّشْبيهِ لأنّه أوْمأَ إلى أنّ الصُّبْحَ كالثَّوْرِ الوَحْشىّ وهو أبْيضُ ، والثيرانُ الوَحْشيَّةُ كلُّها بِيضٌ ، وأكارِعُها مَوْشِيّةٌ خاصّةً . وإنّما ألَمَّ القَسْطلّىُّ فى هذا بقَوْل أعرابىّ يَصِفُ لَيْلةً : خرَجْنا فى لَيْلةٍ حِنْدِسٍ قد ألْقَتْ عَلَى الأرْضِ أكارِعَها فمَحَتْ صُوَرَ الأبْدانِ ، فما كِدنا نتَعارفُ إلاّ بالآذانِ . وقولُه : « فيَا ظَلامَ نجُومِ اللّيْل » البيْت ، مِن مَليحِ المَعانى ، وقد أخَذَه إدْريسُ بْنُ اليَمانِى ، فقال مِن جُملةِ أبْياتٍ هى ثابتةٌ فى مَوْضِعها من هذا المجموع :

(١) لم يقع هذا البيت والذى قبله إلا فى ر (٢) ب : « ويسترد »
(٣) ب : « جار » — ر : « حاز »

بَدْرٌ أَلَمَّ وَبَدْرُ اللَّيْلِ مُمَّحِقٌ والأُفْقُ مُحْلَوْلِكُ الأَرْجَاءِ من حَسَدِ
تَحَيَّرَ اللَّيْلُ فِيهِ أَيْنَ مَطْلَعُهُ أَمَا دَرَى اللَّيْلُ أَنَّ البَدْرَ فِي عَضُدِي ؟

وله من أُخْرَى فى عَلِيِّ بن حَمُّودٍ : قالَ ابْنُ بَسَّام : وَهذه القَصِيدةُ له طَوِيلَةٌ[(١)] ، وهى من الهاشِمِيَّاتِ الغُرِّ ، بناها مِن المِسْكِ والدُّرِّ ، لا مِنَ الجِصِّ
٥ والآجُرِّ ، لا بل خَلَّدها حديثًا على الدَّهْر ، وسَرَّ بها مَطالِعَ النُّجومِ الزُّهْرِ[(١)] ؛ لَوْ قَرَعَتْ سَمْعَ دِعْبِلِ بن عَلِيٍّ الخُزاعِيِّ ، والكُمَيْتِ بن زَيْدٍ الأَسَدِيِّ ، لَأَمْسَكَا عَن القَوْلِ ، وَبَرِئَا إليها مِن القُوَّةِ والحَوْلِ ؛ بَلْ لَوْ رآها السَّيِّدُ الحِمْيَرِيُّ ، وكُثَيِّرٌ الخُزاعِيُّ ؛ لأَقامَاهَا بَيِّنَةً عَلَى الدَّعْوَى ، ولتَلَقَّيَاها بِشارَةً على زَعْمِهِما بخُروجِ الخَيْلِ من رَضْوَى ؛ وقد أَثْبَتُّ أَكثَرَها إعلانًا بجلالةِ قدرِها ، واسْتِحسانًا
١٠ لعَجُزِها وصدْرِها ، وأوّلُها :

لَعَلَّكِ يا شَمْسُ عِنْدَ الأَصِيلِ شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَرِيبِ الذَّلِيلِ[(٢)]
فَكُونِي شَفِيعِي إِلَى ابْنِ الشَّفِيعِ وَكُونِي رَسُولِي إِلَى ابْنِ الرَّسُولِ
فإِمَّا شَهِدْتِ فَأَزْكَى شَهِيدٍ وَإِمَّا دَلَلْتِ فَأَهْدَى دَلِيلِ
عَلَى سَابِقٍ[(٣)] فى قُيُودِ الخُطُوبِ[(٤)] وَنَجْمٍ سَنًا فى غُثَاءِ السُّيُولِ
١٥ يُنَادِي الثَّرَى لِسَقَامِ الضَّيَاعِ ويشكُو إِلَى المُلْكِ دَاءَ الخُمولِ
وَعَزَّ عَلَى العِلْمِ مَثْوَاهُ أَرْضًا عَلَى حُكْمِ دَهْرٍ ظَلُومٍ جَهُولِ[(٥)]
وَيَعْجَبُ[(٦)] كَيْفَ دَنَا مِن عَلِيٍّ وَلَمْ تَنْفَصِمْ حَلَقَاتُ الكُبُولِ

(١ — ١) نه فى ر ، وإنما وقعت فيها بعض الألفاظ
(٢) يصح أن تقرأ هذه القصيدة بسكون اللام
(٣) ب : « سابل » (٤) ب : « الخيول »
(٥) لم يقع هذا البيت والذى قبله إلا فى ر (٦) نه فى ب

وكَيفَ تَنَسَّمَ[١] آلَ النَّبِىّ وأَبْطَأَ عَنْــهُ شِفَاءُ العَلِيلِ
وَأَطْـــوَادُ عِزِّهِمُ مَائِلاَتٌ لَهُ وَهْوَ يَرْنُو[٢] بِطَرْفٍ كَلِيلِ[٣]
وَأَبْحُرُهُمْ زَاخِرَاتٌ إِلَيْـــهِ وَيَرْشُفُ[٤] فِى الثَّمَدِ المُسْتَحِيلِ
تَجَزَّأَ مِنْ جَنَّـــتَىْ مَأْرِبٍ بِخَمْطٍ وأَثْلٍ وسِـــدْرٍ قليلِ[٥]

ومِنها : ٥

شَرِيدُ السُّيُوفِ وَفَلُّ الحُتُوفِ يَكِيدُ بِأَفْلاَذِ قَلْبٍ مَهُولِ
تَهَاوَتْ بِهِمْ مُصْعِقَاتُ الرُّعُو دِ فِى مُدْجِنَاتِ الضُّحَى والأَصِيلِ
بَوَارِقُ ظَلْمَـــا تَسِحُّ دمًا مِن حَمًا أَوْ دَمًا مِن قتيلِ[٦]
فأَذْهَلَ مَرْضِعَةً عَنْ رَضِيعٍ وأَنْسَى الحَمَائِمَ ذِكْرَ الهَدِيلِ
فَمَا تَهْتَدِى العَيْنُ فِيها سَبِيلاً سِوَى سُبُلِ العَبَرَاتِ الهُمُولِ ١٠
وَلاَ يَعْرِفُ المَوْتُ فِيها طَرِيقًا إلى النَّفْسِ إلاَّ بِعَضْبٍ صَقِيلِ[٧]

ومِنْهَا :

رَكِبْتُ[٨] لَهَا مَحْمَلاً لِلنَّجَاةِ وصَيَّرتُ قَصْدَكَ فِيــهِ عَدِيلِى
فَرُدَّتْ عَلَى عَقِبَيْهَـــا المَنُونُ بِوَاقٍ مُجِيرٍ وَرَأْىٍ أَصِيلِ

(١) م : « تبسم » (٢) ب : « فريق »
(٣) ب : « كحيل » (٤) م : « يرجف »
(٥) لم يقع هذا البيت إلا فى م (٦) لم يقع هذا البيت والذى قبله إلا فى ب ، ولعله :

بوارق ظلمائها تستبيح ذمام حمى أو دما من قتيل

(٧) لم يقع هذا البيت والذى قبله إلا فى م (٨) م : « وكنت »

وقَدْ سُمْتها بنَفِيسِ التِّـــلَادِ عَلَى أنْفُسٍ ضَائعاتِ الدُّحُولِ
نُفُوسُ حَنَتْ قَوْسَ عَطْفِى عَلَيْهَا فَـكُنَّ سِهَامَ قِسِىِّ الخُمُولِ(١)

ومَعْنَى هذا البَيْت كقول الرَّضِىِّ مِمَّا أنشدَه الثَّعالِبِىُّ :

هُنَّ القِسِىُّ من النُّحُولِ فإنْ سَمَا طَلَبٌ فهُنَّ مِنَ النَّجَاءِ الأَسْهُمُ(٢)

قال الثَّعالِبِىُّ : وما أَحْسَنَ ما جَمع بين القِسِىِّ والأَسْهُم ، وما أراه سُبِق إليه على هذا الترتيب . وقال بعضُ أهْلِ عَصْرِنا وهو عَبْدُ المَجِيدِ بنُ عَبْدُون من جُمْلةِ أبْياتٍ هى ثَابتةٌ بِمَوْضِعِها من هذا المجموع :

جَوَانِـحُ كَالقِسِىِّ رَمَتْ ثَبِيرًا بِفِتْيانٍ — أقِلِّى — بَلْ نِبَالِ

وقال أبُو العَرَبِ الصِّقِلِّىُّ :

وَحطَّ بِنَا عَنْ نَاجِيَاتٍ كَأَنَّها قِسِىٌّ رَمَتْ مِنَّا البِلادَ بأَسْهُمِ

وفى هذه القَصِيدةِ يقولُ القَسْطَلِّىُّ :

وَمِنْ دُونِنا آنِسَاتُ الدِّيارِ نِهَابَ الحِمَى مُوحِشاتِ الطُّلُولِ
مَغَانِى السُّرُورِ لبِسْنَ الحِدادَ عَلَى لَابِسَاتِ ثِيَابِ الذُّهُولِ
خَطِيبَاتِ خَطْبِ النَّوَى والمُهُورُ مَهَارَى عَلَيْها رِحَالُ الرَّحِيلِ
فَمِنْ حُرَّةٍ جُلِيَتْ بالجَلَاءِ وعَذْرَاءَ نُصَّتْ بِنَصِّ الزَّمِيلِ
ولا حَلْىَ إلاّ جُمَانُ الدُّمُوعِ تَسِيلُ عَلَى كُلِّ خَدٍّ أَسِيلِ
فَبُدِّلْنَ مِنْ طُولِ خَفْضِ النَّعِيمِ بِشَقِّ(٣) الحُزُونِ وَوَعْثِ السُّهُولِ

(١) ر : « الخبول » (٢) راجع « يتيمة الدهر » للثعالبي (ج ٣ ص ١١٨ — ١١٩)
(٣) ب : « بسوء »

ومنْ قِصَرِ اللّيلِ تَحْتَ الحِجَالِ … بِهَوْلِ السُّرى تحتَ لَيْلٍ طَويلِ
وَمن عَلَلِ الماءِ تَحْتَ الظِّلالِ … صِلاءُ القُلوبِ بِحَرِّ الغَليلِ
ومنْ طِيبِ نَفْحٍ بِنَوْرِ الرِّياضِ … تَلَظِّى لَفْحٍ بِنارِ المَقيلِ
وَمنْ أُنْسِها بَيْنَ ظِئْرٍ وَتِرْبٍ … سُرى لَيْلِها بَيْنَ ذِئْبٍ وَغُولِ
ومنْ كُلِّ مَرْأى مُحَيًّا جَميلٍ … تَلَقِّى الخُطُوبِ بِصَبْرٍ جَميلِ ٥
لَعلَّ عَواقِبَهُ أنْ تَتِمَّ … فَيَهْدى الغريبُ سَواءَ السَّبيلِ
إلى الهاشِمِىِّ ، إلى الطّالِبِىِّ ، … إلى الفاطِمِىِّ العَطُوفِ الوَصُولِ
فَسُمِّىَ جَدُّكَ عَمْرُو الكِرامِ … بِهَشْمِ الثَّرِيدِ زَمانَ المُحُولِ (١)
وضَيَّفَ حَتّى وُحُوشَ الفَلاةِ … وأَهْدَى القِرى لِهِضَابِ الوُعُولِ
وَإنَّ أبا طَالِبٍ لِلضُّيوفِ … لَأَطْلَبُ مِنْ ضَيْفِهِ لِلنُّزُولِ ١٠
يَرُوحُ عَلَيْهِم بِغَضِّ الجِفانِ … ويَغْدُو لَهُمْ بِالغَرِيضِ النَّشِيلِ
فَأَنْتُمْ هُداةُ حَياةٍ وَمَوْتٍ … وأَنْتُمْ أَئِمَّةُ فِعْلٍ وَقِيلِ
وسَاداتُ مَنْ حَلَّ جَنَّاتِ عَدْنٍ … جَميعِ شَبابِهِمُ والكُهُولِ
وأَنْتُمْ خَلائِفُ دُنْيا وَدِينٍ … بِحُكْمِ الكِتابِ وحُكْمِ العُقُولِ
وَوَالِدُكُم خاتَمُ الأَنْبِياءِ … لَكُمْ مِنْه مَجْدُ حَفِىٍّ كَفِيلِ ١٥
تَلَذُّ بِحَمْلِكُمُ عاتِقاهُ … عَلَى حَمْلِهِ كُلَّ عِبْءٍ ثَقيلِ
ورَحْبٌ عَلَى ضَمِّكُمْ صَدْرُهُ … إذا ضَاقَ صَدْرُ أَبٍ عَنْ سَلِيلِ
ويَطْرُقُهُ الوَحْىُ وهْنًا وأَنْتُمْ … ضَجِيعاهُ بينَ يَدَىْ جِبْرَئيلِ
وزَوَّدَكُم كلَّ هَدْىٍ زَكِىٍّ … وأَوْدَعَكُمْ كلَّ رأْىٍ أَصِيلِ

(١) هذا البيت والأبيات التى تليه إلى آخر القصيدة لم تقع إلا فى ب

قوله : « فمن حُرَّةٍ جُليَتْ بالجَلاء » البيت[١] ، كقَوْلِ أبى عبد الله بن شَرَف القَيْرَوانىّ من جملةِ أبياتٍ :

بَاتَ كرسيُّها الجِلاء فأضْحَتْ فى ثيابِ الجَلاء للنـــاسِ تُجْلَى

قال ابن بسّام : وانتحى ابنُ شَرَفٍ ، فيما وصفَ من فِتْنةِ قيْرَوانه ، مَنْحى القَسْطَلىّ فى شكوى زمانه ، والحديثِ عن الفِتن ، فكاثَر البَحْر بوَشَلٍ مَشْفوهٍ ، وجارَى الريحَ بكَوْدَنٍ لا فضلَ فيه . وفى القسم الرابعِ من هذا الديوان[٢] جملةٌ من شعره ، شاهدةٌ على ما أجريتُ من ذِكره .

وقال أبو عُمَر[٣] فى الخليفةِ خَيْرانَ العامرىّ صاحبِ المرِيَّةِ ، وهو متوجِّهٌ إلى سَرَقُسْطَةَ سنة سَبْعٍ وأربعِمائَة ، ورأيتُ إثباتَ بَعْضِها لحُسْنِها[٤] :

لكَ الخيرُ قد أوْفى[٥] بعهْدكَ خَيْرانُ وبُشْراكَ قدْ وافاكَ عِزٌّ وسُلْطانُ
هُوَ النَّجْمُ لا يُدْعى إلى الصُّبح شاهِدٌ هُوَ النُّورُ لا يُبْغَى على الشَّمْسِ بُرْهانُ
إليْكَ شَحَنّا الفُلْكَ تَهْوى كأنَّها وقدْ ذُعِرتْ من مَغْرِبِ الشَّمْسِ غِرْبانُ
على لُجَجٍ خُضْرٍ إذا هبَّتِ الصَّبا تَرامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهْلانُ
مَواثِلَ[٦] تَرْعى فى ذَراها مَواثِلاً كما عُبِدَتْ فى الجاهِليَّةِ أوْثانُ
وفى طَىِّ أسْمالِ الغريبِ غَرائبٌ سَكَنَّ شِغافَ القَلْبِ شِيبٌ ووِلْدانُ
يُرَدِّدْنَ فى الأحْشاءِ حَرَّ مَصائبٍ تَزيدُ ظَلامًا ليْلَها وهْىَ نيرانُ

(١) راجع ص ٧٢ س ١٥ (٢) ب : « الكتاب »

(٣) لم يقع ما يلى إلى آخر الأبيات الآتية إلا فى ب

(٤) صححنا بعض روايات هذه القصيدة من كتاب « اليتيمة » للثعالبى (ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤) ومن كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب (ص ٢٤٥ — ٢٤٧)

(٥) ب : « وافى » (٦) ب : « قواتل »

إذا غِيضَ ماءُ البَحْرِ مِنْها مَدَدْنَهُ ... بِدَمْعِ عُيُونٍ تَمْتَرِيهِنَّ أَشْجَانُ

وإنْ سَكَنَتْ عَنْها الرِّياحُ جَرَى بِها ... زَفِيرٌ إلى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حَنَّانُ

يَقُلْنَ ومَوْجُ البَحْرِ والهَمُّ والدُّجَى ... تَمُوجُ بِنا فِيها عُيُونٌ وآذانُ

أَلا هَلْ إلى الدُّنيا مَعادٌ وهَلْ لَنا ... سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الماءِ أَكْفانُ

وَهَبْنا رَأَيْنا مَعْلَمَ الأَرْضِ هَلْ لَنا ... مِنَ الأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الإنْسِ عِرْفانُ

وَصَرْفُ الرَّدَى مِنْ دُونِ أَدْنَى مَنازِلٍ ... تَباهَى إلَيْنا بالسُّرُورِ(١) وتَزْدانُ

تَقَسَّمَهُنَّ السَّيْفُ والحَيْفُ والبِلَى ... وَشَطَّتْ بِنا عَنْها(٢) عُصُورٌ وأَزْمانُ

كما اقْتَسَمَتْ أَخْدانَهُنَّ يَدُ النَّوَى ... فَهُمْ لِلرَّدَى(٣) والبَرِّ والبَحْرِ(٣) إخْوانُ

ظَعائِنُ، عُمْرانُ المَعاهِدِ مُقْفِرٌ ... لَهُنَّ وقَفْرُ الأَرْضِ مِنْهُنَّ عُمْرانُ

هَوَتْ أُمُّهُمْ ماذا هَوَتْ بِرِحالِهِمْ ... إلى نازِحِ الآفاقِ سُفْنٌ وأَظْعانُ(٤)

كَواكِبُ إلا أَنَّ أَفْلاكَ سَيْرِها ... زِمامٌ ورَحْلٌ أَوْ شِراعٌ وسُكَّانُ

فإنْ غَرَّبَتْ أَرْضُ المَغارِبِ مَوْئِلِى ... وأَنْكَرَنِى فِيها خَلِيطٌ وخِلَّانُ

فَكَمْ رَحَّبَتْ أَرْضُ العِراقِ بِمَقْدَمِى ... وأَجْزَلَتِ البُشْرَى عَلَىَّ خُراسانُ

وإنَّ بِلادًا أَخْرَجَتْنِى لَعُطَّلٌ ... وإنَّ زَمانًا خانَ عَهْدِى لَخَوَّانُ

سَلامٌ على الإخْوانِ تَسْلِيمَ يائِسٍ ... وسَقْيًا لِدَهْرٍ كانَ لِى فِيهِ إخْوانُ

نُوَدِّعُهُمْ شَوْقًا(٥) بِشَجْوٍ كَمِثْلِ ما ... أَجابَتْ خَفِيفَ السَّهْمِ عَوْجاءُ مِرْنانُ

ويَصْدَعُ ما ضَمَّ الوَداعُ تَفَرُّقٌ ... كما انْشَعَبَتْ تَحْتَ العَواصِفِ أَغْصانُ

إذا شَرَّقَ الحادِى بِهِمْ غَرَّبَتْ بِنا ... نَوًى يَوْمُها يَوْمانِ والحِينُ أَحْيانُ

(١) ب: «بالسرى» (٢) ب: «عنهم» (٣ — ٣) بياض فى ب

(٤) كذا فى ب، وهذا البيت والذى بعده لم يوجدا فى «أعمال الأعلام»

(٥) ب: «شجوا»

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقٌ وَزَفْرَةٌ ... وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَشْجَانُ

وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ ... وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

فَيَا عَجَبًا لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّنَا ... لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا

قَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ ... بِأَنِّي قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا

٥ وَأَفْجَعُ مَنْ آوَى صَفِيحٌ وَجَلْمَدٌ ... وَوَارَتْ رِمَالٌ بِالْفَلَاةِ وَكُثْبَانُ

وُجُوهٌ تَنَاءَتْ فِي الْبِلَادِ قُبُورُهَا ... وَإِنَّهُمُ فِي الْقَلْبِ مِنِّي لَسُكَّانُ

وَمَا بَلِيَتْ فِي التُّرْبِ إِلَّا تَجَدَّدَتْ ... عَلَيْهَا مِنَ الْقَلْبِ الْمُوَجَّعِ أَحْزَانُ

ومنها:

هُمُ اسْتَخْلَفُوا الْأَحْبَابَ(١) أَمْوَاجَ لُجَّةٍ ... هِيَ الْمَوْتُ أَوْ فِي الْمَوْتِ عَنْهُنَّ سُلْوَانُ

١٠ وَلَا يَأْسَ مِنْ رَوْحٍ وَفِي اللهِ مَطْمَعٌ ... وَلَا بُعْدَ(٢) مِنْ خَيْرٍ وَفِي الْأَرْضِ خِيرَانُ

مَتَى تَلْحَظُوا(٣) قَصْرَ الْمَرِيَّةِ تَنْزِلُوا(٤) ... بِبَحْرِ نَدًى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجَانُ

وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرٍ شَجَاكُمُ ... بِمَوْجٍ(٥) لَكُمْ مِنْهُ لُجَيْنٌ وَعِقْيَانُ

فَتًى سَيْفُهُ لِلدِّينِ أَمْنٌ وَإِيمَانُ ... وَإِيمَانُهُ لِلْأَهْلِ رَوْحٌ وَرَيْحَانُ

فَفُضَّتْ سُيُوفٌ حَارَبَتْهُ وَأَيْمُنٌ ... وَشَاهَتْ وُجُوهٌ فَاخَرَتْهُ وَتِيجَانُ

١٥ وَبِالْخَيْرِ فَتَّاحٌ(٦) وَبِالْخَيْرِ عَائِدٌ ... وَبِالْخَيْلِ ظَعَّانٌ وَلِلْخَيْلِ طَعَّانُ

لَهَا الْكَرَّةُ الْغَرَّاءُ عَنْ كُلِّ شَارِدٍ ... أَضَاءَتْ لَهُمْ مِنْهَا دِيَارٌ وَأَوْطَانُ

وَرَدَّ بِهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ زَنَاتَةً ... كَمَا انْقَلَبَتْ يَوْمَ الْهَبَاءَةِ ذُبْيَانُ

---

(١) ب: «الأبواب»
(٢) ب: «ولا بد»
(٣) ب: «تلحقوا»
(٤) ب: «تظفروا»
(٥) ب: «ببحر»
(٦) ب: «فاتح»

بِكُلِّ كَمِيٍّ عَامِرِيٍّ يَسُوقُهُ لِحَرِّ الْوَغَى قَلْبٌ عَلَى الدِّينِ حَرَّانُ
حُلِيُّهُمُ بِيضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا لَهَا وَحُلَاهُمْ سَابِغَاتٌ وَأَبْدَانُ
فَأَيُّ صُقُورٍ قَلَّبَتْ أَيَّ أَعْيُنٍ إِلَى أَيِّ لَيْثٍ رَدَّهَا وَهِيَ خِيلَانُ
عُيُونٌ بِهَا كَادُوا الْعُلَا بِعَمَائِهَا فَهُمْ فِي سَبِيلِ (١) الرُّشْدِ وَالغَيِّ عُمْيَانُ
وَمَا لَهُمُ فِي ظُلْمَةٍ بَعْدُ كَوْكَبٌ وَمَا لَهُمُ فِي مُقْلَةٍ بَعْدُ إِنْسَانُ ٥
تَضِيقُ بِهِمْ رُحْبُ الْقُصُورِ وَوُدُّهُمْ لَوِ احْتَازَهُمْ عَنْهَا كُهُوفٌ وَغِيرَانُ
وَأَنْسَيْتَهُمْ حَمْلَ الْقَنَا ، بِسِلَاحِهِمْ عَلَيْكَ — إِذَا لَاقَوْكَ — ذُلٌّ وَإِذْعَانُ
وَأَنَّى لِغِلِّ الْقِبْطِ فِي مِصْرَ مَوْئِلٌ وَقَدْ غِيلَ فِرْعَوْنٌ وَأُهْلِكَ هَامَانُ
حَفَرْتَ لَهُمْ فِي يَوْمِ قَبْرَةَ بِالْقَنَا قُبُوراً هَوَاءُ الْجَوِّ مِنْهُنَّ مَلْآنُ
يَطِيرُ بِهَا هَامٌ وَنَسْرٌ وَنَاعِبٌ وَيَعْدُو بِهَا ذِئْبٌ وَذِيخٌ وَسِرْحَانُ ١٠
فَلَوْ نُشِرَ الْأَمْلَاكُ يَوْمَكَ فِيهِمُ لَأَلْقَى إِلَيْكَ التَّاجَ كِسْرَى وَخَاقَانُ
وَلَوْ رُدَّ فِي الْمَنْصُورِ رُوحُ حَيَاتِهِ غَدَاةَ لَقِيتَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ غَرْثَانُ
وَنَادَيْتَ لِلْهَيْجَاءِ أَبْنَاءَ مُلْكِهِ فَلَبَّاكَ آسَادٌ عَبِيدٌ وَفِتْيَانُ
جِبَالٌ إِذَا أَرْسَيْتَهَا حَوْمَةَ الْوَغَى وَإِنْ تَدْعُهُمْ يَوْمًا إِلَيْهَا فَعِقْبَانُ
كَتَائِبُ بَلْ كُتْبٌ بِنَصْرِكَ سُطِّرَتْ وَوَجْهُكَ « بِسْمِ اللهِ » وَالسَّيْفُ عُنْوَانُ ١٥
هُوَ السَّيْفُ لَا يَرْتَابُ أَنَّكَ سَيْفُهُ إِذَا نَازَلَ الْأَقْرَانَ فِي الْحَرْبِ أَقْرَانُ
وَأَسْمَرَ يَسْرِي فِي بِحَارٍ مِنَ الرَّدَى بِيُمْنَاكَ لَكِنْ تَغْتَدِي وَهْوَ ظَمْآنُ
تَلَأْلَأَ نُورًا مِنْ سَنَاكَ سِنَانُهُ وَقَدْ دَعَتِ الْفُرْسَانَ لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ
فَلِلَّهِ مَاذَا أَنْجَبَتْ مِنْكَ عَامِرٌ وَلِلَّهِ مَاذَا نَاسَبَتْ مِنْكَ قَحْطَانُ
وَلِلَّهِ مِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ رَمَتْهُمُ إِلَى يَدِكَ الْعُلْيَا بُحُورٌ وَبُلْدَانُ ٢٠

(١) ب : « شعاب »

وَكُلُّهُمُ يُزْهى عَلَى الشَّمْسِ بِالضُّحى ... وَبَدْرِ الدَّيَاجِى ، إِنَّهُمْ لَكَ جِيرَانُ
وقدْ زَادَ أبناءُ السَّبِيلِ وَسِيلَةً ... وحَلُّوا فزادُوا أنّهم لكَ ضِيفَانُ
فمَا قَصَّرَتْ بِى عَنْ عُلَاكَ شَفَاعَةٌ ... وَلَا بِكَ عَنْ مِثْلِى جَزَاءٌ و إحْسَانُ

إيجازُ الخبرِ عن إمارةِ علىِّ بن حَمُّود(١)

قَالَ أبُو مَرْوَان : هُوعلىّ بن حَمُّودبْن ميمُون بن حَمُّود بن علىّ بن عُبَيْدالله بن عُمَر بن إدْرِيس بن إدْرِيس بن عبدالله بن حَسَن بن علىّ بن أبِى طالب رَضِىَ اللهُ عنهم .

وذَكَرابنُ قُتَيْبَة(٢) أنَّ نفرًا من ولد إدريس بن عبد الله بن حسَن أيَّامَ طَلَبَهُ الرَّشيدُ فحَبَسَهُ عِند جَعْفَرِ بن يحْيى فرُّوا إلى المَغْربِ فوَقعُوا ببِلادِ إفْرِيقيَة ، ثُمَّ رفَضتْهم(٣) آفاقُها إلى طَرَفِ بِلادِ البَرْبَرِ(٤) فنَكَحُوا إليهم (٥)وتَبَرْبَرُوا معهم(٥) .

قال أبو الحسَن : وقدْ بلَغَنى أنَّ عَقِبَهم إلى اليومِ هُنالِك وقد قَدَّمتُ فِيا نقَلتُهُ من كِتابِ ابن حَيَّان فى أخْبارِ الخَليفة(٦) سُلَيمان السَّبَبَ الذى أوْطَأَ لِعلىِّ ابن حَمُّود ثَبَجَهَا ، وأوْضَحَ له مَنْهَجَهَا ، حتَّى خَرجَ من عَمَائِها(٧) ، وعرَج إلى سَمَائِها . ونكْتُب هاهُنا ما نَصَّهُ أيضًا أبو مَرْوان من كَيْفِيَّة(٨) مَقْتَلِه وخَبَره ، بقُرْطُبَة أوَّلِه وآخِره ، بعد أنْ نَبْرأَ من التَّطْوِيلِ ، ونَحذِفَ إنِ احتجْنا إلى ذلك بَعْضَ الفُصول .

(١) ز فى ر : « الذى ذكر »
(٢) ب : « العتبى »
(٣) ب : « افظتهم »
(٤) ب : « طرف من بلاد المغرب »
(٥—٥) نه فى ر
(٦) نه فى ب
(٧) ر : « غمائها »
(٨) ب : « شرح »

قال ابن حيّان : بُويِعَ علىُّ بنُ حَمُّود فى بابِ السُّدَّةِ من قصْرِ قُرْطُبَةَ يومَ الاثنين لِسَبْعٍ بَقِينَ[١] لمُحَرَّم سنة سَبْعٍ وأرْبَعِمائة ، ثانىَ اليوم الذى أدْرَكَ فيه بثارِ هشامٍ المُؤَيَّد ؛ ولم يَتَخَلَّفْ أحدٌ عن بَيْعته ، ووَصَلُوا إليه عَلَى طَبَقاتِهِم ، فَكَرَّم منازِلَهم ، وأجْمَل خِطابَهم ، وتَسَمَّى لِيَومِهِ من الألْقاب السُّلْطَانِيَّةِ[٢] بالنَّاصِرِ لِدينِ الله : لَقَبٌ[٣] قد سَبَقَه إليه بالمَشْرِقِ أبو أحمدَ بنُ المتوكِّلِ العبَّاسِيّ ، وتَبِعَهُ فيه أيْضًا[٤] عبدُ الرَّحمن بن محمّد بهذا الأُفُقِ[٥]

ولمَّا صارَتْ لِعَلِيِّ بنِ حَمُّودٍ الخِلافَةُ تقدَّم من القَهْرِ للنَّاسِ بالغَلَبَةِ والإرْهابِ لَهم بما خَامَرَ القُلوبَ من هَوْلِ سَطْوَته ، ولا سيَّما بَرابِرَةُ العَسْكَرِ لِما أحَلَّ بهم من الذُّلِّ والقَتْلِ فدَهِشُوا منه . وقادَهم مُدَيْدَةً قَوْدَ الإبِلِ المَخطُومةِ ، وأعْدَى عليهم الخُصُومَ ، حَتَّى صار أقلُّ الرَّعيّةِ يرفع أعْتاهُمْ الى الحُكَّام بما شاءَ من وجوهِ الدَّعاوَى فتجرِي عليهم الأحكام ؛ فبَرَقَتْ للعدل يومئذٍ بارقةٌ خُلَّبٌ لم تَكَدْ تَقِدُ حتَّى خَبَتْ ، وتَبَيَّنَ أنَّ البَرابِرَ أطْوعُ خَلْقِ الله[٦] لمنْ أخافَهم . وجَلَس علىٌّ بنفسه لِمَظالِمِ النّاسِ[٧] ، وهو مَفْتوحُ[٨] البابِ[٧] ، مَرْفُوعُ الحِجابِ[٩] ، لِلوارِدِ والصَّادِرِ[٩] ، يُقِيمُ الحُدودَ مُباشِرًا بنَفْسه ، لا يُحاشِي أحدًا من أكابِرِ قومه . فانْتَشَرَ أهْلُ قُرْطُبَةَ[١٠] فى الأرض ، ذاتِ الطولِ والعَرْضِ[١٠] ، وسُلِكَتِ السُّبُل ، ورَخَا السِّعرُ ، وأرْقَوا الأغْذِيَةَ ، وشَامُوا النِّسَاء ، وطَلَبُوا النَّسلَ ، وكان

(١) بياض فى ب
(٢) ب : « الأسماء الخلافية »
(٣) ب : « وهو اسم »
(٤) ر : « قبله »
(٥) ب : « صاحب الأندلس »
(٦) ب : « أطوع البشر »
(٧—٧) له فى ر
(٨) ب : « مفترج »
(٩—٩) له فى ر
(١٠—١٠) له فى ر

أكثرَهم يقولُ بالعُزْلة ، واتّخذوا الحلْواء على طُول عهدٍ بها ، ورجَوْا الإقالة فخانهمُ الأملُ عما قليلٍ ، وارتكسُوا فى المحنة .

ومن بعضِ ما جرى فى مجْلسٍ له من مُباشرته إقامة الحُدُودِ بنفسه ، وجُلوسِه حيثُ لم يجْلِسْ قط خليفةٌ أنّه قُدِّمَ إليه عِصابةٌ من البَرابِر الأكابِر ، فى جَرائِمَ تجاوزَتْ حدَّ النَّكال ، فأمَرَ بضَرْبِ أعْناقِهم [1] وعشائرُهم ينظُرُون خِفوةً لا ينْبِسُونَ ، ولا يجْسُرُون عليه [2] فى شفاعةٍ . وبهذا المجلسِ وشِبْهِه ما فُتِنَ أهلُ قرطبة بابن حمّود أشدَّ فِتْنةٍ . وخَرَج يوْمًا على بابِ عامرٍ فالْتقى بفارسٍ من البَرابِر قُدّامَهُ حِمْلُ عِنَبٍ [3] ، فاستوْقفَهُ وقال له : من أيْنَ لك هذا العِنَبُ ؟ قال : أخذْتُه كما يأخُذُ الناسُ ! فأمَرَ بضَرْبِ عُنُقه ، ووَضْعِ رأسه وسْط الحِمْلِ ، وطِيفَ به البلَدُ كُلُّه . وكلُّ أفْعالِه كانت حَسَنةً عنْدَ الرَّعيّةِ إلى أنْ أوقعَهُمْ فى أعْظمِ بَليّةٍ .

وكانَ علىُّ بنُ حمّود تِلِقّاعةً ، شديدَ الإصابة بعَيْنه ، لا يكادُ يفْتَحُ عَيْنيه على شىءٍ يَسْتَحسِنُه إلاّ أسْرعَت الآفةُ إليه ؛ وله فى ذلك نَوادِرُ عجيبةٌ ، ولَرُبّما قال للنّفيسةِ من نِسائِهِ : وَارى محاسِنَكِ عنْ عَيْنى ما اسْتطعْتِ ! فإنّى شاجٍ عليكِ مِنْ عَيْنى وأنا أحبُّ الاستِمْتاعَ بكِ ، أو كلامًا هذا مَعْناه ، أخَذْتُه عن حَظيّةٍ له زادَتْنى من عَجائبه .

واستمَرَّ مع أهلِ قُرْطُبةَ نحوًا من ثمانيةِ أشهُرٍ فى أحْسَنِ عِشْرةٍ ، ثمّ آنسَ منهم الكَراهيةَ لدوْلته . وبلَغه أيضًا قِيامُ المُرْتضَى بشَرْقِ الأنْدلُس ، فعزَمَ على إبادة أهلِ قُرْطُبةَ وإخلائها ، فلا يعودُ لأئمّتهم المَرْوانيّةِ سُلْطانٌ آخرَ الدَّهر ، ثمّ يعودُ إلى ساحلِه ، ويجْمعُ شَمْلَ بَرابِرَتِه ، فيضْرِبُ بهم جميعَ

(١) ب : « رقابهم » (٢) ىد فى ر (٣) بياض فى ب

الأَنْدَلُسِ ، فانقلبَ سَرِيعًا عن التَّجَمُّل الذى كانَ يُظْهِرُه لهم[١] وانصَرَفَ إلى حِزْبِهِ البَرْبَرِىِّ ، فَآثَرَهُ ، وأَغْضَى على سُوءِ ما كانوا عليـه من الظُّلْمِ والحَيْف ، فَوَقَعَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ وغَيْرُهم فى حالتِهم مُدَّةَ سُلَيْمانَ ، من استِطالَتِهم عَلَيهم . وصَبَّ على أَهْلِ قُرْطُبَةَ ضُرُوبًا[٢] من التَّنْكِيلِ[٣] والمَغارِمِ ، وانْتَزَعَ السِّلاحَ منهم ، وهَدَمَ دُورَهُم ، وقَبَضَ أَيْدِىَ الحُكَّامِ عن إنْصافِهم ، وأَغْرَمَ عامَّتَهم ، وتَوَصَّلَ إلى أعْيانِهم بأَقْوامٍ من شِرارِهم ، فَفَتَحُوا له أَبْوابًا من البَلايَا أَهْلَكُوا بها الأمَّةَ ، وتقَرَّبُوا إليه بالسِّعاية ، وقَرَنَ بجَمِيعِ النَّاسِ الأَشْراط ، ووَكَّلَ بهم الضُّغَّاط ، وَمَا شِئْتَ من مُكَشَّفٍ عن اليَمِينِ والشِّمال ، مَتْلُولِ الجَبِينِ مُذَالِ القَذال[٤] ، قد صار شَطْرُ النَّاسِ أَشْراطًا على سائِرِهم ، قَلَّمَا تلقَى أَحَدًا منهمُ إلاَّ بِمُوَكَّلٍ عليه ، حتَّى كأَنَّ الكِرامَ الكاتبِينَ بَدَوْا للأَبْصار ، فأَخَذَتْ على النَّاسِ الأَقطار ؛ فَأَظْلَمَتِ الدُّنيا ، وأَبْلَسَ أَهلُها ، وغَشِيَهم[٥] من أَمْرِ اللهِ ما غَشِيَهم[٥] ؛ فَلَزِمُوا البُيوتَ ، وتَطَمَّرُوا فى بُطُونِ الأَرْض ، حتَّى قَلَّ بالنَّهارِ ظُهُورُهم ، وخَلَتْ أَسْواقُهم[٦] ، فإذا دَنَا المَساءُ وكَفَّ الطَّلَبُ عَنهم ، انتَشَرُوا تحتَ الظَّلامِ لِبَعضِ حاجتِهم[٦] .

واُمتُحِنَ مَعَهُ جَماعةٌ من الأَعْيان ، مِمَّن خَدَمَ فى مُدةِ سُلَيْمان ، فاعْتُقِلُوا وصُودِرُوا بأَمْوال ، وامتُهِنَ بَعضُهم بالضَّرْبِ[٧] فَفَدَوْا أَنفُسَهم وأُمِرَ بإِطْلاقِهم[٧] ؛ فلمَّا أُحضِرَتْ دوابُّهم للرُّكُوبِ ، قُبِضَتْ جميعُها ، وانطلق القَوْمُ رَجْلًا إلى بُيوتِهم ، فكانتْ عندهم أَعظمَ آفةٍ جَرَتْ عليهم ؛ وكانَ منهم أَبو الحَزْمِ

(١) ب : « لأهل الأندلس » (٢) ـه فى ب
(٣) ـه فى ر (٤) ر : « مزال العدال »
(٥ — ٥) ـه فى ر (٦ — ٦) ـه فى ر
(٧ — ٧) ب : « حتى صانعوا على أنفسهم بجملة من المال »

ابنُ جَهْوَر ، وأحْمَدُ بنُ بُرْدٍ الأكْبر[١] ، وغيرُهما . فهذه جُمْلَةٌ من أخْباره ، فى حالَىْ صَلاحِهِ وفَسَادِه ، ووَقْتَىْ رِضاهُ وسُخْطِه .

كَيْفِيَّةُ مَقْتَلِهِ[١] :

فلمّا شَنَأَتْهُ[٢] القُلوب ، وأثقَلَتْه الأوْزار ، والتَقَتْ عليه الأكُفّ ،
٥ وخَلَصتْ فيه النَّجْوَى ، وتَوالَى عليه الدُّعاء[٣] ، نظَرَ اللهُ إلى عِبادِهِ[٣] ، وسَلَّطَ عليه أضْعَفَ الخَليقة صِبْيَانًا أغْمارًا من صَقالِبَةِ[٤] بنى مَرْوَانَ كانوا أقْرَبَ النَّاسِ إليه ، وأدْناهُم من حُرْمَتِهِ ، وأحْقَرَهُم فى عَيْنِه[٤] ، جَسَّرَهُم اللهُ تعالَى[٥] على الوُثُوب عليه بمَوْضِعِ أمْنِهِ فى حَمّام قَصْرِه[٥] ؛ لا عَن مُواطَأَةٍ من أحَدٍ إلاَّ ما ألقاهُ الله تعالى فى نُفوسِهِم له ؛ وكانُوا ثَلاثةً من الصَّقْلَبِ رُفَقاء ، فيهم
١٠ وَصِيفٌ حَسَنُ الوَجْهِ جدًّا كان يَخِفُّ عليه اسمُه : مُنْجِحٌ ، ولَبِيبٌ ، وعَجِيبٌ ؛ دَبَّروا[٦] جميعاً عليه فقَتَلوه ليلاً غُرَّةَ ذى القَعْدةِ من سنة ثَمانٍ وأرْبَعمائة ، وقد دَخَل الحَمّامَ سَحَرًا فابتَدَرَهُ مُنْجِحٌ بِكُوبِ نُحاسٍ ثَقيلٍ صَبَّهُ على رَأْسِه[٧] ، فشَجَّه فغُشِيَ عَلَيْه ، ونادَى صاحِبَيْهِ فودَجُوه[٨] بالخَناجِرِ[٩] حتّى بَرَدَ[٩] ، وسَدُّوا عليه بابَ الحَمّام ، وتَسَلَّلُوا وصَعِدُوا إلى سَقْفِ بَعْضِ القُصُور[١٠] ،
١٥ وكَمَنُوا فى مَخابٍ هُنالِكَ كانوا يَعْرِفُونَها فلم يُحَسَّ بهم[١٠] . ولَمّا استَطالَ نِساؤُهُ بَقاءَهُ بالحَمّام دَخَلْنَ عَلَيْهِ ، فلَمْ يَرُعْهُنَّ إلاّ مَسِيلُ دَمِهِ ، وهو قَتيلٌ مُمَزَّقٌ

(١ — ١) ـه فى ر (٢) ر : « سنئته » (٣ — ٣) ـه فى ر
(٤ — ٤) ـه فى ر (٥ — ٥) ب : « على موائبته فى قصره ، وموضع محله وأمنه »
(٦) ب : « بدروا » (٧) ب : « هامته » (٨) ب : « فضربوه »
(٩ — ٩) ـه فى ر (١٠ — ١٠) ـه فى ر

الإهاب . ولم يستتمّ النهارُ حتى صحّ عند النّاس مقتلُه[١] وخبرُ الفتك به[١] ؛ ففُرِّجَ عنهم[٢] غمٌّ عظيم ، وابتهلوا بشكرِ خالقهم .

واجتمعتْ زناتةُ ووجّهوا من حينهم إلى أخيه القاسمِ صاحبِ إشبيليةَ يومئذٍ ، فوافى قرطبةَ رسولُهُ ليقفَ على صحّةِ وفاةِ أخيه بالمعاينةِ ، وخافَ أن تكونَ حيلةً منهُ عليه هنالك[٣] ، فكُشِفَ له عنهُ وتحقّقه ، فانكفأ[٤] إلى صاحبِهِ ، ولحقَ القاسمُ فأخرجَ إليهِ جسدُ أخيهِ ، فصلّى عليه وأمرَ بإنفاذِهِ إلى مدينةِ سبتةَ فدُفنَ بها .

وكانتْ مُدّةُ عليّ بن حمّود — من يومِ قتلِ سليمانَ إلى يومِ قُتِلَ — واحدًا[٥] وعشرينَ شهرًا وسبعةَ أيّام ؛ فانقضى أمرُ عليٍّ على هذه السّبيلِ ، وصارَ خامسًا لمغتالي جبابرةِ الملوكِ فى الإسلام بأيدى عبيدهم وأتباعهم فى الحمّامِ خاصّةً : أحدُهم الفضلُ بنُ سهلٍ ذو الرياستينِ وزيرُ المأمون ، ثمّ أبو سعيدٍ الجنّابى[٦] صاحبُ القرامطةِ ، ثمّ الدّيلميُّ المُنتزى بإصبهانَ بعد الثلثمائة ، ثمّ ناصرُ الدّولةِ الحسنُ بنُ حمدانَ المُنتزى بالموصلِ وأعمالها فى تلك المُدّة ؛ وآخرُهم عليُّ بنُ حمّود هذا المُنتزى بالأندلس بعد الأربعمائة ، مع مزيّته عليهم ببراعة الشّرفِ وحرمةِ القرابةِ ، فاغتدى[٧] على فى ذلك القرانِ بسوءِ مصارعِ هؤلاء المبعوثين آيةً وموعظةً . على أنّ قتلَ الملوكِ والأئمةِ بأيدى الفحولِ من عبيدهم وأصحابهم — من غير هذا النّمطِ وعلى خلافِ هذا — كثيرٌ يشقُّ إحصاؤهم ، واللهُ أعلمُ بأنبائهم البالى سرائرهم . وكانَ الأغلبُ على عليِّ بن حمّودٍ السّخاء والشّجاعةُ على عُطولِه من الفهمِ والمعرفة ، وبراءته[٨] من الخيرِ جملةً .

(١—١) سه فى ر (٢) سه فى ب (٣) سه فى ب
(٤) ر : « فانكف » (٥) ب ، ر : « إحدى » (٦) ب ، ر « الجيانى »
(٧) ب : ر : « فاعتوى » (٨) ر : « برازته »

فَصْلٌ فى ذِكْرِ الوزيرِ الكاتبِ أبى حَفْصِ بْنِ بُرْدٍ الاكْبَرِ وإثْباتِ جُمْلةٍ ما انْتَخَبْتُه من نَظْمِهِ ونَثْرِهِ مع ما يَتَعَلَّقُ بِذِكْرِهِ

قال أبو الحَسَن : كان أبو حَفْصٍ فى ذلك الأوانِ واسِطةَ السِّلْك ، وقُطْبَ رَحَى المُلْك ؛ اسْتَقلَّ ببهائه وجَلالِه ، ورَفَل فى بُكَرِه[1] وآصالِه ، وبَرَّز على نُظَرائه[2] وأشكالِه . وبَنُو بُرْدٍ يَنْتَمون لبَنى شُهَيْدٍ بالوَلاء .

وقُلِّدَ أبو حَفْصٍ هذا دِيوانَ الإنشاءِ بعد ابنِ الجزيرىِّ ، ثم كَتَبَ عن سُلَيمانَ المستَعينِ وغَيْرِه من أُمَراءِ الفِتْنةِ فأَسْمَعَ الصُّمَّ بَيانا ، واستَنْزَلَ العُصْمَ إبْداعًا وإحْسانا ؛ [3] وقد أَخْرَجْتُ من رَسائلِه ، ما يُعْرِبُ عن فضائلِه ، ويُوَضِّحُ مشهورَ دلائلِه[3] ؛ وكانت وَفاتُه بسَرَقُسْطَةَ سَنَةَ ثمانىَ عَشْرَةَ وأربعِمائة ، وقد نَيَّفَ على الثَّمانين .

ما أَخْرَجْتُه من دِيوانِ رسائله فى أَوْصافٍ مُخْتَلِفة

[4] فُصُولٌ له من العَهْد المَعْقُود للنَّاصِرِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبى عامر :

هذا ما عَهِد به أميرُ المُؤْمِنينَ[4] هِشامُ المؤيَّدُ باللهِ — أطال الله بَقاءَه ! — إلى النَّاسِ عامَّة ، وعاهَد اللهَ عليه من نَفْسِه خاصَّة ، وأعطى به صَفْقَةَ يَمينِه ، بَيْعَةً تامَّة ، بعد أنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ ، وأطالَ الاستِخارة ؛ وأَهَمَّه ما جَعَل اللهُ له من إمامةِ[5] المُسْلِمين ، وعَصَب به من إمْرَةِ المُؤْمِنين ، واتَّقَى حُلولَ القَدَرِ

---

(١) ب : « ذكره » (٢) ب : « نظائره »

(٣—٣) تروى فى ر : « ولم أجد حين إخراج هذه النسخة من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب ولا يوضح مشهود دلائله ، وقد أثبت منها على ذلك بعض ما ألفيته هنالك »

(٤—٤) ب : « فصل : عهد عقد هشام الخ » (٥) ر : « إمارة »

بما لا يُؤمَن ، وخافَ نُزُولَ القضاء(١) بما لا يُصْرَف ، وخَشِىَ — إن هَجَم مَحْتُومُ ذلك عليه ، ونزَل مَقْدورُه به ، ولم يَرْفعْ لهذه الأمّة عَلَمًا تأوِى إليه ، ولم يُوجِزْها مَلْجأً تَنْعَطِف عليه — أن يكونَ بلقاءِ الله تعالَى مُفرِّطًا فيها ، ساهيًا عن أداءِ الحقِّ إليها . ونظَر عند(٢) ذلك طَبَقاتِ الرِّجالِ من أحْياءِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِها ، ممّن يَسْتحِقُّ(٣) أن يُسْنَدَ الأمرُ إليه ، ويُعوَّل فى القِيامِ به عليه ، ٥
ممّن يَسْتَوْجِبُه بِدِينِهِ وأمانته وهَدْيِهِ ورَعْيِه ، بعد اطِّراحِ الهوادَة ، والتَّبَرُّؤ من الهوَى ، والتَّحرِّى للحَقّ(٤) ، والتزَلُّفِ إلى الله تعالَى بما يُرْضِيهِ ، وإنْ قَطَعَ الأواصِرَ وأسْخَطَ الأقارِبَ ، عالِمًا أنْ لا شَفاعةَ عِنْدَهُ أعْلَى من العَمَلِ الصالِح ، (٥)ومُوقِنًا أن لا وَسِيلَةَ إليهِ أزْكَى من الدِّينِ الخالِص(٥) ؛ فلم يجدْ أحدًا هو أجْدَرَ أنْ يُقلِّدَه عَهْدَه ، ويُفوِّضَ أمْرَ الخلافةِ إليه بعْدَه ، فى فَضْلِ نفسِه ، ١٠
(٦)وكَرَمِ خِيمِه(٦) ، وشَرَفِ مَرْكَبِه ، وعُلُوِّ مَنصِبه ، مع تَقْواهُ وعَفافِه ، ومَعْرِفته وإشْرافِهِ ، وحَزْمِه وثِقافِهِ ، من المأمونِ الغَيْبِ ، النّاصِحِ الجَيْب ، النّازِحِ على كلِّ عَيْب ، ناصِرِ الدَّوْلةِ أبى المُطرِّفِ عبدِ الرحمنِ بن المنصورِ بنِ أبى عامِر وفَّقَه الله .

وفى فَصْلٍ منه : ١٥

مع أنّ أميرَ المؤمنينَ — أيّدَه اللهُ ! — بما طالعَه من مَكْنون العِلْم ، ووَعاه من مَخْزُونِ الأثَر ، أمَّلَ أن يكونَ وَلِىُّ عَهْدِه القَحْطانِىَّ الذى حَدَّثَ عنه عبدُ اللهِ بنُ

---

(١) ر : « القدر » (٢) ر : « نفض عن » — بياض فى ب ، والتصحيح عن ابن عذارى « البيان المغرب » (ج ٣ ص ٤٤) (٣) ب : « عما يستحسن »
(٤) ىه فى ب — ر : « التحرى للخلق » (٥—٥) ىه فى ب
(٦—٦) ىه فى ب

عَمْرو بن العاص بتحقيق ما أسْندَه أبو هُرَيْرَة إلى النبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم : « لا تقومُ السَّاعةُ حتّى يَخْرُجَ رَجُلٌ من قَحْطَانَ يَسوقُ النَّاسَ بعَصَاهُ » . فلمّا استوَتْ لهُ به الأخبار ، وتقابَلَتْ عندَه فيه الآثار ، ولم يجِدْ عنهُ مَذهبا ، ولا إلى غيرِه مَعْدِلا ، خَرَجَ إليــه عن تَدْبيرِ الأُمورِ فى حَياته ، وفوّضَ إليه النّظرَ فى أمْرِ الخِلافةِ بعد وَفاته[1] . ٥

وله فَصْلٌ من رُقْعةٍ كَتَبها عن المُظفَّرِ بن أبِى عامرٍ ، يقول فيها :

وإنَّ مِن أعْجَبِ العَجائب ما يَجْتَرِئُ عليه بعضُ أهْلِ خِدْمَتِنا من نَبْذِ عُهودِنا إليْهم بعد توْكيدِها ، وحَلِّ عُقودِنا عَلَيهم بعد تَشْدِيدِها ، ساهِينَ عمّا يتعرّضُون له من النِّقْمة لا يَحْذَرُون وُقوعَ المَحْذُور ، ولا يتوَقَّعُون حُلولَ التَّغْيير ؛ قد وَلّهَ أفْئِدَتَهم جَهْلُ الواجِبِ ، ورَانَ على قلوبِهم مَا أضاعوه[2] من الحقِّ ، فلم يَرْجُوا للهِ وَقارا[3] ، ولا وَفَّوْا سُلْطانَه إجلالاً وإكبـارا . وقـد قال بعضُ السَّلَفِ الصَّالِح : إنَّ مِن إجْلالِ الله إجْلالَ السُّلطانِ عادِلاً كان أو جائرا . ولا أحْسَبُ الذى غرَّهُم بنا ، وجرَّأهم عَلَيْنا ، إلّا ما وَهَبَ اللهُ تعالى لنا من الحِلْمِ مع المَقْدُرَة[4] ، والكَظْمِ[5] عنـد الحَفيظَة . وذلك وإنْ كان سَجِيَّةً غالِبة ، وخَلِيقةً لازِمة ، فرُبَّ شَبَعٍ[6] تحت مَخِيلِ النَّعْماء ، وغَصَص فى شَهِيِّ الغِذاء ، وشَرَقٍ فى نَمِيرِ الماء ! وبين أيْدِيكم — مَعْشَرَ الخَدَمةِ ! — ولا أخُصُّ بِندائى صَغيراً ولا كَبيرا ، ولا أُغْنِى ١٥

(١) هـذا العهد بتمامه فى « البيان المغرب » لابن عذارى (ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦) ونقله ابن الخطيب وابن خلدون والنويرى والمقّرى عن ابن عذارى . (٢) ب : « ما ادعوه »

(٣) سورة ٧١ : ١٣ (٤) ب : « القدرة »

(٥) ب : « والظلم »

(٦) ر : « سبع » — وفى ب اضطراب كثير فى هذه القطعة

بَعيداً دُونَ قَريب ، ولا أُنبِّهُ غائبًا دُونَ شاهِد — ونُصْبَ أَعْيُنِكُم ، وحَشْوَ أسماعِكم عَهْدُ المَنصُورِ رَضِىَ اللهُ عنه ، لم يَقْدُمْ زمانُه فيَنْسَى ، ولا أَتَتْ دُونَهُ الدُّهُورُ فَيَبْلَى ، ثابتٌ عَلَى جَماعتِكم ، ولازِمٌ لكافَّتِكُم ، من خاصٍّ وعامٍّ ، ودَانٍ وشَاحِط ؛ صَدَرُه التَّوْبيخُ باستِكْتاب الجَهَلَة ، واستعانةِ الضَّعَفة ، واستكفاء العَجَزَة ، ممَّن قَلَّتْ مَعْرِفتُه ، واتَّضعَتْ هِمَّتُه ، فلم يَبْلُغْ أَنْ يُحْكِمَ الخطَّ فَيُقيمَ حُرُوفَه ، ويُرَاعِىَ المِدادَ فيُجيدَ صَنْعَتَه ، ويميِّزَ الرَّقَّ فيُحسنَ اختيارَه ، وعَجزُهُ الحزمُ[1] النافذُ والحُكْمُ الصَّادِعُ ، بأن يكونَ صُدُورُ كُتُبِ الاعْتِراضاتِ وعُنْواناتُها وتَوَاريخُها والأعدادُ فى رُءوسِ رُسُومِها ، بخُطُوطِ أَيدِى القُوَّاد والعُمَّال ، مَنْ كان منهم كاتِبًا فبيَدِه ، ومن لم يَكْتُبْ فبِخَطِّ كاتِبٍ له مَعْرُوف ، وأن تكونَ تَسْمِيَةُ طَبَقاتِ الأَجْنادِ فيها بيِّنَةَ الحُرُوف ، قائمةَ الخُطُوط . وفى تَضاعيفِهِ أَلِيَّةٌ نَحْنُ أَوْلَى مَنْ أَبرَّها ، وَوَفَّى بها ؛ على أَنَّهُ إِنْ وَرَدَ لأَحَدٍ من الخَدَمةِ بعد وُصولِ ذلك العَهْدِ إليه كِتابُ اعتراضٍ أو عَمَلٍ فى رَقٍّ رَدِىٍّ ، أو بمِدادٍ دَنِىٍّ ، أو خطٍّ خَفِىٍّ ، فيه لَحْنٌ ، أو كتابٌ عَلَى بَشْرٍ فى عَدَدٍ[2] أَوْ رأسِ رَسْمٍ مَا لم يَخْفَ أو يقعُ فى حَشْوِ الكِتابِ ويَعتذرُ منه ، لَيَبْطُلَنَّ سَعْىُ كاتبه فيما كَتَبَ ، ولَيُعاجَلَنَّ بعُقوبةِ العَزْلِ وإغْرامِ المالِ الثَّابتِ عَدَدُه فى ذلك القُنْداقِ[3] !

وفى فَصْلٍ منها :

وإنَّ قومًا من خَدَمَةِ الحَضْرةِ قد عادُوا لِما نُهُوا عنه ، فكتبُوا الخطَّ الدَّقيقَ فى دَنِىِّ الرُّقُوقِ دِقَّةً مِنْ هِمَمِهِم ، ودَناءةً فى اختِيارِهم ، وجَهْلاً بأَنَّ الخطَّ جاهُ

(١) ب : « العزم » (٢) ر : « فى عدة »

(٣) ب : « الكتاب »

الكِتَاب ، وسِلْكُ الكَلام ، به يُنظَمُ مَنثورُه ، وتُفَصَّل شذورُه ، ونُبْلُهُ من نُبلِ صاحِبِه ، وهُجْنَتُهُ لاحِقَةٌ بكاتِبِه ؛ إلى ما اقترَفُوه من العِصْيان ، وأقدَمُوا عليه من خُلْفِ السُّلْطان ؛ وأنا أُعطِي اللهَ عَهْدًا لَئِن ارتفَع إلَيَّ — بعدَ بُلُوغ عَهْدِي هذا أقْصى حُدُودِ المَمْلَكَةِ واتهائِه أبْعَدَ أقطارِ الطّاعة — كِتابٌ على الصِّفَاتِ المَذْمُومة، والأحْوالِ المسْخُوطَة، من رَقٍّ أو مِدادٍ أو خَطٍّ، لاوَفِّيَنَّ[1] لصاحبه بما قُدِّم إليه من الوَعِيدِ إنْ شاء اللهُ ؛ فليَحْذَرْ مَنْ حضَر منهم أو غاب أن يُخالِفَ ما حدَّدْناهُ ، أو يجاوزَ ما شرَعْناه .

وله عنه إلى هُذَيْلِ بنِ رزين[2] :

أمَّا بعدُ — آتاكَ اللهُ رُشْدَكَ ، وأجْزَلَ من توفيقِه قِسْطَك ! — فإنَّ اللهَ تعالَى خَلَقَ الخَلْقَ غَنِيًّا عنهم ، وأنْسأَهُم بِمَهَلٍ غيرَ مُهْمِلٍ ، بل لِيُحْصِيَ آثارَهُم ، وَلِيَبْلُوَ أخبارَهُم ؛ وجعَلَهم أخْيافًا[3] مُتبايِنِين، وأطْوارًا مُخْتَلِفِين ؛ فمنهم المُخْتَصُّ بالطّاعة ، ومنهمُ المُبْتَلَى بالمَعْصية ، وبَيْنَ الفَرِيقَيْنِ أقوامٌ خلَطُوا عَمَلًا صالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أنْ يَتوبَ عليهِم[4] ؛ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَكَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِين ، وَلِذلِكَ خَلَقَهُم[5] . والسَّعيدُ مَنْ خاف رَبَّه ، وعرَف ذَنْبَه ، وبادَرَ بالتَّوْبَةِ قبلَ فَوْتِها ، واستَعْطَى الرَّحمة قبل مَنْعِها . وإن كُنْتَ تَرَكْتَ قَصْدَك ، وخالَفْتَ رُشْدَك ، ونَكَبْتَ[6] عن سَبيلِ سَلَفِك ، فَلَمْ يُوحِشْك مِمَّنْ شَرَدْتَ[7] عليه مَكْرُوهٌ نالَكَ به ، ولم يؤنِسْكَ مِمَّنْ جَنَحْتَ

(١) ب : « لأفين » (٢) ب : «وله من أخرى عن سليمان بن هذيل بن رزين»

(٣) ب : « أجناساً » (٤) سورة ٩ : ١٠٢

(٥) سورة ١١ : ١١٩ (٦) ر : « بكيت »

(٧) ر : « شررت »

إليه[1] ، أملٌ لم تطمعْ فيه إلاّ لديْه ؛ بل كنتَ آمِنًا من المَخاوف ، بعيداً من المَكاره ، قريبَ المَكاتِب ، رَفيعَ الدَّرجة ، مُصدَّرًا فى أهلِ النَّصيحةِ والثِّقة ، خَلا أنّه حَدَثَ بَيْنك و بينَ الحاجبِ ما لم يَزَلْ يَحدُثُ بين القُوّادِ والعُمّالِ على قَديمِ الزمان ممّا لم يَبْلُغْ أن يُخرِجَ ذَا الرَّأْيِ الأَصيلِ عن طَبَقَتِه ، ولا يُجاوِزْ أنْ يزيدَ المُحْنَق على المَحَلِّ فى خُصُومتِـه ، واللهُ عليمٌ أنّ أميرَ المؤمنين لم يَبْخَسْكَ فى تلكَ الهِبَاتِ حظًّا ، ولا أوْلاكَ إعراضا ، ولقد اعْتنَى بمَصْلَحتِك ، وعزمَ على إزاحةِ عِلَّتِك ، حتَّى يتهيّأَ من ذلك ما يَفِى بأَملِك لو انتظَرْتَه واستَقام فيه ما يَزِيدُ عَلَى طَلِبتِك ، لو صَبَرْتَ عليه ، ولكَ فى القَدرِ المَقْدُور فُسْحةٌ ، وفى القَضاء المَحْتومِ مَنْدُوحَة[2] ؛ ولنْ تَضِـيقَ بكَ السَّبيلُ عِنْدَ أميرِ المؤمنين ، وأنتَ بين طَاعةٍ سالفة ، واستِقامةٍ مَوْزُونَة ، و بين إنابةٍ مُنْتظَرَة ، وتَوْبةٍ مُسْتَقْبَلَة ، فَبإحْدَى الحالتَيْنِ تُحطُّ الذُّنوبُ الـكَبيرة ، ويُغطَّى على العُيُوبِ الـكَثيرة ؛ فالآنَ — عَصمكَ اللهُ ! — واللَّببُ رَخِيّ ، والمرْكَبُ وَطِيّ ، وبابُكَ إلى رِضَا أميرِ المؤمنين مَفتوح ، وسبيلُك إلى حُسْنِ رَأيه سَهْـل ، ولا يَذْهَبْ بكَ اللَّجاجُ إلى عَارِ الدُّنيا ونارِ الآخِرة — إيّاكَ ومَصارِعَ النّاكِثين ، وحَذَارِ مَوارِطَ الغَادِرين !

وله من أُخْرى عن سُلَيْمانَ إلى جَماعةِ العَبِيد :

إنّ اللهَ تعالى قَسَمَ لِأَهْلِ بيْتِنا بَنِى أُمَيَّةَ من السُّلْطانِ المَوْصُولِ لهم بِخلافةِ النُّبُوّةِ ما حازَهُ لهم دُونَ سائرِ قُرَيْشٍ ، وسَرَاةُ رِجالِها وافِرة ، و بُيوتُ شَرَفِها عامِرة ، فكانَ أوّلَ مَنْ أجْمعَ عليه خِيـارُ الصَّحابةِ بالشُّورَى والاختيار عُثْمانُ بنُ عَفّانَ أميرُ المؤمنين ذُو النُّورَيْن ، وصِهْرُه عليـه السَّلامُ مَرَّتَيْن ، فلم

(١) ب : « صلحت إليه » (٢) ر : « مندرجة »

يُنكِرْ فضلَه هاشِمِىّ ، ولا دافع إمامتهُ قُرَشِىّ ، ولا نازعه الخلافةَ عربىّ ولا عجمىّ ؛ ثمّ غَلَبَ الشّقاء على أقوامٍ فنالُوا منه ما انفتحَ عليه بابُ الفِتنةِ إلى يوْمِ القيامة ، فيا لها[١] مصيبةً صدعتْ شمْلَ المسلمين ، وأوْهنتْ أركانَ الدِّين ! وافترقَ أهْلُ الإسلام بعدهُ فِرْقتيْن ، ثمّ لم تجتمعا إلاّ على رَجُلٍ منّا ، لِرِضاءِ الله عن سيرتِنا وأمْنِ المُسْلمِين إلى حُسْنِ مأْخذِنا ،[٢] وفضْلِ سياستِنا[٢] ؛ فكانتِ الجَماعةُ على مُعاويةَ بنِ أبى سُفْيانَ كاتبِ الوَحْى وصِهْرِه عليه السّلامُ ورَدِيفِه ؛ فبَلَغَ من ضَبْطِ الأمْرِ ، ولِينِ الولاية ، وجهادِ العَدُوّ ، وجبايةِ الفَىْء ، وبثّ العَدْل ،[٣] وإدْرار العَطايا[٣] ، ما لا يَجْهلُه مِلّىّ[٤] ولا ذِمّىّ . وورِثهُ ابنُه وابنُ ابنِه ؛ ثمّ صيّرَ اللهُ تعالَى خِلافته إلى مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ جدِّنا الأعْلَى[٥] أميرِ المؤمنين دَوْسَرِ[٦] قُرَيْشٍ المُلْقى بتَوْفيقه ، والحاكِمِ فى الأُمّةِ بتَسْديده[٥] ؛ فألْقتْ إليه بالمقاليدِ الكافّةُ ، وتداولَها بنُوه[٧] آباؤُنا الخُلَفاءُ الراشدون[٧] بالمَشْرقِ والأنْدُلُسِ إلى يوْمِنا هذا ،[٨] واللهُ مُتِمّ[٩] نِعْمتَهُ علَيْنَا كما أتمّها على آبائِنا من قبْلُ ، إنّ ربّنا حَكيمٌ عليم[٨] !

وفى فَصْلٍ منها :

ولم تزَلِ الأئمّةُ منّا مُقْبِلةً على مَوالِيها ، مُختصّةً لعَبِيدها ، تُقدِّمُهم فى الثِّقة ، وتُقرّبُهُم بالموَدّة ، وتُعِدُّهم لحَوادثِ الأُمور ، وتَقذفُ بهم فى مُعْضلاتِ الخُطوب ، فيتوَلّوْن من اجتهادِهِمْ لهُم ما أوجبَتْ لهُم منهُم المَحبّةُ الخالصة ، حتّى شرُفَ القوْمُ

(١) ليس فى ر (٢ — ٢) ليس فى ر (٣ — ٣) ليس فى ر
(٤) ب : « مسلم » (٥ — ٥) ليس فى ر (٦) ب : « ذو سن »
(٧ — ٧) ليس فى ر (٨ — ٨) ليس فى ر (٩) ب : « متمم »

وَنَبُلوا ، وسَمَا ذِكْرُهُم ونُسِبُوا الى مَشهورِ أنسابِهم ،[١] ومَذْكورِ بيوتاتِهم[١] ؛ فهُمُ الذين تَسمعون عنهم وتَعْرِفُونَ رِياسَتَهم كآلِ خالدٍ ، وبنى أبى عَبْدَةَ ، وبنى شُهَيْدٍ ، وبنى بَسيلٍ ، وبنى حُدَيْرٍ ، وغيرِهم من أشْرافِ مَوالينا . وقد أفضَى الأمرُ إليكم ، مَعْشَرَ المَوالِى ! فهذا اسْمُكم إذْ قد رَفَعَ اللهُ عنكُم العُبُودِيّةَ به ، وأخْرَجَكم من رِقِّ المَلَكَةِ ، وصَيَّرَكم منّا وخَلَطَكم بِنا ، وأفْضَى بأنسابِكم إلَيْنا ، والوَلاءُ لُحْمةٌ ، فمَوْلَى القومِ منهم ، ومَلْعُونٌ من انْتَمَى إلى غَيرِ أبيه ، وادَّعى إلى[٢] غيرِ مَوَاليه . هذا حُكْمُ الدِّيانة عَلَى لِسانِه عليه السَّلام ، وأمّا حُكْمُ الدُّنيا وسِيَرُ أهلِ السَّداد والصَّلاحِ فيها ، فلا يَخْرُجُ أيضاً أنْ يكونَ ضَلْعُكم مَعَنا ، ومَيْلُكم إلينا ، وتَعَصُّبُكم لنا ، فنَحْنُ أحَقُّ النَّاسِ بكم ، وأجْدَرُ أن نَعْمَلَ عَمَلَ آبائنا فى أمْثالِكم ، من مَواليهم الذينَ أجْرَيْنا ذِكْرَهم ، فإنْ نَقَمْتُم حالاً مَزَّقَتِ[٣] الشَّمْلَ ، ونَعَيْتُمْ أمراً صَدَعَ الجَمْعَ ، فتلكَ الفِتْنةُ التى يَعُقُّ فيها الابْنُ أباه ، ويَقْتُلُ لها المُسلمُ أخاه ![٤] أجارَنا اللهُ وإيّاكم منها ، وكَشَفَ لنا ظُلْمَتَها[٤] !

وفى فَصْلٍ منها :

ولَعَلَّنا فيما ساءَكم من تلكَ الهَنات ، ونالَكم من الفَجَعات ، أوجَعُ قُلوباً ، وأشَدُّ غُمومًا . فسُبْحانَ مَنْ لو شاءَ لأطْلَعَكم على غَيْبِنا فيكم ، وعَرَّفَكم إشفاقَنا عليكم ؛ وكيف لا يكونُ ذلكَ كذلكَ وما زِلْتم الشِّعارَ والدِّثارَ ، لا نُؤْثِرُ عليكم ، ولا نَثِقُ[٥] إلّا بكم ؛ فإن يَكُنِ الشَّيْطانُ قد نَزَغَ بما نَزَغَ به بَيْنَ ابنَىْ آدَمَ فمَنْ بعدَهما مِنْ ذُرِّيته ، فقد آنَ أن تَثوبَ الحُلُومُ فتعودَ السُّيوفُ فى أغْمادِها ،

(١—١) ىە فى ر (٢) ىە فى ب (٣) ب : « فرقت »

(٤—٤) ىە فى ر (٥) ب : « نوثق »

والنَّبالُ فى كنائنها ،(١) ونحن نُعاهدُ اللهَ ألّا نُؤاخذَ أحداً بذنب ، ولا نناله بعُقوق له ولا بأذًى ، ولا نَنطوِىَ له على إحْنة ، بل نَغفِرُ ونَصفَحُ ونَزيدُ فى العطاء ، ونَترُكُكم بمواضِعكم التى ارتَضَيْتُموها ، تَدِرُّ عليكم جِباياتُها ، وتَخُصُّكم منافعُها ، ولا نُنْسِئُ فى أُمورِكم إذا سمِعتم وأطعتم(١) .

٥ وله عنه إليهم فى مثل ذلك من رُقعة ، يقولُ فى فصْلٍ منها :

زَعَمَ كاتبُ صَحيفتِكم أنّه ما دامتْ خِلافةُ سلَفِنا إلّا بطبَقتِكم ، ولا عزّتْ إلّا بدَعْوتِكم ، وهذا قَوْلُ مَنْ لا علْمَ له ، فلم تَظفَرْ طَبقتُكم إلّا حديثا ، ولا كَثُر عَدَدُكم إلّا قريبا ، ولم تزَلِ الخلافةُ عزيزة ، والسُّلطانُ قائمًا بأوْلياء الحَقّ وأنصار الدِّينِ ، هُمُ العارِفُونَ بفضْلِ الطّاعةِ ومَوْقعِها من رِضاهُ تعالَى ، وبِنَقْصِ المَعصيةِ

١٠ ومَوْقعِها من سُخْطِه . والمِنّةُ عليكم لِمَن عرَّفكم — مَعْشَرَ العبِيدِّى ! — بالله ، وأدْخلَكم فى دِينه ، واستَنْقَذَكم من الضّلالةِ ، وأخرجكم من الكُفْر ، ثُمّ اصطَنَعكم ونوّه بكم بالتّصرُّف فى الخِدمة ، فنِلْتم بذلك النِّعْمة ، وهَيْهاتَ أن تَقْضُوا الحقَّ كُلَّه ، فأقْصِروا عن شأْوِكم ، فذلكَ أوْلَى بكم !

وفى فصْلٍ منها :

١٥ وأقْسَمْتُم على أنّ مَنْ حَسَّبناه من رُؤسائكم كان أوْلَى بالسِّياسة ، فأنّى لكم ذلك وما أنتم منه ؟ وإنّما أنتُم مُدبَّرُون مَسُوسُون ، أتْباعٌ مَرْبُوبون ؛ وسِرُّ التّدْبيرِ نازحٌ عنكم ، والسِّياسةُ القويمةُ محجوبةٌ دُونَكم ؛ ومتى بلَغكم قطُّ عن عَبْدٍ تَرَتّبَ على مَوْلاهُ فأفْلح ، أو سمِعتم بجُنْدٍ شَغَبَ على مُدبِّرِه فأنجح ؟ والحقُّ لا يَضُرُّه قِلّةُ أهلِه ، والباطلُ لا ينفَعُه كثْرةُ جَمْعِه ، فإنّ العاقبةَ للمتّقين ، وحِزْبَ

(١ — ١) له فى ب

اللهِ هُمُ الغالبُون ؛ مع أنَّ سُفهاءَ كلِّ طبقةٍ أكثرُ من حلمائها ، وقد رأيتُم قديماً نَتيجةَ آراء السُّفهاء ، وكيف أخْنَى على أهلِه بموْتِ ذلك التَّدبير ، وطالما جَهَدْنا فى الصَّلاح ، وحاوَلنا قطعَ الشَّغَب ، ودَفْعَ الفتنة ، فأَبى اللهُ إلَّا ما أرادَ على أيْدِى رُؤسائِكم ، الذين أتيْتُم على عَهْدِهم (١) . وأمَّا مَنْ طَلبْنا من أصحابِكم فإنَّهم قَوْمٌ خدَموا العِمالات ، وتصرَّفوا فى الولايات ، وعابُوا على الجُباة ، وخلَدت عليهم فى الدِّيوان الحِسْبانَات ؛ فهم الذين طُولِبُوا فى سَبيلِ الحقِّ ، وَرُمِىَ منهم دونَ الكلِّ بالبَعْض ، وأُخِذَ فيهم وفى أسبابِهم بالرِّفق دونَ العُنْفِ فاعْتَدُّوه ظُلما ، وإلى صلاحِ مَآلِ أمرِهم إذ قُورِبُوا . والجَميعُ عَلَى ذلكَ فى خيرٍ من العافِية ، وبحظٍّ من الكافية ، وأمَدٍ من النَّظِرة ، إلى أن يَأْذَنَ الله ببُلُوغِ ما يَشاء من المَدَى . وليس كُلُّ ما يبلُغُكم مِن التَّشْنيع ويتَّصلُ بكم من الإرجاف يَلْتَفِتُ إليه ذوُو العُقول ، ولا يُصْغِى إليه أهلُ التَّحْصيل .

وفى فصْلٍ منها :

وأمَّا ما أَلْصقَ بكم كاتِبُ صَحيفتِكم إذ قال : إنْ لم يُعْمَلْ بما أردتُم أجبتُم دعوةَ مَنْ يُناديكم ؛ فليْتَ شِعرِى مَنْ ذا المُنادِى الذى إليه تُلْوَى الأعْناق عنَّا ، أم إلى [من] تفزَعون إن فارقتم عِصْمَتَنا ؟ أمَا إنْ غرَّكم الشَّيْطان ، وأسْلمَكم الخِذْلان ، لتقْرَعُنَّ من النَّدَم الأسْنَان ، بحيْثُ لاينفعكم أسَف ، ولا يُطْوَى عليكم لهَف ؛ والله تعالَى ودينُه وخِلافتُه فى غِنًى عمَّن عَنَدَ عليه وحادَّه (٢) ، وأَلْحد فى الإسلام عَنْهُ وشَاقَّهُ ، وخَرَجَ عن الجَماعة ، وشقَّ عَصَا الأُمَّة ، واستخَفَّ بحُقُوقِ الأئمَّة ، ونازَعَ الأمرَ أهلَه ، واعْتَرَضَ مِنَ الرَّأْىِ فيما ليسَ من شأْنِه على من صَيَّرَه اللهُ

(١) ب : « عهدكم » (٢) ب : « وحده »

إليـه ، وأسلمه فى يديْه ، واجتباه واصطفاهُ على علمٍ به . ولوْلا أنّ أمير المؤمنين عرَف[١] أنّ ملأً كم لم يجتمعْ على هذا الكتاب ، وتيقّن أنّ أهلَ السّدادِ منكم لم يرضَوْا هذا الخطاب ، لكان فى ذلك نظرٌ يقيمُ الأوَدَ ، و يعدلُ الميلَ ، مع أنّ الحِلْمَ والكظْمَ من أخْلاقه ، والرِّفْقَ والأناةَ من شيمه ؛ فاقبلوا أدَبه ، وانتفعوا ٥ بموْعظته ، فلو كُشفَ لكم الغطاء ، واجْتُلى عليكمُ الغيْب ، لَعلمتم أنّ أميرَ المؤمنين لا ينامُ عن مصالحِكم ، ولا ينِى فى منافعِكم ، ولا يسْعَى إلّا فيما يرُدُّ ألُفتكم ، ويجمعُ كلِمتَكم .

وله عنه من أُخْرَى [٢]إلى ابن ...[٢]

إنّ العاقبةَ للتّقْوَى ، وإنّ كلمةَ الله هى العُلْيا ، ولا تبْتئسْ فإنّ الحقّ ١٠ دامغُ الباطلِ وإنْ لاحتْ للكذبِ بارقة ، وهبّتْ له نافحة ، فإنّما ذلك استدراجٌ لأهْلِه ، وإملاءٌ لحزْبه ؛ ثمّ يأخُذهم بما اجترحُوا ، ويُوبقهم بما اكتسبوا ؛ وقد علِم النّاسُ أنّ هذيْن الخارجيْن علينا ، الناكثيْن بيعتنا ، موْسومان بإحْسانِنا . أمّا الطّالبِىُّ فرفعناهُ من أوْضعِ ملاحقِ الجُند إلى أعْلَى مراتبِ أهلِ الخُطَط ، ونوّهْنا بذِكره ، وأشدْنا باسمه ، وأشْركْناه فى سُلْطانِنا ، وصرفْنا إليه طائفةً من جُندِنا ، ١٥ ووثّقناه [فيما] همّ من أعمالنا . وأمّا المُعيْطِىُّ فإنّ البلادَ نبتْ بجدّهِ ، فلفظتْهُ إلى جدِّنا رضِىَ اللهُ عنه ، فآواهُ وواساه ؛ [٣]وامتثلْنا مثلَ ذلك فى هذا الضّعيفِ المُتغيِّر ، فوهَبْنا له خطيرَ ما استوْهب ، ويسّرْنا عليه عسيرَ ما طلَب ، وألْحقْناهُ بثقاتِنا[٣] . فاستبَقا فى ميْدانِ الغدْر ، وجمَحا إلى مدى الغمْطِ والكِبْر ، جاحديْن

---

(١) ب : « يعلم » (٢—٢) مه فى ر والاسم غير واضح فى ب
(٣—٣) مه فى ر

بحقِّنا ، مُنتَحِلَيْن لِما لَمْ يجعلْهما اللهُ له أهْلا . وأميرُ المؤمنين دافِعٌ لهما بحقّه عليهما ، ومُستَعينٌ بالله ثُمّ باحسانِه إليهما .

وفى فصْلٍ منها[1] :

وأمّا ما وصَفْتَ به نفْسَك ، وعرَضْتَه علينا من مُجاهَدةِ المارقين ، ومُناضَلةِ النّاكثين ، وضمِنْتَه من حَشْدِ الأجْنادِ قِبَلَك ، واستِنْفارِ أهلِ عمَلِك ، ٥ وما سمَحْتَ به من الإنفاقِ على جميعِهم مِنْ مالِك ، فأنتَ أهلٌ لكلّ ذلك ، وخليقٌ بالوفاءِ به ، وقد بَذَلتَ جُهْدَك وقضَيْتَ حقّ إمامِك ، فأرْضَيْتَ ربّك ، وزَكّيْتَ نفسَك ؛ ورفَعتَ فى الغابِرِينَ ذِكْرَك ؛ وصدّقتَ ظنّ أميرِ المؤمنين ، وحقّقتَ تفرُّسَه فِيك ، وهو يرجُو أن يجْتَزِئَ بِمَنْ حَوْلَه مِنْ أنصارِه ، ويكتفِىَ بِمَنْ فى حَضْرَتِه من الأجناد ؛ فهُم عَلَى أجْملِ بَصيرةٍ فى نَصْرِه ، وعلى أثبتِ ١٠ نِيّةٍ فى الذّبِّ عن سُلْطانه ، واللهُ يُعينُه وإيّاهم ويُؤيّدُه معَهُم ، وإن احتاجَ إليكَ فما أطْيَبَ نفسَه عليك ، وأوْثقَه بإجابتِك أو دُعائك ، باركَ اللهُ فيك ، ومتّعَهُ بك ، فأنتَ سَيْفُه الفاصِل[2] ، وسَهْمُهُ النّافِذ .

وله عنه إليه أيضاً :

ويَجِب أنْ تَزِيدَ فى رُتْبَتِك ، وتهذّبَ جمالَ جهَتِك ، وتَسْعَى فى تَوْفير ١٥ مَحاسِنِك ، وتَكْثِيرِ مَناقِبِك ؛ وإن كنتَ بحمدِ اللهِ ومَنّهِ كاملَ الأدوات ، كثيرَ الحَسَنات ؛ ولكنّ الزّيادةَ من فَضْلِ اللهِ مَحْبوبةٌ من النُّجباء ، مَطْلوبةٌ من النُّبلاء ؛ وأنتَ صَدْرُهم السابِقُ وهادِيهم المُبرّز ؛ وقد نَبَذْنا إليكَ فى كتابنا

(١) هذا الفصل وما يليه ناقص فى ر (٢) ب : « الناضل »

مع فُلانٍ نُبْذةٌ لم نَضَعْها دونَ غايةِ البَيان ، ولم يَسَعْنا إلاّ إيضاحُ الدّليلِ وإقامةُ البُرْهان .

وله عنه إلى مُنْذِرِ بن يحْيَى :

وأمّا أمرُ عليِّ بنِ حَمُّود فعلى ما أعْلَمْناكَ به من الضَّعْف والوَهن ، وإنّما يَطْمع فيمَنْ عِنْدَنا واللهُ يُبْطِلُ طَمَعه . وقد أَوْحَشَنا بُطْءُ أخبارِك عنّا ، وإن كنّا لا نَشُكُّ فى أنّك على جميعِ ما تَصرَّفتَ به ، وفى كلِّ ما تقلَّبْتَ فيه كما نُحبُّه ونَهْواهُ ، فذاكَ حَظُّك منّا ، وموقِعُك مِنْ ثِقتِنا ، وعلى ذلك فإنّ بَواعِثَ الإشْفاقِ جَمّة ، وعَوارِضَ التّوَقِّي كثيرة ، وقد تَوالَتِ المِحَن ، وطالت الفِتَن ، ونَجَم النِّفاقُ ، وشاعَ الخِلافُ [بَيْن] أهْواءِ أوْليائنا .

وله من أُخْرَى إلى ابن صُمادِح :

وإنّ لِلبَغْيِ مَصارِعَ لا تَعْدُو أهْلَه ، ولِلنَّكْثِ عَواقِبَ لا تُخْطِئُ مُعْتَقِدَه ، وقد عَلِمَتِ الكافّةُ ما أولاهُ أميرُ المُؤمنين فُلانًا مِن إحسانِه ، وأفاضَهُ عليهِ مِنْ مَعروفِه ، فرَفَعَهُ مِنَ الحَضِيض ، وانتَعَشَه عند الجَرِيض [1] ، ونَوّه به بعد الخُمول ، وكَثَّرَهُ وهو قليل ، فلم يَشْكُرْ لله نِعْمة ، ولا وَفَّى له بذِمّة ، وظَلَّ يَبْنِي الغَدْرَةَ على غيرِ أُسٍّ فخَرَّ بناؤه ، وانتَضَلَ فى الرَّمَيات فى غيرِ هَدَفٍ فضافَتْ سِهامُه ، وأصحابُه يَتَساقَطون عَلَينا فى كلِّ حينٍ أفْواجا ، ويَتَتابعون إلَيْنا نُزّاعًا أرْسالا ، لِما يَبْدُو من ضَعْفِ آرائه ، وخُبْثِ مَذاهبِه ، وقُبْحِ غَدْرِه ، وتَناكُبِ أمْرِه ، حتّى اتّسَعَ عليه الخَرْق ، وأعْضَلَه الفَتْق ، واستَنْفَر له وَجْهُ الخَلائق ، وأسْلَمَه غُرورُ الشّيطان ، فأصْبَحَ نادِمًا سادِما ، وأمسَى حائِرًا بائِرا ، ونَكالُ اللهِ تعالى نازِلٌ به ، وسُخْطُه مُنَزَّلٌ عليه ، وبأسُه مُنْصَرِفٌ إليه .

(١) ب : «المريض»

وفى فَصْلٍ من أُخرى :

أنا لك فى فَلَتاتٍ تحجُبُ حُسْنَ الظنِّ بمن أُسْبِغتْ عليه النِّعْمة ، ووَجَبَتْ لِربِّه الحُجَّةُ فى أداء النَّصيحة . وقد اندرجتْ فى أثْناءِ هذه الفِتْنةِ خُطوبٌ استعمَلَ فيها أميرُ المؤمنين الثِّقةَ بمَنْ لم يَتَّقِ اللهَ فى النَّصيحةِ له ولِرسولِه عليه السَّلامُ ولِخَليفتِه ولجماعةِ المسلمين ، ولم تَصْدُق نِيَّتُه ولم يصِحَّ خَبَرُه ولا رأْىَ له ٥ لمكْروب فأوْطأه عَشْوةً ، وزَخْرفَ له كِذْبةً على إثْرِ كِذْبة ، ومَنَّى الأمانى ، وقرَّب المَواعيد ، ونمَّقَ الزُّور ، ولَبَّسَ الأُمور ، وأميرُ المسلمين يُوجِسُ الخِيفَة ، ويَخشَى الخَديعة ، ويرَى أعلامَ الرِّيبة ، حتَّى وضَح الفَجْر ، وصَرَّح عن زُبْدتِه المخْض ، وليس هو بأوَّلِ من أحْسَنَ فضاع إحْسانُه ، واصطنَع فسَقَطتْ صَنائعُه . وفى فَضْلِ اللهِ عِوَضٌ منْ كلِّ فائت ، وفى جَزائِه خَلَفٌ من كلِّ ١٠ ضائع . وفى إقبالِ رَحْمتِه غِنًى عن كلِّ مُدْبِر ، وللأيَّام عُقَبٌ تُديل الكُرْهَ[١] بالرِّضَى ، وتَنْسَخُ الشِّدةَ بالرَّخا[٢] .

وله من أُخْرَى عن عَلِيِّ بنِ حَمُّود إلى مُنْذرِ بنِ يَحْيَى :

وما أنكرْنا شيئاً ممَّا ذهَبْتَ إليه من التَّأنِّى والتَّثَبُّت ، ولا اعتقَدْنا إلَّا رأْيَكَ فى نَظَرِ الاجتماع ، وترَقُّبِ الالتِئام ، لتَرْتَفِعَ الشُّبهةُ ويَنْجلِيَ الشَّكّ ، وإن كان ١٥ مَذْهَبُنا فى هذه الأُمَّةِ مَشهورا ، واحتِسابُنا الأَجْرَ فى صَلاحِها معروفا ، وقيامُنا لِنصرِها وسخاؤنا بأنفسنا وأموالنا لاستنقاذِها ، لا نَنْوى إلَّا وجْهَه تعالَى ، وإلَّا فقد عَلِمَ مَنْ عرَفنا ، وأيقَنَ مَنْ أنصَفَنا ، أنَّنا كنَّا [فى] عَيْشٍ هَنِىٍّ ، ولَبَبٍ رَخِىٍّ ، وعَمَلٍ واسِع ، ومالٍ وافِر ، وجُنْدٍ مُطيع ، وحِصنٍ منيع ؛ وفى دونِ ذلكَ ما أقْنَعَ مَنْ عرَفَ الدُّنيا بحقيقَتِها ، وأَجزأَ من أَنزلَها منزِلَتَها ؛ وما كَفَى من لايعدِلُ بالسَّلامةِ ٢٠

(١) ب : « السكرة » (٢) ب : « بالرضى »

ولا يَبيع بالغَبْن ، ولا يركَبُ الأهوال ، ولا يقتحِمُ المهالك ، مُغرِّراً بدمِه ، مُخاطِراً بنفسِه لحُطَامٍ تافِه ، وظِلٍّ زائل ، ومَتاعٍ قليل ، وإنَّا لنَرْجو منه تعالَى أنَّه لم يُيَسِّرْ لنا ما يَسَّرَ من آمالِنا إلَّا عند اطِّلاعِه على نِيَّتِنا فيها ، فنحنُ بعَيْنِ الله ، ونَواصِينا بيدِه ، والمُلْكُ والأمرُ له !

٥ وفى فَصْلٍ :

والشروطُ التى خَطَطْتَها بيدِك ، وأَرَدتَ معرِفةَ رأْيِنا فى إمضائِها ، فإنها لَعَمْرُ الله قليلةٌ فى استِحقاقِك ، ولو اتَّسعتِ البلادُ لأضعافِ ما تَلِيه ، لـكنتَ لذلك عندنا أهْلًا فى كِفايتِك وضلاعتك وضَبْطِكَ وحزْمِك . فأمَّا الاعتمادُ علَيكَ فى الرَّأْيِ ، والقَصْدُ إليكَ بالمَشُورةِ فهو الذى لا نَعدُوه بِكَ ولا نُجاوِزُه فيكَ ،

١٠ ونحْنُ بذلك أحْظَى ، والفائدةُ لنا فيه أعْلَى .

وقد أنفَذْنا كلَّ ما دعوتَ إليهِ من تنفيذِ سِجِلَّاتِك علَى ما فى يدَيْكَ من الأعمال ، واعتَقدْنا لكَ ولجميعِ أهلِ الثُّغور — حرسَهُم الله ! — الأيْمانَ المنعقِدَةَ والأقْسامَ المغلَّظَةَ لا تدخُلُ عليهم داخلةٌ يكرهُونَها ، ولا يُكلَّفُون كُلْفَةً يَسْتَثْقِلونها ؛ ولا يُخالَف بهم طَريقةٌ يَرْضَوْنها ، ما سمعُوا وأطاعُوا .

١٥ وفى فَصْلٍ :

ووَصِيَّتُكَ بأهلِ قُرْطُبَةَ وغيرِهم مَقْبُولَة ، ونَصيحتُك فيهمْ مَتْبُوعة ، ولن يرَوْا مِنَّا ، ولن تَسمَعَ فيهم عنَّا ، إلاَّ كما يُعجِبُكَ ويَسُرُّك ، ويُجْذِلُك ويُبهِجُك ؛ وإنَّما هدَى اللهُ أوَّلَهم بأوَّلِنا ، وأسبغَ النِّعَمَ علَى سَلَفِهم بسلفِنا ؛ وهل يؤمِّلُون أحْنَى عليهم وأرْأَفَ بهم منَّا ؟ أمْ هلْ لمن آتاهُ الله رُشْدَه ، وشَرَح

٢٠ بالإيمانِ صَدْرَه ، رغْبةٌ عنَّا ؟ وهل يُنكِر فَضلَنا إلاَّ جاهلٌ مُكابِر ، أو يُدافِعُ حقَّنا إلاَّ مُعانِدٌ خاسر ؟

وله من أخرى :

بلغنا جوابُكَ ناكبًا عن الحقّ ، بعيدًا من الإنصاف ، خلوًا من حُسنِ المُعاملة ، بدايةً بالامتنانِ بما كانَ منكَ ، بمَا لو اقتنعْتَ فيه بما بذلْناه مِنَ الشُّكرِ لرَكبتَ سَنَنَ المُنصفين ، وسلكتَ سبيلَ المُحْسنين ؛ فقد قيلَ : إنَّ الشُّكرَ وإنْ قلَّ ، ثمنٌ لكلِّ نوالٍ وإنْ جلّ[1] ؛ كما قيلَ : إنَّ المِنّةَ[2] تُفسِد الصَّنيعة[3] . ولو نظرتَ فى أخبارِ الماضين ، وكشفتَ عن سِيَرِ الأوَّلين ؛ لوجدتَ مُلوكَ الأُممِ على قديمِ الزَّمانِ قد تعاملَتْ بالتَّعاوُن ، وتواصَتْ بالتَّرافُد ، وإنْ شَحطتْ ديارُها ، واختلفَتْ أديانُها ؛ وجعلَت ذلكَ بينها حُقوقًا تُقْضَى ، وفروضًا تُؤدّى ، فالدَّهرُ أطوار ، والأيامُ دِوَل . وقد علمتَ أنَّ الذى سامحتَنا فيه لم تُقدِم إليه إلاّ على شُروطٍ اشترَطْتَها ، وأطاعٍ استدعَيْتَها ، فقضَيْناك كلَّ ما ملَكْناه ، ولم نَمْطُلْكَ بشىء أدرَكْناه . وذكرتَ أنَّك فعلتَ بنا ما فعلتَ دونَ معرفةٍ تقدَّمَتْ ، ولا صُحْبةٍ سلفَتْ . ولو هرَبْتَ عن الجفاء دَهْرَك ، وأنفقتَ فى السَّلامةِ من هذا الخطَلِ عُمرَك ؛ لكنتَ لنفسكَ ناصِرا ، وفى صفقتِكَ تاجرا ؛ فإنْ كنتَ أردتَ معرفةَ العيِّ ، كفَى بذلكَ عيًّا من القَوْل ، وزَلَلاً من الرَّأْى . وإن قُلتَ إنَّكَ لم تَعرفْ مكانَنا من الخلافة ، ووراثتَنا الإمامة ، عنْ أسلافِنا الماضين ، وأجدادِنا الأقْرَبين ؛ وجهلتَ أنَّنا فى نِصالِها وذِرْوَتِها ، وأقْعَدُ الناسِ بها وأقواهُم عليها ، فقد كابَرْتَ العيان ، ودافَعتَ البُرْهان .

وله عنهُ فى معنَى الرَّعيَّة[4] :

إن اللهَ تعالى قلَّدَنِى منْ رعايةِ عِبادِه ، وحمَّلَنى مِن سياسةِ خَلْقِه ، وعصَبَ

(١) ب : « وأرجل » (٢) ب : « المنية »

(٣) من ابتداء هذا الفصل إلى هنا سه فى ر (٤) لم يقع هذا الفصل إلا فى ر

بِى من تَدْبِيرِ أُمورِهِم وإصْلاحِ شُؤونِهم ، وألزمَنِى من النَظَرِ لهم ، والعملِ بما يُصْلِحُهم مالا حَوْلَ لِى فيه ولا قُوّةَ عليه إلّا بعوْنه وتأْييده ، ولا هِدايةَ إلّا بتوْفيقه وتَسْديده ، وإنّ الرّعيّةَ من السُّلطان ، بمكانِ الأَشْباحِ مِن الأَرْواح ، صَلاحُهُما وفسادُهما مُتّصِلان ، ونماؤُهما ونقْصانُهُما مُنْتظِمان ، إذْ كانت الرّعيّةُ عُنْصُرَ المالِ ، ومادّةَ الجِباية ، بها قِوامُ المُلْك ، وعِزُّ السُّلْطان ، ورزقُ الأَجْناد ، التى بها يُقاتَلُ العدُوّ ، ويُنصَرُ الدّين ، وتُحْمَى الحُرَم . ولما تأمّلْتُ أحوالَ أهلِ عَمَلِكَ مِن كُورَةِ جَيّانَ وذَواتِها ، وحَصّلْتُ ما يلزَمُهم أداؤه هذا العامَ مِن الطّعام فِى العُشُورِ الواجبات ، تَكنّفَهُم مِن شَفَقَتِى ، وأَحاطَ بهمْ مِن عَواطِفِى ، ما أدّى إلى رفعِ مؤُونةِ طَعامِهم ، وإعْفائِهم مما يَلْحَقُهُم فيه مِن العَنَت ، ويرْجِعُ عَلَيْهم مِن الدَّرَك ، وكُلَفِ الحُمُولَةِ إلى الأَهْراء ، وما يَتْبَعُ ذلكَ من الانْتِقاص ، ويتّصِلُ بالكَيْلِ مِن التّطْفيف ، وتَسْقُطُ التّبِعاتُ ، ويَخِفُّ الثّقل . فانْظُرْ عِنْدَما يَرِدُ كِتابى فِى توْزيعِ ما يَجِبُ على أَهْلِ عَمَلِكَ مِنَ النّاضِّ عَنْ كَذا وكَذا مِن القَمْحِ والشّعير ، حِسابُ كُلِّ مُدْىٍ مِن القَمحِ سِتّةُ دنانير ، ومِن الشّعيرِ ثلاثة ؛ واشْمَلْ بتوْزيعِها النّاسَ كافّةً غيرَ مُحاشٍ مِنْهُمْ أحدًا . وليَكُنْ ذلكَ عَلَى العَدْل ، وتَحرّى الحقّ ، واعتمادِ الصِّدْق ، بمشاهَدَةِ قاضِى الجهة ، ومُوافقةِ شُيوخِ الرّعيّةِ ووُجوهِها ، وأَهْلِ المعْرفَةِ بمَواقِعِ وظائفها إنْ شاء الله .

وله مِنْ أُخْرى ، عن المُظفَّرِ بنِ أبِى عامر ، حين قتلَ عيسى بنَ سعيدٍ القَطّاعَ وزيرَه :

أيُّها النّاسُ — وَفّقكم اللهُ لعِصْمته ، واستَنْقذكم برحمته ! — إنّ من علِمَ منكم حالَ الخائنِ عِيسى بنِ سَعيدٍ بالمُشاهدَة ، ورأى مَبْلَغَ النّعْمةِ عليه بالمُحاضَرة ، فقد اكْتَفى بما شَهِد ، واجتزأَ بما عايَنَ وحَضَر ؛ ومن غاب عنه كُنْهُ ذلك من

عوامّكم بانتزاحِ منزلٍ أو لاتّصالِ شُغل ، فليَعلَمْ أنّا أخذناه من الحضيض الأوْهَد ، وانتشلناه من شَظَف العَيْش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وأتممنا نقيصته ، وخوّلناه صُنوفَ الأموال ، وصيّرنا حاله فوقَ الأحوال ؛ فَذَلَّلَهُ بذلك المنصورُ مولاى رَضِىَ الله عنه ، فاعتمَدْته ومهّدتُ له فرْشَ الكرامة ، وبوّأْته دارَ الفخامة ، وأسبغتُ من نِعَمى عليه ، ما أحوجَ الخاصّةَ والعامّةَ إليه ؛ فلم يقمْ لله تعالَى بحقّ ، ولا قابَلَ إحسانَه بصِدْق ، ولا عامَلَ رعيّتَنا برِفْق ، ولا تناوَل خِدْمتنا بحِذْق ؛ بل أعلَن بالمعاصِى ، واستذَلّ الأعِزّةَ وذوِى الهيئاتِ والمرُوءة ، ونافرَهم وأَنِس بأضْدادِهم ، ونبَذ عُهودَنا ، وخالَف سُبُلَنا ، وكدّر على النّاسِ صَفْوَنا ؛ حتّى إذا ملَكه الأشَر ، وتناهَى به البطَر ، وغلَتْ[1] به الأمور ، وغرّه بالله الغرُور ، حاوَل شقّ عصا الأُمّة ، وهدّ ركنِ الخلافةِ والأمانة ، بما احتجَن من حرامِ المال ، واستمال من طَغام الرِّجال ؛ فحجّته نِعمُنا عنده ، وخَصَمَتْه عوارِفُنا لدَيْه ، وكشَفَ لنا سِرّ نيته حتّى صرَعَهُ بغْيُه ، وأسلمَهُ غدْرُه[2] ، وأخذه الله بما اجترَم[3] ، وأوْبقَه بما اكتسَب ، فأعْجلْناهُ عن تدْبيرِه ، وصار إلى نارِ الله وسَعيره .

قوْلُه : « فحجّتْه نِعمُنا عِنده ، وخَصَمَتْه عوارِفُنا لدَيْه » مَحْلولٌ من قولِ أبى تمّام حيث يقول :

أأُلبِسُ هُجْرَ القوْلِ مَنْ لو هَجوتُه ... إذنْ لهَجانِى عَنْهُ مَعْرُوفُه عِنْدِى ؟[4]

وأخذه أبو تمّام من قولِ عِمْرانَ بنِ حِطّانَ إذ ظفِر به الحجّاجُ فقال : اضرِبوا عُنُقَ ابنِ الفاجِرة ، فقال له عِمران : بئسَما أدّبَك أهلُكَ يا حجّاج ! كيفَ

(١) ر : « وعنت » (٢) ر : « حذره »

(٣) ب : « اجترح » (٤) راجع ديوانه ص ١١٥

أَمِنْتَ أن أُجيبَك بمِثْلِ ما لَقِيتَنِي به ؟ أبعد المَوتِ مَنزِلَةٌ أُصانِعُكَ عَليها ؟ فأطْرَق الحَجّاجُ استِحْياءً وقال : خَلُّوا عنه . فلمّا رجَعَ إلى أصحابِه قالوا : واللهِ ما أطلقكَ إلّا اللهُ فارجِعْ إلى حربه معنا ، قال : هيهاتَ ! غَلَّ يداً مُطْلِقُها ، واسترقَّ رقبةً مُعْتِقُها ؛ ثمّ قال الأبياتَ التى أوّلها :

٥ تاللهِ لا كِدْتُ الأَميرَ بآلَةٍ وجَوارِحِى وسِلاحُها آلاتُهُ .

وفى فَصْلٍ منها :

وقد زالَت التَّقِيَّةُ ووَجَب الصِّدْقُ . أَلَا مَن سَمِعَ هذا الكتابَ وأُخْبِرَ عَنْهُ من تلكَ الطَّبَقةِ فليرُدَّ إلينا مالَنا ، وليَخرُجْ لنا عن حَقِّنا ؛ وليَحْذَرْ أنْ يَجْعَلَ لنا عليه سَبيلاً . فإنَّما هِى أشياءُ غَلَبَ عليها إمّا مِنْ صَميمِ مالِنا فلمْ ١٠ يتورَّعْ (١) فيهِ عن الخيانة ، وإمّا مِنْ أموالِ اللهِ بأيدينا فلَمْ يؤدِّ فيها الأمانةَ ، وما ظَهَرْنا عليهِ منها فمصروفٌ إلى سَبيلِه من مَصالِح المسلمين فى أرزاقِ أجنادِهم ، ونفقاتِ ثُغورِهم . وأنا زعيمٌ لمَن سارَع بما فى يدَيْهِ ، وبادَر بما عندَه ، أنْ نَعرِفَ له طاعتَه ، وشُكْرَ مُبادَرته ؛ ومَن توانَى وتَربَّص ، وقعَدَ ونَكَص ، أنْ نَضعَه بحَيثُ وَضَعَ نفسَه من الظِّنّة ، وأثبَتَ عليها مِن التُّهَمَة ، وتَنْتهِى به نِهايةُ ١٥ النَّكالِ البالغ ؛ فلا ينظرنَّ حازم لربّنا (٢) إلّا فى ذِمّة .

تلخيصُ التّعْريفِ بخَبَرِ الوَزيرِ عِيسى بن سَعيدٍ المَذْكور ، منَ الأَوَّلِ إلى الآخِرِ ، ومَقتَلِه على يدَى المظفَّرِ عبدِ المَلِك ابنِ أبى عامِرٍ .

قال ابنُ بسّام : وكان عِيسَى بنُ سَعيدٍ المعروفُ بابنِ القَطّاعِ قَيِّمَ دَولةِ ابنِ

(١) ب : « يتروع » (٢) كذا فى ب ولعلها : « لدينا إلا فى ذمته »

أبى عامر وحاملَ لوائها ، والمُستقلَّ بأعبائها ، ومالكَ زمام إعادتها و إبدائها .
طلعَ فى فلكها قبل دَورانه ، ودلَّ على ما أخفاهُ طَىُّ كتابها دُون عُنوانه ؛ وأنا
أشرحُ ، حين أفضى بىَ القولُ إلى ذكره ، كيفَ كان غرُوبُه وطلوعُه ، ومِن أينَ
اتَّفق طيَرانُه وَوُقوعُه ؛ على ما قدَّمتُ والتزَمْت ، [1] وحَسْبَما ضَمَّنتُ ونَظَّمْت [1] .

٥ قال ابنُ حيَّان : لم يكنْ لعيسَى بن سَعيدٍ مأثُرةُ سَلَف ، ولا بيْتُ تقدُّم ،
خلاَ أنّه عرَبىُّ النِّجار ، من قومٍ يُعرفون ببنى الجزِيرىِّ من كُورة بَاغه [2] . وكان
أبُوه مُعلّمًا فاختلَفَ عِيسَى إلى الدِّيوان ، وصَحِبَ محمّدَ بنَ أبى عامرٍ وَقْتَ حرَكته
فى دَولة الحَكَم ؛ فبلغ به المَنازلَ الجليلَة ، وكان عنده مَشهورًا بيُمْن النَّقيبة .
وأخْبارُه معه كثيرةٌ . وتبَحْبَح عِيسَى بعد مَهلَكِ المَنْصور بن أبى عامرٍ فى دَوْلة
١٠ ابنه عبدِ المَلِك ، [3] فتناهَى فى الاكْتِساب بالحَضْرة وجميعِ أقطارِ الأندلُس
ضِياعًا ودُورًا ، فاتَ النَّاسَ إحصاؤُها . واشتَملَ على المُلْك [3] هو وولَدُه وصَنائعُه .
وكانَ لهم مع ذلك فى سائر أعمالِ السُّلْطانِ نَصيب ، وعلى كُلِّ عاملٍ وَظيف ، ولم
يُنَفَّذْ تَوْقيعٌ إلاَّ بأمره ، ولا تَمَّ أمرٌ إلاَّ بمَشُورته . وكثُر أعداءُ عِيسَى لوَقْته ؛
فاحترَسَ منهم جَهْدَه ، [4] وتيَقَّظ فى حِراسةِ نَفْسه ، ووَالَى كثيرًا من وُجوهِ أهلِ
١٥ الدَّولة ، تصاهَر لهم [5] ببَنِيه و بناته ؛ فسَمَتْ جماعتُه ، ثمّ [4] تصاهر أخيرًا إلى ابن
أبى عامر والذِّكرُ مِن عِنده ، زوَّجَ ابنَهُ المكنَّى أبا عامرٍ أُختَ عبدِ الملكِ الصُّغْرى
مِن بَنات المنصور ، فتمَّت تلكَ المُصاهرةُ فى سنة ستٍّ وتسعين وثلثمائة ،
وكانت وَليمةً عَظيمةً . وتناهَتْ بعدُ أمورُ عِيسَى فى الجلالة ، وأخذته الألْسنةُ .

(١—١) ليس فى ر (٢) ب : « بيغه »
(٣—٣) ليس فى ر (٤—٤) ليس فى ر
(٥) ب : « تظاهر »

واتفق أيضا عليه أن عبد الرحمن بن المنصور انبسط على أخيه عبد الملك في أول دولته بصحبة طائفة تخل به، فعرف عيسى أخاه عبد الملك بذلك؛ فحمله على كف[١] عبد الرحمن عنه، فحقد على عيسى ورصد السعي عليه، واستفسد أيضا السيدة الذلفاء أم عبد الملك[٢] وأساء إلى صنيعتها خيال أم ولده، والغالبة

٥ كانت عليه، ومن يتصل بهما بسبب نكاح عبد الملك[٢] بنت الجنان مولاته، كانت قد تأدبت بأدب أهله وأخذت الغناء من محسنات قيانه، فنظرها عبد الملك يوما، فراعته، وهان عليه لفرط عفته زواجها؛ فأنكرت عليه ذلك والدته، فاستراح في الأمر مع عيسى فصوبه له وأمضاه. وبني عبد الملك بها، فحقدت[٣] أمه على عيسى. ثم اتهم آخرا بالعظمى من مداخلته للولد أبي بكر

١٠ هشام بن عبد الجبار بن الناصر للقيام على عبد الملك وأخذ الملك عنه. وكان عيسى لا يحضر مجلس شراب عبد الملك إلا في الندرة أو الدعوة تقع؛ استغفاه من ذلك لضعف شربه فأمكن أعداءه القول فيه لغيبته بما شاءوا، وزاد الأمر حتى تنكر له عبد الملك، ففهم عيسى بعض ذلك لقوة حسه[٤]، وهمة[٥] نفسه، وأعمل الحيلة في خلاصها؛ فسما عند ذلك إلى الغدر بالعامرية أولياء

١٥ نعمته، والانقلاب مع المروانية المذكورة بدولته، وإقامة الولد أبي بكر هشام المذكور على الخليفة هشام المؤيد[٦] ابن الحكم، وأخذ الخلافة عنه لضعف استقلاله والقطع لدولة ابن أبي عامر قطعا لا بقية معه. وكان عيسى خليطا لهشام بعد المنصور صاحبه، محمولا ما بينهما على السلامة، فدعا هشاما إلى

---

(١) ب: «كف يد» (٢—٢) نه في ر
(٣) ب: «لحقت» (٤) ب: «حسبه»، نه في ب
(٥) ب: «وأهمته» (٦—٦) نه في ر، واضطراب كثير في ب، وإنما صححناه عن «البيان المغرب» لابن عذارى (ج ٣ ص ٣٠)

ذلك وراسَلَه سِرًّا ولقِيَه خُفْيةً، وقرَّب لَهُ مَأْخَذَه على يَدِه لمَنْزلته من آل العامِريّة، وأنَّ جُنْدَها لا تُخالفه بحِيلة. فاستجاب له هِشامٌ فيما ذكَرُوا، وأخذ بَيعتَهُ عليه وساعَدَه جماعةٌ، وكاد يَتِمُّ الأمرُ، وأعدَّ رِجالاً للفَتْك بعبد المَلِك، فسار أحَدُهم إلى نظيفٍ الفتى الكبيرِ مَوْلَى ابنِ أبي عامر، فتَنَصَّح له بالقَضِيّة[1] فأعْلَمَ عبدَ الملكِ بها لوَقْته، فاشتَغَل بالُه، وترجَّح في أمرِ عيسَى وخافَ أنَّ السِّعاية من كِيادِ عَدُوِّه إلى أنْ أنْهَى إليه صاحبُ المَظالِم أبو حاتِم بنُ ذَكْوان ما أقْلَقَهُ. ولم يرْتَبْ به لثِقَتِه. وحَدَّثه أنَّ رَجُلًا يُعرَفُ بابنِ القارِحِ الوزَّان كان مُتخصِّصاً من العامّة، وله بالوَلَد أبي بكر هِشامٍ المذكور اتِّصالٌ؛ فحَكَى عن نَفْسه أنَّه رَأى نُزُولَ عِيسى عليه ببَعْضِ بَساتِينه، وأنَّه سَمِع ابنَ عبدِ الجَبَّار يقولُ له: يا أبا الأصْبَغ، واللهِ إنِّي لَخائفٌ والخَطَرُ عظيم! فقال له عِيسَى: ومَنْ تَخافُ؟ أَوَ لَيْسَ المُلْكُ بيَدِي، والجُنْدُ طَوْعِي، والناسُ راضُون بفِعْلي؟ [2]ثمَّ افْتَرَقا، فجاء ابنُ القارِح، فأعْلَمَ ابنَ ذَكْوانَ، فطار إلى عبدِ المَلِك بالخَبَر فبَطَش عبدُ المَلِك بعِيسَى. وكانت صورةُ قَتْله [أنْ] واطأ عليه أخاه عبدَالرحمن ومَنْ يَليه مِن أصحابه، فشَدُّوا عزيمته، وعقَدَ معهم مجلِسًا للشُّرب، وبعَثَ عن أكثرِ أصحابِ عيسَى فجَلَس للشُّرْب بالمجلِس الكبيرِ المُشرِفِ عَلَى النَّهْر لعَشْرٍ خلَت من ربيعٍ الأوَّل سنةَ سَبْعٍ وتِسْعين[2]. ثمَّ أرسل عن عيسى وقد مضى من الشُّرب وقتٌ، فجاءه رَسولُه وهو قد بَدَأ يَشْربُ أيضًا مع نفرٍ من أصحابه فيهم أبو حَفص بن بُرْد وغيرُه.

قال أبو حَفص: فلَمْ نَرْتَبْ بدعائِه، وبادَرَ بالرُّكوبِ نحوَ عبدِ الملك،

---

(١) ب: «بالقصة» (٢ — ٢) في هذه الجمل تقديم وتأخير وتلخيص في ر

والقَضاء قد جَدَّ به[١]، فلمَّا وَصَل إليه أظْهرَ الاستبْشارَ به وأقْبل عبدُ الملك عليه بوَجْهِه وأعلَى مَجلِسه وأخَذُوا فِي شأنِهم . فلمَّا دارَت الكُؤُوسُ أخذ عبدُ الملكِ فى مُعاتبَتِهِ ، والتَّعرُّضِ لِما قُرِفَ به عندَه ؛ وعِيسَى يَنْزَعِجُ منْ ذلِك ، ويُقلِّدُ الكأْسَ مَلامتَه هنالِك ، إلى أنْ صَرَّح عبدُ الملكِ بما فى نفسه ، وألْقى القَدحَ ،
٥ وأقْبَل يَسُبُّه ويُغلِظُ له ؛ فأحَسَّ عِيسَى بالشَّرّ ، ورَابَهُ نَظَرُ القَوْمِ إلى العُيون ، وطَفِق يعتَذِر ويَحتجُّ فى إبطالِ ما قُرِفَ به ويشُدُّ القَسَم على فَسادِه ، ويناشِدُه فِى إراقة الدَّمِ وعبدُ المَلِكِ لايلْتفتُ إليه ، إلى أن اعْتَلَى الكَلامُ وكثُر اللَّجَبُ ، فقَبَض عبدُ المَلِك على سَيْفه منْ جانِب الفِراشِ فصَبَّه على عِيسَى ، وقد قام فزِعًا ؛ فاستَقْبَل وَجْهَهُ بضربةٍ ، فسَقط عِيسَى ثمّ أعاد عليه وشارَكهُ أصْحابه
١٠ بسُيُوفِهم حتَّى هَبَرُوه[٢] ، وحُزَّ رأسُه ووُضِع جانِبًا ؛ وأمَرَ عبدُ المَلِكِ أيضًا بقَتْلِ صاحِبَيْه ابنِ خَليفة وابنِ فَتْحٍ فهُبِرَا[٣] بالسُّيوفِ ، واختَلَطَ المَجْلِس ، ولَحِقَ كثيراً من أهْلِه دَهْشةٌ حَملتْ بعضَ مَنْ كان بقُرْبه من الأعاجِم إلى أنْ رَمَى بنفسِه فِي النَّهْرِ هَرَبًا من القَتْلِ فطاح فى اللُّجَّة . وأمَرَ برَفْعِ رَأْسِ عيسَى بباب الزَّاهِرة ، وما زال هنالك إلى أن فُتِحتِ الزَّاهِرةُ على يد ابن عبد الجَبَّار
١٥ المَهْدِىّ ، وذَهَبت الدَّوْلةُ العامِريَّةُ .

وقام عبدُ المَلِك من ذلك المَجْلس ، وأمَرَ بتغْيِيرِ ماوَقَع ثمّ لم يَعُدْ إلى الشُّرْبِ فيه — زَعَموا — حَيَاتَهُ . وأنفذَ فى الوقتِ ثِقاتِ خَدَمِه إلى مَنازِلِ عيسَى

---

(١) ر : « جذبه »

(٢) ب : « برد »

(٣) ر : « خبرا » — ب : « قهرا »

وأصْحابِهِ وكُتّابِهِ[١] ، فاستصْفَى[٢] ما فيها وسَجَن أولادَ عِيسَى الأكابر بمُطْبَقِ الزّاهرة ، وأمرَ ابنَهُ بطلاقِ أُخْتِ عبدِ الملك فطلّقها ولم تزلْ خليّةً إلى أن ذهبت دولةُ قومِها فراجعَها . وكان الناسُ يحسَبون مالَ عِيسَى كالتّراب كثْرةً ؛ فما وُجِدَ له منه شىءٌ ؛ وتعجّب الناسُ من ذلك ، حتّى إنّ أولادَه إلى آخرِ أمرِهم ما فارَقهم الإقلالُ والمسْغبةُ . وأعْظَمَ النّاسُ قتلَ عِيسَى لجَلالةِ قَدْرِه ؛ وسار[٣] منهم إلى الزّاهرة خَلْقٌ عظيمٌ ينظرُون إلى رأسه .

قال ابنُ حيّان : وكُنتُ فى جُملة مَن نَظَر إليه واستبَنْتُ الضَّرْبةَ بخدِّه الأيْمَن . وكان أبو العَلاء صاعدُ بن الحَسن[٤] اللُّغوىُّ[٥] مُنْقطِعًا إلى عِيسَى فكان أوّلَ من أنْشَدَ عبدَ المَلِك ، على سَبِيلِه من سُرعةِ الانقلاب ، شِعْرًا يقول فيه :

فتِلْكَ هامتُهُ فى الجوّ ناطِقةٌ ... تُحدّثُ النّاسَ من آياتِها[٦] عِبرَا
مَكْتُوبةُ الوَجْهِ بالهِنْدِىّ يقرؤهُ ... مَن لَيسَ يقْرأُ مكْتوبًا ولا سَطرَا

ومن أغْربِ ما وَرَدَتْ به الرُّؤيا بعد قتلِه أنّ رجُلًا من الصُّلَحاء[٧] رأى فى النّوْمِ كأنّ رأْسَه يُنْشِدُ على الخَشَبةِ التى كان عليها :

بَانَ الخَلِيطُ وشَفّنِى وَجْدِى ... و بقيتُ أندُبُ رَبْعَهُمْ وَحْدِى

فأُوِّلَت[٨] الرُّؤيا ببَيْنِ آلِ أبى عامرٍ وصدَقَتْ إلى مُديْدَةٍ . انتهى ما لَخّصْتُهُ من كلامِ ابن حيّان فى خبَرِه .

---

(١) ر : « أسبابه » (٢) ب : « وقبض جميع »
(٣) ب : « وصار » (٤) له فى ب (٥) له فى ر
(٦) ب : « آياته » (٧) له فى ر
(٨) ب ، ر : « فأذنت » ، والتصحيح عن « البيان المغرب » (ج ٣ ص ٣٥)

ومن شِعْرِ أبى حفصِ بنِ بُرْدٍ، ممّا خاطَبَ به أبا العَلاءِ صاعِداً اللُّغَوِىَّ من أبياتٍ يقولُ فيها :

أبا العَلاءِ اسْتَمِعْ تَعْرِيضَ ذِى مِقَةٍ … أَهْدَى لكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْرَ مَقْطُوبِ

نَاءٍ بِغُرْبَتِهِ والفَهْمُ نِسْبَتُهُ … وَكَمْ دَنِىٍّ قَصِىٍّ فى المَنَاسِيبِ

٥ وصَارَ فى غُرْبَةِ الآدابِ مُغْتَرِباً … أما كَفَى الدَّهْرَ عَضٌّ دُونَ(١) تَغْرِيبِ

أَوْلاكَ(٢) مَحْمَدَةً مِن بَعْدِ تَجْرِبَةٍ … لا يَصْلُحُ الحَمْدُ إلّا بَعْدَ تَجْرِيبِ

أَنْتَ الّذى لَمْ يُعَاشِرْ مِثْلَهُ رَجُلًا … فى العِلْمِ والظَّرْفِ والآدابِ والطِّيبِ

تَحْصِيلُ فَضْلِكَ لِلْحُسَّادِ مُعْجِزَةٌ … وكُنْهُ عِلْمِكَ شَىْءٌ غَيْرُ مَحْسُوبِ

أَمّا اللُّغَاتُ فَلا يَعْقُوبُ يَبْلُغُ مَا … وَعَيْتَ مِنْهَا وَلَا أَشْيَاخُ يَعْقُوبِ

١٠ وأَنْتَ رَبُّ القَوافِى الشّارِدَاتِ بِهِ … تُحْدَى وَسِيقَتُها فى كُلِّ أُسْلُوبِ

إنَّا نُنَادِيكَ لِلْجُلَّى وَأَنْتَ لها … طَبٌّ تُعالِجُ فيها كُلَّ مَطْلُوبِ(٣)

فَهَلْ شَعَرْتَ بِبَدْرٍ طَافَ بِى غَلَسًا … رَخْصِ البَنَانِ كَحِيلِ العَيْنِ مَخْضُوبِ؟

أَهْدَى إِلَىَّ أَرِقٍ(٤) لَوْ حازَها سِنَةً … لم تَعْدُ بِى مَزْجَ تَصْدِيقٍ بِتَكْذِيبِ

حَيَّا تَحِيَّةَ ذِى أُنْسٍ بِنا وَجَلا … قِناعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ(٥) مَحْجُوبِ

١٥ فَقُلْتُ: أَهْلًا وَرَحْبًا! مَنْ هَداكَ لَنا … لَيْلًا؟ فَرَدَّ بِتَأْهِيلٍ وَتَرْحِيبِ

وقالَ: ماذا تَرَى؟ قُلْتُ: الغَزالَةُ فى … ثَوْبِ احْمِرارٍ مِنَ الظَّلْماءِ غِرْبِيبِ(٦)

قالَ: اتَّئِدْ! قُلْتُ: قَدْ أَبْصَرْتُها قِبَلًا! … فَقالَ: حِلًّا. فقلتُ: الحِلُّ مَطْلُوبِى!

---

(١) ب : « عيش غير » (٢) ب : « أولاه »

(٣) هذا البيت والذى قبله ناقصان فى ب (٤) ر : « أرقا »

(٥) ر « الصور » (٦) لم يقع هذا البيت فى ر

قالَ : تحرَّ فَلاَ تَشْطُطْ بنا سَرَفاً فقلْتُ : لَيْسَ سوى التّقْصِيرِ مَرْغُوبى (١)
ثُمَّ اعْلمى أنّنى من حُبِّكُمْ دَنِفٌ قالَتْ : علِمْتُ فَلاَ تَخْضعْ لِمَحْبُوبِ
قلتُ : الوِصالُ ، فقالَتْ : مَهْ ! بلَى وعسى وفى عسى فُرْجَةٌ تُرجَى لِمَكْرُوبِ
ثمّتَ وَلَّتْ فأبقَتْ فِى الحَشَا ضَرَماً يَزْكُو بدمْعٍ عَلَى الخدَّيْنِ مَسْكُوبِ
فالآنَ فازْجُرْ أَواسْجَعْ إنْ همَمْتَ به كسَجْعِ شِقٍّ أو الأفْعَى أو الذِّيبِ ٥
هذى عبارَتُها فالأمْرُ (٢) مُشْترَكٌ تُلْقَى أفانِينُهُ طرًّا بِتَهْذِيبِ

فأجابه أبو العلاء صاعدٌ بأبياتٍ يقولُ فيها :

لبَّيْكَ ألْفاً ، أباحفصٍ ، إجابةَ مَنْ يُدْلِى إلَيْكَ بوُدٍّ (٣) غيْرِ مَأْشُوبِ
أبعْدَ خمْسٍ وسَبْعِينَ التحَفْتُ بها حَتَّى قرَعْتُ لِهذا الدّهْرِ ظُنْبُوبِى
رَمَيْنَنِى بسِهامٍ غَـيْرِ طَائشَةٍ حُورٌ زرَرْنَ عَلَى صُمِّ الأنابِيبِ ١٠
يا مَنْ يُرقِّعُ بالآمالِ ماخرَقَتْ يدَا اللّيالِى ، قَبيحٌ صَبْوَةُ الشَّيبِ
نَادَيْتَنِى لِخَيَالٍ عزَّ طائِفُـهُ ألَا لِيَوْمٍ عَصِيبٍ إذْ تُنادِى بى !
حَتَّى أقِيكَ شَدَا الأيامِ عَنْ عَضُدٍ مُلدَّدٍ وحُسامٍ غَـيْرِ مَخْشُوبِ
إياكَ وَالموْعِدَ الخوّانَ تَقبَلُهُ فَلاَ أمَانَةَ لِلُّعْسِ المَخاضِيبِ
فاكْتُبْ عَلَى جمَدٍ ما قدْ وَأتْكَ به وضَعْهُ فى الشّمْسِ يذْهبْ غيْرَ مَخْضُوبِ ١٥
ولا تَـكُونَنَّ قُرْحَاناً نَصَبْنَ لهُ حَتَّى عدَوْنَ عليْهِ عَدْوَةَ الذِّيبِ
اللهَ فى قَلْبِكَ المزْجُورِ عَنْ دَدِهِ لا تُسْلِمَنْهُ لِتَسْهِيدٍ وَتعْذِيبِ (٤)
فقَدْ نَجَوْتَ وَمَا صَدَّقْتَ فَوْرَتَهُ مُهشَّمَ القِدْحِ مَهْضُومَ الأنَابِيبِ
شَيْخَ الوِزارَةِ جِنِّىَّ الكِتابَةِ إنْ رَكِبْتَ منْهَا طَرِيقاً غيْرَ مَرْكُوبِ

(١) لم يقع هذا البيت فى ب — ر : « موحوب » (٢) ب : « والعلم »

(٣) ب : « برد » (٤) لم يقع هذا البيت فى ب

فَلَا تَسُومَنَّ شَيْخًا طَارَ طَائِرُهُ ... سَوْمَ الشَّبِيبَةِ فى لَهْوِ الخَرَاعِيبِ
وأَنْتَ مُنْفَرِدُ الْمِضْمَارِ مُنْصِلُهُ ... غَمْرُ الْبَدِيهَةِ رَوَّاضُ المَصَاعِيبِ

قَوْلُه : « ولا أمانةَ لِلُعْسِ المخاضِبِ » من قَوْلِ كُثَيِّر[1] :

وإنْ حلفَتْ لا يَنْقُضُ النَّأْىُ عَهْدَهَا ... فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

٥ وَقَوْلُه : « فاكْتُبْ على جَمَدٍ » البَيْت ، كَقَوْلِ ابنِ العَمِيد :

مُتَقَلِّبٌ يَأْتِيكَ أَثْبَتُ عَهْدِهِ ... كالخَطِّ يُرْسَمُ فى بَسِيطِ الْمَاء

فَصْلٌ فى ذِكْرِ الوَزِيرِ الكاتِبِ أَبى المُغِيرَةِ عبدِ الوَهَّابِ بنِ حَزْم ، وإِثْبَاتِ ما تخيَّرْتُ له من النَّثْرِ والنَّظْمِ ، مع ما يتعلَّقُ بِهِ ، ويُذْكَرُ بِسَبَبِه .

١٠ قال ابنُ بَسَّام : كان أبو المُغِيرَةِ هذا ظُبَةَ الحُسَام ، وواسِطةَ النِّظام ، وفارسَ مَيْدانِ البَيان ، وذاتَ[2] صَدْرِ الزَّمان ، حلَّ من زُهْرِ الفَضائل ، مَحَلَّ السِّنَانِ منَ العامِلِ ، والزِّبْرِقانِ[3] من المَنازِل ، وتمَّت به غُرَرُ المَحامِد ، تَمامَ الصِّلَاتِ بالعوائِد[4] ، ومَجْهولِ اللُّغَةِ بمَعلومِ الشَّواهِد . ودَولةُ عبد الرحمٰن بنِ هِشامٍ المُستظهِرِ المتقدِّمةُ الذِّكْر كانتْ مَهَبَّهُ الذى منه عصَف ، ومجالَه الأوّلَ الذى ١٥ فيه تصرَّف ، أَلْقَى إليه زِمامَه ، وأَخْدَمَه أيامَه ؛ ثمَّ عَتَبَ عليه فى بعضِ الأمْر ، فلَحِقَ ببلادِ الثَّغر ، فهناك تَسَحَّبَ على الدُّوَل ، تَسَحُّبَ الهوَى عَلَى العَذَل ؛ وامتزج

---

(١) راجع ديوانه (ج ١ ص ٢٦٥) (٢) ر : « وأذات »
(٣) ب : « والقمر » (٤) ب : « الصلة بالعائد »

بملوك العصر ، امتزاج الماء بالخمر ، ولو طال مداه لم يُذكرْ معه سواه[١] ،
ولاعترف بتفضيله أحبته وعداه .

نقلتُ من خطّ أبى مروان بن حيان قال :

ولحق أبو المغيرة ببلاد الثغر وقد اعتات طبقته فى النظم والنثر ، وكتب
عن عدة من الأمراء ، ونال حظا عريضا من دنياهم ، إلا أنه اعتبط شابا بعد ٥
أن ألف عدة تواليف ، وشجر الأمر بينه وبين الفقيه أبى محمد بن حزم ابن
عمه ، وحدث[٢] بينهما هنات ظهر عليه فيها أبو المغيرة وبكّته حتى أسكته ،
لأنه كان أنبه من أبى محمد فى حضور شاهده ، وذكاء خاطره ، وحسن هيئته ،
وبراعة ظرفه ، وجودة أدبه ، وهو كان فى زمانه فى الجد والهزل صاحب اللواء
فى مجالس الأمراء مستنجزا للبيضاء ، ممتطيا[٣] للشقراء ، وتصوّر فى قلوب ١٠
الرؤساء ؛ فأجزلوا أرزاقه فعظمت صلاته وهباته[٤] . انتهى كلام ابن حيان .

قلتُ أنا : وقد أخرجتُ من رسائله العميدية ، وقصائده اللبيدية ،
ومما جرى بينه وبين ابن عمه ما يسحر الألباب ، ويبهر الشعراء والكتّاب .

جُملة من رسائله فى أوصاف شتى :

كتب إليه أبو على بن الربيب القروى رقعة يقول فيها : ١٥

إنى فكّرتُ فى بلدكم أهل الأندلس إذ كان قرارة كل فضل ، ومقصد
كل طرفة ، ومورد كل تحفة ، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تجلب ،
وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة

(١) نه فى ر (٢) ب : « وجرت »
(٣) ر : « مقتنصا » (٤) ب : « وابهاته »

مُلوكه ومحبّتهم للعِلْم وأهله، ورَفْعهم مَنْ رَفعه أدبُه، وكذلك سيرتهم فى رجالِ الحرْبِ يُقدِّمون من قدَّمته شجاعته، وعَظُمتْ فى الحُروبِ نِكايته؛ فشجّع عندكم بذلكَ الجبان، وأقدمَ الهيّبان، ونبهَ الخامِل، وعَلِمَ الجاهل، ونطق العييّ[1] وشَعَر البكِيّ، واستَنْسَرَ البُغاث، وتَثَعْبَنَ الحِبَاث[2]، وتنافس الناسُ فى العُلوم.

٥ ثُمَّ هم مع ذلك فى غايةِ التَّقْصير ونهايةِ التَّفْريط، من أجل أنَّ عُلماءَ الأمْصار دوَّنوا فضائل أعيانهم وقلَّدوا[3] الكُتُبَ مآثِرَ أقطارهم، [4]وأخبارَ المُلوك والأُمَراء، والكُتَّابِ والوُزَراء، والقُضاةِ والعُلَماء[4]، فأبقَوْا لهم ذِكراً فى الغابرين، ولسانَ صِدْقٍ فى الآخرين؛ وعُلَماؤكم مع استظهارِهم على العُلوم، كلُّ امرِئٍ منهم قائمٌ فى ظِلِّه لا يَبْرَح، وثابتٌ على كَعْبِه لا يَتزحْزَح؛ يخافُ إنْ صنَّف

١٠ أن يُعنَّف، أو تَخْطَفَهُ الطَّيرُ أو تَهوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سَحيق[5]، لم يُتْعِب نَفْسًا أحدٌ منهم فى مَفاخرِ بَلَدِه، ولم يَسْتعمِلْ نِقْسًا فى فضائلِ مُلوكه، ولا بَلَّ قَلَمًا بمنَاقِبِ كُتَّابِه وَوُزرائه، ولا سوَّدَ قِرْطاسًا بمحاسنِ قُضاته وعُلَمائه؛ على أنَّه لو أطْلَق ما عَقَلَ الإغفالُ من لسانه، وبَسَطَ ما قبض الإهمالُ من بيانه، لَوَجَد للقَوْل[6] مَساغا، ولم تَضِق عَلَيْه المسالكُ هنالك، ولكنْ همُّ كلِّ أحدٍ

١٥ منهم أن يَطْلُبَ شأْوَ مَن تقدَّمه من رُؤَساءِ العُلَماء، ليحوزَ[7] قَصَبَ السَّبْق[7] ويفوزَ بِقِدْحِ ابنِ مُقْبِل، ويأْخُذَ بكَظْمِ دِعْبِل، ويَصيرَ شَجًى فى حَلْقِ أبى العَمَيْثَل؛ فإذا أدْرَك تلك البُغْية، وجاءته بعدُ المنيَّة، دُفِن عِلْمُه معه، وماتَ ذِكْرُه، وانقطع خَبَرُه.

---

(١) ب: « الخارس » (٢) ب: « الحيات »

(٣) ب: « خلدوا » (٤ — ٤) ل. ف. ر

(٥) سورة ٢٢: ٣١ (٦) ب: « للقبول » (٧ — ٧) ل. ف. ر

ومَنْ قدَّمْنا ذِكْرَه من عُلَماء الأمْصار احتالُوا لبقاء ذِكْرِهم ، فألَّفُوا دواوينَ يَبقَى لهم بها ذِكْرٌ يتجدَّدُ طُولَ الأَبد .

فإن قلتَ : إنَّه كان ذلك من عُلَمائكم ، وألَّفوا كُتُبًا لكنَّها لم تَصِلْ إلينا ، فهذه دَعوَى لم يَصْحَبْها تَحْقيق ، لأنَّه ليس بَيْننا وبَيْنكم إلا رَوْحَةُ راكِب ، أو دَلْجَةُ قارب ، لو نفثَ ببلدِكم مَصْدُور ، لأَسْمع ببلدِنا مَنْ فى القُبور ، فضلاً عمَّن فى الدُّور والقُصُور ، وتلقَّوْا قولَه بالقَبول ، كما تلقَّوْا ديوانَ ابنِ عبدِ ربِّه منكم الذى سَمَّاه بـ « العِقْد » . على أنَّه يَلْحَقُه فيه بعضُ اللَّوْم ، إذْ لم يجعلْ فضائل بلدِه ، واسطةَ عِقْده ، ومَناقِبَ ملوكِه يَتيمةَ سِلْكِه ، لكنَّه أكثَرَ وطوَّل ، وأخطأ المِفْصَل ، وأطال الهزَّ بسَيْفٍ غيرِ مِقْصَل ، وقعَدَ به ما قعَدَ بأَصْحابه مِن تَرْك ما يَعْنيهم ، وإغفالِ ما يُهِمُّهم ؛ فأَرْشِدْ أخاكَ — أَرْشَدكَ اللهُ — إنْ كانَ عندك[1] فى ذلك الجَلِيَّة ، وبيدِكَ فَصْلُ القَضِيَّة إن شاء الله .

فراجَعَه أبو المُغيرة برُقْعةٍ حذَفتُ أكثَرَ فُصولِها لِطُولِها ، منها :

أبقَاكَ اللهُ من حَميمٍ صَريحِ الوُدّ ، أهدَى تَحيَّتَه على البُعْد ؛ فإنَّ الفَهْم رَحِم ، والأَدَبَ ما بين أَهلِه وَسائلُ وذِمَم ؛ وليس عدَمُ التَّرائِى والعِيان ، بقاطِعٍ للأَسْباب والأَقْران ، ولا تنائِى الدِّيارِ والمَنازلِ ، بقادحٍ فى الأَذِمَّةِ والوسائل ؛ فالكتابُ عِوَضٌ عن الكَلام ، والتَّواصُل بالنُّفوس لا بالأجسام ، ومازلتُ أتنَسَّمُ ذِكْرَك ، فأَتَرسَّمُ قَدْرَك ، وأسْمعُ خَبرَك فأرَى خُبْرَك ، حتَّى أرادتِ الأيَّامُ كَشْفَ السِّرّ ، ورَفْعَ السِّتْر ؛ فوَقَفْتُ على الصَّحيفةِ التى ظاهرُها دِيباجٌ مَرْكوم ، وباطِنُها لُؤْلُؤٌ مَنظوم ، ووَشْىٌ مَحُوك ، وذَهَبٌ مَسبوك ؛ فرَأيت صُوَرَ[2] الأدبِ باهرةَ المَرْأى والعِيان ، زاكيةَ المَخْبَرِ والامْتِحان ، شاهدةً لك بأَذْلَق

(١) ب : « بانت » (٢) ب : « عروة »

لِسان ، وأصدق بيان ، أنّكَ أبو عُذْرتِها ، ومالكُ جُمْلتها ، وواحدُ فُنونِها ، ووارِدُ مَعينِها ، وقادِمَةُ جناحِها ، وصَبَا رياحِها ؛ فسألتَ سُؤالَ العالِم ، وبحثتَ بحثَ اليَقْظانِ المُتغافِلِ ، وادَّعيْتَ الحَيْرةَ وأنتَ أهْدَى فى تلك الفَلا ، من فارِطِ القَطَا ، لتَعلَم أينَ المُخْطِئُ والمُصيب ، وكيفَ الجوابُ والمُجيب ؛ واللهُ يُوَفِّقُ من المُراجعةِ لِما يُرضِيك ، ويكونُ وَفْقَ أمانيك ؛ وما أجهلُ أنّى على نفسى أبتهِلُ بهذا الدُّعاء ، لمن أسرَّ حَسْوًا فى ارْتِغاء .

فأوَّلُ ما قدّمتَ فى كِتابِك ما يُقدّمه ذُو الفَضْلِ والنُّبْلِ من الثّناءِ على بَلدِنا وأهلِه ؛ ووَصَفْتَ الجَميعَ على اختلافِ طَبَقاتِهم ، وتَبايُنِ دَرَجاتِهم ، من آرائِهم التى نَحَوْها ، وعُلومِهم التى وَعَوْها ، بأوْفرِ الأقْسام ، واحتلالِهم من ذلك بالغارِبِ والسَّنام ؛ حتّى عارَضَ الجَبانُ الأسَد ، وناطحَ الجَوزاءَ الجَلَد ، وناطَقَ الأعجمُ الفَصيح ، وبارَى[1] الجاهلُ العالِم ، وجارَى القاعدُ القائم ، تَحاسُدًا على الفَضائل . هذا مَعنى كَلامِك لم أُورِدْ ألفاظَه ، وإن أصْمَيتُ أغراضَه ، إشفاقًا من أن أفْضحَ كلامى به ، وأدُلَّ على قُصورِ آلَتى بِمُجْتَلَبه ، فأكونَ كمن جَمعَ بين الشَّبَهِ والذَّهَب ، وقرَنَ الدُّرَّ إلى المَخْشَلَب ؛ ثمّ قلتَ : إنّ ذِكرَ الفتى عُمْرُه الثّانى ، والميّتُ المجهُولُ لا الفانى ؛ فكم من هالكٍ آثارُه كاشِفةٌ عِيانَه ، وواصِفةٌ قَدْرَه وشانَه ، وحَىٍّ أثوابُه كَفَنُه ، وجَهْلُه جَنَنُه . وهؤلاء الذين أنْضَيتَ فى وَصْفِهم جِيادَ مَدْحِك ، وهتَكْتَ ظَلامَهم بغُرَّةِ[2] صُبْحِك ، على غيرِ هذا الرّأىِ مُقيمُون ، وبخلافِ هذا المَذْهَبِ قائلون . فولّيتَ فى حَيِّزٍ وعَزَلْتَ ، وارتفعْتَ فى حالٍ ونزَلْتَ ، وأتيْتَ بغايةِ المُحال ، وهو إثباتُ الضِّدَّيْنِ فى حال ؛

(١) ب : « مارى » (٢) ب : « بعزة » — ر : « بقوة »

ثمَّ زِدتَ فى التَّعليل ، وبالَغتَ فى الاجتماعِ على التَّمثيل ، باعتمادِك تكذيبَ مَنْ قال : إنّ الذى قالَهُ غيرُك لو وَقَعَ لَكان قُرْبُ المسافةِ التى هى شَوطُ جار ، بل غَمْضَةُ سَار ، تُوجِبُ حلَّ الشَّك ، وانجلاءَ الإفك ؛ فَعَجِبْتُ من أمْنِكَ مُراجِعاً لا يَقْصِدُ فى أدَبِ المُقابلةِ قَصْدى ، ولا يَعْقِد على سانحِ أُخُوَّتِكَ عَقْدى ؛ يَجْعَلُ جوابَكَ قَوْلَ القائل : ٥

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ[1] حَيًّا ... ولَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِى

وغَفْراً غَفْراً لهذا العُقوق ! وخُذْه بإزاءِ[2] قولك : « تَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مَكَانٍ سحيق[3] » . وعلى كلِّ حالٍ فقد نادَيْنَا لو سَمِعْنا ، وطِرْنَا لو وَقَعْنَا ؛ وما أشْبَهَنَا بالغريبةِ التى خيرُها يُدْفَن ، وشرُّها يُعْلَن ، يُتْعِبُ أحدُنا نَفسَه ، ويُرْهِفُ حِسَّه ، ويُعارِضُ السَّيفَ بفَهمِه ، والبَحْرَ بعلمه ، والنارَ بذكائه ، ١٠ والزَّمانَ بمَضائه ، ونَتائِجُ فِكْرِه مَحجوبة ، وبناتُ صدرِه غيرُ مخطوبة .

إن يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا لهَا فَرَحًا ... عَنْهُ ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا[4]

وَفى فَصْلٍ منها :

وَلَوْ لَمْ يُعلَمْ لنا خَبر ، ولا ظَهر مِنَّا أثر ؛ وبَقِينا لا يُعرَفُ مكانُنا ، إلَّا بإخراجِ قِسمةِ الأقاليمِ لنا ؛ والحاجةِ من الجُغرافيَا إلى ذِكرِ صُقْعِنا[5] ، لَكان عُذْرُنا[6] ١٥ فى التَّقصيرِ عن اشتهارِ الفَضْلِ لائحا ، وإن كان نَهْجُنا إلى أخذِه والعلمِ به واضحا ؛ وإنْ كنتَ بإطْلاقِ قَولِكَ قد جاهَرْتَنا — وحَقِّكَ — بالظُّلْمِ مُجاهَرةً أنَا

(١) ب : « لقد ناديت لو أسمعت » (٢) ر : « بآداب »
(٣) سورة ٢٢ : ٣١ (٤) لم يقع هذا البيت إلا فى ر
(٥) ر : « ضعفنا » (٦) ر : « عدنا »

أعجبُ كيفَ انقادَ كَريمُ طَبْعِكَ لها، وأعجبُ أيضاً من نُجُوعِى لك، ووُقوفى عن الانتصافِ منك، وأنا أعلمُ أنَّ عِندكم لنا تَواليفَ تَطيرون بها، وأشهدُ بتَقْصيرِ أربابِها فيها؛ وإنَّ وُدًّا عَقَلَ لكَ لِسانِى، ولم يُجْرِ إلاَّ بما تُؤْثِره وتَختاره بَنانِى، لوُدٌّ يَفضَحُ الرَّوْضَ فى حَزْنِه، برائِقِ حُسْنه؛ ورَضْوَى فى هَضْبِهِ، بِثِقَلِ وَزْنِه، ونَوْءَ السِّماكِ فى هَتْنِه، بوابِلِ مُزْنِه؛ وما هى إلاَّ شِيمَةٌ قَديمةٌ فيكم أهْلَ الجِهَةِ الظاهِرةِ أعْلامُها، الباهِرةِ عُلومُها وأفهامُها.

قالَ ابنُ بَسَّام: وخَرَجَ أبو المُغيرة فى رِسالته هذه إلى التَّطْويل، وبالَغَ فى الاحْتِجَاجِ بفُصول، هى عادلةٌ عن هـذه السَّبيل؛ وخَتَمها بذِكْرِ جُملةٍ من تَوَاليفِ أهلِ الأَنْدَلُس، أضْرَبْتُ عن تَسْمِيَتِها لشُهْرَتِها.

وله فَصْلٌ من رقعة:

وعَسَى أن يكونَ شِراءُ ذلك الدِّيوانِ شراءَ[1] التجَّار الأكياس[2]، منَ المُدْبِرِينَ القائلين بارتِفاعِ الكاس؛ وهَمُّكَ[3] أن يكونَ أبُو الحُسَيْنِ[4] وَسيطَكَ، وجَمالُه شَفيعَكَ، فهو ممَّن كان له فى الحُسْنِ لِواءٌ مَرْفوع، وحُلَّةٌ تُزْرِى بالوَشْىِ الصَّنيع، فَعَفَى تلكَ الآثارَ ما سالَ من عِذاره، وطَمَسَ ليلُ اللِّحْيَةِ ما كان أشْرَقَ من نَهارِه؛ لاجَرَمَ لقـد بَقِيَت خِيلانٌ كالآثارِ الدَّالَّةِ على الدِّيار، والحُلِىِّ السَّقيطِ، المُخبِرِ عن بَيْنِ الخَليط؛ وإذا تأمَّلْتَها قد اشتَمَل الشَّـعرُ عليها، وزَحفَ من كلِّ جانبٍ إليها، ذَكَرْتَ قَوْلَ أبى الطيِّب[5]:

بِرُسُومٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ فى عِراصٍ كأنَّهُنَّ لَيالِ

---

(١) ى فى ب (٢) ر: «والأكياس» (٣) ر: «وتعمد»
(٤) ب: «أبو الحسن» (٥) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٣٨)

وله حديثٌ سَتَسْتَظْرِفُه إذا سهّلْتَ له إذْنَك ، وأعَرْتَ له أُذُنَك .

وأبو المُغيرة فى دُعابته هذه كما قرأتُه فى فصْلٍ كَتَبه أبو عبد الرحمن بنُ طاهر إلى الوزير ابنِ عبدِ العزيز مع غُلامٍ وَسيم ، قال فيه : هذا الفتى كما تَراهُ يطْلُبُ خِدْمَة ، وبه حِشْمة ؛ ويَزعُم أنّه يحمِل حِمْلَه ، ويُؤْتِى كلَّ حينٍ أُكُله ؛ وقدْمًا عَهِدتُك تَحِنُّ إلى هذه العَصافير ، فإنها حُمْرُ الحَواصِلِ صُفْرُ المناقير . ٥

وعُرِضَتْ عَلَى أبِى المُغيرة رِسالةُ بَديعِ الزّمانِ فى الغُلامِ الذى خَطَب إليه وُدَّه بعد أنْ عَذَّر ، وبَقَل وجْهُه وأزْهَر ، فعارضها برُقْعةٍ يقولُ فيها :

وَرَد كِتابُكَ تَنشُدُ ضالّةَ وُدِّنا ، وتَرقَعُ خَلَق عَهْـدِنا ، وتَطلُبُ ما أفاتَتْهُ جَرِيرتُكَ إلينا ، وذهبتْ به جِنايتُكَ علينا ، أيّامَ غُصْنُك ناضِر ، وبَدْرُكَ زاهِر ؛ لا نجدُ رَسولاً إليكَ غيرَ لحظةٍ تَخْرِقُ حِجابَ الدُّموع ، أو زفْرةٍ تُقيمُ مُنْآدَ الضُّلوع ؛ فإنْ رُمْنا شكْوَى يَنفُثُ بها مَصْدُورُنا ، أو يَستَريحُ إليها مَهْجُورُنا ، لَقينا دُونَها أمْنَعَ سَدّ ، وأفدحَ رَدّ[١] . وقلتَ[٢] : أهذا الطامع ، فِى أن يُطالِعَ القمَرَ الطالع ، والراغبُ ، فى أنْ يُصاحبَ النجمَ الثّاقب ؟ لشَدَّ ما زاد ، وأبعدَ ما أراد ! حاولَ تألُّفَ الظَّبْيِ الشارِد ، وهَصْرَ الغُصْنِ المائد ، بدَمعةٍ صَبّها ، وزفْرةٍ شبّها ! أمَا علِمَ أنّ لَحْظِى سَهْمٌ القلوبُ أغراضُه ، وأنّى ظبىٌ النُّفوسُ رِياضُه ؟ ١٥ فنَنْصَرِفُ عنكَ كما أتَينا ، ونَقِفُ كما جَرَيْنا ، ونَعودُ إلى نارِ الوجْدِ بك نَصْلاها ، ونارِ البُعدِ عنْكَ لا نَبرَحُ مَغْناها[٣] ؛ حتّى[٤] إذا طَفِئَتْ تلكَ النّيران ، وانتَصَفَ لنا منكَ الزّمان ، بشَعَرات أغْشَتْ هِلالَكَ كُسُوفا ، وقلبَتْ دِيباجَكَ صُوفا ،

(١) ب : أشنع سد ، وأقبح ... وصد ، وأفدح رد »

(٢) ما يلى ناقص فى ب (٣) فى الأصل : « معناه »

(٤) رجع الكلام فى ب بعنوان « وفى فصل منها »

وأعادتْ نهارَكَ ليلا ، وناحتْ عليك تلهُّفًا وويلا ، وأطارَ حمامَك غُرابُها ، وحجبَ ضِياءَكَ ضَبابُها ؛ فصار عُرْسُكَ مأتمًا ، وعادَ وِصالُكَ محرَّمًا :

وَبِتَّ مُدَامًا تَسُرُّ النَّزِيفَا فَأَصْبَحْتَ تُجْرَعُ خَلًّا ثَقِيفَا
وَصِرْتَ حِجَازًا جَدِيبَ المَحَلِّ م وَقَدْ كُنْتَ لِلطَّالِبِ الخِصْبَ رِيفَا

٥ أقبلْتَ تَنْسَلُّ إلينا لِوَاذًا ، وتَطلبُ منا عِياذًا ؛ قد أنساكَ ذُلُّ العَزْلِ عِزَّ الوِلاية ، وأولاكَ طَمَعًا نسيانُكَ تلكَ الجِناية ، أيّامَ تَرشُقُنا سِهامُ ألحاظِك رَشْقا ، وتَقتُلُنا سُيوفُ ألفاظِك عِشْقا ؛ وتَميسُ غُصنا ، فتُثيرُ حُزْنا ، وتَطلُعُ شَمْسا ، فتَغيبُ[١] نَفسا ، خُدودُنا[٢] أرضُ نِعالِك ، وصدُورُنا حَدُّ مَجالِك ، ونفوسُنا مِهادُ [جَنْبك][٣] ، وقلوبنا مَيدانُ حَرْبِك[٢] ؛ فالآنَ نَلْقاكَ بدَمْعٍ قد جَفَّ ،

١٠ ووَجْدٍ قد كَفَّ ؛ وعَزاءٍ قدْ أبَدَّ ، وصَبْرٍ قد غارَ وأنْجَد ، وَهوًى[٤] قد أراحَ رواحِلَه ، وأطاعَ عاذِلَه ، وسُلُوٍّ قد قرَّبَ رَكائبَه ، وأسْعَدَ طالبَه[٤] ؛ ونَنْظُرُ منكَ إلى رَوْضٍ قد صَوَّح ، وسارٍ قد أصْبح ، وأعجمَ قد أفصحَ ، ومُبْهمٍ قد صرَّح ؛ فلا شَكَّ وقد رُفِع الغِطاءُ ، ولا إفكَ وقد بَرِحَ الخفاءُ ، ولا لَوْمَ وقدْ وَقع الجزاءُ ؛ فهلّا ذكرْتَ المَثَلَ المُمْتهَن : « الصيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبن ! » ، ونَسيتَ

١٥ من أحْرَقْتَ قلبَه صَدًّا ، وأقْلَقْتَ جَنْبَه[٥] رَدًّا ؛ ومَلأْتَ جوانِحَه[٦] نارا ، وتركتَ نَوْمَه غِرارا ؛ أنْ يُوَفّيَكَ قَرْضا ، ويُجازيَكَ[٧] حتّى تَرْضى ، حين نُكِسَ عَلَمُك ، وعثَرَتْ قدَمُك ، وضاقَتْ طُرُقُك[٨] ، وأظلَمَ أُفُقُك ، وخَوَى[٩] نجْمُك ، وخابَ قِدْحُك ، وفَلَّ سَيْفُك ، وحُطَّ رُمْحُك ؛ فاطوِ ثَوْبَ

(١) ر : « فتغيب » (٢ — ٢) ـه في ر (٣) ؟ — ب : « بنك »
(٤ — ٤) ـه في ر (٥) لب : « أقلات جنبه » — ر : « وأقلعت خلبه »
(٦) ر : « جوارحه » (٧) ب : « يجاريك » (٨) ـه في ب
(٩) ب : « هوى »

وَصْلِك ، فلا حاجةَ لنا إلى لِباسه ، وازْوِ طارقَ شَخْصِك ، فلا رَغبةَ لنا فى إيناسه ؛ فما نَشْتَهِى اليَوْمَ زِيارَةَ رَمْس مَنْ زَهِدَ فِينا أمْس .

حَانَتْ مَنِيَّتُهُ فَاسْوَدَّ عارِضُه كما تُسَوَّدُ بَعْدَ المَيِّتِ الدَّارُ

قَوْلُه : « وَبِتَّ مُدامًا تَسُرُّ النَّزِيفا » ، البيت : أخذه ابنُ عُبادةَ المعروف بابن القَزَّاز ، وأَوْجَزه غايةَ الإيجاز ، فقال : ٥

يَا عُقَارًا صَارَ خَلًّا ومَلاذًا لِلْبعُوضِ
سِرْ فما لِى فِيكَ حَظٌّ كَانَ ذا قبلَ الْحُمُوضِ
مَا أُبالِى بَعْدَ أكلِ الـزُّبْدِ مِنْ طَرْحِ المَخِيضِ

والبَيْتُ الذى تمثَّلَ به أخيرًا لعَلِيِّ بنِ بَسَّامٍ البَغْدادِيّ ، من جملةِ أبياتٍ قالها فى أخيه جعفرٍ ، منها : ١٠

يَا مَنْ نَعَتْهُ إلَى الإِخْوَانِ لِحْيَتُهُ أَدْبَرْتَ وَالنَّاسُ إقْبَالٌ وَإدْبارُ
قد كُنْتَ مِمَّنْ يَهَشُّ النَّاظِرُونَ لهُ تُغَضُّ دُونَكَ أَسْمَاعٌ وَأَبصارُ
لِلهِ دَرُّ فَتًى وَلَّتْ شَبِيبَتُهُ وَكلُّ شَىْءٍ لَهُ حَدٌّ وَمِقْدارُ[1]
فَيا لَدَهْرٍ مَضَى ما كَانَ أحْسَنَهُ إذْ أَنْتَ مُمْتَنِعٌ وَالشَّرْطُ دِينارُ
أَيَّامَ وَجْهُكَ مَصقُولٌ عَوارِضُهُ وَلِلرِّياضِ عَلَى خَدَّيْكَ أَنْوارُ ١٥
حَانَتْ مَنِيَّتُهُ فَاسْوَدَّ عارِضُهُ كَما تُسَوَّدُ بَعْدَ الْمَيِّتِ الدَّارُ[2]

[3] وكان ابنُ بَسَّامٍ هذا فى أوانه ، باقِعةَ زمانِه ، لم يَسْلَمْ منه عَصْرَهُ أميرٌ ولا وَزِير ، ولا مِنْ أهْلِ بَيْته صَغيرٌ ولا كبير ؛ وكان أخُوه جَعْفَر الذى ذُكِر من أهْلِ الجَمالِ الفائق ، وفيه يَقول :

(١) هذا البيت والذى قبله ناقصان فى ر

(٢) هذا البيت ناقص فى ر (٣) هذه الفقرة إلى آخر الأبيات ناقصة فى ر

حانَ المنيّةُ يا أبا العبّاسِ فدعِ المِكاسَ فلاتَ حين مِكاسِ
ما بالُ وَجْهِكَ بعدَ كثْرَةِ نُورِهِ قدْ سوّدُوهُ بحالكِ الأنْفاسِ
أيْنَ الدّنانيرُ التى عوّدْتَها هيْهاتَ جاء الشّعْرُ بالإفْلاسِ !
كانَتْ تجدُّ ثيابُهُ ديباجةً فاسْتَبْدَلَتْ حِلْسًا من الأحْلاسِ
٥ وكذَا البَقاءُ بغيْرِ مُرْتفعٍ إذَا كانَتْ بَلِيّتُهُ مِنَ الآساسِ

وهو القائلُ فى ابنه وقد بَنَى دارًا :

شِدْتَ دَارًا خِلْتَها مُكْرُمَةً سَلّطَ اللهُ عليْها الغرَقَا
ورأيْنــاكَ صَريعًا وَسْطَهَا ورأيْناهَا صَعيدًا زَلَقَا

واشتهارُ شِعْرِهِ فى ابنِهِ وأخيهِ وأهلِ عَصرِهِ ، يمنعُنى عن ذِكْرِه[(١)] ؛
١٠ ويُذْكَرُ الشّىءُ بالشىءِ إذا كان من واديه ، أو نظَرَ إلى ألْفاظِهِ أو معانيه[(١)] .

ولمّا اتّفقَ أن يكونَ علىّ بنُ بَسّام هذا سَمِيّى ، واجْتمعتُ بالوزيرِ أبى محمدٍ عبدِ المَجيدِ بن عَبْدُون أوّلَ لقائى له بِشَنْتَرِينَ فى جُملةِ أصحابِ المُتوكّل ، فأوّلُ مجلسٍ اجتمعتُ معه فيه ، وسَمِعَ بعضُ[(٢)] الإخْوانِ يَدْعونَنى باسْمى ، فقال لى : أنتَ علىّ ابنُ بسّامٍ حقًّا ؟ قلتُ : نعم ، قال : أوَ تهْجُو حتّى الآنَ أباكَ
١٥ أبا جعفرٍ وأخاكَ جعفرا ؟ قلتُ له : وأنتَ أيضًا عبدُ المجيد ؟ قال : أجَلْ ، قلتُ : وحتّى الآنَ فيكَ ابنُ مُناذرٍ يتغزّل ؟ فضَحِكَ مَنْ حضَرَ لهذا الجَوابِ الحاضرِ .
وخبرُ ابنِ مُناذرٍ مع عبدِ المجيدِ بنِ عبدِ الوهّاب الثّقَفىّ أوْضَحُ مِن أن يُشرَح .
وكان مِنْ أجْملِ فِتيانِ ذلكَ الأوَانِ ، وآدَبِهم وأظْرفِهم ، فكَلِفَ به ابنُ مُناذرٍ وتعشّقه فاعْتُبِطَ لعِشْرِينَ سنةً فرَثاه بذلكَ القَصيدِ الفَريدِ ، الذى يَقول فيه :

(١ — ١) سه فى ر (٢) هنا انتهى خرم لب

فلو أنّ الأيّام أخلدن حيًّا ... لعلاء أخلدن عبد المجيد

وأمّا صفات المُعذَّرين من الغلمان ، فقد جرت خيولُ فُرسان هذا الشأن ، بهذا الميدان ، وتفنّنوا فى ذلك نظمًا ونثرا ، ومدحًا وذمّا . وممّن ذمّهم من أهل عصرنا عبدُ الجليل(١) ، حيث يقول :

وأمرد يستهيمُ بكلّ وادٍ ... وينصبُ للشّجا خدًّا صليبا

دعوتُ دُعاء مظلومٍ عليه ... وكان الله مُستمعًا مُجيبا

فطوّقه الزّمانُ بما جناهُ ... وعلّق من عذاريه الذّنوبا

وأخذه أبو بكر الدّانىُّ فقال :

بدا على خدّه عذارٌ ... فى مثله يُعذرُ الكئيبُ

وليس ذاك العذارُ شعرًا ... لكنّما سرُّهُ عجيبُ(٢)

لمّا أراق الدّماء ظلمًا ... بدت على خدّه الذّنوبُ

ولعبد الجليل فى هذه الصفات عدّةُ مقطوعاتٍ فتح بها جراب السُّخف ، ولم يستترْ فيها من العقل بسجْف ؛ وقد كتبتُ من شعره فى هذا الباب وسواه ، فى القسم الثانى من هذا الكتاب بعضَ ما اخترْناه . ولم أسمع فى ذمّ منْ عُزل عن ولاية حُسنه ، أحسنَ من قولِ بعضِ أهلِ عصرِنا وهو أبو الحسنِ البرْقىّ فى أبياتٍ تُستندرُ بجُملتها وهى :

ألآن لمّا روّضت وجناتُهُ ... شوكًا وأضحت سلوة العُشّاق

واستوحشتْ منك المحاسنُ واكتستْ ... أنوارُ وجهك واهى الأخلاقِ

أنشأت تبذلُ لى الوصال تصنُّعًا ... خُلق اللّئيم وشيمة المذّاقِ

هلاّ وصلْتَ إذِ الشّمائلُ قهوةٌ ... وإذِ المُحيّا روضةُ الأحداقِ !

(١) ر : « عبد المجيد » (٢) ب : « غريب »

فلَكَمْ أطلْتَ غرامَ قلبٍ موجَعٍ ... كَمْ قَدْ ألَبَّ إليكَ بالأشواقِ
ما كُنْتَ إلّا البدْرَ ليْلةَ تِمِّهِ ... حتّى قضتْ لكَ ليْلةٌ بمِحاقِ
لاحَ العِذارُ فقلْتُ : وَجْهٌ[1] نازحٌ ... إنّ ابْنَ دأْيَةَ مُؤْذِنٌ بفِراقِ

ولأبى الحَسَنِ فى هذه أيضاً عِدّةُ محاسِن ، إذْ كان قد خلعَ عِذارَهُ فى صِفاتِ
٥ المعذَّرِين كقوله :

وأزْهرَ حيّا برَيْحانةٍ ... تضوّعَ مِنْ عَرْفِها المَنْدَلُ
وزادَ بنَفْسَجُ أصْداغِهِ ... فقُلْتُ الزِّيادةُ قدْ تُقبلُ

وقال أيضًا :

بأبى[2] الّذى خطَّ الجَما ... لُ بوَجْهِهِ لامًا ونُونْ
١٠ وأظُنُّهُ جعَلَ المِدا ... دَ سَوادَ أحْداقِ الجُفُونْ
خافُوا عليْهِ مِنَ العُيُو ... نِ فعَوّذُوهُ بالعُيُونْ

وهذا كقَوْلِ عبد الجليل :

ومُعَذَّرِين كأنّما بخُدُودِهِمْ ... طُرُقُ العُيُونِ ومَنْهجُ الأرْواحِ
وكأنّما صقَلُوا الجمالَ وأظْهَرُوا ... مَشْىَ النِّمالِ على مُتُونِ صِفاحِ

١٥ وممّن عُنِىَ بهذا الوَصْفِ المعرّىُّ ، حيث يقول فى ذِكْر السيف :

وَدَبّتْ فوْقَهُ حُمْرُ المَنايَا ... ولكِنْ بعْدَما مُسِخَتْ نِمالا[3]

وقال فى مَوضِعٍ آخر :

ولا حَسِبْتُ صِغارَ النّمْلِ يُمْكِنُها ... سَعْىٌ على اللُّجِّ أوْ مَشْىٌ على السُّعُرِ[4]

(١) لب : « وجد » — ب : « نجبه » (٢) ر : « باذا »
(٣) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٢٨)
(٤) راجع « سقط الزند » (ج ١ ص ٣٨)

وقال بعضُ أهْلِ عَصْرِى وهو الوَزيرُ أبو محمّد ابن عبدِ الغفور :

تُريهِ المَنايَا الحُمْرُ فيهِ وُجُوهَهَا[١] مُخاتِلَةَ الأَرْواحِ فِى صُوَرِ الذَّرِّ

وقال أيضاً بعضُ أهْلِ أفْقِنا[٢] :

جَداوِلُ مَاء مَا تَسُوغُ[٣] لِوارِدٍ تَرَى النَّمْلَ غَرْقَى فيهِ غيْرَ الأَكَارِعِ

وقد كرَّرَ عبدُ الجليل مَعْنَى بيتِه المتَقدِّمِ فقال : ٥

ومَشَتْ لِحاظِى فى جَوانِبِ خَدِّهِ حتَّى أثَرْنَ بصَفْحَتَيْهِ طَرِيقَا

وقال أبو محمّد بنُ سارَة[٤] الشَّنْتَرِينِىّ :

ومُعَذَّرٍ رَقَّتْ حَواشِى حُسْنِهِ فَقُلُوبُنا وَجْدًا عَلَيْهِ رِقَاقُ
لَمْ يَكْسُ[٥] عَارِضَهُ السَّوادُ وإنَّمَا نَثَرَتْ عَلَيْهِ سَوادَها[٦] الأَحْداقُ

وقال أيضاً بعضُ أهلِ عَصْرِى وهو ابنُ رَباحٍ أبو تمّام الملقَّبُ بالحَجّام : ١٠

يا لُعْبَةً بذَوِى الأَلْبابِ لاَعِبَةً فِى أَصْلِ حُسْنِكَ مَعْنًى غَيْرُ مُتَّفِقِ
خُلِقْتِ بَيْضَاء كالكافُورِ نَاصِعَةً فصِرْتِ سوداء[٧] مِنْ مَثْواكِ فى الحَدَقِ

وهو أيضاً القائلُ فى هذا المَعْنَى :

وَسَوْدَاء الأَدِيمِ إِذَا تَبَدَّتْ تَرَى مَاءَ النَّعِيمِ جَرَى عَلَيْهِ
رَآهَا[٨] نَاظِرِى فصَبَا إِلَيْهَا وَشِبْهُ الشَّىْءِ مُنجذِبٌ إِلَيْهِ ١٥

---

(١) ب، لب : « وجوهنا » (٢) ب في ب، لب، والبيت الآتى منسوب فى هاتين النسختين إلى الوزير أبى محمد بن عبد الغفور المذكور

(٣) ب، لب « تصوح » (٤) لب : « صارة »

(٥) ب، لب : « لم يكن » (٦) ب، لب : « نفضت عليه صباغها »

(٧) ب، لب، وه : « سمراء » (٨) ر : « رماها »

وسَمِعَ الوزيرُ أبو جعفرِ بنُ جُرْجٍ مِنْ أهْلِ أُفُقِنا قولَ ابنِ الجَهْمِ :

وَعَائبٍ للسُّمْرِ مِنْ جَهْلِهِ ... مُفَضِّلٍ لِلْبِيضِ ذِى مَحْكِ
قُولُوا لَهُ عَنّى : أمَا تَسْتَحِى[1] ؟ ... مَنْ جَعَلَ الكَافُورَ كَالْمِسْكِ ؟

فعارَضَه بقولِهِ :

٥ وَعَائبٍ لِلْبِيضِ ذِى إفْكِ ... مُعَارِضِ الكافورِ بِالْمِسكِ
دَعْ عَنْكَ هَذَا وانقلِبْ خَاسِئًا ... مَا النُّورِ مِثْلُ الظُّلَمِ الحُلْكِ

ثمَّ ساعَدَ ابنَ الجَهْمِ فقال :

غُصْنٌ مِنَ الآبَنُوسِ أبْدَى ... مِنْ مِسْكِ دَارِينَ لِى ثِمَارَا
لَيْلُ نَعِيمٍ أظَلُّ فيهِ ... لِلطِّيبِ لا أشْتَهِى نَهَارَا

١٠ ولابنِ جُرْجٍ أيضًا فى مثله :

وسَمْراء بَاهَى كُلْفَةَ البَدْرِ وَجْهُهَا ... إذَا لاحَ فِى لَيْلٍ مِنَ الشَّعَرِ الجَعْدِ
مُحَبَّبَةٌ مِنْ حَبَّةِ القَلْبِ لَوْنُهَا ... وَطِينَتُهَا لِلْمِسْكِ والعَنْبَرِ الوَرْدِ

وقال أبو علىٍّ ابنُ رَشِيق :

دَعَا بِكِ الحُسْنُ فَاسْتَجِيبِى ... يا مِسْكُ فى صِبْغَةٍ وَطِيبِ
١٥ تِيهِى عَلَى البِيضِ واسْتَطِيلِى ... تِيهَ شَبَابٍ عَلَى مَشِيبِ
ولا يَرُعْكِ اسْوِدَادُ لَوْنٍ ... بِمُقْلَةِ الشَّادِنِ الرَّبِيبِ
فإنَّمَا النُّورُ عَنْ سَوَادٍ ... فى أعْيُنِ النَّاسِ والقُلُوبِ

قال ابنُ بسّام : هذا من الكلام الرّائق ، المُتأخِّر الصّادق ، فى تفضيلِ

(١) ب : « يستحي »

السَّوَادِ على البَيَاض ، مع أنَّ ابنَ الرُّومىّ لم يَدَعْ فيه لأحَدٍ من اعتِراض ، وقد كانَ قبلَه أبو حَفص الشِّطْرَنجىُّ قال :

أشْبَهَكِ المِسْكُ وأشْبَهْتِهِ قائِمَةً فى لَوْنِهِ قَاعِدَهْ
لا شَكَّ إذْ لَوْنُكُما واحِدٌ أنَّكُما من طِينَةٍ وَاحِدَهْ

ولمّا كانتْ شِدّةُ البياضِ مما يُعاب ، وأنَّ أكُفَّ بَعضِ السُّودانِ مُشَقَّقة ، وأطْرافَهم ليستْ بناعِمةٍ لَيِّنَة ، وأنَّ عرَقَهم خَبيثٌ معَ الفلَحِ المُلازِمِ لأوْساطِ الشِّفَاه ، وسائرِ ما فيهمْ من هذهِ الأشْباه ، نَفَى ابنُ الرُّومى ذلكَ كُلَّه فقالَ يَصِفُ جاريةَ عَبدِ الملكِ بن صالحٍ السَّوداء :

سَوْداءُ لم تنتَسِبْ إلى بَرَصِ الشُّقْرِ وَلَا كُلْفَةٍ وَلاَ بَهَقِ[1]
لَيْسَتْ مِنَ العُبْسِ[2] الأكُفِّ ولا الـفُلْحِ الشِّفاهِ الخَبائِثِ العَرَقِ
وبَعْضُ ما فُضِّلَ السَّوادُ بهِ والحقُّ ذُو سُلَّمٍ وَذُو نَفَقِ
ألاَّ تَعيبَ السَّوادَ حُلْكَتُهُ وقد يُعَابُ البَيَاضُ بِالبَهَقِ
أكْسَبَهَا الحُبَّ أنَّها صُبِغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ القُلُوبِ والحَدَقِ
فانصَرَفَتْ نَحْوَهَا الضَّمائِرُ والأ بْصَارُ يُعْنِقْنَ أيَّما عَنَقِ

ولمّا سَمِعَ ابنُ الرُّومىّ قولَ أبِى نُوَاسٍ وقد نَبَّهَ نَديمًا للصَّبُوح فأخبرَ عَنْ حالِه وهو مِنْ جيِّدِ تَشْبِيهاتِه :

فقَامَ وَاللَّيْلُ يَجْلُوهُ الصَّباحُ كَمَا جَلَا التَّبَسُّمُ عَنْ غُرِّ الثَّنِيَّاتِ[3]

قال ابن الرُّومىّ فى هذه القصيدة :

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقَقٍ مِنْ ثَغْرِهَا كَاللآلِىء النَّسَقِ

(١) روجعت هذه الأبيات على النسخة المخطوطة لديوانه ، المحفوظة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ١٣٩ أدب)

(٢) ر : « العمس » — وم : « الشثن » (٣) راجع ديوان أبى نواس (ص ٢٥٠)

كأنَّها والمِزاجُ يُضْحِكُها لَيْلٌ تفرَّى[١] دُجاهُ عَنْ فلَقِ

وفَضْلُ كلامِ ابنِ الرُّومِيِّ عَلَى سِواه ، أنَّه قدَّم فى التَّشبيهِ لِمَعْناه مُقدِّمةً أيَّدتْه ووَطَّأتْ له الآذان ، وأصْغت الأَفهامَ إلَى الاستِحْسان ، وهى قوله : « يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوادُ عن يَقَقٍ » وكان سُئِلَ أنْ يَستغرقَ فى صِفاتِ محاسِنِها الظَّاهِرةِ

٥ والباطنةِ فقالَ :

لَهَا حِرٌ يَسْتَعِيرُ[٢] وقْدَتَه من قلبِ صَبٍّ وصَدْرِ ذى حَنَقِ

كأنَّما حَرُّهُ لِذائقِهِ ما أَلْهَبَتْ فى حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ

يزْدادُ ضيقًا عَلَى[٣] المِراسِ كَمَا تَزْدادُ ضِيقًا أُنْشُوطَةُ الْوَهَقِ

وفكَّر ابن الرُّومىِّ فيما فكَّر فيهِ النابغةُ إذ أمرهُ النُّعمانُ بوصفِ المتجرِّدةِ

١٠ فوصفَ ما يجوزُ ذِكرُه من ظاهرِ محاسِنِها ثمَّ كَرِهَ[٤] أنْ يَذْكُرَ من بَاطِنِها[٥] مالاَ يَسُوغُ لمثلِهِ أن يذكُرَه منها ، فردَّ الإخبارَ عن تلكَ الصِّفاتِ إلى صاحِبِها وهو الملكُ فقال :

زَعَمَ الهمامُ بِأَنَّ فَاهَا باردٌ عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شَهِىُّ المَوْرِدِ

الأَبيات ، فقال ابن الرُّومىِّ :

١٥ وصَفْتُ فِيهَا الَّذى هَوِيتَ عَلَى الْـ وَهْمِ وَلَمْ أَنتبِذْ وَلَمْ أَذُقِ

إلاَّ بأَخْبارِكَ التى وَقَعَتْ مِنْكَ إلينا عن ظَبْيَةِ البُرَقِ

(١) لب : « ثغرى » — ب : « تعرى » (٢) ر : « تستعير »

(٣) ر : « عنده » (٤) ر : « كر »

(٥) ب ، لب : « فضائلها »

حَاشَا لِسَوْدَاء مَنْظَرٍ سَكَنَتْ دَارَكَ إلاَّ مِنْ مَخْبَرٍ[١] يَقِق

ولمّا سمعَ الفرزدقَ يرثى امرأةً تُوُفّيَتْ حاملاً ، حيث يقول[٢] :

وَجَفْنِ سِلاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيهِ البَوَاكِيَا

وَفِي بَطْنِهِ مِن دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَانَّ المَنَايَا أَنسَأَتْهُ لَيَالِيَا

قال ابنُ الرُّومىّ : ٥

أَخْلِقْ بِها أَنْ تَقُومَ عَنْ ذَكَرٍ كَالسَّيْفِ يَفْرِى مُضَاعَفَ الحَلَقِ

إنّ جُفُونَ السُّيُوفِ أَكْثَرُها أَسْوَدُ ، والحقُّ[٣] غيرُ مُختلَقِ

فزادَ زيادةً بيّنةً ، وعبارةً واضحةً ، لم تفتقرْ إلى تفسيرِ أصحابِ المعانى ، وبلغ من الإجادة ، فوقَ الإرادة ؛ ومُناسبةُ الشِّعرِ فى المَعْنَى واللَّفظِ كثيرةٌ .

ونرجع إلى رسائلِ أبى المُغيرة : ١٠

فَصْلٌ من رُقْعةٍ له[٤] : مُؤدِّى كِتابِى هذا قَصَدَ حَضْرةَ الحاجبِ الفاضِل ، ولم يجدْ بُدًّا من سَبَبٍ واصِل ، إلى رَجاء حاصِل ؛ وأنتَ هنالكَ فى كلِّ مَطْلَبٍ صالح ، ومَذهَبٍ رَاجِح ، الدَّلْوُ والرِّشَاء ، والنِّهايَةُ والابتداء ؛ وللقُرَشِيّين[٥] ألْسِنَةٌ بالثَّناء فِصَاح ، ومَنْ أولاهُمْ يدًا فقد حَمَّلَ محاسِنَهُ أجنحةَ الرِّياح ، وكَتَبَها فى غُرَّةِ الصَّباح . ١٥

فَصْلٌ من رُقْعةِ شَفَاعةٍ أيضًا :

إذا شَرِبَ رَوْضُ الشُّكْر ، مِنْ حوضِ البِرّ ، أطْلَعَ مِنَ الزَّهْر ، ما يُخْجِلُ مِسْكَ

(١) ر : « مجر » (٢) ديوان الفرزدق (ج ١ س ٢٢٩)

(٣) ر : « والخلق » (٤) هذا الفصل ناقص فى ر

(٥) ب ، لب : « وللعرسيين »

الطُّرَر ؛ وتنفَّسَ عَنْ نسيم ، يَشْفِى حَرارَةَ القُلوبِ الهِيم ، وبحسَبِ القائِل يكونُ المَقال ، وعلى قدْرِ الجائِل يَتَّسعُ المجال ، وأبو الرَّبيعِ مَنْ عُلِم لِسانُه إن قال ، وبيانُه قصُرَ أو طال ؛ وأنَّه أشَدُّ بُناةِ الكَلامِ حِرْصا[1] ، إذا وجدَ آجُرًّا وجِصًّا ؛ وأعظمُ جيادِه تهافتا ، إذا وَجَدَ مَيْدانًا مُتفاوِتا ، فمن أوْثقهُ بِرًّا ، طَوَّقَهُ شُكْرا ،

٥ ومَنْ خلعَ عليه ثِيابَ الفَضْلِ من طِرازِ الإكْرام ، نزَعَ إليه بجيادِ الحَمْدِ من مَرْبِطِ الكَلام ؛ ولم يَزَلْ يَمْرِى خِلْفَ الطَّلَب ، بيَدِ الأدَب ، ويَسْرِى فى ظَلام[2] الامور ، بسِراجِ المَنظومِ والمَنثور ، حتَّى إذا رَأى تلكَ الأسبابَ رِثاثا ، وعايَنَ مُبْرَمَ وسائلِها أنْكاثا ، طَلَّقَ عُرْسَ الشِّعرِ ثلاثا ، وصار لا يرَى نُجْعة لأدَب ، ولو أوْطَأتْه على أرْضِ الذَّهَب ؛ فمَنْ سَمَّاه بأديب فقد عَقَّه ، أو وَسَمَه

١٠ بشاعرٍ فقد أبْطَلَ حقَّه ؛ حتى إذا لَقِىَ من كَريمٍ صَوْنا ، وعلى ما يُحاوِلُه عَوْنا ، ذكَر فشكَر ، بثَناء كالزَّهَر ، تحتَ أنْداءِ السَّحَر ، وأمْسَكَ من الآداب ، على هَذا الذِّناب ، ولَوْلا أنْ يَسُرَّ بِهذا القدْرِ ذا قَدْر ، لصدَقَ الحَمْلة ، وَمحاها من صَدْرِه جُملة ، وَنزَعَ إلى تَصَوُّفٍ يُحمدُ فيهِ رَأيُه ، وَيُجنيهِ ثمَرَ العَيْشِ منه سَعيُه ؛ فقد سَئِمَ تشبُّهَهُ بالعِيال ، وَدُخُولَه تحتَ المِنَنِ السَّابغةِ الأذيال[3] . وَغرَضُهُ منكَ

١٥ — أعزَّكَ اللهُ — رَأىٌ أصيل ، وَإرْشادٌ جميل ، وتأنيسٌ يَسْهُلُ بِهِ وَعْرُ الزَّمان ، وَيُثْنَى إليه — إنْ شاءَ اللهُ — شَارِدُ الأمان .

وله من أُخْرَى : أعَزَّكَ اللهُ ! فى الاحتِماء حَسْمُ الدَّاء ، وَلا عدُوَّ للإنسانِ إلاَّ نفسُه ، وَلا حَيَّةَ وَلا عقربَ إلا جِنسُه ؛ وَليس فى الحَيَوَانِ ، أخْبثُ فى ذاته من الإنسان ؛ فالاحتراسَ كُلَّ الاحْتِراس ، وَالمعاشَرةَ الجَميلةَ للنَّاس ؛ فأبْصِرْ

٢٠ بَصِيرتَك ، وَأحْسِنْ سَرِيرتَك ، وَلا تُلْدَغَنْ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْن ، وَاذكُرِ المَثَل

(١) كذا بالأصل (٢) لب : « ظلم » (٣) ب ، لب : « الأنذال »

السَّائرَ فى اللّاعبِ بيْنَ وَتدَيْن ؛ والعاقلُ من حَمَله كلُّ بلَد ، ونَفَق عندَ كلِّ أحد ؛ وأعقلُ منه مَنْ عَرَفَ النَّاسَ ولم يعرِفوه ، فاستَرَاحَ مِنْ أجْنبيٍّ مُتكلِّف، أو قريبٍ[(١)] غَيْرِ مُنْصِف ، ولَمْ يفتقِرْ إلّا إلَى ربِّه ، ولم يأْنَسْ إلّا بنورِ لُبّه .

وله من أُخْرى :

٥ فالأرضُ قد نشَرتْ مُلاءهَا ، وسَحبَتْ رِداءها ، ولبِسَتْ جِلْبَابها ، وتقلَّدت سِخَابَها[(٢)] ، وبرَزَ الورْدُ منْ كِمَامِه ، واهتزَّ الرَّوْضُ لتغْريدِ حَمامِه ؛ والأشْجارُ قد نشَرتْ شُعورَها ، وهزّتْ رُءوسَها ، والدُّنيا قد أبْدَتْ بِشْرَها ، وأماطَتْ عُبوسَها ؛ وكأنْ بهَا قدْ أطْلعتْ مِنْ كلِّ ثمرٍ ضُرُوبًا ، وأبْدَتْ من جَناها مَنْظرًا عجِيبا ؛ وإن كُنّا لا نُشاركُ فى تلكَ إلّا بالعِيان لا باللِّسان ، وبالطَّرْف لا بالكَفّ ، [(٣)]ونَنالُها بالاختِلاس لا بالأضْراس[(٣)] ؛ ولِلدَّهرِ قِسْمٌ من

١٠ أقْسامِ اللّذّة ، وصِنْفٌ من أصْنافِ الشَّهْوة :

شَهِدْنَا إذْ رَأيْنَاهم [بأنا][(٤)] عَلَى اللذّاتِ فى الدُّنيَا شُهُودُ

[(٥)]وحالِى حالٌ للسَّقامِ بِها اتِّصال ، وللصِّحَّةِ عنْها انفِصال ؛ يُعِينُ على ذلكَ ضَعْفُ البِنْيَة ، وفسادُ الأهْوية ، والتَّخْليطُ فى الأغْذية ؛ وبعْضُ صَلاحِها بلْ كُلُّه تعْجيلُك مُطالَعتِى بحالِك ، لِأسْكُنَ إلى ما أُوثِرُه من ذلك[(٦)] ، وشَفِّع لى بخَبَر

١٥ فلان[(٥)] ، وأُشْرَحْ لى من خَبَرِ فُلان ، وأيْنَ بلَغَ مِنْ تَكسُّبه[(٧)] ، وحيثُ أُنْتهَى

(١) ر : « غريب » (٢) ب ، لب : « سحاب » — ر : « شخاب »
(٣—٣) ـه فى ر (٤) ر : « فارا » — ـه فى ب ، لب
(٥—٥) ـه فى ر ، ورجع الكلام بعنوان : وفى فصل منها
(٦) ر : « لاسكن إليها أوثره من تلك » ، وفى هذه الجملة اضطراب فى ب ، لب
(٧) ر : « تلبسه »

من تَطَبُّبه ، وكيف ظُرُوفُه وخَزَائنُه ، ولَعُوقاتُه ومَعاجِنُه ، وهل يَنْفُذُ طِبُّه ، ويَنْفُق بُخْتَجُه وحَبُّه ؛ وصِفْ لِى ما يقولُهُ على الماء ، ويُبْدِيه من الأَدْواء ، وأَهْدِ إلىَّ ما يُنَمِّقُه مِنَ المقال ، على الكَبِدِ والطِّحال ، ويُرَقِّشُه من الكلام ، فى الفالِج والزُّكام ؛ فالحمْدُ لِمَنْ قَرَنَ له ذلكَ إلى القِيام بِشَرِيعَةِ الإسلام ،

٥ والتَّمَهُّرِ فى الأَحْكام ، ومَعرِفةِ الحَلالِ والحَرام ، والفَلَجِ عِنْد الجِدالِ والخِصام .

وله من أُخْرَى[١] :

فكَم لَيْثٍ كامِنٍ فى غابه ، سَمِعْتُ صَرِيفَ أَنْيابه ، وقَفْرٍ أَنِسْتُ فى يَبَابِه ، إلى عُواءِ ذِئَابِه ؛ لا آمَرُ إلاّ باللِّصِّ المُسْتَلِب ، ولا أَلْقَى غيرَ الخارِبِ المُنْتَهِب ؛ وشِعَارِى عِنْد النَّائِبَةِ أَلْقاها فأَتَخَطَّاها ، والنَّازِلَةِ أَراها فأَتعدَّاها ، قَوْلُ

١٠ أبى الطَّيِّب :

فإِنْ أَسْلَمْ فما أَبْقَى ولكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ[٢]

وأنا أَرْقُبُ من الزَّمان صَنِيعَه ، وأَنْتَظِرُ الحِمامَ وأَتَخَيَّلُ وقوعَه ؛ وهو يَذْهَبُ بى إلى قِبْلَةِ الآمال وأنا لا أُصدِّق ، ويَسُوقُنى إلى مَحَطِّ الرِّحالِ وأنا لا أُحَقِّق ، ويَوُمُّ بِىَ البَحْرَ الَّذى لا تُحْصَى فَوائِدُه ، والغَيْثَ الذى لا يَخِيبُ رائِدُه ؛ وهَلَّلْتُ

١٥ إِحْماداً لِما سقَطْتُ عليه ، وعَلِمْتُ أَنِّى فى الحَرَمِ الذى لا يُوطَأُ رِحابُه ، ولا يُطارُ غُرابُه ، ولا يُخْضَدُ شَجَرُه ، ولا يُمْنَعُ ثَمَرُه ، ولم أَلْبَثْ أَنْ نَزَلْتُ باليَفاعِ الخَصِيب ، وتمكَّنتُ من الرِّشاءِ والقَلِيب .

وفى فَصْل :

وما أَعْلَمُ نائِبَةً كفِراقِكَ أَهَدَّ لِمَتْن ، ولا نازِلَةً كنَأْيِك أَجْلَبَ لِحُزْن ،

(١) لم يقع هذا الفصل والذى يليه إلا فى ر (٢) ديوانه (ج ٢ ص ٤٠٣)

وما كُنْتُ أَرِيمُ رَبْعَكَ لو كانَ لى الخِيار ، ولا أَبْرَحُ منزِلك لوْ ساعدَتْنى الأقدار .

فقَدْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ المُنَى غيْرَ أنَّنى يُعيِّرُنى قوْمى بإدْرَاكِهَا وَحْدِى

وله فَصْلٌ من أُخرى :

لم أزَلْ أزْجُرُ لِلقاء سَيِّدِى[1] السَّانِحَ ، وأَسْتَمْطِرُ الغادِىَ والرَّائِحَ ، وأَرُومُ اقْتِناصَه ولوْ بِشَرَكِ المَنَام ، وأُحاوِلُ اخْتِلاسَه ولو بأَيْدى الأوْهام ، وأُعاتِبُ الأيَّام فلا تُعْتِبْ ، وأَقُودُها إليْه فلا تُصحِب . حتَّى إذا غَلَبَ اليَاس ، وشَمِتَ النَّاس ، وضُرِبَتْ بِىَ الأَمْثال ، فقيل أكثَرُ الآمالِ ضَلال ؛ تَنَبَّهَ الدَّهْرُ من رَقْدَتِه ، وحَلَّ من عُقْدَتِه ، وقَبِلَ مِنِّى ، وأظهرَ الرِّضا عَنِّى ؛ وقال دُونَكَ ما جَمَحَ[2] ، فقد سَمَح ؛ وإليْكَ فقَدْ دَنا ، ما كان فى المُنَى ؛ فَطِرْتُ بجناحِ الارتياح ، ورَكِبْتُ إلى الغَمامِ كَواهِلَ الرِّياح ؛ وقُلْتُ فُرْصَةٌ تُغْتَنَم ، ورُكْنٌ يُستَلَم ، وطَرَقْتُ رَوْضَةَ العِلمِ عَميمةَ الأزاهِر ، فَصِيحَةَ الطَّائر ، رَيَّا الجَداوِل ، بارِدَةَ الضُّحَى والأَصائِل ، وطُفْتُ بكَعبةِ الفضْلِ مَصُونَةَ الحِبَر ، مَلْثُومةَ الحجر ، عزيزةَ المقام ، معْمورةَ المَشْعَرِ الحرام ، فما شئتَ من مُحاضَرة تجمعُ بين الدُّنيا والآخرة ، بين يَدَىْ نَثْرٍ يُرِى[3] الإعْجاز ، ونَظْمٍ ما أشْبَهَ الصُّدورَ بالأعْجاز ، وحَدِيثٍ تقِفُ العُقُولُ بإزائه ، وتَرْوَى بصافِى مائه . فحِينَ شَمَخَ بالظفَرِ أَنْفِى ، واهتزَّ لِنَيْلِ الأمَلِ عِطْفِى ؛ والدَّهرُ يَضْحَكُ سِرًّا ، ويتأبَّطُ شرًّا ؛ وقد أذْهَلَنى الجَذَلُ عَنْ سُوءِ ظَنِّى به ، وأوْهَمَنى[4] نُزُوعُه عن ذَميمِ مَذْهَبه ، آنَتْ أَوانُه ، وفَسا ظَرِبانُه ، ونادَى لِيَقُمْ مَنْ قَعَد ، ويَنْتَبِهْ مَنْ رَقَد . إنما فتَرْتُ تلكَ الفَتْرَة ، لِيَكُونَ ما رَأَيْتَ

---

(١) ر : « سيرى » (٢) لب : « طمح »

(٣) ب ، اب : « يولى » (٤) ر : « أو سمعنى »

عليكَ حَسْرة ؛ وسَمَحْتُ لكَ مَرّة ، لتذُوقَ من الأسَفِ عليها كأسًا مُرَّة . فرأيتُ ،
وقد كانَ غُطِّيَ على بَصَرِى ، وعقَلتُ ، وكُنْتُ فى عَمْياءَ من خَبَرِى ؛
وقُلتُ ، هذا الّذى أعهَدُه من لُؤْمِه ، وأعرِفُه من شُؤْمِه ، ما وَهَب إلاّ ما سَلَب ،
ولا أعْطَى إلاّ ساعاتٍ كإبْهامِ القَطَا ؛ فيا لَهُ مِن قادرٍ ما ألأَمَ قُدْرتَه ، وذابحٍ
٥ ما أحَدَّ شَفْرَتَه ! ولو تَسَلَّطَ علينا من يظهَرُ إلينا شَخْصُه ، لأدرَكَتْه رِماحُنا ،
وعَصَفَتْ به رِياحُنا ؛ وطاحَ بين مَوْتُورَيْنِ منّا : قاصِدٍ أبوهُ قَحْطَان ، ومَقْصودٍ
أبوهُ كِسْرَى أنُوشِرْوَان . وما ظَنُّكَ بصَرِيخٍ يَثُوبُ إليهِ مِن يَعْرُبَ ثائِبُها ،
ومن بنى ساسانَ كِسْرى حَفَّتْ به مَرَازِبُها ! لكنّه أميرٌ من وراءِ سَجْف ،
يَسْعَى بلا رِجْلٍ ويصُولُ بِلا كَفّ .

١٠ وهذا محلولٌ من قول أبى الطَّيِّب حيثُ يقول[1] :

وما المَوْتُ إلاّ سارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ ... يَصُولُ بلا كَفٍّ ويَسْعَى بلاَ رِجْلِ

وأخَذَه المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد فقَال :

ولكنَّها الأيَّامُ تُرْدِى بِلاَ ظُبىً ... وتُصْمِى بِلاَ نَبْلٍ وتَرْمِى بِلاَ يَدِ

وهو مَعْنًى مُتَداوَلٌ مَشْهور ، وهو فى نَثْرِهم ونَظْمِهم كَثير . وفى هذه الرِّسالةِ
١٥ ألفاظٌ كثيرةٌ حَلّها من مَعْقُودِ الشُّعَراءِ أبو المُغِيرَة ، مِنْهَا قولُ مُحمدِ بنِ هانِئٍ
الأندَلُسيِّ :

ورَكِبْتُ شَأْوَ مَآرِبٍ ومَطالِبٍ ... حتَّى امتَطَيْتُ إلى الغَمامِ الرِّيحا[2]

وله[3] : قد أغْنَى اللهُ مَا يَشاه بتَمَكُّنِ بُنْيانِه ، وثَباتِ أرْكانِه ، عَنْ تعاطِى

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٤٦) (٢) راجع ديوانه ص ١٤٧

(٣) لم يقم هذا الفصل فى ب

القَوْلِ فِي تَقْرِيظِهِ وَوصْفِه ، ورأَيْتَ ما هَزَزْتَ مِنّى فى خِدْمَةِ إرادتك مَاضِىَ الحَزِّ ، لَيِّنَ المَهَزِّ ، لو صَادف مَضْرِبًا ووَقَع على مَحَزٍّ ! وإذا احْتَجْتَ إلى دَليلٍ عَلَى مُعتَقَدِى فى تَأَتِّى أَوْطارِك ومآربك ، وحَظِّى فِي شُعَب أنحائك ومذاهِبك ، « فالجُزْء أصغرُ مِنَ الكُلِّ » مفتقرٌ إلى البُرْهَان ، وكلُّ مُقَدِّمةٍ موجودةٍ بالعَقلِ مُحتاجةٌ إلى الشَّرحِ والبَيان . وإذا كانَتْ حالُنا مَبْنِيَّةً عَلَى هـذا الأَبْس ، وثبتَتْ صُورَتُهُ هذه فى النَّفْس ، فقد عَيِيتُ[1] إذْ قصَّرتْ بِى الاقدار ، عَنْ مَوْقِفِ الاعْتِذَار .

وله من أُخْرى :

وأمَّا فُلانٌ فالكلامُ وإنْ طالَ فيه قَصير ، والواصفُ دون بُلُوغ مَداه حَسير . لِلّٰه أَبُوه ، صِحّةَ إخاء ، ومَحْضَ وَفاء ! وحَسْبُكَ أنه فى الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِنْ إخْوانى ، وفى الصَّدْرِ المُقدَّمِ ممَّن أَثِقُ به مِن أهلِ زَمانى ، وإنْ كانَ فِيهِمْ ذُو السَّرْوِ والفَضْل ، والنَّباهَةِ والنُّبل

وكلٌّ له فَضْــلُه ، والحُجُو لُ يومَ التَّفاضُــلِ دُونَ الغُرَرْ
ولَيالِى الخَرِيفِ خُضْرٌ ولَـكِنْ زَهَّدَتْنا فِيها لَيالِى الرَّبِيعِ

وله من أُخْرى :

وإنْ رَأيتَ تأْنِيسِى بِكتابٍ أَجْتَلِى منه وجُوهَ البُدُور ، وجَواهرَ النُّحُور ، ودُرَرَ الثُّغور ، وأَجتَنِى به ثَمرَ السُّرور ، وأَرْتَعُ منه فى رِياضِ العُلوم ، ما بينَ مَنْثورٍ ومَنظوم ، نَفَّسْتَ من خِناقِ مُشْتاقٍ كَئِيب ، وأَنِسْتَ مِنْ وَحْشَةِ مُنفَرِدٍ

(١) لب : « عنيت »

غَريب ، بحيثُ لا أخٌ كَريم ، ولا وَلِيٌّ حَميم ، فقد صِرْتُ ، ولا أُحيلُ عَلى الأثَرِ بعدَ العيْن ، كما قال أحمدُ بن الحُسَيْن[1] :

ما مُقامي بأرْضِ نَخْلَةَ إلاَّ كمُقامِ المَسيحِ بينَ اليَهُودِ

وعرَّفَنِي بعُلوِّ مَكارِمك ، ووُضوحِ مَعالِمك ، فى دَرْجِ كتابك ، وطىِّ خِطابك ، بحالَىْ شَقيقىَ فى النَّسَب ، وشفيعىَ فى الأدَب[2] أبى فلانٍ وفلان[2] :

هُمُ الّذِينَ أذاقُونِى مَوَدَّتَهمْ حَتَّى إذا أيقَظُونِى فى الهَوَى رَقَدُوا

ولله أيامٌ جَلالىَ الدَّهْرُ شَخْصَيْهِمَا شجَىَ نور ، بقلوبِ أُسْدٍ وألْحاظِ صُقُور ، إذْ كنتُ كالعروسِ وهما قُرْطاى ، أو كالفَلَكِ الدَّوّارِ وهما قَمَراى ، وأُنْسُنا كالمشتَرِى نازلاً ببُرجِ القَوْس ، وسَعدُنا كسَعْدٍ مُحْتَبِيًا بيْنَ الخَزْرَجِ والأوْس .

وله من أُخْرى[3] يُخاطِب بها عن نَفْسِه الفَقيهَ أبا عُمَرَ ابنَ عبدِ البَرّ :

ولقد بَقِيتْ حَالِي بعدَكَ مَريضة ، وعينُ آمالِى مَغْضُوضة ، وأيدِى أُنسى[4] مَقْبُوضَة ، وجُيُوشُ صَبْرِى عنْكَ مَفْضُوضَة ؛ فقد كانَ ذلِكَ البُعدُ الطَّويلُ أحدثَ بعضَ السُّلْوان ، وأتَى بما فِى طبيعةِ الإنسانِ من النِّسْيان ؛ وإن كان هذا القَوْلُ لا يُقالُ على الإطلاق ، بل على الإضافةِ لما فِى الحالِ بحَديثِ الافتراق ؛ حتى إذا وَقَعَ اللِّقاءُ تأجَّجَ من ذلكَ الالْتِيَاعِ خامِدُه ، وثار[5] راكِدُه ، وسالَ جامِدُه ، وكانت حالُنا ما قال أبو الطَّيِّب :

افْتَرَقْنا حَوْلاً فلما التَقَيْنا كانَ تَسْلِيمُه عَلَيَّ وَداعا[6]

(١) راجع ديوان المتنبى (ج ١ ص ٢٠٦) (٢ — ٢) ـه فى ر
(٣) لم يقع هذا الفصل فى ر (٤) فى الأصل : « الشىء »
(٥) فى الأصل : « وتاب » (٦) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٣٧)

وله من أُخْرَى :

بانعكاسِ الزَّمان ، انعكستْ أمثالُ[١] البيَان ، كما يُروَى فى خَبرِ الفتَى المُدَّعِى لِلكِتابة عند عَمرِو بنِ مَسْعَدة ، أنه عَاياهُ بِكتابٍ من عنـدِ صاحبِ البَريدِ بخَبَرِ بَقَرةٍ وَلدتْ غُلامًا ، فأنشأ خُطْبَةً مُفْتَتَحُها : الحمدُ للهِ خالقِ الأنامِ فى بُطونِ الأَنْعام . فجَذَبَ الرُّقعةَ من يَدِه ، وبالَغَ فى إجْزالِ صَفْدِه . وإذا تأمَّلتَ انقِلابَ الزَّمان ، وما وَقَع لى مع فلان ، انقلبَتِ الخُطْبَةُ فصارتْ : الحَمدُ للهِ خالقِ الأنعامِ فى بُطونِ الأنام . [٢]وأبْدَأُ بحديثِ اليهودىِّ مُوصِّلِ كِتابِك : دَخَلَ الحَضْرَةَ عَقِبَ جَوْلةٍ كانتْ لى مع ابنِ مُخامِس — حَشَرَ اللهُ كِلَيْهِما مع صاحبِهِ — فوالله لا أعلَمُ حالُ مَنْ منهما أضعفُ وأظْلَمُ ، أحالُ اليهودىِّ بمُضادَّةِ الدِّينِ أمْ حالُ هـذا المُسْلِمِ ؟ فوَافَى[٢] وقد كَشَفْتُ عَوْراتِه ، وما زالتْ مَكْشُوفَة ، وعرَّفتُ سَوْآتِهِ ، وما زالتْ مَعْرُوفة ، إخباراً عنه ، وتَحْذِيراً منه ، وإعْلاماً بما يَسْتُرُه ذَيْلُه ، ويشتمِلُ عليْهِ لَيْلُه ، من [٣]قَبائِحَ يُمْلِيها العَار ، ويَكْتُبُها اللَّيْلُ والنَّهار[٣] .

وفى فَصْلٍ منها :

وجاء فى مُقَدِّمةِ صِهْرٍ يَصْهَرُ به جَنْبَه ، وفى نِكاحٍ يَنْكَحُ الرَّدَى منه قَلْبَه ، يَمْشِى مَشْىَ مَنْ جَمَع بين المُشْتَرِى والزُّهرة ، لا مَشْىَ مَنْ سَعَى لتَرْكيبِ حرٍ على كَمَرَة ، وأىُّ دُرَّةٍ حاوَلَ إخراجَها مِن صدَفة ، ما أشْبَهَ النَّكِرةَ هاهُنا بالمعْرِفة ، قَبَّحَ اللهُ زماناً يُقرِّبُ إلى اللَّئيمِ حِصَانا ، وإلى الكَريم أتانا !

---

(١) ب ، لب : « أعلام »   (٢—٢) ـه فى ر ، و

(٣—٣) ر : « مقابح يحليها العار ، ويكشفها الليل والنهار »

وله من أُخْرَى ، خاطَبَ بها الفقيهَ أبَا محمد ابنَ حَزْمٍ أُثْبِتُ مِنها بعضَ الفُصُولِ فِرَارًا من التَّطْوِيل ، [١] وافْتَتَحَها ببَيْتَىْ أبى نُوَاس [٢] :

أَلَا لا أَرَى مِثْلَ امْتِرَائِىَ فى رَسْمٍ تَوَهَّمُهُ عَيْنِى وَيَرْفُضُهُ وَهْمِى [١]
أَتَتْ صُورَةُ الأَشْيَاءِ بَيْنِى وَبَيْنَهُ فَظَنِّى كَلَا ظَنٍّ وَعِلْمِى كَلَا عِلْمِ

٥ وَقفتُ — كَلَأَكَ اللهُ — وأنتَ عَيْنُ التَّمام ، وعَلَمُ الأَعْلام ، على كِتابٍ عُنْوَانُه باسْمِكَ أَسْمال ، كأنه طَلَلٌ بَال ؛ فكُلَّما هزَزْتُه هوَّم ، أو سألْتُه استَعْجَم ؛ مَعْنًى كصَدَى الإنسان ، ولَفْظٌ كمُنْهَجَاتِ الأَكْفَان ؛ وأغراضٌ لا يدبُّ فيها سهمٌ مُقَرْطِس ، وإظْلامٌ لا وَضَحَ فيه لصُبْحٍ مُتَنَفِّس ، ورَطَانةٌ تَمُجُّها الأسماع ، وتَجْتَوِيها الطِّبَاع ، فأَقَمْتُ مُتَبَلِّدًا ، وعُدْتُ على نفسِى وقَرِيحتِى مُتَرَدِّدًا ،
١٠ فقالتا : أفِقْ [٣] أيُّها الإنسان ، لستَ بالنَّبِىِّ سُلَيمان ، متى وَعَدْنَاكَ أن نُفْهِمَكَ كلامَ الحُكْل ، وسِرَارَ النَّمْل [٤] ؟ ألم نَسْلُكْ بك فى شِعَابِ الكلام فتَغَلْغَلْتَ ؟ ألم تَسْرِ فى صَحرائه بنا فأَوْغَلْتَ ؟ ألم تَجْرِ فى مَيدانِه فَسَبَقْتَ ؟ ألم تُنِرْ فى ظُلْمائه فأَشْرَقْتَ ؟ هل أَحْسَسْتَ بنُكُولِ جَنَان ، أو قصورِ لسان ، فيما نَظَمْتَ كالعُقود ، على تَرائبِ الفتاة [٥] الرُّود ، ونَثَرْتَ كالنُّجُوم ، فى صفحةِ الليلِ
١٥ البَهِيم ؟ قلتُ : بلى ! قالتَا : فأَعْرِضْ عن رَطَانةِ الزُّطِّ ، وصَفيرِ البَطِّ [٦] ، ولا تَعُجْ عَلَى طَلَلٍ بائد ، ودارٍ قَدْ أَتَى اللهُ بُنيانَها مِنَ القَواعد [٧] ، فقُلتُ : أَشرَفتُما طاغِيَتَيْن ، إنَّ كاتِبَ الصَّحيفةِ لنُدْرَةُ الزمان ، ولعَلَمُ نَوْعِ الإنسان ،

(١ — ١) ليه فى ر (٢) راجع ديوانه ص ٣٢٥
(٣) ر : « ارفق » (٤) ر : « النحل »
(٥) ب : « الغادة » (٦) ب ، لب : « القط »
(٧) اقتباس من القرآن سورة ١٦ : ٢٦

إلاّ أنه رُبّما كَذَبَ العُنْوان ، ونُحِلَ ذلكَ الهَذَيان ؛ فأَعَدْتُ النَّظرَ ، فإذا بكَ أبَا مُحمدٍ صاحِبُه ، كِتابٌ مَبْنِيٌّ على الظُّلْمِ العَبْقَرِيّ ، والبُهْتانِ الجَلِيّ ، ومُكابَرةِ العِيان ، ومُدافعةِ البُرْهان ، قد طَمَسَ اللهُ أنوارَه ، وأظهرَ عَوارَه ، فجاء كالفَلاةِ العَوْرَاء ، لا ماءٌ ولا شَجَر ، والليلةِ الظَّلْماء ، لا نَجْمٌ ولا قمَر .

وفى فَصْلٍ منها : ٥

فاسْتَقْصَرْتُ مَنْ دَفَعَ إليَّ كِتابَكَ فقلت : مَنْ لِي بمِثْلِ غاشِيَتِكَ من هذه العِصابة ، وبأشْباهِ المُلِمِّينَ بكَ من تلكَ البابة ، ونَسِيتَ أبَا مُحمدٍ حاشِيَتَكَ وشيعَتَك ، التى صِرتَ رئيسَ مِدْرَاسِهم[١] ، وكبيرَ أحْراسِهم ، تُحَدِّثُهم عما كانَ فيهم مِن العِبَر ، وتُخْبِرُهم بما تَعاقَبَ عليهم مِنَ الصَّفَا والكَدَر ؛ فتارةً عَنِ السَّامِرِيّ والعِجْل ، وتارةً عَنِ القَمْلِ والنَّمل ، وطَوْرًا تُبْكِيهم بحَدِيثِ التِّيه ، وطَوْرًا ١٠ تُضْحِكُهُم بقومِ جالوتَ وذَوِيه ؛ حتى كأَن التَّوْرَاةَ مُصْحَفُكَ ، وبيتَ الحزَّانِ مُعْتَكَفُكَ ؛ [٢]وأنا بمَعْزِل ، وأنتَ تَحْدُثُ وتَعْزِل ؛ وتعجَّبْتَ مِنْ حِرْصِى ، ونَسِيتَ نفسَكَ أبا محمد حين قطعْتَ البَيْداءَ تَبُلُّكَ السماء ، وتُرعِدُكَ الجِرْبِياء ، فى وَقْتٍ تَكْمُنُ فيه أنْواعُ الحَيَوان ، وأحَقُّها بالكُمُونِ نَوْعُ الإنسان ، لِترَثَ حيًّا قائماً على حالِه ، مالِكاً لِمالِه ، يَدْعُو اللهَ عليك ، أن استطَلْتَ عُمْرَه ، ١٥ ونَعَيْتَ إليه نَفْسَه[٢] .

وفى فَصْلٍ منها :

ومن ظَرِيفِ ما فى كِتابك قولُك : أقصرها وأنْـأَخها . ومن أين نفَذَ بصَرُك ، حتى همَزْتَها هَمْزَ عامرِ بنِ الطُّفَيْل ، قِرْنَهُ فى سَوادِ اللَّيْل ، وما أظُنُّكَ جَعَلْتَها إلاّ تَميمة ، لتلك القِطعةِ الكَرِيمة ، امتثالاً لقَوْلِ القائل : ٢٠

---

(١) ر : « مدارسهم » (٢ — ٢) ـه فى ر

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الكَمَالَ إِلى عيبٍ يُوَقِّيهِ مِنَ العَيْنِ

ومَنْ لك بأن نَصبرَ عليك ، وَنَتأنَّى بك ، وهذا الجوابُ كما تَراهُ ابنُ الوَقْتِ ونتيجةُ السَّاعة ، ونَفْثَةُ مَنْ لا يَخْرُجُ لهُ الكلامُ عن طاعة ، ومَنْ تَشْغَله عنِ التفاسيرِ كُلَفُ السُّلْطان ، وتُثْقِله أعباء الزَّمان ؛ كاد يَنْتَقِشُ فى ظَهْرِ ٥ كِتابك قبلَ حُصُوله بيَدِى :

فَقُلْ فِيما يَجُنُّ عَلَيْهِ لَيْلٌ وَيَمْضِى فى صياغَتِه نَهارُ

هُنالِكَ تَظْهرُ الآياتُ حَتَّى يُقالَ تَنَاثَرَ الفَلَكُ المُدارُ

فَراجَعَه الفقيه أبو محمد برُقْعةٍ قال فيها :

سَمِعتُ وأَطَعْتُ لِقوله تعالى : « وأَعْرِضْ عنِ الجاهلين » ، وسَلَّمْتُ وانْقَدْتُ ١٠ لحَديثِهِ عليهِ السَّلام : صِلْ مَنْ قطعَك ، واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَك ؛ ورَضيتُ بقَولِ الحُكَماء : كَفاكَ انتصارًا مِمَّن تعَرَّضَ لأذاكَ إعراضُك عنه ، وأقول :

تَبَغَّ سِوَاىَ امْرَأً يَبْتَغِى سِبابَكَ ، إنَّ هَواكَ السِّبَابُ

فَإِنِّى أَبَيْتُ طِلَابَ السَّفَا هِ وصُنْتُ مَحَلِّى عَمَّا يُعَابُ

وقُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ بَعْدِ ذَا وأَكْثِرْ فإنَّ سُكُوتِى جَوابُ(١)

١٥ وأقول :

كَفَانِىَ ذِكْرُ النَّاسِ لِى ومَآثِرِى وَمَالَكَ فِيهِمْ يا ابْنَ عَمِّىَ ذَاكِرُ

عَدُوِّىَ وأَشْياعِى كَثِيرٌ كَذَاكَ مَنْ غَدَا وَهْوَ نَفَّاعُ المَساعِى وضَائِرُ

وَمَالَكَ فِيهِمْ مِنْ عَدُوٍّ فَيُتَّقَى وَمَالَكَ فِيهِمْ مِنْ صَدِيقٍ يُكَاثِرُ

وَقَوْلِىَ مَسْمُوعٌ لَهُ ومُصَدَّقٌ وقولُكَ مُنْبَتٌّ مِنَ الرِّيحِ طَائِرُ

٢٠ وإِنِّى وإِنْ آذَيْتَنِى وعَقَقْتَنِى لَمُحْتَمِلٌ مَا جاءَنِى مِنْكَ صَابِرُ

(١) ب ، لب : « خطاب »

فوقّع له أبو المُغيرةِ على ظهْرِ رُقعته : قرأتُ هذه الرُّقْعةَ العاقّةَ فحينَ استوعبْتُها أنشدَتْنى :

نَحْنَحَ زَيْدٌ وَسَعَلْ لمَّا رَأَىْ وَقْعَ الأَسَلْ

فأَرَدْتُ قطعَها ، وتركَ المُراجعةِ عَنْها ، فقالت لى نَفْسٌ قدْ عرفْتَ ذَكاءَها : تاللهِ لا قطعتَها إلاّ يدُه ! فأثبتُّ على ظهْرِها ، مايكونُ سببًا لِصَوْنِها ، وقلت : ٥

نَعَقْتَ ولَمْ تَدْرِ كيْفَ الجَوابُ وأَخْطَأْتَ حَتّى أتاكَ الصَّوابُ
وأَجْرَيْتَ وَحْدَكَ فِى حَلْبَةٍ نَأَتْ عَنْكَ فيها الجِيادُ العِرابُ
وَبِتَّ مِن الجَهْلِ مُسْتَنْبِحًا لِغَيْرِ قِرًى فَأَتَتْكَ الذِّئابُ
فكَيْفَ تبيَّنْتَ عُقْبى الظَّلُومِ إذا انْتفضَتْ فى الخَميسِ العُقابُ
لعَمْرُكَ مالِى طِباعٌ تُذَمُّ ولا شِيمةٌ يَوْمَ مَجْدٍ تُعابُ ١٠
أُنيلُ المُنَى والظُّبَى سُخَّطٌ وأُعْطِى الرِّضا والعَوالِى غِضابُ

وأقولُ :

وغاصِبِ حَقٍّ أوْبَقَتْهُ المَقادِرُ «يُذَكِّرُنى حَامِيمَ والرُّمْحُ شاجِرُ»
غَدا يَسْتَعيرُ الفَخْرَ من خِيمِ خَصْمِه ويَجْهَلُ أَنَّ الحَقَّ أَبْلَجُ ظاهِرُ
أَلَمْ تَتَعَلَّمْ يا أَخا الظُّلْمِ أنَّنى بِرَغْمِكَ ناهٍ مُنْذُ عَشْرٍ وآمِرُ ١٥
تُذَلِّلُ لِى الأَمْلاكُ حُرَّ نُفوسِها وأَرْكَبُ ظَهْرَ النَّسْرِ والنَّسْرُ طائِرُ
وأَبْعَثُ فى أَهْلِ الزَّمانِ شَوارِدًا تَأَلَّفُهُمْ وَهِىَ الصِّعابُ النَّوافِرُ
فإنْ أَثْوِ فى أَرْضٍ فإنِّىَ سائرٌ وإنْ أَنْأَ عن قَوْمٍ فإنِّىَ حاضِرُ
وحَسْبُكَ أنَّ الأَرْضَ عِنْدَكَ خاتَمٌ وأَنَّكَ فِى سَطْحِ السَّلامةِ عاثِرُ
إذا كنتَ فى ظَهْرٍ من العَدْلِ مُنْجِدًا فإنكَ فى بَطْنٍ من الجَوْرِ غائرُ ٢٠

ولا لَوْمَ عندى فى استراحتِكَ التى تَنَفَّسُ عنهـا والخُطوبُ فَواقِرُ
فإنّىَ لِلحِلْفِ الذى مَرَّ حافِظٌ ولِلنَّزغَةِ[1] الأُولى لِحَامِيمَ ذاكِرُ
هَنيئًا لكُلٍّ ما لديْهِ فإنَّهـا عَطيةُ مَنْ تُبْلَى لَدَيْهِ السَّرائرُ

[2]قولُ أبى المغيرة : « فإِنْ أَثْوِ فى أرضٍ » ، البيت ، أخذَه من قول البُحْتُرِىِّ :

٥ وَشُهِرْتُ فِى شَرْقِ البلادِ وغرْبِها فكأَنَّنِى فِى وَسْطِ نَادٍ جَالِسٍ[3]

قال ابن بَسَّام : وكان نَقْشُ خاتَمِ أبى محمد :

يا عَلِىُّ بنَ أحمـدٍ اتّقِ الله تَرْشُـدِ

فقال له أبو المُغيرة : « عَلَيْكَ بفَحْصِ التِّيه » ، البيت[2] .

وإِذْ قد انتهى بنا القولُ إلى ذِكْرِ أبى محمد ابن حَزم ، فأنا أُلْمِعُ فى هذا
١٠ الموضع بلُمعةٍ من خَبَره ، حتى أَدُلَّ على عينِه بأَثَرِه ؛ فإنه كانَ كالبَحْرِ لا تُكَفُّ غوارِبُه ، ولا يَرْوَى شارِبُه . وقد وجدتُ للشَّيخِ أبى مَرْوان بن حَيَّان فصلاً أَوْرَدَ فيه ذِكْرَه ، وجَرَّده — زَعَمَ — لِشَرحِ أمرِه ، وأنا أُثبته بأَسْرِه .

قال ابنُ حَيَّان : كان أبو محمد حاملَ[4] فُنونٍ من حَديثٍ وفقهٍ وجَدَلٍ ونَسَبٍ ، وما يتعلَّقُ بأذيالِ الأدَب ، مع المشاركةِ فى كثيرٍ من أنواعِ التعاليمِ
١٥ القَديمةِ من المَنْطِقِ والفَلْسفة . وله فى بعضِ تلكَ الفُنونِ كُتُبٌ كثيرة ، غيرأنه لم يَخْلُ فيها من الغَلَطِ والسَّقَط ، لجُرْأَته فى التَّسَوُّرِ على الفُنُون لا سِيَّما المنطق ؛ فإنَّهم زَعَمُوا أنه زَلَّ هُنالِك ، وضَلَّ فى سُلُوكِ تلكَ المَسالِكِ ، وخالَفَ أرِسْطاطاليسَ واضِعَهُ مُخالَفَةَ مَنْ لم يَفْهمْ غَرَضَه ، ولا ارتاضَ فى كُتُبه ، ومال به أولاً النَّظَرُ

---

(١) ب ، لب : « وللنزعة » (٢ — ٢) لم تقع هذه الفقرة إلا فى م

(٣) راجع ديوان البحترى (ج ١ س ٢٤٥) (٤) ب ، لب : « حافظ »

فى الفقهِ إلى رأى أبى عبدِ الله بن إدريسَ الشافعىّ وناضلَ عَنْ مذهبه ، وانحرفَ عنْ مَذهَب غيره ، حتى وُسِم بهِ ، ونُسبَ إليه ، فاستهدفَ بذلك لكثير من الفقهاء ، وعِيبَ بالشُّذوذ ، ثم عدَل فى الآخرِ إلى قوْلِ أصحابِ الظَّاهرِ ، مَذهبِ داوُدَ بن علىّ ومن اتبَّعه من فقهاءِ الأمصار ، فنَقَّحَه ونَهَّجَهُ وجادَلَ عنه ، ووضعَ الكُتُبَ فى بَسْطِه ، وثبَت عليه إلى أنْ مضى لِسَبيلِه رحمهُ الله . وكان يحملُ عِلْمَه هذا ويُجادِلُ مَنْ خالفَهُ فيه ، على استرسالٍ فى طِباعه ، ومَذْلٍ بأسْراره ، واستِنادٍ[1] إلى العَهْدِ الذى أخَذَهُ اللهُ عَلَى العُلَماء من عِبادِه ، لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا يَكتُمُونه[2] ؛ فلم يكُ يُلَطِّفُ صَدْعَه بما عنده بتعريض ، ولا يزُفُّهُ بتدريج ، بل يَصُكُّ به مُعارِضَه صَكَّ الجَندَل ، ويُنشِقُه مُتَلَقِّيه[3] إنْشاقَ الخَرْدَل ، فينفرُ عنهُ القلوب ، ويُوقِعُ بها النُّدوب ، حتى استهدَفَ إلى فُقهاءِ وَقْته ، فتمالأوا على بُغْضه ، وردُّوا قولَه ، وأجمعُوا على تَضْليلِه ، وشَنَّعُوا[4] عليه ، وحذَّرُوا سَلاطينَهم من فِتْنَتِه ، ونَهَوْا عوامَّهُم عن الدُّنُوِّ إليه والأخْذِ عنه ، فطفِقَ المُلوكُ يُقْصُونه عن قُرْبِهم ، ويُسَيِّرُونَه عَنْ بلادِهم ، إلى أن انتهَوْا به إلى مُنْقطَعِ أثَرِه بتربةِ بلدِه منْ بادية لَبْلَة ، وبها تُوُفِّىَ رحمه الله سنةَ ستٍّ وخمسين وأربعمائة ، وهو فى ذلك غيرُ مرتدِعٍ ولا راجعٍ إلى ما أرادُوا به ، يَبُثُّ عِلْمَهُ فيمَنْ ينتابه ببادِيته تلكَ ، من عامَّةِ المُقتبِسين منه ، منْ أصاغِرِ الطَّلَبة الذين لا يَخْشَوْن فيه[5] الملامةَ ، يُحدِّثُهم ويُفقِّهُهم ويُدارسُهم ولا يَدَعُ المثابرةَ[6] على العلم ، والمواظبةَ على التأليف ، والإكثارَ من التَّصنيف ، حتى كَمُلَ من مُصنَّفاته فى فنونِ العلمِ

---

(١) ر : « واستسناد »
(٢) راجع سورة ٣ : ١٨٧
(٣) لب ، وه : « متلقفه »
(٤) وه : « وشغبوا »
(٥) ر « فيهم »
(٦) ر : « المناظرة »

وَقِرُ بعير ، لم يعْدُ أكثرُها عتبةَ بابه لتزهيدِ الفقهاء طُلَّابَ العلمِ فيها حتى أُحرِقَ بعضُها بإشبيليَة[١] ومُزِّقَتْ علانيةً ، لا يزيدُ مؤلِّفَها ذلكَ إلاَّ بصيرة في نَشْرِها ، وجِدالاً للمُعانِدِ فيها[١] ، إلى أن مَضَى لِسبيله .

وأكثرُ معايبه — زعَمُوا — عندَ المُنصِفِ له جَهْلُه بسياسةِ العلمِ التي هي أعْرَضُ من إيعابه ، وتخَلُّفُه عَنْ ذلكَ عَلَى قُوَّةِ سَبْحِه في غِمارِه ؛ وعلى ذلكَ كلِّه فلم يكنْ بالسَّليمِ من اضطِرابِ رأْيه ، ومغيبِ شاهدِ عِلْمِه عنه عندَ لقائه ، إلى أن يُحرَّكَ بالسُّؤالِ فيُنفجِرُ منْه بحرَ علمٍ لا تُكَدِّره الدِّلاء ، ولا يَقْصُرُ عنه الرِّشاء ،[٢] وعَلَى كلِّ ما ذَكَرْناهُ دلائلُ ماثلة ، وأخبارٌ مأْثورة[٢] .

وكان ممَّا يَزيدُ في شنَآنه تشَيُّعُه لأُمراء بني أُمية ، ماضيهم وباقيهم بالمشرِقِ والأَنْدلُس ، واعتقادُه لصحَّةِ إمامتِهم ، وانحرافُه عَمَّنْ سِواهُم من قُرَيش ، حتى نُسِبَ إلى النَّصْبِ لِغَيْرِهِم . وقدكانَ من غرائبه انتِماؤُه في فارِس ، واتِّباعُ أهلِ بيتِه لَهُ في ذلكَ بعدَ حِقْبَةٍ من الدَّهر تَوَلَّى[٣] فيها أبوه الوزيرُ المُعَقَّلُ في زمانه ، الرَّاجحُ في ميزانه ، أحمدُ بن سَعيد بْن حَزْم لبني أُميَّةَ أولياء نعْمته ، لا عنْ صحَّةِ ولايةٍ لهم عَلَيه ، فقد عهِدَهُ النَّاسُ خاملَ الأُبُوَّة ، مُوَلَّدَ الأَرُومَة من عَجَمِ لَبْلَة ، جَدُّه الأدْنَى حديثُ عهدٍ بالإسلام ، لم يتقدَّمْ لِسَلَفِه نَباهة ، فأبُوه أحمدُ عَلَى الحقيقةِ هو الذي بَنَى بيتَ نفسه في آخرِ الدَّهرِ برأْسِ رابيَةٍ ، وعَمَدَه بالخِلالِ الفاضِلةِ من الرَّجاحةِ والمعرفةِ والدَّهاء والرُّجولةِ والرأْي . فاغتدَى جُرْثومةَ شَرَفٍ لمن نَماهم ، أغنَتْهُمْ عن الرُّسوخِ في أُولي السابقةِ ، فما منْ شَرَفٍ إلاَّ مَسْبوقٌ عن خارجيَّة ، ولم يكنْ إلاَّ كلاَ ولاَ ، حتَّى تَخطَّى عليٌّ

(١—١) ىه في ر ، ى ه (٢—٢) ىه في ر ، ى ه

(٣) ب ، لب : « تمول »

هذا رَابِيَةَ لَبْلَةَ ، فارتقى قلعةَ إصْطَخرَ من أرضِ فارس ، فاللهُ أعلمُ كيف ترقَّاها ، إذْ لم يكنْ يُؤتَى من خطَلٍ ولا جهالة ، بل وَصَلَه بها وُسْعُ علمٍ ووشيجةُ رَحِمٍ معقومةٍ بَلّها بمستأخِرِ الصِّلَة رحمه الله . فتناهتْ حالُه مع فقهاء عصْره إلى ما وصفته ، وحِسابُه وحسابُهم على اللهِ الذى لا يَظلِم الناسَ مِثْقالَ ذرّةٍ عزّتْ قُدْرتُه !

(١)ولهذا الشَّيْخِ أبى محمّدٍ مع يهُودَ لعنَهم اللهُ ومعَ غيرِهم من أولى المذاهبِ المرفوضةِ منْ أهلِ الإسلامِ مجالسُ محفوظة ، وأخبارٌ مكتوبة(١) ؛ وله مصنَّفاتٌ فى ذلكَ معروفة ، من أشْهرِها فى عِلَلِ الجدَل كتابُه المسمَّى : « الفِصَل ، بيْنَ أهل الآراء والنِّحَل » . ومن تَواليفه « كتابُ الصَّادع والرَّادع » [فى الردِّ] على من كفَّر أهلَ التأويل من فِرَقِ المسلمين والردِّ على من قال بالتقْليد . وله كتابٌ فى شَرْحِ حديثِ المُوطّأ ، والكلامِ على مَسائله ؛ وله « كتابُ الجامع » فى صحيحِ الحديثِ باختصارِ الأسانيد ، والاقتصارِ على أصحّها واجتلابِ أكمَلِ ألفاظِها وأصحِّ مَعانِيها ؛ و « كتاب التَّلْخيص والتَّخْليص » فى المسائل النَّظرِيَّة وفروعها التى لا نصَّ عليها فى الكتابِ ولا فى الحديث ، و « كتاب منتقَى الإجماع و بيانِه من جُملةِ ما لا يعرفُ فيه اختلاف » ، وكتابُ « الإمامة والسِّياسة » فى قسْمِ سِيَرِ الخلفاء ومَراتبها والنَّدْبِ إلى الواجبِ منها ، و « كتاب أخلاق النَّفس » ، وكتابُه الكبيرُ المعروف بـ « الإيصال ، إلى فهم كتابِ الخِصال » ، وكتاب « كشفِ الالتِباس ، ما بين أصحابِ الظَّاهرِ وأصحابِ القِياس » ؛ إلى تَواليفَ غيرِها . ورَسائلَ فى معانٍ شتّى كثيرٍ عددُها .

ومن شِعرِه يَصِفُ ما أحرَقَ له من كُتُبه ابنُ عبَّادٍ قولُه :

(١–١) ىه فى ر ، ى ه

فإن تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذى تضمّنه القرطاسُ بل هو فى صدرى
يسيرُ معى حيثُ استقلّتْ ركائبى وينزلُ إنْ أنزلْ ويُدفنُ فى قبرى
دَعُونِى من إحراق رَقٍّ وكاغدٍ[1] وقولوا بعلمٍ كى يرى الناسُ مَنْ يدْرى
وإلاَّ فعُودوا فى المكاتبِ بدْأةً فكمْ دُونَ ما تبغُونَ لِلّهِ من سِترِ !

٥ وله :

مَنْ ظلّ يبْغِى فُرُوعَ علمٍ بَدْءًا ولم يدْرِ منْهُ أصلا
فكُلّما ازدادَ فيه سَبْعْيًا زادَ لَعَمْرِى بذاكَ جهلا

وقال :

كأنّكَ بالزُّوّارِ لى قد تنادَرُوا وقيلَ لهم أودى علىُّ بنُ أحمدِ
١٠ فيا رُبَّ محزُونٍ هناكَ وضاحكٍ وكم أدْمُعٍ تُذْرى وخدٍّ مُخدّدِ
عفا اللهُ عنّى يومَ أرحلُ ظاعنًا عن الأهلِ محمولاً إلى بطنِ مَلْحدِ
وأتْرُكُ ما قدْ كنتُ مُغتبِطًا بهِ وألْقى الّذى آنسْتُ دهرًا بمرْصدِ
فوا راحتِى إنْ كانَ زادى مُقدّمًا ويا نصَبِى إنْ كنتُ لمْ أتزوّدِ !

ويا لبدائعِ هذا الحبْرِ علىِّ بن حزمٍ وغُرَرِه ![2] ما أوْضحَها على كثرةِ
١٥ الدّافنين[3] لها ، والطّامسين لمحاسِنِها ! وعلى ذلكَ فليس ببِدْعٍ فيما أُضيعَ منه ،
فأزهدُ الناسِ فى عالِمٍ أهلُه ، وقبله أرْدَى العلماءَ تبريزُهُم عَلَى مَنْ يقصُرُ عنْهم .
والحسَدُ داءٌ لا دواءَ له . انتهى ما لخّصتُه من كلامِ ابنِ حيّانَ فى خبره .

قلتُ أنا : ولعَمْرى ما عقّه ، ولا بخسَه حقّه . وأخبرنى الفقيهُ الحافظُ

(١) لم تقع الأبيات الآتية فى ر ، ط (٢) زجع الكلام فى ر ، ط
(٣) ر ، ط : « الراقين »

أَبُو بَكْرٍ ابن الفقيه أبى محمد ابنِ العَرَبىّ عن الفقيهِ أبى عبد الله الحُمَيْدىّ قال: كان لشَيْخِنَا الفقيهِ أبى محمدِ ابنِ حَزْم فى الشعرِ والأَدَبِ نَفَسٌ واسع، وباعٌ طَويل. وما رأيتُ أسرعَ بَديهةً منه؛ وشِعْرُه كثير، وقد جَمعتُه على حُرُوفِ المُعْجَم، ومِنْهُ ما كُتِبَ عنه:

هَلِ الدَّهْرُ إلاَّ ما رأَيْنا وأَدْرَكْنا؟ ... فَجَائِعُهُ تَبْــقَى ولَذَّاتُهُ تَفْنَى

إذا أَمْكَنَتْ فيه مَسَرَّةُ ساعةٍ ... تَوَلَّتْ كَمَرِّ الطَّرْفِ واستَخْلَفَتْ حُزْنَا

إلى تَبِعاتٍ فى المَعادِ ومَوْقِفٍ ... نَوَدُّ لَدَيْهِ أَنَّنــا لم نكُنْ كُنَّا

حَصَلْنا على هَمٍّ وإثمٍ وحَسْرةٍ ... وفاتَ الَّذى كنَّا نلَذُّ به عنَّا[1]

حَنِينٌ لِما وَلَّى، وشُغْلٌ بما أَتَى ... وغَمٌّ لِما يُرْجَى، فَعَيْشُكَ لا يَهْنَا

كَأَنَّ الَّذى كُنَّا نُسَرُّ بكَوْنِه ... إذا حَقَّقَتْهُ النَّفسُ لَفْظٌ بلا مَعْنَى

قَال: وله أيضاً من قَصيدةٍ خاطبَ بها قاضِىَ الجَماعةِ بقُرْطُبَةَ عبدَ الرَّحمنِ ابنَ بَشِيرٍ يَفخَرُ فيها بالعِلْم، ويذكُرُ أصنافَ ما عَلِم، يقول فيها:

أنا الشَّمسُ فى جوِّ العُلُومِ مُنيرةً ... ولٰكِنَّ عَيْبِى أَنَّ مَطْلَعِىَ الغَرْبُ

ولوْ أنَّنى مِن جانبِ الشَّرْقِ طالِعٌ ... لَجَدَّ عَلَى ماضَاعَ من ذِكْرِىَ النَّهْبُ

وَلِى نَحْوَ أَكْنافِ العِراقِ صَبابةٌ ... ولاغرْوَ أَنْ يَسْتَوْحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ

فَإِنْ يُنزِلِ الرَّحمنُ رَحْلِىَ بَيْنَهُم ... فحِينَئِذٍ يَبْدُو التأسُّفُ والكَرْبُ

فكَمْ قائلٍ، أَغْفَلْتُهُ وهْوَ حاضِرٌ ... وأَطْلُبُ ما عَنْهُ تَجِىءُ بِهِ الكُتْبُ

هُنالِكَ يَدْرِى أَنَّ للبُعْدِ غُصَّةً[2] ... وأَنَّ كَسادَ العِلْمِ آفَتُهُ الغَرْبُ

[3]فواعَجَبًا مَنْ غابَ عنهم تَشَوَّقُوا ... له، ودنُوُّ المَرْءِ من دَارِهِمْ ذَنْبُ

(١) فى «كتاب المعجب» لعبد الواحد المراكشى (ص ٣٣): «وفات الذى كنا نقر به عيناً» (٢) فى الأصل: «قصة»

(٣) ما يلى ناقص فى ر، ى، وسينبه على رجع الحديث بعد

وَإنَّ مَكانًا ضاقَ عَنِّى لَضَيِّقٌ   على أنه فِيحٌ مَذاهِبُهُ سُهْبُ
وإنَّ رِجالاً ضَيَّعونِى لضُيَّعٌ   وإنَّ زَمانًا لم أنَلْ خِصْبَهُ سَغْبُ

ومِنْهَا فى الاعتذارِ من مَدْحِ نفسه :

ولـكنَّ لِى فى يُوسُفٍ خيرَ أُسْوةٍ   وليْسَ عَلَى مَنْ بالنَّبِىِّ ائْتَسَى ذَنْبُ
٥ يقول — وقال الحقَّ والصِّدْقَ — إنَّنِى   حفيظٌ عليم »[1] . ماعَلَى صادقٍ عَتْبُ

وأنشدنى لنفسه :

لايَشْمَتَنْ حاسِدِى إنْ نَكْبَةٌ عَرَضَتْ   فالدَّهْرُ لَيْسَ عَلَى حَالٍ بِمُتَّرِكِ
ذُو الفَضْلِ كالتِّبْرِ طَوْرًا تحتَ مِيقَعَةٍ   وتارَةً فى ذُرَى تاجٍ عَلَى مَلِكِ

وأنْشدنى أيضًا له :

١٠ لَئِنْ أصْبَحْتُ مُرْتَحِلاً بِشَخْصِى   فَرُوحِى عِنْدَكُمْ أبدًا مُقِيمُ
وَلـكِنْ لِلْعِيَانِ لَطِيفُ مَعْنًى   لَهُ سَأَلَ المُعَايَنَةَ الكَلِيمُ

وقد كَرَّر هذا المَعْنَى أيضًا فقال :

يَقُولُ أخِى : شَجَاكَ رَحِيلُ جِسْمٍ   وَرُوحُكَ مَالَهُ عنْهَا رَحِيلُ
فقلتُ لَهُ : المُعَايِنُ مُطْمَئِنٌّ   لِذَا طَلَبَ المُعَايَنَةَ الخَلِيلُ

١٥ قال أبو عبدِ الله الحُمَيْدِىّ : وقلتُ له يوما : قال أبو نواس[2] :

عَرِّضَنْ لِلَّذِى تُحِبُّ بِحُبٍّ   ثُمَّ دَعْهُ يَرُوضُهُ إبْلِيسُ

فقل أنتَ فى طريقِ التَّحقيق ، فقال :

أَبِنْ قَوْلَ وَجْهِ الحَقِّ فِى نَفْسِ سَامِعٍ   وَدَعْهُ فنورُ الحقِّ يَسْرِى ويُشْرِقُ

(١) سورة ١٢ : ٥٥   (٢) راجع « الأغانى » (ج ١٩ ص ٧٠)

سَيُؤْنِسُهُ رِفْقًا فيَنْسَى نِفَارَهُ ... كما نَسِيَ القَيْدَ المُوَثَّقَ مُطْلَقُ

انتهى كلامُ الحُمَيْدى .

وأنشِدتُ[1] له أيضاً فيما كان يعتقده من المَذْهَبِ الظاهِرىّ من جملة أبيات يقول فيها :

وذِى عَذَلٍ فيمَنْ سَبَانِىَ حُسْنُهُ ... يُطِيلُ مَلَامِى فِى الهوَى ويَقُولُ : ٥

أفى حُسْنِ وجْهٍ لاحَ ، لم تَرَ غيْبَهُ[2] ... ولَمْ تَدْرِ كَيْفَ الجِسْمُ ، أنْتَ قتيلُ ؟

فقُلْتُ لَهُ : أسْرَفْتَ فِى اللَّوم ظالما ... وعِنْدِىَ ردٌّ — لَوْ أرَدْتَ — طويلُ

أَلَمْ تَرَ أنِّى ظَاهِرِىٌّ ، وأنَّنِى ... عَلَى مَا بَدَا حتَّى يَقُومَ دَلِيلُ !

ما أخرجتُه من شِعْرِ أبى المُغيرةِ فى أوصافٍ شتَّى

له من قَصيدة أولها : ١٠

أُحاجيكُمُ : مَنْ قلَّدَ القمرَ القرْطَا ؟ ... وأسْأَلُكُمْ : مَنْ ألْحَفَ الغُصْنَ المِرْطَا ؟

فما جزَعِى إنْ جاوزُوا الجِزْعَ ظَاعِنًا ... ولا ساقِطٌ حُزْنِى إذا جاوزُوا السِّقْطَا

ومِنْهَا :

وَلِيدَةُ سِرِّ المَجْدِ تَبْذَخُ نَخْوَةً ... وقدْ عظُمَتْ مَجْدًا وقدْ كرُمَتْ رَهْطَا

وَلَمْ تَرْضَ بالجَوْزاءِ عِقْدًا ودُمْلُجًا ... وَلا قنِعَتْ بالنَّجْمِ شَنْفًا وَلا قُرْطَا ١٥

تَقَنَّصْتُهَا والعُمْرُ فى عُنْفُوانِهِ ... فَلاَ غُصُنِى أَحْنَى وَلاَ لِمَّتِى شَمْطَا

ولَيْلٍ غطَى والنَّجْمُ فِى الأُفْقِ حَائِرٌ ... فغطَّى عَلَى الأعْلَامِ منْهُ الَّذى غطَى

ولَيْسَ وِشَاحِى غَيْرَ عَضْبٍ مُهَنَّدٍ ... أبَى حَدُّهُ أنْ يَسْأَمَ القَدَّ والقطَّا

(١) رجع الكلام فى ر ، ط
(٢) لب : « غيره »

تَشابَهَ عزْمِى والحُسامُ وَهِمَّتِى ثلاثَةُ أَسْيافٍ بأمْثالِها يُسْطَى

وهذا كقول أبى تمام(١) :

العِيسُ والبِيدُ واللَّيلُ التَّمامُ مَعًا ثلاثَةٌ أبدًا يُقْرَنَّ فِى قَرَنِ

وأخذه البُحْتُرِىُّ(٢) فقال :

٥ اطْلُبَا ثالِثًا سِوَاىَ فإنِّى رَابِعُ العِيسِ والدُّجَى والبِيدِ

وقال الصَّنَوْبَرِىُّ أيضاً :

حَتَّى تكُونَ لِى الطِّمِرَّةُ خِلَّةً والبِيدُ دارًا والحُسامُ رَفيقَا

وقال أبو الحَسَن السَّلامِىّ :

فَكُنْتُ وعَزْمِى فِى الظَّلامِ وصارِمِى ثلاثَةَ أشْباهٍ(٣) كمَا اجْتَمعَ النَّسْرُ(٤)

١٠ وقال بعضُ أهْلِ عَصْرِنا :

وإلاَّ الثَّلاثُ الشُّفعُ لم يَزَلِ الهَوى لَهَا رَابِعًا فى أعْيُنٍ وقُلُوبِ(٥)

وله من أُخْرَى أوَّلُها :

سَرَتْ مِن لِوَى خَبْتٍ إلَيْنا تعَسَّفُ مَهامِهَ ذاتِ الجَهْلِ(٦) والجَوُّ أكْلَفُ

يقولُ فيها :

١٥ تَبِيتُ بِذِى الأرْطَى وقَدْ بَاتَ طَيْفُهَا لَنَا صَنَمًا نَحْنُو عليْهِ ونَعْكُفُ

هَبِيكِ سَرَيْتِ اللَّيلَ، فَرْعُكِ أسْحَمٌ وثَغْرُكِ بَسَّامٌ، ولَحْظُكِ أوْطَفُ

---

(١) راجع ديوانه ص ٢٩٧ (٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٩٤)

(٣) ب : « أشباح » — لب : « أشياخ »

(٤) لب : « الشبر » (٥) هذا البيت ناقص فى ر ، مم

(٦) كذا بالأصول ، ولعلها « ذات الحجل »

فأنَّى أَطَقْتِ المشْىَ ، قدُّكِ مائدٌ ... وردْفُكِ رجْراجٌ ، وخصْرُكِ أهيَفُ
سَقَى رَبْعَكِ المأْلُوفَ، حيْثُ تَصدَّعَتْ ... لِىَ الْـكَبِدُ الحرَّى، رَبِيعٌ وصَيِّفُ
فكَمْ لِىَ فيهِ مِنْ جَنابٍ وطِئْتُه ... كَرِيمًا فلا آسَى ولا أتأسَّفُ
وقدْ شقَّقَتْ فِيهِ البُرُوقُ جُيُوبها ... وباتَتْ علَيْنا أدْمُعُ الغيْثِ(١) تَذْرِفُ
لَيالِىَ باتَ البانُ فوْقَ كثيبِهِ ... علَىَّ بأنْواعِ الجَنَى يتعطَّفُ
إذا ارْتجَّ من رِدْفٍ كثيبٌ مُرَجْرَجٌ ... تأوَّدَ مِنْ قدٍّ قضيبٌ مُهفْهَفُ
يُمدُّ عليْنا لِلسَّحابِ(٢) سُرادِقٌ ... ويُسْحَبُ فِينا لِلجنائبِ(٣) مِطْرَفُ
وللهِ درِّى ما أدَرَّ مدامِعِى ... إذا سجعَتْ وُرْقٌ على الأيْكِ هُتَّفُ!
بَدا العَلَمُ الفرْدُ الذى كُنْتُ عالِمًا ... بِهِ،وسرَى العرْفُ الذى كُنْتُ أعْرِفُ
يُذكِّرُنِى سُعْدايَ بالغَوْرِ ما تَنِى ... مُساعدةً إذْ لا صُدُوفَ تَصْدِفُ
وللهِ سلْمَى يوْمَ أهْدَى سلامَها ... بذِى سلَمٍ نحْوِى البنانُ المُطرَّفُ

ومِنْها :

وما ظَبْيةٌ أدْماءُ تعْرُو أراكَها ... وتَعْطُو وقدْ وافَى بَرِيرٌ وعُلَّفُ
بأحْسنَ مِنْها يوْمَ رِيعتْ لِزَوْرَتِى ... فراغَتْ إلَى أتْرابِها تتشوَّفُ
وقالَتْ : أَما تَثْنِيكَ رِقْبةُ حارِسٍ ... وأنْيابُ لَيْثٍ فى العرِينةِ تَصْرِفُ؟
ودُونَ الذى أمَّلْتَ أجْرَدُ سابِحٌ ... وأسْمَرُ عرَّاصٌ وأبْيضُ مُرْهَفُ
فقُلْتُ لَها : بعْضَ الذى بِكِ! فانْثَنَتْ ... وأنْجَزَ مِيعادًا بَخِيلٌ مُسوِّفُ(٤)
ونِلْتُ سِقاطًا مِنْ حدِيثٍ وعاقَنِى ... تنَزُّهُ حُرٍّ عَنْ خَنًى وتَعَفُّفُ

(١) ب : « العين » — ر : « الليل » (٢) لب : « بالسحاب »
(٣) ر ، ه : « للحبائب » (٤) ر : « وأنجز ميعاد الخليل مسوف »

يُسَاعِدُنِي تَحْتَ النِّقَابَيْنِ مَنْظَرٌ ويُسْعِدُنِي تَحْتَ اللِّثَامَيْنِ مَرْشَفُ

وَمِنْهَا :

وَرَكْبٍ سَرَوْا واللَّيلُ مُرْخٍ عَلَيْهِمُ سُتُورًا مِنَ الظَّلْمَاءِ لَا تَتَكَشَّفُ
خَبَطْتُ بِهِمْ أَكْنَافَهُ ، وَنُجُومُهُ رَوَائِمُ أَظْآرٌ عَلَى البَدْرِ عُكَّفُ
٥ عَلَى كُلِّ قِنْعَاسٍ كَأَنَّ لُغَامَهُ ـ وَقَدسَئِمَ الإِرْقَالَ ـ قُطْنٌ مُنَدَّفُ
هَدَايَا خُطُوبٍ بَاتَ يَنحرُهَا السُّرَى وَلَكِنَّهَا مِنْ بَاطِنِ الخُفِّ تَرْعَفُ
إِلَى أَنْ أَنَافَ الصُّبْحُ يَنْفُضُ عُرْفَهُ وَطَائِرُهُ فِي غُرَّةِ الفَجْرِ يَهْتِفُ
(١) فَمَا انشَقَّ إِلاَّ عَنْ مُنَادِي ابنِ مُنْذِرٍ نَذِيرًا بِصَرْفٍ عاقَهُمْ عَنْهُ يُصْرَفُ

وَمِنْهَا :

١٠ ويَا رُبَّ مَيْدَانٍ أَتَى فِيهِ سَابِقًا وغُودِرَ مَنْكُوسًا هَجِينٌ ومُقْرِفُ
وَمَا نَامَ حَتَّى لَمَّ مُفْتَرِقَ العُلَا فَهَا هِيَ عِقْـدٌ فِي يَدَيْهِ مُؤَلَّفُ
إِيَاسٌ وبِسْطَامُ بنُ قَيْسٍ وَحَاتِمٌ وَقُسٌّ وَلُقْمَانُ بنُ عَادٍ وأحنَفُ
وَمَا هَـذِهِ الأَيَّامُ إِلاَّ مَقَـاوِلٌ تَلَتْ سُوَرًا مِنْ مَجْدِهِ وَهْوَ مُصْحَفُ
إِذَا مُضَرُ الحَمْرَاءُ أَدْلَتْ بِمَجْدِهَا وَجَرَّتْ ذُيُولَ الفَخْرِ قَيْسٌ وخِنْدِفُ
١٥ سَمَا لَكَ قَحْطَانٌ بِبُنْيَانِ سُؤْدَدٍ يُنِيفُ عَلَى تِلْكَ المَبَانِي ويُشْرِفُ

وله منْ أُخرى :

أَمِنَ البُرَاقِ التَّاحِ بَرْقٌ مَا سَرَى إِلاَّ وَرَدَّ الأُفقَ مِرْطًا أَحْمَرَا ؟
أَتْبَعْتُهُ نَظَرَ المَشُوقِ بِمُقْلَةٍ لَمْ تَدْرِ ، مُذْعَهْدُ الأُثَيْلَةِ ، مَا الكَرَى ؟
عَايَنْتُهُ كَالصَّقْرِ صَفَّقَ طَائِرًا فَغَدَتْ غَرَابِيبُ الدَّيَاجِي نُفَّرَا

(١) الأبيات الآتية إلى آخر القصيدة لم تقع فى ر ، ط

ومنها :

وسَلَلْتُ مِنْ نَارِ الصَّبابَةِ صارمًا وجرَرْتُ مِنْ وَفْدِ التَّصابِى عَسْكَرًا[1]
ومشيْتُ مُنْسابًا فقُلْ فِى أَرْقَمٍ وَضَحَ النَّهارُ لَهُ فعادَ غَضَنْفَرَا
بِتْنَا ، وَبَاتَ المِسْكُ فِينا واشِيًا بِمكانِنا ، والحَلْىُ عَنَّا مُخْبِرَا
وَرَنَتْ بِأَلْحَاظٍ تُدِيرُ كُؤُوسَهَا فِينَا فَنَشْرَبُهَا حَلالاً مُسْكِرَا ٥
وَاللَّيلُ يُلْحِفُنِى سَرَابِيلَ الدُّجى جَهْلاً وقَدْ عَانَقْتُ صُبْحًا مُسْفِرَا
لَوْ جِئْتَنا لَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرٍ أَسَدٌ تَوَسَّدَ كَفَّ ظَبْىٍ أَعْفَرَا
وَلَقَدْ رَقِيتُ مِنَ الحِمَى أَعْلامَهُ وشكَكْتُ لَمَّا شِمْتُهُ مُتَغَيِّرَا
لَمْ أَلْقَ إِلاَّ مَشْرَفِيًّا أَبْيَضًا مِنْ دُونِنَا أَوْ زَاعِبِيًّا أَسْمَرَا

ومنها : ١٠

إِلاَّ تَرَى المَنْصُورَ تَحْتَ لِوَائِهِ تَلْقَ ابْنَهُ طَلْقَ الجَبِينِ مُظَفَّرَا
أَوْلَا تَجِدْ فى الحَفْلِ عَاقِدَ حُبْوَةٍ هُودًا فإنَّا قد وجَدْنَا حِمْيَرَا
أو تَفْتَقِدْ صَمْصَامَ عَمْرٍو فِى الوَغَى فلقد سَلَلْنَا ذَا الفَقَارِ مُذَكَّرَا
لا غَرْوَ جِئْتُ البَحْرَ إِذْ أَجْلَى الحَيَا ورَأَيْتُ يَحْيَى حِينَ لَمْ أَرَ مُنْذِرَا
فإذَا دَعَوْنَا مَنْ يُجِيبُ لِنَكْبَةٍ لَبَّتْ تُجِيبُ فَخِلْتُهَا سَيْلًا جَرَى ١٥
شِيَمٌ غَدَتْ[2] قُرْطَ الزَّمَانِ فَلَمْ أَنَمْ حتى نَظَمْتُ عَلَيْهِ شِعْرِى جَوْهَرَا[3]
لِلّٰهِ دَرُّكَ والرِّمَاحُ شَوَارِعٌ والبِيضُ تَقْطَعُ لَأْمَةً وسَنَوَّرَا
ومَقَامَةٌ لكَ فِى الأَعَادِى قَدْ حَمَتْ أَيَّامَ قَوْمٍ قبلها أَنْ تُذْكَرَا
كانَ اللِّسَانُ لَهَا الحُسَامَ المُنْتَضَى والمِنْبَرُ العَالِى الأَغَرَّ الأَشْقَرَا

(١) ر : « وجاوزت من وفد النصارى عسكرا » (٢) لب : « عدت »
(٣) هذا البيت والذى قبله ناقصان فى ر ، ب

غَادَرْتَ أَحْشَاءَ البُنُودِ خَوَافِقًا فِيهَا ومُرَّانَ الوَشِيجِ مُكَسَّرَا
أَنْسَيْتَنَا جِـذْلَ الطِّعَانِ وعامِرًا وَعُتَيْبَةَ بنَ الحارِثِيِّ[1] ومُسْهِرَا
فَإِذَا أَتَيْتُكَ مَادِحًا لكَ لَمْ يَجِئْ شِعْرِي لِيَسْأَلَ ، بل أَتَاكَ لِيَفْخَرَا
غَيْرِي الذِي اتَّخَذَ المدائِحَ مَكْسَبًا وَسِوَايَ مَنْ جَعَلَ القَوَافِيَ مَتْجَرَا
٥ أَنَا ما شَعَرْتُ لِأَنْ أُنَبَّهَ خَامِلاً لَـكِنْ لِأَمْنَـعَ شَاعِرًا أَنْ يَشْعُرَا

قولُه: « أو نَفْتَقِدْ صَمْصَام عَمْرٍو » ، البيت ، لفظُ حَبيبٍ ومعناه ، نَقَلَه أبو المُغيرة :

أو نَفْتَقِدْ ذا النُّونِ فى الهَيْجَا فقَدْ جَـلَّى الإِلَهُ لنَا عَنِ الصَّمْصَامِ[2]

لُمَعٌ من أَخْبَارِ مُنْذِرٍ الذى ذُكِرَ

قال : ونقَلْتُ من خَطِّ أبى مَرْوانَ ابنِ حَيَّان ، قال : كان مُنذرُ بنُ يحيَى
١٠ صاحبُ سَرَقُسْطَةَ رَجُلًا من عُرْضِ الجُندِ ، وتَرَقَّى إلى القِيادةِ آخرَ دولةِ ابنِ أبى عامرٍ ، وتَناهَى أمرُه فى الفِتْنةِ إلى نَيْلِ الإمارة ، والانتِباذِ من العسكرِ إلى الثَّغْرِ الأَعْلَى بَلَدِه ، واقتطاعِهِ لِمَا صُيِّرَ فى يَدِه ، وكان أبوه يحيى من الفُرسان غيرِ النُّبهاء ؛ فأمَّا ابنُه مُنذرٌ فكانَ فارِسًا لَبِقَ الفُرُوسيَّةِ ، بَهِيَّ الشارةِ ، مَليحَ التَّقَلُّبِ على الدَّابَّة ، سَخِيًّا كَرِيمًا خارِجًا عن حَدِّ الجَهْل ، يَتمسَّكُ بطَرَفٍ من
١٥ الكِتابةِ الساذَجَة ، وأما غَدْرُه فالنَّارُ برأسِ اليَفاعِ ، من أَفْحَشِه صُنْعُه بِهِشامٍ المَخلُوعِ مَوْلَى نِعمتِه ، ومُعْلِي رُتْبتِـه ، وباعِثِه إلى الثَّغْرِ لنُصْرَتِه ؛ فانقلَبَ ناصِرًا لعَدُوِّه ، وغزاهُ فى عُقْرِ داره ، وأَنْزَلَه عن سريرِه ، وأَسْلَمَه لحَتْفِه ، وباعَ دِماءَ عشيرتِهِ أهلِ قُرْطُبةَ مَجَّانًا باطِلاً بلا ثَمَنٍ من البَرابِرةِ عَلَى غيرِ عُذْرٍ ولاضَرُورَة .

(١) ب ، لب ، ر : « عتيبة بن أبى الحباب »
(٢) راجع ديوان أبى تمام (ص٢٤٦) وفى رواية البيت اختلاف

وعادَ بِمِثْلِها لمحمّـد بن سُلَيْمان أثيره عندما استجار بهِ فى نـكْبته ، فقتلَه وهو ضَيْفُه ، فجاء بها صَلْعاء مَشْهورةً لم تَغسِلْها معذِرة ؛ إلاّ أنه كان كريما ، وهَبَ لقُصّاده مالاً عظيما ، فوفدُوا علَيْه ، وتطارحت الآمالُ إليه ، واتُّفِقَ على تفضُّلِه ، وعَمرَتْ لِذلكَ حَضْرَتُه سَرَقُسْطَةُ ، حتى أشبهتِ الحَضرةَ الـكُبرى قُرْطُبةَ أيّامَ الجماعةِ ، فحَسُنَتْ أيّامُه ، وهتَف المُدّاحُ بذِكْره .

٥

وكان مع سُمُوِّه للمعالِى من الإيثارِ لشَهَواته ، والمسارَعةِ لقضاء لَذّاته ، والانهتاكِ فى طَلَبِ راحتِه ، والشَّغَفِ بزِيِّ دُنْياه ، والـكَلَفِ بزُخْرُفِها ، والتّهالُكِ فى حُبِّها ، على أضْلَعِ ما كانَ عليه مَنْ تفرّدَ بشأْنِها ، فاتّخذ الجَوارِىَ الحِسانَ ، ومِلاحَ الغِلْمان ، فجُلِبَ إليه كلُّ عِلْقٍ خطير ، وحَصَل عنـدَه مِنْ كُلِّ ما وصَفْناهُ كثير .

١٠

وكان لأوّلِ وِلايتِه قد سَاسَ عظماءَ الإفرنجِ وهاداهُمْ حَوْطًا للثّغرِ وأهلِه ، وتَأنِّيًا للجماعةِ[1] حتى تثوبَ لأهلِ الإسلامِ ، يُناهِضون بها عَدُوّهم . وكان رؤساء الجَلالقةِ يومئذٍ رَيْمُنْدُ الجِلِّيقِيُّ وَشانجُه القَشْتِلِّيُّ ، فسَلَكَ معهُما سبيلَ الاسترضاء ، والمُوافَقةِ والاستخْذاء ، فحُفِظَتْ أطْرافُه وكُفَّتِ المَعرّةُ عنْ عمَلِه . وربّما أوْقعَ ببَعضِ أصاغِرِ القَوامِسِ فى أطرافهم وسَبَى منهم ، ورَيْمُنْدُ وشانجُه باقيانِ على مُعاقدَتِه إلى أن مَضَى بِسبيلِه ، والثّغرُ مسدودٌ لا ثُغْرَةَ فيهِ ولا وَهْيَ فى حالِه[2] .

١٥

و بَلَغ من استِمالةِ الحاجبِ مُنْذرٍ لهذَيْنِ الطاغيَتَيْنِ أن أجْرَيا تَصاهُرَهما على يدَيْه ، وكُتِبَ عقْـدُ النِّكاح بَيْنَهُما بحَضْرةِ سَرَقُسْطَةَ فى حَفْلٍ من أهلِ المِلّتَـيْن ، فقرَفَتِ الألْسِنةُ مُنذرًا لسَعْيِه فى نظمِ سِلْكِ الطّاغِيَتَيْنِ لما فيهِ من سُوءِ العاقبةِ .

(١) ب : « وتأسى لجماعة » — لب : « وتأنبا لجماعة »

(٢) لب : « برجاله »

وقد قيل إنّ رأيَ مُنذرٍ كانَ فى ذلكَ أحصف، مِنْ رأيِ مَنْ قدحَ فيه وقرف، لنظرِه فى شأنِ وقتِه، وعلمِه بانصداعِ عصا أهلِ كلمتِه؛ فآثرَ من الموادعةِ ما سترَ به العورَة، وشراه بغليظِ الكُلْفة، واختدعَ به عظيمَى الجلالقةِ رَيْمُنْدَ وشانجُه المُحدِّثَيْن أنفُسَهما يومئذ بمناهضةِ أهلِ الأندلس، فألهاهما عن الحرْبِ وحبَّبَ إليهما الدَّعَة . وأعقبَ الحاجبُ مُنذرٌ أهلَ الثغرِ فى مَغَبَّةِ ذلكَ

٥ عاجلَ السَّلامة، واستظهَروا بِهِ على العِمارَة، فحَيُوا وعاشُوا فى نعمةٍ صَافية، وعيشةٍ راضية، لم يتغيَّرْ به عنهما حالٌ؛ إلى أن ألْوتْ بمنذرٍ المنية، وقد اعترفَ الناسُ لرأيه، وأقرُّوا بسياسته، ولم يأتِ بعدَه من يَسُدُّ مَسَدَّه، ولم ينفعِ اللهُ الطاغيَتَيْن بصِهرِهما الذى كانا عقداه للتآلفِ عَلَى المسلمين، إذْ أعْجلَ عنه شانجُه

١٠ ابنُ غَرْسِيَةَ شيطانُهم الرجيم، وهوَى أميرُهم رَيْمُنْدُ ظهيرُ المذكور، وابنُه بعدَه؛ فشتَّتَ اللهُ شَمْلَ تلكَ الطَّواغيتِ يومئذٍ وكفَى المسلمين شرَّهم برحْمَته . واشْتَمَلَ مُنذرٌ عَلَى قُوّادِ تلك الثُّغور، واستوسَقَتْ له هنالكَ الأُمور، واستكتبَ عِدَّةَ كُتَّابٍ كأبِى العبَّاسِ ابنِ مروس[1] من تُدْمير، وكأبى عامر ابن أرْزق، وابنِ واجبٍ وغيرِهم .

١٥ قال ابنُ حيَّان : وأخبرَنِى الكاتبُ أبو أميَّةَ ابنُ هاشِم[2] القُرطُبِىّ — وكانَ مِنْ وُجوهِ مَنْ خَرجَ عنَّا أيَّامَ الفِتْنةِ واستَوْطَن ثغرَ تُطيلة ، وما رأيتُ مِثْلَه فى أُولِى البُيُوتاتِ فَضْلاً — قالَ : اجتازَ القُومِسُ شانْجُه بنُ غَرْسِيَةَ صاحبُ قَشْتِيلَةَ ببابِ تُطيلةَ صدْرَ أيَّامِ الحاجبِ مُنذرٍ، وعلَيْنا يومئذٍ من قِبَلِه سُلَيْمانُ ابنُ هُود صاحبُه، فسلكَ مُجتازًا يُريدُ طرفَ الثَّغرِ الأعلَى للاجتماعِ هنالكَ بالقومسِ

٢٠ رَيْمُنْدَ صاحبِ بَرْشُلُونَة، لِعَقْدِ المُصاهرةِ بَيْنَهما، والأُنْثَى من عندِ شانْجُه، واطنًا

(١) ر : « مدوش » (٢) ب ، لب ، وه : « هشام »

لأرضنا عن علمٍ مِنْ مُنذرٍ وَالينا ، وَضمَانٍ منه لِكَفٍّ عادية جيشه عنّا ؛ فأنكره أهلُ تُطيلةَ وهُمْ يومئذٍ بحال عِزّةٍ وقُوّة ، وذهبُوا إلى عِصْيَان أميرِهِم منذرٍ فيه تفَادياً من وَصْمته ؛ فنَمِيَ ذلك إلى الطاغيةِ شانْجُه ، فلمّا شارَفَ البلدَ أرسلَ يَسْتَدعِى قومًا منْ أعيانِهم ، يُكلّمُهم فى سَبيله .

قال أبو أُميّة : فكنتُ فى عددِ مَنْ مَضى ، فدخَلْنا مَحَلَّتَه يومئذٍ فخرَصْتُها[1] خيلاً ورَجْلاً زُهاء ستّةِ آلاف ، ولم يكن احتفَلَ فى حَشْدِه ، ووصَلْنا إلى مَضْرِبه فإذا هو جالسٌ على مَرْتبَتِه عليه ثِيابٌ من ثياب المسْلمين ، ورأسُه مكشوفٌ أصلعُ كهلٌ ، لم يغلِبْ عليه الشيبُ بعْدُ ، أسمرُ اللونِ جميلُ الصُّورةِ ؛ فكلَّمنَا بكلامٍ لطيفٍ حَسَنٍ بيَّن فيه وجهَ سَيْرِه ، وذكر ما فارَقَ وَالينَا عليْه من المحالفةِ معه ، فعرّفْناه بِكُرْهِ مَنْ وراءَنا لاجتيازه ، وذهَابِهم إلى التَمرُّسِ به . فنهانا عن ذلك وذكَرَ الحربَ وعُدوَاءَها ؛ فانصرفْنا عنه وأدَّيْنا قولَه إلى مَنْ خلفَنا فلم يتقبَّلْه عَوامُّ الناس ، وحملَهم الأنَفُ على أنْ خرَجُوا إلى عَجَلٍ أبطأَتْ فى ساقتهِ تحْمِلُ أزْوادَ عسكرِه يريدون نَهْبَها عاصِينَ للمَشْيَخَةِ ؛ فأُنْهِيَ إليه ذلك ، فصرفَ من أصحابه مِقْدارَ خَمسِمائةِ فارسٍ ثاروا فى وجُوهِ النَّاسِ ، فخرجَ البلدُ بأسْرِه لدفاعهم ، فحَمَلَ من الخَمْسِمائةِ قطعةٌ ، فولّى الناسُ الأدْبَارَ حتى اقتحَمُوا بابَ المدينةِ . فما رَأيتُ فى النَّصْرانيَّةِ يومئذٍ رجالاً مثلَ رجاله ، ولا فى مُلوكِ الطَّواغيتِ مَنْ أعْدِلُه به فى رَكَانَةِ مجلِسه ورُجُوليَّته ودَهْيِه وكَمالِ أدوَاته ، وصُدُوعِ كلماته ، إلاّ ما كانَ مِن صِهرِه وسَمِيِّه شانجُه بن غَرْسِيَةَ صاحبِ البَشْكُنش الذى تفرَّدَ بالرِّئاسةِ بعدَه فكانَ مثلَه ، بدَّدَ الله شيعَتَهم .

وكَانَ مِنْ أعظم ما حبَا اللهُ به الإسلامَ يومئذٍ عند مُنْبعَثِ فِتنَتِهم ، ومُحْدثِ

(١) ر : « نخرستها » — ب : « محاسبنها » ولعلها « نحسبتها »

فُرْقَتِهم ، وتَشْتِيتِ كَلِمتِهم ، بعد الدَّولة العامريَّة بأُفقِنا ، تعجيلُه حَتْفَ أملاكِ
النَّصْرانيَّةِ المتمرّسين بهم ، وتلاحُقُهم فى المدَّة القريبةِ ، وإلْقاؤه بَيْنَ مَنْ أَنْظَرَ
منهم الشَّتاتَ والعَداوةَ ، حتى صارُوا أُسْوةَ المسلمين حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعلِ ، فى افتراقِ
الكلمةِ وزَوالِ أمرِ المملكةِ ؛ فإنَّ الفتنةَ بأُفُقِنا جاءتْ يومئـذٍ بين المسلمين ،
٥ وزُعماءُ الطَّاغيةِ حُضُورٌ ، وفيهم عَدُوُّ الله شَانْجُه بنُ فَرْدِلَنْدَ الذى تمرَّضَ بالمنصورِ
ابنِ أبى عامرٍ رحمه اللهُ ذو العزةِ والسَّطْوةِ ، فأَعْيَا عليه حتى قَعَهُ ، وضربَ بعده
فَرِيقَى الفِتْنةِ ، ومالأَ الخَوارجَ على الجماعة ، حتى تمـكَّن من هَشْمِ البَيْضةِ ؛
وطَمَحَ أملُه إلى الـكَرَّة ، فقطعَ اللهُ بهم ، وأهْلَكَهُم فى مدَّةٍ قريبة .

ذِكْرُ الخَبَرِ عنْ مَقتَل مُنْذِر

١٠ قال ابنُ حَيَّان : وكان ذلك على يَدَىْ رجلٍ ماردٍ من بنى عمِّه ، يقالُ له
عبدُ الله بن حَكَم ، وكان مُقدَّمًا فى قُوّادِ مُنذِرٍ ، أَضْمَرَ الفتْكَ به دهراً ، فدخَلَ
عليه يومًا فى مَجْلِسه غُرَّةَ ذى الحِجَّة سـنةَ ثلاثين وأربعمائة وهو غافلٌ فى
غِلالةٍ ، ليسَ عندهُ إلاَّ نفرٌ من خَواصٍّ خدمِهِ الصَّقْلَبِ ، قد أَكَبَّ على كِتابٍ
يَقرؤه ، فعَـلَاهُ بسكِّين قد أعدَّه ، ففَرى به أوْدَاجَه ولا مانِعَ منه . وهَرب
١٥ خُدَّامُ السِّرِّ[1] الغِلمانُ الخِصيانُ ، الذينَ كانوا على رَأْسه ، وخَلَّوْهُ فى يَدَيْه ، إلاَّ
خادمًا شهمًا منهم مشَى إليه وهُو حاسرٌ ، فضربه عبدُ الله بخَنْجرِه فقضَى عليه
مع مولاهُ . وأَخْرَجَ رأسَ المنذرِ للوقتِ من قَصرِه فوقَ قناةٍ ينادَى عليه :
هذا جزاء من عَصَى أميرَ المؤمنينَ هشاماً ودفعَ حقَّـه ، يريدُ بذلكَ الرجلَ الذى
كان يُدْعَى له يومئذ بإشبيليَّة ، تعَاقُبًا من هذا الماردِ لوِلايته ، وتوطئَةً[2] لقيامه ،

(١) ب ، لب ، مه : « السوء » (٢) ب ، لب ، مه : « وتوطيدا »

إذْ كانَ هذا القتيلُ مِمَّنْ رَدَّ طاعةَ هِشامٍ تَأَسِّيًا بوالدِه يَحْيَى وبِخالِه إسماعيل ابنِ ذِى النُّونِ ؛ فنزلَتْ بسَرَقُسْطَةَ يَوْمَئذٍ حادِثَةٌ عظيمة ، وأَشرفَ أهلُها على فِتْنَةٍ شديدة ، واضطربتْ لها حالُهم ، وطمِعَ فيهم أكثرُ مَن كانَ يُجاورُهم ، وأذعَنُوا لِهذا الغَوِىِّ[1] المتوثِّب عليهم آنفاً ، ورَهِبُوه لاستِجاشَتِه الغَوغاء والسِّفْلَة ؛ فملَكَ البلدَ لنفسِه . ٥

وكان سُلَيمانُ بن هُود الجُذامِىُّ صاحبُ لاردَةَ وقتَه مُقيماً بتُطيلَةَ بجَمْعِه ، فسارَع إلى سَرَقُسطةَ ساعةَ سَمِعَ بِخَبَرِ مُنْذِرٍ رَجاءَ فى دُخولها ، فمنعه هذا الفتى القاتلُ ، ثم جاءَه إسماعيلُ بن ذِى النُّون خالُ مُنذرٍ مُمْتَعِضًا لِما جرَى عَلَى ابن أُختِه ، فامتنَعَ ابنُ حَكَمٍ بالقصبَةِ ، واتَّصلَتِ الفِتْنَةُ ، ونالَ أهلَ سَرَقُسْطةَ يومئذٍ جَهْدٌ شديدٌ وخَرِبَتْ أَحْوالُهُم . ١٠

قال ابنُ حَيَّان : وكان رَكِبَ ابنُ حَكَمٍ القاتلُ من خُطَّة التقديرِ مَركبًا لم يَجْسُرْ عليه فاتِكٌ قبلَه لتفرُّدِه ووُثُوبِه على الأميرِ مُنْذِرٍ جَوْفَ قَصْرِه فى قَرارةِ مَجلسه بينَ غِلْمانه وأهلِه وتحت أَغْلاقِه ، وبَيْنَه وبينَ البابِ الأقْصَى من قَصرِه مالا يُحْصَى من حُجَّابِه وقَهارِمَتِه ؛ فلم يفكِّرْ فى شىءٍ منْ ذلكَ ، وحَمل نفسَه على التَّصْميمِ فيه ، وهوَّن عليْها الموتَ دونَه ؛ فلمَّا تمَّ له ذلك لم يكُنْ فِى الخِصيانِ العِبِدَّى الذين حضَروا مَجْلِسَ مُنْذِرٍ ساعَتَئذٍ فَضلٌ للدِّفاعِ عنه والوُثوبِ بابنِ حَكَمٍ ، على كثرتِهِم وتفرُّدِه وَسْطَهم ، وأنَّهم لم يزيدوا على الهرَبِ قُدَّامه ، فجاء بِفَتْكَةٍ أَسقطَتْ كلَّ من فتَكَ فى الإسلامِ قبلَه ؛ ثم لحِق طمعُه برِياسةِ المُلكِ فملَكَهُ ، ولم يفكِّرْ فى ابنِ ذِى النُّون خالِ مُنْذِرٍ لَمَّا دنا إليه . وفعلَ ذلكَ بسُلَيمانَ بنِ هُود ، وقد جاء ناشراً أُذُنَيْه ، فحاربَهُ ودافعَه . وكانَ فِى قصرِ مُنْذِرٍ ١٥ ٢٠

(١) ب ، لب ، م : « العربى »

وقْتَ فتْكِهِ بهِ من حاشِيَتِهِ وغِلمانِهِ أَزْيدُ منْ مائةِ رجلٍ سِوَى نسائِهِ ؛ فطارَ الرِّجالُ على وُجوهِهِمْ فزَعًا، ولم يكنْ فيهم مَن يأخُذُ على يدِه، وقامَ بينهُم كالأسَدِ الوَرْدِ، فحزَّ رأسَ الفتَى مُنْـذرٍ للوَقْتِ، وأخْرجَه إلى الناسِ، فهمَّتْهُم أنفُسُهم وأُبْلِسُوا، ولم ينطِقْ منهم أحَدٌ بكلمة.

٥ وأرسَلَ من حينِه، يستَدْعِي قاضيَ البَلَدِ والمَشْيخَة، فدخلُوا عَليْه وهو قاعدٌ على فِراشِ مُنذرٍ قتيلِه، ومُنذرٌ إلى جانبِ الفِراشِ مُزَمَّلٌ[1] في دِمائه، مُغطًّى بثِيابه؛ ووَصَفَ أنَّهُ جَرَى في سبيلِ الإصلاحِ عليهِم، والشَّدِّ لسُلْطانِهم، وتقَدَّمَ إليهم بتَسْكينِ مَنْ خَلْفَهُم من العامَّةِ ؛ وأظهرَ الدعاءَ أوَّلاً لسُلَيمانَ بنِ هُود، فأرَوْهُ قَبولَ ما وصَفَه، وتَفرَّقُوا عنهُ، وكلمتُهم مختلفةٌ عليه، إلى أن

١٠ ثارُوا بهِ وقاتَلُوه؛ فخَرَجَ من بابٍ بظَهْرِ القَصر، ونَجا منْه بفاخرِ ما اشتمَلَ عليهِ من ذَخائرِ آلِ مُنذرٍ، ولَحِق بحِصْنِ رُوطَةِ اليَهُود، أحَدِ مَعاقلِ سَرَقُسْطَةَ المنيعةِ، وقد كان أعَدَّهُ لنفسِه، فأقامَ به يرَصُدُ الفِتْنةَ جَهْدَه. وكان قد حَمَل مع نفسِه الغُلامَيْنِ أخَوَيْ مُنْـذرٍ قَتيلِه، وحَمَلَ أبا المُغيرةِ بنَ حزمٍ وزيرَه وغيرَهم من وجوهِ رجالِ مُنْـذرٍ الَّذين نكبهُم عند قتلِه مقيَّدين، فحبَسَهم عنـدَه،

١٥ يُطالِبُهم بالأَموالِ.

ونَهَبَ العَوامُّ قصرَ سَرَقُسْطَةَ إثْرَ خُروجه نَهْبًا ما سُمِعَ أعظمُ منه، حتى قلَعُوا مَرْمَرَه، وطَمَسُوا أثرَه، لولا تَعجيلُ ابنِ هُودٍ مِلْكَ البَـلَدِ إثْرَ ذلكَ في المحرَّمِ سنةَ إحدَى وثلاثين وأرْبَعِمائة. انتهى كلامُ ابنِ حيَّان.

قال ابنُ بَسَّام: وأذكُرُ بهذه الغَدْرةِ الصَّلْعاء، والفَتْكةِ الشَّهيرةِ الشَّوْهاء — إذِ الشيءُ يُذكَرُ مع ما جانَسه، ويُضَمُّ إلى ما الْتفَّ به ولابَسه — ما اتّفق

٢٠

(١) م: « مرسل »

من مِثْلها فى مُلْكِ المَنادِيِّين[١] الغالبين إلى وقتنا هذا على طَرَفِ إفريقيةَ الأَدْنَى إلى الأنْدَلُس ، المستقرَّةِ رياستُهم بقَلْعتِهم المنسوبةِ إلى جَدِّهم حَمَّاد ؛ وذلكَ أنّه لمّا أفضى مُلْكُهم إلى بُلُقِّين بن محمَّدٍ منهم ، أحَدِ جبابرةِ الإسلام ، المفْتاتِين على الأنام ، من رَجُلٍ كانَ لاَ يملأُ يدَهُ إلاَّ مِنْ لِبْدَةِ أَسَد ، ولا يُسَرِّحُ لحظَهُ إلا فى نِهابِ بَلَدٍ مُضْطَهَد ، ولاَ يُراحُ إلاَّ وبحْرُ الموتِ يلتطِم ، ولاَ يكلِّمُ إلا حينَ يبتسِم ، قد تجاوز فى شُذُوذِ[٢] أُمْنِيَّته ، وقَهْرِه لرَعِيَّته ، والإخافةِ لأقرانه ، والاسْتِبْدَادِ على زَمانه ، غايةَ مَن سلَفَ مِن جَبابرةِ الأرض ، وسُمِعَ به من فراعِنةِ الإبْرامِ والنَّقْض ، إلى شُهْرَةِ آثارِه ، وتَطاوُحِ[٣] أسفاره ، وما لا يحصَى مِن عجائبِ أخْباره .

حُدِّثْتُ أنَّهُ آبَ مرةً من بعضِ غزَواتِه الأفراد ، المُقَلْقِلَةِ[٤] لأحشاءِ الأنامِ والبلاد ؛ فكأنَّه ارْتاحَ إلى ما يرتاحُ إليهِ النـاسُ من إراحةِ نفسه ، والخَلْوَةِ ولو ساعةً بوجْهِ أنْسِه ؛ فجلسَ لذلك مجلساً حَشَد له شهَوَاتِه ، وتَقَدَّم فى إحضارِ ما يَصلحُ له من آلاتِه وأدواته ؛ وأمرَ قيِّمةَ جواريه باستحضارِ عقيـلةِ أتْرابِها يومئذٍ جَلالةَ سُلْطان ، وحُسْنَ سَماعٍ وعِيان ، إحدى بنات عمِّه دِنْيا ، لم يُرَ بعدها — زَعَموا — ولا قبلها أبرعُ ظَرْفاً ، ولا أقتلُ طرفاً منها ؛ فجاءت تودُّ الثُّرَيَّا لو تكونُ نعلَها ، والشمسُ لو تُصَوَّرُ مثلَها ، وقد خَطَرتْ بنفسـهِ إحْدَى هَناتِه ، وتَمثَّلتْ له بعضُ غزَواتِه ؛ فأخذ يُدِيرُ ويدبِّرُ ، وطفِق يُوردُ ويُصْدِرُ . قالت قيِّمتُه : وكأنّى أنظرُ إلى الكاسِ فى يده ، وإلى ابنةِ عمِّه قائمةً على رأسِه ، من لَدُنْ صُلِّيَتِ العصرُ حتى طَلَعَ الفَجْر ، وحانت منه بعد طُولِ ليلتِه نظرةٌ فرآها ،

(١) يعنى بنى زيرى بن مناد ملوك إفريقية والمغرب

(٢) ب ، لب : « شرود » (٣) ب ، لب ، ى ه : « وتطارح »

(٤) ب ، لب : « المقلقة »

فاعتذرَ إليها واستدْناها ، ووعَدها ومنّاها ، وقام من حينِه فوضعَ الكأسَ ملآى
فى طاقٍ وطبعَ عليها ، وأمر بالرُّكوبِ من حينِه ، فغزَا غزوتَه المشهورةَ إلى
الغربِ من العُدْوَةِ ، بلغ فيها مدينةَ فاس ، فوطِئَ الدّوَل ، ودوّخ السهلَ والجبل ؛
ثم رجع فجلَس ذلكَ المجلسَ بعينِه ، واستدعى كأسَه تلكَ وابنةَ عمّه ، فخلا بأنسِه ،
٥ وقضَى وطرَهُ مِنْ لذّةِ نفسِه ، بعد أيّامٍ كثيرة ، وحُروب مُبيرة .

ولمّا تناهَى أمرُه ، وتجاوزَ السُّها ذِكرُه ، وظَنَّ أنَّ البلادَ تحتَ خَتْمِه ،
وأنَّ الناسَ على حُكْمِه ، سَمَا إليـهِ فى بعضِ أسـفارِه ابنُ عمّه الناصر ، أصغرُ
خلْقِ اللهِ عندَه شانا ، وأهوَنُهُم عليهِ سرًّا و إعلانا ، من فتًى علّمه الخوفُ كيف
يجسُر ، وهجَم به ضِـيقُ المَسلكِ على الموت وهو ينظرُ ، لم يشاوِرْ إلا الحُسام ،
١٠ ولا استَصحبَ إلاّ الإقدام ؛ وقد كان بعضُ نُصحَاء بُلُقّينَ خوّفَه منه ، لِكلمةٍ
أُخذتْ يومئذٍ عنه ، فجعلَها بُلُقّينُ نُقْلَةَ[1] رِكابِه ، وسَمَرَ أصحابه . وكان قلّما
يرْكبُ إلاّ دارِعا ، آخذًا بما يأخُذُ به من ذُعْرِ القُلوب ، ووِتْرِ البعيد والقريب ؛
وكان مُولعًا بالإدلاجِ إذا ارتَحل ، مؤثِرًا للانفِراد كلما ركِبَ ونَزل ؛ فأقسمَ
تلكَ الليلةَ ألاّ يُدْلِـجَ إلا حاسِرا ، وليَقتُلَنَّ الناصرَ إذا نزلَ ولو كانَ أسَدًا خادِرا ؛
١٥ فأعجلَه عنِ الأمْرِ ، ولمّا يبدُ وَضَحُ الفَجر ؛ لقِيَهُ كأنّه يُسلِّمُ عليه ، أو يَسيرُ بين
يدَيْه ، فما راجعَه الكلام ، إلاّ وقد جلّله الحُسَام ، وأراح منه البلادَ والأنام ؛
ثم قام مَقامَه ، واستظلَّ أعلامَه ، وأمَر برأسِه فرُفِـع عَلَى بَعْضِها وسِيرَ به أمامَه ،
والناسُ يظنُّونَ أنَّ بُلُقّين ، قد قتَل بعضَ أتباعِه المتحنِين ، فهُم يتساءلون عمّن
قتَل ، ويرْجُمون الظّنَّ فيما فعَل ، حتى طَلَعتِ الشـمس ، وارتفَع اللّبْس ؛ فأمر
٢٠ برَفعِ مَضارِبِه ، وحَشْرِ زُعَماءِ ذويه وأقارِبِه ، فقال : أنتم تعلمُون أنَّ بُلُقّين

(١) لب : « تعله »

قَتَلَ أُخْتِى ، وفَجَعَنِى بأكرمِ حُرْمَتِى ؛ وإنّما شَفَيتُ صَدْرى ، وأخذتُ بِوَتْرى ، لا أَنِّى حدَّثتْنى نفسى بسلطانِكم ، ولا رأيتُنى أهلاً للدُّخولِ فى شىء من شأنِكم .
فرَدُّوا عليه جميلا ، ورأوا إمهالَه قليلا ، وظنُّوا أنه لم يجسُرْ على ما فعلَ إلاّ وله أشياع ، وحولَه أعوانٌ على ذلكَ وأتْباع ؛ فكلٌّ واحدٍ منهم قد ارتابَ بِمَنْ يليه ، وأهمَّه ما هُو فيـه ؛ وأمرَ لحينه بخزائنِ بُلقّين فأَنْهَبَها ذُؤْبانَ العربِ وصُقُورَةَ زناتَة ، فاستخلصَ بذلك غُيُوبَهم ، وأمالَ إليه قلوبَهم ، ورَحَلَ تحت ليلته يَطْوِى المَراحِلَ ، ويَعْتَسِفُ المجاهِلَ ، فسبقَ الأَخْبارَ إلى القَلْعة فوطِئَ الحَرِيمَ ، وتملَّكَ الظّاعِنَ والمُقيم .

فَصلٌ فِى ذِكْرِ الوزيرِ الكاتبِ أبى عامرٍ أحمدَ بن عبدِ الملكِ ابن شُهَيْد ، وسياقةِ جُملةٍ وافرةٍ مِنْ نَظْمِهِ ونَثْرِه .

قال ابنُ بسّام : وكان أبو عامرٍ شَيْخَ الحَضْرةِ العُظمى وفتاها ، ومَبدأَ الغايةِ القصْوى ومُنْتَهاها ، ويَنْبوعَ آياتِها ، ومادَّةَ حياتِها ، وحقيقةَ ذاتِها ، وابنَ ساستِها وأساتِها ، ومعنى أسْمائِها ومُسَمَّياتِها ، نادرةَ الفلَكِ الدَّوَّار ، وأعْجوبةَ اللّيلِ والنّهار ؛ إنْ هَزَلَ فسَجْعُ الحَمَام ، أو جَدَّ فزئيرُ الأسَدِ الضِّرْغام ؛ نظمٌ كما اتَّسقَ الدُّرُّ على النُّحور ، ونَثْرٌ كما خُلِطَ المِسكُ بالكافُور ؛ [(١)] إلى نوادرَ كأطْرافِ القَنا الأُمْلُود ، تَشُقُّ القُلوبَ قبلَ الجُلُود ، وجوابٍ يجرِى مَجْرَى النَّفَس ، ويَسْبِق رَجْعَ الطَّرْفِ المُختلَس [(١)] .

وقد ذكره أبو مَرْوانَ ابنُ حيّان فى غيرِ ما مَوضعٍ مِنْ كتابه فقال : كان أبو عامرٍ يَبلُغُ المَعْنَى ولا يُطيلُ سَفَرَ الكَلام ، وإذا تأملته ولسَنَه ، وكيف يجرُّ

(١ — ١) ليس فى ب ، ط

فى البلاغةِ رَسَنَه ، قلتَ عبدُ الحميدِ فى أوانِه ، والجاحظُ فى زمانِه . والعَجَبُ منه أنه كانَ يدعُو قريحتَه إلى ما شاء من نثره ونظمِه فى بديهتِه ورويّتِه ، فيقودُ الكلامَ كما يُريدُ من غيرِ اقتناء لِلْكُتُب ، ولا اعتناء بالطَّلَب ، ولا رُسوخٍ فى الأدب ، فإنه لم يوجَدْ له — رحمه اللهُ — فيما بلَغنى بعدَ موتِه كتابٌ يَستعينُ بهِ عَلَى صناعتِه ، ويَشحَذُ مِنْ طبْعِه إلاَّ ما لاَ قدْرَ له ؛ فزادَ ذلك فى عجائبِه ، وإعجازِ بدائعِه . وكانَ فى تَنميقِ الهَزْلِ والنادرَةِ الحَارَّةِ[1] أقدرَ منه على سائرِ ذلك . وشعرُهُ حَسَنٌ عند أهلِ النَّقْد ، تَصرَّفَ فيه تصرُّفَ المطبُوعين ، فلم يُقصِّرْ عن غايتِهم .

وله رسائلُ كثيرةٌ فى فُنونِ الفُكاهةِ وأنواعِ التَّعريضِ والأَهْزال ، قِصارٌ وطِوال ، برَّزَ فيها شَأْوَه ، وبَقّاهَا فى الناسِ خَالِدةً بعدَه . وكان فى سُرعةِ البديهةِ وحُضورِ الجَوابِ وحِدَّتِه ، مع رِقَّةِ حواشى كلامِه ، وسُهولةِ ألفاظِه ، وبَرَاعةِ أوصافِه ، ونزاهةِ شمائِلِه وخلائقه ، آيةً مِنْ آياتِ اللهِ خالقِه ؛ [2]مِنْ رَجُلٍ غَلَبَتْ عليه البَطالةُ فلم يحفِلْ فى آثارِها بضَياعِ دِينٍ ولا مُروءة ، فَحَطَّ فى هواهُ شديدًا حتى أسقَطَ شرفَه ، ووهَّمَ نفسَه راضيًا فى ذلك بِمَا يَلَذُّه ، فلم يُقصِّر عن مُصيبة ، ولا ارتكابِ قَبيحة[2] .

وكان مع ذلكَ مِنْ أصحِّ الناسِ رأيًا لمن استشاره ، وأضلِّهم عنْهُ فى ذاته ، وأشدِّهم جِنايةً على حالِه[3] ونِصابه . وكان له فى الكَرَم والجود انْهِماكٌ ، معَ شَرَفٍ وبِطَالَةٍ ، حتَّى شارفَ الإمْلاق ، فمَضَى على هذهِ السبيلِ رحمهُ الله . انتهى كلام ابن حيَّان .

---

(١) ب ، لب ، ه : « الحادة » (٢—٢) ه فى ر ، ه

(٣) ب ، لب : « ماله »

قال ابنُ بَسَّام : وقد أخرجْتُ من أشعاره الشاردَة ، ورسائله الباقيةِ الخالدَة ، ونَوادِرِه القِصارِ والطِّوال ، وتَعريضاته السائرةِ سَيْرَ الأمثال ، ما يَحلُّ له الوَقورُ حُبَاه ، ويحِنُّ معه الكبيرُ إلى صِبَاه .

جُملةٌ من كلامهِ فى أوصافٍ شتَّى

فصولٌ من رُقعةٍ خاطبَ بها المؤتمَنَ عبدَ العزيزِ بنَ عبدِ الرحمن ابنِ أبي عامرٍ : ٥

لَوْلَا أنَّ من العادةِ بين السادةِ والمَسُودِين ، والمالِكةِ والمُتملَّكين ، تطارُحَ الأُدْمَة ، وتَدَارُسَ لَطائفِ الحُرْمَة ، لأَكبرتُه — أيَّدَه اللهُ — عمَّا أرغبُ ذِكْرَه ، وأكرمتُه عما أطلبُ نَشْرَه ؛ ولولا أنَّ من السياسةِ وعقدِ الحزامة تذكيرَ أهل العَلْياء ، بِسَوالفِ النَّعْماء ، لَرَبَأْتُ بما بَنَتْه الآباءُ والأَجداد ، وضَرَبتُ بَيْنَه وبَيْنَ الآفاتِ بالأَسْدَاد ، عن أنْ أُحْرِزَ مِنْهُ بتذْكير ، أو أَدفعَ عنْهُ بتقدير . ١٠ ولولا أنَّ التَّطويلَ فيما أقصِدُ قصدَه وأنْحُو نَحْوَه على زَمَنِنا وشاغِلِه ، ومُجِدِّ خطبِنا وهازِلِه ، موجِبٌ للقوْلِ ومُوجِدٌ للسَّبيل إلى الطَّعْنِ مِمَّنْ ضَعُفَ حِجَاه ، وقصَّرَ به مَرْمَاه ، لرَسمتُ إليهِ مِنَ الوَرَق ، أعدادَ الوَرِق ، ولرقَمْتُ إليه مِنَ المَهارِق ، أشْباهَ النَّمارِق .

وفى فَصْلٍ أيضاً : ١٥

وأقلُّ ما أَمُتُّ به ، وأَنطِقُ عنْه ، مُمْتَدَّ عِنانِ الأَمل ، كارعًا فى بَحْرِ الرَّجاءِ لا الوَشَل ، مِن مَوَاتِّى بالمنْصورِ جدِّه — رضِيَ اللهُ عنهما — أنِّى نشأتُ فى حِجْرِه ، ورُبِّيتُ فى قَصْرِه ، وارتَضعتُ ثَدْىَ كَرَائمِه ، واعتجرتُ رِداءَ[1] مكارمه ؛ واغتذَيْتُ مِنْ فيهِ ، أكْلاً زقَّنيه ، ومَاءً عَلَّنيه ، فصرتُ من أفراخِ نَعْمائهِ الحُمْرِ الحَواصِل ، ولحقْتُ بأُخُوَّةِ أبنائه الغُرِّ العَباهِل . ٢٠

(١) ب ، لب ، وه : « برد »

ومِنْ مَوَاتِّى بالمُظَفَّرِ عمّه — عَمّته رحمةُ الله — أنَّ أَبِى عَبْدَ مِنِكُم لمَّا بعُدَ أملُه ، وبانَ خُشوعُه ، وسالَتْ دُمُوعُه ، نَكَّبَ عَنْ طريقِ أهل الدنيا ، وَرَمَى مَرْمَى من مَرَامِى أهلِ الأُخْرى ، فكَسَرَ هِمَّتِى ، وحَلَقَ لِمَّتِى ، وسلَبَنى بَزِّى ، وعَرَّانِى من خَزِّى ، فكانَتْ أفدحَ نازلةٍ نزلَتْ بصَبْوَتِى ، وأقلقَ حادثةٍ سلَبتْ رَونَقَ بَهجتى ؛ وأنا إذ ذاكَ ابنُ ثمان ، قد هَجَنْتُ فى مَدارِعِ الكتّان ؛

٥

ولَقِيَنِى الوزيرُ ابن مَسلَمة وقد عاد أبى إثْرَ إبْلاَل ، وعندَ نُقُوهِهِ من اعتِلال ، فسألنى عنِ الحال ، وعما شَغَلَ البال ، فلم يكُنْ جوابى غيرَ النَّشيج والعجيج ، وسوى العَوِيلِ والضجيج ؛ ولَقِىَ المظفّرَ على حينِه ، وأدّى إليه ما شاهدَ منّى ، فوجَّه عنّى ، فلما صِرْتُ بين يدَيْه ، أمرَ بِى فأُلبِستُ ثيابَ الحرير ، وضُمِّخْتُ بنَفَّاحِ العَبير ، وحُمِلتُ على فرسٍ بسَرْجه ولجامه ، ينهَلُ مِنْ أعطافه ماءُ جمامه ، وأتبَعَ ذلكَ ألفَ دينارٍ فى طَبَق ، كأنها عيونُ النَّرجسِ الصُّفْرُ الحَدَق ، وعَقَدَ لى على الشُّرْطة ، وكانت لسِنِّى أرفعَ خُطّة ، فانصرَفتُ وأنا أنظرُ عِطفى عن شَوَس ، وقد ضاقَ صَدْرى على أبِى عنْ سَعَةِ نَفَس .

١٠

ومِنْ مَوَاتِّى بالنّاصِرِ أبيه — بَرّدَ اللهُ مضجعَه ، ونعّمَ مَهْجَعَه — أنّى صِرتُ بين يَدَىِ المنصُور ، فى يومٍ مَطِير ، وأنا ابنُ خَمْس ، أذْكُر ذلك ذِكْرى لما كانَ بالأمْس ، وكانَ مِنْ إكْرامِه لى ، ولَطيفِ اهتمامه بى ، مَا يطُولُ به الكتاب ، ولا يحتملُه الخِطَاب . وعَيْنُه ومَحضُه ، وصَريحُه وزُبْدُه : أنّه وَهَبنى يومًا تُفّاحةً كانت بينَ يَدَيْه كبيرةً ، ورآنى أنظرُ إليها نظرَ الكَلِف ، وأتأمّلُها تأمُّلَ الشَّرِه ، فأمَرَنى بالقَبْض عليها ، والعَضِّ فيها ، فضاقَ فَمِى عنْ أنْ أُحيطَ بجُزءٍ من أجزاء كُرتها ، وصغُرَتْ كَفِّى عن أن تقبضَ إلاّ بمَخْنَقٍ من مَخانقِ أنحائها ، فجعلَ يَقْطَعُ لى بفَمه ، ويطعِمُنى على حُكْمِه ؛ ودعا الناصرَ ، ومعَهُ

١٥

٢٠

فتىً سمعتُهم يكنونه أبا شاكر[1] ، فقال له : احْمِلْهُ إلى أُمِّك ، وارفُق به فى أَمّك ؛ فأَخذا بيديَّ أمامه ، وابتدرا يسيران بى قُدَّامه ، وأنا لا أُسْمِحُ فِى القِيادِ لشِدَّة ذلك الوَابِل ، وتتَابعِ قطرِ ذلكَ الهاطِل ، فصاح بهما : أَقِلاَّه فاحْمِلاَه على أعناقكما ، وسُوقَا به سَوْقاً رفيقاً أحسنَ مساقِكما . فلفَّا أعضادَهما لفًّا ، ووصَلاَ أذْرُعهما بأعناقِهما وَصْلا ، وامتطيتُ العاتِقَ الكَرِيم ، على عينِ الملكِ الزَّعيم ، امتطاء امْتِنان ، لا امتطاءَ امتِهَان ، ومرّا بِى حتَّى أَنْزَلانى بين يَدَيِ السَّيِّدَة ، وإليْها أمْرُ كلِّ قَيِّمَةٍ ؛ فاستوتْ بِى عَلَى سَرِيرها ، وعلَى مَفْرِقِها إكليلٌ من مَهابةِ أميرِها ؛ فلا أنسى ذلك البهاء فى ذلك البَهْو ، وذلكَ الحُسُورَ إلىَّ مِنْ قِناعِ الزَّهْو ؛ وطارَ الخبرُ بقدُومِى فى مقاصيرِ العَقَائِل ، وحُجُراتِ الكَرائم . فأرقلْنَ من تلكَ المَصانع ، تطيرُ بهنَّ أَجْنِحةُ الصَّنائِـع ، فيا لهَا من كُسًى وخِلَع ، وغرائبَ وبِدَع ! وأَمرَت السَّيِّدةُ بألفٍ تُحْمَلُ معى عن نَفْسِها ، وثلاثةِ آلافٍ عن سَيِّدِها ؛ فانْصرَفتُ بالغِنَى ، من ذَلِكَ الجَنَى ، ولم أُصْرَفْ إلى المنْصُور حتَّى صِرتُ عندَ أبِى ، وقد ظَنَنْتُ أنَّه متجافٍ عنهُ لى ، أو تاركٌ منه مَعِى ؛ وكانت لى فيهِ آمالٌ من التوزيع على الخَدَمةِ والعُمّالِ من الصِّبْيان وصَبَايا الجيران . أمر ففرَّقَ منه عَلَى بِطانَتِه ، وأشار بِحَمْلِ باقيهِ إلى خِزانتِه ، فظَلِلْتُ واجِما ، وطَفِقْتُ راغِما ، أُطْفِئُ من جَمْرَتِى فتذكو ، وأُخفِى مِنْ لَوْعتِى فتبدو . وبلغ ذلك المنصورَ ، فوجَّه نَحوِى بِخَمْسِمِائة دينار ، وأقسم عَلَى أبِى بحياته ألاّ يمنعَنى منها ، وأنْ يَدَعَنى بحُكْمِى فيها ؛ فبادرتُ بالرَّكْبِ والرَّجْل ، وأخذتُ فِى البَذلِ والعَطاء ، وحبَوْتُ بأجزلِ الحِبَاء ، والخَيْلُ إذ ذاك نُخَبٌ من قَصَب ، والدَّرَقُ قُشُورٌ من خَشَب ، فيَوْمِى مذكورٌ فى مُنْيَةِ المُغيرَةِ إلى الآن ، إذ كان مسكنُنا بدار ابنِ النُّعْمان .

(١) ب ، لب : « يدعونه بشاكر »

وأغربُها ماتّة ، وألطفُها وُصْلة ، أنّ أخى موسى انتزعه المنصورُ من أبيه ،
وأحلّه محلّ بَنيه ، فاجتمعت الأفواهُ على الثّدىّ ، والتقت الشّفاهُ على الدَّرِّ المرِىّ ؛
وقبَضه اللهُ إليه وقد رَتع فى مَراتِعِكم وجَثم فى مضاجعكم ، فنحن عُمّارُ مَقاصِرِكم
أحياء ، وقُطّانُ مَقابرِكم أمواتا ، جمعْنا بذلك عِشْرةَ العاجلةِ والآجلة ، وحصلْنا
٥ على صُحْبَةِ الدُّنيا والآخرة .
هذه — أيّدَه الله — لُمَعةٌ أبديتُها لَهُ من وَصائلى ، وغرةٌ أطلَعْتُها إليه من وَسائلى .

وفى فصل :

ومملوكُك عاكفٌ على الوطَن ، عُكوفَ الراهب على الوثَن ، ولم يَبقَ من
النّعمة غيرُ مُصاصةٍ بَلّةٍ[1] قد آنَ لها أنْ تُرْتَشَف ، وتفاهةِ ثَمرةٍ قد حان لها أن
١٠ تُخْتَرف ؛ وعرّجَ لِمآله ، والنّظرِ لعاقبةِ حاله ، على استخراج ما يمكنُ مِنْ أُصُولِ
نعمتِكم ، ليصونَ بها جُمّةً[2] وَجْنته ، ويَفِرَ عليها نُطْفةَ صفحته ، إذ لا سبيلَ إلى
التعريجِ على غير ذلك قطْعا ، ولا إلى الالتِباسِ بسِواه حتْما ، ولو لَحس التّراب ،
وذابَ فى الثّياب ، فإنّه يتنفّسُ عن نفْسٍ هِمّتُها الكوكب ، وهمُّها الغيْهب ؛
فلولا هِمّتُها لأظلَمَ الدّهر ، ولولا همُّها لأسفرَ الأمر ؛ وهذا موضِعُ الحَدْسِ لا امْتِراء ،
١٥ وخَليقةُ النّفْسِ لا ادّعاء ! ووعدَ الوزيرُ عباسٌ بصَرْفِ ضَيْعةٍ لى بجهةِ تُدْمِير ،
حالَت الفِتَنُ دونَها ، واضطرابُ الأحوالِ عنْ مطالعتِها . وأنا أسألُ فضلَك سؤالَ
المدِلّ فى استنجازِ ما وَعَد ، فإنه يَعْتاضُ من شكرى له ، وثنائى عليه ،
وصَدْعِى فى المحافلِ بفضلِه ، أجلَّ فائدةٍ يَصطفيها ، وأكرمَ نَفيسةٍ يقتنيها !

وأصْلُ اصطفائنا لتلكَ الضّيْعةِ وسائرِ أخواتِها أنّ المنصورَ — رضى الله
٢٠ عنه — استعملَ أبِى عَبْدَه على تلك الجِهةِ الشرقيّةِ تِسعةَ أعوامٍ توالَتْ بتُدْمِيرَ
وَبَلَنْسِيَةَ ، فلمّا سئِمَ العملَ خاطبَه برُقْعةٍ يقولُ فيها :

(١) ى : « ملة » (٢) ى : « ماء »

إنَّ كبيرَ حقِّ المولَى لا يذهَبُ بصَغيرِ حقِّ العبد ، ولى حُرمةٌ أُدِلُّ بها ، وذِمَّةٌ أنبَسِط لها ، وقد طالتْ عَلَيَّ الغربة ، وسئمتُ الخِدْمة ، ومَلِلْتُ من النِّعْمة ، فالإدَالَةَ الإدَالة ، فأدالَه — رضى الله عنه — عَلَى رِضَاه ، وأشخصَه إليه على هَوَاه ؛ فوَرَدَ قرطبةَ بأرْبَعمِائةِ ألفِ دينار نَاضَّةً ، ومائةِ ألفٍ منْ ذهبٍ آنيةً ، ووثائقِ خمسمائةِ زوجٍ مُكْتَسَبَةً ، ومائتىْ نَسَمةٍ من رقيقِ الصَّقَالِبِ مُنْتَقَاةً ، والسِّعْر إذ ذَاكَ بها سَامٍ جِدًّا ، ونفقةُ أبِى رأسَ كلِّ شهرٍ سبعونَ مُدْيًا من قَمْحٍ ، وعَلَفُ ثمانينَ دابَّةً مِنْ شَعير . فكَتَب إليه يعرِض عليهِ ما جاءه به ، ويُحكِّمه فيه ، ويسأله أخْذَه ، أو الأَخْذَ منه ، فجاوَبه يقُول : لو أردنَا أخذَ ما أعطيناكَ ، ما قدَّمْنَاك ، ونحنُ نخافُ أن تَسْتَصْفِيَ نَفَقَتُك ما اسْتَفَدْتَه ، وتأتِيَ عَلَى ما اجْتَلَبْتَه ، بارتفاعِ ثمنِ الطَّعام ، وأنَّكَ لم تَرِدْ منه على ذَخِيرَة ، وقد صَكَكْنَا لكَ بألفَىْ مُدْى بشَطْرَيْن من قَمْحٍ وشعيرٍ تَسْتظهر بهما على زَمانِك ، فاقْبِضْهَا من أهْرَاءِ فلانَة لقُرْبها من مكانِك ، إن شاء الله .

مَكْرُمةٌ — أعزَّ اللهُ المؤتَمَنَ — لم تُعْهَدْ لغيْرِ عامِرِيّ ، ولا سُمِع بمثلِها لغيرِ مَعَافِرِيّ ، ولمَّا عزَّ الخطَاب ، ووقَعَ الكِتاب ، وكان عَبْدُك منسوبًا إلى شىءٍ من نَظْمِ الكلام ، قال على كَلَّةِ الذِّهْن وفَلَّةِ الغَرْب بالحال ، وشُغْلِ البَال ، ما عَلِم وفهِم :

أمَّا الرِّياحُ بِجَوٍّ عَاصِمْ ... فَحَلَبْنَ أخْلافَ الغَمَائِمْ

يقول فيها :

سَهِرَ الحَيَا بِرِيَاضِهَا ... فأَسَالَهَا والنَّوْرُ نَائِمْ
حتى اغْتَدَتْ زهَرَاتُها ... كالغِيدِ باللُّجِّ العوائِمْ
مِنْ ثيِّبَاتٍ لَمْ تُبَلْ ... كَشْفَ الخُدودِ ولاَ المعَاصِمْ

وصِغَارِ أبْكارٍ شَكَتْ   خَجَلًا فعـاذَتْ بالـكمائِمْ

وَرْدٌ كَمَا خَجِلَتْ خُـدُو   دُ العِينِ من لَحَظاتِ هائِمْ

وشَقِيقُ نُعمانٍ شَكَتْ   صَفَحاتُه من لَطْمِ لاطِمْ

وغُصونُ أشْـجارٍ حَكَتْ   رَقْصَ المآتِمِ للمـآتِمْ

٥ بَكَرَ الحِسانُ يَرِدْنَهـا   من كلِّ واضِحةِ الملاغِمْ

وضَحِكْنَ عُجْبًا فالتَقَتْ   فيهـا المباسِمُ بالمباسِمْ

ضَحِكَتْ وأوْمَضَ(١) بارقٌ   فظَلِلْتُ للبَرْقَيْنِ شـائِمْ

وتَشَـوَّفَتْ فتطامَنَتْ(٢)   أجيـادُ أظْبِيها الحوائِمْ

ورَنَتْ فبـادَرَ نَرْجِسٌ   يَشْكُو عَمـاهُ إلى حمائِمْ

١٠ طَـارَدْتُهُنَّ بِفِتْيَـةٍ   جُرْدٍ على حَرْبِ المُسالِمْ

وكأنَّني فيهـمْ لَقِيـ   طٌ قادَ مِنْ أحْيَـاءِ دارِمْ

وتَكاوَسَتْ فيهـا الأبا   رِقُ وهْيَ فاهِقَـةُ الحلاقِمْ

وكأنَّهـا أظْبٍ رَعَفْـ   نَ قُتِرْنَ دامِيَةَ الخياشِمْ

وجَرَى بِها فلكُ الصِّبا   باللّهوِ ، والقُضُبُ اللّوائِمْ

١٥ وكأنَّنا فِيهـا العَفا   رِيتُ والكُئُوسُ مِنَ الرَّواجِمْ

وعَلَا بِنـا سُكْرٌ أبَى   إلّا الإنابَةَ للمحـارِمْ

نَرْمِي قَلَانِسَـنَا لَهُ   ونَجُرُّ من عَذَبِ العمائِمْ

وتَرَنَّمَتْ فيهـا القِيا   نُ لَنا ورَجَّعَتِ البَوَاغِمْ

قُمْنـا نُصَفِّقُ بالأكُفِّ   لهـا ونَرْقُصُ بالجماجِمْ

٢٠ وأغَنَّ مِنْ سَـدَنِ الملو   كِ سَلِيلِ أقْيـالٍ خضارِمْ

---

(١) ب ، لب ، وه : « وأزعج »   (٢) ر : « فتضامنت »

يَشكُو الرِّعاثَ تَنعُّمًا ... ويَضِجُّ من حَمْلِ التَّمائِمْ
لا تَستَحيهِ الرَّاشِفا ... تُ ولا تُباليهِ اللَّوائِمْ
يُجْنينَهُ ثمرَ النُّحُو ... رِ ويَعْتَلينَ بهِ المحَازِمْ
مُتجاهِلاتٍ أنَّهُ ... يَهْوَى وَهُنَّ بهِ عَوالِمْ
لازَمْتُ بابَ مَحلِّهِ ... والنُّجْحُ مِن قنَصِ المُلازِمْ ٥
حتَّى إذَا وَثِقَتْ بِنا ... عُجُزُ الحَواضِنِ والخَوادِمْ
أيقَنْتُ مِنْ أَخْذِى لَهُ ... وتَلَوْتُ من سُوَرِ العَزائِمْ
واقتَدْتُهُ بشَكائِمِى ... فانْقادَ فى تِلكَ الشَّكائِمْ
فوَرَدْتُ جَمَّاتِ المُنَى ... وكَرُمْتُ عن لُؤْمِ المآثِمْ
وأغَرَّ قَدْ لَبِسَ الدُّجَى ... بُرْدًا فَراقَكَ وَهْوَ فاحِمْ ١٠
يَحْكِى بغُرَّتِهِ هِلَا ... لَ الفِطْرِ لاحَ لِعَيْنِ صائِمْ
فكأنَّمَا خاضَ الصَّبا ... حَ فجاءَ مُبْيَضَّ القَوائِمْ
ويَسيرُ فى يَبَسِ الثَّرَى[1] ... وكأنَّهُ فى البَحْرِ عائِمْ
حتى إذا عَلِمَ الصَّبا ... حِ أشارَ مِنْ تِلكَ المَعالِمْ
وتمايلَتْ أيْدِى الثُّرَيَّا وَهِى مُذْهَبَةُ الخَواتِمْ ١٥
وَرَنَتْ ذُكاءُ بناظِرٍ ... رَمِدٍ منَ الأقْذاءِ سَالِمْ
طلَعَ الصِّوارُ لِحَيْنِهِ ... وكأنَّهُ المَوْجُ المُراكِمْ
أوْ عَسْكَرٌ رَكِبُوا الخُيُو ... لَ الشُّهْبَ واحْتَقَرُوا الأداهِمْ
فاشْتَدَّ سُبَّقُنا لَهُ ... يَكْشِرْنَ عَنْ مِثْلِ اللَّهاذِمْ
وكأنَّنا فى رَمْيِها ... نَسْتَلُّ مِنْ بِيضِ الصَّوارِمْ ٢٠

---

(١) ه : « الكرى »

فَحَمَى أواخِـــرَهُ أغَرُّ م مُعَـــاوِدٌ تِلْكَ المَلَاحِمْ
يَهْوِى بِرَوْقَىْ مِحْـرَبٍ طَبِنٍ بِحَرْبِ الغُضْفِ حَازِمْ
وَكَأَنَّمَا أَرْوَاقُهـــا مُسْـــوَدَّةٌ أقْلَامُ عَالِمْ
فَتَبَادَرَ الفِتْـــيَانُ مِنْ جَنَبَاتِهِ أشْهَى المَطَاعِمْ
٥ شَـــيًّا ومُطَبَّخًا عَلَى جَمْرٍ زَهَتْــهُ الرِّيحُ جَاحِمْ
وبَعِيـــدَةِ الأَرْجَاءِ نَا زِحَةٍ عَلَى أيْدِى الرَّوَاسِمْ
لَا تَدَّعِى جَوْبًا لَهَـــا ذَاتُ الخَوَافِى والقَـــوَادِمْ
مِنْ فِتْنَـــةٍ قَدْ أسْبَلَتْ ظُلُمَاتُهـــا بِيَدِ المَظَالِمْ
عَمِهَتْ لَهَا[1] أحْلَامُنَا وكَأَنَّهَا[2] أضْغَاثُ حَالِمْ
١٠ وتَضَاءَلَتْ أجرامُنَـــا فِيهـــا بِمُوبِقَةِ الجَرَائِمْ
وتَحَوَّلَتْ فِينَـــا الذُّنَا بَى الرَّأْسَ ، وابْنُ المَجْدِ رَاغِمْ
وَأَدَارَ كُلُّ صَـــغِيرِ قَدْ رِ المُنْتَهَى أرْحَى العَظَائِمْ
فَـكَأَنَّنَا عُمْىٌ نُســـا قُ عَلَى العَمَى فى ظِلِّ عَاتِمْ
حَتَّى انْتَضَى عَبْـدُ العَزِيـ ـزِ عَزِيمَةً مِنْ صَـدْرِ عَازِمْ
١٥ فَبَدَتْ لنا سُـبُلُ الهُدَى بِنَوَاجِمٍ غَـيْرِ الهَوَاجِمْ[3]
ضَرْبَ الأعاجِمِ سُـودَهَا بالسَّدِّ من بِيضِ الأعَاجِمْ[4]
فَاسْـــتَجْفَلُوا فَـكَأَنَّمَا ضربَ الثَّعَالِبُ بالضَّرَاغِمْ
أبْنَـــاء مَلْكٍ حِمْيَرِىٍّ م قَامَ بِالغُـــرِّ القَمَاقِمْ

(١) ب ، لب : « له » (٢) ب ، لب : « فكأنّنا »
(٣) كذا بالأصول — ور : « التراجم » (٤) كذا بالأصول

مِنْ عامِرٍ أهْلِ المَصَا ... نِعِ والصَّنائعِ والكَرائِمْ
الكُفْرُ عَنهُمْ قاعِدٌ ... قِدْمًا وَدِينُ اللهِ قائِمْ
حَكَمَ الزَّمانُ بظُلْمِهمْ ... دَهْرًا وصَرْفُ الدَّهْرِ ظالِمْ
فَارْتَدَّ بَهْجَةَ مُلْكِهم ... كَرُّ الخُبَعْثِنَةِ الضُّبارِمْ
واشْتَدَّ يَنظِمُ حَزْمَهم ... شَيْحانُ طَلَّاعُ المَخارِمْ ٥
ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ يَصُو ... لُ وَصارِمٌ يَسْطُو بِصارِمْ
إِيهٍ هَيَا عَبدَ العَزِيزِ وأنْتَ رَجَّامُ المَراجِمْ[1]
قَمَرٌ تُضِيءُ لهُ الخطو ... بُ على دَآديهِا الفَواحِمْ
تَسْرِى الرِّياحُ بمَجْدِهِ ... فَنَسيمُها بالغَوْرِ فاغِمْ
لم يَرْوَ مِنْ ماءِ الشَّبا ... بِ وكُلُّ أشْيَبَ عَنه خائِمْ ١٠
رَعْيًا لِمُؤتَمَنٍ رَعَى ... فِينا الحَدايثَ وَالقَدايِمْ
بَدَأتْ أوائلُه وعا ... دَ لِكَشْفِ غاشِيةِ الغَياهِمْ
لا تَتْرُكَنْ صَرْمَ الزَّما ... نِ على ظُبَى تِلْكَ الصَّوارِمْ
وَارْمِ الخُطُوبَ بِمِثْلِها ... عَزْمًا فَأنْتَ لَها مُساهِمْ
وإِلَيْكَها مِنْ ناطِقٍ ... يَدْعُوكَ إذْ صَمَتَ البَهائِمْ ١٥

ولهُ مِنْ جوابٍ على خِطابٍ :

وَرَدَ كِتابُكَ الكَريم ، بفَضْلِهِ العميم ، يتبلَّجُ تبلُّجَ البَرْق ، ويتحلَّب تَحلُّبَ الوَدْق ، مُتكسِّرًا فى المِشْية ، جاليًا لليْل الشَّكِّ والمِرْية ، قائدًا بأزِمَّة المُنَى والبُغْية ، كلَّما اشتقَّ مَوْجًا[2] غَمره ، أو لاعَبَ مَرْجًا بَهَره[3] ،

(١) ب ، لب ، ى : « زحام المزاحم » (٢) ب ، ى : « صرحا »
(٣) لب : « قهره »

أو جَزَع واديًا[١] أمَدَّه من أتِيِّه ، ونعِم من أُنْبوبِ بَرْدِيِّه ، أو مرَّ بروْضٍ شَقَّ عليه رِداءَ وَرْد ، وأثار به عَجاج نَدّ[١] ، أو عارَض حمامةً حَيَّته بِغنائها ، أو سامتَ لَقْوةً نَزَلتْ إليه من هَوائها ، أو مَسَح بعُصْمٍ حنَّتْ إليـه ، أو خطَر بأُسْدٍ تَهالَكتْ عليه ؛ كِتابٌ مُنِـعَ جالِيه ، وحُمِىَ حامِلُه ، كلّما خبَط بَطْحاء كُتِبتْ بالكتائِب ، أو رَكِب جَرْعاء رُقِمتْ بالأراقِم ، كان لهذه مُدْيَة ، ولتلكَ رُقْيَة ؛ وكلّما كَحَلَ مُقْلةً شَوْساء[٢] خَشَعتْ ، أو لَمَس كفًّا خَشْناء نَخَعَتْ ؛ أو وَقَع إلى رئيسٍ وَضَعه على رأسه ، أو دُفِع إلى ذِى بأس أخْدَمه من بأسِه ، أو لَمَحتْه شَقْراء حَمْحَمَتْ ، أو بصُرَتْ به بَيْضاء تَرَنَّمت ، هو الحَديقة ، تُساق سَوْقَ الوَسيقة ، أو اللَّطيمة فى ثِنْيها الغَنيمة ؛ فثُرْت إليه قائما ، ورفَلْتُ نحوه ساعيا ، وكان أوّلَ تحيّتِى له أن قبّلتُه ووضعتُه على راسِى ، وحَبَسْتُ[٣] عليه أنفاسى ، ثم فضَضْتُ خَتْمَه ، واسْترَقْتُ شَمَّه ، ففتَق علَىَّ نَسيمَ العَبير لُخْلِخ به صُدورُ الحُور ، وأهْدَى إلىَّ عَبقَ الياسَمِين ، ذُرَّ عليه مِسْكُ دارِين ، فأنعمتُ فى نَشْرِ طَيِّه ، وضَرَبتُ فى مَدْرَج لَيِّه ، فإذا ببناتٍ[٤] من البِرِّ مسلِّمةٍ علىَّ ، وثغورٍ من الإكرام ضاحكةٍ إلىَّ ، وفاض اللّألاء ، وكثُر الهُتافُ والإيماء ، فكَلَّتْ عَيْنى عن ذلكَ الرَّوْنَق ، وحُبِسَتْ أُذُنى عن ذلكَ المنطِق ، فلم أتمالَكْ أنْ غطّيتُ وَجْهِى حَياء ، وقد تَصَبَّبْتُ ماء ، وتَقَبَّضْتُ فى رَدَنِى ، وقد ضاقَ به[٥] عَطَنى .

وفى فصل :

فتنَفَضْتُ تَنفُّضَ العُقاب ، وهزَّتْنى أرْيَحِيَّاتُ الشَّباب[٦] ، وقامَ بِوَهْمِى

(١ — ١) ىه فى ر (٢) ب ، لب : « شوهاء »

(٣) ب ، ر ، لب : « وحسبت » (٤) ب ، لب : « بثياب »

(٥) ىه : « بى » (٦) ب ، لب : « أريحية كأريحية الشباب »

أَنِّى مَلأْتُ الأَرْضَ بجِسْمى ، فأَوْمأْتُ إلى الجَوْزاء بكَفِّى أنْ تأَمَّلِى ، وإلى العَوّاء أن أَقبِلى ، وقلَّتِ المَجَرَّةُ فى عَيْنى أن تكونَ لى مِنْديلا ، وصَغُر الزِّبْرِقانُ عندى أنْ أتَّخِذَه إِكْليلا ، فقُلتُ : هكذا يكونُ الأُلوك ، وبمِثْل هذا تَنَفْخ[1] المُلوك[2] .

وفى فصلٍ مِنها : ٥

ولَمَّا طالَ الكلامُ — أيَّدَ اللهُ المؤتَمن — ولم يَبلُغْ مَمْلوكُه الغايةَ التى إليها قَصَد ، ولا اسْتَوْفَى مِنَ الإيراد ما إيّاه اعْتَمد ، خَشِيَ أنْ يُصيبَه ما يُصيبُ التَّطويلَ مِنَ السَّآمةِ المخصوصةِ به ، والمَلالِ الموقوفِ عليه ، ففصَّلَهُ بنَظْمٍ فيهِ عَوْنٌ على الدَّرْس ، وتَنْبيهٌ لشَهْوَةِ النفس ، وهو :

هاتيكَ دارُهُمُ فقِفْ بمَعانِهَا تَجِدِ الدُّموعَ تَجِدُّ فى هَمَلانِهَا ١٠
عُجْنا الرِّكابَ بها فهَيَّجَ وَجْدَنا دِمَنٌ ذُعِرْنَ[3] السِّرب مِن إدمانِهَا[4]
دارٌ عَهِدتُ بهَا الصِّبا لِيَ دَوْحةً أتفيَّأُ الفَرَحاتِ من أَفْنانِهَا
أَرْعى عَلَى بَقَرِ الأنيسِ بِجَوِّها وأُحكِّمُ الصَّبَواتِ فِى غِزْلانِهَا
وإذَا تَهادَتْ بالشُّموسِ نَواعِمًا فِيهَا الغُصُونُ جَنَيْتُ من رُمَّانِهَا
قَضَتِ النَّوى بِذِيادِ رُجَّحِ عِينِهِمْ ظُلْمًا[5] وكانَ الدَّهْرُ من أَعْوانِهَا ١٥
زَجَرُوا اغْتِرابًا مِنْ نعيبِ غُرابِهِم وقَضَوْا ببَيْنٍ مِنْ مُغَرِّدِ بانِهَا
فبَدَا لَهُمْ وَجْهُ الفِراقِ مُوَقَّحًا آتٍ عَلَى خَبَرِ النَّوَى بعِيانِهَا
يَقْذِفْنَ دُرَّ الدَّمْعِ فى يَوْمِ النَّوى عنْ جُمَّةٍ لَعِبَ الأَسَى بِجُمانِهَا

(١) ﺟ : « تفخر » (٢) ز فى ب ، لب ، ﺟ : « فوادها أنك من نيله ، والحقنى أنك من نسله » (٣) ر : « دعون »

(٤) لم يقع هذا البيت فى ب ، لب (٥) ب ، لب ، ﺟ : « صلفا »

وَدَّعْتُهُمْ وَبَنَاتُ قَرْحٍ فِي الحَشَا دُونَ الضُّلُوعِ تَشُبُّ مِنْ نِيرَانِهَا
وَأَسَلْتُهَا ذَوْبَ[1] الجُفُونِ كَأَنَّهَا أَيْدِى بَنِى المَنْصُورِ فِى سَيَلَانِهَا[2]
يَا صَاحِبَيَّ إِذَا وَنَى حَادِيكُمَا[3] فَتَنَشَّقَا النَّفَحَاتِ مِنْ ظَيَّانِهَا
وخُذَا لِمُرْتَبَعِ الحِسَانِ فَرُبَّمَا شَفَعَ الشَّبَابُ فَكُنْتُ[4] إِلْفَ حِسَانِهَا
٥ عَاوَدْتُ ذِكْرَ العَيْشِ فِيهِ وَمَا انْقَضَى مِنْ صَبْوَتِى ، وَطَوَيْتُ مِن أَزْمَانِهَا
فَبَكَيْتُ مِنْ زَمَنٍ قَطَعْتُ مَرَاحِلًا وَشَبِيبَةٍ أَخْلَقْتُ مِنْ رَيْعَانِهَا
وَرَعَيْتُ مِنْ وَجْهِ السَّمَاءِ خَمِيلَةً خَضْرَاءَ لَاحَ البَدْرُ مِنْ غُدْرَانِهَا
وكَأَنَّ نَثْرَ النَّجْمِ ضَأْنٌ وَسْطَهَا وكَأَنَّمَا الجَوْزَاءُ رَاعِى ضَانِهَا
وكَأَنَّمَا فِيهِ الثُّرَيَّا جَوْهَرٌ نَثَرَتْ فَرَائِدَهُ يَدَا دَبَرَانِهَا

١٠ ومنها يفخر :

أَنَا طَوْدُهَا الرَّاسِى إِذَا مَا زَلْزَلَتْ أَيْدِى الحَوَادِثِ مِنْ فُؤَادِ جَبَانِهَا
وَعَلَيَّ لِلصَّبْرِ الجَمِيلِ مُفَاضَةٌ زَغْفٌ أَفُلُّ بِهَا شَبَاةَ سِنَانِهَا
والنَّفْسُ نَفْسٌ مِن شُهَيْدٍ سِنْخُهَا سِنْخٌ غَذَتْ مِنْهُ العُلَا بِلِبَانِهَا
ما احْوَلَّ نَحْوِى لَحْظُ مُقْلَةِ سَاخِطٍ إِلا وَضَعْتُ السَّهْمَ فِى إِنْسَانِهَا
١٥ وَلَوَانَّهُ نَطَحَ النُّجُومَ بِقَرْنِهِ كُنْتُ الزَّعِيمَ لَهُ بِنَحْسِ قِرَانِهَا
وَقَضَتْ بِعِزِّ النَّفْسِ مِنِّى دَوْحَةٌ مِنْ عَامِرٍ أَصْبَحْتُ مِن أَغْصَانِهَا
يَا ابْنَ الأَبَالِجِ مِنْ مَعَافِرَ وَالَّذِى أَرْبَى يَزِيدُ عَلَى عُلَا بُنْيَانِهَا
أَعْلَى كِتَابُكَ فِى مُهِمِّى[5] حُرْمَتِى وَجَلَا جَوَابُكَ مِنْ دُجَى حِرْمَانِهَا[6]

---

(١) ر : « صوب » (٢) هذا البيت والذى قبله لم يقعا إلا فى ر ، ر
(٣) ب ، لب : « هاديكما » (٤) ر : « فكن »
(٥) ب ، ر : « فى مهانة » (٦) لم يقع هذا البيت فى ب

فليُطْلِعَنَّ إليكَ مِنْ زَهَرِ الحِجا ... أبْكارَ شُكْرٍ لُحْنَ فى إبّانِهَا
حُرُّ القَوافِى ماجِدٌ فِى أهْلِهَا ... والشِّعْرُ عَبْدٌ فى بَنِى[1] عِبْدانِهَا
مَدحَ المُلوكَ وكانَ أيضًا مِنْهُمُ ... وَلَقَدْ يُرى والشِّعْرُ مِنْ ذُوبَانِهَا[2]
أمْسَى الفَرَزْدَقُ كُفْؤَهَا فى حَوْكِهِ ... وَجَرَى القَضاءُ لَهَا عَلَى صَلَتانِهَا

هذا — أيَّدَ اللهُ المؤتمن — جَوْهرٌ رَطْب ، نُظِم بلا ثَقْب ، غاية حُسْنِه لَوْ لفظَهُ بحرُه على قُرْب ، وقد كانَ أقلَّ حُقوقِ مَوْلاىَ أن أقِفَ ببابِه ، وأُختِّمَ بفِنائِه ، وأهْدِىَ إليه الشُّكْرَ غضًا ، وأنْثُرَ عليه المدْحَ نَضًا ، ولكنِّى ممنوع ، وعن إرادتى مقموع[3] ، يملكنى سُلْطانٌ قدير ، وأميرٌ ليس كمثلِهِ أمير ، شىء[4] غلبَ صَبْرَ الأتْقياء ، واستَوْلَى على عزمِ الأنْبياء ؛ وهو العِشْق ، باطلٌ يَلعبُ بالحقّ ، ليَبِينَ ضَعْفُ البَشَر ، وتَلُوحَ قُدْرَةُ مُصرِّفِ القدَر ؛ والذى أشْكو منه أغربُ الغرائب ، وأعجبُ العجائب ، بَثٌّ شاغل ، وبَرْح[5] قاتل ، وصَبْرٌ يَغيض ودَمْعٌ يَفيض ، لعجوزٍ بَخْراء ، سَهكةٍ دَرْداء ، تُدْعَى قُرْطُبَة :

عَجُوزٌ لَعَمْرُ الصِّبَا فَانِيَهْ ... لَهَا فى الحَشَا صُورَةُ الغَانِيَهْ
زَنَتْ بالرِّجَالِ عَلَى سِنِّهَا ... فَيَا حَبَّذَا هِىَ مِنْ زَانِيَهْ
تُرِيكَ العُقولَ عَلَى ضَعْفِها ... تُدَارُ كَمَا دَارَتِ السَّانِيَهْ
فَقَدْ عَنِيَتْ[6] بِهَواهَا الحُلُو ... مُ فَهْىَ بِرَاحَتِهَا عَانِيَهْ
تقَاصَرُ عَنْ طُولِهَا قُونَكَةٌ ... وتَبْعُدُ عن غُنْجِها دانِيَهْ
تَرَدَّيْتُ مِنْ حُزْنِ عَيْشِى بِها ... غَرَامًا فَيَا طُولَ أحْزانِيَهْ !

(١) ب ، لب ، ه : « يدى » (٢) كذا — ر : « ديوانها » — لب : « دونانها »
(٣) ب ، لب : « مخلوع » (٤) ر : « شهم »
(٥) ب ، ه : « قرح » (٦) ب ، لب ، ه : « عنت »

طَابَ لِى المَوْتُ عَلَى هواها ، وَلَذَّ عِنْدِى سَقْىُ دَمِى لِثَرَاهَا ،

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ مَآرِبُ قَضَّاهَا الشَّبابُ هُنَالِكَا[1]

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ عُهُودَ الصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

ولمّا استَطْرَدَ طيبُ هٰذَا المَسَاق ، وارفَضَّ كَلِمُه كالماءِ المُهراق ، وخَفَق

٥ جَنَاحُ العِشْقِ المذكور ، وتَدَحْرَجَ وَصْفُه كاللُّؤْلُؤِ المنثُور ، تَحَرَّكَتْ لى أطْراب ،

واهْتَزَّ لِرداءِ شَوْقِى أَهْدَاب ، وتَمَحَّضَتْ نَفْسِى فصارتْ نَفَسا ، وتَرَاكَمَ ذاكَ

النَفَسُ فصار كلاما ، وانتظم ذلك الكَلَام فصار عِقْدا ، فقلتُ متغزّلا ، وبما

صدر فى أيّامِ السرور[2] متمثّلا :

سَقْيًا لِطِيبِ زَمَانِنَا وَسُرُورِهِ وعَزِيزِ عَيْشٍ مُسْعِفٍ بِغَزِيرِهِ

١٠ وتَكَفُّرِى بِرِداءِ وَصْلٍ مُقَرْطَقٍ كَتَبُوا بِنِقْسِ[3] المِسْكِ فى كافُورِهِ

مُتَلَفِّعٌ بِحَرِيرِهِ ، مُتَضَمِّخٌ بِعَبِيرِهِ ، مُتَرَنِّحٌ بِفُتُورِهِ

وَسْنانُ نَاوَلَنِى مُدَامَةَ طَرْفِهِ فَشَرِبْتُهَا وَسَمِعْتُ مِنْ طُنْبُورِهِ

يَدْعُو بِلُكْنَةِ بَرْبَرِىٍّ لَمْ يَزَلْ يَسْتَفُّ بِالصَّحْرَاءِ حَبَّ بَرِيرِهِ

مُتَقَدِّمٌ بِمَضَائِهِ ، مُتَلَفِّعٌ بِرِدَائِهِ ، مُتَكَلِّمٌ فى عِيرِهِ

١٥ مُسْتَفْتِحٌ لِبَيَانِهِ بِبَنَانِهِ يُهْدِى السَّلَامَ إِلَى رِجَالِ عَشِيرِهِ

مُتَنَصِّبٌ كَالغُصْنِ إِلَّا أَنَّهُ يَهْتَزُّ مِنْ أَعْجَازِهِ وَصُدُورِهِ

طَارَحْتُهُ كَلِمًا وَكُنْتُ زَعِيمَهُ غَرِدًا أُحَرِّكُ مَنْكِبِى لِزَمِيرِهِ

فَمَشَى إِلَىَّ فَثُرْتُ غَيْرَ مُعَفِّرٍ كَاللَّيْثِ مُطَّرِدًا[4] إِلَى يَعْفُورِهِ

وَمَلَكْتُهُ بِالكَفِّ مِلْكَةَ قَادِرٍ فَانْصَاعَ مُؤْتَمِرًا لِحُكْمِ أَمِيرِهِ

---

(١) راجع ديوان ابن الرومى (ص ١٣) (٢) ب ، لب : « الشباب »

(٣) لب ، وه : « بحسن » (٤) ب ، لب : « كالليث مطروحا »

فقضيتُ ما لم أقضِ فيه بريبةٍ ... يأبى العفافُ وعصمتى بحضُورِهِ (١)
زمنٌ قضى ثمّ انقضى فكأنّه ... حُلُمٌ قرأتُ الموتَ فى تفسيرِه

ومنها :

وبراحتى من فكرتى ذو ذُكْرةٍ ... عهدتْ تذاكُرُنى بطبعِ ذكيرِه
فَرْدٌ إذا بعثتْ دياجى صرفِهِ ... هَوْلاً علىّ ، خبطتُ فى ديجُورِه
حتّى بدا عبدُ العزيزِ لناظرىْ ... أملى ، فمزّقتِ الدُّجى عن نُورِه
ملِكٌ تبقّى المجدَ ناصرُهُ لهُ ، ... وتقيّلَ العلياءَ عن منصُورِه
طلبَ الحوادثَ مُعْرِبًا عن ثارِه ... فجرتْ دماءُ الخطْبِ فى مأثُورِه
ورأى الزّمانَ يحيدُ عنْ تأميرِه (٢) ... فسقى سِهامَ المجدِ مِنْ تامُورِه

فإن طعَن طاعنٌ على نسيبِ هذا الشّعر ، وقال : إن المُلوكَ لا تقابَل بمثلِه ، والعُظماءَ لا تُتلقّى بشِبْهِه ، قلنا : ذلكَ لجَهْلِه بأخبارهم ، وقلّةِ روايتهِ لآثارهم ؛ ولو شئتُ أنْ أملأَ الصُّحُفَ وأرقُمَ القراطيسَ بما جرى عند المُلوكِ ومعَهم ، وما استُعْمِل لهم ، وتُوصّلَ به إليهم ، لفعَلت ، ولكنّى اقتصرتُ من ذلك على قريبٍ مُعجِب ، واكتفيتُ منه بحديثٍ مُطرِب .

قال ابن بسّام : وأنشدَ أبو عامرٍ إثْرَ هذا قطعةَ شِعرٍ لأبيه ، هى ثابتةٌ فى القِسْمِ الرابعِ من هذا التّصْنيفِ ، قال فيها :

قهقهَ الإبريقُ منّى ضَحِكاً ... ورأى رِعْشةَ رِجْلِى فبكى

ثم قال : فإن استهلّ الطاعنُ صارخًا ، وقال : هكذا الشّعْر ، وهكذا الطّبْع ،

(١) و ه : « ومحنتى بجديره » — لب : « بجدوره » — ب : « بحدوره »
(٢) ر ، و ه : « تأثير »

وهذا الماء رقّةً وعُذوبة ، والهَواء لَطافةً وسُهُولة ، لا ما كُنّا فيه من الشّنائع والقَعاقِع ، قُلْنا له :

أَذَّنَ الدِّيكُ فَثُبْ أَوْ ثَوِّبِ — وانْضَحِ القَلْبَ بماء العِنَبِ
وتأمَّلْ آيَةً مُعْجِزَةً — ما قرأْنا مِثْلَها فى الكُتُبِ
٥ رَكَعَ الإبْرِيقُ مِنْ طاعَتِهِ — وبَكَى فابْتَلَّ ثَوْبُ الأَكْوُبِ
وَلَوَلَ المِزْهَرُ يَنْفِى كُرَبِى — وتَطرَّبْتُ فَأَعْيَا طَرَبِى
ورَبِيبٍ قامَ فِينا سَاقِيًا — كالرَّشا أُرْضِعَ بَيْنَ الرَّبْرَبِ
ظَبْيَةٌ دُونَ الصَّبايَا قُصِّصَتْ — فأَتَتْ غيداء فى شَكْلِ الصَّبى
فُتِّحَ الوَرْدُ عَلَى صَفْحتِها — وحَماهُ صُدْغُها بالعَقْرَبِ
١٠ فمَشَتْ نَحْوِى وقَدْ مُلِّكْتُها — مِشْيَةَ العُصْفُورِ نَحْوَ الثَّعْلَبِ

ومِنها :

وغَمامٍ باكَرَتْنا عَيْنُهُ — تُتْرِعُ الأُفُقَ بدَمْعٍ صَيِّبِ
مِثْلَ بَحْرٍ جاءَنا مِنْ فَوْقِنا ، — جِرْمُه من لُؤْلُؤٍ لم يُثْقَبِ
فدَنا حَتَّى حَسِبْنا أَنَّه — يَمْسَحُ الأَرْضَ بفَضْلِ الهَيْدَبِ
١٥ فسَأَلْناهُ ، وَقَدْ أَعْجَبَنا — حَشْوُهُ العَيْنَ بمَرْأًى مُعْجِبِ :
أَنْتَ ماذا ؟ قال : مُزْنٌ عَلَّمَتْ — كَفَّهُ النُّجْعَةَ كَفًّا دَرِبِ
سامَنِى بالشَّرْقِ أَنْ أُسْقِيَكُمْ — رَحْمَةً مِنْهُ بأقْصَى المَغْرِبِ
فسَأَلْناه : أَيْنَ ذاكَ لنا ، — قالَ : هَلْ يَخْفَى ضِياء الكَوْكَبِ ؟
مَلِكٌ ناصَبَ مَنْ خالَفَكُمْ — عامِرِىُّ المُنْتَمَى والمَنْصِبِ[1]
٢٠ فعَلِمْنا أَنَّها نَفْحَةُ مَنْ — وَرِثَ الجُودَ أَبًا بَعْدَ أَبِ

(١) لم يقع هذا البيت فى ب ، لب

لَكَ كفٌّ بالثُّرَيَّا فيْضُهـــا وَلهَا بَسْطُ النَّدَى مِنْ كَثَبِ
كَقَليبٍ دَلْوُهَـــا مُتْرَعَةٌ أشرَقَتْ بالْمَاءِ عَقْدَ الكَرَبِ
تُبْصِرُ العَيْنانِ مِنْـــهُ إنْ بَدَا قمَرَ السَّرْجِ وَشَمْسَ المَوْكِبِ
أنْجَبَتْهُ للمعـــالِى أُسرَةٌ[1] نَزَلُوا لِلْمَجْـــدِ أعْلَى الرُّتَبِ
بنُفُوسٍ مِنْ سَـــناء غَضَّةٍ فِى جُسُومٍ بَضَّـــةٍ مِنْ حَسَبِ ٥
وَوُجُوهٍ مُشْرِقاتٍ أوْمَضَتْ ضَاحِكاتٍ فِى وُجُوهِ الكُرَبِ
لَهُمُ أيَّامُ حَــرْبٍ كَثَّرَتْ فِى عِدَاهُمْ دَاعِيـــاتِ الحَرَبِ
لَمْ يُطِقْ عامرُ قِدْمًا مِثْلَهَـــا لا وَلاَ عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبِ
سَحَبُوا مِنْ ذَيْلِ مَجْـــدٍ إذْ هُمُ لِلْوَغَى فِى ظِلِّ نَقْعٍ أشْهَبِ
يا ابن أُمِّ المَجْـــدِ خُذْهَا عِبْرَةً جِـــدَّ قَوْلٍ يُشْتَهَى كَاللَّعِبِ ١٠
مِنْ بَنَاتِ اللُّبِّ زَانَتْكَ كما زَانَ صَـــدْرَ المُهْرِ حَلْىُ اللَّبَبِ
خَمْـــرَةٌ مِنْ طِيبِهَا قَدْ سُبِيَتْ قَطَعَتْ نَحْوَكَ عَرْضَ السَّبْسَبِ

فإنْ يُرَاجِـعْ — أعزَّكَ اللهُ — المؤتمَنَ منصِفًا فهوَ أَوْلَى به وأَسْيَرُ له ، لا كقَوْم عندنا ، حظُّهُم من الفهْمِ الحِفْظ ، ومنَ العِلْمِ الذِّكْر ، وهذا حظُّ القُصَّاص ، وأعْلَى منازلِ النُّوَّاح ، فترى المُمَخْرِقَ منهم إذا قُرِئَ عليهِ الشِّعْرُ ١٥ يَزْوِى أنفَه ، ويَكْسِرُ طَرْفَه ؛ وإذا عُرِضَتْ عليهِ الخُطْبة يُميل شِقَّه ، ويَلْوِى شِدْقَه ، فإن تناوَلَهُمَا لم يُبْقِ مِلْحةً إلاَّ حشَدها ، ولا أبقى عَفْصَةً فجَّةً إلاَّ جلَبها . وأصْلُ قِلَّةِ هذا الشان ، وعدَمِ البيان ، فسَادُ الأزمنة ، ونُبُوُّ الأمكنة ؛ وإنَّ الفتنةَ نَسْخٌ للأشياء ، من العُلوم والأهواء ، ترَى الفَهمَ فيها بائرَ السِّلعة ، خاسرَ الصَّفْقة ، يُلمَحُ بأعْيُنِ الشَّنَآن ، ويُسْتَثْقَلُ بكلِّ مَكان . هذا دَأْبُنَا[2] وحَرَبُنا . ٢٠

(١) ر : « أسوة » (٢) ر ، ه ، لب : « رأينا »

إنا طَلَبْنا البيان ، فأدركْناه بكُلِّ لِسان ، والتمسْنا الإبداع فأثبتْنا كلَّ مُعْجِب ، وأتيْنا على كلِّ مُطْرِب ، فما سَقطْنا على سُوقةٍ يهشُّ إلينا ، ولا دفعْنا إلى مَلِكٍ يَصْبُو بنا ؛ وليْتَ إذْ لم يكن غُنْم ، ألاَّ يكونَ غُرْم ! ووددنا أنَّا بَرازِخُ لا حَرْبٌ ولا سَلْم ، ولا يَقظَةٌ ولا حُلْم ؛ كَفَى بذلك إنحاء على الزَّمن . ولولا أنَّ المؤتمن نَجْمٌ

٥ من تلك الأنْجُمِ الـكريمة ، وفَرْعٌ من تلك الدَّوْحةِ القَديمة ، أَمْسَكَ على الدُّنيا عَيْنَها ، وحفِظ عليها زَيْنَها ، لقُلْتَ : إنَّها نَسْخ ، وإنَّ أَصْلَها مَسْخ ، سَناؤها لِلَئيمٍ أو وَغْد ، وزِمامُها بيَدِ بُومٍ أو قِرْد .

وله من أُخْرى ، إلى الوزير ابنِ عَبَّاس :

ولَمَّا أَسْنَدْتُ منكَ إلى هَضْـبَةٍ لا انخِرامَ معها ، واستَمْسَكتُ بعُرْوةٍ

١٠ لا انفِصامَ لها ، إذْ وَرَد عَلَيَّ كتابُ رَسولى إليك ، يَذكُرُ تغَـيُّرَكَ له ، وأنـكَرتُ ذلك عليك ، ثم تذكَّرتُ قولهم : ما نَزَل حتى رَحَل ، وقولَ الآخر :

كَرِيشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ   لا تَسْتَقِرُّ على حالٍ من القَلَقِ[1]

وفى فصلٍ :

وقلتُ : أيستنوِقُ الجمل ، ويتَّضِـعُ الـكوكب ، وتَخِفُّ حَصاةُ الحِلْم ،

١٥ ويتضَعْضَعُ جَبَلُ العَمَل والعِلْم ، ويَكْبُو جوادُ الهِمَم ، وتَزِلُّ نَعْلُ الـكَرَم ، وتغَلِبُ الدُّنيا الدِّين ، ويَسْطُو الشَّكُّ باليَقين ؟ ثم تذكَّرتُ عِلْمى بك ، وقولى فيك :

غيرَ أنِّى مَعَ الوزيرِ أبِى القا   سِمِ حِزبٌ مَحْضٌ مِنَ الأَحْزابِ

التَّقِىُّ النَّقِىُّ كَهْـلاً وَطِفْلاً   فَارِسُ الجَيْشِ رَاهِبُ المِحْرابِ

فعَلِمْتُ أنَّك صاحبُ مِحْراب ، ومؤمنٌ بآيةِ الـكِتاب ؛ فتَـلاَتْ الأَوْهام

---

(١) راجع

للجباه[١] ، وكَبَحْتُ الظُّنونَ كَبْحةً أقعدتْها عن الأشباه[٢] ، ولم تبقَ إلّا بقيّةٌ من قولِ القائل :

وَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ المُلُوكَ لأحْسَنوا ولكِنَّ أوْلادَ الزِّناء كَثِيرُ

فبحثْتُ عمن طرأ عليكَ من الأنذال ، وحَلَّ بساحتِكَ من الأعْلاج ، فقيل لى : ابنُ فتح . فأنعمتُ البحث ، وأعْملتُ لطائف الكَشْف ، حتى صَحّ ٥ عِنْدى أنّهُ كدَّرَ صَفْوَكَ عَلَىَّ ، وغيَّر شِرْبَكَ لدىَّ ، فقُلْتُ : من هاهُنا أُتينا ، ومن هذه القوْسِ اللئيمةِ رُمينا ؛ وقَصَصِى مَعَ هذا العِلْجِ طَويل .

وفى فصلٍ منها :

ولم يزَلْ يَسعَى لإفسادِ تلك النِّيّات حتى فسدَتْ وانتقضَتْ ، وزادَ فى إفسادِ الضمائر ، ورامَ التَّدْبيرَ من غير طُرُقِ الأكابر ، حتى تَلِفَ وأتْلَف ، ١٠ وكانتِ العاقبةُ ما عايَنْت ، والمَغَبَّةُ ما شاهَدْت ؛ ولقد سألنى أبو جعفرٍ أن يَنْفرِدَ ذاتَ يومٍ بأكبر وزيرَيْن عندنا ، ووجّهَنى فيهما ، وحضرا ، فنَفَثَ هذا الساحرُ فانصرَفا ، فخاطبْتُه بأبياتٍ أقولُ فيها :

هَلَّا سَتَرْتَ الشَّيْنَ بالزَّيْنِ مِنْ قَبْلِ إحْضَارِ الوَزِيرَيْنْ ؟
قَدْ عَلِمَا أَنَّهُمَا أُحْضِرا لِخَلْوَةٍ أثْقَلَ مِنْ دَيْنِ ١٥
لَمَّا تَدَانَتْ قَابَ قَوْسَيْنِ أَصَابَهَا الحاسِدُ بالعَيْنِ
فانْصرَفَا مِثْلَ انصِرافِ الفتى أَسْلَمَ إلْفًا لِيَدِ البَيْنِ
صَدَّهُمَا[٣] مِنْ قِرْدِكَ المُصْطفَى نَطْحَةُ نَطّاحٍ بِرَوْقَيْنِ
وَمَا رَأى النَّاسُ عَلَى مَا مَضَى مِنْ قَبْلِهِ قِرْدًا بقَرْنَيْنِ

(١) ب ، لب : « للحياة » (٢) ب ، لب ، ور : « على الأستاه »

(٣) ر : « حدها »

أَرْبَعَةٌ فِي مَجْلِسٍ جُمِّعُوا فَطَارَ هَـــذَانِ بِهَذَيْنِ

قَدْ لَزِمَا جَنْبَيْكَ لَمْ يَبْرَحَا لَهْفِي عَلَى ضَيْعَةِ جَنْبَيْنِ

فَأَنْتَ مَا بَيْنَهُمَا جَالِسٌ جُلُوسَ أَيْرٍ بَيْنَ خُصْيَيْنِ

وَمَا كَانَ هَذَا القِرْدُ أهلاً لِأَنْ يُحْمَلَ عليه حُرُّ كَلام ، ولا لِيُرْمَى بِفَضْلِ

٥ بَيَان . وبالحَرَا أن يُرْقَمَ على عَتَبَةِ دُكّان ،[١] أو يُصَوَّرَ عَلَى بابِ حَمّام[١] ، وقد غُرِسَ فى وجْعائه رَأْسُ نخلة ، وحُبِيَ فى سَعَفِها عُشُّ نَحْلَة ؛ أَوْ يُنْقَشَ فِي خاتَم[٢] ، وقد عَلاه خِنْزير ، وعَطِس مُسْتَنْجاه بِإِبْرَةِ زُنْبُور ، فإنَّه بَقِيَّةٌ من بَنِي إسرائيل الذين استحَلُّوا الحرَام ، واجترَحُوا السَّيِّئاتِ والآثام ؛ فلما عتَوْا عمَّا نُهُوا عنه ، قِيل لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين ، فجُعِلَتْ نَكالاً لما بين يدَيْها

١٠ وما خَلْفَها ومَوعظةً للمُتَّقِين[٣] .

ولولا أنه مُنتَسِبٌ إلى آلِ هاشِم ، إلى عِصابةٍ أَقلَّني كَرَمُهم ، وأَظَلَّتْنِي نِعَمُهم ، ومُسنَدٌ عَلَى العِلّاتِ[٤] من أبى جعفر ، إلى وزيرٍ كان لى وَزَرا ، رَقْرَقَ شَرابِي ، وأَخْصبَ بهِ جَنابِي ؛ لَأَدَرْتُ بِدارِهِ دائرةَ السَّوْء ، وسَرَيْتُ إليها فِي لُمَّةٍ من صَعاليكِ الأَحرار ، وصَمِيم الرِّجال ، فأَحْرَقتُها على نازلِها ، وجَعَلتُ عالِيَها

١٥ سافِلَها ، امتثالاً لقولِه تعالى فى ديارِ قومِ لُوط[٥] ؛ فالشائعُ لدينا أنها قَرارٌ لِبناتِ السَّحْق ، وبركةٌ لِسمكاتِ العِشْق ، يتناكَحُ بها النِّسْوان بعضُهُنَّ إلى بعضٍ بالصَّدَقات ، ويَستعمِلْنَ خَرَزَ جُلودِ البَقَرِ فى الكِيرِنجات[٦] . فاللهَ اللهَ فى قَبولِ هذا القِرْدِ والالتِباسِ به ، فإنه قُذارُ مَنْ لَزِمه ، وهو والفَرضِيُّ رَضِيعا لِبان ، وفرَسَا رِهَان ، ولِذَا لم يُؤَثِّرْ فيه إذ نقَرَهُ على الرَّأْس ، لأن الأَفْعَى لا تقتُلُها نَهْشَةُ

(١ — ١) ـه فى ب ، لب (٢) ر : « خاتم قيار » — ب ، لب « خاتم قيار »

(٣) راجع سورة ٢ : ٦٥ ، ٦٦ (٤) ر ، لب : « الفلات »

(٥) راجع سورة ١١ : ٨٢ (٦) فى جميع الأصول : « الـكرنجات »

الأفعى . وأخافُ عليكَ عاديته ، وأتّقي على أيّامِكَ بادرتَه ؛ كان اللهُ خليفتي عليكَ يا أبا القاسم ! واللهَ اللهَ في إعادةِ نفحةٍ من كرائم نفحاتك على قريةِ أبي الجُوديّ ، فلو أنّها الجُوديُّ كرامة ، وقريةُ النّمل عِمارة ، لقلّت في جنب ما أتغنّى به من شُكرك ، وأترنّمُ به من تقريظك ومدحك . والذى أستقبلُه من ذلكَ أكثر . عليّ[1] أنْ أُهدِيَ من ذلك لطيمةً إلى جارتك القيْروان ، وأُخرى إلى حبيبتك مكّةَ بيتِ الرّحمن ، بكلام عذْب ، ومساق رَطْب ، يُبْكي الحجيج ، ويَقدح نارَ العجيج ، تَحنُّ له الرّباب ، وترِقُّ له الأعراب . واعلم أن نعمتك فيها ، لشُهرتها بك ، وارتفاعها بارتفاعك ، مَكتوبةٌ بكفِّ الثُّريّا في مَفرِق السّماء ، نُونُها الهَنعة ، وعَينُها الشّوْلة ، وميمُها النّثْرة ، فإن أعْقبتَها « لا » ، كان الدّبَرانُ كاتبَها عليك ، تَرْمُقُها الأبصار ، على انتزاحِ الأقطار .

وفي فصْل :

وبحثتُ عَلى مَن تجرّدَ للتّنبيهِ على مِثلِ ذلك وتفرّغَ للاشتغالِ به ، فوقعتُ على الكاتبِ الوزير ، اليقظ النّحْرير ، خالد بن يزيد الكيميائيّ أبي عبد الله القرشي ، فقلتُ : شِنْشِنَةٌ أعرفُها مِنْ أخْزَم ، لا يصلح للأفعى مَرادُ الرّوْض ، ولا ورُودُ الحَوْض ، ولا يَدفَع لؤمَ الكلْب ، كرَمُ الصّحْب ، وإنما الأخلاق ، جاريةٌ على الأعراق والأفعال ، مأخوذةٌ عن الأعمامِ والأخْوال ؛ وهذا المذكورُ مَشئوم ، أدْوى مِنْ مُوم ، وأشأمُ مِنْ بُوم ، يُسيء لِمَنْ أحسنَ إليه ، ومن أجارَهُ تَجَنّى عليه ؛ منّتْه نفسُه على ضِيقِ نفَسِها مُلْكَ المُلوك ، وإحياءَ وقائعِ اليَرْمُوك ، فارتبَكَ فيما ارتبَكَ ، ولولا القدَرُ لطحنتْه الرّهَك ، لقد أخطأتِ اسْتُه الحفرة ، وما ثبتَ عند النُّفرة ! أوْلَى له ! لقد خبُثَ مغرِسُه عما حاول ،

(١) في الأصول : « مني »

ولؤمَ مَعْطِسُه عما تناوَل ؛ وهيهاتَ ! لا تُبصِرُ الشمسَ العُمش ، ولا تهتدى السُّبُلَ الخُفْش . وإنى لأخافُ على سَعْدِك نحسَه ، وأحذرُ على يومِكَ أمسَه ، أفقدَه اللهُ حِسَّه ، وأوْرَدَهُ الكنيفَ رمسَه ، فإنه لو جاوَرَ البحرَ لسَدَّه ، ولو جاسَ أبا قُبَيْس لهدَّه . وما أبعدُ أن تُمَنّيَهُ نفسُه الخبيثةُ الفَتْكَ بك، والوُثوبَ عليك ،

٥ فإنّ أمْرَه[1] أسخف ، وصَفاقةَ مُخّه أشفّ ، من ألاّ يجرِيَ هذا المَجرَى ، ولا يرمِيَ هذا المَرْمَى ؛ وربما ساعدَه القَدَر : هذا حمزةُ قعَصه وَحْشِىّ ، وبِسْطامٌ صَرَعه عاصِم ، وكِسْرَى فتَك به مَرازِبَةٌ له .

وكتبَ الوزيرُ أبو مَرْوانَ ابنُ الجزيرى ، إلى الوزيرِ أبى عامرِ ابن شُهَيْد[2] :

١٠ قُلْ لِلْوَزِيرِ الذى بانَتْ فَضائِلُهُ ... وَقامَ فِينا مَقـامَ الغَيْثِ نائِلُهُ
إذْ بانَ فَضْلُهُ مَساعِيهِ وَهِمَّتِهِ ... بَيِّنْ لنَا شَرْحَ مَعْنًى سالَ سائِلُهُ :
أَواخِرُ الوَرْدِ إذْ تَجْنِيهِ مُلْتَقِطًا ... أزْكَى وأعْطَرُ نَشْرًا أمْ أوائِلُهُ ؟
وأَىُّ حالَيْهِ مَوْجُودًا ومُفْتَقَدًا ... أَوْلَى وأجْدَرُ أن تُرْعَى وَسائِلُهُ ؟
وَقَدْ أتاكَ لِتَوْدِيعٍ عَلَى عَجَلٍ ... خُضْرًا مَقانِعُهُ ، حُمْرًا غَلائِلُهُ
١٥ فَامْنَحْهُ مِنكَ قَبُولاً واقْضِ نَهْمَتَهُ ... من الوَداعِ فقَدْ زُمَّتْ رَواحِلُهُ

فأجابه :

يا سَـيِّدًا أرِجَتْ طِيبًا شَمائِلُهُ ... وَشا كَهَتْ شِعْرَهُ حُسْنًا رَسائِلُهُ
وَسائِلاً لِىَ عَمّا لَيسَ يَجْهَلُهُ ... وَلا الَّذى كُلِّفَ التَّفْصِيلَ جاهِلُهُ
الوَرْدُ عَهْدًا وَنَشْرًا صِنْوُ عهدِكَ ، لا ... تُنْسِى أواخِرَهُ طِيباً أوائِلُهُ
٢٠ وَوَصْلُهُ فى كِلا الحالَيْنِ مُفْتَرَضٌ ... سِيَّانِ قاطِعُهُ جَهْلاً وَواصِلُهُ

---

(١) ب ، لب ، وه : « سره »

(٢) لم يقع هذا الفصل إلا فى ب ، لب

فالعودُ يخفقُ ، والمزمارُ يتبعُه ، وهاجرُ الرّاحِ قد هاجتْ بلابلُه
تُخبرْ بمثلِ الذى أنتَ العليمُ به أيّامُنا والصِّبا تُعصَى عواذِلُه

قال أبو الحسن : وقد ضارعَ أبو عامرٍ هذا محاسنَ الطّبقةِ العاليةِ البغداديةِ المُضارعةَ التى بانَتْ فيها قوّتُه ، ولَدُنَتْ اختراعاتُه ومقدرتُه[1] ، فصار يتناولُ المعنى الحسنَ فيُصيِّرُه مُحسًّا بحُسْنِ مساقِه ، فمنها وصْفُه للنَّحْلِ والعسل : واسعةُ الأكفالِ والصُّدورُ مُرْهَفَة . ووَصَف البُرغوثَ فقال : أسْوَدُ زِنْجِىّ . ووَصف البعُوضةَ فقال : مَليكةٌ لا جيشَ لها سِواها . ووَصف الثّعلبَ فقال : أدْهَى من عمْرو . فهذه أوصافٌ لو رامَها غيرُه لكبا جوادُ بنانه ، ونَبا حُسامُ لسانِه . وقد عارضَهُ فقال فى صفة النَّحْلة :

وطائرةٍ تهوِى كأنّ جناحَها ضميرُ خَفِىٌّ لا يُحدِّدُه وَهْمُ
مُلازمةٍ للرَّوْضِ حتّى كأنّما لها كلُّ ما تفترُّ عنهُ الرُّبَى طُعْمُ
تَمُجُّ بفيها الشَّهْدَ صِرْفًا ويَختفِى لمُشْتارِه ما بينَ أحْشائِها سَهْمُ
مُنافرةٍ للإنسِ ، تأنسُ بالفلا مُفرِّقةٍ للشَّهْدِ ، مِنْ بعضِها السُّمُّ
فإذْناؤها رُشْدٌ ، وهَتْكُ حِجابِها إذا احتَجبَتْ فى غيرِ أيّامِها ظُلْمُ

وقال فى صفةِ البُرغوث :

ومُنفِّرٍ للنَّوْمِ مسْكنُهُ ، إذا نام المُملَّكُ ، بينَ أثْناءِ الثّيابْ
يَسْرِى إلى الأجْسامِ يهتِكُ عَدْوُهُ عنْ كلِّ جسْمٍ صِيغَ بالنُّعمَى حِجابْ
ويَعضُّ أرْدافَ الحِسانِ ومالَه كفٌّ[2] ولكنْ فُوهُ مِنْ أعْدَى الحِرابْ
مُتحكِّمٌ فى كلِّ جِسْمٍ ناعمٍ مُتدلِّلٌ ما بينَ أَلحاظِ الكِعابْ
فإذا هممْتَ بزجْرِه ولَّى ولا يَثْنِيهِ[3] عمّا قد تعوّدَهُ طِلابْ

(١) ب ، لب : « معذرته » (٢) كذا بالأصل (٣) فى الأصل : « لم يثنه »

وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّه مَخْضُوبَةً بِدَمِ القُلُوبِ وَما تَعَاوَرَهُ خِضابْ
قَرْمٌ من اللَّيْلِ البَهِيمِ مُكَوَّرٌ يَمْشِى البَرَازَ وما تُوارِيهِ ثِيابْ
عَظُمَتْ رَزِيَّتُهُ وَلٰكِنْ قَدْرُهُ أَخْزَى وأَهْوَنُ منْ ذُبابٍ فى تُرابْ

رَجْعٌ. وَلَه[1] :

٥ تَخَلَّصك اللهُ منه ! ثلاثة سُموم : سُمٌّ أَفْعَى وعَقْرَبٍ ويَعْسُوبِ نَحْل . شَرِبَ الماءَ وارِدًا وعندَهُ حَشائِشُ استفادَها من كِيمِيائِه ، تَكْفِيه[2] وعْثاءَ عَنائِه ، إذا رام فَتْكًا أو حاوَلَ وَثْبًا . وإذ قد اطَّرَدَ هذا القولُ ، وانثالَت هذه الكلمات ، فلا بُدَّ من تَعريفِ المُوَفَّق — وفَّقه الله — أصلَ هـذا الفاسِقِ وفَرْعَه ، وإنْ كَلَّفْتُه تَطويلَه وسَجْعَه : صَحِبتُه منذُ أعوام ، أيَّامَ اختلافِنا إلى الزَّاهرة ، وإذْ تلك
١٠ المواطنُ قائمةٌ غيرُ دائِرة ، وبالغُرَرِ من آلِ عامرٍ عامِرَة ، وكُنَّا كثيراً ما نَتَدارَسُ ضُروبَ العِلْمِ : مِنْ أَدَبٍ وخَبَرٍ وفِقْهٍ وطِبٍّ وصَنْعةٍ وحِكْمة ؛ على أنَّه فى أهلِ الفَهْمِ[3] واوُ عَمْرٍو ، أو لِسانُ بَظْر . وكان — ولا أشعُرُ — يُدالِسُ ويوالِس ، قد استَهْتَرَ على الفُلوس ، واستَهْلَكَ على التَّدْلِيس ، وصار فى ذلك وَضَحَ النَّهار ، ونَفْخةَ المِزْمار ؛ لو لَمَسَ البُدورَ لعادَتْ زُيوفًا ، أو تَناوَلَ الشُّموسَ لَغَشَّاها كُسوفا ،
١٥ وقَصَدتُه يوما ، على جَهْلٍ بتلك الخَليقةِ منه ، لأستَريحَ إليه ، وأُلقِيَ من شَنْئِي عليه . فألْفَيْتُه قد خَلا بابُه ، وغابَ بوَّابُه ، فولَجْتُ فثارَ إلىَّ صَبِيٌّ غَرِيرٌ أَصْبَتْه هنالِك قائلًا لى : طال انْتظارُنا لك ! وتقدَّمَنِى وسِرتُ حتى انتَهَيْتُ إلى دارِ ذاتِ أجْوان ، قد غَشِيَهَا دُخان ، كقِطَعِ العَنَان ، تَعبَقُ منها صُنَان ، من زِرْنيخٍ وكِبْرِيت ، وزَنْجَفُورٍ وأنْزَروت ؛ فتذَكَّرتُ « يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخَانٍ

(١) رجع الكلام فى ر ، وه (٢) ب ، لب : « بكفيه »
(٣) ب ، لب : « العلم »

مُبين يَغْشَى النَّاسَ ، هَذا عَذابٌ أليم[١] » ، فاستَشعرتُ الشَّرَّ ، وأردتُ الفرَّ ، ثم الْتفتُّ فإذا أنا بأكداس جَمْر ، وآلاتِ تِبْر ، وأشخاصٍ سُودٍ وصُفْر ؛ ثم أفْضَيتُ إلى بَيْتٍ فيه عِدَّةُ أَشباح ، كأنَّها قُبَّاضُ الأرْواح ، غرابيب ، بأيديهم كَلاليب ؛ زَرادِق ، قد تقلَّدتْ مطارق ؛ فلمَّا رأوْني صاحُوا : فَضَحَكُمُ الواغِل ، فامْحَقُوه[٢] من عاجل ؛ فلمَّا نَظَرتُ إلى المنيَّة ، وخشِيتُ فَصْلَ القضيَّة ، ضَحِكْتُ إليهم وقُلْت : تخطَّتْكم النِّعْمة ، ولا هُدِيتم سبيلَ الحِكْمة ، أهكذا تَعجلون ، ولا تَدْرُون مَنْ تُريدون ؟ قالوا : ومَن أنت ؟ قلت : مَنْ أخذَ الطَّلْق ، فسَحَقه بالمِدَق[٣] ، وشقَّ بيَدِ الذَّكاء ، عن زَهْرةِ الأشياء ، فبشَّر الآباءَ بالأبْناء . فقالوا : بنارٍ أم بماء ؟ قلت : بهما جميعًا وبهَواء . فَأَوْمَضُوا إليَّ ضاحِكين ، واستقبلُوني مُعتَذِرين ، وقالوا : كِدْتَ واللهِ أنْ تُلْتَهم ، وتكونَ السَّوادَ المخْتَرَم ! قلت : وأينَ أبو عبد الله ؟ قالوا : انفردَ يُرقِّقُ ماءَ بَيْض ، ويُصَفِّق دَمَ حَيْض ، وغرَضُه استخراجُ دُهْنِ الحَجَرِ الكريم ! فقلت : حبسٌ[٤] حديثٌ أو قديم ؟ فنادوا : أواه ، أواه ! على الخَبير سقطتم . ثم تَلَطَّفتُ وخرجت ، تَطِير بي رِجْلايَ وقد حَقَنَ اللهُ دَمِي بعَطْفه ، واستَنْقذَني من يَدَيْ مَنيَّتي بلُطْفه . ووَصَفتُ لمن استوثَقْتُه ذلكَ بعد أن استَكتَمتُه ، فجاس وخاس ، وكأنِّي أودعتُ سِرِّيَ رِيحًا ؛ فاضْطَغَن ذلكَ عليَّ ، وأكَّد ذلكَ أيضاً مُعاملةٌ عامَلَني بها أيَّام حَرْبِ المدينة ، وكانت حِبالُها إذْ ذاكَ مَتينَة ، أعقبَتْه وقْعَ السَّوْطِ على رأسِه ، وعَضَّ الحِجْلِ على ساقه ؛ وكان الأميرَ بها أبو أيُّوبَ ابنُ المرتضَى رَضِيَ اللهُ عنهما ، فأعددْتُ شِعْراً نَويتُ أنْ أُنشِدَهُ إيَّاه أوَّلَ بَيْعته ، وكان ما كان ، وبَلَغه الشِّعر ، فزادت نفسُه لي خُبْثًا ، ومنه :

فلمَّا بَدَا فيهِمْ سُلَيْمانُ عِندَهَا ... وَصَاحَ ابْنُ ذَكْوانٍ فثارَ رِجالُ

(١) راجع سورة ٤٤ : ١٠

(٢) ب ، لب : « فاستحقوه » .

(٣) لب ، مه : « بالبرق »

(٤) ر : « نفس »

هَدَى مِنْ ضَلالِ الْحَائِرِينَ مُحَمَّدٌ ... وأَذَّن بالبَيْتِ العَتِيقِ بِلالُ

وَقَامَ أَبُو عِمْرَانَ يَرْأَبُ صَدْعَها ... بِسَعْيٍ (١) تَجلَّى عَنْ هُدَاهُ ضَلالُ

وَزِيرٌ مَتَى يَسْتَوْزِرِ المُلْكُ رَأْيَهُ ... أُمِرَّتْ لَهُ فى النَّائِبَاتِ حِبَالُ

ولَيْسَ كَمَنْحُوسٍ مِنَ القَوْمِ مُنْحِسٍ ... تَعاظَمَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ يُنَالُ

٥ أَعَانَتْهُ أَمْوَالٌ تَخُونَ عَيْنَها ... وأَعْلَتْهُ غُثْرٌ سُوقَةٌ وسِفَالُ

لَهُ كَعْبُ نَحْسٍ لَمْ يُصَاحِبْ بِهِ امْرَءًا (٢) ... عَلَى الدَّهْرِ إلاَّ رُدَّ وهُوَ (٣) خَيَالُ

فَفِى كُلِّ عَصْرٍ مِنْ عُصُورِ حَيَاتِهِ ... تُثَلُّ عُرُوشٌ أَوْ تُدَكُّ جِبَالُ

هُوَ الدَّاءُ فَاسْتَأْصِلْهُ تَلْبَسْ جَمَالَها ... وَدَاءُ كُعُوبِ المُنْحِسِينَ عُضَالُ

ولما قُضِى ما قُضِى ، ووقعتْ تلك الهَنَات ، ودرج أبو أيُّوبَ وعظُم تأسُّفِى ،

١٠ رَمَيتُه بأبياتٍ بلغتْه ، فاصْطكَّت أجْرامُ عداوتِه ، وأخَذَ فى وُجُوه مُطالبتِه ، منها :

نَالَتْ سُلَيْمَانَ مِنْهُ رِجْلٌ ... مِنْ قَبْلُ مَا أَرْجَلَتْ أَبَاهُ

فَاسْتَدْرَجا كاشِفَى دُجَاهُ ... يَا وَيْلَةَ المَرْءِ ! مَا دَهَاهُ !

يَا سُخْطَ رَبِّ العُلَا عَلَيْهِ ... إذْ أَدَّتِ (٤) المُرْتَضَى يَدَاهُ

لَمْ يُبْقِ مِنْ زُمْرَةِ المَعَالِى ... إلاَّ هِشَامَ العُلَا أَخَاهُ

١٥ يَا رَبِّ فَاحْرُسْهُ لِى بِعَيْنٍ ... تَمْنَعُهُ الدَّهْرَ مِنْ أَذَاهُ

وفى فَصْلٍ :

وقالَ فيه أيضاً مَسْلمةُ بنُ عبدِ الملك :

لاَ تعرِضَنْ لإمَامٍ ... فَبَحْرُ نَحْسِكَ طَامِى

(١) ر : « بسعد » (٢) م : « بها » (٣) م ، ب « وهى »

(٤) م : « دهت »

أَصْمَيْتَهُمْ دُونَ رَمْيِي واللهِ إِنَّكَ رَامِي

ثم اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ هذا الخَبِيثِ أَيَّامَ المُسْتَظْهِر ، فلم يُبْقِ غايةً من اهتِضامِي إلاَّ امتدَّ لها ، وأَجْرَى نَحْوَها ، وقَصَّرَتْ به الأقدارُ دُونَهَا ، وظَاهَرَ صاحِبَه أَبَا الحَسَنِ عَلَيَّ ، وقاد مَضَرَّتَه إلىَّ ، وصَنَع شِعرًا حَمَّلَنِيهِ عِنْده ، وهو :

يَا كَسْرَةً دَهَمَتْنَا لَيْسَ تَنْجَبِرُ وَسُبَّةً لَحِقَتْنَا مَالَهَا عُذُرُ

بَاتَتْ قُعُودًا رِجَالٌ طَابَ مَحْتِدُهَا وَقَامَ نَذْلاَنِ فِي سَنْخَيْهِمَا[1] بَخَرُ

أَمْسَى قُدَارُ يَسُوسُ الْأَمْرَ أَجْمَعَهُ لَقَدْ تَأَنَّقَ فِيمَا سَاءَنَا القَدَرُ

وَذَا أَبُو الْيُسْرِ قَدْ أَمْسَى لَهَا وَزَرًا إِنَّا إِلَى اللهِ ، يُسْرٌ جَرَّهُ عُسُرُ !

نَذْلاَنِ ما حُرِّكَا إِلاَّ فَشَا[2] ذَفَرٌ نَفْحَ[3] الكِلاَبِ إِذَا مَامَسَّهَا المَطَرُ

لَوْ أَنَّ أَشْيَاخَنَا كَانَتْ لَهُمْ هِمَمٌ تُبْقِي رِيَاسَتَنَا لَمْ تَرْأَسِ البَقَرُ

لَكِنَّهُمْ — وقَضَاءُ اللهِ مُحْتَمَلٌ — لَيْسُوا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ أَنَّهُمْ صُوَرُ

إِذَا هُمُ اجْتَمَعُوا يَوْمًا لِمُعْضِلَةٍ رَأَيْتَ نَارَ التَّقَالِي كَيْفَ تَسْتَعِرُ

يُومُ يُرَى[4] الشُؤْمُ بادٍ فِي صحيفتِه[5] وَقِرْدُ سُوءٍ عَلَى صَفْحَاتِهِ وَبَرُ

فأَغْرَيَا بِي ، وأَرْصَدَا لِي ، فكَفَى اللهُ شرَّهما ؛ فشَبَّا حَرْبَ البَسُوس ، وتَنَاقَرَا عَلَى الرءوس ، وكانتْ هامةُ أحدِهما صِينيَّة ، أو مِرآةً هِنْدِيَّة ، فكَبا الجَدُّ بِمَنْ كَبَا ، ونَبَا المَجْدُ عَنْ هامةِ مَنْ نَبَا ، لِيَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَه ، ويَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا .

فكيف يُصْغِي المُوَفَّق — أيده الله — إلى رَجُلٍ هذه صِفَتُه ، وبَيْنِي وبَيْنَه ما قَدْ شَرَحْتُه وأَوْضَحْتُه ؟ فلْيُجِرْنِي من قَبُولِ حَدِيثِ هذا

---

(١) ه : « ونام من كان فى سبخيهما حجر » (٢) ر ، ه : « بدا »

(٣) ه : نبح » (٤) ر : « يوما ترى » — ب ، لب ، ه : « يوم »

(٥) لب : « صبيحته »

الخَبيثِ فىّ ، وإصغائه إلى كذبه علَىّ[١] ، وليُجِرْ نَفْسَه من عادِيَتِه ، وَيَنْظُرْ من وَجْهِ فائدته ، يَجِدْه أشقَى الأشقياء ، وأضْعفَ الضُّعفاء . إنما هُوَ لِطَبْخِ إكْسير ، أو لِشَدِّ قَصْدير ، أوْ لِنَقْشِ فى ذَكِير ، أو لادِّعاءِ أعمال ، أو لِتَغْشِيَةِ[٢] مِثْقَال ، أو إقامةِ طِلَّسْمات ، وهو خَلِىٌّ[٣] من ذلكَ كلِّه ، والحَقيقةُ نائيةٌ عنه ، والشَّعْوَذَةُ غيرُ مُسْتَمْلَحةٍ منه ، لبَرْدِ طباعِه ، وقِصَرِ باعِه ؛ وإنَّما هِىَ لأديبٍ ظَرِيف ، ذى فَهْمٍ لَطيف . فأمَّا هُوَ فأبْرَدُ من ثَلْجَة ، وأشَدُّ عُفُوصَةً من عَفْصَةٍ فَجَّة ، إذا تقبَّضَ أنْفُه ، وشَمَخَ طَرْفُه . ولولا أنَّ المُلُوكَ لا تَتهادَى بالوَضِيع ، ولا تعتَمِدُ[٤] فى تُحَفِها غيرَ الرَّفيع ، لرأيتُ أنْ تُهدِيَهُ إِلَى البَلِّينةِ مَلِكةِ البَحْر ، والقَيِّمةِ بالأَمْر ، لِينْصَرِفَ[٥] الباردُ إلى عُنْصُرِه ، وعَسَى أنْ يُخرِجَه البَحرُ بعدَ حِينٍ فى عَنْبرِه ، فيكونَ أحَرَّ قَليلا ، وأهْدَى إلى ذلكَ[٦] سبيلا ! ولولا أنَّ وَصْفَ هذا الخبيثِ داخلٌ فى مُعاتَبةِ المُوفَّق ، لَمَا ارْتَضَيتُ سَوْقَه ، ولا غَشَيْتُهُ[٧] من كلامى رَوْقَة ، فإنَّما يتعاتبُ الأكْفاء ، ويَتمازَحُ الأخِلَّاء[٨] .

فُصُولٌ قِصارٌ اقتضبتُها من طويلِ كلامه

فصل :

جلاَ الشُّكوكَ بيَقِينِه ، واستَنْبطَ مَعْرِفَةَ الأعْمالِ من شُئونه ؛ وقسَم لَيْلَه نِصْفَين : نِصْفًا للتِّلاوة ، ونصْفًا للسِّياسة ؛ ويَومَه شَطْرَين : شَطْرًا للمَيْدان ، وشَطرًا للدِّيوان ؛ فاستجَمَّ دَرَّ الخَراج ، ونَزَفَ دِماءَ الأعْلاج ، مِنَ الأَوْداج .

(١) ب « كذبه وإنحائه على »
(٢) ه : « لتنشبة »
(٣) ب : « خلو »
(٤) ر : « ترى »
(٥) ر : « لتصرف »
(٦) ب ، ه : « إذ ذاك »
(٧) ه : « ولا تجشمت »
(٨) ب ، ه : « الأشباه »

فصل :

لا نِعْمَةَ للخالقِ على المخلوق ⁽¹⁾ أجملُ عاقبة ، وأَحْمَدُ مَغَبّة ، وأَرْوَقُ بَهَاء ، وأسبغُ رِدَاء ، وأبعدُ مأثُرَة ، وأَيْسَرُ مَكْرُمة⁽¹⁾ ، من تُقًى يُشْعِرُها قلبه ، وأَدبٍ يَزِنُ به عَقْلَه ، ولِسانٍ مُبِينٍ يُفيضُه عليه فيُعْرِبُ به عن نفسه ، ويكشفُ عن حقيقةِ ذاته ، قال الله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »⁽²⁾ ، وقال : « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ »⁽³⁾ ، وقال : « سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ »⁽⁴⁾ ، وقال : « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ »⁽⁵⁾ ، وقال علىٌّ رَضِىَ اللهُ عنـه : قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِن ، وقال : المَرْءُ مَخبوء تَحْتَ لِسانه . ولذلكَ كانَت المُلُوكُ تَعدِلُ ببَنِيها عن التَّنَعُّم إلى شَظَفِ العَيْش ، وتُدْنى مَحالَّهم⁽⁶⁾ من البادية ، وتبوِّئُهم مَنازلَ الفَصاحة ، لِتَحْتَدَّ أفئدتُهم ، وتَمتَدَّ أَلْسِنَتُهم ، ويَنْسابُوا فى لِصابِ الدَّهاء ، ومَزاحِفِ النَّكْراء ، فيُجِيدُوا الحزَّ ، ويُطَبِّقُوا المَفصِل ، ويَسُوسُوا النُوب ، ويَكْبِتُوا⁽⁷⁾ الخُصُوم ، ويَخرُجوا من الغَمَّاء ، ويَمْضُوا قُدُمًا فى⁽⁸⁾ الشَّنْعاء ، كما قال عَمْرٌو لِمُعاوِيَة :

فَإِنْ تُعْطِنِى مِصْرًا فأَرْبِحْ بِصَفْقَةٍ أَخَذْتَ بِهـا شَيْخًا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

وإنَّ امرءًا يقابِلُ ابنَ هِنْدٍ بهذا ، وهُوَ هُو ، لَفَضْفاضُ قَمِيصِ الأَدَب ، طويلُ نِجادِ المَعْرِفة ، موقوفٌ عَلَى ذِرْوَةِ الفَضْل⁽⁹⁾ .

(١ — ١) ى فى ر ، ى
(٢) سورة ٤٩ : ١٣
(٣) سورة ٣٩ : ٩
(٤) سورة ٣٣ : ١٩
(٥) سورة ٤٣ : ١٨
(٦) ى : « مجالهم »
(٧) ى : « ويكفوا »
(٨) ى : « من »
(٩) ب ، ى : « موف على ذروة العقل »

فصل :

واصَلَ الجهاد ، واستأصَل الكُفْرَ والعِناد ، واتَّخَذ ظهرَ الجَوادِ بَيْتا ، وظِلَّ اللِّواء كِنًّا[١] ، واستَبْدَل من نَقْرِ الكِرانِ قرْعَ الطُّبُول ، ومن نغَمِ القِيانِ شجَا الصَّهيل ، ومن وَجْبَةِ المَعازِف[٢] لَجَبَ الجُيوشِ ؛ يَمشِى فى الهَجير ، ويَسْرى فى الزَّمْهَرير ، ويَحِنُّ إلى الأذانِ والتَّكبير ؛ فى خِطَّةِ إبْليس ، ومَصْدَحِ النَّاقُوس .

فصل :

كنتُ أسمعُ منْ هذِه المآثِرِ والمَكارِمِ مِثْلَ نفحِ الصَّبا ، ويقرعُ أذنى منها جَرْسٌ ألذُّ مِنْ نَغْمةِ الصِّبا ، فَلاَ أُكَذِّبُ ، لصِدْقِ الشَّاهد ، وأمانةِ النّاقِل ، وكَثرةِ القائِل . والحكيمُ أبو فلان خادمُ الشَّيْب ، ومُصلِح العَيْب ، وله جُوارِشاتٌ مؤلَّفة ، حارَّةٌ مفَلْفَلة ، تكاد تَرُدُّ الخَصِىَّ فَحْلا ، والثَّوْرَ المُسِنَّ عِجْلا .

فصل[٣] :

أجَلُّ ما بَيْننا ارتضاعُ الكاس ، وشمُّ الآس ، والجرىُ فى حافَاتِ الصِّبا ، والصَّيْدُ بالسُّكر فى الرُّبى ؛ وإنْ كانتْ هَنَاتٌ مُخْلِقَة ، وأوقاتٌ مُوبِقة ، ذَهبَتْ وبقِىَ وِزْرُها ، وطَعَنتْ وأقامَ شرُّها ، فإن المرجوعَ للعليمِ الحَكيم ، ربِّ العرشِ العظيم .

وله من رُقْعةٍ خاطَبَ بها مُجاهدًا أميرَ دانية وقْتَه :

[٤] قد يُخْلِفُ الغَمام ، وتَغْدِر اللِّئام ، وتُقْطَع الأرحام[٤] . من عَزَّ بَزَّ ،

---

(١) ب ، لب : « كميتا » (٢) ر ، ب : « المعارف »

(٣) هذا الفصل لم يقع فى ر ، د (٤—٤) د فى ر ، د

ومَنْ رَيْش طَار ، ومَنْ سارَتْ به الأيّامُ سار ، وعلى الجدِّ المَدار . جَدٌّ كَبَا ، وحُسامٌ نَبَا ، وآمالٌ تفرقَتْ أيْدِى سَبَا . كلماتٌ أنثُرُها عليك ، وآمالٌ أصرفُها إليْك ، كُنّا قبلَ أنْ ترمىَ بنا النّوى مَرَاميها ، وتُلْقِى الخطوبُ علينا مَراسيها ، وتَمْخَضنا الأيامُ مَخْضا ، وتركُضَ بنا اللّيالى رَكْضا ، تِرْبَىْ صُحْبة ، وحَليفَىْ صَبْوَة ؛ قد تَخلَّيْنا[1] عن الأنساب ، وانتسبْنا إلى الآداب ، والدّارُ إذ ذاكَ صَقَب ، والملتقَى كثَب ؛ [2] فإذا شمخ بأحَدِنا مارِن ، وثار به كمَدٌ ساكن ، بعَتْبٍ على زمن ، وتقصير بإرادةٍ عن سَكَن ، تعاطَينا كأسَ الشَّكْوى ، وتجاذَبْنا حبلَ البلْوى[2] ، والزمانُ غِرٌّ ، وحواصِلُنا صُفْر ، نَترنَّمُ ترنُّمَ الحَمام ، على زُرْقِ الجِمام ؛ ثم ألْقت الأيّامُ علينا بكَلْكَل ، وأناخَتْ مِنْ فوقِنا بجِران ، فنثَرَتْنا[3] بكُلِّ فجٍّ عميق ، وأُفُقٍ سَحيق ، [4] نَثْرَ الدُّرَر ، شَذَرَ مَذَر[4] ؛ ونفحتْ عليكَ رياحُ السَّعْد ، وجاءتْكَ المُنى من تِهامَةَ ونَجْد ، وامتطيتَ ظَهْرَ الجوزاء ، وافترشْتَ لِبْدَةَ العوّاء ؛ وكلما دُعيتَ إلى النِّزالِ والعِراك ، تَترَّسْتَ بالثُّرَيَّا وطعَنْتَ بالسِّماك ، فزَحمْتَ مَنْكِبَ الدَّهر ، وقضيْتَ أربَكَ مِنْهُ على قَهْر . فكان أوّلَ حَيْصَتِكَ عن الوفاء ، وحَيْدَتِكَ عن رِعايةِ قديمِ الإخاء ، أنْ تركتَ المُخاطَبة ، وأضْربتَ عن المكاتَبة ، خشيةَ أنْ يكونَ كَلُّنا عليك ، ورغبتُنا فيما لديْك ، وهَيْهات ! يأبَى ذلكَ كَرَمٌ مَحْض ، وهِمّةٌ عَلْياء مالَها خَفْض . ثم قلتُ : حَمْلُ أحسَنِ[5] الظَّنِّ أجْمَل ، والقضاءُ بأكْرَمِ العَهْدِ أقْبَل ، قد تَشْتغِلُ الرؤساء ، وتتجاذَبُ العُظَماء ، وعينُه مع ذلِكَ راعِيَة ، وأُذُنُه واعية ، وإنما الوصْلُ بالفُؤادِ لا بالمِداد ، والالْتِقاء

(١) ب : « جلينا » (٢—٢) سقط فى ر ، و
(٣) ر : « فنشدتنا » — و : « فنشرنا » (٤—٤) سقط فى ر ، و
(٥) و : « أجمل على حسن »

بالحُلوم لا بالجُسوم ، فانطويْتُ على وُدّ ، وثبَتُّ على صِحّةِ عَقْد[١] . ثم دارت الدُّهور ، وطلَع البشير ، أنْ قيلَ طالعكم عسكرٌ جرّار ، فيه لأُسْد العرينِ نار ، قُضِيَ لكم به الأمر ، وخَفَقَتْ عليكم أَلوِيَةُ النَّصر ، فقلت : مَنْ زَعِيمُ هذا الجيش ؟ قيل لى : أخوكَ أبو الحُبَيش ، قلت : رءوفٌ عطوف ، شَقّاقٌ للصُّفوف ، وواحدٌ يُعْدَلُ بأُلوف . وقُلْت : رُدَّ شُهَيدٌ فى[٢] أُمّتكَ مِنْ أَمَم ، وجاءتْكَ تَسْعَى على قدَم ، وَضَح الصُّبْحُ لذى عينيْن ، وأَمكَنَ البطْشُ ذَا يَدَيْن ؛ هذا حَبِيبُكَ قائدُ أعِنّتها ، وذَا خَليلُكَ مَالِكُ أَزِمَّتِها ، هذا أبو الحُبَيش مُصْعَبٌ على مُقْرَب ، ومُغضَبٌ يَضْرِبُ بِمِقْضَب ، آنَ لذَهَبِ العِلْمِ أن يَزِفّ ، وحان لجوهرِ الفهْمِ أنْ يَشِفّ ؛ ويْلٌ للجهلِ وبَنيه ، وعَشِيرتِه وأقْرَبِيه !

وفى فصل :

[٣]ولقيتُ إخواناً لَقُوك ، فوالذى جعل الغدرَ من شِعارهم ، والحذرَ مِنْ دِثارهم ، ما أجْرَوْا فى ذِكرِك ، فضلا على أن يجرُوا ذِكْرى لك . وهُمْ يعلمون أنّ مرمَاىَ غيرُ مرماهُم ، ومغْزَاىَ سِوَى مغْزاهُم ، ويوقِنُون أنّ[٣] أبْعَدَ آمالِى فى صَدِيقٍ إذا سَما ، وأرفعَ رَغَباتِى لديْه[٤] إذا طَمَى ، انفِراجُ بابِه ، وانهِتاكُ حِجَابِه ، يُمتِعُنى بإشراقِ وجهه ، ويورِدُنى غديرَ بِشْرِه ، ويَزِنُنى بغَيْرِى مِنْ إخْوانِه ، ويضرِبُنى بسِوَاىَ مِنْ أهلِ زمانِه ، [٥]ولا يُقلِّلُ حظّى مِنْ إكرامِه ، ولا يهجُرُ قِسْطِى من لطيفِ اهتِمامِه[٥] ، بعد أنْ يُعدِّلَ القِسطاس ، ويُمَيِّزَ الذَّهَبَ مِن النُّحاس .

---

(١) ى : « عهد » (٢) ر : « شهيدى »
(٣—٣) ى فى ر ، ى (٤) ى : « إليه »
(٥—٥) ى فى ر ، ى

وفى فصل :

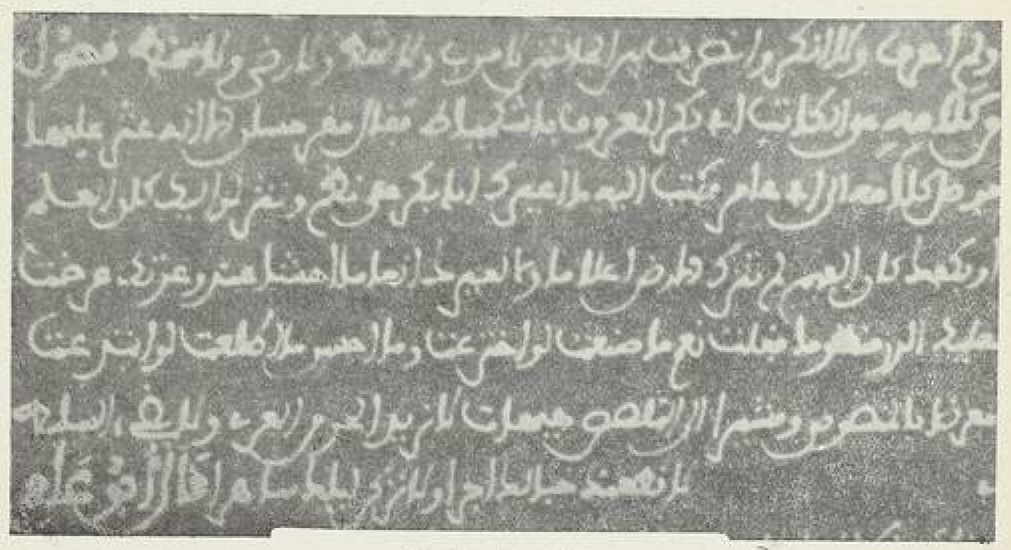
(١)وهذا أخفُّ حِمْلٍ وأيسر(١) . فأدْرَكنى(٢) ما يُدْرِكُ مَن طاب غَرسُه ، وكرُمَتْ عليه نفسُه ، وأزْمَعْتُ عَلَى المقاطعةِ ، فقُلْتُ : الصبرُ أوْلَى ، والإنْصَافُ أحجَى(٣) ، لا بُدَّ أنْ تُوَفَّى الرِّجالُ مقادِيرَها فِى أزْمَانِها ، ويُستَحالَ لها عندَ استِحالَةِ أعْيانِها ؛ وتَخَشَّعُ مَنْ أوْهَد لِمَنْ أصْعَد سَدَاد ، وتَلَيِّنُ مَنْ أتْهَم لِمَنْ أنْجَدَ رشَاد ، فتَقَلْقَلَتْ واضطَرَبتْ ، وتَجَمَّعتْ لِى وانقبضت ، ثم جاشَتْ كما يَجِيشُ البَحر ، له هَمْهَمَةٌ وزَخْر ، فقالت : ثَكِلَتْكَ المكارِمُ يا ابْنَ الأَكَارِمِ ! أَلَسْتَ مِنْ أشْجَعَ فى العُلا ، ومِن شُهَيْدٍ فى الذُّرَى ، وللخالِقِ فى صَدْرِكَ حِكْمة ، وللرَّازِقِ فى حِجْرِكَ نِعْمة ؟ تقولُ بهـذه فتُسمَع ، وتَغْنَى بِتِلْكَ فلاَ تَخْضَع ، وساوَيْتَ امرأً لمْ تَحْتَجْ إليه ، ووازَنته مَالَمْ تطمَعْ فيما لديه ؟ لا أُسِرُّ إنَّما أُعلِن ، قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحْسِن . قُلْتُ لَها : فأَيْنَ اليأْس ؟ قالتْ : هُوَ فِى القلبِ والرَّأْس ، لَئِنْ أصابَه غيرُكَ فارِساً ، إنكَ لَغيرُ بعيد منه راجلا ، فقلت : لقد أدركَتْكِ عَجْرَفِيَّة ، واستَولَتْ عليكِ أعرابية ، لابدَّ من قصدى إلى الحُبَيْش ، قالت : ليَهْنِكَ العيش ، فى أبردَ من ظِلِّ الخَيْش ! وقصدْتُكَ من جهتى ، فلم أُشُكَّ ولم أُقِرّ ، ولم أعرف ولم أُنـكِر ، وانصرفتُ بين الحالتين ، لا قُرْبٌ ولا شَحْط ، ولا رِضًا ولا سُخْط .

[وعُرِضت] فصولٌ من كلامه على الكاتب أبى بكر المعروف باشكمياط ، فقال : فِقَرٌ حسانٌ إلاّ أنه عَثَرَ عليها . فوصل كلامُه إلى أبى عامر فكتب إليه :

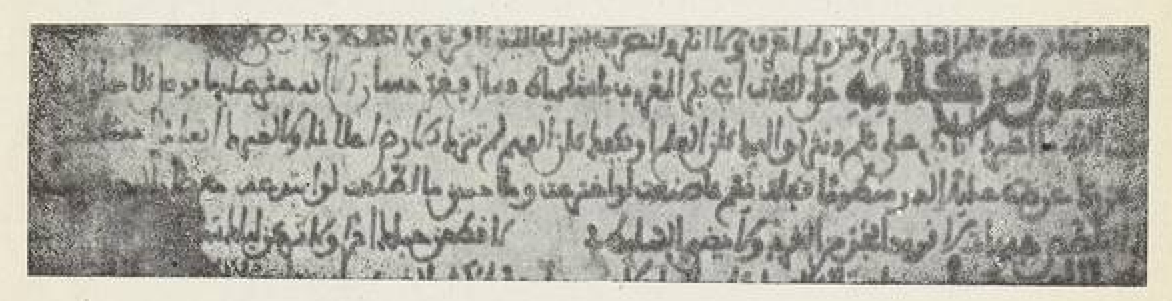
(١—١) ز فى ب (٢) ب : « وقدما حرر لى »
(٣) م : « الصبر أحجى ، والإنصاف أولى »

ما أغْيَرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر، لو إليكَ كان العلْم، أو بكفّك كان الفهْم،
لم تترك الأرْض اعلاما، ولا لغيرك انعاما؛ أخشَى عند رِعدتك عرضت عليك
الدُّرّمنظوما. فقلت: نعم ماصنعت لو اخترعت. وما أحسَنَ ما أطلَعت لو ابتدعت.
مُعرّضاً بالتَقصُّص، ومشيراً إلى التلصُّص. هيهات لأزيد الحر من العرب. ولا
٥ يُطِيء السّليط فى [. . .] لأقْطَعنّ حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا [١].

(١) لم يرد هذا الفصل إلا فى مخطوطتى ب، لب؛ وقد آثرنا نشر صورته الشمسية فيهما لعدم وضوحه واضطراب معناه ورغبة فى وضعه كما هو تحت نظر القارئ.



صورة الفصل فى مخطوطة ب



صورة الفصل فى مخطوطة لب

وله فى فصل :

وإصابةُ[١] البيان لا يَقومُ بها حِفْظُ كثيرِ الغريب ، واستيفاءُ مَسائلِ النَّحو ، بل بالطبعِ[٢] مع وَزْنه من هذَيْن[٣] ؛ ومِقـدارُ طبعِ الإنْسان إنَّما يكونُ عَلَى مقْدارِ تركيبِ نفسِه مع جِسْمِه ، فمن كانتْ نفسُه فى أصْلِ تركيبه مُستَوليَةً عَلَى جِسْمِه ، كان مَطْبُوعًا رُوحَانيا ، يُطْلِـع صُوَرَ الكلامِ والمعانِى فى ٥ أجملِ هَيْئاتِها ، وأرْوَقِ لِبْسَاتِها ؛ ومَنْ كان جِسْمُه مُسْتَوْليًا على نفسِه — مِنْ أصْلِ تركيبه — والغالبَ على حِسِّه ، كان ما يُطْلِـعُ مِنْ تلكَ الصُّورِ ناقصًا عَنِ الدَّرجةِ الأُولَى فى الـكمالِ والتَّمام ، وحُسْنِ الرَّوْنَقِ والنِّظام . فمن كانَتْ نفسُه المستوليةَ على جِسْمِه فقد تأْتِى منه فى حُسْنِ النظام ، صورٌ رائقةٌ من الكلام ، تملأُ القُلُوب ، وتَشْغَفُ النُّفُوس . فإذا فتَّشْتَ لِحُسْنِها أصْلاً لم تجدْه ، ولجمال ١٠ تركيبها أُسًّا[٤] لم تعْرِفْه ؛ وهذا هو الغَرِيب ، أنْ يتركَّبَ الحُسْنُ من غيرِ حُسْن[٥] ، كقولِ امرئْ القيس :

* ألا عِمْ صَباحًا أيُّهَا الطَّلَلُ البالِى *

وقولِه :

تنَوَّرْتُها مِنْ أذْرِعَاتٍ وَأهلُها بِيَثْرِبَ أدْنَى دارِها نَظَرٌ عَالِى ١٥

فإن هذه الدِّيباجَةَ إذا تَطَلَّبْتَ لها أصْلاً من غريبِ معنًى لم تجدْه ،[٦] وكقولِ أبى نواس[٧] :

طَرَحْتُمْ مِنَ التَّرْحالِ ذِكْرًا فغَمَّنا فلو قد شَخَصْتُمْ صَبَّحَ الموتُ بعضَنا[٦]

---

(١) ب : « صناعة الـكلام وإصابة ... » (٢) ب : « وإنما يقوم بها الطبع »

(٣) ز فى ب : « النحو والغريب » (٤) ه : « وجهاً » (٥) ه : « الحسن »

(٦ — ٦) سقط فى ز ، ه (٧) راجع ديوانه ص ٤٥

[١]ثم قال فيها :

سَأَشْكُو إلى الفضلِ بن يحيى بن خالدٍ هَوَاكِ ، لعلّ الفضلَ يجمعُ بيننا

فهذا من الكلامِ الغثّ ، واللفظِ الرثّ ، الذى لو رامه حِمار الكُساح لأدرَكه[١] ، ولكنْ له من التعلّقِ بالنفسِ ، والاستيلاءِ على القلبِ ما ترى .

٥ وفى فصل له :

وقول الجاحظ : إنّا إذا اكتَرينا مَنْ يعلّمُ صِبياننا النَّحوَ والغريبَ قنِع منّا بعِشرين درهماً[٢] فى الشهر[٣] ، ولو اكترينا من يُعلِّمهم البيانَ لَمَا قنِع منّا بألفِ دِرْهم . ولم يَقُل هذا إلاّ وقد ألّف « كتابَ البيان » . ولو كشَفَ فيهِ عن وجهِ التعليم ، وصوّر كيفيةَ التّدريج ، لأرى كيفَ وضعُ الكَلام ، ١٠ وتزيينُ[٤] البيان ، وكيفَ التوصُّلُ إلى حُسْنِ الابتداء ، وتوصيلُ اللّفظِ بعْدَ الانتهاء ، وأبْدى لَهُمْ عن تدبيرِ المقاطِع والمطالع ، فإنّها معادِنُ[٥] الصّنْعة ، ومواضِعُ مفاتحِ الطّريقة ؛ ولكنّه استمْسكَ بفائدَتِه ، وضنّ بما عِندَه ، غَيْرةً عَلَى العِلْمِ ، وشُحّاً بثَمرةِ الفهم ، وعرَفَ أنّ النفعَ كثير ، والشاكرَ قليل ، فلمْ يُفِدْ بما أوْضَحَ من أمْرِ البيان فائدةً غيرَ أهْلِهِ ، ومَنْ كَرَع فى حَوْضِه ، واشْتافَ من ١٥ نَدّه[٦] . وأمّا أن يُخرِّجَ مُبْتدِئا ، أو يُعلّمَ جاهِلاً فلا ألْبَتّة .

(١ — ١) ه فى ر ، ه (٢) ب : « ديناراً »
(٣) ب ، لب : « رأس كل شهر » (٤) ه : « وتنزيل »
(٥) ه : « مغانى »
(٦) ب : « واشتار من ثغره » — ه : « واستأنف من نقده »

وفى فصل له :

قال أبو عامر :(١) وقد كُنَّا أطْعَمْنا مِنْ هذَا الطَّعَامِ بعضَ التَّلاميذ ، فاستَطابَه وعَلِمَ مِقْدارَه ، ولـكنَّ البَطالَةَ عَلى الفِتْيانِ غالبَة ، والسآمَةَ عليْهم مُسْتَولية(١) ؛ فمَن بَنى على تَعْليمِ هذا الشانِ فلا يعلِّمْ إلاَّ أهلَ النجابَةِ(٢) والمثابَرةِ على التَّعْليم(٢) ، لأنه مَنْ لَمْ يَنجُبْ له تلميذ حُمِلَ عليه ذَلِكَ النَّقْص ، وظُنَّ بِهِ العَجْز . ٥

جلسَ إليَّ يومًا يوسُفُ بنُ إسحاقَ الإسْرائيلى(٣) ، وكان أفهمَ تلميذٍ مَرَّ بى ، وأنا أُوصِى رجُلا عزيزا علىَّ من أهلِ قُرْطُبَة ، وأقول له : إن للحروفِ أنساباً وقراباتٍ تبدو فى الكلمات ، فإذا جاوَرَ النسيبُ النسيبَ ، ومازجَ القريبُ القَريبَ ، طابَتِ الأُلْفة ، وحسُنَت الصُّحبة ؛ وإذا رُكِّبت صُوَرُ الـكلَامِ من تلكَ ، حَسُنَتْ المناظر ، وطابَت المخابِر ، أفهِمْتَ ؟ قال لى : إى واللهِ ! قلت له : وللعُذوبةِ إذا طُلبتْ ، والفَصاحةِ إذا التُمِستْ ، قوانينُ من الكلام ، من طلَبَ بهـا أدْرَك ، ومَنْ نكَّبَ عنْها قصَّر ، أفَهِمْتَ ؟ قال : نعم ، قلت : وكما تَختارُ مَليحَ اللفظِ ، ورَشيقَ الكلام ، فكذلكَ يجبُ أن تختارَ مليحَ النَّحو ، وفَصيحَ الغريب ، وتَهْرُبَ عن قبيحه ، قال : أجَلْ ، قلت : أتفهَمُ شيئاً من عُيونِ كلام القائل : ١٠

لعمرُكَ إنى يومَ بانُوا ، فلمْ أمُتْ خُفَـــاتاً على آثارِهِمْ ، لصبورُ ١٥
غداة التقَيْنَا إذ رَميْتِ بنظرةٍ ونحنُ على متْنِ الطريق نَسيرُ
ففاضَتْ دموعُ العينِ حتى كأنَّها لِنـــاظرِها غُصْنٌ يُراحُ مَطِيرُ

فقال : إى وَاللهِ ، وقعتْ « خُفاتاً » موقعاً لذيذا ، ووُضِعَتْ « رَمَيْتِ »

(١—١) د ف ر ، ه (٢—٢) د ف ر ، ه

(٣) ر ، ه : « يوسف الإسرائيلى »

و « مَتْنِ الطَّرِيق » وضعًا مَلِيحا . وسَرَى « غُصْنُ يُرَاحُ مَطِيرُ » مَسرَى لطيفا ، فقلتُ له : أرْجُو أنَّكَ تنسَّمْتَ شيئاً من نَسِيمِ الفَهْمِ ، فَاغْدُ علىَّ بشىء تَصنعُه . قال أبو عامر : وكان ذلكَ اليهوديُّ ساكتاً يعِى ما أقول ؛ فغدا ذلك القرطبىُّ فأنشدنى :

٥ حَلَفتُ بِرَبِّ مَكَّةَ والجِمَالِ لَقَدْ وُزِنَتْ كُرُوبِى بالجِبَالِ

فى أبياتٍ تُشبِهُهُ . وجاء اليهودىُّ فأنشدَنِى :

أَيَمَّ رُكْبَانُهُمْ مَنْعِجَا وقَدْ ضَمَّنُوا قَلْبَكَ الهَوْدَجا ؟

واسْتَمرَّ إلى آخرِ قصيدته ، فأتى بكلِّ حَسَن[1] ، فقالَ لِى ذلكَ القُرْطُبِىّ : شِعْرُ اليهودىِّ أحْسَنُ مِنْ شِعْرِى ، قلتُ : ولا بأسَ بفهمِك إذْ عَرَفتَ هـذا .

١٠ ولم يزَلْ يتدرَّبُ باخْتِلافِهِ إلىَّ حتّى نَدِىَ تُرْبُه ، وطَلَعَ عُشْبُه ، ثم تَفتَّحَ زَهْرُه ، وضَاعَ عَبَقُه . ورآنِى أستعملُ وحْشِىَّ الكَلامِ فى مواضِعِه ، ولم يَشْعُرْ بحُسْنِ الوَضْعِ ، فاستعملَ شَيئاً مِنه وعَرَضَهُ علىَّ ، فقلت : اسْتُرْه ، فقال : تَبْخَلُ علىَّ به . وعَرَضَهُ على ابنِ الإفْلِيلِى ، فقال له : تنكَّبْ هذا الكَلَامَ ، فقالَ له : إن أبا عَامِرٍ يستَعمِلُه ، فقال : يَضَعُهُ فِى موضِعِه ، وهو أدْرَبُ مِنْكَ فى استعمالِه[2] .

١٥ وفى فصل له :

ورُبَّما لاَذَ بِنا المُسْتَطْعِمُ باسْمِ الشِّعرِ ممن يَخْبِطُ العامَّةَ والخاصَّةَ بسؤالِه ، فيصادفُ منَّا حالةً غيرَ ذاتِ فَضْلَةٍ ، لا تَتَّسِعُ له فى كَبِيرِ مَبَرَّة ، فنُشاركُه ونعتذِرُ له ؛ وربّما أفَدْنَاهُ بأبياتٍ يعتَمِدُ[3] بهـا البَقَّالِين ومَشْيَخَةَ[4] القَصَّابِين ، فإذا

(١) ب : « بكل شىء حسن » (٢) د ف ر ، ط — ز فى ب ، لب : « فانصرف إلى ، وعرفنى بما جرى ، وسألنى أن أكشف له السر فقلت »

(٣) ط « يتعمد » (٤) ط : « ومشايخ »

قَرَعتْ[1] أسماعَهم ، ومازَجتْ أفهامَهم ، دَرَّ حَلَبُهم ، وانحلَّتْ عُقَدُهم[2] ، وجَلَّ شَخصُ ذلِك البائسِ فِي عُيُونِهم ، فما شِئْتَ إذْ ذاكَ منْ خُبْزَة وَثِيرَة يُحشى بِها كُمُّهُ[3] ، ورَقَبَةٍ سَمِينةٍ تُدْفَنُ فى مِخْلاتِه ، ومِنْ كُوزِ فُقَّاعٍ يُصَبُّ فى فَمِه ، وتِينةٍ رَطْبَةٍ يُسَدُّ بِها حُلقُومُه ، وسَنْبُوسَقَةٍ وَدِكَةٍ تُدَسُّ تحتَ لِسانه ، وفالُوذَجَةٍ رَطْبَةٍ يُحنَّكُ بها حَنَكُه ، فلا يَكادُ البائسُ يَستَتِمُّ ذلكَ حتى يأتينا فيُكِبُّ عَلَى أيدِينا يُقبِّلُها ، وأَطْرافِنا يَلطِمُها ، راغِبًا فى أنْ نَكشِفَ له السِّرَّ الذى حرَّكَ العامَّةَ فبذَلَتْ ما عندَها له ، وبادَرتْ بِدَرِّها[4] إليه . وتَعليمُه ذلكَ النَّحوَ من أنحاء السِّحرِ لا نستطيعُه ، لأنَّ هذا الذى يُرِيدُه مِنَّا هُوَ تعليمُه البَيان ، وبين فِكرِه وبَيْنَه حِجاب ؛ ولكل ضَرْبٍ من الناس ضَرْبٌ من الكلام ، ووَجْهٌ من البَيان ؛ والمرءُ لا يُفجِّرُ صَفاةَ غيرِه إلاَّ أن يُوفِيَ على مَعرِفةِ ذلك بفَهْمِه التَّبْيينَ والتَّبَيُّن ، ويكونَ من المستَنْبِطين بوجُوهِ[5] الحِيَلِ على قوانينَ قائمة ، وأُصولٍ ثابِتة ، فتكونَ النَّتيجةُ ما سمعت .

وفى فصل :

وأصعبُ من هذا تحريكُ البُخَلاء من الكُبَراء إلى البَذْل ، لأنَّهم بعادتهم لاتُمكِن نُقْلَتُهم لعزَّتِهم ، ولِما اشتَمَلتْ عليه ثِيابُ مَجْدِهم ، فلايَنجعُ تَقريظُهم[6] ؛ فهاهنا يُحتاجُ إلى أثقبِ ما يكونُ من الذِّهْن ، وأوسعِ ما يُمكِنُ من الحيلة ، إلاَّ أنَّ هذِهِ العِصابةَ لا يتمكَّنُ لذى التَّفاهةِ تَحرِيكُها ، ولا بُدَّ لَها من طبقةٍ

---

(١) ب ، لب : « قارعت » (٢) ر : « عهدهم »

(٣) ب ، لب : « كنه » (٤) ر : « بزبدها »

(٥) ب ، لب : « بجميع » — ه : « لوجوه »

(٦) ب ، لب : « تفريضهم »

يكونُ لها فى العَيْن بعضُ التَّصويبِ والتَّصعيد ، ولهذا صار سَبُّ الأَشرافِ عسيراً عويصاً ؛ فإنَّكَ تجدُهم يتـدحْرَج عنهم قَبيحُ المَقال ، ولا يُضعضِعُهم خَبيثُ[١] الـكلام ، لقُوَّةِ بُنْيانِهم ، وثَباتِ أركانِهم ؛ فهَدْمُ بُنْيانِ هؤلاء صَعب[٢] ، [٣]ولذلك فَخَرت العربُ بمن لا يمكن له ذلك فيهم من أهلِ الكلام[٤] ، ولذلك

٥ [. . .] [٥] سب الأشراف ، واستحسنوا من ذلك قول ابن صفوان فى شبيب : ليس لهُ صديقٌ فى السِّر ، ولا عدُوٌّ فى العلانية[٣] .

وفى فصل له :

قال أبو عامر : [٦]وكما أن لكلِّ مَقامٍ مَقالا ، فـكذلك لكلِّ عصْرٍ بَيان ، ولـكلِّ دَهْرٍ كلام[٦] ، ولكلِّ طائفةٍ من الأممِ المتعاقبةِ نوعٌ من الخَطابة ،

١٠ وضربٌ من البلاغة ، لا يوافقُها غيرُه ولا تَهَشُّ لِسواه . [٧]وكما أن للدنيا دِوَلاً ، فـكذلك للكلامِ نُقَلٌ وتغايُرٌ فى العادة[٧] . ألا ترَى أنَّ الزَّمانَ لَمَّا دار كيف أحال بعضَ الرَّسمِ الأوَّلِ فى هذا الفَنِّ إلى طريقـةِ عبدِ الحميد وابنِ المُقَفَّع وسَهْلِ بنِ هَارونَ وغيرِهم[٨] من أهلِ البيان ؟ فالصَّنْعةُ معهم أَفْسَحُ باعا ، وأشَدُّ ذِراعا ، وأنْوَرُ شُعاعا ، لِرُجْحانِ تلكَ العُقول ، واتِّساعِ تلكَ القرائحِ فى العلوم .

١٥ ثم دار الزمانُ دَوَرانا ، فـكانت إحالةٌ أُخرى إلى طريقـةِ إبراهيمَ بنِ العَبَّاس

---

(١) لب : « خبث » (٢) ب ، لب : « أضعف »
(٣—٣) ـه فى ر ، ـه (٤) كذا بالأصل
(٥) بياض قدر كلمتين (٦—٦) ـه فى ر ، ـه
(٧—٧) مقدم فى ر على قوله : ولـكل طائفة الخ
(٨) ر : وأصحابهم

ومحمدِ بن الزَّيَّات وابنَىْ وهبٍ ونظرائهم[١] ، فرقَّتِ الطِّباع ، [٢] وخَفَّ ثِقْلُ النُّفوس[٢] . ثم دار الزمانُ فاعْتَرَى أهلَه بالَّلطائفِ صَلَف ، وبِرِقَّةِ الكلامِ كَلَف ، فكانتْ إحالةٌ أُخْرَى إلى طريقةِ البديعِ وشمسِ المعالِي وأصحابِهما .

وكذلكَ الشُّعراء انتقلوا عن العادةِ فى الصَّنْعةِ بانتقالِ الزَّمانِ ، وطلبَ كلُّ ذِى عَصْرٍ ما يَجُوزُ فِيه ، وتَهَشُّ له قلوبُ أهلِه[٣] ، فكان من صريعِ الغوانى[٤] وبَشَّارٍ وأبى نُوَاسٍ وأصحابِهم فى البديع ما كان ، من استعمالِ أفانينِه ، والزيادَةِ فى تفريعِ فُنُونِه . ثم جاء أبو تمامٍ فأسرفَ فى التَّجْنِيس ، وخَرجَ عنِ العادةِ . وطَابَ ذلكَ مِنْه ، وامتثَلَه الناس ، [٥] فكل شِعْرٍ لا يكونُ اليومَ تجنيسًا أو ما يشبِهُه تَمُجُّه الآذان[٥] ، والتوسُّطُ فى الأمْرِ أعدلُ ؛ ولذلكَ فَضَّل أهْلُ البصْرةِ صَرِيعَ الغوانِى على أبِى تمَّام ، لأنه لَبِسَ دِيباجةَ المُحْدَثين على لَأْمةِ العرب ، فتركَّبَ له من الحُسْنِ بينَهُما ما تَرَكَّب .

وفى فصل له :

قال أبو عامر : وأهلُ صناعةِ الكلامِ مُتبايِنُونَ فى المنْزِلَة ، [٦] متفاضِلُونَ فى شرَفِ المرْتبَة ، على مقدارِ إحسانِهم وتصرُّفِهم[٦] .

فنهم الَّذى ينظِمُ الأوْصاف ، ويخترِعُ المعانِى ، ويُحْرِزُ[٧] جَيِّدَ اللَّفظ ، إلاَّ أنه يَصْعُبُ عليه الكلَام ، ويَكُدُّ قريحتَه التَّأْليف ، حتى إنَّه رُبَّما قصَّر فِى

(١) ه فى ب ، لب (٢ — ٢) ه فى ر ، ه
(٣) ب ، لب : « ويطيب على قلوب أهليه »
(٤) ب ، لب : « مسلم بن الوليد » (٥ — ٥) ه فى ر ، ه
(٦ — ٦) ه فى ر ، ه (٧) ر ، ه : « ويحرر »

الوصْف ، وأساء الوَضْع . فهـذا فى الأَبْيَاتِ القَلِيلة[١] نافِر ، وفى القَريبةِ المأخذِ سائِر ، وفى طريقةِ الجمهورِ الأعظمِ[٢] ذَاهِب ، حتى إذا ازْدَحمتْ عليه ، وانحشَدَتْ إليـه ، وطالبَتْه بِبهاء البهْجَة ، وشَرَفِ المنْزِلة ، وقفَ وانفلّ ، وتلاشى واضْمَحلّ .

٥ ومنهم الكارعُ فى بحرِ الغَزارة ، القادِحُ بشُعاعِ البَراعَة ، الذى يمرُّ مَرّ السَّيْلِ فى اندفاعِه ، والشُّؤْبُوبِ فى انصبابِه ، لا يشْكُو الفشَل ، ولا يَكِلُّ على طولِ العمل ، إذا ازدحَمَتْ فى الكلامِ عليه المَطالب ، وعَلِقتْ بحواشِى فكرِهِ المآرب ، وحُشِرَتْ عليـهِ الصعائبُ والغرائِب ، استقلّ بهـا كاهِلُه ، واضْطَلَع بِثِقْلِها غارِبُه ، وأعارَها من نَظَرِه لَمْحة ، ومن فِكْره قدْحَة ، ثم رمَى بها عنْ

١٠ جانبيْهِ ، قد رَوِيَتْ بمائِها ، ولبِستْ شُعاعَ بهائِها ، و بقِيَ كاللَّقْوَةِ فى المَرْقَب ، سامِ نظرُه ، قد ضمّ جناحَيْه ، ووقفَ على مِخْلَبِه ، لا تتاحُ له جارحَةٌ إلاّ اقتصَّها[٣] ، ولا تُنازِلُه طائِرةٌ إلاّ اختطفَها ، جُرْأتُه كشفْرَتِه ، وبديهتُه كفِكْرتِه ، فذلك الألْسَنُ يومَ حربِ الكلام ، لا تُخْطِئُ ضَرْبتُه ، ولا تُصابُ غِرّتُه .

ومنهم من يتَجافَى الكلام ، ويَروغُ عن المَقال ، فإذا مُنِيَ به ، أَخذَ بأطرافِ

١٥ المَحاسِن ، وشارَكَ فى أنحاء منَ الصَّنْعة ، وجُلُّ ما عنْـدَه تلْفيقٌ وحِيلَة ، وَبذلك يُصاحِبُ الأيّام ، ويُجارِى أبناءَ الزَّمان ؛ ما كانَ له عقلٌ يُغطِّى عَلَى نقْصانِه ، وسِـياسةٌ يَسُوسُ بها فُحُولَ زمانِه . ومَنْ خَرَج عن هـذهِ الطَّبَقَاتِ الثّلاثِ لم يستَحِقّ اسمَ البَيان ، ولا يدخُلُ فى أهلِ صناعةِ الكلام .

---

(١) ب ، لب : « القلائل الأعداد »

(٢) لہ فى ر ، لہ (٣) ب ، لب لہ : « اهتضمها »

وفى فصل له :

قال أبو عامر : وقومٌ من المعلِّمينَ بقُرْطُبَتِنا[١] ممَّن أتى على أجْزاء من النَّحو، وحفِظَ كلماتٍ من اللغة ، يَحْنُونَ عَلَى[٢] أكبادٍ غليظة ، وقلُوبٍ كقلوبِ البُعْران ، ويَرجِعُونَ[٣] إلى فِطَنٍ[٤] حَمِئَة ، وأذْهانٍ صَدِئَة ، لا مَنْفذَ لها فى شُعَاعِ الرِّقَّة ، ولا مَدَبَّ لها فى أنْوارِ البَيان . سقَطتْ إليهم كُتُبٌ فى البديعِ والنَّقْدِ فهِمُوا ٥ منها ما يفهَمُه القِرْدُ اليَمانيُّ منَ الرَّقْصِ على الإيقَاع ، والزَّمْرِ على الألْحَان ، فهم يُصَرِّفُون غرائِبَها[٥] فيما يَجْرِى عندَهم[٥] تصريفَ مَنْ لم يُرْزَقْ آلةَ الفَهم ، ومَنْ لم تكُنْ له آلةُ الصِّناعَة ، مما هِىَ مخصوصَةٌ بها ، لا تقومُ تلك الصناعةُ إلا بتلكَ الآلةِ[٦] ؛ فهُوَ كالحِمارِ لا يمكِنُه أن يتعلَّمَ صناعةَ ضَرْبِ العُود والطُّنْبُورِ ، لتوتُّدِ[٧] رُسْغِه ، واستدارَةِ حافرِه ، ولا لَهُ بنانٌ يَجِسُ[٨] به على دَسْتَبان . ولو جَازَ أنْ ١٠ يكونَ حمارٌ يُغنِّى :

ما بالُ أنجُمِ هـذا اللّيلِ حَائِرَةً أضلّتِ القصْدَ أمْ ليستْ على فَلَكِ ؟

وشِبْهَه ، مِنْ أجْلِ أنَّ له حَنَكاً ولِساناً وقصبَةَ رِئَةٍ ، لَمَا جازَ أنْ يُوقِّعَ بالمِضْرَابِ على الأوْتار ، ويُتمِّمَ بجَسِّ الأنامِلِ ، ويُرْخِى الوَتَرَ فِى مَجْرَى السَّبابة والبِنْصر ، فيُبَلْبِلَ بنَشِيدِه ، ويُوَلْوِلَ فى ضرْبِه عَلَى بَسِيطِه . ١٥

فهذِه حالُ العِصابةِ من المُعَلِّمِين[٩] : يُدْرِكُون بالطَّبِيعةِ ، ويُقصِّرُون بالآلةِ[١٠] .

(١) ب ، لب : « عندنا » (٢) ب ، لب : « ينحتون من »
(٣) ه فى ر ، ه (٤) ب ، لب : « أفكار »
(٥ — ٥) ه فى ر ، ه (٦) ه : « الآلات »
(٧) ه : « لتدوير » (٨) ب ، لب : « لمس »
(٩) ب ، لب : « المتعلمين » (١٠) ب ، لب : « بالألفة »

وتَقصيرُهم بالآلَةِ هو من طريقِ العِلَلِ الدّاخِلَة من فَسادِ الآلَةِ القابلَةِ للرُّوحانيّـة ، والخادمةِ لآلاتِ الفَهْم ، الباعِثَةِ لِرَقيقِ الدّم فى الشّرْيانات إلى القَلْب ، وزيادةِ غِلَظِ أعصابِ الدّماغ و نُقْصانِها عَنِ المِقْدار الطَّبيعى . ومما يُعِينُ عَلَى ذلكَ بالْحَدْسِ وطريقِ الفِراسة فَسادُ الآلَةِ الظَّاهِرةِ ، كفَرْطَحَةِ الرأسِ وتَسْفيطه[١] ، ونُتوءِ القَمَحْدُوَةِ ، والتِواءِ الشّدْقِ ، وخَزَرِ العَيْن ، وغِلَظِ الأنْف ، وانزواءِ الأَرْنَبَة . ٥

فنَسْتَعيذُ بالله ألاّ يُشَوّهَ خلقَةَ قلوبنا ، ولا يُجْسِى أجرامَ أكبادِنا ، ويضمّ أوتارَنا وأعصابنا ، [٢]ولا يعظّمَ أُنوفَنا[٢] . ولا يجعلَنا مُثْلَةً للعالَمين .

وفى فَصْل له :

وليسَ العجبُ فى هـذهِ العِصَابةِ إلاّ مِن أبى القَاسِم ، فإنّه زاد عليهم فى الصّناعة ، وبَزّهم بوُفُورِ البِضاعة . دخلَ فى الشّعراءِ فأخَذ لَباقتَهم ، وصارَ فى ١٠ جُملةِ الكُتّاب فاسْتَعار صَلَفَهم ورَشاقَتَهم ، وباشَر أهلَ الحِسَاب فاستفادَ طريقةَ البَراهين ، وناظَرَ أهلَ الجَدَل فتعَلّمَ القَوانين ، وعرَفَ عناصرَ الكَلام ؛ [٣]فكلُّ عِلمٍ يَزعُمه قَبْضَ يده[٣] ، وكلُّ جِدٍّ وهَزْلٍ فإليه منسوبٌ ، وعنهُ مأخُوذ ! وهو مع ما اجتَمع لَهُ من ذلك كُلّه ، وحُبِىَ به ، أشَــدُّهم صَبابةً[٤] بألاّ يكونَ بالأندَلُسِ مُحسِنٌ سِواه ، ولا مُجيدٌ حاشَاه . وكانَ الرَّأىُ عندى له أنْ يَسكُنَ أرضَ ١٥ جِلّيقيه ، [٥]أو قُطْرًا بعُدَ عنِ الإسلام[٥] حتى لا يَسْمَعَ فيه لخطيبٍ ذِكْرًا ، ولا يُحسّ لشاعرٍ رِكْزًا[٦] ، [٧]فيكونَ هناكَ فَرْدًا[٧] .

(١) ب ، لب : « تسبطه » — ر : « تبسيطه » (٢—٢) ىه فى ر ، ىه
(٣—٣) فى ب ، لب : « فكل فضل على زعمه من عنده ، وكل علم قبض يده »
(٤) ب ، لب : « ضنانة » (٥—٥) ىه فى ر ، ىه
(٦) ىه : « شعرا » (٧—٧) ىه فى ر ، ىه

(١) ومنَ العَجَبِ أيضًا فى أمرِه أنَّ كلَّ كاتبٍ كتبَ للسلاطينِ عندنا ، وكلَّ شاعرٍ مَدَحهم ، رُويتْ أشعارُه ورسائلُه غيرَ أبى القاسمِ وحدَه . على أنّه إنَّما جلس للتَّعليمِ عَلَى هذا المعنى . وربَّما عرَّضَ بأنْ يُؤخَذَ منه شىءٌ من أشعارِه ورسائلِه ولا يُجيبُه تِلْميذ . والمحرومُ محرومٌ . ولو أنّه اشترى الزَّبيبَ لصبيانِ المساجد ، وقُشورَ أصلِ الجَوْزِ لصَبْغِ شِفاهِ حراجيات الخانات ، ورَوَّى الطبقتين ما عنده ، لعَرَضْنَا رسومَه وجعائِلَه ، ورويْنَا أشْعارَه ورسائلَه ، وغنَّتا بها على قوارعِ الطُّرق ومناقعِ المياه ومطارحِ الزبول ، كما تغنِّيان أشعارهما ، وتسعان حماقتهما ، فيكون ذلك سبباً إلى أنْ تَدِبَّ وتَدرُجَ ، وتعتادَ الطَّيرانَ فتطيرَ ، ويراها الناسُ فتُعرفَ !
وهو مع هذا كلِّه (١) يُسمِّينا الهَمَجَ الهامج ، ويسمِّى البَديعَ والصَّابِئَ وشَمسَ المعالى العَضَارِيطَ (١) . وهو أبخَلُ أهلِ الأرضِ لا محالَة . ولم يُقصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغامَته . وهو يرَى أنَّ بعضَ صِبْيانِنا قد أقلقوه حين قالوا : ليست مِشْيتُه مِشيَةَ أديب ، ولا وَجهُه وجْهَ أريب ، ولا جِلْستُه جِلسةَ عالم ، ولا أنفُهُ أنفَ كاتب ، ولا نَغْمتُه نَغْمَةَ شاعر . وحَكَوْا أنه ، إذا مَشَى الخَيْزَلَى ، وتقدَّم قليلا ثُمَّ رجعَ القَهْقَرَى ، والقَصَبةُ فِى يدِه ، والخُرْجُ على عاتقِه ، أحذَقُ النَّاسِ فى إخْراجِ لُعْبةِ اليَهُودِى ، فأقْلقوه بما يَسمع (٢) ، فكيفَ لو عضَّته أنيابٌ غيرُ مفلولَة ، وخدشَتْه أظافر غيرُ مقلَّمة ؟

وفى فصل له :

ذُكِرَ يومًا عندَ أبى القاسِمِ سَهْلُ بنُ هارونَ والجاحظُ ، فضَرَبَ فيهما مَثَلَ العامَّة : بَيْنَهما ما بَيْنَ المَلائِكةِ وصِبْيانِ الحَرَس . هذا من الإنْحاءِ العظيمِ على سَهْل . والأوْلَى أن يُسَمَّيا مُحْسِنَيْن ، إلاَّ أنَّ سَهْلًا كاتِبُ سَلاطين ، والجاحظَ

(١—١) ليس فى م (٢) ب ، لب : « ترى »

مؤلِّفُ دواوين . وقد يؤدّى النظرُ إلى أنّهما فى طريقتين مختلفتين ، وكلاهما مُحْسِنٌ فى بابه ؛ إلاّ أنّه لم يُرَ أغبنَ منَ الجاحظِ لنفسه . إنْ كان واحدَ البلاغةِ فى عصْره ، فما بالُه لم يلتمس[1] بها شَرفَ المنزلة بشَرفِ الصَّنْعة ، وقد رأى ابنَ الزّيّات وإبراهيمَ بنَ العبّاس بَلغا بها ما بَلغا ، وهو يلتمسُ فوائدَهما والجاهَ بهما ؟
٥ فلا يخلو فى هذا إمّا أن يكونَ[2] مُقصّرًا عن الكتابة وجمْعِ أدواتها ، أو يكونَ ساقطَ الهِمّة ، أو يكونَ إفراطُ جُحُوظِ عَيْنَيْه قعَدَ به عَنْها ، كما قصّر بى أنافيها ثِقَلُ سَمْعِى ، وبأبى القاسمِ وَرَمُ أنفِه . إذ لا بدَّ للمَلِك مِنْ كاتبٍ مَقبولِ الصورةِ تقعُ عليها عينُه ، وأُذُنٍ ذَكيّةٍ تَسمع منه حِسَّه ، وأنفٍ نَقِيٍّ لا تُذَمُّ أنفاسُه عندَ مُقارَبتهِ له . ولذلك استحسَنُوا من الكاتبِ أن يكونَ طيّبَ الرائحة ، سليمَ آلاتِ
١٠ الحَواسّ ، نَقِيَّ الثَّوْب ، ولا يكونَ وسِخَ الضِّرْس ، منْقلِبَ الشَّفَةِ ، مُكحّلَ الأظْفور ، وَضِرَ الطَّوْق . وربّما أنكرَ مُنكرٌ قولَنا فى شَرْطِ جمْعِ أدواتِ الكتابة فقال : وأىُّ أداةٍ نقَصَتِ الجاحظَ ؟ فنقول : أوّلُ أدواتِ الكاتبِ العقل ، ولا يكونُ كاتبٌ غيرَ عاقل . وقد نجدُ عالماً غيرَ عاقل ، وجَدليًّا غيرَ حَصيف ، وفقيهاً غيرَ حَليم . وقد وجَدْنا مَنْ يَنسِبُ العقلَ إلى سَهْلٍ أكثرَ مِنْ نِسْبته[3]
١٥ إلى الجاحظ . لو شهِدَ الجاحظُ سَهْلاً يُخادِعُ للرّشيدِ مُلْكا ، ويدبِّرُ[4] له حَرْبا ، ويعانى لهُ إطفاءَ جمرةِ فتنة ، مسْتضْلِعًا فى ذلك كلِّه بعقْلِه ، وجَوْدةِ[5] علمِه ، لرأى أنَّ تلك السِّياسةَ غيرُ تَسْطيرِ المَقال ، فى صِفةِ غَراميلِ البِغال ، وغيرُ الكلامِ فى الجُرْذان ، وبناتِ وَرْدان ، ولَعَلِمَ أن بين العالمِ والكاتبِ فرْقا .

---

(١) ر : « يلبس » (٢) ب ، لب ، ت : « من أن يكون »
(٣) ه : « ممن ينسبه » — لب : « مما ينسبه »
(٤) ب ، لب : « يدير » (٥) ب ، لب ، ه : « وتجربة »

وفى فصل له :

ومن دليلِ تقصيرِ عصابة المُعلِّمين أنهم لا يُقْدِمُون أنْ يجعلُوا[1] ما يحملون من المَعرفةِ تَصْنيفا ، ولا تغْزُر مادَّتُهم أن يُنْشِئُوها تأليفا ؛ وإنّما تَفْسُو بهِ أنْفاسُهُم فَسْواً بينَ تلاميذِهِم ، ولاَ يَقْـدِرُ أنْ يزِيدَ فى النَّفخِ[2] فيضْرِطَ به ضُرَاطاً يُسْمَعُ . فهُم فى ذلكَ أمثالُ الجنادِب ، وقُرنَاءُ الخنافِس ، لا توازِنُ الظَّرِبانَ ٥ فى قوةِ فُسائِه ، وإن زادتْ عليه فى نَتْنِه ، ولا يَبْلغُونَ درجَةَ الحِمار الوَحْشِيِّ فى شدَّةِ ضُراطِه ، وإن شارَكوهُ فى اسْمِه ، ولاَ تُرْوَى لَهُم نادرة ، ولا تُؤْثَرُ عنهم فى البلادِ شارِدَة .

قال : ومِمَّا عُلِم مِنْ خُلقِ هـذِه العِصابةِ إذَا لَمحتنا أبصارُهم قابلونا بالمَلَق ، وهُمْ مُنْطَوُونَ على حَسَدٍ وحَنَق . فإذا جَمعتنا المَحافِل ، وضَمَّتْنا المجالِس ، ١٠ تَرَاهُم إلينا مُبَصْبِصين ، وعن الأَخْذِ فى شىء من تلكَ المعانِى زائِغين . وإنما يَتبيَّنُ تقصيرُ المُقصِّر ، وفَضْلُ السابقِ المبرِّز ، إذَا اصطَكَّتِ الرُّكَب ، وازدحمت الحِلَق ، واسْتُعجِلَ المَقال ، ولم تُوجَدْ فُسْحةٌ لِفكْرة ، ولا أمكنَتْ نَظرةٌ لرويَّة ؛ أوْ فِى مجالِسِ المُلوكِ عند أُنسِها وراحتِها ، فإنه يقعُ فيها ، ويجرى لَدَيْها ، ما لا ينفع[3] له الاستعداد ، ولا ينفذُ فيه غيرُ الطَّبعِ والغريزةِ المتدفِّقة . فترَى الجوادَ السابقَ إذ ذاكَ ١٥ متشوفاً بأُذُنِه ، باحثاً[4] لكديدِ الإحسانِ بِيدِه ، طامحَ النَّظر ، صَهْصَلِقَ الصَّهيل ، وأهلُ الصَّنْعةِ خُرْس ، لا يُسمَع لهم جَرْس ، ولا شىءَ عندَهُم غيرُ حَسْوِ الكاس ، وشَمِّ الآس ، وتنفُّسِ الصُّعَداء ، قد اصفرَّتْ أَلْوانُهم ، وقَلَصتْ شِفاهُهم ، كأنَّهم من رِجالِ عُذْرة . وما أذكرُ أنى فزتُ من هذا المَجلِس بخطيرٍ غيرَ مرَّة ، بين

(١) لب : « يحيلوا » (٢) وه : « يرد النفخ »

(٣) ب ، لب ، وه : « يقع » (٤) ب ، لب : « باعثا »

يدَىْ هِشام بن محمد ، والمَجلِسُ قد غصّ بالعامِّ والطَّاطم[(١)] من أهل المصر[(٢)] لِجَوابِ بعضِ الرؤساء عنْ فُصولٍ خبيثةٍ حادّةٍ لا جوابَ فيها ولا عُذْرَ عنها . فجَرَى ما أكرهُ ذكرَه من أجلِ أنّه متّصلٌ بتعجيزِ أهلِ البَيْضة ، والغضِّ من الأصحاب ، على أنّهم جُدَراء بذلك ، لِقِـلّة إنصافِهم لنا ، وتَسلُّطِهم علينا ، ٥ وإسرافِهم فى ثَلْبِنا .

فُصُولٌ من رِسالةٍ سمّاها بالتوابع والزّوابع ، وإنْ صَدَرَتْ عنه مصدرَ هَزْلٍ ، فتَشْتَمِلُ على بدائعَ رَوائع .

قال فى صدرِها مخاطِباً لأبي بكرٍ ابنِ حَزْم :

(٣)لله أبا بكر ظَنٌّ رَمَيته فأصْمَيْت ، وحَدْسٌ أملته فما أشْوَيْت ! أبديتَ ١٠ بهما وجهَ الجَلِيّة ، وكشفتَ عن غُرّةِ الحقيقة(٣) ، حين لمحتَ صاحبَك الذى تكسَّبْتَه ورأيتَه قدْ أخذ بأطرافِ السَّماء ، فألّف بين قمرَيها ، ونظمَ فرْقدَيْها ، فكلّما رأى ثغرًا سَدَّه بسُهاها ، أو لمحَ خرْقًا رمَّه بزُباناها ، إلى غيرِ ذلك . فقلتَ : كيفَ أُوتِيَ الحُكْمَ صَبِيًّا ، وهَزَّ بجذْعِ نخلة الكلام فاسّاقطَ[(٤)] عليهِ رُطباً جَنِيًّا ؟ أمَا إن به شَيْطانًا[(٥)] يَهْدِيه ، وشَيْصَبانًا يأتيه ! وأُقسِمُ أنّ له تابعةً ١٥ تُنجِدُه ، وزَابعةً تُؤيِّدُه ، ليس هَـذا فى قُدْرةِ الإنس ، ولا هذا النَّفسُ لهذهِ النَّفْس . فأمّا وقد قلْتَها أبا بكرٍ فأَصِخْ أُسْمِعْكَ العَجَبَ العُجَاب :

كنتُ أيامَ كُتّابِ الهِجَاء ، أحِنُّ إلى الأُدَباء ، وأصْبُو إلى تأليفِ الكلام ؛

---

(١) ب ، لب : « بالجاجم » (٢) ر : « البصرة »
(٣—٣) له فى ر ، وه (٤) ب ، لب : « فتساقطت »
(٥) ب ، لب : « أولى أن له سلطانا »

فاتَّبعتُ الدّواوين، وجلستُ إلى الأساتيذ، فنبَض لِى عِرْقُ الفهم، ودَرّ لِى شِرْيانُ العِلم، بموادّ رُوحانية؛ وقليلُ الالتماحِ من النظر يزيدنى⁽¹⁾، ويسيرُ المطالعةِ من الكتبِ يُفيدُنى، إذ صادَف شنُّ العلمِ طَبَقَة. ولم أكُنْ كالثَّلجِ تَقْتَبِسُ منْهُ نارا، ولا كالحِمارِ يحملُ أسْفارا. ⁽²⁾ فطَعنتُ ثُغْرَةَ البيانِ دِرَاكا، وأَعْلَقْتُ رِجْلَ طيرِه أشراكا، فانثالتْ لى العجائب، وانهالت علىَّ الرغائب⁽²⁾.
وكان لى أوائلَ صَبْوَتى هَوًى اشْتَدَّ به كَلَفِى، ثم لَحِقنى بَعْدُ مَلَل فى أثناء ذلكَ المَيْل. فاتّفقَ أنْ ماتَ مَنْ كنتُ أَهْواه مدّةً⁽³⁾ ذلك المَلَل، فجزِعتُ وأخذتُ فى رثائه يوماً فى الحائر، وقد أُبْهِمتْ علىَّ أبوابُه، وانفردْتُ فقُلْتُ:

تَوَلَّى الحِمامُ بظَبْيِ الخُدُورِ وفازَ الرَّدَى بالغَزالِ الغَرِيرِ

إلى أن انتهيْتُ إلى الاعتِذارِ من المَلَلِ الّذى كانَ، فقلتُ:

وكُنْتُ مَلِلْتُكَ لا عَنْ قِلًى ولا عَنْ فسادٍ جرَى فى ضَمِيرِى

فأُرْتِجَ علَىَّ القَولُ وأُفحِمْتُ، فإذَا أنا بفارسٍ بباب⁽⁴⁾ المَجلس على فَرَسٍ أدْهَمَ كما بَقَلَ وجهُه، قد اتّكأ على رُمْحِه، وصاح بِى: أَعجْزًا يا فَتَى الإنس؟ قُلتُ: لا وأبيك، للكلامِ أحيان، وهذا شأنُ الإنسان! قال لى: قُلْ بعدَه:

كمِثْلِ مَلالِ الفَتَى للنَّعِيمِ إذا دامَ فيه وَحالِ السُّرُورِ

فأثْبَتُّ إجازتَه، وقلتُ له: بأبِى أنت! مَنْ أنْت؟ قال: أنا زُهَيْرُ بنُ نُمَيْرٍ من أشْجَعِ الجِنّ. فقلتُ: ومَا الّذى حَداكَ إلى التصوُّرِ لى؟ فقال: هَوًى فيك،

---

(١) ب، لب: «يوقدنى» (٢ — ٢) ¤ فى ب، لب
(٣) ب، لب: «إثر» (٤) ب، لب: «على باب»

ورَغبةٌ فى اصطفائك . قلت : أهْلًا بِكَ أيُّها الوَجْهُ الوَضَّاح ، صادَفتَ قَلْباً إليك مقلوبا ، وهَوًى نَحوَكَ مَجْنُوبا[1] . وتَحادَثْنا[2] حيناً ثمَّ قال : متى شِئْتَ استِحْضارِى فأَنشِدْ هذِهِ الأبيات :

وَالِى زُهَيْرَ الحُبِّ يا عَزَّ إنَّهُ ... إذا ذَكَرتْه الذّاكِراتُ أتَاهَا

٥ إذا جَرَتِ الأَفْواهُ يوماً بِذِكْرِها ... يُخَيِّلُ لِى أنِّى أُقبِّلُ فاهَا

فأَغْشَى ديارَ الذّاكِرِين و إن نَأَتْ ... أَجارِعُ مِنْ دَارِى هَوًى لِهوَاهَا

وأَوْثَبَ الأدهمَ جِدارَ الحائِطِ ثم غابَ عنِّى . وكنتُ أبا بكرٍ متى أُرْتِجَ عَلَىَّ ، أوِ انقطعَ بِى مَسْلَكٌ ، أوْ خانَنِى أُسْلوبٌ أُنشِدُ الأبياتَ فيُمثَّل لى صاحبى ، فأَسيرُ إلى ما أرغَب ، وأُدْرِكُ بقريحتى ما أطلُب . وتأكّدتْ صُحْبَتُنا ، وجرَتْ قِصَصٌ

١٠ لولا أنْ يطُولَ الكِتابُ لذكرتُ أكثرَها ، لكنِّى ذاكرٌ بعضَها .

فَصْلٌ :

تذاكرتُ يوماً معَ زُهَيْرِ بْنِ نُمَيْرٍ أخْبارَ الخُطَباء والشُّعَراء ، وما كانَ يألَفُهم من التَّوابِع والزَّوابِع ، وقلتُ : هل حيلةٌ فى لِقاءِ من اتّفق منهم[3] ؟ قال : حتَّى أستأْذِنَ شيخَنا . وطار عنِّى ثم انصرفَ[4] كلَمْحٍ بالبَصَر[4] ، وقد

١٥ اذِنَ له ، فقَال : حُلَّ على متْنِ الجَواد[5] . فصرنا[6] عليه ؛ وسار بنا كالطائر يَجْتابُ الجَوَّ فالجَوّ ، ويقطَعُ الدَّوَّ فالدَّوّ ، حتى التَمَحْتُ أرضاً لا كأرضِنا ، وشارَفتُ جَوًّا لا كجَوِّنا ، متفرِّعَ الشَّجَر ، عِطِرَ الزَّهَر ؛ فقال لى : حَلَلْتَ

---

(١) ب ، لب : « محبوبا » (٢) من هنا إلى نهاية هذا الفصل ناقص فى ر ، ں

(٣) ب ، لب : « هذه الطوائف » (٤ — ٤) ںں فى ر ، ں

(٥) ب ، اب ، ں : « الأدهم » (٦) ر ، ں ، لب : « فسرنا »

أرضَ الجنّ أبا عامر ، فبمَنْ تُريدُ أنْ نبْدَأ ؟ قلتُ : الخطباء أوْلَى بالتّقديم ، لَكِنّى إلَى الشعراء أشْوَق . قال : فمَنْ تُريدُ منهم ؟ قلت : صاحبَ امْرِئِ القَيْس . فأمالَ العِنانَ إلى وادٍ مِنَ الأوْدِيةِ ذِى دَوْحٍ تتكسّرُ أشجارُه ، وتترنّمُ أطيارُه ، فصاح : يا عُتَيْبَةُ بنَ نَوْفَل ، بسِقْطِ اللِّوَى فحَوْمَل ، ويوم دارةِ جُلْجُل ، إلّا ما عَرَضْتَ علينا وجْهَك ، وأنشَدْتَنا مِنْ شِعْرِك ، وسمعتَ من الإنْسيّ ، وعرّفتَنا كيف إجازَتُكَ له ! فظهَر لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنّها تلتهِب، فقال : حَيّاكَ اللهُ يا زُهيْر ، وحَيّا صاحبَك ! أهذا فتاهُم[1] ؟ قلتُ : هو هذا ، وأىُّ جَمْرَةٍ[2] ياعُتَيْبة ! فقال لى : أنْشِدْ ، فقُلْتُ : السَّيّدُ أوْلَى بالإنْشاد . فتطامَحَ طَرْفُه ، واهتزّ عِطْفه ، وقبَض عِنانَ الشّقْراء ، وضرَبها بالسَّوْط ، فسمَت تحْضِر طُولاً عنّا ، وكرّ فاستَقْبَلنا بالصَّعْدةِ هازًّا لها ، ثم ركَزها وجعَل يُنْشِد :

* سَماكَ شَوْقٌ بعْدَ ما كانَ أقْصرا[3] *

حتّى أكْملها ثم قال لِى : أنشِدْ . فهمَمْتُ بالحَيْصَة ، ثم اشتدّتْ قُوَى نَفْسى وأنْشدْت :

* شَجَتْهُ مَغانٍ من سُلَيْمَى وأدْؤُرُ *

حتى انتهَيتُ فيها إلى قولِى :

ومِنْ قُبّةٍ لا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَها	تَزِلُّ بِها رِيحُ الصَّبَا فتَحَدَّرُ
تَكلّفْتُها[4] واللّيلُ قَدْ جاشَ بَحْرُهُ	وَقَدْ جعلَتْ أمْواجُهُ تَتكَسَّرُ
ومِنْ تحْتِ حِضْنِى أبيضٌ ذُوسَفاسِقٍ	وَفى الكَفِّ مِنْ عَسّالةِ الخطِّ أسْمَرُ
هُما صاحِبَاىَ مِن لَدُن كُنْتُ يافِعاً	مُقيلَانِ من جَدِّ الفتَى حِينَ يَعْثُرُ

(١) م : « أهذا هو فلان »
(٢) ب ، لب : « حجرة هو »
(٣) العقد الثمين ص ١٢٨
(٤) ب ،لب : « تكنفتها »

فذَا جدْوَلٌ فى الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى   وَذا غصُنٌ فى الكَفِّ يُجْنَى فيُثْمِرُ

فلمّا انتهيْتُ تأمّلنى عُتَيْبَةُ ثم قالَ : اذْهَبْ فقد أجزْتُك . وغاب عنا ، فقال لى زُهير : من تُرِيدُ بعْدُ ؟ قلتُ : صاحِبَ طَرَفَة . فجزَعْنا وادِىَ عُتَيْبة ، وركَضْنا حتّى انتهيْنا إلى غيضةٍ شجرُها شَجَران : سامٌ يَفوحُ بهارا ، وشِجْرٌ يغْبِقُ[1] هنديًا وغارا . فرأينا عيناً مَعِينَةً تَسيل ، ويدُورُ ماؤُها فلَكيًا ولا يحُول . فصاح به زُهَيْر : يا عَنْتَرُ بنَ العَجْلَان ، حَلَّ بكَ زُهَيْرٌ وصاحِبُه ، فَبِخَوْلَة ، وما قطَعْتَ معَها من لَيْلَة ، إلَّا ما عَرضْتَ وجْهَكَ لنَا ! فبدَا إلينَا راكبٌ جميلُ الوَجْه ، قد توشّحَ السَّيْف ، واشتمَل عليهِ كِساءَ خزٍّ ، و بيَدِه خَطِّىٌّ ، فقال : مرحَباً بكما ! واستنشدَنِى فقلتُ : الزعيمُ أوْلَى بالإنْشاد ، فأنْشَد :

* لِسُعْدَى بحزّانِ الشَّديفِ طُلُولُ[2] *

حتى أكْملَها ، فأنْشدتُه مِنْ قصيدةٍ :

* أمِنْ رَسْمِ دَارٍ بالعقيقِ مُحيلِ *

حتى انتهيْتُ إلى قوْلى :

ولَمَّا هَبطْنَا الغَيْثَ تُذْعَرُ وحشُهُ   عَلَى كُلِّ خَوَّارِ العِنَانِ أسِيلِ

وثارَتْ بنَاتُ الأعْوَجيّاتِ بالضُّحَى   أبَابيلَ مِنْ أعْطافِ غَيْرٍ وَبيلِ

مُسَوَّمَةٌ نَعْتَدُّهَا مِنْ خِيارِهَا   لِطَرْدِ قَنيصٍ أوْ لِطَرْدِ رَعِيلِ

إذا ما تغَنَّى الصَّحْبُ فَوْقَ مُتونِها   ضُحيًّا أجابَتْ تَحْتَهُمْ بصَهِيلِ[3]

نَدُوسُ بِها أبْكارَ نَوْرٍ كأنَّهُ   رِداءُ عَرُوسٍ أوذِنَتْ بحَلِيلِ

رَمَيْنَا بِها عَرْضَ الصُّوارِ[4] فأقْعَصَتْ   أغَنَّ قتلْنَاهُ بغَيْرِ قَتيلِ

(١) م : « يقضم »

(٢) رواية العقد الثمين ص ٦٨ « لهند ... »

(٣) م فى ب ، لب

(٤) م . « السواد »

وبادَرَ أصحابِي النُّزولَ فأقبلَتْ كَرَادِيسُ مِنْ غضٍّ الشَّوَاءِ نَشِيلِ
نُمَسِّحُ بالجودانِ منْــه أكُفَّنَا إذا ما اقْتنَصْنَا منــه غيرَ قَلِيلِ[1]
فَقُلْنا لساقِيهَا[2] أدِرْها سُلَافَةً شَمُولاً ومِنْ عَيْنَيْكِ صِرْفَ شَمُولِ
فَقامَ بكأسَــيْهِ مُطيعاً لأمْرِنا يَميلُ به الإدْلالُ كُلَّ مَمِيــلِ
وشَعْشَعَ راحَيْـه[3] فمَا زالَ مائِلاً برأسِ كَرِيمٍ مِنْهُمُ وتَلِيــلِ
إلى أنْ ثَناهُمْ راكِدِينَ لِمَا احْتَسوْا خَلِيعِينَ من بَطْشٍ وفَضْلِ عُقُولِ
نَشَاوَى عَلَى الزَّهْراءِ ، صَرْعَى كأنَّهُمْ[4] أساطِينُ قَصْرٍ[5] أو جُذُوعُ نَخِيلِ

فصاحَ عَنْتَرُ : للهِ أنت ! اذْهَبْ فإنك مُجاز[6] . وغابَ عنّا .[7] ثم مِلْنا عنه[7] ، فقال لى زُهَير : إلى مَنْ تَتوقُ نفسُك بعدُ مِنَ الجاهليِّين ؟ قلت : كفانِى مَنْ رأيتُ ؛ اصْرِفْ وَجْهَ قَصْدِنا إلى صاحِبِ أبِي تَمّام ؛ فرَكَضْنا ذاتَ اليمينِ حِيناً ، ويشْتَدُّ فى إثْرِنا فارسٌ كأنَّهُ الأسَد ، على فرسٍ كأنها العُقاب ، وهو فى عَدْوِه ذلك يُنْشِد :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثائِرٍ لهَا نَفَــذٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أضاءَهَا[8]

فاستَرَبْتُ منه ، فقال لى زُهَيْر : لا عليك ، هذا أبو الخَطَّار صاحِبُ قَيْسِ ابنِ الخَطِيم . فاسْتَبَى لُبِّى مِنْ إنشادِه البيت ، وازدَدْتُ خوفاً لجُرْأَتِه ، وأنَّنا لَمْ نُعَرِّجْ عليه . فصرفَ إليْه زُهَيْرٌ وَجْهَ الأدْهَمِ ، وقالَ : حَيّاكَ اللهُ أبا الخَطَّار ! فقال : أهكذا يُحادُ عن أبِي الخَطَّار ، ولا يُخْطَرُ علَيـه ؟ قال : علمناكَ صاحِبَ

(١) هذا البيت ناقص فى ر ، م
(٢) م : « لساقينا »
(٣) ب ، لب : « ساقيه »
(٤) ر ، م : « حتى »
(٥) ب ، لب : « ترى »
(٦) ب ، لب : « فقد أجزتك »
(٧—٧) لا فى ر ، م
(٨) راجع ديوانه ص ٣

قَنَص، وَخِفْنَا أَنْ نَشْغَلَكَ . فقالَ لى : أَنْشِدْنا يا أَشْجَعِىّ ، وأُقسِمُ أَنَّك إن لم تُجِدْ ليكُونَنّ يَوْمَ شَرّ . فأنشدْتُه قولِى مِنْ قصيدة :

* منازِلُهُمْ تَبْكِى إِلَيْكَ[1] عفاءَها *

ومنها[2] :

٥ خَلِيلَىَّ عُوجا بارَكَ اللهُ فِيكُما ... بِدارَتِها الأُولَى نُحَىِّ فِناءَها

فلم أرَ أسْرابًا كَأَسْرابِها الدُّمَى[3] ... وَلا ذَنْبَ مِثْلِى قَدْ رَعَى ثمّ شاءَها

وَلا كَضَلالٍ كانَ أَهْدَى لِصَبْوَتِى ... لَيالِىَ يَهْدِينِى الغَرامُ خِباءَها

وما هاجَ هذا الشَّوْقَ إلّا حَمائِمٌ ... بَكَيْتُ لَها لَمّا سَمِعْتُ بُكاءَها

عَجِبْتُ لِنَفْسِى كيفَ مَلَّكَها الهَوَى ... وكيفَ اسْتَفَزَّ الغانِياتُ إباءَها ؟

١٠ ولو أنّنى أنحَتْ علىَّ أكارِمٌ ... تَرَضَّيْتُ بالعِرْضِ الكَرِيمِ جَزاءَها

ولكنّ جِرْذانَ الثُّغورِ رَمَيْنَنِى ... فأكْرَمْتُ نَفْسِى أن تُرِيقَ دِماءَها

إِلَيْكَ أبا مَرْوانَ أَلْقَيْتُ رابِيًا ... بِحاجَةِ نَفسٍ ما حَرَبْتُ خَزاءَها[4]

هَزَزْتُكَ فى نَصْرِى ضُحًى فكأنّنى ... هَزَزْتُ وقد جِئْتُ الجِبالَ حِراءَها

نَقَضْتُ عُرَى عَزْمِ الزّمانِ وإنْ عَتا ... بِعَزْمَةِ نَفْسٍ لا أُرِيدُ بَقاءَها

١٥ فلمّا انتهيتُ تبسَّم وقال : لَنِعمَ ما تخلّصْتَ ! اذهبْ فقد أَجَزْتُك . ثمّ انصرَفْنا ، وركَضْنا حتى انتهَيْنا إلى شَجَرةٍ غَيْناء ، يتفجَّرُ من أصْلِها عينٌ كَمُقلةِ حَوْراء . فصاح زُهَيْر : يا عَتّابُ بنَ حَبْناء ، حلّ بك زُهَيْرٌ وصاحِبُه ، فبِعَمْرو والقَمَرِ الطّالِع ، وبالرُّقْعةِ المَفكوكةِ[5] الطّابَع ، إلّا ما أرَيْتَنا وجْهَك ! فانفلقَ

(١) ب ، لب : « عليك » (٢) مايلى إلى آخر القصيدة ناقص فى ره

(٣) ب ، لب : « الأولى » (٤) الأبيات الثلاثة الأخيرة ناقصة فى ر

(٥) ره : « المكفوفة »

ماء العَين عن وجهِ فَتى كفِلقةِ القمر، ثمّ اشْتقّ الهواء صاعداً إلينا من قعرِها حتّى استوى معنا. فقالَ: حيّاكَ اللهُ يا زُهَير، وحيّا صاحِبَك! فقلت: وما الّذى أسكنَكَ قَعْرَ هذه العَيْنِ يا عتّاب؟ قال: حَيائى من التّحسُّنِ باسْمِ الشّعْرِ وأنا لا أُحسِنُه. فصِحتُ: ويلى منه، كلامُ مُحْدَثٍ وربِّ الكعْبَة! واستنشدَنى فلم أُنشِدْه إجلالاً له، ثم أنشدتُه: ٥

* أبكيْتَ⁽¹⁾، إذْ ظعَنَ الفريقُ، فِراقَها *

حتّى انتهيتُ فيها إلى قولى⁽¹⁾:

إنّى امرُؤٌ لَعِبَ الزّمانُ بِهِمّتى ... وَسُقيتُ مِنْ كأسِ الخُطوبِ دِهاقَها

وَكَبوْتُ طِرْفاً فى العُلا فاستضْحكتْ ... حُمُرُ الأنامِ فما تَريمُ نِهاقَها

وَإذا ارْتمتْ نحْوِى المُنى لِأنالَها ... وَقفَ الزّمانُ لَها هُناكَ فَعاقَها[2] ١٠

وإذا أبُو يحْيى تأخّرَ نَفْسُهُ ... فَمَتى أُؤمِّلُ فى الزّمانِ لَحاقَها؟

فلمّا انتهيتُ قال: أنشِدْنى من رِثائك. فأنشدْتُه:

أعِينا امْرأً نَزَحتْ عَيْنُهُ ... وَلا تعجَبا مِنْ جُفُونٍ جِمادِ[3]

إذا القَلْبُ أحْرَقَهُ بَثُّهُ ... فإنَّ المَدامِعَ تِلْوُ[4] الفُؤادِ

يَوَدُّ[5] الفَتى مَنْهلاً خالِياً ... وسَعْدُ المَنِيّةِ فى كُلِّ وادِ[6] ١٥

وَيَصْرِفُ[7] لِلكَوْنِ ما فى يَدَيْهِ ... وَما الكَوْنُ إلّا نَذيرُ الفَسادِ[8]

(١ — ١) ه فى ب، لب (٢) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ر، ه

(٣) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ب، لب (٤) ه: «تلوى»

(٥) ه: «يرود» (٦) بهامش نسخة لب: «اشارة الى المثل: فى كل واد بنو سعد» (٧) ر: «ويطوف» (٨) هذا البيت ناقص فى ب، لب

لَقَدْ عَثَرَ الدَّهْرُ [(١)] بالسّابقيـن وَلَمْ يُعْجِزِ المَوْتَ رَكْضُ الجَوادِ
لَعَمْـرُكَ مَارَدَّ رَيْبَ الرَّدَى [(٢)] أَرِيبٌ وَلَا جَاهِـدٌ [(٣)] باجْتِهادِ
سِهَامُ المَنَايَا تُصِيبُ الفَتَى وَلَوْ ضَرَبُوا دُونَه بالسَّـدادِ [(٤)]
أَصَبْنَ [(٥)] عَلَى بَطْشِهِمْ جُرْهُماً وأَصْمَيْنَ فى دَارِهِمْ [(٦)] قَوْمَ عَادِ
٥ وأَقْعَصْنَ كَلْباً عَلَى عِـزِّهِ فَمَا اعْـتَزَّ بِالصَّافِناتِ الجِيادِ

إلى أنِ انتهيتُ فيها إلى قولى :

ولَـكِنَّنِى خَانَـنِى مَعْشَرِى ورُدْتُ يَفَاعًا وَبِيـلَ المَرادِ
وَهَلْ ضَرَبَ السَّيْفُ [(٧)] من غَيْرِ كَفٍّ؟ وهَلْ ثَبتَ [(٨)] الرَّأْسُ فِى غَيْرِ هادِ؟

فقال : زِدْنى من رِثائك وتحريضك ، فأنشدتُه :

١٠ أَفِى كُلِّ عَامٍ مَصْرَعٌ لِعَظِيمِ ؟ أَصَابَ المَنَايَا حَادِثِى وقَدِيمِى
هَوَى قَمَرَا قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ آنِفاً وأَوْحَشَ مِنْ كَلْبٍ مَكَانُ زَعِيمِ
فَـكَيْفَ لِقَائِى الحَادِثَاتِ إِذا سَطَتْ وقَدْ فُلَّ سَيْفِى مِنْهُمُ وعَزِيمِى ؟
وكَيْفَ اهْتِدَائِى فى الخُطُوبِ إِذا دَجَتْ وقَدْ فَقَدَتْ عَيْنَاىَ ضَوْءَ نُجُومِ ؟
مَضَى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إِلَّا بَقِيَّةً كَغُرَّةِ مُسْوَدِّ القَمِيصِ بَهِيمِ

١٥ وَمِنْهَا :

رَمَيْتُ بِهَا الآفاقَ عَنِّى غَرِيبَةً نَتِيجَةَ خَفَّاقِ الضُّلُوعِ كَظِيمِ

---

(١) ب ، لب : « الموت » (٢) ب ، لب : « المنون »
(٣) ب ، لب : « حازم » (٤) هذا البيت ناقص فى ب ، لب
(٥) ب ، لب : « أصاب » (٦) ب ، لب : « وأصمى بدارهم »
(٧) ب ، لب : « يضرب » (٨) ں : « نبت »

لأُبْدِى إلى أَهْلِ الحِجَا مِنْ بَوَاطِنِى وأُدْلِى بِعذْرٍ فِى ظَواهِرِ[1] لُومِ
أنَا السَّيْفُ لَمْ تَتْعَبْ بِهِ[2] كَفُّ ضَارِبٍ صَرُومٌ إذَا صَادَفْتَ كَفَّ صَرُومِ[3]
سَعَيْتُ بأَحْرَارِ الرِّجَالِ فَخَانَنِى رِجَالٌ وَلَمْ أَنْجَدْ بِجِدٍّ عَظِيمِ
وضَيَّعَنِى الأَمْلَاكُ بَدْءًا وعَوْدَةً[4] فَضِعْتُ بِدَارٍ منهمُ وحَرِيمِ

فقال : إنْ كُنتَ ولا بُدَّ قائلاً ، فإذا دعتْكَ نفسُك إلى القولِ فلا تَكُدَّ قريحتَك ، ٥
فإذا أكْمَلْتَ فَجَامِ ثلاثةً لا أَقلَّ . ونَقِّحْ بعدَ ذلك ، وتذكَّرْ قوله :

وَجَشَّمَنِى خَوْفُ ابْنِ عَفَّانَ رَدَّهَا فَثَقَّفْتُهَا حَوْلاً كَرِيتًا ومَرْبعَا
وَقَدْ كَانَ فى نَفْسِى عَلَيْهَا زِيَادَةٌ فَلَمْ أَرَ إلَّا أَنْ أُطِيعَ وأُسْمِعَا

وما أنت إلّا مُحسِنٌ على إساءةِ زَمانِك . فقبَّلتُ عَلَى رأسِه ، وغاصَ فى العَين .
ثم قالَ لى زُهَيْر : مَنْ تُريد بعده ؟ قلتُ : صاحبَ أبى نُواس ، قال : هو ١٠
بدَيْرِ حَنَّةَ[5] منذُ أشهرٍ[5] ، قد غلبَتْ عليه الخمر ، ودَيْرُ حنَّة فى ذلكَ الجَبَل .
وعَرَضه علىَّ ، فإذا بيننا و بينه فَراسِخ . فركَضْنا ساعةً ، وجُزْنا فى ركضِنا بقَصْرٍ
عظيمٍ قُدَّامَه نا وَرْد[6] يَتطارَدُ فيه فُرْسان ، فقلتُ : لمَنْ هذا القَصْرُ يا زُهير ؟
قال : لطَوْقِ بنِ مالك ؛ وأبُو الطَّبْعِ صاحبُ البُحْتُرِىِّ فى ذلكَ النَّاوَرْد ، فهل
لكَ فى أنْ تَراه ؟ قلتُ : ألفُ هَل[7] ، إنه لمن أساتيذِى ، وقد كنتُ أُنسيتُه . ١٥
فصاحَ : يا أبَا الطَّبْع ! فخرجَ إلينا فَتًى على فَرَسٍ أشعل ، و بيدِه قناة ،

(١) ب ، لب ، ه : « بواطن »
(٢) ب ، لب : « له »
(٣) ه : « صريم »
(٤) ب : « عوداً وبدأة »
(٥—٥) له فى ر ، ه
(٦) ب ، لب : « ماء ورند »
(٧) ه : « أجل »

[١]فقال له زُهَيْر: إنك مُؤتَمُنا، فقال: لا، صاحبُك أشمخُ مارناً من ذلك لولا أنه ينقصُه. قلت: أبا الطَّبع، على رِسْلِك، إنّ الرّجال لا تُكالُ بالقُفْزان. أنشِدْنا من شِعرِك[١]. فأنشد:

* ما عَلَى الرّكْبِ منْ وُقوفِ الرّكابِ[٢] *

٥ حتى أكملَها، ثم قال: هاتِ إن كنتَ قُلتَ شيئاً[٣]. فأنشدتُه:

* هــذهِ دَارُ زَيْنَبٍ والرّبَابِ *

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي:

وارْتكضْنا حَتَّى مَضَى اللّيلُ يَسْعَى ... وأتى الصُّبحُ قَاطِعَ الأسْبابِ[٤]
فكأنّ النُّجُومَ في اللّيلِ جَيْشٌ ... دخلُوا لِلْكُمُونِ في جَوْفِ غابِ
١٠ وكأنّ الصّباحَ قانِصُ طَيْرٍ ... قبَضَتْ كَفُّهُ برِجْلِ غُرابِ
وفُتُوٍّ سَرَوْا وقدْ عَكَفَ اللّيْـ ... ـلُ وأرْخَى مُعْدَوْدِنَ الأطْنَابِ
وكأنّ النُّجُومَ لمّا هَدَتْهم ... أشْرَقَتْ لِلعُيُونِ من آدابِ
يتقرَّوْنَ جَوْزَ[٥] كُلِّ فَلاةٍ ... جُنْحَ ليلٍ جَوْزاؤُه من رِكابِ
عَنَّ ذِكْرى لمُدْلِجِيهمْ فتاهُوا ... مِنْ حَدِيثي في عُرْضِ أمْرٍ عُجابِ
١٥ هِمّةٌ[٦] في السَّماءِ تَسْحَبُ ذَيْلاً ... مِنْ ذُيُولِ العُلا وَجَدٌّ[٧] كابِي
ولو أنّ الدُّنيا كَرِيمةُ نَجْرٍ ... لَمْ تَكُنْ طُعْمَةً لِفَرْسِ[٨] الكِلابِ

(١ — ١) ه في ب، لب (٢) راجع ديوان البحترى (ج ٢ ص ١٠٩)
(٣) ر: «ان قلت شيئا» — ب، لب، ه: «إن كنت شيئا»
(٤) هذا البيت ناقص فى ر، ه (٥) ه: «جو» — ب: «جون»
(٦) ب، لب: «سمة» (٧) ه: «وجدى»
(٨) ب، لب، ه: «لبرص»

جيفَــــةٌ أنْتَنَتْ فطارَ إليهَا من بَنِى دَهْرِها فِرَاخُ الذُّبابِ

وَمِنْهَا يَفخَر :

مِن شُهَيْدٍ فى سِرِّهَا ثُمَّ مِنْ أشْ جَعَ فى السِّرِّ مِن لُبابِ اللُّبابِ

خُطَباءُ الأنَامِ إن عَنَّ خَطْبٌ وأَعَارِيبُ فى مُتُــــونِ عِرَابِ

(١)حتى أكلتُها(١) . فكأنما غَشَّى وجهَ(٢) أبى الطَّبع قِطْعةٌ من اللَّيل . وكرَّ ٥
راجعًا إلَى نَاوَرْدِهِ دون أنْ يُسلِّم . فصاحَ به زُهَير : أأجزْتَه ؟ قال : أجَزْتُه(٣) ،
لا بورِكَ فيك من زائر ،(٤) ولا فِى صاحبِك أبِى عامر(٤) ! فضَرَب(٥) زُهَيْر
الأدهَمَ بالسَّوْط ، فسار بنا فِى قَنْتِهِ(٥) ، وسِرْنَا حتَّى انتهيْنا إلى أصْلِ جَبَلِ دَيْر
حَنَّة ، فشَقَّ(٦) سَمْعِى قَرْعُ النَّوَاقِيس . فصِحْتُ : مِنْ مَنَازِلِ أبى نُوَاس وربِّ
الكعبةِ العَلياء ! وسِرْنا نجتابُ أدْيارًا وكنائسَ وحَانات ، حتى انتهَينا إلى دَيْر ١٠
عظيمٍ تعبَقُ رَوائحُه ، وتَصُوكُ نوافِحُه(٧) . فوقفَ زُهَيْرٌ ببابه وصاح : سلامٌ على
أهلِ دَيْر حَنَّة ! فقلتُ لزهير : أوَ هَلْ صِرْنا(٨) بذات الأُكَيْراح ؟ قال : نعم .
وأقبَلَتْ(٩) نحوَنَا الرَّهَابِين ، مُشَدَّدَةً(١٠) بالزَّنانير ، قد قبَضَتْ على العكاكيز ،
بِيضَ الحواجِبِ واللِّحَى ، إذا نظروا إلَى المَرْءِ استحيا ، مكثِرِين للتَّسْبِيح ، عليهم
هَدْىُ المسيح . فقالوا : أهْلاً بكَ يا زُهَيْر من زائر ، و بصاحِبِك أبِى عامر ! ١٥

(١ — ١) ـه فى ر ، ه (٢) ب ، لب : « على »

(٣) ر ، ه : « أجزت » (٤ — ٤) ـه فى ر ، ه

(٥ — ٥) ـه فى ب ، لب (٦) ه : « ففتق »

(٧) ر ، ب : « نواجه » (٨) ب ، لب : « أو قد صرنا »

(٩) ب ، لب ، ه : « وأرقلت »

(١٠) ه : « مشدودة » — ب ، لب : « مشتدة »

ما بُغْيَتُك ؟ قال : حُسَيْنُ الدَّنان . قالوا : إنّه لَفِي شُرْب[١] الخمرة ، منذُ أيّامٍ عشْرَة ، وما نَرا كُما منتفِعَيْن به . فقال : وعلى ذلك . ونزلْنا وجاءوا بنا إلى بيْتٍ قد اصطفّت دِنانُه ، وعكَفتْ غِزْلانه ، وفى فُرْجَته شَيخٌ طويلُ الوجْهِ والسَّبَلة ، قد افترش أضْغاثَ زَهْر ، واتكأ عَلَى زِقٍّ خَمْر ، وبيدِه[٢] طَرْجهارَة ، وحَواليْهِ صِبْيةٌ كأظْبٍ تعْطُو إلى عَرارَة . فصاحَ به زُهير : حَيّاكَ اللهُ أبا الإحسان ! فجاوبَ بجوابٍ لا يُعقَلُ لغَلَبةِ الخمرِ عليه . فقال لى زهير : اقرعْ أُذُنَ نشوته[٣] بإحْدَى خَمْريّاتك ، فإنّه ربّما تنبّه لبعض ذلك . فصِحْتُ[٤] أُنشِدُ من كلمةٍ لى طويلة :

ولَرُبَّ خَانٍ قَدْ أَدَرْتُ بديْرِه ... خَمْرَ الصِّبا مُزِجَتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
فِى فِتْيَةٍ جَعَلُوا الزِّقاقَ تِكَاءَهُمْ ... مُتصاغِرِينَ تخشُّعًا لكَبيرِهِ
وَالَى عَلَىَّ بطَرْفِهِ وَبِكَفِّهِ ... فَأَمالَ مِنْ رَأْسِى لِعَبٍّ كَبيرِهِ
وَتَرَنَّمَ النّاقُوسُ عِنْدَ صَلاتِهِمْ ... فَفَتحْتُ مِنْ عَيْنِى لِرَجْعِ هَدِيرِهِ
يُهْدِى إلَيْنا الرّاحَ كُلُّ مُعَصْفَرٍ[٥] ... كالخِشْفِ خَفَّرَهُ التِّماحُ خَفيرِهِ[٦]

فصاحَ من حَبائلِ نَشْوته : أأشْجَعِىّ ؟ قلتُ : أنا ذاك ! فاستَدعَى ماءً قَراحًا ، فشَرِب منه وغَسَل وجهَه ، فأفاقَ واعتذر إلىَّ من حالِه . فأدركتْنى مَهابتُه ، وأخذتُ فى إجلاله ، لمكانه من العِلْم والشِّعر . فقال لى : أتُنشِدُ ، أوْ حتّى أُنشِدَك ؟ فقلت : إنَّ ذلك لأشَدُّ لتأنيسى[٧] . على أنه ما بعدك لمُحسنٍ إحسانٌ ، فأنشد :

---

(١) ب ، لب ، ده : « شرك » (٢) ب ، لب : « وبيمينه »
(٣) ر : « أذنيه » (٤) ب ، لب : « فصرخت »
(٥) ب : « مصفر » — لب : « مصفن » (٦) هذا البيت ناقص فى ر ، ده
(٧) ر : « لأشد من تأنيسى » — ب ، لب ، ت : « لأهدأ تأنيسا »

يا دَيْرَ حَنّةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ ... من يَصْحُ عنك فإنّى لستُ بالصّاحى [1]

يَعْتادُهُ كُلُّ مَحْفُوفٍ مَفَارِقُهُ ... من الدِّهانِ ، عليه سَحْقُ أَمْسَاحِ

لا يَدْلِفُونَ إلى مَاءٍ بآنِيَةٍ ... إلّا اغترافاً من الغُدْرانِ بالرّاحِ

فكدتُ واللهِ أخرجُ من جِلْدى طَرَباً . ثم أنشد :

* طَرَحْتُمْ منَ التَّرْحَالِ أمْراً فَغمّنَا [2] * ٥

وأنشد أيضا :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدادُ طِيبَ نَسِيمِ ... على طِيبِ ما أَقْوَتْ وحُسْنَ رُسُومِ [3]

تَجافَى البِلَى عَنْهُنَّ حَتّى كأنّما ... لَبِسْنَ مِنَ الإِقْوَاءِ ثَوْبَ نَعِيمِ [3]

واستمرَّ فيها حتّى أكملها . ثم قال لى : أنشِدْ . فقلتُ : وهل أبقيتَ [4] للإنشادِ موضعا ؟ قال : لا بُدَّ لك ، وأوعِثْ بى ولا تُنجِد . فأنشدتُه : ١٠

أَصَفِيحٌ شِيمَ أَمْ بَرْقٌ بدَا ... أَمْ سَنَا المَحْبُوبِ أَوْرَى أَزْنُدَا

هَبَّ مِنْ مَرْقَدِهِ مُنْكَسِراً ... مُسْبِلاً لِلْكُمِّ مُرْخٍ لِلرِّدَا

يَمْسَحُ النَّعْسَةَ مِنْ [5] عَيْنَىْ رَشاً ... صائدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسَدَا

قُلْتُ : هَبْ لِي يا حَبِيبِى قُبْلَةً ... تَشْفِ مِنْ عَمِّكَ تبريحَ الصَّدَى

فانْثَنَى يَهْتَزُّ مِنْ مَنْكِبِهِ ... قائلاً : لا ! ثُمَّ أعطانِي اليَدَا ١٥

كُلَّما كَلَّمَنِي قَبَّلْتُهُ ... فَهْوَ إمّا [6] قالَ قَوْلاً رَدَّدَا

كادَ أَنْ يَرْجِعَ ، مِنْ لَثْمِى لَهُ ... وارْتِشافِي الثَّغْرَ منْهُ ، أَدْرَدَا

قالَ لى يَلْعَبُ : خُذْ لِي طائراً ... فَتَرانِي الدَّهرَ أجْرِى بالْكَدَا

(١) راجع ديوانه س ١٢٨
(٢) راجع ديوانه س ٧٥
(٣—٣) ىه فى ر ، ىه
(٤) ر ، وىه : « تركت »
(٥) ب ، لب : « عن »
(٦) ب ، لب : « مهما »

وإذَا اسْتَنْجَزْتُ يَوْمًا وَعْدَه (١) قالَ لى يَمْطُلُ : ذَكِّرْنِى غَــدَا
شَرِبَتْ أعْطافهُ خَمْرَ الصِّبَا وسَــقَاهُ الحُسْنُ حَتّى عَرْبَدَا
وَإذَا بِتُّ بِهِ فى رَوْضَــةٍ أغْيَدًا يَعْرُو نَبَاتًا أغْيَــدَا (٢)
قامَ فى اللَّيْلِ بِجِيــدٍ أتْلَعٍ يَنْفُضُ اللِّمَّةَ مِنْ دَمْعِ النَّــدَى
٥ رَشَــأٌ بلْ غَادَةٌ مَمْكُورَةٌ عَمَّمَتْ صُبْحًا بِلَيْــلٍ أسْوَدَا
أحَجَتْ مِنْ عَضَّتِى فِى نَهْـدِهَا ثُمَّ عَضَّتْ حُــرَّ وَجْهِى عَمَدَا
فَأنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عَضَّتِها لا شَفَــانِى اللهُ مِنْها أبَدَا

فلمّا انتهيت قال : لله أنت ! وإنْ كان طَبعُك مخترَعا منك (٣) . ثم قال لِى : أنشِدْنى من رِثائك شيئًا (٤) . فأنشدتُه مِن قولِى فى بُنيّةٍ صغيرة :

١٠ (٥) أيُّها المُعْتَدُّ فى أهْــلِ النُّهى لاتَذُبْ إثْرَ فَقِيــدٍ وَلَهَا

حتى انتهيتُ إلى قولى (٥) :

وإذا الأُسْــدُ حَمَتْ أغيالَهَا لَمْ يَضُرَّ الخِيسَ صَرْعَاتُ المَهَا
وغَرِيبٌ يا ابْنَ أقْمارِ العُــلَا أنْ يُراعَ البَــدْرُ مِنْ فَقْدِ السُّهَا

فلمّا انتهيتُ قال لى : أنشِدْنِى من رِثائِكَ أشَدَّ مِنْ هــذا وأفصَح . فأنشَدْتُه ١٥ مِنْ رِثائِى فى ابنِ ذَكْوانَ . ثم قال : أنشِدْنى جَحْدَرِيَّتَكَ مِنَ السِّجن ، فأنشدته :

* قَرِيبٌ بمُحْتَلِّ الهَوانِ بَعِيدُ *

---

(١) هذا البيت ناقص فى ب ، لب

(٢) هذا البيت إلى آخر القصيدة ناقص فى ر ، مه (٣) ب ، لب : «مخترعا»

(٤) مه : « دمثا » (٥—٥) مه فى ب ، لب ، مه

حتى انتهيتُ فيها إلى قولى :

فَإِنْ طالَ ذِكْرِى بالمُجُونِ فإنَّنى ... شَقِىٌّ بمَنْظُومِ الكَلامِ سَعِيدُ
وَهَلْ كُنْتُ فِى العُشّاقِ أوّلَ عاشِقٍ ... هَوَتْ بحِجَاهُ أَعْيُنٌ وخُدُودُ ؟
فَمَنْ مُبْلِغُ الفِتْيانِ أنِّى بَعْدَهُمْ (١) ... مُقِيمٌ بِدارِ الظّالِمينَ (٢) طَرِيدُ
ولَسْتُ بذِى قَيْدٍ يَرِقُّ وإنّما ... عَلَى اللَّحْظِ مِنْ سُخْطِ الإمامِ قُيُودُ ٥

فبكى لها طويلاً (٣) . ثم قال : أنشِدْنى قطعةً من مجونك (٤) ، فقدْ بعُدَ عهدى بمثلِك . فأنشدْتُه :

وَناظِرَةٍ تَحْتَ طَىِّ القِناعِ ... دَعاهَا إلَى اللهِ والخَيْرِ داعِى
سَعَتْ بابْنِها تَبْتَغِى مَنْزِلاً ... لِوَصْلِ التَّبَتُّلِ والإنْقِطاعِ
فَجاءتْ تَهادَى كَمِثْلِ الرَّءُومِ ... تُراعِى غَزالاً بأعْلَى (٥) يَفاعِ ١٠
أَتَتْنا تَبَخْتَرُ فِى مَشْيِها ... فَحَلَّتْ بِوادٍ كَثِيرِ السِّباعِ
وريعَتْ حِذارًا عَلَى طِفْلِها ... فَنادَيتُ : يا هٰذِهِ لا تُراعِى !
فَوَلَّتْ ولِلْمِسْكِ مِنْ ذَيْلِها ... عَلَى الأَرْضِ خَطٌّ كَظَهْرِ (٦) الشُّجاعِ

فلما سمع هذا البيتَ قامَ يرقُص به ويردِّده ، ثم أفاق ، ثم قال : هذا واللهِ شىءٌ لم نُلهمْه نحن . ثم استدْنانى فدنَوْتُ منه فقبَّلَ بينَ عينَىَّ ، وقال : اذهَبْ فإنَّك مُجازٌ ١٥ على بَظْرِ أُمِّ الكارِه . فانصرفنا عنه وانحدرنا مِنَ الجبلِ ، فقال لِى زُهير : ومَنْ تريدُ بعد ؟ قلت له : خاتِمَةَ القَوْمِ صاحِبَ أبى الطَّيِّب ، فقال : اشْدُدْ لهُ حيازيمَك ،

(١) ب ، لب : « بعيدهم » (٢) ب ، لب : « الظاعنين »
(٣) ب ، لب : « طربا » (٤) ب ، لب : « عيونك »
(٥) ب ، لب : « بروض » (٦) ب ، لب : « كخط »

وعطِّرْ (١) له نَسيمَك (١) ، وانثرْ عليْهِ نُجومَك . وأمال عِنانَ الأدْهَمِ إلى طريقٍ ، فجعَل يرْكُضُ بنا ، وزُهَيرٌ يتأمّلُ آثارَ فرَسٍ لمحناها هناك . فقلتُ له : ما تتَبُّعُكَ لهذه الآثار ؟ قالَ : هي آثارُ فرسِ حارِثَةَ بنِ المُغَلّس صاحبِ أبي الطّيِّب ، وهو صاحبُ قَنَص (٢) . فلم يزل يتقرّاها حتى دفعْنا إلى (٣) فارسٍ على فرسٍ بَيضاء كأنّه قَضيبٌ على كَثِيب ، و بيَدِه قَنَاةٌ قد أسندَها إلى عنُقِه ، وعلى رأسِه عِمامةٌ حمراء ، قد أرخَى لَهَا عَذَبَةً صَفْراء . فحيّاه زُهَير ، فأحسَنَ الرّدّ ناظراً من مقلةٍ شَوساء ، قد مُلِئَت (٤) تِيهاً وعُجْبا . فعرّفه زُهيرٌ قَصْدِي (٥) ، وألقَى إليه رَغْبتي (٥) . فقال : بلغَنِي أنّه يتناوَل (٦) ، قلتُ : للضّرُورةِ الدافِعة ، و إلّا فالقريحةُ غيرُ صادِعَة ، والشّفْرةُ غيرُ قاطعة ، قال : فأنشِدْني ، وأكبَرتُه أنْ أستَنشِده ، فأنشدتُه (٧) قصيدَتِي التي أوّلُها (٧) :

* أبَرْقٌ بَدَا أمْ لمْعُ أبيَضَ قاصِلِ ؟ *

حتى انتهَيتُ فيها إلى قولِي :

تَرَدَّدَ فيها البَرْقُ حَتَّى حَسِبْتُهُ ... يُشِيرُ إلى نَجْمِ الرُّبَى بالأناملِ
رُبًى نَسجَتْ أيدِي الغَمامِ لِلُبْسِها ... غَلائلَ صُفْرًا فَوْقَ بِيضِ غَلائلِ
سَهِرْتُ بِها أرْعَى النُّجُومَ وأنجُمًا ... طَوالِعَ للرّاعِينَ غَيْرَ أوافِلِ
وقَدْ فغَرَتْ فاهَا ، بِها كلُّ زَهرةٍ ... إلى كُلِّ ضَرْعٍ لِلغَمامَةِ حافِلِ
ومَرّتْ جُيُوشُ المُزْنِ رَهْوًا (٨) كأنَّها ... عَساكِرُ زَنْجٍ مُذْهَباتُ المَناصِلِ

(١ — ١) ـه ف ر
(٢) ب ، لب : « ذو قنص »
(٣) ب ، لب : « لاح لنا »
(٤) ب ، لب : « حشيت »
(٥ — ٥) ـه ف ر ، ٮه
(٦) ب ، لب : « أنك تتناول »
(٧ — ٧) ـه ف ر ، ٮه
(٨) ر : « زهوا » — ب ، لب : « زهرا »

وحلّقت الخضراء فى غرّ شهبها[1] … كلجّة بحر كلّلت باليعالل
تخال بها زهر الكواكب نرجسا … على شطّ وادٍ للمجرّة سائل
وتلمح من جوزائها فى غروبها … تساقط عرشٍ واهن الدّعم مائل
وتحسب صقرا واقعا دبرانها … بعشّ الثّريّا فوق حمر الحواصل
وبدر الدّجى فيها غديرا وحوله … نجوم كطلعات الحمام[2] النّواهل
كأنّ الدّجى همّى، ودمعى نجومه … تحدّر إشفاقا لدهر الأراذل
هوت أنجم العلياء إلّا أقلّها … وغبن بما يحظى به كلّ عاقل
وأصبحت فى خلفٍ إذا ما امتحنتهم[3] … تبيّنت أنّ الجهل إحدى الفضائل
وما طاب فى هذى البريّة آخر … إذا هو لم ينجد بطيب[4] الأوائل
أرى حمرا فوق الصّواهل جمّة … فأبكى بعينى ذلّ تلك الصّواهل
وربّت كتّاب إذا قيل: زوّروا. … بكت من تأنّيهم[5] صدور الرّسائل
وناقل فقه لم ير الله قلبه … يظنّ بأنّ الدّين حفظ المسائل
وحامل رمح راح فوق مضائه … به كاعبا فى الحىّ ذات مغازل
حبوا بالمنى دونى وغودرت دونهم … أرود الأمانى فى رياض الأباطل
وما هى إلّا همّة أشجعيّة … ونفس أبت لى من طلاب الرّذائل
وفهم لو البرجيس جئت بجدّه … إذًا لتلقّانى بنحس المقاتل
ولمّا طما بحر البيان بفكرتى … وأغرق قرن الشّمس بعض جداولى
رحلت إلى خير الورى كلّ حرّة … من المدح لم تحمل برغى الحمائل[6]

---

(١) ب، لب، ود: «نجمها» (٢) ر: «الجمام»
(٣) لب، ود: «التمحتهم» (٤) ب، لب: «ينجده طيب»
(٥) ر: «تأنيهم» (٦) ترتيب هذا البيت والذى يليه معكوس فى ب، لب

وَكِدْتُ لِفَضْلِ القَوْلِ أَبْلُغُ ساكِتاً ... وإن ساءَ حُسَّادِي مَدَى كُلِّ قائِلِ

فلمّا انتهيتُ قال : أنشِدْنِي أَشَدَّ من هذا . فأنشدْتُه قصيدتى :

* هَاتِيكَ دارُهُمُ فَقِفْ بِمَعَانِها *

فلمّا انتهيتُ[1] قال لزُهير : إن امتـدَّ به طَلَقُ العُمر ، فلا بُدَّ أن ينفثَ

٥ بدُرَر ، وما أراهُ إلاّ سيُحتَضَر ، بينَ قَريحةٍ كالجَمْر ، وهِمّةٍ تضعُ أخْمَصَه على

مَفرِقِ البَدْر . فقلت : هلاَّ وضَـعْتَه عَلَى صَلْعَةِ النَّسر ! فاستضحكَ إلىَّ وقال :

اذهبْ فقد أجزتُك بهذه النُّكتة . فقبّلتُ على رأسِه وانصرَفنا . فقال لى زُهير :

مَن تريد بعده ؟ فقلت : مِلْ بِي إلى الخُطباء ، فقد قضَيتُ وَطَراً من الشعراء .

فركَضنا حِينًا طَاعِنين فى مَطلَعِ الشمس[2] ولقينا فارساً أسرَّ إلى زُهَير ، وانجزعَ

١٠ عنّا[2] . فقال لى زُهير : جُمِعتْ لكَ خُطباءُ الجِنِّ بِمَرْجِ دَهْمان[3] ، و بيننا

و بينهم فرسخان[3] ، فقَدْ كُفِيتَ العَناءَ إليهِمْ على انفرادِهِم . [4] قلت : لِمَ

ذاكَ ؟ قَال : للفَرْقِ بين كلامَيْن اختلفَ فيه فِتْيانُ الجِنِّ[4] . وانتهيْنا إلى المَرْج

فإذا بنادٍ عظيم ، قد جمَع كلَّ زَعِيم ، فصاح زُهير : السلامُ عَلَى فُرْسانِ الكلام .

فردُّوا وأشاروا بالنُّزُول . فأفْرَجوا حتَّى صِرْنا مركزَ هالةِ مجلِسِهم ، والكلُّ منهم

١٥ ناظرٌ إلى شيخٍ أصلع ، جاحظِ العينِ اليُمْنَى ، على رأسِه قَلَنْسُوَةٌ بيضاءُ طويلة .

فقلتُ سِرًّا لزُهير : مَنْ ذلِكَ ؟ قَالَ : عُتْبةُ بن أرقَم صاحبُ الجاحِظ ، وكُنْيتُه

أبو عُيَيْنَة . قلتُ : بأبي هُو ! ليس رغبتى سِوَاه ، وغيرَ صاحبِ عبدِ الحميد .

فقال لى : إنه ذلكَ الشيخُ الذى إلى جنبه . وعرَّفَه صَغْوِى إليه وقوْلِي فيه .

فاستـدْنانى وأخذ فى الكلامِ معِى ، فصمَتَ أهلُ المجلِس ، فقال : إنك

---

(١) ب ، لب : « حتى إذا سمعها » (٢—٢) ز فى ب ، لب

(٣—٣) د فى ر ، ن (٤—٤) د فى ر ، ن

لخطيب ، وحائكٌ للكلام مُجيد ، لولاَ أنَّك مُغْرًى بالسَّجع ، فكلامُك نظمٌ لا نَثْر . فقلتُ فى نفسِى : قرعَكَ — بالله — بقارعَتِه ، وجاءَك بمُمَاثلَته .
ثم قلت له : ليسَ هذَا — أعزَّكَ الله — منِّى جهلًا بأمْرِ السَّجع ، ومَا فِى المماثلَة والمقابلَةِ من فضْل ، ولكنِّى عدمتُ ببلَدِى فُرْسَانَ الكلام [(١)] ، ودُهيتُ بغباوةِ
٥ أهل الزمان ، وبالحرَا أن أحرِّكَهم [(٢)] بالازدواج . ولو فرَشتُ للكلامِ [(١)] فيهم طَوْلَقا ، وتحركت لهم حركة مشوْلم ، لكان أرفعَ لى عندهم ، وأولجَ فى نفوسِهم ، فقال : [(٣)] أهذا على تلك المناظر ، وكِبَرِ تلك المحابر ، وكمالِ تلك الطيالِس ؟ قلتُ : نعم ، إنَّها لِحاء الشجر [(٤)] ، وليس ثم ثمرٌ ولا عبَق [(٣)] . قالَ لى : [(٥)] صَدقتَ ، إنِّى أراك قد ماثلْتَ معى . قلت : كما سمعت [(٥)] . قال : فكيف كلامُهم بينهم ؟
١٠ قلت : ليس لسيبويهِ فيهِ عمَل ، ولا للفراهيدىِّ إليه طريق ، ولا للبيانِ عليه سِمة . إنَّما هِىَ لُكْنةٌ أعجمِيّةٌ يُؤدُّون بها المعانِىَ تأديةَ المجوسِ والنَّبط . فصاحَ : إنَّا لله ، ذهبت العربُ وكلامُها ! ارمِهِمْ يا هـذا بسَجعِ الكُهَّان ، فعسَى أنْ ينفعَك عندهم ، [(٦)] ويُطيرَ لك ذِكْراً فيهم . وما أراكَ مع ذلك إلاَّ ثقيلَ الوطْأةِ عليهم ، كَرِيهَ المَجىء إليهم [(٦)] . فقال الشَّيخ الذى إلى جَانبِه ، وقد علمتُ أنَّه
١٥ صاحبُ عبد الحميد ، ونفسِى مرتقِبةٌ إلى ما يكون منه [(٧)] : لا يَغُرَّنْكَ منهُ أبا عُيَيْنةَ ما تكلَّفَ لكَ من المُماثلة . إنَّ السَّجعَ لَطبعُه ، وإنَّ ما أسمعَكَ كُلْفة . ولو امتدَّ به طَلَقُ الكلام ، وجرت أفراسُه فى ميْدَان البيان ، لصلَّى كَوْدَنُه ، وكَلَّ

(١—١) ـه فى ب ، لب (٢) ـه : « أحدثهم » .
(٣—٣) ـه فى ب (٤) ـه : « إنما يجنى الشجر »
(٥—٥) ـه فى ر (٦—٦) ـه فى ب ، لب
(٧) ب ، لب : « لما يأتى منه »

بُرْثُنُه . وما أراهُ إلا من اللُّكْنِ الّذين ذَكَر ، وإلاَّ فما للفصاحةِ لا تَهدِر ، ولاَ للأعْرابيّةِ لا تُومِض ؟ فقلت فى نفسى : طبعُ عبدِ الحميد ومساقُه وربِّ الكعبة ! فقلت له : لقد عجِلْتَ أبا هُبَيْرة — وقد كان زهيرٌ عرّفنى بكُنْيَته — إنّ قوسَكَ لنبع ، وإنّ ماءَ سَهْمِكَ لَسُمّ ، أحمارًا رميتَ أم إنسانا ، وقعْقعةً طلبْتَ أم بيانا ؟ وأبيك إنّ البيانَ لَصَعْب ، وإنك منه لفى عباءةٍ تتكشَّفُ عنها أسْتاهُ معانيك ، تكشُّفَ استِ العنز[1] عَنْ ذَنَبِها . الزمانُ دِفْءٌ لا قَرّ ، والكلامُ عراقِىٌّ لا شامِىّ . إنى لأرَى من دمِ[2] اليَرْبُوعِ بكَفَيْك[3] ، وألمحُ من كُشَى الضّبِّ عَلَى ماضِغَيْك . فتبسَّم إلىَّ وقال : أهكذا أنت يا أُطَيْلس ، تركَبُ لكلٍّ نهْجَه ، وتَعِجُّ إليه عَجَّه ؟ فقلت : الذِّئْبُ أطلَس ، وإنّ التَّيْسَ ما علِمْتَ ! فصاح به أبو عُيَيْنَة : لا تعرضْ له ، وبالحرَا أنْ تَخْلُصَ منه . فقلت : الحمْدُ لله خالقِ الأنَامِ فى بطونِ الأنعام ! فقال : إنّها كافيةٌ لو كانَ له حِجْر . فبسَطانى وسألانى أن أقْرأ عليهما من رسائِلى ، فقرأتُ رسالتى فى صِفة البَرْدِ والنارِ والحطَب فاستحسناها ، ومن رسالتى فى الحلواء حيث أقول :

خرجتُ فى لُمَّةٍ من الأصحاب ، وثُبَةٍ من الأتراب ، فيهم فقيهٌ ذو لَقَمْ ، ولم أعرِفْ به ، وغَريمُ بطنٍ ، ولَمْ أشْعُرْ له ، رأى الحلْوَى فاستخفّه الشَّرَه ، واضطرَب به الوَلَه ، فدار[4] فى ثيابه ، وأسالَ من لعابه ، حتّى وقفَ بالأكداس ، وخالطَ غُمارَ النّاس ، ونظر إلى الفالُوذَج فقال : بأبِى هذا اللّمْص ، انظروه كأنّه الفصّ ، مُجاجَةُ الزنابير ، أُجرِيَتْ على شَوابير ، وخالَطَها لُبابُ الحَبَّة ، فجاءتْ أعذبَ من ألْسِنَةِ الأحِبَّة .

(١) ب ، لب : « العير » (٢) وه : « جحر »
(٣) ب ، لب : « بفكيك » (٤) ب ، لب « فبال »

ورأى الخَبيصَ فقال : بأبِي هذا الغالِي الرَّخيص ، هذا جليدُ سماءِ الرَّحمة ، تمخَّضَتْ بهِ فأبرزتْ منه زُبْدَ النِّعْمة ، يُجْرَحُ باللَّحْظ ، ويذوبُ من اللفْظ . ثم ابيضّ ، قالوا بماء البيض البضّ . قال : غضٌّ مِن غضّ ، ما أطيبَ خَلْوَةَ الحبيب ، لولا حضْرةُ الرقيب !

ولمحَ القُبَيْطاء[١] ، فصاح : بأبي نُقْرةُ الفضّة البيضاء ، لا تَرُدُّ عن العَضّة[٢] . أبنارٍ طُبِخَت أمْ بِنُور ؟ فإنى أراها كقطعِ البلُّور ؛ وبلوزٍ عُجِنتْ أم بجَوْز ؟ فإنى أراها عيْنَ[٣] عَجينِ الموْز . ومشَى إليها وقد عدَّل صاحبُها أرطالَ نُحاسِه ، وعلَّق قسطاسَه مِنْ أمِّ راسِه ؛ فقال : رِطْلٌ بدرهَمَيْن ، وانتهشَها بالنَّابَيْن ، فصاحَ : القارعةُ ما القارعة . هيه ! ويلٌ للمرءِ منْ فِيه !

ورأى الزَّلابِيَة ، فقال : ويلٌ لأُمِّها الزانية ، أبِأَحْشائِى نُسِجَتْ ، أم مِنْ صِفَاقِ قَلْبِي أُلِفَتْ ؟ فإنى أجدُ مكانَها مِنْ نفسِى مكينا ، وحَبْلَ هواها على[٤] كَبدى متينا ، فمِنْ أين وصلتْ كفُّ طابخِها إلى بَاطِنى ، فاقْتطعَتْها من دوَاجنى ؟ والعزيزِ الغفّار ، لأَطْلُبَنَّها بالثّار ! ومشى إليها ، فتلمَّظ له لسانُ المِيزان ، فأَجْفَلَ يصيحُ : الثُّعبانَ الثُّعبان !

ورُفع له ثمرُ النَّشا ، غيرَ مَهْضُومِ الحشا ، فقال[٥] : مَهْيَمْ ! مِنْ أينَ لكم جَنَى نخلةِ مَرْيم ؟ ما أنتم إلاَّ السُّحّار ، وما جزاؤُكم إلا السَّيفُ والنّار . وهمَّ أن يأخذَ مِنْها . فأثْبتَ فى صدرِه العصَا ، فجلس القرْفُصَا ، يَذْرِى الدُّمُوع ، ويُبْدِى الخُشُوع . وما منا[٦] أحَد إلاَّ عَنِ الضَّحِك قد تجلَّد . فرقَّتْ له ضُلوعِى ، وعلمتُ أنَّ اللهَ فيهِ

(١) ر ، ره : « القبيطى » (٢) ب ، لب : « لا يؤذى على العضة » — ره فى ر

(٣) ب ، لب ، ره : « غير » (٤) ره : « من »

(٥) ب ، لب : « فصاح » (٦) ب ، لب : « وهل هنا »

غيرُ مُضيعِي . وقد تجْمُل[١] الصَّدقةُ على ذَوِى وَفر ، وفى كلّ ذِى كَبِدٍ رَطْبَةٍ[٢] أجْر . فأمرْتُ الحَلْوانِيَّ بابتِياعِ أرْطالٍ منْها تجمَعُ أنواعَها التى أنطقتْه ، وتحتَوِى على ضُرُوبِها[٣] التى أضرَعتْه . وجاء بها وسِرْنا إلى مكانٍ خالٍ طيِّب ، كوصْفِ المُهلَّبِيِّ :

٥ خانٌ تَطِيبُ لِباغِى النُّسْكِ خَلْوَتُهُ وَفِيهِ سَتْرٌ عَلَى الفُتَّاكِ إنْ فتَكُوا[٤]

فصَبَّها[٥] رطْبةَ الوُقوع ، كرادِيسَ كقِطَعِ الجُذُوع ؛ [٦]فجعَلَ يقطعُ ويبلَعُ[٦] ، ويَدحُو فاه ويَدفَع ، وعَيْناه تَبِصّان[٧] ، كأنهما جَمْرتان ، وقد برَزَتا على وجْهِه كأنَّهما خُصْيتان ، وأنا أقولُ له : عَلَى رِسْلِكَ أبا فلان ! البِطنةُ تُذهِبُ الفِطْنة ! فلمّا التقَمَ جُمْلةَ جَماهيرِها ، وأتَى على مآخيرِها[٨] ، ووصَل خَورَنَقها

١٠ بسَدِيرِها ، تَجَشَّأ فهبَّت منه ريحٌ عَقيم ، أيقَنَّا لَها بالعَذابِ الأليم . فنَثَرتْنا شَذَرَ مَذَر ، وفرَّقتْنا شغَرَ بغَر ، فالْتَمَحْنا منه الظَّرِبان ، وصدَّق الخَبَرَ فيه العِيان . نفَحَ ذلك فشرَّد الأنعام[٩] ، ونفَخَ هذا فبدَّد الأنَام ، فلَمْ نجتَمِعْ بعدَها والسَّلام .

فاستَحْسنَاها ، وضَحِكا عليها ، وقالا : إنّ لسَجْعِكَ موضِعًا[١٠] من القَلب ، ومكانًا مِن النَّفس ، وقد أُعرتَه مِنْ طَبْعك ، وحَلاوةِ لَفظِك ، ومَلاحةِ

١٥ سَوْقك ، ما أزَال أفنَه ، ورفَع غَبْنه . وقد بلغَنا أنَّك لا تُجارَى[١١] فى أبناء جِنسك ، ولا يُمَلُّ من الطَّعْن عليك ، والاعتراض لك . فمَنْ أشَدُّهم عليك ؟

---

(١) لب : « تحمل » — وه : « تحل » (٢) وه : « حرى »
(٣) ب ، لب : « صنوفها » (٤) ب ، لب : « الفتاك إن فتكا »
(٥) وه : « فصفها » (٦—٦) وه فى ر (٧) ب : « تبصران »
(٨) ب ، لب : « آخرها » (٩) ب ، لب ، وه : « النعام »
(١٠) ب ، لب : « مرجعاً » (١١) ب ، لب : « لاتجار » — وه : « لا تجارى »

قلت : جارَانِ دَارُهما صَقَب ، وثالثٌ نَابَتْه نُوَب ، فامتطى ظَهْرَ النَّوَى ، وألْقتْ بهِ فى سَرَقُسْطَةَ العصَا . [١] فقالا : إلى أبى محمدٍ تُشير ، وأبى القاسِمِ وأبى بكر ؟ قلت : أجل . قالا : فأيْن بلغتَ فيهم ؟ قلت : أمَّا أبو مُحمدٍ [١] فانتضَى عَلَىَّ لِسانَه عندَ المستعين ، وساعدتْه زُرَافةٌ استهْوَاهَا [٢] من الحاسدين ، وبلغنى ذلك فأنشدْتُه شِعراً ، منه : ٥

وبُلِّغْتُ أقْوَامًا تَجِيشُ صُـدُورُهُمْ ... عَلَىَّ ، وَإنِّى مِنْهُمُ فَارِغُ الصَّدْرِ
أصَاخُوا إلَى قَوْلِى فأسْمَعْتُ مُعْجِزًا ... وَغَاصُوا عَلَى سِرِّى فأعْيَاهُمُ أمْرِى
فَقَالَ فَرِيقٌ : لَيْسَ ذَا الشِّعْرُ شِعْرَهُ ... وَقَالَ فَرِيقٌ : أيْمُنُ اللهِ ، مَا نَدْرِى
أمَا عَلِمُوا أنِّى إلَى العِلْمِ [٣] طَامِحٌ ... وَأنِّى الَّذِى سَبْقًا عَلَى عِرْقِهِ يَجْرِى
وَمَا كُلُّ مَنْ قَادَ الجِيَادَ يَسُوسُها ... ولاَ كُلُّ مَنْ أجْرَى يُقَالُ لَه : مُجْرِى ١٠
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْبُرْ فَإنِّىَ حَاضِرٌ ... ولاَ شَىْءَ أجْلَى للشُّكُوكِ من الخُبْرِ

وأمّا أبو بكرٍ فأقْصَر واقتصَر على قولِه : لَهُ تابعةٌ تُؤيِّدُه . وأمّا أبُو القاسِمِ الإفْلِيلِىّ فَمَكَانُه [٤] من نفسِى مَكين ، وحُبُّـه بفُؤادِى دَخيل ، على أنه حاملٌ [٥] علىّ ، ومنتَسِبٌ [٦] إلىّ . فصاحَا : يا أنْفَ النَّاقَةِ ابنَ مَعْمَر ، مِن سُكَّانِ خَيْبَر ! فقام إليهما جِنِّىٌّ أشْمطُ رَبْعةٌ [٧] وارِمُ الأنْف [٧] ، يتظالَعُ [٨] فى مِشْيَته ، كاسِرًا لطَرْفه ، وزاوِيًا لأنْفِه ، وهو يُنْشِد : ١٥

قَوْمٌ هُمُ الأنْفُ والأذْنَابُ غَيْرُهُمُ ... وَمَنْ يُسَوِّى بأنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

(١ — ١) ده فى ب ، لب ، وه (٢) ده فى ر ، ده
(٣) وه : « النظم » (٤) وه : « فانه »
(٥) وه : « متحامل » (٦) ر : « ومتسلب »
(٧ — ٧) ده فى ب ، لب (٨) ر ، وه : « يتصانع » — ب ، لب : « يتضالم »

فقالا لى : هذا صاحبُ أبِى القاسم ، ما قولُكَ فيـهِ يا أنْفَ النّاقة ؟ قال : فتًى لَمْ أعرفْ عَلَى مَنْ قرأ . فقلتُ لِنفْسِى : العَصَا من العُصَيَّة ! إن لم تعربى عن ذاتِك ، وتُظْهِرِى بعضَ أدواتِك ، وأنتِ بينَ فُرسانِ الكلامِ ، لم يَطِرْ لكِ بعدَها طائر ، وكنتِ غرَضًا لكلِّ حَجرِ عابر . وأخذتُ لِلكَلامِ أُهْبَته[1] ، ولبستُ للبيانِ بِزَّتَه[2] فقلتُ : وأنا أيضًا لا أعرف على مَنْ قرأْت . قال : ألِمِثْلى يُقالُ هـذا ؟ فقلت : فكانَ ماذَا ؟ قال : فطارِحْنِى كتابَ الخَليل . قلتُ : هو عِنْـدى فى زِنْبيل . قال : فناظِرْنى عَلَى كتابِ سِيبَوَيْه . قلتُ : خَرِيَت الْهِرَّةُ عنـدِى عليه ، وعلى شرح ابن دَرَسْتَوَيْه . فقال لى : دعْ عنكَ . أنا أبُو البَيان . قلت : لاَها الله ! إنما أنتَ كَمُغَنٍّ وَسَط ، لا يُحسِنُ فيُطرِب ، ولا يُسِىء فيُلهِى . قال : لقـدْ علَّمنيهِ المؤدِّبُون . قلت : ليسَ هو مِنْ شأنِهم ، إنما هُو من تعليم اللهِ تَعالى حيثُ قال : « الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإنْسانَ عَلَّمَهُ البَيَان » ، ليسَ من شِعرٍ يُفسّر ، ولا أرضٍ تُكَسَّر . هيهاتَ حتَّى يكونَ المِسْكُ من أنفاسِك ، والعنْبرُ من أنفَاسِك ، [3]وحتى يكون مَساقُكَ عَذْبا ، وكلامُك رَطْبا ، ونفَسُك مِنْ نَفْسِك[3] ، وقليبُك من قلبك ؛ وحتَّى تتناولَ الوضيعَ فترفعَه ، والرفيعَ فتضعَه ، والقبيحَ فتحسِّنَه ! قال : أسمِعْنِى مثالا . قلت : حتَّى تَصِفَ بُرْغُوثًا فتقول : أسْودُ زِنْجىٌّ ، وأهلىٌّ وحْشِىٌّ ؛ ليس بِوَانٍ ولا زُمَّيْل ، وكأنَّه جزءٌ لا يتجزَّأُ مِنْ لَيْل ؛ وشُونيزَة ، أوثَقْتُها[4] غَرِيزَة ، أو نقطةُ مِدَاد ، أو سُوَيْداء قلبِ قُرَاد ؛ شُربه عَبٌّ ، ومَشْـيه وَثْب ؛ يَكْمُنُ

(١) ب ، لب ، و : « سكنته » (٢) و : « فروته »

(٣—٣) ، فى ، (٤) ب ، لب ، و : « أوثبتها »

نَهارَه ، ويَسْرِى ليلَه ؛ يدرِكُ بطعْنٍ مؤلم ، ويَستحِلُّ دم كلِّ مُسلِم ؛ مُساوِرٌ للأساوِرة ، يجُرُّ ذَيلَه على الجَبابرة ؛ يتكفَّرُ بأرفعِ الثِّياب ، ويهتِكُ سِترَ كُلِّ حِجاب ، ولا يحفِلُ ببَوّاب ؛ يرِدُ مَناهِلَ العَيش العَذْبة ، ويصِلُ إلى الأحراج الرَّطْبه ، لا يَمنَعُ منه أمير ، ولا يَنفَعُ فيهِ غَيرةُ غَيور ، وهو أصغر[1] كُلِّ حَقير ؛ شرُّه مَبْثوث ، وعَهْدُه منكوث ، وكذلك كلُّ بُرغُوث ؛ كَفَى بهذا نقصًا للإنسان ، ودالاً عَلَى قُدرةِ الرَّحْمن . ٥

وحتى تصِف ثعلبًا فتقول : أدهَى من عَمْرو ، وأفتكُ مِنْ قاتِلِ حُذيفة ابن بَدْر ؛ كثيرُ الوقائع فى المسلمين ، مُغْرًى بإراقةِ دِماء المؤذّنين ؛ إذا رأى الفُرْصةَ انتهزَها ، وإذا طلبَتْه الكُماةُ أعجزَها ؛ وهو مع ذلك بُقْراطُ فى إدامِه ، وجالَينُوسُ فى اعتِدال طَعامِه ؛ غَداؤه حَمامٌ أو دَجاج ، وعَشاؤه تَدرُجٌ أو دُرّاج . ١٠

قال أبو عامر :

وكان فيما يقابلُنى من ناديهم فَتًى قد رَمانِى بطرْفه ، واتَّـكأَ لِى عَلَى كفِّه ، فقال : تَحيُّلٌ على الكلام لَطيفٌ وأبيك ! فقلت : وكيفَ ذلك ؟ قال : أوما علِمتَ أنَّ الواصفَ إذا وَصَف شيئًا[2] لم يُتقدَّمْ إلى صفتِه ، ولا سُلِّط[3] الكلامُ على نعْتِه ، اكتفى بقليلِ الإحْسان ، واجتزى بيَسيرِ البَيان ؟ لأنه لم يتقدَّمْ وصفٌ يُقرَنُ بوصْفِه ، ولا جَرَى مَساقٌ يُضافُ إلى مساقِه . وهذه نُكتةٌ بغْذاذِيَّة ، أنَّى لكَ بها يا فتى المغْرب ؟ فقلتُ لزُهير : مَنْ هذا ؟ قال : زُبْدةُ الحِقَب ، صاحبُ بديعِ الزَّمان . فقلتُ : يا زُبدةَ الحِقَب ، اقترحْ لِى . قال : صِفْ ١٥

---

(١) ب ، لب ، ل : « أحقر » (٢) ب ، لب : « موصوفاً » — ل : « وصفاً » (٣) ب ، لب : « سرد »

جاريةً . فوصَفتُها . قال : أحسنْتَ[١] ماشِئْتَ أن تُحسِن[١] ! قلتُ : أَسْمِعْنى وصفَكَ للمَاء ، قال: ذلكَ من العُقْم[٢] . قلت : بحيَاتى هاتِه ، قال[٢] : أزرقُ كعَيْنِ السِّنَّوْر ، صافٍ كقَضِيبِ البِلَّوْر ؛ انتُخِبَ من الفُرَات ، واستُعْمِل بعدَ البيات ، فجاءَ كلِسانِ الشَّمْعة ، فى صَفاءِ الدَّمْعة .

٥ فقلتُ : انظرْهُ يا سيِّدى كأنَّه عصيرُ صَبَاح ، أو ذَوْبُ[٣] قمرٍ لِيَاح ؛ ينصَبُّ[٤] من إنائه ، انصبابَ الكوكبِ من سَمائِه ؛ العَيْنُ حانُوتُه ، والفمُ عِفْرِيتُه ، كأنَّه خَيْطٌ منْ غَزْلٍ فُلِق ، أو مِخصَرٌ يُضرَبُ بِه منْ وَرِق ؛ يُرْفَعُ عنكَ فتَرْدَى ، ويُصْدَعُ بهِ قلبُكَ فتَحْيَا .

فلما انتهيتُ فى الصِّفَة ، ضَرَبَ زُبْدَةُ الحِقَبِ الأَرْضَ برِجْله ، فانفرجتْ له

١٠ عن مثْلِ بَرَهُوت ، وتَدَهْدَى إليْهَا ، واجتَمَعَتْ عليه ، وغابت عَيْنُه ، [٥]وانقطَعَ أثَرُه[٥] . فاستضْحَكَ الأُستاذان منْ فِعْله ، واشتَدَّ غَيْظُ أنفِ النَّاقةِ علىَّ ، فقال: وقعتْ لكَ أوصافٌ فى شِعْرِكَ تَظُنُّ أنِّى لا أستَطِيعُها ؟ فقلتُ له : وحتى تَصِف عارضًا فتَقول :

وَمُرْتَجِزٍ أَلْقَى بِذِى الأَثْلِ كَلْكَلاً ... وَحطَّ بِجَــرْعاءِ الأَبارِقِ مَا حَطَّا

١٥ سَعَى فى قِيادِ الرِّيحِ يُسْمِحُ للصَّبَا ... فأَلْقَتْ عَلَى غَيْرِ التِّلاعِ بِهِ مِرْطَا

وَمَازَالَ يُرْوِى التُّرْبَ حَتَّى كَسَا الرُّبَى ... دَرَانِكَ ، والغِيطَانَ من نَسْجِهِ بُسْطَا

وعَنَّتْ لَهُ رِيحٌ تُسَــاقِطُ قَطْرَهُ ... كَمَا نَثَرَتْ حَسْنَاءُ مِنْ[٦] جِيدِهَا سِمْطَا

وَلَمْ أَرَ دُرًّا بَدَّدَتْه يدُ الصَّــبَا ... سِــوَاهُ ، فَبَاتَ النَّوْرُ يَلْقُطُهُ لَقْطَا

(١ — ١) ىه فى ر ، ل ه — (٢ — ٢) ىه فى ب ، لب

(٣) ر : « ذى » — ل ه : « دب » — (٤) ب ، لب ، ر : « له »

(٥ — ٥) ىه فى ر ، ل ه — (٦) ب ، لب : « عن »

وَبِتْنَا نُرَاعِى اللَّيْلَ لَمْ نَطْوِ بُرْدَهُ وَلَمْ يَجْرِ شَيْبُ الصُّبْحِ فِى فَرْعِهِ وَخْطَا
تَرَاهُ كَمَلْكِ الزِّنْجِ فِى فَرْطِ كِبْرِهِ إِذَا رَامَ مَشْيًا فى تَبَخْتُرِهِ أَبْطَا
مُطِلاًّ عَلَى الآفاقِ والبَـدْرُ تَاجُهُ وقد عَلَّقَ الجَوْزاءَ مِنْ أُذْنِهِ قُرْطَا

وحتى تصِفَ ذِئْبًا فتقول :

إِذَا اجْتَازَ عُلْوِىُّ الرِّيَاحِ بِأُفْقِهِ أَجَدَّ لِعِرْفَانِ الصَّـبَا يَتَنَفَّسُ ٥
تَذَكَّرَ رَوْضًا مِنْ[١] شَوِىٍّ وبَاقِرٍ تَوَلَّتْهُ أَحْرَاسٌ مِنَ الذُّعْرِ[٢] تُحْرَسُ
إِذَا انْتَابَهَا مِنْ أَذْؤُبِ القَفْرِ[٣] طارِقٌ حَثِيثٌ إذا ما اسْتَشْعَرَ اللَّحْظَ يَهْمِسُ[٤]
أَزَلُّ كَسَا جُثْمَانَهُ مُتَسَـتِّرًا طَيَالِسَ سُودًا للدُّجى وهُوَ أَطْلَسُ
فَدَلَّ عَلَيْهِ لَحْظُ خِبٍّ مُخَـادِعٍ تَرَى نارَهُ مِنْ ماءِ عَيْنَيْهِ تُقْبَسُ

فصاح فِتيانُ الجِنِّ عندَ هـذا البيتِ الأخير : زَاهٍ ! وعلَتْ أَنفَ الناقةِ ١٠ كآبَةٌ ، وظهرتْ عليه مَهابَةٌ ، واختلَط كلامُه ، وبَدا منه ساعتئذٍ بَوادٍ فى خطابِه ، رَحِمهُ لها مَن حضَر ، وأشْفَق عليه من أجْلِها مَن نظَر . وشمَّرَ لِى فتًى كانَ إلى جَانبِه عنْ ساعِدٍ ، وقال لى : وهل يضُرُّ[٥] قريحتَك ، أو يَنقُص مِنْ بَديهتِك لو تجافَيتَ لأنفِ النَّاقة ، وصبرتَ له ؟ فإنه على عِلّاتِه زِيرُ عِلْمٍ ، وزِنْبيلُ فهْمٍ ، وكَنَفُ رِوايةٍ . فقلتُ لزُهير : مَنْ هـذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحبُ[٦] ١٥ أبى إسحاق بن حَمامٍ جارِكَ . فقلتُ : يا أبا الآداب ، وزهرةَ رَيحانةِ الكُتَّاب ، رِفقًا على أخيك بغَرْبِ لِسانِك ! وهل كانَ يضُرُّ أنفَ النَّاقة ، أو ينقص من

(١) ب ، لب : « ذا » (٢) ب ، لب ، ره : « الصعب »
(٣) ب ، لب : « الليل » (٤) ترتيب هذا البيت والذى قبله معكوس فى ب ، لب
(٥) ره : « يسوء » (٦) ب ، لب : « تابعة »

علمه ، أو يفُلُّ شَفْرةَ فهمه ، أن يصبرَ لي على زَلَّةٍ تمرُّ بهِ في شِعْرٍ أو خُطبة ، فلا يهتِفُ بها بَيْنَ تلاميذِه ، ويجعلها طَرْمَذةً من طَراميذِه ؟ فقال : إنَّ الشُّيوخَ قد تَهْفو أحلامُهم في النُّدْرة . فقلت : إنها المرَّةُ بعدَ المرَّة . ثم قالَ لي الأُستاذانِ عُتْبةُ بن أرْقَم وأبُو هُبَيْرةَ صاحبُ عبدِ الحميد : إنَّا لنَخبِطُ مِنْك ببَيْداءِ حَيْرة ،
٥ وتُفتَقُ أسماعُنا منك بعِبْرة ، وما نَدري أنقولُ : شاعرٌ أمْ خطيب ؟ فقلتُ : الإنصافُ أوْلَى ، والصَّدْعُ بالحَقِّ أحْجَى ، ولا بُدَّ من قضاء . فقالا : اذهبْ فإنكَ شاعرٌ خَطيب . وانفضَّ الجَمْع والأبصارُ إليَّ ناظِرة ، والأعناقُ نَحْوي مائلة .

قالَ ابنُ بَسّام : وامتدَّ بأبي عامرٍ الكلامُ في هذا الباب ، ومدَّ فيهِ أطنابَ الإطنابِ والإسْهاب ؛ فلذلك وقفتُ دونَ الغاية ، وقطعتُ قبلَ النِّهاية .

١٠ قولُه ، لمّا[1] عرَض بِه لصاحبِ أبي تمام : « بعمرٍو والقمرِ الطّالع ، والرُّقْعة المفكوكة الطّابِع » أشارَ إلى قولِ أبي تمام[2] في غُلامه :

يا عَمْرُو قُلْ للقمرِ الطّالِعِ ... اتّسعَ الخُرْقُ عَلَى الرّاقِعِ
يا طُولَ فِكْري فيكَ مِنْ حامِلٍ ... لِرُقْعةٍ مَفْكُوكةِ الطّابِعِ
ما أنْتَ إلاّ رَشَأٌ خاذِلٌ ... حَلَّ بمَغْنَى أسَدٍ جائِعِ

١٥ وحكى الصُّوليُّ في أخبارِه قال :

كان أبو تمامٍ يتعشَّقُ غلامًا خَزَريًّا للحَسَنِ بن وَهْب ، وكان الحسَنُ يتعشَّقُ غلامًا رُوميًّا لحَبيب . فرآه يعبَثُ بغُلامه ، فقال له : واللهِ لئن سِرتَ إلى الرُّوميِّ لأسيرَنَّ إلى الخَزَريّ . فقال الحسَن : لو شئتَ حكَّمتَنا واحتكَمْتَ ! فقال أبُو تمام : أنا أُشبِّهُكَ بداودَ عليه السلام ، وأشبِّهُني أنا بخَصْمِه . فقال الحسَن :
٢٠ لو كانَ هذا منظومًا ! فقال أبُو تمّامٍ من جُملةِ أبيات :

---

(١) ب ، لب : « فيا » (٢) راجع ديوانه (ص ٤٤٩)

أذْكَرْتَني أمْرَ داوُدٍ وكُنْتُ فتًى ... مُصَرَّفَ القَلْبِ فى الأهْواءِ والفِكَرِ
أعِنْدَكَ الشَّمْسُ لَمْ يَحْظَ المَغِيبُ بِها ... وَأنْتَ مُشْتَغِلُ الألْحَاظِ بالقَمَرِ؟
إنْ أنْتَ لَمْ تَتْرُكِ السَّيْرَ الحَثِيثَ إلى ... جآذِرِ الرُّومِ أعْنَقْنا إلى الخَزَرِ
ورُبَّ أمْنَعَ مِنْهُ جَانِبًا وَحِمًى ... أمْسَى وتِكَّتُهُ مِنِّى عَلَى خَطَرِ
جَرَّدْتُ فِيهِ جُنُودَ العَزْمِ فانْكَشَفَتْ ... عَنْهُ غَيَاهِبُهَا عَنْ نَيْكَةٍ هَدَرِ ٥
أنْتَ المُقِيمُ فَمَا تَغْدُو رَوَاحِلُهُ ... وَأيْرُهُ أبَدًا مِنْهُ عَلَى سَفَرِ

وقيل لأبى تمّام : غُلامُكَ أطْوَعُ للحَسَن من غُلامِه لك . قال : أجَلْ ! لأنَّ غُلامِى يجدُ عنده مالا ، وأنا أعطِى غُلامَه قيلًا وقالا .

وكان ابن الزَّيَّاتِ قد وقف على ما كان بينهما فى غُلامَيْهِما ، فاتَّفَق أنْ عزم يومًا غُلامُ أبى تَمَّامٍ على الاحتجام ، فكتبَ إلى الحسَن يعلِمُه بذلك ، ويستدْعيه ١٠ مَطبوخًا . فوجَّه إليه بمائةِ زِقٍّ[1] ومائةِ دينار ، وكتَبَ إليه بشِعرٍ يقول فيه :

لَيْتَ شِعْرِى يا أمْلَحَ النَّاسِ عِنْدِى ... هَلْ تَدَاوَيْتَ بالحِجَامَةِ بَعْدِى؟
دَفَعَ اللهُ عَنْكَ لِى كُلَّ سُوءٍ ... بَاكِرٍ رائحٍ وإنْ خُنْتَ عَهْدِى
قَدْ كَتَمْتُ الهَوَى بِمَبْلَغِ جَهْدِى ... فبدَا مِنْهُ غَيْرُ مَا كُنْتُ أُبْدِى
وَخَلَعْتُ العِذَارَ إذْ عَلِمَ النَّا ... سُ بأنّى إيَّاكَ أصْفِى بِوُدِّى ١٥
فَلْيَقُولُوا بِمَا أحَبُّوا إذَا كُنْـ ... ـتَ وَصُولًا ولَمْ تَرُعْنِى بِصَدِّ

واتَّفق أن وضَعَ الرُّقعةَ تحتَ مُصَلَّاه . وبلغ محمدَ بنَ الزياتِ خَبَرُها ، فوجَّه إلى الحسَنِ مَنْ شَغَلَهُ بالحديث ، وأمَرَ مَن جاءه بتلك الرُّقعة ، ففكَّها وقرأها وكتَب فيها على لِسانِ أبى تمّام :

لَيْتَ شِعْرِى عَنْ لَيْتَ شِعْرِكَ هَذا ... أبِهَزْلٍ تَقُولُهُ أمْ بِجِدِّ؟ ٢٠

(١) لب : « دن »

فَلَئِنْ كُنْتَ فى المَقالِ مُجِدًّا ... يا ابْنَ وَهْبٍ لَقَدْ تطرَّفتَ بعدِى
وَتَشَبَّهْتَ بِى وَكُنْتُ أرى أَنِّى ... أنا العاشِقُ المُتيَّمُ وَحْـدِى
لا أُحِبُّ الذى يَلُومُ وإنْ كا ... نَ حَريصًا على صَلاحِى ورُشْدِى
بَلْ أُحِبُّ الأخَ المُشارِكَ فى الحُبِّ ... وإنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ مِثْلُ وَجْدِى
٥ كَنَديمِى أَبِى عَلِيٍّ وَحاشَـا ... لِنَديمِى مِنْ مِثْلِ شِقْوَةِ جَدِّى
إنَّ مَوْلاىَ عِنْدَ غَيْرِى ولَوْلاَ ... شُؤْمُ جَدِّى لَكانَ مَولاىَ عِنْدِى

ثم قال : ضَعُوا الرُّقعةَ مكانَها . فلمّا قرأها الحسَن قال : إنّا لله ! افتضحنا والله عند الوزير ! وأعلَمَ أبا تمّام بما جرَى ، ووجَّه إليه بالرُّقْعة . فلقيا محمدَ بنَ عبد الملِك ، فقالا له : إنّما جعلنا هذَين الغلامَيْن سببًا لتكاتُبِنا بالأشعار ، فلا يظنُّ ١٠ الوزيرُ — أعزَّهُ الله — إلاّ خيراً . فقالَ : ومن يظنُّ غيرَ هذا بكُما ؟ فكان قولُه أشدَّ عليهما .

رجْع :

قال ابن بَسام : قال ابنُ حيّان : وكان أبو القاسمِ المعروفُ بابنِ الإفليلى الذى به عرَّض ، وجعله الغرَض ، قد بذَّ أهلَ زمانه بقُرْطُبة ، فى عِلْمِ اللّسانِ ١٥ العرَبى ، والضَّبْطِ لغريبِ اللُّغة ، فِى ألفاظِ الأشعارِ الجاهليّةِ والإسلاميّة ، والمشارَكةِ فى بعضِ مَعانيها . وكان غيورًا على ما يَحْمِلُ منْ ذلكَ الفنّ ، كثيرَ الحسَدِ فيه ، راكِبًا رأسَه فى الخطأ البيِّنِ إذا تقلَّدَه أو نشَب فيه ، يُجادِلُ عليه ، ولا يصرفه صارفٌ عنـه . وعَدِمَ عِلْمَ العروضِ ومَعرفتَه مع احتياجه إليـه ، وإكمالِ[1] صناعتِهِ بِهِ ، فلم يكنْ له شُروعٌ[2] فيه . وكان لحِقَ الفِتْنةَ البربريّةَ

(١) ه : « وكمال » (٢) ه : « رسوخ »

بقُرْطُبَة ، ومضَى الناسُ مِنْ حائِن(١) وظاعن ، فازدَلَفَ إلى الأُمراءِ المتداوِلين بقُرْطُبَةَ مِن آلِ حَمُّود ومَن تلاهم إلى أنْ نالَ الجاه .

واستكتَبه محمدُ بنُ عبدِ الرحمن المستَكْفِى بعد ابن بُرْد ، فوقَع كلامُه جانبًا من البلاغةِ ، لأنَّه كان عَلَى طريقةِ المعلِّمين المتكلِّفين(٢) ، فلم يَجْرِ فى أساليبِ الكُتّابِ المَطْبوعين(٣) فزُهِد فيه . وما بلَغنى أنه ألَّف فى شىء من فنونِ المعرفةِ إلا كتابَه فى شعر المتنبِّى(٣) لا غير . ولحِقتْه تُهمةٌ فى دينِه فى أيّامِ هِشامٍ المَرْوانِىِّ فى جُملةِ مَنْ تُتُبِّعَ من الأَطِبّاء فى وقته كابن عاصمٍ والبسباسى(٤) والحَمّار وغيرِهم . وطُلِب ابنُ الإفليلي وسُجِن بالمُطبَق ، ثم أُطلق(٥) . وفيه يقول موسى ابنُ الطائف من قصيدة :

يا مُبْصِرا عمِيَتْ نَواظِرُ(٦) فَهْمِهِ عَنْ كُنْهِ عَرَضِى فِى البَدِيعِ وَطُولِى
لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ(٧) ماجَهِلْتَ مَقاوِمِى مَنْ ضَاقَ فَرْسَخُهُ بخُطْوةِ مِيلِ
وَلئِنْ ثَلَبْتُ الشِّعْرَ وهْوَ أَباطِلٌ فلقَدْ ثَلَبْتَ حَقَائِقَ التَّنْزِيلِ
وَخَلَعْتَ رِبْقَ الدِّينِ عَنْكَ مُنابِذًا وَلَبِسْتَ ثَوْبَ الزَّيْغِ والتَّعْطِيلِ
وَأَقَمْتَ لِلْجُهّالِ مِثْلَكَ فِى العَبَا(٨) عَلَمًا مَشَيْتَ أَمامَهُ بِرَعِيلِ
وَمِنَ المَغائِظِ أَنْ تَكُونَ مُقَلَّدًا عِلْمًا ، وَلَوْ مِقْدَارَ وَزْنِ فَتِيلِ
تَعْتَلُّ فى الأَمْرِ الصَّحِيحِ مُعانِدًا أَبدًا ، وَفَهْمُكَ(٩) عِلَّةُ المَعْلُولِ

(١) وه : « حاير » (٢) وه : « المتكلمين »
(٣—٣) ىه فى ب (٤) ر : « والنياق » — ب ، لب : « السباسى » والتصحيح عن ابن أبى أصيبعة (ج ٢ ص ٤٧) (٥) وه : « أطلق »
(٦) ر : « بواطن » (٧) ب ، لب ، وه : « تعلم »
(٨) ب ، لب : « العنا » — وه : « العما » (٩) وه : « وفهمت منه »

وَتظُنُّ أنّك مِنْ فنونِى موسِرٌ … وكثيرُ شأنِك لا يَفِى بقليلِى
سَيَسُلُّ رُوحكَ من خبيثِ قرارِهِ … تأثيرُ هذا الصارِمِ المصْقولِ
وأخُصُّ سَيفَ الدّولَةِ الملِكَ الرِّضا … لِيُعيدَ عَقْدَ رِباطِكَ المحْلولِ
وَأُريكَ رَأْىَ العينِ أنّكَ ذَرّةٌ … عبثَتْ بِها مِنِّى قوائِمُ فيلِ

رجعُ الحديثِ إلى أخبارِ ابنِ شُهَيْد

٥

قال أبو عامر: وحضَرتُ أنا أيضاً وزُهيرٌ مجلِسًا من مجالسِ الجنّ، فتذاكَرْنا ما تعاوَرتْه الشُّعراءُ من المعانى، ومَنْ زاد فأَحْسَنَ الأَخْذَ، ومَنْ قصّر. فأنشدَ قولَ الأفْوهِ بعضُ مَنْ حضَر:

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثارِنا … رَأْىَ عَيْنٍ، ثِقَةً أنْ سَتُمارْ

١٠ وأنشدَ آخرُ قولَ النابغة[1]:

إذا ما غزَوْا بالجَيْشِ حلّقَ فوقَهُمْ … عَصائبُ طَيْرٍ تهتَدِى بِعَصائبِ
تَراهُنَّ خَلْفَ القَوْمِ خُزْرًا عُيُونُها … جُلُوسَ الشُّيُوخِ فى ثِيابِ المَرانِبِ
جَوانِحَ قَدْ أيْقَنَّ أنَّ قَبِيلَه … إذا ما التَقى الجَيْشانِ أوّلُ غالِبِ

وأنشدَ آخرُ قولَ أبى نُواس[2]:

١٥ تَتأَيّى الطَّيْرُ غَدْوَتَهُ … ثِقَةً بالشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وأنشد آخرُ قولَ صَريعِ الغَوانى[3]:

قَدْ عوّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بِها … فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَلِ

وأنشدَ آخرُ قولَ أبى تمّام[4]:

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أَعْلامِهِ ضُحًى … بِعِقْبانِ طَيْرٍ فى الدِّماءِ نَواهِلِ

---

(١) راجع ديوانه (ص ٤٢)
(٢) راجع ديوانه (ص ٦٩)
(٣) راجع ديوانه (ص ٩)
(٤) راجع ديوانه (ص ٢٢٠)

أقامَتْ مَعَ الرّاياتِ[1] حَتّى كأنَّها مِنَ الجَيْشِ ، إلاَّ أنَّها لَمْ تقاتِلِ

فقال شَمَرْدَلُ السّحابِيّ : كُلُّهم قصَّر عن النابغـة ؛ لأنَّه زاد فى المعنى ودلَّ على أنَّ الطيرَ إنما أكَلَتْ أعداء الممدوح ، وكلامُهم كلّهم مشترك يحتمل أن يكونَ ضِدَّ ما نَواهُ الشاعر ، وإن كان أبو تمّامٍ قد زاد فى المعنى . وإنَّما المحسنُ المتخلِّصُ المتنبّى[2] حيث يقول :

لَهُ عَسْكَرا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إذا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ تَبْقَ إلاَّ جماجِمُهْ

وكان بالحَضْرةِ فتًى حَسَنُ البِزَّة ، فاحتدَّ لقولِ شَمَرْدَل . فقـال : الأمرُ عَلَى ما[3] ذكرتَ يا شَمَرْدل ، ولـكنْ ما تسألُ الطيرُ إذا شبِعَتْ أىُّ القبيلَيْن الغالب . وأمّا الطيرُ الآخر فلا أدرى لأىِّ معنًى عافَتِ الطَّيْرُ الجاجمَ دونَ عِظامِ السُّوقِ والأذْرُعِ والفِقَاراتِ والعَصَاعِص ؟ ولـكنَّ الّذى خلّص هذا المعنى كلَّه ، وزاد فيه ، وأحسَنَ التركيب ، ودلَّ بلفظةٍ واحدةٍ عَلَى ما دلَّ عليه شعرُ النابغةِ وبيتُ المتنبّى ، مِنْ أنَّ القتلى التى أكلتْها الطيرُ أعداءُ الممـدوحِ ، فاتِكُ بنُ الصَّقْعَبِ فى قولِه :

وَتَدْرِى سِباعُ الطَّيْرِ أنَّ كُماتَهُ إذا لَقِيَتْ صِيدَ الكُماةِ سِباعُ
لَهُنَّ لُعَـــابٌ فى الهَواءِ وهِزَّةٌ إذا جَدَّ بينَ الدّارِعِينَ قِراعُ
تَطِيرُ جِيـــاعًا فَوْقَهُ وتَرُدُّها ظُباهُ إلَى الأوْكارِ وَهْىَ شِباعُ
تَمَـلَّكَ بالإحْسانِ رِبقَةَ رِقِّها فَهُنَّ رَقِيقٌ يُشْـــتَرَى ويُبَاعُ
وأَلْحَمَ مِنْ أفْراخِها فَهْىَ طَوْعُهُ لَدَى كُلِّ حَرْبٍ وَالمُلُوكُ تُطاعُ
تُماصِــعُ جَرْحَاهَا فيُجْهِزُ نَقْرُها عَلَيْهِمْ ، ولِلطَّيْرِ العِتاقِ مِصاعُ

(١) ب ، لب ، ه : « الفرسان » (٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٤٠)
(٣) م : « كما »

فاهتزَّ المجلسُ لقوله ، وعلموا صِدْقَه . فقلتُ لزهير : مَنْ فاتكُ بنُ الصَّقْعب ؟ قال : يعني نفسَه . قلت له : فهلّا عرّفتني شأنه منذُ حين ؟ [(١)] إنّي لأرى نزعاتٍ كريمة[(١)] . وقمتُ فجلستُ إليه جِلسةَ المعظِّمِ له . فاستدار نحوى[(٢)] ، مكرِمًا لمكاني ، فقلت : جُدْ أرضَنا — أعزّكَ اللهُ — بسَحابك ، وأمطِرْنا بعُيونِ آدابك . قال :

٥ سَلْ عما شئت . قلتُ : أيُّ معنًى سبقكَ إلى الإحسانِ فيه غيرُك ، فوجدتَه حين رُمتَه صَعبًا عليك إلاّ أنّك نفذْتَ فيه ؟ قال : معنى قولِ الكِنْديّ[(٣)] :

سَمَوْتُ إليها بَعْدَما نامَ أهْلُها سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ

قلتُ : أعزّكَ الله[(٤)] ، هو من العُقْم . ألا ترى عمرَ بنَ أبي ربيعةَ ، وهو من أطْبَعِ الناسِ ، حين رامَ الدُّنُوَّ منه والإلمامَ به ، كيفَ افتضَح في قوله[(٥)] :

١٠ ونفَّضت عنّي النَّوْمَ أقبلتُ مِشْيَةَ الـ ـحُبابِ وَرُكْني خِيفَةَ القَوْمِ أزْوَرُ

قال : صدقتَ ، إنّه أساء قِسْمةَ البيتِ ، وأراد أن يُلْطِفَ التوصُّل ، فجاء مقبلاً بركنٍ كرُكْنِه أزْور[(٦)] . فأعْجَبني ذلك منه . وما زلتُ مقدِّمًا لهذا المعنى رِجلاً ، ومؤخِّرًا عنه أخرى ، حتى مررْتُ بشيخٍ يُعلِّمُ بُنَيًّا له صناعةَ الشِّعرِ وهو يقولُ له : إذا اعتمدتَ معنًى قد سبقكَ إليهِ غيرُك فأحْسِنْ تركيبَه ، وأرِقَّ حاشيتَه

١٥ فاضرِبْ عنه جُملة . وإن لم يكنْ بدٌّ ففي غيرِ العَروضِ التي تقدَّم إليها ذلكَ المُحْسِنُ لتَنشَطَ[(٧)] طبيعتُك ، وتقْوَى مُنَّتُك . فتذكّرتُ قولَ الشاعرِ وقد كنتُ أُنْسِيتُه :

لَمّا تَسامَى النَّجْمُ في أُفْقِهِ وَلاحَتِ الجَوْزاءُ والمِرْزَمُ

(١—١) ده ب ، لب ، ود (٢) ر : « حولى »

(٣) راجع ديوانه (ص ١٠٨) (٤) لب ، ر : « عذرك الله »

(٥) رواية البيت (ديوانه ص ٢) :

وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ حباب وشخصى خشية الحى أزور

(٦) ب ، لب : « بركن أزور كركن أزوركم ذلك » (٧) ب ، لب : « لتنبسط »

أَقْبَلْتُ والوَطْءُ خَفِيفٌ كَمَا يَنْسَابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الأَرْقَمُ

فعلمتُ أنّه[1] صدَق . وابن أبى ربيعة لو ركِب غيرَ عروضِه لخَلَص[2] . فقلتُ أنا[3] فى ذلك[3] :

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ فنَامَ وَنَامَتْ[4] عُيُونُ العَسَسْ

دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى بُعْدِهِ دُنُوَّ رَفِيقٍ دَرَى[5] ما الْتَمَسْ ٥

أَدِبُّ إِلَيْهِ دَبِيبَ الكَرَى وأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُوَّ النَّفَسْ

وَبِتُّ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الغَلَسْ

أُقَبِّلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطُّلَا[6] وأَرْشُفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعَسْ[7]

فقمتُ وقبّلتُ عَلَى رأسِه ، وقلتُ : لله دَرُّ أبيك !

قال ابنُ بسّام : وذكر بعض الرُّواةِ أن هذَيْن البيتَيْن ، [8]نعنى البيتَين المتقدّمَين على شعرِ أبى عامر[8] ، غَنَّى بهما فى مجلس الواثقِ مُخارِقٌ ، فطرِبَ واستملَح معناهُما ، وقال الواثق : ١٠

قَالَتْ إِذَا اللَّيْلُ دَجَا فَأْتِنَا فَجِئْتُهَا حِينَ دَجَا اللَّيْلُ

خَفِيَّ وَطْءِ الرِّجْلِ مِنْ حَارِسٍ وَلَوْ دَرَى حَلَّ بِهِ[9] الوَيْلُ

وأنشَد بعضُهم لأبِى دَهْبَل الجُمَحِىّ : ١٥

قَالَتْ : إِذَا مَا جِئْتَنَا فَأْتِنَا[10] لَيْلًا إِذَا هَجَعَ[11] السَّامِرُ

---

(١) ب ، لب : « فقلت : إنه »

(٢) ب ، لب : « لتخلص » — م : « لملح »

(٣—٣) ز فى ب ، لب

(٤) ب ، لب ، م : « وملت »

(٥) ب ، لب : « دنا »

(٦) ر : « الصلى »

(٧) م فى ب ، لب

(٨—٨) م فى ب ، لب

(٩) ر ، م : « بى »

(١٠) م : « قالت : لقد أعييتنا حجة * فأت الخ »

(١١) ب ، لب : « رقد »

وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسُقُوطِ النَّدَى لَيْلَةَ لاَ نَاهٍ وَلاَ زَاجِرُ

قال أبو عامر : فقال لى فاتكُ بنُ الصَّقْعَب : فهل جاذَبتَ[1] أنت أحداً من الفحول ؟ قلتُ : نعم ، قولَ أبي الطَّيِّب[2] :

أَأَخْلَعُ المَجْدَ عَنْ كِتْفِى وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرُكُ الغَيْثَ فى غِمْدِى وَأَنْتَجِعُ ؟

٥ قال لى : بماذا ؟ قلتُ بقولى[3] :

ومنْ قُبَّةٍ لا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا تَزِلُّ بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَتَحَدَّرُ

إِذَا زَاحَمَتْ مِنْهَا المَخَارِمَ صَوَّبَتْ هُوِيًّا عَلَى بُعْدِ المَدَى وَهْىَ تَجَأَرُ

تَكَلَّفْتُهَا وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بَحْرُهُ وَقَدْ جَعَلَتْ أَمْوَاجُهُ تَتَكَسَّرُ

وَمِنْ تَحْتِ حِضْنِى أَبْيَضُ ذو سَفَاسِقٍ وَفِى الكَفِّ مِنْ عَسَّالَةِ الخَطِّ أَسْمَرُ

١٠ هُمَا صَاحِبَاىَ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يَافِعًا مُقِيلاَنِ مِنْ جَدِّ الفَتَى حِينَ يَعْثُرُ

فَذَا جَدْوَلٌ فِى الغِمْدِ تُسْقَى بِهِ المُنَى وَذَا غُصُنٌ فى الكَفِّ يُجْنَى فَيُثْمِرُ

فقال : واللهِ لئنْ كان الغَيْثُ أبلغ ، فلقد زدتَ زيادةً مليحة طَريفة ، واخترعْت معانِيَ لطيفة . هل غيرُ هذا ؟ فقلتُ : وقولَه[4] أيضًا :

وَأَظْمَا فَلاَ أُبْدِى إِلَى المَاءِ حَاجَةً وَلِلشَّمْسِ فَوْقَ اليَعْمَلاتِ لُعَابُ

١٥ قال : بماذا ؟ قلتُ : بقولِى :

وَلَمْ أَنْسَ بِالنَّاوُوسِ أَيَّامَنَا الأُلَى بِهَا أَيْنُنَا[5] مَحْبُوبُهَا وحِبَابُهَا

وَفِتْيَةَ ضَرْبٍ مِنْ زَنَاتَةَ مُمْطِرٍ بِوَبْلِ المَنَايَا طَعْنُهَا وَضِرَابُهَا

وَقَفْنَا عَلَى جَمْرٍ مِنَ المَوْتِ وَقْفَةً صِلِيُّ لَظَاهُ دَابُ قَوْمِى وَدَابُهَا[6]

(١) ب ، لب : « جاريت »
(٢) راجع ديوانه (ج ١ س ٤٠٢)
(٣) وردت هذه الأبيات فى س ٢١٢
(٤) راجع ديوانه (ج١ س١٣٤)
(٥) ر : « اتينا » ، وه : « ايتمنا عفوها » ، لب : « اتيتا »
(٦) هذا البيت ناقص فى ب

إذا الشمسُ رامتْ فيه أكلَ لحومنا[1] جَرى جشَعًا فوقَ الجِيادِ لُعابُها

فصاحَ صيحةً مُنكرةً من صياحِ الجنّ كاد يُنخَب[2] لها فؤادى فزعًا والله منه . وكان بنجوةٍ منّا جنّىٌّ كأنّه هضبة لركانتِهِ وتقبُّضِه ، يحدّق فىَّ دونهم ، يرْميني[3] بسهمَين نافذَين ، وأنا ألوذ بطرفى عنه ، وأستعيذ بالله منه ، لأنه ملأ[4] عينى ونفسى . فقال لى لمّا انتهيتُ ، وقد استخفّه الحسد : علَى مَنْ[5] ٥ أخذتَ الزّمير ؟ قلتُ : وإنما أنا نفّاخٌ عندك منذُ اليوم ؟ قال : أجل ! أعطِنا كلامًا يرْعى تِلاعَ الفصاحَة ، ويستحِمُّ بماء العُذوبةِ والبراعة ، شديدَ الأسْر جيّدَ النّظام ، وضَعْه على أىّ معنًى شئتَ . قلت : كأىّ كلام ؟ قال : ككلامِ أبى الطّيّب[6] :

نزَلْنا علَى الأكْوارِ نَمْشى كَرامةً لِمَنْ بانَ عنْهُ أنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبا ١٠
نَذُمُّ السّحابَ الغُرَّ فى فِعْلِها بِهِ وَنُعْرِض عنْها كُلّما طلَعتْ عَتْبا

وكقوله[7] :

أرأيْتَ أكْبرَ هِمّةٍ مِنْ ناقتِى حَمَلتْ يدًا سُرُحًا وخُفًّا مُجْمَرا
ترَكتْ دُخانَ الرِّمْثِ فِى أوْطانِها طَلَبًا لِقوْمٍ يُوقِدُونَ العَنْبَرا
وتَرفّعتْ رُكْبانُها عَنْ مَبرَكٍ تقعانِ فِيهِ ، وليسَ مِسْكًا أذْفَرا ١٥
فأتَتْكَ دامِيةَ الأظَلِّ كأنّما حُذِيَتْ قوائِمُها العَقِيقَ الأحْمَرا

وكقوله[8] :

علَى كُلِّ طاوٍ[9] تحتَ طاوٍ كأنّما مِنَ الدّمِ يُسْقَى أو مِنَ اللّحْمِ يُطْعَمُ

---

(١) ب ، لب : « لحومها »
(٢) ب ، لب ، وه : « ينجب »
(٣) وه : « ويرميني »
(٤) ب ، لب : « كان ملء »
(٥) ب ، لب ، وه : « عمن »
(٦) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٠)
(٧) راجع ديوانه (ج ١ ص ٣٦٨)
(٨) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٥٦)
(٩) ر : « طام »

لَهَا تَحْتَهُمْ زِىُّ الفَوَارِسِ فَوْقَهَا   فَكُلُّ حِصَانٍ دَارِعٌ مُتَلَثِّمُ
وَمَا ذَاكَ بُخْلاً بِالنُّفُوسِ عَلَى القَنَا   وَلٰكِنَّ صَدْمَ الشَّرِّ بِالشَّرِّ أَحْزَمُ

فآدنى[١] والله بما[٢] قرع به سمعى ، وقلتُ له : أىُّ ماء لو كان من جِمامك ، واستهلّت به عيونُ غَمامك ! ثم استقدمتُ[٣] فأنشدته[٤] :

٥ وَلَرُبَّ لَيْلٍ لِلْهُمُومِ تَهَدَّلَتْ   أَسْتَارُه فَمَحَا الصُّوَى بِسُتُورِهِ
كَالْبَحْرِ يَضْرِبُ وَجْهُهُ[٥] فى وَجْهِهِ   صَعْبٌ عَلَى العُبَّارِ وَجْهُ عُبُورِهِ
طَاوَلْتُه مِنْ عَزْمَتِى بِمُصَبِّرٍ   أَثْبَتُّ هَمِّى فى قَرَارَةِ كُورِهِ
وَعَلَى لِلصَّبْرِ الجَمِيلِ مُفَاضَةٌ   تَلْقَى الرَّدَى فَتَكِلُّ دُونَ صَبُورِهِ
وَبِرَاحَتِى مِنْ فِكْرَتِى[٦] ذو ذُكْرَةٍ   عَهِدَتْ تَذَاكُرُنى لِطَبْعٍ[٧] ذَكِيرِهِ
١٠ فَرَدًا إِذَا بَعَثَتْ دَيَاجِى جِنْحِهِ   هَوْلاً عَلَىَّ خَبَطْتُ فِى دَيْجُورِهِ
حَتَّى بَدَا عَبْدُ العَزِيزِ لِنَاظِرَىْ   أَمَلِى فَمَزَّقْتُ الدُّجَى عَنْ نُورِهِ

وأنشدته[٨] :

للهِ فى أَرْضٍ غُذِيتَ هَوَاءَهَا   وَعِصَابَةٍ لَمْ تَتَّهِمْ إِشْفَاقَهَا
نَكَزَتْهُمُ أَفْعَى الْخُطُوبِ وَعُوجِلُوا   بِمُثَمَّلٍ مِنْهَا فَكُنْتَ دِرْيَاقَهَا
١٥ وَافْتَحْ مَغَالِقَهَا بِعَزْمَةِ فَيْصَلٍ   لَوْ حَاوَلَتْ سَوْقَ الثُّرَيَّا سَاقَهَا
وَلَوَانَّهَا مِنْهُ إِذَا مَا اسْتَلَّهَا   تَتَعَرَّضُ الْجَوْزَاءُ حَلَّ نِطَاقَهَا

وأنشدتُه :

لَا تَبْكِيَنَّ مِنَ اللَّيَالِى أَنَّهَا   حَرَمَتْكَ نَغْبَةَ شَارِبٍ مِنْ مَشْرَبِ

(١) ره : « فبادنى » — ب ، لب : « فأدنى »   (٢) ب ، لب : « مما » — ب ، ره : « ممن »   (٣) ر : « استعزمت » ، ب ، ت : « استغربته » ، لب : « استعرمت »   (٤) وردت هذه الأبيات فى ص ١٧٧
(٥) ره : « موجه »   (٦) ب ، لب : « همتى »
(٧) ره : « تذكرنى بطبع »   (٨) لم تقع هذه المقطوعة فى ب ، لب

فأَقِلَّ مَالَكَ عِنْدَهَا سَيْفُ الرَّدَى ‏ ‏ يُسْتَلُّ مِنْ شَعْرِ القَذَالِ الأَشْيَبِ
وَرَحِيلُ عَيْشِكَ كُلَّ رِحْلَةِ سَاعَةٍ ‏ ‏ وَفَنَاءُ طِيبِكَ فى الزَّمَانِ الأَطْيَبِ
فَإِذَا بَكَيْتَ فَبَكِّ عُمْرَكَ ، إِنَّهُ ‏ ‏ زَجِلُ الجَنَاحِ يَمُرُّ مَرَّ الكَوْكَبِ

وأنشدتُه .

وَلَمْ أَرَ مِثْلِى مَا لَهُ مِنْ مُعَاصِرٍ ‏ ‏ وَلَا كَمَضَائى[1] مَا لَهُ مِنْ مُضَافِرِ[2] ٥
وَلَوْ كَانَ لِى فى الْجَوِّ كِسْرٌ[3] أَؤُمُّهُ ‏ ‏ رَكِبْتُ إِلَيْهِ ظَهْرَ فَتْخَاءَ كَاسِرِ
وَهَمَّتْ بِإِجْهَاشٍ عَلَىَّ وَقَدْ رَأَتْ ‏ ‏ مُصَابِىَ فى آثارِ إِحْدَى الكَبَائِرِ
فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ تَجْزَعِى مِنْ مَخَاطِرٍ ‏ ‏ فَإِنَّكِ لن[4] تَحْظَىْ بِغَيْرِ المَخَاطِرِ[5]
تَشَهَّتْ ثِمَارَ الْوَفْرِ مِنِّى وَأَنَّهَا ‏ ‏ لَدَى كُلِّ مُبْيَضِّ الْعَنَانِيزِ[6] وَافِرِ[7]
لَهُ فى بَيَاضِ الْيَوْمِ يَقْظَةُ فَاجِرٍ ‏ ‏ وَتَحْتَ سَوَادِ اللَّيْلِ هَجْعَةُ كَافِرِ ١٠
رُوَيْدَكِ حَتَّى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى ‏ ‏ غَيَابَةُ هَذَا العَارِضِ الْمُتَنَاثِرِ
وَدُونَ اعْتِزَامِى[8] هَضْبَةٌ كِسْرَوِيَّةٌ ‏ ‏ مِنَ الْحَزْمِ سَلْمَانِيَّةٌ فى المَكَاسِرِ
إِذَا نَحْنُ أَسْنَدْنَا إِلَيْهَا تَبَلَّجَتْ[9] ‏ ‏ مَوَارِدُنَا عَنْ نَيِّرَاتِ المَصَادِرِ
وَأَنْتَ ابْنَ حَزْمٍ مُنْعِشٌ مِنْ عِثَارِهَا ‏ ‏ إِذَا مَا شَرِقْنَا[10] بِالْجُدُودِ العَوَاثِرِ
وَمَاجَرَّ أَذْيَالَ الغِنَى نَحْوَ بَيْتِهِ ‏ ‏ كَأَرْوَعَ مَعْرُوْرٍ ظُهُورَ الجَرَائِرِ[11] ١٥

---

(١) ب ، ت ، لب : « كمصابى » (٢) ور : « مظاهر » — ب ، اب ، ت : « مظافر » (٣) ور ، ب ، لب ، ت : « أن لى ... كسرا »
(٤) لب ، ت ، ب : « لم » (٥) ر : « الخطائر »
(٦) كذا فى الأصل ، ولعله : « العثانين »
(٧) هذا البيت والذى يليه لم يقعا إلا فى ر (٨) ت ، ور : « اغترابى »
(٩) لب ، ت ، ب : « إليك يبلجة » (١٠) ب : « شرفنا »
(١١) هذا البيت ناقص فى ب ، لب ، ت

إِذَا مَا تَبَغَّى نَضْرَةَ العَيْشِ كَرَّهَا[١] لَدَى مَشْرَعِ المَوْتِ لمحة ناظِرِ
فَسَلَّ مِنَ التَّأْوِيلِ فِيهَا مُهَنَّداً[٢] أَخُو[٣] شافِعيَّاتٍ كَرِيمُ العَنَاصِرِ
لِمُعْتَزِلِيِّ الرَّأْيِ نَاءٍ عَنِ الهُدَى بَعِيدِ المَرَامِي مُسْتَمِيتِ البَصَائِرِ[٤]
يُطَالِبُ بِالهِنْدِيِّ فِي كُلِّ فَتْكَةٍ[٥] ظُهُورَ المَذَاكِي عَنْ ظُهُورِ المَنَابِرِ

٥ وأنشدتُه :

وَقَالَتْ النَّفْسُ لَمَّا أَنْ خَلَوْتُ بِهَا أَشْكُو إِلَيْهَا الهَوَى خِلْواً مِنَ النِّعَمِ :
حَتَّامَ أَنْتَ عَلَى الضَّرَّاءِ مُضْطَجِعٌ مُعَرِّسٌ فِي دِيَارِ الظُّلْمِ وَالظُّلَمِ ؟
وَفِي السُّرَى لَكَ ، لَوْ أَزْمَعْتَ مُرْتَحِلاً ، بُرْءٌ مِنَ الشَّوْقِ أَوْ بُرْءٌ مِنَ العَدَمِ[٦]
ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ بِفَضْلِ[٧] القَوْلِ تُنْهِضُنِي[٨] فَقُلْتُ : إِنِّي لَأَسْتَحْيِي بَنِي الحَكَمِ

١٠ المُلْحِفِينَ رِدَاءَ الشَّمْسِ مَجْدَهُمُ وَالمُنْعِلِينَ الثُّرَيَّا أَخْمَصَ القَدَمِ[٩]
أَلْمَمْتُ[١٠] بِالحُبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أَجَلِي لَمَا وَجَدْتُ لِطَعْمِ المَوْتِ مِنْ أَلَمِ
وَذَادَنِي كَرَمِي عَمَّنْ وَلِهْتُ بِهِ وَيْلِي مِنَ الحُبِّ أَوْ وَيْلِي مِنَ الكَرَمِ
تَخَوَّنَتْنِي رِجَالٌ طَالَمَا شَكَرَتْ عَهْدِي وَأَثْنَتْ بِمَا رَاعَيْتُ مِنْ ذِمَمِ
لَئِنْ وَرَدْتُ سُهَيْلاً غِبَّ ثَالِثَةٍ لَتَقْرَعِنَّ عَلَيَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمِ

١٥ هُنَاكَ لَا تَبْتَغِي غَيْرَ السَّنَاءِ يَدِي وَلَا تَخِفُّ إِلَى غَيْرِ العُلَا قَدَمِي
حَتَّى تَرَانِيَ فِي أَدْنَى مَوَاكِبِهِمْ عَلَى النَّعَامَةِ شَلَّالاً مِنَ النَّعَمِ

(١) وم : « جرها »
(٢) ر : « مقيدا »
(٣) ب ، ت ، لب ، وم : « أخا »
(٤) هذا البيت ناقص فى ب ، لب ، ت
(٥) ر ، لب ، ت : « فكة »
(٦) هذ البيت ناقص فى ب ، لب ، ت
(٧) ر : « بفصل »
(٨) وم : « تقبضنى »
(٩) ب ، ت ، لب : « الهمم »
(١٠) كذا فى جميع النسخ ولعلها : « ألمت »

رَيّانَ مِنْ زَفَرَاتِ الخَيْلِ أُوردُهَا ... أَمْوَاهَ نيطة[1] تَهْوِى فِيهِ بِاللُّجُمِ

قُدّامَ أَرْوَعَ مِنْ قَوْمٍ وَجَدْتُهُمُ ... أَرْعَى لِحَقِّ العُلَا مِنْ سَالِفِ[2] الأُمَمِ

ففتح علىَّ عَيْنَيْنِ كالماوِيَّتَيْنِ[3] ثم قال لى : من القائل ؟

طلعَ البَدْرُ علَينا ... فحسِبْنَاهُ لَبِيبَا

والتَقَيْنَا فرأَيْنَا ... هُ بَعِيدًا وقَرِيبَا ٥

قلتُ : أبى ، قال : فمن القائل ؟

فيا مَنْ إذا رَامَ مَعْنَى كَلَامِى ... رَأَى نَفْسَهُ نُصْبَ تِلْكَ المَعَانِى[4]

شَكَوْتُ إليْكَ صُرُوفَ الزّمَانِ ... فلَمْ تعدُ أَنْ كُنْتَ عَوْنَ الزّمانِ

وتَقْصُرُ عَنْ هِمَّتِى قُدْرَتِى ... فيا لَيْتَنِى لِسِوَى مَنْ نَمانِى

وَلَا غَرْوَ لِلْحُرِّ عِنْدَ المَضِيـ ... ـقِ أَنْ يَتَمَنَّى وَضِيعَ الأَمَانِى ١٠

قلت : أخى ، قال : فمن القائل ؟

صُدُودٌ وَإِنْ كَانَ الحَبِيبُ مُسَاعِفًا ... وَبُعْدٌ وَإِن كَانَ المَزَارُ قَرِيبَا

وَمَا فَتِئَتْ تِلْكَ الدِّيارُ حَبَائِبًا ... لَنَا قَبْلَ أَنْ نَلْقَى بِهِنَّ حَبِيبَا

وَلَوْ أَسْعَفَتْنَا بالمَوَدَّةِ فى الهَوَى[5] ... لأَدْنَيْنَ إِلْفًا أَوْ شَغَلْنَ رَقِيبَا

وما كَانَ يَجْفُو مُمْرِضِى ، غيرَ أَنَّهُ ... عَدَتْهُ العَوَادِى أَنْ يَكُونَ طَبِيبَا ١٥

قلت : عمّى ، قال : فمن القائل ؟

أَتَيْنَاكَ لَا عَنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا ... إِلَيْكَ وَلَا قَلْبٍ إِلَيْكَ مَشُوقِ

وَلَـٰكِنَّنَا زُرْنَا بِفَضْلِ حُلُومِنَا ... حِمَارًا تَلَقَّى بِرَّنَا بِعُقُوقِ

---

(١) ب ، ت ، لب : « بيضة » — ه : « مرآة بيضة »

(٢) ب ، ت ، لب : « سائر » (٣) ه : « كالمرآتين »

(٤) لم يقع هذا البيت إلا فى ر (٥) ر : « فى المودة بالهوى » — ه : « بالمودة والهوى » — ب : « فى المودة فى الهوى »

قلت : جَدّى ، قال : فمن القائل ؟

وَيْلِي عَلَىَّ[١] أَحْوَرَ تَيَّاهِ أَحْسَنَ مَا يَلْهُو بِهِ اللَّاهِى

أَقْبَلَ فِي غِيدٍ حَكَيْنَ الظِّبَا بِيضٍ تَرَاقٍ حُمْرِ أَفْوَاهِ

يَأْمُرُ فِيهِنَّ وَيَنْهَى وَلاَ يَعْصِينَهُ مِنْ آمِرٍ نَاهِى

٥ حَتَّى إِذَا أَمْكَنَنِي أَمْرُهُ تَرَكْتُهُ مِنْ خِيفَةِ اللهِ[٢]

قلت : جَدُّ أبى ، قال : فمن القائل ؟

وَيْحَ[٣] الكِتَابَةِ مِنْ شَيْخٍ هَبَنَّقَةٍ يَلْقَى[٤] العُيُونَ بِرَأْسٍ مُخُّهُ زَارُ

ومُنْتِنِ الرِّيحِ إِنْ نَاحَيْتَهُ[٥] أَبَدًا كأَنَّمَا مَاتَ فِي خَيْشُومِهِ فَارُ

قلتُ : أنا ، قال : والذى نفسُ فِرعونَ بيده ، لا عرَضْتُ لكَ أبداً ، إنّى

١٠ أراكَ عَرِيقاً فى الكلام ، ثم قلّ واضمحلّ ، حتى إنّ الخُنفُساء لتدوسُه ، فلا يشْغَلِ رِجْلِيها[٦] . فعجبتُ منه ، وقلت لزُهير : مَن هذا الجِنّىّ ؟ فقال لى : استعِذْ باللهِ منه ، إنه ضرَط فى عينِ رجُلٍ فبدرَتْ من قفاه ، هذا فِرْعَوْنُ بنُ الجَوْن .

فقلتُ : أعوذُ باللهِ العظيم ، مِنَ النارِ ومن الشّيطانِ الرّجيم ! فتبسَّمَ زُهيرٌ وقال لى : هو تابعةُ رجُل كبير منكُم ففهمتها[٧] عنه .

١٥ وله فَصْلٌ فى مثلِ ذلك :

قال أبو عامر : ومشَيْتُ يومًا أنا وزُهير بأرْض الجنّ أيضًا نتقرّى الفوائد ، ونعتمدُ أنديَةَ أهلِ الآدابِ[٨] منهم ، إذ أشرَفنا على قرارةٍ غنّاء ، تفترُّ عن

---

(١) ب ، ت ، لب ، و : « من » (٢) لم يقع هذا البيت فى ر

(٣) ر ، ت : « تأبى » — ب ، لب : « تأبى » (٤) و : « تلق »

(٥) و ، ب ، ت ، لب : « ناجيته » (٦) ر ، و : « رجلها »

(٧) ب ، و : « ففهمت » (٨) ب ، لب ، و : « الأدب »

بِرْكةِ ماء ، وفيها عانةٌ من حُمُر الجنّ[1] وبغالِهم ، قد أصابها أولَقُ فهى تَصْطَكُّ بالحوافر ، وتنفُخ من المناخر ، وقد اشتد ضُراطُها ، وعلا شَحِيجُها ونُهاقُها ، فلما بصُرَتْ بنا أجْفلتْ إلينا وهى تقول : جاءكم عَلَى رِجْلَيْه ، فارتعتُ لذلك فتبسَّم زُهيرٌ وقد عرَف القصْد ، وقال لى : تهيَّأْ للحُكْم . فلمَّا لحقتْ بنا بدأتْنى بالتفدية ، وحيَّتْنى بالتكْنية ، فقلت : ما الخطبُ ، حُمِىَ حِماكِ أيَّتُها العانة ، وأخصبَ مرْعاكِ ؟ قالتْ : شِعْرانِ لحِمارٍ و بَغْلٍ من عُشَّاقنا اختلفْنا فيهما ، وقد رضيناكَ حَكَمًا . قلتُ : حتّى أسمَع . فتقدمتْ إلىّ بغلةٌ شهْباء ، عليها جُلُّها و بُرقُعها ، لم تدخُل فيما دخلَتْ فيه العانةُ من سوءِ العَجَلة وسُخْفِ الحركة ، فقالت : أحَدُ الشعريْن لبغلٍ من بغالِنا وهُو :

عَلَى كلِّ صَبٍّ مِنْ هَواهُ دليلُ	سَقامٌ عَلَى حرِّ الجَوى[2] وَنُحُولُ
وَما زَالَ هذَا الحُبُّ داءً مُبرِّحًا	إذَا مَا اعْترَى بَغْلاً فلَيْسَ يزُولُ
بنفْسِى الّتى أمَّا مَلاحِظُ طَرْفِها	فَسِحْرٌ ، وَأمَّا خدُّها فأسِيلُ
تَعِبْتُ بِما حُمِّلْتُ مِنْ ثِقْل حُبِّها	وَإنِّى لبغْــلٌ للثِّقالِ حَمُولُ
وَما نِلتُ مِنها نَائلاً غيْرَ أنَّنى	إذَا هِىَ بَالتْ بُلْتُ حيثُ تبُولُ

والشِّعر الآخرُ لدكين الحِمار :

دُهِيتُ بِهذَا الحُبِّ مُنْذُ هَوِيتُ	وَراثَتْ إرَادَاتِى فلَسْتُ أريثُ
كَلِفْتُ بِإلْفٍ مُنْذُ عِشْرِينَ حِجَّةً	يَجُولُ هَواهَا فى الحَشا وَيَعِيثُ
وَمَالِىَ مِنْ بَرْحِ الصَّبابَةِ مَخْلَصٌ	وَلاَ لِىَ مِنْ فَيْضِ السَّقام مُغيثُ[3]
وَغيَّرَ مِنهَا قَلْبَها لِى نَمِيمَةٌ[4]	نَماهَا أحَمُّ الخُصْيَتَيْنِ خَبِيثُ

(١) ب ، ت ، لب : « الوحش »

(٢) ره : « الهوى »

(٣) لم يقع هذا البيت إلا فى ر

(٤) ب ، ت ، لب : « تميمة »

وَمَا نِلتُ مِنْهَا نَائِلاً غَيْرَ أَنَّنِى إذَا هِىَ رَاثتْ رُثْتُ حَيْثُ تَرُوثُ

فضحِكَ[١] زُهيرٌ وتماسَكْتُ وقلتُ للمنشِدة : ما هَوِيثُ ؟ قالتْ : هو هَوِيثُ ، بلغةِ الحَمير ، فقلت : واللهِ إن للرَّوْثِ رائحةً كريهةً ، وقد كان أنفُ الناقةِ أجدرَ أن يحكُمَ فى الشِّعر ! فقالتْ : فهِمتُ عنك . وأشارتْ إلى العانة أنَّ دَكينًا مغلوب ، ثم انصرَفتْ قانعةً راضية ، وقالتْ لى البَغْلة : أَمَا تعرِفنى أبا عامر ؟ قلتُ : لو كانتْ ثَمَّ علامة ! فأماطتْ لِثامَها ، فإذا هى بغلةُ أبى عيسَى ، والخالُ على خدِّها ، فتبا كَينا طويلًا ، وأخذنا فى ذِكْر أيامنا ، فقالت : ما أبقتِ الأيّامُ منك ؟ قلت : ما ترَيْنَ ، قالتْ : شَبَّ عمرٌو عن الطَّوْق ! فما فعل الأحبّةُ بعدى أهم على العهد ؟ قلتُ : شَبَّ الغِلمان ، وشاخ الفِتْيان ، وتنكَّرتِ الخِلّان ، ومِن إخوانكِ من بَلَغَ الإمارة ، وانتهَى إلى الوزارة . فتنفَّستِ الصُّعَداء[٢] وقالت : سقاهم اللهُ سَبَلَ العهد ، وإن حالوا عن العَهْد ، ونَسُوا أيّامَ الوُدّ . بحرمةِ الأدب[٢] ، إلّا ما أقرَأْتَهم منى السلام ؛ قلت : كما تأمُرِينَ وأكثر .

وكانت فى البِرْكَة بقُرْبنا إِوَزَّةٌ بيضاء شَهلاء ، فى مِثلِ جُثمانِ النَّعامة ، كأنّما ذُرَّ عليْها الكافُور ، أو لبستْ غِلالَةً من دِمَقْسِ الحرير ، لم أرَ أخفَّ من رأسها حركَة ، ولا أحسنَ[٣] للماءِ فى ظَهْرِها صَبًّا[٤] ، تَثْنِى سالفتَها ، وتكسرُ حَدَقتَها ، وتلولِبُ قَمَحْدُوتَها ، فترَى الحُسْنَ مستعاراً منها ، والشَّكلَ مأخوذاً عنها ، فصاحتْ بالبَغْلة : لقد حكمتم بالهوَى ، ورضِيتم من حاكِمكم بغيرِ الرِّضا . فقلتُ لزُهير : ما شأنُها ؟ قال : هى تابعةُ شيخٍ من مَشْيَخَتِكم ، تُسمَّى العاقلة ، وتُكنَى أمَّ خَفيف[٥] ، وهى ذات حظٍّ من الأدب ، فاستعِدَّ لها ، فقلتُ :

---

(١) م ، ب ، ت ، ل : « فاستضحك » (٢ — ٢) ـه فى ب .
(٣) م : « أخصر » (٤) م : « صفاء » (٥) م : « أم عفيف »

أيتها الإوَزَّةُ الجميلة ، العريضةُ الطَّويلة ، أيحْسُنُ بجمالِ حَدَقتَيْكِ ، واعتِدالِ مَنكِبَيْكِ ، واستِقامةِ جناحَيْكِ ، وطولِ جيدِكِ ، وصِغَرِ رأسِكِ ، مقابلةُ الضَّيفِ بمثل هذا الكلام ، وتلَقِّى الطارى[١] الغريبِ بشبهِ هذا المَقال ؟ وأنا الذى هِمْتُ بالإوَزِّ صَبابةً ، واحتَملتُ فى الكَلَفِ بها عَضَّ كلِّ مَقالة ، وأنا الذى استرْجَعتُها إلى الوطَنِ المألوف ، وحَبَّبتُها إلى كلِّ غِطْريف ، فاتَّخذَتْها السادة بأرضِنا واستَهلَكَ عليها الظُّرَفاء منّا ، ورُضِيَتْ بدلاً من العَصافيرِ ، ومُتكلِّماتِ الزرازيرِ ، ونُسِيَتْ لذَّةُ[٢] الحَمام ، ونِقارُ الدُّيُوك ، ونِطَاحُ الكِباش . فدخلَها العُجْبُ من كلامى ، ثم ترفَّعتْ وقد اعترتْها خِفَّةٌ شديدةٌ فى مائِها ، فمرَّةً سابحة ، ومرةً طائرة ، تنغمسُ[٣] هنا وتخرُجُ هناك ، [٤]قد تقبَّبَ جَناحاها ، وانتصبت ذُناباها ، وهى تُطرِّبُ تطريبَ السُّرور[٤] . وهذا الفعل معروفٌ من الإوزِّ عند الفرحِ والمرحِ ، ثم سكنتْ وأقامتْ عُنُقَها ، وعرَّضتْ صدرَها ، وعمِلتْ بمِجْدافَيْها[٥] ، واستقبلَتنا جاثِيَةً كصَدْرِ المركَب ، فقالت : أيُّها الغارُّ المغْرور ، كيف تحكُم فى الفروعِ وأنت لا تُحْكِمُ[٦] الأصول ؟ ما الذى تُحْسِن ؟ قلتُ : ارتجالَ شِعر ، واقتضابَ خُطْبة ، على حُكْمِ المقْترَح والنُّصْبة ، قالت : ليسَ عن هذا أسألُك ، قلت : ولا بغيرِ هذا أجاوِبُك ، قالت : حُكمُ[٧] الجوابِ أنْ يقعَ على أصل السُّؤال ، وأنا إنما أردتُ بذلك[٨] إحسانَ النَّحوِ والغريبِ اللذَيْن هما أصلُ الكلام ، ومادَّةُ البيان . قلت : لا جوابَ عندى غيرَ ما سمعت ، قالت : أُقسِم أن هذا منك غيرُ داخلٍ

(١) ر ، ه : « الطائر » (٢) كذا فى ر ، ه — ب ، ت : « برة » — لب : « نزة » (٣) ه : « تغطس » (٤ — ٤) ه فى ب ، لب ، ه
(٥) ب ، ت ، لب : « بمشداقتها » (٦) ب ، ت ، لب : « ولا تحكم فى الأصول » (٧) ر : « ما حكم » (٨) ر ، ه : « بك »

فى باب الجدَل قلت : و بالجدَلِ تطلُبيننا[(١)] وقد عقَدْنا سَلْمه ، وكُفيناحَرْبَه[(١)] وإنَّ ما رَمَيتُكِ به منه لأنفَذُ سِهامِه ، وأحَدُّ حِرابه[(٢)] وهو من تَعاليم الله عزّ وجلّ عندنا فى الجدل فى محكم تنزيله ، قالت : أقسم أنَّ الله ما علّمك الجدَل فى كتابه ، قلت : محمول عنك أمّ خفيف ، لا يلزمُ الإوَزَّ حفظُ أدبِ القرآن ، قال الله عزّ وجلّ فى محكم كتابه حاكياً عن نبيّه إبراهيمَ عليه السلام : « رَبِّيَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ[(٣)] » فكان لهذا الكلام من الكافرِ جواب ، وعلى وجوبه مقال ، ولكنَّ النبيَّ[(٤)] صلى الله عليه وسلم لمّا لاحتْ له الواضحةُ القاطعةُ ، رماهُ بها وأضرب عن الكلام الأول ، قال : « فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ ؛ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ » وأنا لا أحسِنُ غير ارتجالِ شعر ، واقتضابِ خطبة ، على حكم المقترح والنصبة ، فاهتزّت من جانبيها ، وحال الماء من عينيها ، وهمّتْ بالطيران ، ثم اعتراها ما يعترى الإوَزَّ من الألفة وحسنِ الرَّجْعة ، فقدّمتْ عُنُقَها ورأسَها إلينا تمشى نحونا رُوَيداً ، وتنطق نطقاً مُتداركاً خفيًّا ، وهو فعلُ الإوزِّ إذا أنِستْ واستراضتْ وتذلّلت ، على أنى أحبُّ الإوزَّ وأستظرِفُ حركاتِها وما يعرِضُ من سخافاتها[(٢)] .

ثم تكلّمتُ بها مُبْسِباً ، ولها مؤنسًا ، حتى خالطتْنا وقد عَقَدْنا سَلْمَها وكُفينا حربَها ، فقلت : يا أمَّ خَفيف ، بالذى جعلَ غِذاءكِ ماء ، وحَشَى رأسَكِ هواء ، ألا أيُّما أفضل : الأدبُ أم العقل ؟ قالت : بل العقل ، قلتُ : فهل تعرفين فى الخلائق أحمقَ من إوَزّة ، ودَعينى من مَثَلهم فى الحُبارَى ؟ قالت : لا ، قلت : فتطلّبى عقلَ التجربة ، إذ لا سبيلَ لكِ إلى عقلِ الطبيعة ، فإذا أحرزتِ منه

(١ — ١) ىه فى ب ، ت ، لب ، ىه (٢ — ٢) ىه فى ب ، ت ، لب ، ىه
(٣) سورة ٢ : ٢٥٨ (٤) المراد بالنبى هنا إبراهيم عليه السلام

نَصِيبا ، وبُؤتِ منه بحظ ، فحينئذٍ ناظرى فى الأدب . فانصرفتْ وانصرفنا .

قال أبو عامر[١] :

وكنتُ يومًا بحمّامٍ لى مع أصحابنا فأتى رسولُ الحاجب أبى عامر يرغب إخلاءه لبُنْيانِ عرضَ فى حمّامِه منعَه من دخوله ، وكنتُ لم أصحبْه ، فخرجنا له عنه ، وزعَموا أنْ أكتبَ إليه فى ذلك فقلتُ : ٥

شَكَرْتُ[٢] للدَّهْرِ حُسْنَ مَاصَنَعا طَائِرُ مَجْـدٍ بجَنَّتِى وَقعَا
نَفَرت لمَّا أيقنت جَيْئتَه[٣] وَطَارَتِ النفْسُ عِنْـدَهَا قِطعَا
يَاحُسْنَ حَمَّامِنَا وَقَدْ غَرَبَتْ شَمْسُ الضُّحَى فِيـهِ بعْدَ مَا مَتعَا
أيْقَنَ أنَّ الهِـلَالَ رَاكِبُهُ فَضَـاء لِلْحَاضِرِينَ وَاتَّسَعَا
فَانْعَـمْ أبَا عامِرٍ بنِعْمَتِهِ وَاعْجَبْ لِأمْرَيْنِ فِيـهِ قَدْ جُمِعَا ١٠
نِيرَانُهُ مِنْ زِنَادِكُمْ قُدِحَتْ وَمَاؤُهُ مِنْ بَنَانِـكُمْ نَبَعَا

قال أبو الحسن : ونُنشِـد هنا بعضَ مقطّعاتٍ تتعلّق بذكرِ الحمّام ، قالَ المُنْفَتِلُ :

انظُرْ إلى حَمَّامِنَا قَدْ حَكَى حالَيْنِ مِنْ حَالِ الأحِبَّاء :
حَرَارَةَ الأنْفَاسِ يَوْمَ النَّوَى وَحَرَّةَ الأنفَاسِ[٤] فِى المَاء ١٥
فمَاؤُهُ مِنْ أدْمُعِى سَائِلٌ وَنَارُهُ مِنْ حَرِّ أحْشَائِى !

وقال فى صفةِ حمّامٍ كانتْ مَضَاوِيه من زُجاجٍ أحمر ، وفى سمائه حُمرةٌ وبَياض :

---

(١) هنا يبدأ خرم فى ر ، ى (٢) فى الأصول كلها « شكوت »
(٣) فى النسخ : « خيانة » (٤) كذا فى الأصول

تَحَيَّرْتُ مِنْ طِيبِ حَمّامِنَا يُخَيِّلُ لِي أَنَّ فِيهِ الْفَلَقْ
فَمِنْ حُمْرَةٍ فَوْقَنَا وَابْيِضَاضٍ كَخَدِّ الحَبِيبِ إِذَا مَا عَرِقْ
رَأَى الدَّهْرُ مَا شَذَّ[1] مِنْ حُسْنِهِ فَسَدَّ كُوَى سَقْفِهِ بِالشَّفَقْ !

ومما يتعلّق أيضاً بصفته قولُ الآخر ، ولكنّه خلطه بالنَّسيبِ ، وأشار فيه إلى
٥ معنًى غريب ، فقال :

وَلَمْ أَدْخُلِ الْحَمَّامَ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ طِلَابَ نَعِيمٍ قَدْ رَضِيتُ بِبُؤْسِي
وَلَكِنْ لِتَجْرِي دَمْعَتِي مُطْمَئِنَّةً فَأَبْكِي وَلَا يَدْرِي بِذَاكَ جَلِيسِي

ودخل الحمَّامَ يومًا منْ أهلِ عصرنَا الأديبان : أبو جعفر ابن هُرَيرة
التُّطيلي ، وأبو بكر ابنُ بَقِيّ ، فقال أبو جعفر :

١٠ يَا حُسْنَ حَمّامِنَا وَبَهْجَتَهُ مَرْأًى مِنَ السِّحْرِ كُلُّهُ حَسَنُ
مَاءٌ وَنَارٌ حَوَاهُمَا كَنَفٌ كَالْقَلْبِ فِيهِ السُّرُورُ وَالحَزَنُ

ثم أعجبه هذا المعنى أيضاً فقال فيه :

لَيْسَ عَلَى لَهْوِنَا مَزِيدُ وَلَا لِحَمَّامِنَا ضَرِيبُ
مَاءٌ وَفِيهِ لَهِيبُ نَارٍ كَالشَّمْسِ فِي دِيمَةٍ تَصُوبُ
١٥ وَابْيَضَّ مِنْ تَحْتِهِ رُخَامٌ كَالثَّلْجِ حِينَ ابْتَدَا يَذُوبُ

وقال أبو بكر :

حَمَّامُنَا فِيهِ فَصْلُ الْقَيْظِ مُحْتَدِمُ وَفِيهِ لِلْبَرْدِ سِرٌّ غَيْرُ ذِي ضَرَرِ

---

(١) في جميع الأصول «شد»

ضِدَّانِ يَنْعَمُ جِسْمُ المرْءِ بَيْنَهُمَا   كالْغُصْنِ يَنْعَمُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ [(١)]

وقال أبو جعفر التُّطِيليُّ ، وقد نظَر فيه إلى غلامٍ وسيمٍ :

هَلِ اشْتَمَالُكَ جِسْمُ ابْنِ الأَمِيرِ وَقَدْ   سَالَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمَّامِ أَنْدَاءُ ؟

كَالْغُصْنِ بَاشَرَ حَرَّ النَّارِ مِنْ كَثَبٍ   فَظَلَّ يَقْطُرُ مِنْ أَعْطَافِهِ المَاءُ

وفى أبى عامر ابنِ المظفَّر الذى ذُكِر يقول أبو عامر ابن شُهَيد من جملةِ ٥ قصيدةٍ يقول فيها :

جُمِعَتْ بِطَاعَةِ حُبِّكَ الأَضْدَادُ   وَتَأَلَّفَ الأَفْصَاحُ وَالأَعْيَادُ

كَتَبَ الْقَضَاءُ بِأَنَّ جَدَّكَ صَاعِدٌ   وَالصُّبْحُ رَقٌّ ، وَالظَّلَامُ مِدَادُ

ونقلتُ من خطِّ أبى مروانَ ابنِ حيّانَ قال : سلفَ لأبى عامر بن المظفرِ هذا بقُرْطُبَةَ عيشةٌ راضيةٌ فى سرورٍ وحبورٍ وقتا ، إلى أن ساءتِ الأيّامُ بطَامَّةٍ ١٠

(١) لم تقع القصيدة الآتية إلا فى نسخة لب على الهامش لذلك آثرنا عدم إثباتها فى متن الكتاب :

ولأبى عمرو ابن درّاج فى وصف الحمّام :

انعم بحمام يُحمى لك ماؤه   وعلى عدوك ترحة وحمامُ

متألف الأضداد إلا أنه   فيه طباع زمانه أقسام

فكأن سيفك فى يمينك شامه   حتى التقى فيه ندى وضرام

وكأنما يسرى لبعث مائه   ديم يخالط برقهن غمام

متفرج الأبواب عن صحن ثوى   فيه الصباح وشُرد الإظلام

وكأن [فيه] من الربيع سجيةٌ   فيها تساوى الليل والأيام

مفض إلى حر الهجير ونارُه   برد عليك وإن غلى وسلام

وكأنه صدر المتيم هاجه   من ذكر من يهوى جوى وغرام

وتألفت من مائه ورخامه   شكلان تُشكِل فيهما الأوهام

هل تحت هذا الماء ماء جامد   أم ذاب من فوق الرخام رخام ؟

فكأنما ريق الحبيب جرى على   ثغر كما نظم الفريد نظام

وهو الزمان شتاؤه ومصيفه   وخريفه وربيعه البسام

ففارَقها بغُصَّة ، وكانَ من محاسِنِهِ أُنسُه بالأدب ، وغلبةُ أهلِهِ على خاصّته ، ولم يكن منهم فى مَغدًى ولا مَراح ، فتجمَّلَتْ آثارُه بهم ، وسارتْ أقوالُهم فيه ، وكان من ألهَجِهم بذِكره أبو عامر ابنُ شُهيد ؛ له معه أخبارٌ مأثورة مشهورة . شاهدْتَهُم ليلةً فى مجلسِه [و] طُفَيْلَةً صغيرةً عجيبةَ الخَلْق كانت تسقيهم [تسمّى] أسماء[1] عجبوا من مكابدَتِها السَّهرَ معهم ، على صِغرِ سِنِّها ، وحُسْنِ قيامها بخدمتهم . فسأله ابنُ المظفَّر وصْفَها فقال :

أَفْدِى أُسَيْمَاءَ مِنْ نَدِيمٍ ... مُلازِمٍ لِلْكُؤُوسِ رَاتِبْ
قَدْ عَجِبُوا فِي السُّهَادِ مِنْهَا ... وَهْيَ لَعَمْرِى مِنَ العَجَائِبْ
قَالُوا : تَجَافَى الرُّقَادُ عَنْهَا ... فَقُلْتُ : لاتَرْقُدُ الكَوَاكِبْ

قال أبو عامر وابن حيان :

واستوحَشَ أبو عامر ابنُ المظفَّر هذا من هِشامٍ المعتمِدِ ووزيرِه حَكَمِ بنِ سَعيدٍ القزّاز ، وكانوا قد رمَوْه بذَنْبِ سُليمانَ ابنِ هشامٍ النّاصِرِىّ ، فلمّا خافَ دبَّر الفِرارَ ، وخرَج فى لُمَّةٍ من ثِقاتِ أصحابِهِ وأعوانِهِ ، وحمَلَ معه عيونَ ذخائرِه وخاصَّةَ حُرَمِه ، وقطَع أرضاً بعيدةً ، ولم يعلم المعتمِدُ بخبرِه ، إلى أن جاءَ خبرُ اجتيازِهِ بدَيْرِ قُرْطُبَةَ راجعاً على عقِبه من شاطِبة ، لم يتّفِق لهُ فيها ما أراد فكَرَّ إلى ابن عبد الله بقَرْمُونَةَ مستجيراً به فى ظنّه ، فأخْلَفَ ابنُ عبدِ اللهِ ظنَّه ، وخاطَب قائدَه بحَصْرِ المُرور وبإزعاجه عن قُطْره ، ولا يجتازُ على شىء من عمله ، فضاقت به الأرض يومئذ ، فألْقَى نفسه على أبى حمامة حَزْرَة اليصدرانى ، فأجارَه وبوّأه منزلاً فى حِصنه على نهر قُرْطُبَة ، أقام به فى كَدٍّ وغُصَّة ، والحِمامُ يغازله إلى أنْ ماتَ عندَه .

(١) ب ، ت « أسياء »

وحدثنى أبو عبدِ الله ابنُ هرَيرة الـكاتب قال : قصَد أبو عامر ابنُ المظفَّر فى خُروجه من شَاطِبَةَ إلى مَواليه العامريِّين بعد مُراسَلةٍ متقدِّمة ، فلمّا وصل رَدُّوه خجِلًا خائبًا ، فرغب أن تخرجَ إليهِ أختُـه بنت المظفَّر الأيِّمُ المقيمةُ — كانت — عندهم وقتهم ، فأسْعَفُوهُ بذلك وخرجتْ إليه ، فخلا بها وأودعها جَوْهرًا نفيسًا كان احتمله ، وولّى ناكِصًا ، والعبِدّى تطرُدُه عن ناحيتها وأسلمُوه غرَضًا للحُتوف ، فمات عند عودة اليصدرانى كما وصَفناه . وعلِم ابنُ عَمِّه عبدُ العزيز بمكان ذلك الجوهر ، فلمّا هلَكَ اختدَعها ووعدَها أن ينكِحَها ، وكانت ضعيفةَ الرأى ، فأسلمته إليه وغدَر بهَا ولم ينكِحْها ، فصارت بَقيَّةَ دهرِها تجفُوه وتشْتُمه . ولما استقرَّ أبو عامرٍ عند حرزة ، وأيِسَ المعتمدُ من انصرافِه ، قَبضَ ما خلَّفَه بدارِه ونقَله إلى القصرِ ، فطلب أسبَابَه ، وتتبعَ ودائعَه وعقارَه ، فانفتحَ على أهلِ قُرطبةَ فى هذا البابِ بذلكَ الوقتِ بلاءٌ عظيم ، أَجْلَى[1] بعضَهم عن الأوطانِ ، بسبب تلك الودائعِ العامريَّة . انتهى كلامُ ابن حيان .

جملةٌ من شعرهِ فى أوصافٍ شتّى[2]

حدَّث عن نفسه قال : لما قَدِمَ زُهيرُ الصَّـقْلَبى[3] فتَى بنى عامرٍ حضرةَ قُرْطبةَ من المَريَّة ، وجَّـه أبو جعفر ابنَ عباسٍ وزيرَه عن[4] لُمَّةٍ منْ أصحابنَا منهم ابنُ بُرْد ، وأبو بكر المرْوانِى ، وابن الحنّاط[5] ، والطُّبْنى[6] ، فسألهم عنى ،

(١) فى جميع النسخ : « أخات »
(٢) رجع الـكلام فى ر ، ه
(٣) ر : « الصقلى »
(٤) نفح الطيب (ج ٢ ص ٤١٣) : « الى »
(٥) ر : « ابن الخياط »
(٦) ه فى ر

وقال : وجّهوا عنه . فوافانى رسوله مع دابّةٍ له بسرجٍ جَلِىّ [١] ثقيل ، فسِرْتُ إليه ودخَلتُ المجلسَ ، وأبو جعفرٍ غائب ، فتحرّك المجلس لدخولى وقاموا جميعاً إلىّ ، حتّى طلع أبو جعفرٍ علينا ساحبًا لذيل لم يرَ أحدٌ سَحبَه قَبْلَهُ ، وهو يترنّم ، فسلّمتُ عليه سلامَ من يعرفُ حقّ الرّجال ، فردّ ردًّا لطيفاً ، فعلمت أنّ فى أنفه نُعَرَةً [٢] لا تخرُجُ إلّا بسَعوطِ الكلام ، ولا تُراضُ إلّا بمستحصِدِ [٣] النِّظام ، ٥
فرأيتُ أصحابِى يُصيخُون إلى ترنُّمِه ، فسألتهم عن ذلك ، فقال لى الحنّاطى ، وكان كثير الإنحاء علىّ ، جالباً فى المحافلِ ما يسوءُ الأولياءَ إلىّ : إنّ الوزير حضرهُ قسيمٌ من شعرِه ، وهو يسألُنا إجازته . فعلمتُ أنّى المرادُ . فاستنشَدْتُه فأنشدهُ ، وهو :

* مَرَضُ الجُفُونِ وَلَثْغَةٌ فى المَنْطِقِ * ١٠

فقلت [٤] لمن حضر : لا تُجهدوا أنفسكم فلستم المراد [٤] ؛ فأخذتُ القلَمَ [٥] وكتبت بَديهةً :

مَرَضُ الجُفُونِ وَلَثْغَةٌ فى المَنْطِقِ ... سِيَّانِ ، جَرّا عِشْقَ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ
مَنْ لِى بِألْثَغَ لَا يَزَالُ حَدِيثُهُ ... يُذْكِى عَلَى الأكْبَادِ جَمْرَةَ مُحْرِقِ
يُنْبِى فيَنْبُو فى الكَلَامِ لِسَانُهُ ... فكَأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ عَيْنَيْهِ سُقِى ١٥
لَا يُنْعِشُ الألْفَاظَ مِنْ عَثَرَاتِها ... وَلَوَ انَّها كُتِبَتْ لَهُ فِى مُهْرَقِ

ثم قمتُ عنهم فلم ألبَث أن ورَدُوا علىّ ، وأخبَرُوا أنّ أبا جعفرٍ لم يرْضَ ما جئنا

---

(١) نفح الطيب « محلى » (٢) ب ، لب : « نغره »
(٣) د : « بمستحكم »
(٤—٤) د ف ر ، د (٥) ب ، لب : « الدواة »

به من البديهة ، وسألونى أنْ أحمِلَ مكاوِىَ[1] الكلامِ على حِتارِه . وذكَرُوا أنَّ إدْرِيسَ هجاه[2] فأفحش ، فلم أستحسِنِ الإفحاشَ ، فقلتُ فيه معرِّضاً إذ التعريضُ من محاسنِ القول :

أَبُو جَعْفَرٍ رَجُـــلٌ كاتِبٌ مليحُ شَبَا الخطِّ حُلْوُ الخطَابَهْ
تَمَلَّأَ شَحْمًا وَلَحْمًا وَمَا يَلِيقُ تملُّؤُهُ بالـكِتابَهْ
وَذُو عرَقٍ لَيْسَ مَاءَ الحيَاءِ وَلـكِنَّهُ رَشْحُ فَضْلِ الجنَابَهْ
جَرَى الماءُ فى سُفْلِهِ جَرْىَ لِينٍ فأَحْدَثَ فِى العُلْوِ مِنْه صَلَابَهْ

قالَ ابنُ بَسّام[3] : ولَيتَ شعرِى ما التصريحُ عند أبى عامرٍ إذا سَمّى هذَا تعريضاً ؟ ولولَا أنّ الحديثَ شُجون ، والتتابعَ فيـه جُنون ، والكَلامَ إذا لانَ قيادُه ، سهُل اطِّرَادُه ، وإذا قرُب بعضُه منْ بعض ، لم يفرّق فيـه بين سماء وأرض ، لَمَا استجَزْتُ أن أشينَ كتابى بهذا الـكلام البارِدِ بمَعرِضه ، البعيدِ من السَّدادِ غرَضُه ، وقد يطغَى القلَمَ ، ويجمَحُ الـكَلِم .

وقوله :

* جَرَى المـاءُ فى سُفْلِهِ جَرْىَ لِينٍ *

يُشبه قولَ الآخر وضمّن بيتَ[4] النابغةِ :

يَا سَائِلِى عَنْ خَالِدٍ ، عَهْدِى بهِ رَطْبَ العِجَانِ وَكَفُّهُ كالجَلْمَدِ
كالأُقْحُوَانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعالِيهِ وَأَسْـفَلُهُ نَدِى

وقوله :

* وَذُو عرَقٍ لَيْسَ مَاءَ الحيَاءِ *

(١) ر : «مكارى» (٢) ر : «سباه»

(٣) خرم فى ب ، ت ، لب (٤) خرم فى لب

ألمّ به ابنُ زيدون فقال من جملةِ أبيات :

مَخَضتْ فى أُستِه الأُيُورُ حليبًا فعلى عَيْنِه[١] مِنْ الزُّبْدِ نُقْطَهْ

وتأنق فى هذا المعنى أبو الحُسَيْن ابنُ أمجَدَ فقال :

وَأزْرَقَ وَالأمُورُ لهَا اشْتِبَاهٌ وَتُؤْتَى العَيْنُ مِنْ قِبَلَ العِجَانِ

٥ وَممَّا شَكَّ أسْفَلَهُ العَوَالِى بَدَا فِى عَيْنِهِ زرَقُ السِّنَانِ

قال ابن بسام[٢] : قولُ أبى عامر فى صفةِ الألْثغ مما أحسَنَ فيه لا سيّما على البديهة . ومن أحسن ما سمعت فى صفته قولُ الرَّمادى :

لَا الرَّاء تَطْمَعُ فى الوِصَالِ وَلَا أنا الهجْرُ يَجْمَعُنَا فنحْنُ سَوَاء

فَإذَا خَلَوْتُ كَتَبْتُهَا فِى رَاحَتِى فبَكَيْتُ مُنْتَحِبًا أنَا وَالرَّاء

١٠ وأخذَ لفظَ الرَّماديّ هذا أبو القاسم ابنُ العريف فقال :

أيُّهَا الألْثغُ الذِى شَفَّ قَلْبِى جُدْ بِنُطْقٍ[٣] وَلَوْ نَطَقْتَ بِسَبِّ

هَجْرُكَ الرَّاء مِثْلُ هَجْرِى سَوَاء فَكِلَانَا مُعَذَّبٌ دُونَ ذَنْبِ

فَإذَا شِئْتُ أنْ أرَى لِى مَثِيلًا[٤] فِى هَوَانِى[٥] خَطَطْتُ رَاء بِجَنْبِى

على أنّ أبا الطيّب قد قال فأحسنَ[٦] :

١٥ قُشَيْرٌ وَبَلْعَجْلَانِ فِيهَا خَفِيَّةٌ كَرَاءيْنِ فِى ألْفَاظِ ألْثَغَ نَاطِقِ[٧]

(١) وه : فعلت عينه»
(٢) رجع الكلام فى ب ، ت ، لب
(٣) ب ، لب «بحرف»
(٤) ب ، لب ، وه : «مثالا»
(٥) ب ، لب : « هواى »
(٦) ب ، ت ، لب « قد ملح فى قوله »
(٧) الديوان (ج ١ ص ٤٧٢)

ويُشبه قولَ أبى الطَّيِّب قولُ بعضِ أهلِ عصرنا وهو أبو الوليد ابنُ حَزْم الإشبيلى ، يَصِفُ سكرانًا :

ويرومُ قولَ أبى الوَليدِ وربما ... كتمتْ مَكانةَ لامِهِ الواوانِ

وقال أبو عامر يتغزَّل :

مَرَّ بى فى فَلَكٍ مِنْ رَبْرَبِ ... قَمَرٌ مُبْتَسِمٌ [(١)] عَنْ شَنَبِ ٥

زَيَّنُوا أَعْـلاهُ بِالدُّرِّ كَمَا ... ثَقَّلوا أَسْـفَلَهُ بِالـكُثُبِ

فَازْدَهَتْنِى أَرْيَحِيَّاتُ الصِّبَا ... [(٢)] واسْتَخَفَّتْنِى دَوَاعِى طَرَبِى

فَتعرَّضْتُ لِتَسْلِيمٍ لهُ [(٢)] ... فإذَا التَيَّاهُ لا يَعْبَأُ بِى

قال : هٰذا العَبْدُ مَنْ دَلَّهُ ... مَا الَّذِى أَمَّنَهُ مِنْ غَضَبِى ؟

ياظُبَا لحظِى [(٣)] خُذِى لِى رَأْسَهُ ... فَهْوَ لا شَكَّ مِنَ أهلِ الرِّيَبِ ١٠

فَانْبَرَتْ [(٤)] أَلْحَاظُهُ تَطْلُبُنِى ... [(٥)] وَأَنَا قُدَّامَها فِى الهَرَبِ

لَوْ تَرَانِى وَأَنَا أُلْطِفُهُ [(٥)] ... وأُدَارِيهِ مُدَارَاةَ الصَّـبِى

خِلْتَهُ جَبَّارَ قَوْمٍ مَرَدُوا ... وَأَنَا فِى لُطفِ الوَعْظِ نَبِى

قال أبو عامر : ومن الواجب على الناقد أن يَبْحثَ عن الكلامِ ، ويفتِّش عن شَرَفِ [(٦)] المعانى ، وينظُرَ مواقعَ البيان ، ويحترسَ من حلاوةِ [(٧)] خَدْعِ اللفظ ، ويدعَ تزويقَ التركيب ، ويُراطِلَ بينَ أنحاء البديع ، ويُمثِّلَ أشخاصَ ١٥

---

(١) ب ، ت ، د « مبتسم لى »

(٢ — ٢) د فى د ، ب

(٣) د ، ب ، ت : « الهند »

(٤) ب : « أخذت »

(٥ — ٥) د فى ب

(٦) ر : « شفر »

(٧) ر ، ب : « حلاته »

الصِّناعة ، فقد ترى الشّعرَ فِضّيَّ[1] البَشَرة ، وهو رَصاصيُّ المَكسِر ، ذا ثوبٍ مُعضَّدٍ أو مهلْهَل ، وهو مشتمل على بَهَقٍ أو بَرَص ، مَبنِيًا بلَبِن التماثيل ، وصَفْوانِ التهاويل ، وهو لا يُجِنُّ صاحبَه عن النسيم فضلًا عن الحَرْجَف ، ولا يقيهِ رقيقَ ريقِ النَّدى فضلًا عن شُؤْبُوبِ الكَنهْوَر ، وقد ملَّحَتْه ملاحةُ الأسماء ، واتَّقدَ فيه الهوى ، واضْطَرَمتْ فى جانبهِ نيرانُ الجوى ، ولمع فيه البَرْق ، واستَنَّ فيه الوَدْق ، وسَفَحَتْ عليه الدُّموع ، وبانَ فيه الخُشُوع ، وهو «كَسَرَابٍ بِقيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» لا يستحقُّ صاحبُه غيرَ أن يكونَ تِلعَّابةً ، أو صاحبَ بَراعة . وإنما يَستَحِقُّ اسمَ الصناعةِ بتقحُّمِ بُحورِ البيان ، وتعمُّدِ كرائمِ المعانِى والكلام ، وأن ينطِقَ بالفصلِ[2] ، ويركبَ أثباجَ الجِدّ ، ويطلُبَ النادرَةَ والسائرة ، وينظِمَ من الحكمةِ ما يَبقى بعد موته ، ويُذكَرُ بعدَ فوته ، ويتصرَّفَ تَصرُّفَ[3] المُلَح ، ويتلوَّنَ تلوُّنَ أبى بَراقِش . ونحن نرجُو أنّا ذهبنا بقولنا هذا مذهباً كريماً من الكلام :

وَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ عَسْكَرَ قُرُّهُ ... وَهَبَّتْ لَهُ رِيحَانِ تَلْتَطِمَانِ
وَعَمَّ صُلْعَ الهَضْبِ مِنْ قَطْرِ ثَلْجِهِ ... يَدَانِ مِنَ الصِّنَّبْرِ تَبْتَدِرَانِ
رَفَعْتُ لِسَارِى اللَّيْلِ نَارَيْنِ فَارْتَأَى ... شُعَاعَيْنِ تَحْتَ النَّجْمِ يَلْتَقِيَانِ
فَأَقْبَلَ مَقْرُورَ الحَشَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بِدَفْعِ صُرُوفِ النَّائِبَاتِ يَدَانِ
فَقُلْتُ : إِلَى ذَاتِ الدُّخَانِ ، فَقَالَ لِى : ... وَهَلْ عُرِفَتْ نَارٌ بِغَيْرِ دُخَانِ ؟
فَمِلتُ بِهِ أَجْتَرُّهُ نَحْوَ جَمْرَةٍ ... لَهَا بَارِقٌ لِلضَّيْفِ غَيْرُ يَمَانِ

(١) ر : «مضىء»
(٢) ب ، ت ، وه «يعتلى الفصل» (٣) ه فى ر

إذَا مَا حَسَا أَلْقَمْتُهُ كُلَّ فَلْذَةٍ ... لِفَرْخَةِ طَيْرٍ أَوْ لِسَخْلَةِ[1] ضَانِ

فَمَا زَالَ فِي أَكْلٍ وَشُرْبٍ مُدَارَكٍ ... إلى أَنْ تَشَهَّى التَّرْكَ شَهْوَةَ وَانِي

فَأَلْحَفْتُهُ ، فَامْتَدَّ فَوْقَ مِهَادِهِ ... وَخَدَّاهُ بِالصَّهْبَاءِ تَتَّقِدَانِ

وَمَا انفَكَّ مَعْشُوقَ الثَّوَاءِ نَمُدُّهُ ... بِبِشْرٍ وَتَرْحِيبٍ وَبَسْطِ لِسَانِ

تُغَنِّيهِ أَطْيَارُ الْقِيَانِ إِذَا انْتَشَى ... بِصَنْجٍ وَكَيْثَارٍ وَعُودِ كِرَانِ ٥

وَيَسْمُو دُخَانُ الْمَنْدَلِ الرَّطْبِ فَوْقَهُ ... كَمَا احْتَمَلَتْ رِيحٌ مُتُونَ عُثَانِ

إلَى أَنْ تَشَهَّى الْبَيْنَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ... وَحَنَّ إلَى الأَهْلِينَ حَنَّةَ حَانِي

فَأَتْبَعْتُهُ مَا سَدَّ خَلَّةَ حَالِهِ ... وَأَتْبَعَنِي ذِكْرًا بِكُلِّ مَكَانِ

قوله : « وَعَمَّمَ صُلْعَ الهَضْبِ » ، البيت ، كقولِ بعض أهـلِ عصرِنا يصِفُ الثَّلجَ أيضاً : ١٠

وأَتْرَعَ الوَهْدَ مِنْ أَزْبَادِ لُجَّتِهِ ... بالبِرْسِ يَنْبُتُ بَيْنَ الْقَوْسِ والوَتَرِ

فالأَرْضُ مَلْسَاءُ لَا أَمْتٌ وَلَا عِوَجٌ ... كَنُقْطَةٍ مِنْ سَرَابِ الْقَاعِ لَمْ تَمُرِ

وقوله : « فأَتْبَعْتُهُ مَا سَدَّ خَلَّةَ حَالِهِ » ، البيت ، كقول حبيب :

فَرَاحَ فِي ثَنَائِي ... وَرُحْتُ فِي ثِيَابِهْ

وأخذَهُ بعضُ أهلِ عصرِنا فقال : ١٥

وَخُذْ حَمْدِي بِجُودِكَ ، ذَا بِهَذَا ، ... كِلَانَا الْيَوْمَ أَرْبَحُ صَيْرَفِيِّ

لِأُصْبِحَ مِنْ نَوَالِكَ فِي رِيَاشٍ ... وَتُصْبِحَ مِنْ مَقَالِي فِي حُلِيِّ

---

(١) ر ، و : « لسلخة »

قال أبو عامر : ولما أُنشِدَ المعتلِي بالله يحيى بن على بن حمُّود قولَ ابنِ قاضى مِيلَةَ يصفُ مركباً للروم أوقع به المسلمون وغرّقوه وذكر قتلَ العِلْج :

إذا طفا أبْصَرَ الصَّمْصامَ[1] يرقُبُهُ أوغاصَ فى الماءِ من خوفِ الرَّدَى شرِقَا
وأىُّ عيشٍ لموقوفٍ عَلَى تلَفٍ يراقِبُ المَيْتَتَيْنِ : السيفَ والغرَقَا

٥ وكانت[2] إثْرَ ذلك[2] وقعةٌ للمعتلى بالله على السودان بإشبيليَّة ، فأمر أبا عبد الله ابن الحنَّاط بصفة ذلك[3] إذ الوقعتان متشابهتان ، ففعل ؛ وبلغنى أنا ذلك ، فكتبتُ إلى المعتلِي بشعرٍ طويل فى المعنى أوله :

غنَّاكَ سَعْدُكَ فِى ظِلِّ الظُّبَا وسَقَى «فاشرَبْ هَنِيئاً عليكَ التَّاجُ مُرْتفِقَا»

ومنها فى صفةِ الوقعة :

١٠ سَقْيًا لأسْدٍ تَساقَى الموتَ أنفسُها وتلبَسُ الصبرَ فى يَوْمِ الوَغَى حَلَقَا
قامتْ بنصرِكَ لما قامَ مرتجِلًا خطيبُ جُودِكَ[4] فيها ينثُرُ الوَرَقَا
سريتَ تقدُمُ جيشَ النَّصرِ[5] متخذاً سُبْلَ المجرة فى إثرِ العُلا طُرُقَا
فى ظلِّ ليلٍ من الماذِىِّ مُعْتكِرٍ يجلُو إلى الخيلِ منه وجهُكَ الفَلَقَا
وصَفْحِ قِرْنٍ غداةَ الرَّوعِ يكتبُه من الظُّبا قلَمٌ لا يعرِفُ المشقَا
١٥ أجريتَ للزَّنجِ فوقَ النهرِ نهرَ دمٍ حتى استحالَ سَماءً جُلِّلَتْ شفقَا
وساعدَ الفَلَكُ الأعلى بقتلِهِمُ حتى غدا الفُلكُ بالناجى بهِ غَرِقَا
مِنْ كلِّ أسودَ لم يُدْلِفْ على ثَلَجٍ بأن جَدَّكَ يجلُو صفحَهُ يَقَقَا[6]
كأنَّ هامتَه ، والرمحُ يحملُها ، غرابُ بينٍ على بانِ النَّقَا نَعَقَا

---

(١) ب ، ت : « الضرغام » (٢—٢) ز فى ب ، ت
(٣) ب : « فأمر ابن الحناط أن يصنع فى ذلك شعراً »
(٤) ب ، ت « مجدك » (٥) ب : « الصبر » (٦) كذا بجميع الأصول

ومنها :

إذا ونى ثغر الخطّىّ ثغرته أو عاذ بالنهر مسلوبَ القُوى غرقا
وأىُّ نهرٍ يُرَجّى العِبْرَ عابرُه وسُفْنُه طافياتٌ غُودِرَتْ فِلَقا

(١)قوله : « حتى استحالَ سماء » ، البيت ، إلى قولِ المغربى أراه أشار :

وعلى الأفقِ من دماء الشهيدَيْـ ـنِ : علىّ ونجلِه شاهدانِ ٥
فهما فى أواخر الليل فَجْرا نِ وفى أُولياته شفقانِ(١)

وقوله : « كأنّ هامتَه والرُّمح » ، البيت ، (٢)أخذ معناه ابن الحداد فقال من قصيدة فى مدائح ابن صُمادح ، يصف غلبتَه على وادى آش سنةَ خمس وخمسين(٢) :

بلادٌ غدتْ يأجُوجُ فيها فأفسدَتْ فكنتَ كذى القرنينِ ، والجحفلُ السَّدُّ
وما زالَ شرقىُّ المريةِ عاطلاً إلى أنْ علاها(٣) من رؤوسِهم عِقْدُ ١٠
وقد عُوِّضُوا من ثابتاتِ(٤) جسومِهم بمُصْمَتةٍ(٥) لا عظمَ فيها ولا جِلْدُ
كأنهمُ فيها غرابيبُ وُقَّعٌ عَلَى باسقاتٍ لا تروحُ ولا تغدُو

ومن مشهورِ هذا المعنى قولُ الآخر :

وعادَ لكنّهُ رأسٌ بلا جسدٍ يَسْرِى ولكنْ على ساقٍ بلَا قدمِ
إذا تراءى على الخطّىِّ أسفرَ فى حالِ العُبوسِ لنا عن ثَغْرِ مبتسمِ ١٥

(١ — ١) ط فى ر ، ط

(٢ — ٢) ب ، ت : « كقول أبى عبد الله بن الحداد من أهل المرية من قصيدة يمدح بها ابن صمادح يقول فيها »

(٣) ط : « علاه » (٤) ب : « باسلات »

(٥) ر ، ط : « مصمّتة »

ولم أسمعْ فى صفةِ الرأسِ المصلوبِ على الرمحِ أحسنَ من قول أبى فِراسٍ يخبرُ عن سيفِ الدولةِ وقد أنقذَ أبا وائلٍ التَّغْلبيَّ من الأسْرِ ، وقتلَ آسِرَه :

وأنقذَ من ثِقْلِ الحديد ومسِّهِ … أبا وائلٍ والدهرُ أجدعُ صاغرُ

وآبَ ورأسُ القَرمَطِىِّ أمامَه … له جسدٌ من أكعُبِ الرمحِ ضامِرُ

٥ وكان هذا المقتولُ الذى أوقعَ به سيفُ الدولة قد ظهرَ على أطرافِ الشامِ والتفَّت عليه القبائلُ ، وكان يُعرَفُ بالمبرقَع ، فحارب أبا وائل تغلبَ بنَ داودَ وهو خليفةُ سيفِ الدولة على حِمْص ، فهزمَه وأسرَه وألزمَه شراء[1] نفسه بعددٍ من الخيل والمال ، فخرجَ سيفُ الدولةِ من حلب وأسرَى حتى لَحِقَ فى اليومِ الثالثِ بنواحِى دِمَشْق ، فأوقع بالمبرقَع ، وفى ذلك يقولُ المتنبى[2] :

١٠ ولو كنتُ فى أسرِ غيرِ[3] الهوَى … ضمنتُ ضمانَ أبى وائـلِ

فدَى نفسَـه بضَمانِ النُّضار … وأعْطَى صُدورَ القنَا الذَّابلِ

ومنَّاهمُ الخيـلَ مجنُوبةً … فجِئْنَ بكلِّ فتًى باسِـلِ

كأنَّ خـلاصَ أبى وائلٍ … معـاودةُ القَـمَرِ الآفلِ[4]

دعَا فسمعتَ ، وكم صامتٍ … على البُعْدِ عنـدَكَ كالقائلِ !

١٥ قال ابن بسام : وإذ قد أجرَى أبو عامرٍ ذِكْرَ يحيى بن حمُّود ، فلنُشِرْ إليه ، ونتلو قصيدةَ أبى عامرٍ بفصلٍ نجعلُه منبهاً عليه ، إذ قد مرَّ ذِكرُه فيها ، ونُسِّقتْ له قوافيها . وأنا أشرحُ فى هذا الموضـعِ مقتلَهُ خاصةً ، إذ كان خاتمةَ آثاره ، ومميزًا من سائر أخبارِه . وسيمرُّ فى أخبارِ عمّه القاسمِ كيفَ نجمَ ملكه ، وعلى يدَىْ مَنْ نُظِمَ سِلْـكُه .

---

(١) ﻫ : « فداء »

(٢) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٢)

(٣) ر : « غير أسر »

(٤) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ر ، ﻫ

ذكر الخبر عن مقتل يحيى بن حمود الذى ذُكر

قال ابن حيّان : حَكَى لى أبو الفَتْحِ البِرْزالى قال : لما كانَ عيد الأضحى سنة ستٍّ وعشرين وأربعمائة ، وانغمس يحيَى بنُ حَمُّود فى[1] شُربهِ ولهوه ، سِرْتُ مع لُمَّةٍ من بنى عمّى[2] إلى اللَّحاق بإشبيليَّة ، للاجتماعِ بابن عمنا محمد ابن عبد الله والقاضى ابن عباد ، فوصلنا وأنبأناهما مِنْ خبرابن حَمُّودٍ يحيَى ولهوه ما رأيا أنْ يوجها إليه بجيش لقتاله . فخرجَ إسماعيلُ بن عبّاد مع ابن عمنا محمد بن عبد الله فى المحرَّم من سنةِ سبعٍ وعشرينَ بعدَها ، وهما فى بيعةِ هشام بن الحكم تلك الأيام[3] ، فجئنا إلى بابِ قَرْمونةَ بالجيشِ كى نغيظَ يحيَى فيخرجَ أو يخرجَ أحدٌ من قِبَلِه ، وقد قدَّمْنا سَرِيَّةً وكمنَ الجيشُ ناحيةً أُخرى ، وقد كنَّا وجَّهنا فوارسَ ليلًا للسَّامرةِ بسُورِ قَرْمونة ، فطار الخبرُ إلى يحيى وهو تلك الليلةَ على شَراب وقد أخذ منه ، فنعَرَ نعرةً ووثبَ قائمًا يقولُ : وابَياضَ بَخْتِيَ الليلة ، وابن عبادٍ زائرى ! وأمر بالإسراجِ وتقدمَ إلى أصحابه وغلمانِه ، وبادر الخروجَ ليلًا على باب قَرْمونة ، وأصحابُه يتلاحقون ، فالْتأمتْ عِدَّته فى نحوٍ منْ ثلثمائةِ فارس أكثرُهم دَغَلُ السريرة ، فمضى على وجههِ مغترا يضربُ إبطَىْ أَهْجَنِ خيلِه ، معْنقاً إلى حَيْنِه .

قال أبو الفتح : وأقولُ إنه عَلَى ذلك عند انتهائه ، لو ضرب مَصَافًا يُقيم[4] فيه ويقدّمُ رجالَه للحربِ طائفةً يُمدّهم بطائفة ، وتقف خيلُهم رِدْءًا لهُمْ ما فارق الصواب . لكنَّ الحَيْنَ غطَّى على بصره فألقَى نفْسَه علينا فى أوائلِ خَيلِه ، ولمّا

---

(١) ب ، ت « على » (٢) ب ، ت « عمه »

(٣) ز فى ب ، ت : « وخامر ناموسه الأمة » (٤) م : « يقوم »

تَشتَبِن الأشباحُ ظلمةً . فانْتَشب الحربَ معنا غَلَسَ ذلك اليوم ووَالى علينا الشّدّاتِ
الصِّعابَ بنفسه ، فعلمنا أنه لا يُنجينا إلا الصدْقُ ، فاستقبلْناه بوجوهنا ثم ردَدْنا
عليه الكَرّة ، وطاولْناه بالقوة ، فحملَ علينا حملةً ثالثةً مع أُصيْحابٍ له ، وكنا فى
سَنَدٍ ضَرُوسٍ كَؤودٍ ، منيعِ الصُّعودِ إلينا ، نَؤودُ منهُ وننالُ من أَصحابه . فإذا
٥ ردَدْنا عليهم استَغنَّا بفضلِ الانحدار منْ علٍ ، فنختطفُهم خطفَ الأَجادلِ ، فصدَقْنا
هـذه الحملةَ ، فساقنا[1] حتى رمانا على إسماعيلَ بن عبّاد ومن معه من
الأندلُسيِّين ، فثارُوا فى وجهه ، فتوقف الفريقان ساعةً[2] ، وظهرَ كمينُ ابنِ عبّاد
وجاد صبرُه ، وحرّضَ غلمانَه العجمَ ، فشدّت الجماعةُ على يحيى شـدّةً منكرةً ،
وحَدَروا[3] من ذلك التلّ الذى تسنّموه فانـكسروا ، وصُرِع فى ذلك قومٌ
١٠ وتمادَى الطَّلبُ وراءهم بعـدَ مواقفةٍ عظيمة ، فصُرِعَ يحيى وحُزّ رأسُه ، وطِيرَ به
إلى ابنِ عبّادٍ بإشبيليَّة ، فخرّ ساجداً وسَجد من حضر لسُجوده ، وانطبَق البلدُ
فرحاً ، واستمرّتِ الهزيمةُ على أصحاب يحيى ، حتى ساءَ ذلك محمدَ بنَ عبد الله ،
وبدت عصبيّتُه لقومه ، وكلّم ابنَ عباد فى رفعِ السيفِ عنْهم ، فأطاعه فى ذلك
وتمّ لابن عبدِ الله ما أراد من حقْنِ دماء قومِه ، إذْ لم يأتِ الذى أتاه إلا عن
١٥ ضرورة ، ولم يتلعثمْ أن أسْرعَ الرّكضَ إلى قَرْمونة دون إسماعيلَ بن عباد ،
فجاءها لوقتِه وقد ملكَ سودانُ يحيى[4] أبوابَها على أهلِها ، فدنا إلى مكانٍ عورتِها[5]
من سورِها الجَوْفِى وقد عرفهُ ، فُفتِحَ له ودخل من ساعتِه دارَ يحيى وحازَ جميعَ

---

(١) ر : « فساقها » (٢) ه فى ر

(٣) ه : « فتحدّر » (٤) ه فى ر — بياض فى ه

(٥) ب ، ت : « عورة » — ه : «غور»

ما ألْفاهُ من مالٍ ومتاع ، واشتملَ على نسائه وأباح حُرَمَهُ لبنيه[١] ، واستحلَّ حرامهن ، واستوى فى مجلسِه ، ونُصِرَ نَصْرًا لا كِفاء له ، وردَّ الله عليه ملكه ، ثم لم يجِدْه على ذلك شاكرًا للنعمة ، ولا مُقصِّرا عن ارتكاب المعصية . وسقطَ الخبرُ بمقتلِ يحيى على أهل قرطبةَ فما صدَّقوه من الفرح .

قال أبو عامر : ومما يلزمُ المدَّعِىَ لصناعةِ الكلامِ إذا اعتمدَ وصفَ حالةٍ أن يستوفِىَ[٢] جميعَها ، ويكونَ ما يطلبُه من الإبداعِ والاختراعِ فيها غيرَ خارجٍ عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى لكلامه ، وأفخمُ للمتكلِّمِ به[٣] ، وأدلُّ على أنَّ الكلامَ له ومنْ تأليفه ، لا[٤] كما شهدتُه يومًا عند ابنِ حمُّودٍ وقد صدرَ عن ابنِ الشَّرْب ، ومدحَه عدةُ شعراء ، صُدُورُ أشعارِهم لزينبَ والرَّبابِ ولَميس وفرْتَنَى ، وأعجازُها للجُودِ والكرمِ وبذلِ اللُّهَى ، ولمْ يُلمِمْ أحدٌ منهم بذلك الغَرَضِ والمغزى إلا فى بيتين أو ثلاثة ، فأنشدته أنا يومئذٍ من جملةِ قصيدةٍ أولُها :

فريقُ العِدَا من حَدِّ[٥] عَزْمِك يفرقُ ... وبالدَّهرِ مما خافَ بطشَك أولَقُ
عجبتُ لمنْ يعتَدُّ دونَك جُنَّةً ... وسهمُك سعدٌ والقضاء مفوِّقُ
ومَن يبْتَنِى[٦] بيتًا ليقطعَ دونَه ... مَمَرَّ رياحِ النَّصْرِ وهو الخورنَقُ
وما شربَ ابنُ الشَّرْبِ قبلك خمرةً ... من الذُّلِّ بالعجزِ الصَّريحِ تُصفَّقُ
توهَّمَ فيهِ الرُّعنَ حصنًا[٧] فزرتَه ... بأرعنَ[٨] فيه مُرعِدُ الموتِ مبرِقُ
وحولك أسيافٌ من السَّعدِ تنتضَى ... وفوقَك أعلامٌ من النصرِ تخفقُ

(١) ب : « بنيه »
(٢) ب ، ت : « يستوفى ذكره »
(٣) ب ، ت ، د : « فيه »
(٤) د فى ر
(٥) ر : « جد »
(٦) د ، ب ، ت : « يبتغى »
(٧) د : « أن الرعن حصن »
(٨) ب : « فأرعد »

بأبيضَ مُسْوَدِّ الدِّلَاصِ كأنّه شهابٌ عليهِ من دُجَى الليلِ يَلْمَقُ
وأسودَ مبيَضِّ القَبَاءِ[1] كأنّما يطيرُ بهِ نحوَ الكريهةِ عقْعَقُ
وخيلٍ تمشَّى للوغَى ببطونِها إذا جعلَتْ بالمرتَقَى الصَّعبِ تَزَلَقُ

وهذا البيت مما لم يُحسن أبو عامرٍ سرقتَه ، ولا بلغ به طبقتَه ، وهو من قول
٥ أبى الطيب[2] :

إذا زلقَتْ مشَّيْتَها ببطونِها كما تتمشَّى فى الصعيدِ الأراقِمُ

وله من أخرى فى سليمانَ المستعين :

بكى أسفًا للبينِ يومَ التفرُّقِ وقد هوَّنَ التوديعُ بعضَ الذِى لَقِى
وما للَّذِى ولَّى به البينُ حَسْرَةً بكيتُ ، ولكنْ حسرةً للذِى بقِى
١٠ وقدشاقنِى الوُرْقُ السواجعُ بالضُّحى ومَن يستمعْ داعِى الصبابةِ يشتَقِ[3]
على فَنَنٍ من أيكةٍ قد تعلَّقَتْ بحبلِ النوَى[4] من قلبِىَ المتعلِّقِ
فصدَّقْتُها فِى البينِ من غيرِ عَبْرةٍ وكمْ من كثيرِ الدمعِ غيرِ مُصدَّقِ !
لعلَّ نسيمَ الريحِ تأتِى به الصَّبَا بنشرِ الخُزَامَى والكِباءِ المعبَّقِ
كأنَّ عليها نفحةً عَبْشَمِيَّةً أتتْ من جنابِ المستعينِ الموفَّقِ

١٥ ومنها :

فنِلتَ الذِى قد نلتَ إذ ليس للعُلَا[5] سواكَ كأن الدَّهرَ للناسِ مُنتقِى

قوله : « وما للَّذِى ولَّى به البينُ حسرةً » ، البيت ، يلمحُ قولَ محمدِ
ابن هانئْ :

---

(١) ر ، م : « الفناء » (٢) راجع ديوانه (ج ٢ س ٢٧٦)
(٣) م : « يعشق » (٤) ب ، ت : « الهوى »
(٥) ر : « للهوى »

لا تسلْنى عن الليالِى المواضِى وأجِرْنى من الليالِى البواقِى

وأوضحُ منه قولُ الآخر :

ليسَ من ماتَ فاستراحَ بميْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

وقوله : « كأنَّ الدهرَ للناس منتقِ » ، لفظُ بيتِ أبى الطيب[1] :

ولمّا رأيتُ الناسَ دونَ محلّه تيقنْتُ أن الدّهرَ للناسِ ناقدُ ٥

[2] ولأبى عامر من قصيدةٍ يقول فيها ، وقد أزمع على الخروجِ من قرطبة إلى مالقة لاحقاً بيحيى بن على :

أرى أعيناً ترنو إلىَّ كأنّما[3] تُساوِرُ منها جانبىَّ أراقِمُ

أدورُ فلا أعتامُ غيرَ مُحاربٍ وأسْعَى فلا ألقَى امرأً لِى يُسالِمُ[4]

وَيجلبُ لى فَهْمِى ضروباً من الأذَى وأشقَى امرىءٍ فى قريةِ الجهلِ عالِمُ ١٠

وأوجَعُ مظلومٍ لقلبٍ وذى حِجًى فـتًى عربىٌّ تزدريه أعاجمُ

غَنِيتم على ما تزعُمون عن الورَى لقد سفِهتْ تلكَ الحلومُ الزّوَاعِمُ

وهل يُقْدِمُ البازِى على الطيرِ فى الضُّحَى إذا زالَ عن ريشِ الجناحِ القوادمُ ؟

سلامٌ عليكم لا تحيةَ شاكرٍ ولكنْ شجًى تَنسدُّ منهُ الحلاقِمُ

وما قُرِعَتْ سِنِّى عليكم ندامةً وأوشِكْ غداً أن يَقرَعَ السنَّ نادمُ ١٥

عليكمُ بدارِى فاهدِمُوها دعائماً ففى الأرضِ بنّاءون لِى ودعائِمُ

(١) راجع ديوانه (ج ١ س ١٨٠)

(٢) هنا يبدأ خرم فى ر ، ويستمر خرم لب

(٣) ور : « كأنها »

(٤) هذا البيت ناقص فى ور

لئن أخرجَتْنِى عنكمُ شرُّ عصبةٍ ... فِى الأرضِ إخوانٌ عَلَىَّ أكارِمُ
وإن هشَمَتْ حَقِّى أُمَيَّةُ عندها ... فهاتا على ظهــرِ المحجّةِ هاشِمُ
ولاغروَ من تلكَ القلانِسِ جالياً[1] ... إذا عَرفتْ حقِّى هناكَ العمائمُ[2]

قال أبو الحسن : وقد تقدمَ القولُ من تخيُّلِ حُـذَّاقِ الصناعةِ فى أخذِ
٥ المعانى أن تُترَكَ القافيةُ والوزنُ ، وكذلكَ يجبُ أن يُقصدَ إلى التطويلِ إذا قصَّر
المتقدّمُ . ألا ترى قولَ أبى عامر حين سمع الرمادىَّ يقول[3] :

ولم أرَ أحْــلَى من تبسُّمِ أعْيُنٍ ... غداةَ النَّوى عن لؤلؤ كان كامناً

فقال أبو عامر فى هذهِ القصيدة :

ولما فشَا بالدَّمعِ من سِرِّ وجدِنا ... إلى كاشِحِينا ما القلوبُ كواتِمُ
١٠ أمرنا بإمساكِ الدموعِ جفونَنا ... لِيَشجَى بما تطوى عذولٌ ولائِمُ
فظلَّتْ دموعُ العينِ حيرَى كأنها ... خـــلالَ ماَقِينا لآلٍ توائِمُ[4]
أبَى دمعُنا يجرِى مخافةَ شامتٍ ... فنظَّمَه بين المحاجــرِ ناظمُ
وراقَ الهوَى منّا عيونٌ كريمةٌ ... تبسَّمْنَ حتى ما تروقُ المباسِمُ

فقام بهذا[5] التركيبِ ما نُسِيتْ له حيلةُ التطويل .

١٥ وبيتُ الرمادى من قولِ ابن عبد ربّه :

وكأنما غاصَ الأسَى بجفونها[6] ... حــتى أتاكَ بلؤلؤٍ منثورِ

---

(١) ت : « جانباً » . كذا فى بقية الأصول ، ولعله : « ولا عزّ من تلك القلانس جانب »
(٢) هذا البيت ناقص فى و
(٣) و : « قول الرمادى »
(٤) هذا البيت ناقص فى ب ، ت
(٥) و : « هذا »
(٦) ب ، ت : « بجفوننا »

فاحتال الرماديُّ حتى أتى باللؤلؤ وعوّضَ من الغائصِ التبسُّم ، ووقعتْ له استعارةُ التبسُّمِ للعينِ موقعاً لطيفاً ، وإنما هو للثُّغور بسبب توسُّطِ اللؤلؤ الذى هو للعيونِ والثغورِ ، فنسخَ المعنى نسْخًا ، وقلَبَهُ قلبًا ، وتشبيهُ الدموع باللؤلؤِ أكثرُ من أن يُحصى . ومن أحسنه قولُ القائل :

ولما وقفْنا للوَداعِ ودمْعُهــا ودمعى يثيرانِ الصبابةَ والوجدَا ٥

بكتْ لؤلؤًا رطبًا ، وفاضتْ مدامعى عقيقاً ، فصار الكلُّ فى نحرِها عِقدا

ومن[1] أحسنِ ما جاء من توقُّعِ أهلِ النَّمائم ، والاحتيالِ لِكتمانِ الدموع السواجم ، [2]لا سيما وقد أزِف الفراق ، وعصتْ بما فيها من الدمع الآماق ، قولُ بعضِ العرب[2] :

ومما شجانِى أنها يوم ودَّعتْ تولَّتْ ودمعُ العين فى الجفْن حائرُ ١٠

ولما أعادتْ من بعيـدٍ بنظرةٍ إلىَّ التفاتاً أسلمتْها المحاجِرُ

وقال آخر :

ولما أبتْ عينايَ أن تحبِسا البُكا وأن يمنَعا دَرَّ الدُّموعِ السواكبِ

تثاءبْتُ كى أبغى لدمعىَ عِـلَّةً وكم مع لوعاتى[3] بغاءَ التثاؤبِ !

أعرَّضتُمانِى للهــوَى ونممتُما علَىَّ ، لبئس الصاحبانِ لِصاحبِ ١٥

وأنشد ثعلب :

ومُستنجِزٍ بالحسْنِ دمعاً كأنَّه علَى الخـدِّ مما ليسَ يرقأُ حائرُ

مَلاَ مقلتيْهِ الدمعُ حتى كأنَّهُ لِما انهلَّ من عينيهِ فى الماءِ ناظِرُ

فعينايَ طورًا تغرقانِ من البُكا فأَعْشَى وطورًا تحْسِران فأُبصِرُ

(١) هنا يبدأ خرم فى ه أيضاً

(٢—٢) ىه فى ب (٣) كذا فى الأصول

وقال آخر :

وقفنا والعيونُ مثَـقَّلاتٌ يغالبُ طرْفَها نظرٌ كليلُ
نَهته رِقبَـةُ الواشينَ حتى تعلّق لا يغِيضُ ولا يسيلُ

وأنشد :

٥ ومن طاعتِي إياهُ أمطرَ ناظِرى إذا هو أبدَى من ثناياهُ لى برقَا
كأنَّ دُموعِى تُبصرُ الوصلَ هاربًا فمن أجلِ ذَا تجرى لتدركه سبْقَا

والبيتُ الأوّلُ من هذين كقولِ المتنبى(١) :

تَبُلُّ خَدَّىَّ كلما ابتسمتْ من مطرٍ برقُه ثناياهَا

وقال أبو الشِّيص :

١٠ وقائلةٍ وقد نظـرَتْ لِدمعٍ على الخدَّينِ منحدرٍ سكوبِ :
أتكذبُ فى البكاء وأنت خَلْقٌ قديمًا [قد] جَسُرْتَ على الذنوبِ ؟
قميصُكَ والدموعُ تجولُ فيـه وقلبُك ليس بالقلبِ الكئيبِ
نظيرُ قميصِ يوسفَ حينَ جاءوا على لَبَّاتِه بدمٍ كذوبِ
فقلت لها : فِداكِ أبى وأمى رجمْتِ بحسنِ ظنكِ فى العيوبِ
١٥ أما واللهِ لو فَتَّشْتِ قلبِى لسَرَّكِ بالعـويلِ وبالنحيبِ
دموعُ العاشقينَ إذا تلاقتْ بظَهْرِ الغيبِ ألسِـنةُ القلوبِ

وكان بشار يقول : ما زال فتًى من بنى حنيفةَ يُدخل نفسه فينا ، ويُخرِجُها منَّا حتى قال :

نَزَفَ البكاءُ دموعَ عينِكَ فاستعِرْ عينًا لغـيرِكَ دمعُها مِدْرارُ
٢٠ منْ ذا يعيرُكَ عينَـه تبكِى بها أرأيتَ عينًا للبكاءِ تُعارُ ؟

---

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٤٩٩)

وقال آخر ، مما أنشد أبو عليّ البغدادِي :

قالوا : فما نفَسٌ يعْلو كذا صُعُداً وما لعينكَ لا ترقا مآقيها ؟
قلت : التلوُّمُ من تدْآبِ سيرِكُمُ ودمعُ عينِيَ يجرِي من قذًى فيها

وأنشد أبو على لغيره :

يقلن: لقدبكيتَ ، [فقلت :] كلاّ وهلْ يبكى من الطَّربِ الجليدُ ؟ ٥
ولـكنّى أصابَ سـوادَ عينِى عُوَيْدُ قذًى له طَرَفٌ حـديدُ
فقالوا : ما لدمعِهما ســـواءٌ أكِلْـتَىْ مقلتيكَ أصابَ عودُ ؟ !

وقال ابن أبى ربيعة[1] فى قريبٍ منه :

كفكفتُ دمعى بالرّداء وإنما أخفيتُ فيضَ الدمعِ عن أصحابى
فرأى سوابقَ عَـبرةٍ مسفوحةٍ عمرٌو ، فقالَ : بكَى أبو الخطّابِ ! ١٠

وقال العباسُ بنُ الأحنف ورجع إلى الطريق :

لـكنْ ذهبتُ لأرتدِى فطرفْتُ عينِى بالرّداء

وقال ابن فتُّوح من أهل عصرِنا :

وقد تعلّق بالأشفارِ منحدرًا تعلُّقَ القطرِ بالأغصانِ والورَقِ

وقال أبو جعفر ابن هريرة التُّطيلى : ١٥

يكفكفُ من تلكَ الدموعِ وربّما جـلاهَا الرداء وامترتْها الأصابعُ

وحدّث[2] أبو بكرٍ محمدُ بن أحمدَ بنِ جعفر بن عثمانَ المصحَفيُّ قال : دخلتُ يومًا على أبى عامر ، وقد ابتدأتْ علته التى ماتَ منها فتأنّسَ بى ، وجرَى الحديثُ إلى أن شكوتُ إليه تجنِّىَ بعضِ إخوانى علىّ ، ونِفارَه عنى ، فقال لى : سأسعى

(١) راجع ديوانه ص ١٧١ (٢) هنا ينتهى خرم وه

فى إصلاحِ ذاتِ البينِ . فخرجتُ عنه ، واتّفق لقائى بذلك المتجنّى مع بعضِ إخوانى ، وأعزّهم علىّ ، فلما رآنى مُوَلّيًا عن[1] ذلكَ الصديقِ أنكرَ علىّ ، وسأله عن السببِ الموجِبِ ، فأخبره وزادا فى مشيِهما حتى لحقا بى وعزما علىّ فى مكالمةِ صاحبى ، وتعاتبنا عتاباً أرقّ من الهوى ، وأشهى من الماء على الظما ،

٥ حتى جئنا دارَ أبى عامر ، فلما رآنى ضحكَ وقال : مَنْ كانَ الّذى تولّى إصلاحَ ما كنّا سُرِرْنا[2] بفسادِه ؟ قلنا : قد كان ما كان ، فأطرقَ قليلًا ثم أنشد :

مَن لا أُسمّى ولا أبوحُ به أصلحَ بينى و بينَ مَن أهْوَى
أرسلتُ مَنْ كابدَ الهوى فدرَى كيفَ يُداوِى مواضعَ البلْوَى
ولى حُقوقٌ فى الحُبِّ ظاهِرةٌ لـكنّ إلْفِى يَعُـدُّها دَعْوَى
١٠ يا رَبِّ إنَّ الرسولَ أحسنَ بى يا رَبِّ فاحْفَظْنى من الأسْوا[3]

قال ابن المصْحَفِى : ودخلْتُ عليه يومًا فى تلك العِلّةِ ومعِى غلامٌ وسيمٌ من إخوانِنا ، وكانَ أبو عامر قبلَ ذلكَ يحبُّ ممازحته فينافِرُه ، حتى خاطب أبو عامر بعضَ إخوانِه بشعرٍ مَسَّهُ فيه بطرَفِ لسانِه ، فقالَ له ذلك الغلامُ : هجوتَنى يا أبا عامر دونَ أن تَستَثْبِتَ فى أمرِى ، وأن تعلمَ من سرّى ما يوجبُ

١٥ ذلك . فقال : عَلَىَّ تكفيرُه بما يَمْحُوهُ من القراطِيس والصُّدُور ، وكان ذلك إثْرَ صلاةِ العِشاءِ الأولى فطفْنا بالجامعِ ثم انصرفنا إليه وأنْشَدَنا :

أَلا بأبى زائرى فى العَتَمْ بوجهٍ يُجَلِّى سَوادَ الظُّلَمْ
تَكَتَّمَ باللّيلِ فى ظِلّهِ وهل يمكنُ الصُّبحَ أن يَكتَتِمْ ؟

(١) ب ، ت : « ماجيا » (٢) ب : « عودنا »
(٣) هذا البيت ناقص فى ب

أبى يَستجيرُ أليفاً له — كما جاوبَ(١) البانُ رطبَ العَنَمْ
وقدرَقَّ(٢)ماوَرْدُ تلكَ(٢) الخُدودِ — بما سَال مِنْ مِسْكِ تلكَ اللِّمَمْ
وكانَ يُحَمْحِمُ تحتَ العِذارِ — كَحَمْحَمَةِ الخيلِ تحتَ اللُّجُمْ
فقلت : مَنِ الزّائِرِى والدُّجى(٣) — يَسُدُّ العيونَ بثوبٍ أحَمّ(٤)
فقال أبو جعفرٍ : لأُمُّ — بما جئتَ من كَذِبٍ يُنْتَظَمْ(٥)
فأيقنْتُ أنْ أبا خالدٍ — سَرَى(٦) وخيالَ حبيبى أَلَمّ
فأبصرْتُ وجهًا حكاهُ الهِلالُ — وثغراً حكى الدرَّ لمّا ابتسَمْ
وإلاَّ فعفوٌ يُقيلُ العِثارَ — فذُو العَرشِ يرحَمُ من قدْ رحِمْ(٧)
فقال : بلِ العفوُ يا سيِّدِى — وقبَّلَنى من بعيدٍ وضَمْ
فبِتُّ عَلَى بردِ طِيبِ الرِّضا — أُسَرُّ بليلِى وإنْ لم أَنَمْ
وقلتُ : ابنَ زيدُونَ ، لا كُنْتَ لِى — بخَالٍ(٨) ، ولا كنتَ لى بابنِ عَمّ
خَبيثٌ سَعَى بيننا بالنَّميمِ — وقطَّعَ خُلَّتَنا بالجَلَمْ

فصلٌ فى ذكر آخر أيام(٩) أبى عامر ووفاته رحمه الله

قال : ولما طال بأبى عامرٍ أَلمُه ، وتزايدَ سَقَمُه ، وغلبَ عليهِ الفالِجُ الذى عرض له فى مستهلّ ذى القَعدةِ من سنةِ خمسٍ وعشرين وأربعمائةٍ ، لم يُعدِمْهُ

(١) ه : « جاور » (٢ — ٢) ب ، ت : « ماء تلك »
(٣) ب ، ت : « فى الدجى » (٤) ب ، ت : « بثوبى أدم »
(٥) ب ، ت : « تنتظم » (٦) فى الأصول الثلاثة : « سرى وأن خيال »
(٧) قبل هذا البيت بيت مضطرب نصه فى ب ، ت ما يأتى :
ففلت أمر بهم فأشعر بضرب فاحذر حان ندم
(٨) ب ، ت : « لا كنته بخال » (٩) ب : « أمر »

حركةً ولا تقلُّبًا ، وكان يمشى إلى حاجته[١] على عصاً مرّة ، واعتمادًا على إنسانٍ مرّة ، إلى قبلِ وفاته بعشرين يومًا ، فإنه صار حَجَرًا لا يبرحُ ولا يتقلّب ، ولا يحتَمِلُ أنْ يُحرَّكَ لعظيمِ الأوجاعِ ، مع شدة[٢] ضغطِ الأنفاسِ وعدمِ الصبر ، حتّى همّ بقتْلِ نفسهِ ، وفى ذلكَ يقولُ من قصيدة :

٥ أنوحُ على نفسى وأندبُ نُبْلَهَا ... إذا أنَا فى الضَّرّاء أزمعْتُ قتلَها

رضيتُ قضاء اللهِ فى كلّ حالةٍ ... عَلَيَّ وأحكامًا تيقَّنْتُ عـــدلَهَا

أظلُّ قعيـدَ الدارِ تجنُبُنى العَصَا ... عَلَى ضَعْفِ ساقٍ أوْهَنَ السُّقمُ رِجلَها

وأنْعَى خسيساتِ ابنِ آدمَ عاملًا ... براحـةِ طفلٍ أحكمَ الضُّرُّ نَصْلَهَا

أَلَا رُبَّ خَصمٍ قد كَفَيْتُ، وكُرْبةٍ ... كشفْتُ ، ودارٍ كنتُ فى المَحْلِ وبلَهَا

١٠ وربَّ قَريضٍ كالجَريضِ بعثْتُهُ ... إلى خطبةٍ لا ينكِرُ الجمعُ فضلَهَا

فمَنْ مبلغُ الفتيانِ أنَّ أخاهمُ ... أخُو فتـكةٍ شنعاء ما كانَ شكْلَهَا ؟

عليكمْ سلامٌ مِن فَتًى عَضَّه الرَّدَى ... ولم ينسَ عَينًا أثبتَتْ فيـه نَبْلَهَا

يَبِينُ وكفُّ الموتِ يَخْلَعُ نفسَه ... وداخلُها حُبٌّ يهوِّنُ ثُكلَهَا

ونقلتُ من خطِّ الفقيهِ أبى محمدٍ علىِّ بن حزم الشافِعِىّ قال : كتب إلىَّ

١٥ أبو عامرِ ابن شُهيْدٍ فى علّتهِ التى اعتلَّها بهذه الأبيات :

ولما رأيتُ العيشَ ولَّى برأسه ... وأيقنتُ أن الموتَ لا شكَّ لاحقِى

تمنيتُ أنّى ســاكنٌ فى غيابةٍ ... بأعْلَى مهبِّ الريحِ فى رأسِ شاهقِ

أُذرُّ سقيطَ الحَبِّ فى فضلِ عيشةٍ ... وحيدًا ، وحسْىُ الماء ثِنْىُ المفالقِ[٣]

خليلَيَّ مَنْ ذاقَ المنيةَ مرةً ... فقد ذُقتُها خمسينَ ، قولةَ صادقِ

---

(١) ب : « صاحبته » (٢) « فى »

(٣) لم يقع هذا البيت فى ب

(١) كأنِّى وقد حانَ ارتحالِى لم أفزْ (١) — قديماً من الدنيا بلمحةِ بارقِ
فمن مُبلغٌ عنّى ابنَ حزمٍ وكانَ لى — يدًا فى مُلمّاتِى وعنْدَ مضايقِى :
(٢) عليكَ سلامُ اللهِ إنّى مفارقٌ — وحسبُكَ زادًا من حبيبٍ (٢) مفارقِ
فلا تنْسَ تأبينِى إذا ما فقدتَنى — وتَذْكارَ أيامِى وفضلَ خلائِقِى
(٣) فلى فى ادّكارِى بعد موتِى راحةٌ — فلا تمنعُونيها (٣) عُلالةَ زاهقِ ٥
وإنّى لأرجُو اللهَ فيمَا تقدمَتْ — ذنوبِى به مما دَرَى مِنْ حقائِقِ

ومن جواب ابنِ حزمٍ له :

أبا عامرٍ ناديتَ خِلاً مُصافياً — يُفدّيكَ من دُهْمِ الخطوبِ الطَّوارقِ
(٤) وألفيتَ قلباً مخلِصاً لكَ ، مُمْحَضاً — بودِّك ، موصُولَ (٤) العُرى والعلائقِ
شدائدُ يجلُوها الإلهُ بلُطفِــه — فلا تأسَ (٥) إن الدَّهرَ جمُّ المضايِقِ ١٠
(٦) وربَّ أسيرٍ فى يدِ الدهرِ مطلَقٌ — ومنطلقٍ (٦) والدهرُ أسوقُ سائقِ
سفينةُ نوحٍ لم تضِــقْ بحُلُولِهَا — وضاقَ بهم رَحْبُ الفَلا (٧) المتضايقِ
فإنْ تَنْجُ قلتُ : الحمدُ للهِ مخلِصاً — فمِنْ أعظمِ النُّعمَى بقاءُ المصادِقِ

(٨) وسمع فى تلك (٨) العلةِ نعيَ الوزيرِ الكاتبِ أبى جعفر ابن اللّمائىِّ ، فقال قصيدتَه هذه : ١٥

أمِنْ جَنَا بهِــمُ النَّفحُ الجنُوبىُّ — أسْرَى فَصَاكَ به فى الغَوْرِ غارىُّ ؟
أهْدَى إلىَّ ظلامًا رَدْعُ نافجةٍ — أدْمَاء شَقَّ بها الدَّأمَاء هِنْدِىُّ

(١ — ١) ـه فى ب ، ت (٢ — ٢) ـه فى ب ، ت
(٣ — ٣) ـه فى ب ، ت (٤ — ٤) ـه فى ب
(٥) ب : « فلا بأس » (٦ — ٦) ـه فى ب
(٧) ب ، تَ : « الملا » (٨ — ٨) ـه فى ب ، ت

والليلُ قد قامَ فى أثوابِ نادبةٍ[١] كأنه فوقَ ظهر الأرضِ نُوبِىُّ
والنجمُ تحسَبُه قُدّامَ تابعِــــهِ حمامةً رامَهــا فى الجوّ بازِىُّ
وَجَدْوَلُ الافْقِ يجْرِى فى مَنَافسِهِ ماءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخضْرَاءِ فِضِىُّ
فقلتُ والسُّقْمُ مَنْشُورٌ[٢] عَلَى جسَدِى يحدُو الرَّدَى ورِداءُ العيش مَطْوِىُّ :
[٣]أهدَى اللَّمائىُّ من أزهارِ فكرتهِ نشْرًا[٣]، فقال الدُّجى: مرَّ اللَّمائىُّ
فقيلَ: مَاتَ، فقال الليلُ: قاربَ ذَا فانْهلَّ من مُقْلَتِى نوءٌ سِمَاكِىُّ
[٤]وبِتُّ فَرْدًا أُناجِى مُقْلَتِى شَغَفًا كأننى[٤] فى نُقُوبِ الدارِ جِنِّىُّ
لاعِشْتُ إن مِتَّ لِى ياوَاحِدِى أبداً وموتُنا واحدٌ لا شَكَّ مرئِىُّ
[٥]إنِ الكريمَ إذا مامَاتَ صاحبُه أودَى به الوجْدُ[٥] والشُّكْلُ الطَّبيعىُّ
إنْ مِتُّ قبلكَ لا تعجبْ، فذو أملٍ قدْ حُمَّ من دونه يومًا حِمامِىُّ[٦]
أومِتَّ قبلِى فما[٧] منعاكَ لى عجبٌ إنَّ الكريمَ إلى الأصحابِ مَنْعِىُّ
زاد البلاءُ على نفسِى فأعدمها صبرى، فصبرى عليكَ اليومَ وحشىُّ[٨]
حتى أهمَّ بقتلى كلُّ داجيةٍ يا قومِ هل رامَ هذا قبلُ إنسِىُّ ؟
[٩]إنِّى إلى الله من عُقْبَى بُليتُ بها جرَى بها الحكمُ[٩] والأمرُ الإلهىُّ

١٥ وقال أيضاً فى علته تلك[١٠] :

[١١]اقرَ السلامَ عَلَى الأصحابِ أجمعِهم وخُصَّ عَمْرًا بأزكَى[١١] نورِ تسليمِ

---

(١) ه، ب : « نابية » (٢) ه : « مستور »
(٣ — ٣) ه فى ب (٤ — ٤) ه فى ب، ت
(٥ — ٥) ه فى ب، ت (٦) هذا البيت ناقص فى ب، ت
(٧) ه : « فنى » (٨) هذا البيت ناقص فى ب، ت
(٩ — ٩) ه فى ب، ت (١٠) هنا ينتهى خرم لب
(١١ — ١١) ه فى ب، لب، ت

وقلْ له : ياأعزَّ الناسِ كلِّهمُ شخصًا علىَّ وأولاهُم بتكريمِ
(١) اللهُ جارُكَ مِنْ ذِى مَنْعةٍ ظفِرتْ منهُ الليالى بعِلْقٍ (١) غيرِ مذمومِ
ما كانَ حبُّكَ إلّا صوبَ غاديةٍ طِيبًا وحاشا لحُبِّى فيكَ من لُومِ (٢)
(٣) إنْ شاءَ صرْفُ الرَّدَى تقديمَ أطوعِنا فقد رضيتُ — حماكَ اللهُ (٣) — تقديمِى
وإنْ أحبَّ الثَّرَى جسمًا ليأكُلَهُ أسمَحْ بجسمى له يَفديكَ تعظيمى ٥
(٤) عِشْنا [أليفيْنِ] فى بَرِّ الهوى زمنًا حتَّى رقى بنوَانا (٤) طائرُ الشُّومِ
فشتَّتَتْ نُوَبُ الأيامِ أُلفتَنا قَسْرًا ولم يُغْنِها ظنِّى وتنجيمِى

وكتب أيضًا إلى جماعةٍ من إخوانِهِ فى علَّتهِ يومئذٍ :

هذا كتابى وكفُّ الموتِ تزعجُنى عن الحياةِ وفى قلبى لكم ذِكَرُ
إن أقضِكم حقَّكمُ من قِلَّةٍ عُمُرِى إنِّى إلى اللهِ لا حَقٌّ ولا عُمُرُ ١٠
لَهْفِى على نيِّراتٍ ما صَدَعْتُ بها إلَّا وأظلَمَ من أضوائِها القمرُ
فاقْرَ السلامَ على المنصورِ أفضلِ مَنْ سَعَى لثأرِ بنى الإسلامِ فانتصرُوا
واعطِفْ بها عَطْفَةً تهتزُّ من كرمٍ على المظفَّرِ فهو الفَلْحُ والظفَرُ

وقال أيضًا فى علَّتِهِ تلك :

تأمَّلتُ ما أفنيتُ من طولِ مُدَّتِى فلم أرَهُ إلَّا كلمحـــةِ ناظرِ ١٥
وحصَّلتُ ما أدركتُ من طولِ لذَّتى فلم أُلفِـهِ إلاَّ كصَفْقةِ خاسرِ
وما أنا إلا رَهْنُ (٥) ما قدَّمتْ يدِى إذا غادَرُونى بين أهـلِ المقابرِ
(٦) سقَى اللهُ فتيانًا (٦) كأنَّ وجُوهَهُمْ وجوهُ مصابيحِ النجومِ الزَّواهرِ

(١ — ١) ىه فى ب ، ت ، لب (٢) ىه : « بحبى فيك للوم »
(٣ — ٣) ىه فى ب ، لب ، ت (٤ — ٤) ىه فى ب ، لب ، ت
(٥) ىه ، لب : «أهل» (٦ — ٦) ىه فى ب ، لب ، ت

إذا ذكرُونِي والثّرَى فوقَ أعْظُمِي بكَوْا بعيونٍ كالسّحابِ المواطِرِ
يقولُون : قد أَوْدَى أبو عامرِ العُلَا أقِلُّوا فقِدْمًا ماتَ آباءُ عامرِ !
هوالموتُ لم يُصْرَفْ بأجْرَاسِ خاطبٍ بليغٍ ، ولم يُعطَفْ بأنفاسِ شاعرِ
ولم يَجْتنِبْ للبطشِ مُهْجَةَ قادرٍ قويّ ، ولا للضَّعفِ مُهْجَةَ صافرِ[(١)]
٥ يَحُلُّ عُرَى الجبَّارِ فى دارِ مُلكِهِ ويهفو بنفسِ الشاربِ المتساكِرِ
وليسَ عجيبًا أن تدانَتْ منيَّتِي يُصَدِّقُ فيها أوَّلِى أمْرَ[(٢)] آخرِى
ولكنْ عجيبًا أنَّ بينَ جوانِحِى هوًى كشَرَارِ الجمرةِ المُتطايِرِ
يحرِّكُنِي والموتُ يحفِزُ[(٣)] مُهجَتى ويهتاجُنى والنفسُ عند حناجِرِى

وبلغنِى أن آخر شعرٍ قاله يُوَدِّعُ إخوانَه هذه الأبيات :

١٠ أستودعُ اللهَ إخْوانِى[(٤)] وعِشْرَتَهم وكلَّ خِرْقٍ إلى العلياءِ سبَّاقِ
وفِتيةٍ كنُجُومِ القَذْفِ نيِّرُهم يَهْدِى ، وصائبُهُمْ يُودِى بإحْرَاقِ
وكَوْكَبًا لِيَ مِنْهُمْ كانَ مَغرِبُهُ قَلْبِي ، ومَشْرِقُهُ ما بَيْنَ أطْواقِ
اللهُ يَعْلَمُ أنِّى مَا أُفارِقُهُ إلّا وَفِى الصَّدْرِ مِنِّى حَرُّ مُشْتاقِ
كُنّا أليفيْنِ خانَ الدهرُ أُلفتَنا وَأيُّ حُرٍّ عَلَى صَرْفِ الرَّدَى باقِ[(٥)]
١٥ فإنْ أعِشْ فلعلَّ الدَّهرَ يجمَعُنا وإن أمُتْ فسَيَسْقِيهِ كذا السَّاقِى
لا ضَيَّعَ اللهُ إلا مَنْ يُضَيِّعُهُ ومَنْ تخلَّقَ فيه غيرَ أخلاقِ[(٦)]
قد كانَ بَرْدِى إذا ما مسنى كلفٌ لا يثلِمِ الحبُّ آدابِى وأعراقِى[(٧)]

---

(١) ه : « صابر » (٢) ب ، ت ، لب : « أول الأمر »
(٣) ب ، لب : « يحفر » (٤) ب ، ت : « أصحابى »
(٥) هذا البيت ناقص فى ه (٦) لم يقع هذا البيت والذى يليه إلا فى ه
(٧) كذا بالأصل ، وفى البيت بعض غموض

حتى رمتنا صروفُ الدهرِ عن كثبٍ ففرّقتنا ، وَهل من صَرْفِه واقِ ؟[١]
إنى لأرْمُقُــهُ والموتُ يَضْغَطُنى فأقتضِى فُرْجَةً مُرْتَدَّ أَرْمَاقِ

ثم أوصَى أن يُدفنَ بجنبِ صديقهِ أبى الوليدِ الزَّجّالى ، ويُكتبَ على قبرِه فى لوحِ رُخامٍ هذا النثرُ والنظمُ :

بسم الله الرحمن الرحيم « قُل هو نبأٌ عظيمٌ أنتم عنه مُعرِضون[٢] » هذا قبرُ أحمدَ بنِ عبد الملكِ بن شُهَيْدٍ المذنب ، ماتَ وهو يشهدُ أن لا إله إلا الله ، وحدهُ لا شريكَ له ، وأنّ محمدًا عبدُه ورسولُه ، وأنّ الجنةَ حقٌ ، وأن النارَ حق ، وأنّ البعثَ حق ، وأن الساعةَ آتيةٌ لاريبَ فيها[٣] ، وأن الله يبعث من فى القبور[٣] . مات فى شهرِ كذا من عامِ كذا . ويكتبَ تحتَ هذا النثرِ هذا النَّظم :

يا صاحِبى قُمْ فقد أطلْنا أنحنُ طولَ المدَى هُجُودُ ؟
فقالَ لِى : لن نقومَ مِنها ما دامَ من فوقِنا الصَّعيدُ
تذكُرُ كَمْ ليــلةٍ لَهَونا فى ظلِّها والزمانُ عيــدُ ؟
وكَم سُرُورٍ هَمَى علَيْنا سحابةً ثرّةً تجـــودُ ؟
كُلٌّ كأنْ لَمْ يكُنْ تقضَّى وشُؤمُه حاضرٌ عتيــدُ
حصَّــلَه كاتبٌ حفيظٌ وضمَّــه صادقٌ شهيدُ
يا ويلَنــا إنْ تنكَّبَتْنَا رحمةُ مَنْ بَطشُهُ شَديدُ
يا ربِّ عفواً فأنتَ مولًى قصَّرَ فِى أمرِكَ العبيدُ

يَنظُرُ قولُه : « لنْ نقومَ منها » ، البيْت ، إلى قول ابن المعتز[٤] يصفُ أهلَ القبور :

وسكانِ دارٍ لا تزَاوُرَ بينَهُمْ على قُربِ بعضٍ فى المحَلّةِ من بعضِ

(١) هذا البيت ناقص فى ه (٢) راجع سورة ٣٨ : ٦٧
(٣–٣) ه فى ب (٤) راجع ديوانه ص ٣٣٨

كأنَّ خواتيماً من الطِّينِ فوقَهمْ فليسَ لها حتى القيامةِ من فَضّ

(١)وما أرى أبا عامرٍ إلا نقلَه من قولِ المعرّى(٢) فى رثاءِ أمّه حيثُ يقول :

سألتُ : متى اللقاء ؟ فقيلَ : حتى يقومَ الهامِدُون مِنَ الرّجامِ !(١)

قالوا : وكان أبو عامرٍ كثيراً ما كان يخشى صعوبةَ الموتِ ، وشدةَ السّوْق ، ٥ فيَسَّرَ اللهُ عليه ، وما زال يتكلّمُ ويرغبُ إلى اللهِ أن يرفُقَ به ، ويُكثِرُ من ذكرِه ، وقد أيقن بفراقِ الدُّنيا إلى أن ذهبتْ نفسه رحِمَهُ اللهُ يومَ الجمعةِ آخرَ يومٍ من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وعشرين وأربعمائة . ولم يُشْهَدْ على قبرِ أحدٍ ما شُهِدَ على قبرِه منَ البكاءِ والعويل ، وأُنشِدَ على قبره من المراثِى جملةٌ موفورةٌ لطَوائفَ كثيرةٍ ، منها قولُ أبِى الأَصْبغِ القُرشِىِّ منْ قصيدةٍ يقولُ فيها :

١٠ شَهِدنَا غريباتِ المكارمِ والعُلاَ تُبكّى على قبرِ الشّهيدِىِّ أحمدَا
ومازالَ أهلُ الدينِ والفضلِ والتُّقى عُكوفاً به حتى حسِبْناهُ مسجدَا
أُريدُ بسُقيَا الغيثِ إحْياءَ(٣) حُفْرةٍ كدرْنا بها(٤) نجمَ العُلَا المتوقّدَا
ولم أرَ مثلِى باتَ مُستسقِىَ الحيَا لماءِ حياءٍ كان يَشْفِى مِنَ الصَّدَا
فأىُّ جمالٍ صارَ فى قبضةِ الثّرَى وأىُّ بهاءٍ قد طَوتْهُ يدُ الرَّدَى !
١٥ وأىُّ قناةٍ فى طُلَى الأرض غُيِّبَتْ وأىُّ حُسامٍ فى حَشَا القبرِ أُغمِدَا !
بنفسِى الّذى أوْدَى وأنْشأَ لِلنَّدَا حَمامًا عَلَى دَوْحِ العَلاءِ مُغرِّدَا
أبا عامرٍ ، بُعْداً لسَهْمٍ مصيبةٍ رَماكَ به(٥) ريبُ المنون فأقصَدَا
لقَد فُتَّ فى نشرِ الفَضائلِ يافعًا وبرّزْتَ فى جمعِ المكارمِ أمرَدَا
لَشَقّتْ عليكَ المكرماتُ جيوبَها وأظهرَ فيكَ المجدُ خدًّا مُخدّدَا

(١ — ١) ه ف ه (٢) راجع سقط الزند (ج ٢ ص ٨٩)
(٣) ب ، ت : « أحشاء » (٤) ب : « به » (٥) ه : « بها »

ومنه قولُ أبى حفص ابن بُرْد الأصغرِ من قصيدةٍ أولها :

بِفيكَ التُّرْبُ مِنْ ناعٍ نعَانِي نَعَى غيرى إلىَّ وما عدَانِي

وكيفَ ولم يسِلْ طَرْفى بدمعٍ عليـــهِ ، ولم يُجَنَّ لهُ جنَانِي

لأيةِ خَصـلةٍ تبكيكَ عينِى ومالِى بالحِسَاب لها يدَانِ

أللهِمَمِ المنـــوطَةِ بالثريّا أم الشيمِ المهذَّبةِ الحسانِ ؟ ٥

أم الـكرمِ الذى مازالَ يجرِى مع الأنْوَاء فى طَلَقِ الرِّهَانِ ؟

أم القلمِ الذى قد كانَ(١) يجْنِى من القِرطاسِ نُوَّارَ البَيانِ ؟

أم الرأيِ الّذِى ما زَال يُغْنِى عن السيفِ المهنّدِ والسِّنانِ ؟

شهدتُ لقد أصيبَ بنو شُهيدٍ بقاطعـــةِ السواعدِ والبَنانِ

به درجُوا من الدنيا فبانُوا وكلٌّ ماخَـلَا الرحمنَ فانِى ١٠

فصل(٢) فى ذكرِ ذى الوزارتينِ الـكاتبِ أبى الوليدِ

ابن زيدونَ ، واجْتلابِ عيونٍ من أخبارِهِ ،

ونصُوصٍ(٣) من رسائِلهِ وأشعارِه .

قال أبو الحسن : كان أبو الوليـد صاحبَ(٤) منثورٍ ومنظوم ، وخاتمةَ شعراءِ مخْزُوم ، أحدَ مَنْ جَرَّ الأيامَ جرّا ، وفاتَ الأنامَ طُرّا ، وصرَّفَ السلطانَ ١٥ نفعاً وضرّا ، ووسِـعَ البيانَ نظماً ونثرا ؛ إلى أدبٍ ليسَ للبحرِ تدفُّقُه ، ولا للبدرِ تألُّقُه . وشعرٍ ليسَ للسحرِ بيانُه ، ولا للنجومِ الزُّهْرِ اقترانُه . وحَظٍّ من النثرِ غريبِ المبانِى ، شعرىِّ الألفاظِ والمعانِى .

---

(١) ر : « كاد » (٢) هنا ينتهى خرم ر

(٣) ب ، ت : « وفصوص » (٤) ب ، لب ، ر : «غاية »

حدثني[١] غيرُ واحدٍ من وزراء إشبيلية قال : لما خَلَص ابن عبد البَرّ من يدِ عَبّاد ، خُلوصَ الفرزدقِ من يدِ زياد ، بقيتْ حضرتُه من أهلِ هذا الشان ، أعْرَى من ظهرِ الافعُوان ، وأخْلَى من صدْرِ الجبان . فهمّ يومًا باستخلافِ أبي محمد الباجي المشهورِ أمرُه ، الآتي في القسمِ الثاني من هذا الكتابِ[٢] ذكرُه ، فكأنّ أبا الوليد غَصّ بذلك ، وواطأ أبا محمد ابنَ الجدّ على الإشارةِ بالاستغناء عما هنالك ، فكانت الكتب تُنفَذُ[٣] من إنشاء أبي الوليد إلى شرقِ الأندلسِ ، فيقالُ تأتي من إشبيلية كتبٌ هي بالمنظوم[٤] أشبهُ منها بالمنثورِ .

قرأت في كتاب أبي مروانَ ابنِ حيان ، وقد أجرَى ذكرَ مَنِ اصطنعَ ابنُ جَهْوَر من رجالِ دولته فقال :

ونوّهَ أيضاً بفتى الآداب وعُمْدَةِ الظَّرف ، والشاعرِ البديعِ الوصفِ والرَّصف ، أبي الوليدِ أحمد بن زيدونَ ذي الأبُوّةِ النبيهةِ[٥] بقرطبة ، والوسامةِ والدِّراية وحلاوة المنظوم والسلاطةِ وقوةِ العارضَة والافتنانِ في المعرفة . وقدّمه إلى النظَّرِ على أهلِ الذِّمّةِ لبعض الأمور المعترضةِ ، وقصَرَهُ بعدُ على مكانهِ من الخاصَّةِ والسِّفارةِ بينهُ وبينَ الرؤساء ، فأَحسنَ التصرُّف في ذلك ، وغلبَ على قلوبِ الملوك .

قال أبو مروان : وكان أبو الوليد من أبناء وجوهِ الفقهاءِ بقرطبةَ في أيامِ

---

(١) ب ، لب ، وه : « أخبرني » (٢) ب ، لب ، وه : « الديوان »

(٣) ر : « تأتي تنفذ » (٤) ب ، ت ، لب ، وه : « بالنظم الخطير »

(٥) وه : « السنية »

الجماعةِ والفِتنة ، وفرَع أدبُه ، وجادَ شعرُه ، وعلَا شانُه ، وانطلق لسانُه ، فذهبَ به العُجبُ كلَّ مذهب ، وهوَّن عنده كلَّ مَطْلب . وكان علِقَه من عبدِ الله بن أحمد بن المكوِيّ[1] أحدِ حكام قرطبة ظُفْرٌ أحْجَنُ أدّاه إلى السجن فألقى نفسَه يومئذٍ على أبى الوليدِ ابن جَهْوَر فى حياة والدِه أبى الحَزْم ، فَتَشَفَّع[2] له وانتشله من نكبته ، وصيَّره فى صنائعه . ولمّا وَلِىَ الأمرَ بعدَ والدِه نوَّه به ٥ وأسْنَى خُطَّتَه ، وقدَّمه فى الذين اصطنعهم[3] لدوْلته ، وأوسع راتبه ، وجلَّله كرامةً لم تُقْنِعْه ، زعموا . واتَّفق أنْ عنَّ له مطلبٌ بحضرةِ إدريسَ بن على الحسَنى بمالقَة فأطالَ الثَّواء هنالك . واقتربَ من إدريس ، وخفَّ على نفسِه ، وأحضره مجالسَ أُنسِه . فعتَبَ عليْه ابنُ جَهْور ،[4] وصرَفَه عن ذلك التصرُّف قبلَ قفولِه ، ثم عادَ إلى جميلِ رأيه فيه[4] ، وصرَّفهُ فى السِّفارة بينَه و بين رؤساء[5] الأندلس فيما ١٠ يجرى بينهم منَ التراسُلِ والمُداخَلة : فاستقلَّ بذلكَ لفضلِ ما أُوتيه من اللَّسَن والعارِضَة ، فاكتسبَ الجاهَ والرِّفعة[6] ، ولم يَبْعُدْ فى ذلكَ من التهافتِ فى الترَقّى لبُعْدِ الهمَّة ، فهوَى عمّا قليلٍ إلى عبّادٍ صاحبِ إشْبيلِيَة . اجتذَبَه إلى ذلكَ فهاجَر عنْ وطنِه إليه ، ونزَلَ فى كنفِه ، وصارَ من خَواصِّه وصحابته ، يجالسُه فى خلَواته ، ويَسْفِرُ[7] لهُ فى مُهِمِّ رسائِلِه على حالٍ من التَّوسِعَة . وكان ذَهابُه إلى عبّادٍ ١٥ سنةَ إحْدَى وأربعين وأربعمائة ،[8] فخلا بالحضرة مكانُه ، وكثُرَ الأسفُ عليْه . انتهى كلام ابن حيان[8] .

(١) ه ، ب ، ت : « المكرى » (٢) ه ، ب ، لب : « فشفع »

(٣) ب ، لب ، ه : « اصطنع » (٤ — ٤) سا فى ب ، ت ، لب ، ه

(٥) ب ، ت ، لب ، ه : « أمراء » (٦) ب ، ت ، لب ، ه : « والمنفعة »

(٧) ه : « ويرسل » (٨ — ٨) سا فى ب ، ت ، لب ، ه

قلت : فأمّا سَعَةُ ذَرْعِه ، وتدفُّقُ طبعِه ، وغَزارةُ بيانِه ، ورقّةُ حاشيةِ لسانِه ، فالصُّبْحُ الّذى لا يُنكَرُ ولا يُرَدّ، والرملُ الذى لا يُحصَرُ[1] ولا يُعَدّ .

أخبرنِى منْ لا أدفعُ خبرَه من وزراء إشبيليّة قال : لعهْدِى بأبِى الوليدِ قائماً على جنازةِ بعضِ حُرَمِه ، والناسُ يُعزُّونَه على اختلافِ طبقاتِهم ، فما سُمِعَ

٥ يُجيبُ رجلا منهم بما أجاب به آخرَ لحُضُورِ جَنانِه ، وسَعةِ ميدانِه .

وقد أخرجتُ من أشعارِه التى هى حُجُولٌ وغُرَر ، ونوادرِ أخبارِه التى هى مآثرُ وأُثَر ، ورسائلِه التى أخرسَتْ ألسنةَ الحَفْل ،[2] واستوفت أمدَ المنطقِ الجزْل ، ما يَسُرُّ الآدابَ ويصُورُها ، ويستخِفُّ الألبابَ ويستطيرُها[2] .

جملةٌ من نثرِه ، مع ما ينخرِطُ فى سلكِ ذلكَ من شعرِه

١٠ له[3] من رقعةٍ خاطبَ بها ابنَ جَهْور من موضعِ اعتقالِه يقولُ فيها :
يا مولاى وسيّدى الذى ودادِى له ، واعتدادِى به ، واعتمادِى عليه ، أبقاكَ اللهُ ماضِىَ حَدِّ العَزْم ، وارِىَ زَنْدِ الأمل ، ثابتَ عهـدِ النّعمة . إن سلبْتَنِى — أعزَّكَ الله — لباسَ إنعامِك ، وعطّلتنِى من حَلْىِ إيناسِك ، وغَضضْتَ عنى طرفَ حمايتِك ، بعد أن نظرَ الأعمَى إلى تأْمِيلِى لك ، وسمعَ [الأصمّ] ثنائِى عليك ،

١٥ وأحسَّ الجمادُ بإسنادِى إليك ، فلا غرْوَ فقد يَغَصُّ بالماء شارِبُه ، ويقتلُ الدواءُ المستشفِىَ به ، ويُؤتَى الحـذِرُ من مأمنِه ، وإنى لأتجلّدُ فأقول : هل أنا إلا يدٌ أدماهَا سِوارُها ، وجبينٌ عضـه إكليلُه ، ومشرفِىٌّ ألصقَه بالأرض صاقلُه ،

(١) ه ، ب : « لا يحصى »

(٢ — ٢) ه فى ب ، ت ، لب ، ه ، ويلى كلمة « الحفل » فى هذه النسخ الأربع العبارة الآتية : « وكيف يصح ذلك وهو منقول عن عمر رضى الله عنه »

(٣) هذا الفصل من الرسالة لم يقع إلا فى ه

وسمهرىٌّ عرضه على النارِ مثقّفهُ ؟ والعَتْبُ محمودٌ عواقبه ، والنَّبْوَةُ غمرةٌ ثم تنجلى ، والنكبةُ « سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تقشَّعُ » . وسيدى إن أبطأ معذور

وإن يكنِ الفعلُ الذى ساء واحداً فأفعالهُ اللائى سَرَرْنَ أُلوفُ

وليت شعرى ما الذنبُ الذى أذنبتُ ولم يسعْه العفو ؟ ولا أخلو من أن أكونَ بريئا ، فأينَ العدل ؟ أو مسيئا ، فأينَ الفضْل ؟ وما أرانى إلا لَوْ أُمِرْتُ ٥ بالسجودِ لآدمَ فأبيْتُ ، وعكفتُ على العجلِ ، واعتديتُ فى السَّبت ، وتعاطيتُ فعقَرْت ، وشربتُ من النهر الذى ابتُلِىَ به جنودُ طالوت ، وقلّدتُ لأبرهةَ الفيل ، وعاهدتُ قريشاً على ما فى الصحيفة ، وتأوّلتُ فى بيعةِ العقبة ، ونفرْتُ إلى العيرِ ببدر ، وانخزَلتُ بثُلثِ الناسِ يومَ أُحد ، وتخلّفتُ عن صلاتى فى بنى قُرَيْظَة ، وأنفتُ من إمارةِ أسامَة ، وزعمتُ أن خلافةَ الصِّدِّيقِ فَلْتة ، « ورويتُ رُمحى ١٠ من كتيبةِ خالد » ، وضحّيتُ بالأشمطِ الذى عنوانُ السجودِ به ، لكان فيما جرَى علىَّ ما يحتملُ أن يسمّى نكالا ، ويُدْعَى ولو علَى المجازِ عقابا ،

وحسبُكَ من حادثٍ بامرىءٍ ترَى حاسِديه له راحمينا

فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشح ، ونبأٌ جاء به فاسِق ؟ والله ما غشَشْتُكَ بعدَ النصيحة ، ولا انحرفتُ عنكَ بعد الصاغية ، ولا نصَبتُ لكَ ١٥ بعد التشيُّعِ فيك ، ففيمَ عَبَثَ الجفاء بأذمّتى ، وعاثَ فى مودّتى ، وأنَّى غلبنى المغلَّب ، وفخَر علىَّ الضعيف ، ولطمتْنِى غيرُ ذاتِ سِوار ؟ ومالكَ لا تمنعُ منّى قبلَ أن أُفترَس ، وتدركُنى ولما أمزَّق ، وقد زانَنى اسمُ خدمتِك ، وأنلتُ الجميعَ من سِماطِك ، وقمتُ المقامَ المحمودَ على بساطك ؟

ألسْتُ المُوالى فيك نظمَ قصائدٍ هى الأنجمُ اقتادتْ مع الليلِ أنجُما ؟

وهل لبِسَ الصباحُ إلا بُرداً طرزتَه بمحامدِك ، وتقلّدَتِ الجوزاء إلا عقداً

فضَّلتُه بمشاعرك ، وفتَّ المسكُ إلا حديثاً أذعتُه بمفاخرك ، وما يومُ حليمة بِسرٍّ ، وحاشَ لله أن أُعَدَّ من العاملةِ الناصبة ، وأكونَ كالذُّبالةِ المنصوبةِ تضيء للناسِ وهيَ تحترقُ .

وفى فصلٍ منها :

٥ ولعمرى ما جهلتُ أنّ الرأىَ فى أن أتحوَّلَ إذا بلغتنى الشمس ، ونبا بِىَ المنزل ، وأضربَ عن المطامعِ التى تقطعُ أعناقَ الرجال ، ولا أستوطئ العجزَ فيُضربَ بى المثَل : خامِرِى أُمَّ عامرٍ . وإنى مع المعرفةِ بأن الجلاءَ سِباء[1] ، والنُّقلةَ مُثْلةٌ ، لعارفٌ أنَّ الأدبَ الوطنُ الذى لا يُخشَى فراقُه ، والخليطُ الذى لا يُتوقَّع زِيالُه[2] ، والنسبُ الذى لا يُجْفَى[3] ؛ أينما توجَّه وردَ أعذبَ منهلٍ[4] ، وحطَّ ١٠ فى جنابٍ قَبول[5] ، وضوحِكَ قبلَ إنزالِ رَحْلِه ، وأُعطِىَ حُكْمَ الصَّبىِّ عَلَى أهْلِه ،

وقيلَ له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ وصديقُ[6]

غيرَ أنَّ الوطنَ محبوب ، والمنشأَ مألوف ، واللبيبُ يحِنُّ إلى وطنه ، حنينَ النجيبِ[7] إلى عَطَنِه ، والكريمُ لا يجفُو أرضاً بها قوابلُه ، ولا ينسَى بلداً فيه مَراضعُه ، قال الأول :

١٥ أحَبُّ بلادِ الله ما بينَ مَنْعِجٍ إلىَّ وسلْمَى أن يَصُوبَ سحابُها

بلادٌ بها عقَّ الشَّبابُ تمائمِى وأوّلُ أرْضٍ مسَّ جلدِى تُرابُها

مع مُغَالاتى بعلوِّ[8] جوارِك ، ومنافستى فِى الحظِّ من قربك ، واعتقادِى أن

(١) ب ، ت ، لب : « سباب » (٢) ــ ، ت ، لب ، و : « زواله »

(٣) ب ، لب ، و : « لا يخفى » (٤) ب ، ت ، لب ، و : « ورد منهل بر »

(٥) ب ، ت ، لب : « فنزل » (٦) ب ، ت ، لب ، و : « ومقيل »

(٧) و : « الناب » (٧) ب ، ت لب ، و : « تعلق »

الطمعَ فى غيرك طَبَع ، والغنى مِن سِوَاك عَناء ، والبَدلَ منك عوَز ، والعِوَض لَفاء ،

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى ضِنًّا[١] به نظرى إلى الأُمَراء

وكلُّ الصيدِ فى جوفِ الفَرا ، وفى كل شجرٍ نار ، واستمْجدَ المَرْخُ والعَفار . فما هذه البراءةُ[٢] ممن يتولّاك ، والميلُ عمّن يميلُ إليك ؛ وهلاّ كان هواك فيمَنْ هواه فيك ، ورضاك لمن رضاهُ لك !

يا منْ يعزُّ علينا أنْ نفارقَهُمْ وِجداننا كلَّ شىء بعدكُم عدمُ[٣]

أعيذُكَ ونفسى أن أشيمَ خُلّبا ، وأستمطرَ جهاما ، [٤] وأكْدمَ غيرَ مَكْدَم[٥] ، وأشكوَ « شكوَى الجريحِ إلى العِقبانِ والرَّخمِ »[٤] . وإنما أبْسَسْتُ بك لتدِرّ ، وحرَّكْتُ لكَ الحُوارَ لتحِنّ ، ونبَّهْتُك لأنام ، وسريتُ إليكَ لأحمد السُّرَى لديْك ، بعد اليقينِ أنكَ إن سَنَّيْتَ عَقْدَ أمرِى تيسَّر ، ومتى أعذَرْتَ فى فكِّ أسْرِى لم يتعذَّر ، وعلمُكَ محيطٌ بأنَّ المعروفَ ثمرةُ النعمة ، والشفاعةَ زكاةُ المُروءة ، وفضلَ الجاهِ ، تعودُ به ، صدقة .

وإذا امرؤٌ أهدَى إليك صَنيعةً من جاههِ فكأنَّها من مالهِ[٦]

لعلّى أُلقِى العصَا بذَرَاك ، وتَستقرُّ بِيَ النَّوى فى ظلِّك ، فتستلذَّ جَنَى شكرِى من غَرسِ عارفَتك ، وتستطيبَ عَرْفَ ثنائِى من رَوْضِ صنيعتك ، [٧] فأستأنفَ التأدُّبَ بك ، والاحتيالَ على مذْهبك ، فلا أُوجِدَ للحاسدِ مجالَ لحظة ، ولا أدَعَ للقادحِ مساغَ لفظة ، والله شهيدُك من إطْلابِى بهذه الطَّلِبة ، وإشكائِى من هذه[٧]

(١) ب ، لب ، ده : « ظنا » (٢) ر : « البذاءة »

(٣) راجع ديوان المتنبى (ج ٣ ص ٢٦٣)

(٤ — ٤) ده فى ر (٥) ده ، ب ت ، لب : « وأ كرم غير مكرم »

(٦) راجع ديوان أبى تمام ص ٢١٣ (٧ — ٧) ده فى ر

(١)الشكْوَى ، لِصنيعةٍ تُصيبُ بها طريقَ المصنَع ، وقد تَستودِعُها أحفظَ مُستودَع(١) ،
(٢)حسْبَما أنتَ خَليقٌ له ، وأنا منك حرِىٌّ به ، فذلك بيدِك ، وهَيِّنٌ عليك(٢) .
(٣)ولما توالتْ غُرَرُ هذا النثر ، واتسعَتْ دُرَرُه(٣) ، فهزَّ عِطْفَ غُلوائه ، وجرَّ
ذيلَ خُيلائِه ، عارضَه النظمُ مُباهيا ، بل كايَده مُداهِيا ، حِينَ(٤) أشفَقَ مِنْ
٥ أنْ يَعْطِفَك(٥) استعطافُه ، وتَميلَ بنفسِكَ ألطافُه ، فاستحسَنَ العائدةَ منه ،
واعتدَّ بالفائدةِ له ، وما زالَ يَسْتكرِهُ(٦) الذِّهنَ العَليل ، والخاطرَ الكَليل ، حتى
زَفَّ إليكَ منه عروساً مجلوّةً فى أثوابِها ، منصوصةً بحلْيِها ومَلابِها ، وها هى(٧) :

الْهوَى فى طلوعِ تلكَ النُّجومِ … والمُنَى فى هبوبِ ذاكَ النَّسيمِ
سرَّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشِى … لَوْ يدُومُ السرورُ للمستديمِ

١٠ ومنها :

وَطَرٌ ما انْقَضى إلى أنْ تَقَضَّى … زمنٌ ما ذِمامُـــهُ بالذَّميمِ
زارَ مُستخفِياً وهَيْهاتَ أن يخْ … فَى سُرَى البَدرِ فى الظلامِ البَهيمِ
فَوَشَى الحَلْىُ إذْ مشَى وهَفَا الطِّيـ … بُ إلى حِسِّ كاشحٍ بالنَّميمِ
أيُّها المؤْذِنِى بظلمِ الليـــالى … ليسَ يَوْمِى بواحدٍ منْ ظَلُومِ(٨)
١٥ ما ترَى البـدْرَ إنْ تأملتَ والشَّمْـ … سَ هُما(٩) يُكسَفانِ دُونَ النُّجومِ ؟
وهُوَ الدهرُ ليسَ ينفكُّ ينحُو … بالمصـــابِ العظيمِ نحْوَ العظيمِ

(١ — ١) ىه فى ر (٢ — ٢) ىه فى ب ، ت ، لب ، ر
(٣ — ٣) ىه فى ب ، لب (٤) ب ، ت ، لب ، ىه : « حتى »
(٥) ىه : « يستعطفك » (٦) لب ، ىه : « يستنكر »
(٧) ب ، لب ، ىه : « وهى هذه الأبيات » (٨) ب : « بواحد مظلوم »
(٩) ب ، ت ، لب ، ر : « كما »

بوَّأ اللهُ جَهْوَرًا شَرَفَ السُّؤْ ... دُدِ فى السِّرِّ واللُّباب الصَّميمِ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الجميعُ لَهُ الفضْ ... لَ فكانَ الخُصوصُ فَوْقَ[1] العُمومِ
قَلَّدَ الغُمْرُ ذَا التجارِبِ فيهِ ... واكتفَى جاهلٌ بعِلمِ عَليمِ

ومنها[2] فى ذكر اعتقاله[2] :

سَقَمٌ لا أُعادُ مِنْهُ وفى العا ... ئِدِ أُنسٌ يَفِى بِبُرْءِ السَّقيمِ
نَارُ بَغْيٍ سَرَتْ إلى جَنَّةِ الأرْ ... ضِ بَيَاتًا فأصْبَحتْ كالصَّريمِ
بِأَبِي أَنْتَ إنْ تَشَأْ تَكُ بَرْدًا ... وسلامًا كنارِ إبراهيمِ[3]
للشَّفيعِ الغَنَاءُ ، والحَمْدُ فِي صَوْ ... بِ الحَيَا لِلرِّياحِ لا للغُيُومِ

وبعد تمَامِ هذه القصيدةِ : ها كَهَا — أعزَّكَ اللهُ — يبسُطُها الأمل ، ويقبِضُها الخَجل ، لهَا ذَنْبُ التقْصير ، وحُرْمةُ الإخْلاص ، فهبْ ذنبًا لحُرْمة[4] ، واشفَعْ نعمَةً بنعمة ، لتأتِيَ الإحسانَ مِنْ جهاته ، وتسلكَ إلَى الفضلِ طُرقاتِه إن شاء الله .

وهذَا البيتُ الأخير ، إلى معنَى بيتِ البُحترىِّ[5] يشير :

حازَ حَمْدِى ، ولِلرِّياحِ اللواتِى ... تجلِبُ الغيثَ مثلُ حَمْدِ الغيُومِ

وأخذَهُ البحترىُّ من قولِ أبى تمامٍ[6] :

وإذا امرؤٌ أهدَى إليكَ صنيعةً ... من جاهِهِ فكأنَّهَا مِنْ مالِهِ

وَقَوْلُه : « سَقَمٌ لا أُعادُ منه » ، البيت ، من قولِ علىِّ بنِ الجَهْم :

بيتٌ يُجَدَّدُ للكَريمِ كرامَةً ... ويُزَارُ فيهِ ولا يَزُورُ ويُحْفَدُ

(١) ب ، ت ، لب ، ره : « وفق »
(٢) ره فى ب ، ت
(٣) لم يقع هذا البيت إلا فى ر
(٤) ره : « للحرمة »
(٥) راجع ديوان البحترى (ج ٢ س ١٣)
(٦) راجع ديوانه س ٢١٣

وله أيضاً فى ابنِ جَهْور ، وكتبَ بها من السِّجن :

ما جالَ بعدكَ لحظى فى سَنا القمرِ إلا ذكرتُكَ ذِكرَ العينِ بالأثرِ
ولا استطلْتُ ذَماءَ الليلِ من أسفٍ أنْ لا عَلَى ليلةٍ سَرَتْ[1] معَ القِصَرِ
فى نَشْوةٍ من سِناتِ الوصْلِ موهِمةٍ أنْ لا مسافةَ بينَ الوهْنِ والسَّحَرِ
٥ يا ليتَ ذاكَ السَّوادَ الجوْنَ مُتَّصِلٌ قد استعارَ سَوادَ القلبِ والبَصرِ
أمَّا الضَّنَى فجَنَتْهُ لحظَةٌ عَنَنٌ كأنَّها والرَّدَى جاءا عَلَى قَدَرِ
فهمتُ معنَى الهوى من وحْىِ طرفكَ لِى إن الحِوارَ لمفهُومٌ مِنَ[2] الحوَرِ

ومنها :

من يَسْألِ الناسَ عنْ حالِى فشاهدُها محضُ العيانِ الّذى يُغْنِى عن الخَبرِ
١٠ لم[3] تطوِ بُردَ شبابِى كَبْرةٌ ، وأرى بَرْقَ المشيبِ اعتلى فى عارضِ الشَّعَرِ
قبلَ الثلاثينَ إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ وللشَّبيبةِ غُصنٌ غيرُ مُهتَصَرِ[4]
يا للرَّزايا لقد شافهتُ مَنهلَها غَمْراً فما أشربُ المكروهَ بالغُمَرِ !
لا يَهْنِئِ الشَّامتَ المرتاحَ خاطرُهُ أنّى مُعَنًّى الأمانِى ضائعُ الخَطَرِ
هلِ الرياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفةٌ أم الكُسُوفُ لغيرِ الشَّمسِ والقمرِ ؟
١٥ إن طالَ فى السجنِ إيداعِى فلا عَجبٌ قد يودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصارمِ الذَّكرِ
وإن يُثبِّطْ أبا الحزمِ الرِّضا قدَرٌ عن كشْفِ ضُرِّى فلا عتْبٌ على القدرِ
مَنْ لم أزلْ من تأنِّيهِ على ثقةٍ ولم أبتْ من تجنّيهِ على حَذَرِ
وزيرُ سَلْمٍ كفاهُ يُمنُ طائرِهِ شُؤمَ الحروبِ ورأىٌ مُحصَدُ المِرَرِ

---

(١) ه : « سارت » (٢) ه : « مع »
(٣) فى جميع النسخ « إن » (٤) ب : « عصر غير محتضر »

أغْنَتْ قَرِيحتُه مُغْنَى تَجار به — ونابت اللَّمحةُ العجْلَى عن[1] الفِكَرِ[2]

كم اشترى بكَرَى عينَيْه مِنْ سَهرٍ ! — هُدوءَ عينِ الهُدَى[3] فى ذلكَ السَّهرِ

فى حضرةٍ غابَ صرْفُ الدَّهْرِ خَشْيَتَه — عَنها ، ونامَ[4] القطَا فيها ولم يُثِرِ

حُرِمتُ منْهُ وحُظَّ الناسُ كلُّهمُ — لَهذه العِبرةُ الكُبْرَى من العِبَرِ[5]

وكنتُ أحسَبُنِى والنَّجمَ فى قرَنٍ — ففيمَ أصبحتُ منحطًّا إلى العَفَرِ ٥

أحينَ رَفَّ عَلَى الآفاقِ من أدبى — غَرْسٌ له من جناه يانعُ الثَّمرِ

وسيلةٌ سببٌ إلَّا تكنْ نسَبًا — فهْوَ الودادُ صفاً من غيرِ ما كدرِ[6]

يا زهْرَةَ الزَّهْرِ حَيًّا وهْوَ إنْ فَنِيَتْ — حياتُهُ زينةُ الآثارِ والسِّيَرِ

لِى فى اعتمادِكَ فى التأميلِ سَابقةٌ — وهِجْرَةٌ فى الهوَى أَوْلَى من الهِجَرِ

هَلْ من سبيلٍ ، فماءُ العتْبِ لى أسِنٌ ، — إلى العذُوبةِ مِنْ عُتْباكِ والخَصرِ ١٠

لا تَلْهُ عنِّى فلم أسألْكَ معتسِفاً — رَدَّ الصِّبا غِبَّ إيفاءٍ عَلَى الكِبَرِ

فاشفَعْ أكُنْ مثلَ مَمطورٍ ببلدتهِ — جذلانَ بالوطَنِ المألوفِ والمطَرِ[7]

[8]قوله : « قد استعارَ سوادَ القلبِ والبصرِ » لفظُ المعرى[9] حيثُ يقول :

يَوَدُّ أنَّ ظلامَ اللَّيـلِ دامَ له — وزيدَ فيهِ سوادُ القلبِ والبصَرِ[8]

---

(١) فى جميع النسخ : « على » (٢) لم يقع هذا البيت فى ر

(٣) ب ، ت ، لب ، ره : « السرى » (٤) ب ، ت ، لب : « وبات »

(٥) هذا البيت والأبيات الستة التى تليه ناقصة فى ر

(٦) لم يقع هذا البيت إلا فى ره ، لب ، ب

(٧) ب ، ت ، لب ، ره : « والوطر » (٨ — ٨) ره فى ب ، لب ، ت

(٩) راجع سقط الزند (ج ١ ص ٣١)

وقوله : « هلِ الرِّياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفةٌ » ، البيت ، معنى قد طُوِىَ ونُشر ، ومنه قولُ أبي تمامٍ[١] :

إنَّ الرياحَ إذ ما أعصفتْ قصفتْ عيدانَ نجدٍ ولم يعبأْنَ بالرَّتَمِ[٢]

بناتُ نعشٍ ونعشٌ لا كسوفَ لها والشمسُ والبدرُ منها الدهرَ فى الرَّقِمِ

٥ وأخذه منه البحتريُّ[٣] فقال :

ولستَ ترى شَوْكَ القتادةِ خائفاً سَمُومَ الرِّياحِ الآخذاتِ مِنَ الرَّنْدِ

ولا الكلبَ محموماً وإنْ طالَ عُمْرُهُ ألاَ إنَّما الحُمَّى عَلَى الأُسْدِ الوَرْدِ

وبيتُ البحتريِّ الأخيرُ من قولِ حبيبٍ[٤] أيضاً :

فإنْ تكُ قد نالتْكَ أطرافُ وَعْكَةٍ فلا عجبٌ قد[٥] يُوعَكُ الأسدُ الوَرْدُ

١٠ وأخذه الأمير شمسُ المعالي ، وننشدُ القطعةَ بجملتها :

قلْ للَّذِى بصرُوفِ الدَّهْرِ عيَّرنَا : هلْ عاندَ الدهرُ إلَّا مَنْ له خَطَرُ ؟[٦]

أما ترى البحرَ تطفو فوقه جِيَفٌ وتستقرُّ بأقصَى قعرِه الدُّرَرُ ؟

فإنْ تكُنْ عَبِثَتْ أيدِى الزَّمانِ بنا ونالنا من تمادِى بؤسِه ضررُ

ففى السماء نجومٌ ما لَها عددٌ وليسَ يُكسَفُ إلّا الشمسُ والقمرُ

١٥ ومعنَى بيتِ شمسِ المعالِى الثانِى من متداولاتِ المعانِى ، منها قولُ ابنِ الرومِى :

---

(١) فى ب ، ت ، لب ، وه : « ومنه قول أبى تمام وقد تقدم إنشاده » ، ولكن يسبق ذكر لهذه الأبيات

(٢) راجع ديوان أبى تمام ص ٢٨٠ (٣) راجع ديوانه (ج ١ ص ١٣٩)

(٤) راجع ديوان أبى تمام ص ١١١ (٥) ب ، ت ، لب ، وه : «أن»

(٦) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ب ، لب ، ت

دَهْرٌ علا قَدْرُ الوضيعِ به / وغدا الشريفُ يحطُّه شرفُهْ

كالبحرِ يرسُبُ فيه لؤلؤُهُ / سفلًا وتطفو فوقَهُ جيفُهْ

وقد كرّرهُ ابنُ الرومى فى مواضع ، منها قوله :

قالتْ: علَا الناسُ إلَّا أنتَ، قلتُ لها : / كذاكَ يسفُلُ فى الميزانِ ما رجحا

وقال المتنبّى[1] : ٥

ولو لم يعْلُ إلَّا ذو محلٍّ / تعالَى الجيْشُ وانحطَّ القتَامُ

وقولُ ابنِ زيدُون : «فى حضرةٍ غابَ صرفُ الدّهرِ[2] خشيتَه» ، البيت ، مع الّذى بعدَه ، لم يُخْلِه من بَرْد ، ولا أقامَهُ على ساقِ نقد ، وخيْرٌ منهما ما وُصف من خبرِ التاجر[2] مع أبى دُلَفٍ وقد مرّ به فى مكان ، فوطِئَ له طرَفَ طيلسَان ، فقال له : يا أبا دُلَف ، ليسَ هـذا كرَجَك ، هذه حضرةُ أميرِ المؤمنين ، الشاةُ والذئبُ يشربَان فيها من إناء[3] واحد . ومنَ اللفظِ المليح ، الطيارِ الخفيفِ الرُّوح ، فى هذا المعنى قولُ ابنِ عمّار : ١٠

وألّفَ بينَ الظّبْىِ والذئبِ عَدْلُه[4] / فلا تجزَعِى إنْ زارَ ربعكِ ذِيبُ

وقال من أخرى وهو أيضاً بتلك الحالِ من الاعتقال[5] :

ألم يأْنِ أنْ يبكِى الغمامُ على مِثلى[6] / ويطلبَ ثارِى البرْقُ مُنصلتَ النّصْلِ ؟ ١٥

وهلّا أقامتْ أنجمُ الليلِ مأتمًا / لتندُبَ فى الآفاقِ ما ضاعَ من نُبْلِى !

فلو أنصفتْنِى وهْىَ أشكالُ هِمّتى / لألقتْ بأيدِى الذُّلِّ لمّا رأتْ ذُلّى

---

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٤٠) (٢—٢) ط فى ب ، ت ، لب

(٣) ب ، ت ، لب ، ط : « ماء » (٤) ب ، ت ، لب ، ط : « عفوه »

(٥) ب ، ت ، لب ، ط : « وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو فى تلك الحال من الاعتقال أولها » (٦) ر : « الحمام على قتلى »

ولافترقتْ سَبْعُ الثُّريَّا وغاظَها[١] بمجْمَعِها[٢] مافرّق الدهرُ من شملِي
لعَمْرُ الليالِي إنْ يكنْ طالَ نزْعُها[٣] لقد قرطَستْ بالنَّبلِ فى مَقْتَلِ النُّبلِ
تَحلَّتْ بآدابى وإنَّ مآربى لسانحةٌ[٤] فى عَرْضِ أمنيّةٍ عُطْلِ
أُخَصُّ لفهمى بالقِلَى ، وكأنَّما يَبِيتُ لذى الفهمِ الزمانُ عَلَى ذَحْلِ
٥ وأُجْفَى عَلَى نظمِى لِكلِّ قلادةٍ مُفَصَّلةِ السِّمطيْنِ بالمنطقِ الفصْلِ
ولوأنّنى أسطيعُ ـ كَىْ أُرضِىَ العِدَا ـ شَرَيْتُ ببعضِ العلمِ حَظًّا من الجَهْلِ
أمقتولةَ الأجفانِ مالكِ وَالِهاً ألم تُرِكِ الأيامُ نجماً هَوَى قبْلِى ؟
أَقِلِّى بكاءً لستِ أولَ حُرَّةٍ طَوَتْ بالأسَى كَشحاً على مَضَضِ الثُّكلِ
وفى أمِّ موسَى عِبْرةٌ إذ رَمتْ به إلى اليَمِّ فى التَّابوتِ فاعتبرِى وَاسْلِى
١٠ ولله فينَا عِلْمُ غيبٍ وحسْبُنا به عند جَوْرِ الدّهرِ من حَكَمٍ عدْلِ
وإنَّ رجائِى فى الهُمامِ ابنِ جَهْور لَمستحكِمُ الأسْبابِ مُستحصِدُ الحبلِ[٥]
كريمٌ عريقٌ فى الكرامِ وقلّما يُرَى الفرعُ إلاَّ مُستمِدًّا من الأصْلِ
يَرِفُّ على التأميلِ لألاءُ بشرِهِ كما رَفَّ لألاءُ الحسامِ على الصَّقْلِ
ويَغْنَى عن المدْحِ اكتفاءً بسَرْوِهِ غِنَى المقلةِ الكحلاءِ عن زينةِ الكُحْلِ
١٥ أبا الحزْمِ إنِّى فى عتابكَ مائلٌ على[٦] جانبٍ تأوِى إليه العُلا سَهْلِ
حمائمُ شُكرِى صَبَّحتكَ[٧] هوادِلاً تناديكَ من أفنانِ آدابِىَ الهُدْلِ
جَوادٌ إذا استَنَّ الجِيادُ إلى مَدًى تمطَّرَ فاستولَى على أمَدِ الخَصْلِ

---

(١) ب ، ت ، لب ، وه : « وغاضها » (٢) ب ، لب ، وه : « بمطلعها »
(٣) وه : « عمرها » (٤) وه : « لسارحة »
(٥) ب ، ت ، لب ، وه : « الفتل » (٦) وه : « إلى »
(٧) ب ، ت ، لب ، وه : « سبحتك »

ثَوَى صافِناً فى مَرْبِطِ الهُونِ يشتكى | بتصْهالِه ما نالَهُ من أذى الشَّكْلِ
أأنْ زَعَمَ الواشُون ما ليسَ مَزْعَماً | تُعذِّرُ فى نَصرِى وتَعْذِرُ فى خَذْلِى؟
ولم أستَثِرْ حَرْبَ الفِجارِ ولم أُطِعْ | مُسَيْلِمَةَ إذْ قالَ : إنِّى من الرُّسْلِ
وإنِّى لتنْهانِى نُهاىَ عن التى | أشارَ بها الواشِى ويعقِلُنى عقلِى
أأنقضُ فيكَ المدحَ من بعدِ قوّةٍ | فلا أقتدى إلاّ بناقضةِ الغَزْلِ؟ ٥
هى النَّعْلُ زلَّتْ بى فهلْ أنتَ مُكْذِبٌ | لقيلِ الأعادِى : إنها زَلَّةُ الحِسْلِ [1]
ألا إنَّ ظَنِّى بينَ فِعْلَيْكَ واقفٌ | وُقوفَ الهَوَى بينَ القطيعةِ والوصلِ [2]
وإلاّ جنيتُ الأنسَ من وحْشةِ النَّوَى | وهَوْلِ السُّرَى بينَ المطيَّةِ والرَّحْلِ
سَيُغْنَى بما ضَيَّعْتَ منِّىَ حافظٌ | ويُلْفَى [3] لما أرخصْتَ من خطرى مُغْلِى
وأينَ جوابٌ منكَ ترْضَى به العُلا | إذا سألتْنِى عنكَ ألسِنةُ الحَفْلِ؟ ١٠

ومعنى هذا البيتِ الأخيرِ كقولِ الآخر [4] :

فاختَرْ لنفسِكَ ما أقولُ ، فإنَّنى | لا بُدَّ أُخبِرُهمْ وإنْ لمْ أُسْألِ

[5] وقوله : « ثَوَى صافناً فى مَرْبِطِ الهُونِ » كقولِ المتنبى [6] :

وإن تكنْ مُحكَماتُ الشُّكْلِ تمنعُنِى | ظهورَ جَرْىٍ فَلِى فيهنَّ تَصْهالُ [5]

---

(١) لم يقع هذا البيت فى د

(٢) يلى هذا البيت فى الديوان (ص ١١٧) بيت نثبته هنا لتمام المعنى وهو :

فإن تمن لى منك الأمانى فشيمة | لذاك الفعال القصد والخلق الرَّسل

(٣) ت ، لب ، د : « ويلق »

(٤) ب ، ت ، د ، لب : « وهذا مأخوذ من قول الآخر »

(٥—٥) د فى ر (٦) راجع ديوانه (ج ٢ س ١٩٦)

قال القسطلّى[1]:

وَذُو غُرَّةٍ مَعْرُوفةِ السَّبْقِ فى المدَى ... وقدقرِحَ[2] التحجيلُ من ألمِ الشُّكْلِ[1]

وقوله: «ويغنَى عن المدحِ اكتفاء بسرْوِهِ» ، البيت ، معنًى متداوَل ومنه[3] قولُ القائل :

٥ وأعشقُ كَحْلاء المدامِعِ خِلْقَةً ... لِئَلاَّ تُرَى فى عَيْنِها مِنَّةُ الكُحْلِ

وفى بَنِى جَهْوَرٍ يقول :

بَنِى جهْوَرٍ أحرقْتمُ بجفائِكُمْ ... جَنانِى فما بَالُ المدائحِ تَعْبَقُ ؟

تَعُدُّونَنِى كالمَنْدَلِ الرَّطْبِ[4] إنما ... تطيبُ لكُم أنفاسُه حينَ يُحْرَقُ

وأراهُ توارَد فى هذيْن البيتين مع أبى علىّ ابن رشيق القيرَوانِى حيثُ يقول :

١٠ أراكَ اتَّهمتَ أخاكَ الثِّقَهْ ... وعندَكَ مقتٌ وعندِى مِقَهْ

وَأُثْنِى عليْكَ وقدْ سؤْتَنِى ... كما طَيَّبَ العُودُ مَنْ أحْرَقَهْ

وأخذاه معًا من قولِ أبى تمام[5] :

لولاَ اشتِعَالُ النارِ فيمَا جاوَرَتْ ... ما كانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وأنشَدنِى بعضُ أهلِ وقْتِنا وهو أبو مرْوانَ ابنُ شَمَّاخٍ لنفسِه :

١٥ نوائبُ غالَتْنِى فأبْدَتْ فضائِلِى ... فكانتْ وكُنْتُ النَّارَ والعَنبرَ الورْدَا

ولغيره :

إن مسَّتِ النارُ جِسْمِى ... أبدَيْتُ طِيبَ نَسِيمِ

(١—١) د ف ر (٢) ب ، ت ، لب : « مدح » — د : « برح »

(٣) ب ، ت ، لب ، د : « وينظر إليه »

(٤) ب ، ت ، لب ، د : « كالعنبر الورد » (٥) راجع ديوانه ص ٧٨

كالدَّهْرِ إنْ عَضَّ يَوْمًا أَبَانَ فَضْـــلَ الـكَرِيمِ

وأبو الوليد ابنُ زَيْدُون على كَثيرِ إحسانِه كَثيرُ الاهْتِدام ، فى النِّثارِ والنِّظَام .

وكتبَ إلى الأديب أبى بكرِ ابن مُسْلم وهو مُخْتَفٍ بقرطبة بعد فِرَارِه من السجن رقعةً يقول فيها(١) :

٥

أبدأُ أوَّلاً بشَرْحِ الضَّرورَةِ الحافزَةِ إلى ما صَنعْتُ ، إذْ بلغَنى أنكَ أحدُ اللَّائِمِينَ لى عليـه ، ومن أمثالهم : ويلٌ للشَّجِىِّ من الخَلِىِّ ، وهَانَ عَلَى الأَمْلَسِ مالاَقَى الدَّبِرِ . وأعاتبُكَ عَلَى انفصالِكَ عَنِّى ، و براءَتِكَ أَمَدَ المحنةِ مِنِّى ،(٢) عسَى أنْ تتلافَى عَوْداً ما أضعْتَ بدْءا ، وإنْ كنتَ فى ذلك كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأَدِيمُ ، ومنفَعَةُ القُوتِ قبلَ العَطَب ، وفى علمِكَ أنى سُجِنْتُ مغالبةً بالهوى ، وهو أخو العمى ، وقد نهى عنـه تعالى فقال : « ولا تَتَّبِـعِ الهَوَى فيُضِلَّكَ عنْ سَبِيلِ اللهِ »(٣) الآية . وشهِدَ علىَّ فلانٌ الناشرُ أذنيه طَمَعًا ، ليأكل بيديْهِ جَشَعًا ، قال ، وكانَ القولُ ما قالتْ حَذَام . وليتَ مع قبولِ منْ لا تُجهل شهادتُه علىَّ بُعْد رُقِيِّه إلىَّ ، ولم يُقْرَن الحشَفُ بسوءِ الـكِيلَة . وكنتُ أولَ حبسِى بموضعٍ جرَتِ العادةُ فيه بوضع مسْتورِى الناس وذوى الهيئات منهم ، وفى الشرِّ خيار ، و بعضُه أهونُ من بعض . ثم نُقِلتُ بعدُ إلى حيثُ الجناةُ المفسدُون ، واللصُوصُ المقيَّدُون ، ومُنِـعَ مِنى عُوَّادِى ، فشكوتُ إلى الحاكم الحابسِ لى ، فصَمَّ عنى ، ولو ذَاتُ سِوارٍ لطمتْنِى !

١٠

١٥

وإنَّكَ لم يفخَرْ عليْكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ، ولم يغلِبْكَ مثلُ مُغَلَّبِ(٢)

(١) ه ، ب ، ت ، لب : « فصلا من رقعة »

(٢—٢) ه فى ب ، ت ، لب ، ه (٣) راجع سورة ٣٨ : ٢٦

فلم أستَطِعْ صَبْرًا ، وعلمتُ أن العاجزَ مَن لا يستَبِدُّ ، والمرء يعجزُ لا المحالة ، ولم أستجزْ أن أكونَ ثالثَ الأذلّين : العَيْرِ والوَتِد . وذكرتُ أن الفِرار من الظلم ، والهربَ ممّن لا يطاق ، من سُنَنِ المسلمين ، وقد قالَ تعالى على لسان موسى : « فَفَرَرْتُ منكمْ لما خِفتُكمْ »(١) فنظرتُ فى مفارَقةِ الوطن إذ قديمًا ضاعَ الفاضِلُ فى وطَنِه ، وكَسَدَ العِلْقُ الغبيطُ فى مَعْدِنِه ، كما قال :

أَضِيعُ فى مَعْشَرِى وكَمْ بَلَدٍ ... يعُودُ عُودُ الكِباء من حَطَبِهْ

واستَخَرْتُ اللهَ فى إنفاذِ العَزْم ، وأنا الآنَ بحيث أَمِنتُ بعضَ الأَمْن ، إلّا أنَّ السعْىَ لم يرتفِعْ ، ومادةَ البغْىِ لم تنقطعْ . وختم رسالته بهذا النَّظم :

شحَطْنا وما لِلدّارِ نأْىٌ ولا شَحْطُ ... وشَطَّ بمَن نَهْوَى المزارُ وما شَطُّوا

أأحبابنا ! ولَتْ بحادثِ عهدِنا ... حوادثُ لا عهدٌ عليها ولا شرْطُ(٢)

لعمرُكمُ إنَّ الزمانَ الّذى قضَى ... بشَتِّ جميعِ الشَّملِ منّا لَمُشْتَطُّ

وما شوْقُ مقتولِ الجَوانحِ بالصَّدَى ... إلى نطفةٍ زرقاءَ أضْمرَها وَقْطُ

بأبرحَ مِن شوقِى إليكم ودونَ ما ... أُريدُ المُنَى منه القتادةُ والخَرْطُ

وفى الرَّبْرَبِ الإنسِىِّ أحْوَى كِناسُه ... نَواحى ضميرى لا الكثيبُ ولا السِّقْطُ

ألا هَلْ أتَى الفتْيانَ أنَّ فتاهمُ ... فريسَةُ من يعدُو ونُهْزَةُ من يَسْطو ؟(٣)

وأنَّ الجوادَ الفائتَ الشأْوِ صافِنٌ ... تخوّنَهُ شَكْلٌ وأزْرَى به رَبْطُ ؟

عليكَ أبا بكرٍ بكرْتُ بهِمّةٍ ... لهَا الخطَرُ العالِى وإنْ نالها حَطٌّ

أبِى بعدَ ما هِيلَ التُّرابُ عَلَى أبِى ... ورهْطِى فَذًّا حينَ لَمْ يَبْقَ لِى رهْطُ

لكَ النِّعمةُ الخضْراءُ تَنْدَى ظِلالُها ... علىَّ ولا جَحْدٌ لدىَّ ولا غمْطُ(٤)

---

(١) راجع سورة ٢٦ : ٢١

(٢) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ر

(٣) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ر

(٤) هذا البيت ناقص فى ر

ولولاكَ لم تُقْدَحْ [١] زِنادُ قريحتى فينْتَهِبَ الظلماءَ من نارِها سِقْطُ
هرِمْتُ وما للشَّيبِ وَخْطٌ بمَفْرِقى ولكنْ لشَيبِ الهَمِّ فى كبدِى وَخْطُ
وطَاوَلَ سُوءُ الحالِ نفسِى فأذْكَرَتْ من الروضةِ الغناءِ طاولَها القحْطُ
ولما انْتَحَوْنى بالّتى لسْتُ أهلَها ولم يُمْنَ أمثالِى بأمثالِها قطُّ
فرَرْتُ ، فإنْ قالوا : الفرارُ إرابَةٌ ، فقدْ فرَّ موسَى حين هَمَّ به القِبْطُ ٥
وإنّى لَراجٍ أن تعُودَ كبدئها لِىَ الشيمةُ الزَّهْراءُ والخُلُقُ السَّبْطُ
فما لكَ لاَ تختصُّنِى بشفاعَةٍ يلُوحُ على دهْرِى لِميسَمِها عَلْطُ ؟

كأنَّ أوّلَ هذه القصيدةِ ناظرٌ إلى قولِ راشد أبى حَكيمةَ حيث يقول [٢] :

ومستوحِشٍ لم يُمْسِ [٣] فى أرضِ غُرْبةٍ ولكنَّه ممَّنْ يُحِبُّ غريبُ

وقال الآخر [٤] : ١٠

فلا تحسَبِى أنَّ الغريبَ الّذى نأى ولكنَّ من تنأيْنَ عنه غريبُ [٤]

ويناسبُه أيضاً قولُ المتنبِّى [٥] :

إذا ترحَّلْتَ عنْ قومٍ وقد قدَرُوا ألَّا تُفارِقَهم فالرَّاحلونَ هُمُ

وقوله : « هرِمْتُ وما للشَّيْبِ » ، البيت ، ناقصٌ عن قولِ المتنبى [٦] :

إلَّا يَشِبْ فلقَدْ شابَتْ له كَبِدٌ شَيْبًا إذا خضَبَتْهُ سَلْوةٌ نَصَلا ١٥

[٧] وقوله : « وإنَّ الجَوادَ » ، كقولِ أبى الطيّبِ [٨] أيضاً :

---

(١) ر : « تثقب » — ب ، ت ، لب : « تنفث »

(٢) كذا فى الأصول ، وهو فى نفح الطيب (ج ١ ص ٦٢٩) : « ابن أبى حكيمة راشد بن إسحق الكاتب »

(٣) ب ، ت ، ه ، لب : « يمس » (٤ — ٤) ه فى ب ، ت ، لب ، ه

(٥) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٦٥) (٦) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٢١)

(٧) من هنا إلى قوله : « شكالا » فى الصفحة التالية س ٥ ناقص فى ر

(٨) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٤٠٢)

وما فى طِبِّـهِ أنّى جَوادٌ   أضَرَّ بجِسْمِه طُولُ الجَمام

وقد كرّر هذا المعنَى أبو الطيبِ فى مواضِعَ من شعرِه ، وكلِفَ به وشُغِف ، وصرّفَ الكلامَ فيهِ فتصرّف ، وقد تقدَّم إنشاده . ومنه أيضاً قولُ عبد الجليلِ المُرْسى للمُعْتمِدِ بن عبّاد :

٥ أتتكَ عَلَى خلائقِها جِيادٌ   وإنْ كانَ الضَّياعُ لَها شِكالَا

وكتبَ من سجنه إلى أبى حفص ابن بُرد[1] :

ما عَلَى ظَـنِّىَ بَاسُ   يَجْرَحُ الدّهْرُ ويَاسُو
رُبَّمـا أشْرَفَ بالمرْ   ءِ عَلَى الآمالِ يَاسُ
ولقَـدْ يُنجيكَ إغْفَا   لٌ ويُرْدِيكَ احتِرَاسُ
١٠ والمَحاذِيرُ سِهـامٌ   والمقادِيرُ قِيـاسُ
يا أبَا حفصٍ ومَا سا   وَاكَ فى فَهْمٍ إيَاسُ
مِنْ سَنَا رأيِكَ لِى فى   ظُلَمِ[2] الخَطْبِ اقْتبَاسُ
ووِدَادِى لكَ نَصٌّ   لم يخالِفْهُ القِيَـاسُ
أذْؤُبٌ هَامَتْ بِلحْمِى   فَانْتِهـامٌ وانتِهَاسُ
١٥ كلُّهُم يسْـألُ عنْ حا   لِى ولِلذِّئْبِ اعْتِسَاسُ
يَلْبُدُ الوَرْدُ السَّبَنْتَى   ولَهُ بعْـدُ افتِرَاسُ
إن أكُنْ أصبحْتُ مَحْبُو   سًا فلِلغَيْثِ احتِبَاسُ
فتأمَّلْ كيفَ يَغْشَى   مُقْلةَ المجـدِ النُّعاسُ
ويُفَتُّ المِسْكُ فى التُّرْ   بِ فيُوطَا ويُدَاس

(١) راجع ديوان ابن زيدون ص ١

(٢) ب ، ت ، ه ، لب : « غسق »

لا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إنَّ عَهْدِى لكَ آسُ
وأَدِرْ ذِكْرِىَ كاسًا ماامْتطَتْ كفَّكَ كاسُ
فعسَى أَنْ يُسْمِحَ الدَّهْرُ فقَدْ طَالَ الشِّماسُ

قولُه : « يَلبُدُ الوَرْدُ السَّبَنْتى » ، البيت ، كقول النَّابغة[١] :

وقلتُ : ياقَوْمِ إنَّ الليثَ منقبِضٌ علَى براثنِهِ للوثبةِ الضَّارِى ٥

وأخذَه ابنُ الرومى فقَال :

سكنتَ سُكونًا كان رَهْنًا بوثْبَةٍ عَمَاسٍ ، كَذَاكَ الليثُ للوثبِ يَلبُدُ

وقولُه : « لا يكُنْ عهدُكَ وَرْدًا » من قولِ العباسِ بنِ الأحْنف[٢] :

لا تجعلِى وصلَنا كالوَرْدِ حينَ مضَى ذَا طَلْعَةٍ وأديمِى الودَّ كالآسِ

وكرَّرَه العباسُ[٣] فى موضعٍ آخرَ فقال : ١٠

ولكنَّنِى شَبَّهتُ بالوَرْدِ عهدَها وليسَ يدُومُ الوَرْدُ والآسُ دائمُ

ما أخرجْتُه من شعرِ ابن زيْدُون فى النَّسيبِ وما يُناسبُه .

قال من قصيدة طويلة :

بِنْتُم وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنا شوقًا إليكمُ ولا جفَّتْ مآقِينا
لم نعتقِدْ بعدَكم إلا الوفاءَ لكم رأيًا ، ولم نتقلَّدْ غيرَه دِينا ١٥
نكادُ حينَ تناجيكمْ ضمائرُنا يقضِى علينا الأسَى لولا تأسِّينا
حالت لفقدِكُمُ أيامُنا فغدَتْ سُودًا وكانت بكم بيضًا لياليِنا

(١) راجع العقد الثمين ص ١٤ (٢) لم يقع هذا البيت فى ديوانه
(٣) راجع ديوانه ص ١٣٩

إذْ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا ... ومَوْرِدُ اللهوِ صافٍ من تصافينا[1]

وإذ هصرْنا غصونَ الوصْلِ دانيةً ... قطوفُها[2] فجنيْنا منه ماشِينا

لِيُسْقَ عهدُكمُ عهدُ السُّرورِ فما ... كنتمْ لأيَّامِنا إلا رياحِينا

لا تحسَبُوا نأْيَكم عنَّا يغيِّرُنا ... إنْ[3] طالما غيَّرَ النأىُ المُحبِّينا

٥ واللهِ ما طلَبتْ[4] أهواؤُنا بدلاً ... منكمُ ، ولا انصرفَتْ عنكم أمانِينا

ياساريَ البرقِ غادِ القصْرَ فاسْقِ به ... من كانَ صِرفَ الهوَى والودِّ يَسْقِينا

ويا نَسيمَ الصَّبا بلِّغْ تحيَّتَنا ... مَنْ لَوْ على البعد حَيًّا كانَ يُحيينا

ربيبُ مُلكٍ كأنَّ اللهَ أنشأَهُ ... مسكاً وقدَّر إنشاءَ الورَى طينا

إذَا تأوَّدَ آدتْه رَفاهِيَةً ... تُومُ العُقودِ وأدْمَتْهُ البُرَى لِينا

١٠ كانتْ له الشَّمسُ ظِئْرًا فى أَكِلَّتِهِ ... بلْ ما تجلَّى لها إلا أحايينا

يا رَوْضَةً طالما أجْنَتْ لواحظَنا ... وَرْدًا جلاه[5] الصِّبا غضًّا ونَسرينا

ويا حيَاةً تملَّيْنَا بزهْرَتِها ... مُنًى ضرُوبًا ولذاتٍ أفانِينا

لسْنا نسمِّيكِ إجلالاً وتكرِمَةً ... وقدرُكِ المُعتلِى عن ذاكَ يُغنِينا

يا جنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنا بسلْسَلِها ... والكوثرِ العذبِ زَقُّومًا وغِسْلينا

١٥ كأنَّنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا ... والسَّعدُ قد غَضَّ من أجفانِ وَاشِينا

سِرَّانِ فى خاطرِ الظَّلْماءِ يكتُمُنا ... حتَّى يكادَ لِسانُ الصبحِ يُفشِينا

---

(١) هذا البيت والأبيات الأربعة التى تليه ناقصة فى ر

(٢) ب ، ت ، لب : « قطوفه » (٣) ر : « إذ »

(٤) ب ، ت ، لب : « طرقت »

(٥) ر : « جناه »

إنَّا قرأنا الأسَى عندَ النَّوى سُوَرًا — مكتوبةً وأخذنا الصبرَ تلقينا(١)

أمَّا هواكِ فلم نَعدِلْ بمنهلِه — شِربًا ، وإنْ كان يُروينا فيُظمِينا

لم نَجفُ أُفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُه — سالِين عنه ، ولم نهجُرْه قالِينا

ولا اختيارًا تجنَّبناه(٢) عن كثَبٍ — لكنْ عدَتْنا على كُرهٍ عَوادِينا

نأسَى عليكِ وقد حُثَّتْ مُشعشَعةً — فينا الشَّمولُ وغنَّانا مُغنِّينا

لا أكؤسُ الرَّاحِ تُبدِى من شمائلنا — سِيَما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تُلهينا

دُومى علَى الوصلِ ــ ما دُمنا ــ محافظةً — فالحُرُّ من دانَ إنصافًا كما دِينا(٣)

فما استعَدْنا(٤) خليلا عنكِ يصرفُنا — ولا استفدْنا حبيبًا عنكِ يُسلينا

ولَو صَبا نحوَنا من عُلْوِ مطلعِه — بدرُ الدُّجى لم يكنْ ــ حاشاكِ ــ يَسبينا(٥)

أبْلِى(٦) وفاءً وإنْ لم تبذُلِى صلةً — فالذِّكرُ يُقنِعُنا والطَّيفُ يكفِينا

وفى الجوابِ متاعٌ إن شفعتِ بهِ — بيضَ الأيادِى التى مازلتِ تُولِينا

عليكِ منِّى سلامُ الله ما بقيتْ — صبابةٌ بكِ نُخفِيها فتُخفِينا(٧)

وهذهِ القصيدةُ بجملتِها فريدة ، وقد عارضَه فيها جماعةٌ قصَّروا عنه ، منهم أبو بكر ابن المِلْح(٨) ، فإنه نازعهُ فيها الراية ، فقصَّر عنِ الغاية ، حيثُ يقولُ من قصيدةٍ أوَّلُها :

هلْ يسمعُ الربعُ شكْوانا فيُشكِينا — أو يَرجِعُ القول مَغناهُ فيُغنِينا

(١) لم يقع هذا البيت فى ر (٢) ب ، ت ، ه ، لب : « تجنبناك »

(٣) لم يقع هذا البيت والذى يليه فى ر (٤) فى الديوان ص ٨ : « استعضنا »

(٥) لم يقع هذا البيت إلا فى ه (٦) ه : « أبدى » — وفى الديوان : « أبكى »

(٧) لم يقع هذا البيت إلا فى ه

(٨) كذا فى جميع النسخ ، وفى نفح الطيب (ج ٢ ص ٣٥٠) : « الملاح »

ثم استمرّ فى غزلها واسْحَنْفَرَ فقال :

يا باخِلِينَ علينا أنْ نودِّعَكم ... وقد بَعُدتم عن اللُّقيا فحيُّونا
قِفوا نَزُرْكُمْ وإن كانتْ فوائدُكم ... نَزْرًا ومنكمُ بالوصلِ ممنونا[١]
ستَرْتمُ الوصلَ ضِنًّا لا فَقدتُكمُ ... فكانَ بالوهْم موجوداً ومظنُونا
٥ سرى من المسكِ عن مَسراكمُ خبرٌ ... يُعيدُ عهدَ هواكمُ نشرُهُ فِينا
أيامَ بدرُكمُ يُحيى[٢] ليالِينا ... قُرْبًا[٣] وظَبْيُكم[٤] يرْعى بوادِينا
مهلًا فلم نعتقدْ دينَ الهوى تبعًا ... ولا قرأْنا صحيفَ[٥] الحُسنِ تلقينا

ومنها :

قد نصرِفُ القولَ[٦] يُغوينا ويُرشِدُنا ... ونترُكُ الدارَ تُشْجينا وتُسْلِينا
١٠ ونَتبعُ الحيَّ والأشواقُ محرِقةٌ ... نحومُ بالماءِ ، والأرماحُ تحْمينا
كواكبُ فى سَماءِ[٧] النَّقْعِ قد جُعِلَتْ ... لنا رُجُومًا وما كنّا شياطِينا

قولُ ابنِ زيدُون : « وإنْ كانَ يُروِينا فيُظْمِينا » معنى متداوَل[٨] ، ومن أشهرِه قولُ ابن الرُّومى :

ريقٌ إذا ما ازددتُ من شُربِهِ ... رِيًّا ثنانى الرِّىُّ ظمآنا
١٥ كالخمرِ أروَى ما يكونُ الفتَى ... من شُرْبِها أعطشَ ما كانا

وقال ابن الرومىّ أيضاً فيما يناسبُه[٩] من بعض الوجوه[٩] :

---

(١) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ر (٢) ه : « يجلو »
(٣) ه : « نورا » (٤) ر ، ب : « طيبكم » (٥) ه : « بصحف »
(٦) ب ، لب : « العذل » (٧) ب ، ت ، لب ، ه : « بسماء »
(٨) ر : « كثير » (٩—٩) ه فى ر

يا ربَّ ريقٍ باتَ بدْرُ الدُّجى يَعُـلُّه[1] بينَ ثنـايا كَا
يرْوِى ولا ينْهاكَ عن شربهِ والماءُ يُرويكَ وينْهاكَا

وأشبهُ به ما أنشده الثَّعالبى :

كرُضابِ الحبيبِ يشفِى عَليلًا ثم يُنشِى إلى المزيد غَليلَا

وقوله : « يسرَّانِ فى خاطرِ الظَّلْماء » ، البيت ، [2]مما زادَ فيه لمليح ٥
الاستعارةِ على قولِ أبى الطيِّب[3] :

أزورُهم وسوادُ الليـلِ يشفع لِى وأنثنِى وبياضُ الصبحِ يغْرِى بى[2]

على أن أبا الطيِّبِ أجاد فيه [4]وكرره فى مواضعَ من شعرِه كقوله[5] :

وكم لظلامِ الليلِ عندكَ من يدٍ تخـبِّرُ أنَّ المـانَويَّةَ تـكذِبُ

وإنمـا[4] أخذهُ من مصراعٍ لابنِ المعتز[6] حيثُ يقول : ١٠

* فالشمسُ نمَّامَةٌ والليلُ قوَّادُ *

وكلٌّ مَنْ إلى هذا المعنى أشار ، فحَوالَى المثلِ دار ، [7]وهو قولهم[7] : الليل أخفى للويل .

وله من أخرى : فى أثرِ نزهةٍ كانتْ له بمدينةِ[8] الزَّهراء :

إنى ذكرتكِ بالزَّهراءِ مُشتاقَا والأُفقُ طَلْقٌ ومرأى[9] الارضِ قد رَاقَا ١٥

(١) ب ، ت ، لب ، ه : « يمجه » (٢ — ٢) ه فى ب ، لب ، ه
(٣) راجع ديوانه (ج ١ ص ١١٥) (٤ — ٤) ه فى ر
(٥) راجع ديوان المتنبى (ج ١ ص١٢٤) (٦) راجع ديوانه ص ٩٦
(٧ — ٧) ه فى ر (٨) ب ، ت ، لب ، ه : « بعنية »
(٩) ه : « ووجه »

وللنسيمِ اعتِـــلالٌ فى أصائلِه كأنه[1] رقَّ لِى فاعتلَّ إشفاقَا

والروضُ عنْ مائه الفضّىّ مبتسمٌ كما حلَلْتَ عنِ اللّبَاتِ أطْواقَا

لا سكّنَ اللهُ قلباً عقَّ ذكرَكم فلمْ يطِرْ بجناحِ الشوقِ خفّاقَا

لو شاءَ حملى نسيمُ الرّيحِ حين سَرى وافاكُمُ بفتًى أضْناهُ ما لاقَى

٥ ياعِلْقِيَ الأخطرَ الأسْنَى الحبيبَ إلَى قلْبِى إذا مَا اقتَنى الأحبابُ أعلاقَا

الآنَ أحمدَ مَا كُنَّا لعهدِكُمُ سَـــلوتُم و بقِينا نحنُ عشّاقَا

قوله : « وللنسيمِ اعتلالٌ فى أصائلِه » ، البيت ، أراهُ ألمَّ فيه بقولِ ابنِ المعتز[2] :

والريحُ تجذِبُ أطرافَ الثيابِ كما أفضى الشفيقُ إلى تنْبيهِ وسنانِ

١٠ وقلبَه الرّضِىُّ فقال :

وأمْستِ الريحُ كالغَيْرَى تجاذِبُنا على الـكثيبِ فضولَ الرّيْطِ واللِّمَمِ

وأحسَبُ الفرزدَقَ أبا عُذْرتِه ، وواسمَ غُرَّته ، بقوله[3] :

وركبٍ كأنَّ الريحَ تطلبُ عندَهم لها تِرَةً من جذْبِها بالعَصائبِ

ومدَّ أطنابَ المعنى بالبيتِ الآخرِ حيثُ يقولُ[3] :

١٥ سَرَوْا يخْبطُون الريحَ وهْى تلفُّهُمْ إلى شُعَبِ الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ

وقوله : « سلوتُمُ و بقيناَ نحنُ عُشّاقا » يناسبُ قولَ الآخر :

أشكُو الّذِينَ أذاقونِى مودّتَهُمْ حتى إذَا أيقظُونِى للهوَى رقدُوا

قال ابن بسام : والشيْ يذكرُ بالشيْ و إن لم يكنْ من المنهاج ، ولا بُدَّ مع ذِكرِ المعترِضَاتِ من المعَاج .

٢٠ قرأت فى كتاب أخبار بغداد لابن طاهر : قال محمد بن عَبدوس الفارسى :

---

(١) ب : « كأنما » (٢) راجع ديوانه ص ٦٨

(٣) راجع ديوان الفرزدق ص ١٣٣

سرتُ يوما إلى ابن الجَهْمِ فأنشدنى لنفسه فى العناقِ :

أَلا ربَّ ليــــلٍ ضَمَّنا بعد هجعةٍ وأدنى فؤادًا من فؤادٍ مُعَذَّبِ
وبتْنا جميعًا لو تُراقُ زجاجةٌ مِن الراحِ فيما بيننَا لم تَسَرَّبِ

فاقتَدَح زَنْدِى لإيراء[1] مثلِه ، فأطرقتُ وقلتُ :

لا والمَنَازِلِ مِنْ نَجْـدٍ وليلتِنا بفَيْدَ إذ جسَدَانَا بيننا جَسدُ
كم رامَ فينا الكَرَى فى لُطفِ مَسْلكهِ[2] يومًا فما انفَكَّ لا خدٌّ ولَا عضُدُ
ما أنصفُونِى ، دعَوْنِى فاستجبتُ لهم حتى إذا قرّبونِى منْهمُ بعـدُوا

أردتُ هذا البيت

وقولُه : «ولو شَاء حَمْلِى نسيمُ الريح» ، البيت ، كقولِ المجنونِ وهو أحسنُ ما قيل فى النحافةِ ، على زعم[3] المبرد :

إلا إنمـا غادَرْتِ يا أُمَّ مالكٍ صدًى أينما تذهبْ بهِ الريحُ يذهبِ

وقال المتنبى[4] :

كفَى بجسمِى نحولاً أننى رجلٌ لولا مخاطبتى إيّاكَ لم ترنِى

وقال الخبزأرْزى :

أنحلَــنى الحبُّ فــلو زُجَّ بِى فى مقـــلَةِ النائِم لم ينْتَبِهْ

وله من أخرى ، وكتب بها من بَطَلْيوس[5] أيام تكرُّرِه عليها[5] ، وهى من غُررِ نظامِه ، وحُرِّ كلامه :

---

(١) ب ، ت ، لب : « بإيراد » (٢) د : « قد »
(٣) ب ، ت ، لب : « قول » (٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٤٣٤)
(٥ــ٥) د فى د

يادمعُ صُبْ إن شِئْتَ[1] أنْ تَصُوبَا ويا فؤادى آنَ أنْ تذُوبَا

إنَّ الرَّزَايا أصبحَتْ ضُروبَا لم أرَ لِى فى أهلِها ضَريبَا

قــد ملأَ الشوقُ الحشا نُدُوبَا فى الغَربِ أنْ رُحتُ به غريبَا

عليلَ دهرٍ ضامنى[2] تعذيبَا أدنى الضَّنى إذ أبْعــدَ الطَّبيبَا

٥ ليتَ القَبولَ أحدَثتْ هُبوبَا ريحٌ يَرُوحُ عهــدُها قريبَا[3]

بالأُفُقِ المُهــدِى إلينا طِيبَا تعطَّرتْ منــه الصَّبَا جُيُوبَا

يَبْرُدُ حَرَّ الكَبدِ المشبُوبَا يا مُتْبِعًا إسْــآدَه التأوِيبَا

مشرِّقًا قد سَــئِم التغْريبَا أما سَمِعْتَ المثلَ المضروبَا:

أرسِلْ حليماً ، واستشِرْ لبيبَا إذا أتيْتَ الوطنَ الحَبيبَا

١٠ والجانبَ المستوضَحَ العجيبَا والحاضرَ المنفسِحَ الرحيبَا

فَحَىِّ منه ما رأى[4] الجَنُوبا مصانعٌ تُجاذِبُ القــلوبَا

حيث أَلِفتُ الرشأَ الرَّبيبَا[5] مُخالِساً فى وصــلِهِ الرقيبَا

كم بات بدرِى ليلَه الغِربيبَا لما انثَنَى فى سُكرِه قَضيبَا

يَشْدُو حمامُ عِقْــدِهِ تطريبَا هصرتُه حُلْوَ الجنَى رطيبَا

١٥ أرشُفُ منــه المبسِمَ الشَّنيبَا حتى إذا ما اعْتَنَّ لِى مُريبَا

شــبابُ أُفْقٍ همَّ أنْ يَشيبَا بادرتُ سَعْيًا هل رأيتَ الذِّيبَا ؟

أهاجِرِى أمْ مُوسِعِى تأنيبَا من لم[6][7] أُسِغ من بَعْدِه مَشرو بَا

---

(١) ب ، ت ، لب ، ه : « ماشئت »

(٢) ب ، ت ، لب ، ه : « رامنى » — وفى ديوان ابن زيدون ص ١٩ : « سامنى »

(٣) لم يقع هذا البيت فى ه

(٤) ه ، ب ، ت ، لب : « ما أرى »

(٥) ب ، لب ، ه : « اللبيا »

(٦) من هنا إلى آخر الأرجوزة ناقص فى ر

(٧) فى الأصول : « مالم »

ما ضرَّهُ لو قالَ : لا تثْريبًا فلا ملامَ لحق المغــلوبا[1]

قــد طالَ ما تجرَّمَ الذُّنوبَا ولم يدَعْ فى العُــذْرِ لى نصيبًا

إنْ قرّتِ العينُ بأن أؤوبا لم آلُ أنْ أسترضِىَ الغضُوبَا

قد ينفع المذنبَ أنْ يتُوبَا

قوله : « هلْ رأيتَ الذّيبا؟ » أخذه من قول الراجز يصفُ لبنًا ممذوقا : ٥

* جاءوا بضَيْحٍ[2] هل رأيتَ الذئْبَ قط ؟ *

وهذا التشبيهُ عند أهلِ النقدِ نوعٌ من أنواعِ الإشارةِ ، لأنه أشار إلى تشبيهِ لوْنه بالماء الذِى غلَب على اللبن فصار كلون الذئب .

وقال من أخرى :

وضَح الحقُّ المبينُ ونفَى الشكَّ اليقينُ ١٠

ورأى الواشُون ما غرَّ تْهُمُ مِنهُ الظنُونُ

أمّلوا[3] ماليس يُمْنَى ورجَوْا ما لَا يكونُ

وتمنَّوْا أن يَخُونَ الْ عَهْدَ موْلًى لا يخونُ

فإذا الغيبُ سليمٌ وإذا الودُّ مصونُ

قلْ لمَنْ دان بهجرِى وهـــواهُ لىَ دينُ : ١٥

يا جـوادًا بِىَ إنى بكَ وَاللهِ ضَـنِينُ

أرخصَ الحبُّ فؤادِى لكَ والعِلْقُ ثمـينُ

يا هـــلالًا تتراءا هُ نفوسٌ لا عُيونُ

عجبًا للقلبِ يقْسُو منكَ ، والقدُّ يلينُ

---

(١) ب ، و : « لحق القلوبا » (٢) و : « بمذق »

(٣) كذا فى الديوان ص ٣٩ ، وفى جميع النسخ : « أمنوا »

ما الذى ضرك لو سُرِّ م بمرآكَ الحـــزينُ ؟
وتلطفتَ بصبٍّ[1] حَيْنُه فيـكَ يحينُ
فوجوهُ اللفظِ شـتَّى والمعـاذيرُ فنونُ

وقال أيضاً :

٥ صَحَّتْ فصَحَّ بها السَّقيمْ ريحٌ معطَّرةُ النَّسيمْ
مقبولةٌ هبت قبُو لاً فهْى تَعبَقُ بالشَّميمْ
إيهاً أبَا عبــدِ الإلـ ـهِ نداءَ مغْلوبِ العَزيمْ
إن عيلَ صبرِى من فرا قِكَ فالعـذابُ به أليمْ
اللهُ يعــلَمُ أنَّ حُبْ بَكَ من فؤادِى فى الصميمْ
١٠ ولئِنْ تحمَّلَ عنكَ بى جسْمٌ فعَنْ قلبٍ مقيمْ
قل لى : بأىِّ خِلالِ سَرْ وِكَ قبلُ أُفتَنُ أَوْ أَهيمْ
أبمجدِكَ العَمِمِ الَّذِى نَسَقَ الحديثَ مع القديمْ ؟
أم بالبــدائعِ كاللآ لِى من نَثيرٍ أو نظيمْ ؟
إنْ أَشْمَسَتْ منكَ[2] الطّلا قةُ فالنَّدى عَنْها[3] مُغيمْ
١٥ وبلاغةٍ إنْ عُدَّ[4] أهْـ لُوها فأنتَ لهمْ زعيمْ[5]
إنَّ الذى قسم الحظو ظَ حباكَ بالحظِّ العظيمْ

قوله : « ولئن تحمّل عنك بى جسم » ، البيت ، معنًى مشهورٌ أُنشدتُ فيه لبعضهم :

---

(١) ب ، لب ، ور : « لصب » (٢) ب ، ت ، لب ، ور : « تلك »
(٣) ب ، ت ، لب ، ور : « منها »
(٤) فى الأصل : « حان » والتصحيح عن الديوان ص ٣٧
(٥) لم يقع هذا البيت والذى يليه إلا فى ر

أقولُ لَه حينَ ودَّعْتُه وكلٌّ بَعَبْرتِه مُلْبَسُ :
لئن رجَعَتْ عنْكَ أجسامُنا لقد سافرتْ معَكَ الأَنفُسُ

وفى قريبٍ منْه ، وإنما أنْشَدتُه لحُسْنِه ، ولكون هذا المعنى فرعًا من غصنِه ، قولُ الآخر :

حملتُكَ فى قلبِى ، فهلْ أنتَ عالمٌ بأنكَ محمولٌ وأنت مقيمُ ؟ ٥
ألَا إن شخْصًا ، فى فؤادِى محلُّه وأشتاقه ، شخْصٌ علىَّ كريمُ

وقال أيضاً :

يا ليلُ طُلْ لا أشتهِى إلاَّ كعهْدِ[1] قصَّرَكْ
لو بات عنـدى قمرِى ما بِتُّ أرعَى قمَرَكْ

وقال أيضا : ١٠

ودَّعَ الصبرَ[2] محبٌّ ودَّعكْ ذائعٌ منْ سِرِّه ما استودَعكْ
يقرَعُ السِّنَّ على أنْ لم يكنْ زادَ فى تلكَ الخُطَى إذْ شيعَكْ
يا أخا البـدرِ سَنَاءً وسَنًا حفِظَ[3] اللهُ زمانًا أطلعَكْ
إن يطُلْ بعدكَ ليـلِى فلكَمْ بتُّ أشكو قِصرَ الليلِ معَـكْ !

وقال : ١٥

بينِى وبينَك ما لو شئتَ لم يضِـعِ سِرٌّ إذا ذاعتِ[4] الأسرَارُ لم يَذِعِ
يا بائعًا حَظَّهُ منِّى ولوْ بُذِلتْ لِى الحياةُ بحظِّى منه لم أبِـعِ
يكفيكَ أنك إن حمَّلتَ قلبىَ ما لا تستطيعُ قلوبُ الناسِ يستطِعِ

---

(١) م : « إلا كعمرى » — وفى الديوان ص ٢٧٢ : « إلا بوصل »
(٢) ب ، ت ، ر ، لب : « الحسن »
(٣) ب : « رحم »
(٤) ب ، ت ، لب : « ضاعت »

تهْ أحْتَمِلْ، واستطِلْ أصْبِرْ، وعِزَّ أهُنْ ووَلَّ أُقبِلْ، وقُل أسمعْ، ومُرْ أُطِعِ

أراهُ احتذَى فى هذا البيتِ مذهبَ أبى العمَيْثَل الأعرابى :

فاصدُقْ وعِفَّ وفِهْ وأنْصِفْ واحتمِلْ واصْفَحْ[1] ودارِ وكافِ واحلُم واشجُعِ

والطُفْ ولِنْ وتأنَّ واحْـلُمْ واتَّئِدْ واحزِم وجِدَّ وحامِ واحْمِل وادفعِ

٥ وكقولِ ديكِ الجن :

احْلُ وامْرُرْ، وضُرَّ وانفعْ، ولِنْ واخْشُنْ، ورِشْ وابْرِ[2]، وانتدِبْ للمعالى

وهذا البابُ صنعَه المولَّدون وعدُّوه تقسيما وتقطيعًا[3] وتبعهُم المتنبى[4] فقال :

أقِلْ أنِلْ اقطع احمِلْ علِّ سَلِّ أعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ

ثم زاد أبو الطيبِ فى هذا وتباغضَ حتى قال :

١٠ * عِشِ ابقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِ فِ اسْرِ نَلْ *

بيتَه المعروفَ، وأحسنَ لعمرى ابنُ زيدونَ فى هـذا التقسيمِ ودفعَ[5] بالحديثِ فى صدرِ القديم، ولو قُرِعَ سمعُ أبى منصورِ، بما فى[6] تضاعيف هذا التصنيفِ من الشذور، لما كان عنده ابنُ وَشْمَكِير بمذكور، ولا أغْرَبَ بغرائبِ الصاحبِ، ولا ببديعِ البديع .

١٥ ومن شعرِ ابن زيدونَ فى النسيب، السائرِ الغَريب[7]، الطيَّار المليح، الخفيف الرُّوح، قولُه[7] :

---

(١) د، لب، مه : « واصلح » (٢) ب، لب : « ورش وابن »

(٣) د، ب، لب : « وتعظيما » (٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٧٣)

(٥) ب، ت، لب، مه : « ودافع »

(٦) د : « على ما فى » — ب، ت، لب : « بمثل هذه الشذور »

(٧—٧) مه فى د

أمّا رضاكَ فشىءٌ ما لهُ ثمنُ ... لو كان سامحنى فى ملكه الزمنُ
تبكى فراقكَ عينٌ أنتَ ناظرُها ... قدلجَّ فى[1] هجرِها عن هجرِكَ الوسَنُ
إنَّ الزمانَ الذى عهدِى به حَسَنٌ ... قدحالَ مذ غابَ عنى وجهُكَ الحسنُ
واللهِ ما ساءنى أنى خفيتُ ضَنًى ... بل ساءنى أنَّ سرّى فى الهوى العلنُ[2]
لو كانَ أمرىَ فى كتمِ الهوى بيدِى ... ما كان يعلمُ مافى قلبىَ البدنُ ٥

وهذا البيتُ الأخير ، إلى مَعْنى صريعِ الغوانى يشير[3] :

فقلتُ : قلبى مكاتمٌ جسدِى ... ولو دَرى لم يقُمْ به السِّمَنُ

وهذا البيتُ الرابع منها ناظرٌ إلى قولِ الآخر :

واللهِ ما جزَعِى نفسِى و إن هلكت ... وإنما جَزَعِى ما سَرَّ حُسَّادِى

وقال من أخرى : ١٠

أنتِ معْنى الضَّنَى وسِرُّ الضُّلوعِ ... وسبيلُ الهوى وقصدُ الدموعِ
أنتِ والشمسُ ضَرّتان ، ولكن ... لكِ عندَ الغروبِ فضلُ الطلوعِ
ليس بالمؤيِسِى تكلُّفُكِ العتـ ... ـبَ دَلالًا من الرِّضا المطبوعِ
إنما أنتِ ، والحسودُ مُعَنًّى ، ... كوكبٌ يستقيمُ بعدَ الرجوعِ

وقال أيضاً : ١٥

غريبٌ بأرضِ الشرقِ يشكرُ للصَّبَا ... تحمُّلَها منّى[4] السلامَ إلى الغربِ
وما ضرَّ أنفاسَ الصَّبا فى احتمالِها ... سلامَ فتًى يُهديه جسمٌ إلى قلبِ

وهذا منقولٌ من قولِ العباس بن الأحنفِ حيث يقول :

تاللهِ ما شطَّتْ نوًى ظاعنٍ ... سَارَ منَ العينِ إلى القلبِ[5]

(١) ر : « من » (٢) ب ، ت ، لب ، ه : « علن »
(٣) راجع ديوانه ص ١٤٢ (٤) ر : « منا »
(٥) لم يقع هذا البيت فى ديوان العباس

وقال أيضاً :

سأحبُّ أعدائى لأنكَ منهمُ   يا مَنْ يُصِحُّ بمقلتيه ويُسقِمُ
أصبحتَ تُسخِطُنِى وأمنحكَ الرضا   جوْرًا وتظلِمُنِى ولا أتظلَّمُ
يا من تألَّف ليلُه ونهارُه   فالحُسْنُ بينهما مُضىءٌ مظلِمُ
٥ قد كان فى شكوَى الصَّبابةِ راحةٌ   لو أننى أشكو إلى مَنْ يَرْحَمُ

أولُ مصراعٍ من هذه المقطوعة مقتطَعٌ من قولِ أبى الشِّيص :

أشبهتِ أعدائى فصرتُ أحبُّهم   إذْ كانَ حظى منكِ حظِّى منْهمُ

وكذلك قوله فيها : « يا من تألَّف ليلُه ونهارُه » ، البيت ، مقتضَبٌ من قول أبى الطيب[١] :

١٠ الحزنُ يُقْلِق والتجلّدُ يردَعُ   والدمعُ بينهما عَصِىٌّ طَيِّعُ

ما أخرجتُه من شعرِ ابن زيدونَ فى المديح مع ما يتشبَّث به من سائر الأوصاف .

قال من قصيدة[٢] :

أما فِى نسيمِ الريحِ عَرْفٌ مُعرِّفُ   لنا،هَل لذاتِ الوقْفِ بالجزْعِ موقفُ[٣]
١٥ فنقْضِىَ أوطارَ المُنَى من زيارةٍ   لَنَا كلفٌ منها بما نتكلَّفُ
ضَمانٌ علينا أنْ تُزارَ ودُونَها   رِقاقُ الظُّبَا والسَّمهرِىُّ المثقَّفُ
وقومٌ عِدًى يبدُون عن صفحاتهم   وأَزْهَرُها من ظلمةِ الحقدِ أكلَفُ

(١) راجع الديوان (ج ١ ص ٤٣٠) (٢) راجع ديوانه ص ٢٣
(٣) الأبيات الخمسة الأولى ناقصة فى ر

يودُّون لو يَثنى الوَعيدُ[١] زِمَاعَنا[٢] ... وهيهات ريحُ الشوقِ من ذاك أعْصَفُ
وفى السِّيَرَاءِ الرَّقْمِ وسْطَ قِبابِهِم ... بَعيدُ مَناطِ القُرطِ أحورُ أوطَفُ
وليلةَ وافَيْنَا الكثيبَ لموعِدٍ ... سُرى الأَيْمِ لم يُعْلَمْ لمسراهُ مزحَفُ
تَهادَى أناةَ الخطوِ مرتاعةَ الحَشَا ... كما رِيعَ يَعفورُ الفَلا المتشوفُ
فما الشمسُ رقَّ الغيمُ دونَ أياتِها ... سِوى ما أرى ذاكَ الجَبينُ المنصَّفُ[٣] ٥
قَعيدَكِ أنَّى زُرْتِ ، نُورُكِ فاضحٌ ... وعِطرُكِ نمّامٌ ، وحَلْيُكِ مُرْجِفُ
هَبيكِ اغْتَرَرْتِ الحىَّ واشيكِ هاجعٌ ... وفرعُكِ غِرْبيبٌ ، وليلُكِ أغضفُ
فأنَّى[٤] اعتسَفْتِ الهولَ خطوُكِ مُدمَجٌ ... وردْفُكِ رَجْراجٌ وخَصرُكِ مُخْطَفُ
لجاجٌ تمادى الحبُّ فى المعشرِ العِدَا ... وأُمُّ الهوَى الأُفْقَ الذى فيه نُشْنَفُ[٥]
كفانا من الوصْلِ التحيةُ خُلْسَةً ... فيوميُّ طرفٌ أو بنَانٌ مُطرَّفُ ١٠
وإنِّى لَيَسْتَهْوِينىَ البرقُ صَبوةً ... إلى برقِ ثغرٍ إن بدَا كادَ يخطفُ
وما ولَعِى بالراحِ إلا توهُّمٌ ... لَظَلْمٍ به كالراحِ لو يُترَشَّفُ
ويُذكِرُنى العِقدَ المرنَّ جُمانُهُ ... مُرِنّاتُ وُرْقٍ فى ذُرَى الأيكِ هُتَّفُ
فما قبلَ مَنْ أهوَى طوَى البدرَ هَوْدجٌ ... ولا ضمَّ رِئمَ القفرِ خِدرٌ مسجَّفُ
ولا قبلَ عبّادٍ حوى البحرَ مجاسٌ ... ولا حمَلَ الطودَ المعظَّمَ رفرفُ ١٥

وهذا بيتُ القسطلِّى بجملتِهِ حيث يقولُ[٦] فى ابن أبى عامرٍ[٦] :

(١) ب ، ت ، لب ، ط : « البعيد » ، والتصحيح عن الديوان
(٢) ط : « زمامها » (٣) لم يقع هذا البيت فى ر
(٤) ب ، ت ، لب : « وكيف » (٥) لم يقع هذا البيت فى ر
(٦—٦) ط فى ر

وكيفَ اسْتوى بالبَرِّ والبَحرِ مجلسٌ وقامَ بعِبْءِ الراسِياتِ سَريرُ؟

وفيها يقولُ ابنُ زيدُون :

هو الملِكُ الجَعْدُ الذى فى ظِلالهِ تُكَفُّ صرُوفُ الحادثاتِ وتُصرَفُ(١)
رَوِيَّتُهُ فى الحادثِ الإدِّ لحظَةٌ وتوقيعُه الجالى دُجَى الخطبِ أحْرُفُ
٥ طلاقَةُ وجْهٍ فى مضاء كمِثْلِ ما يرُوقُ فِرِنْدُ السيفِ والحدُّ مُرْهَفُ
عَلَى السَّيفِ من تلكَ الصرامةِ ميسَمٌ وفى الرَّوْضِ من تلكَ اللطافةِ(٢) زُخرفُ
أظَنَّ الأعادِى أنَّ حزمَكَ نائمٌ ؟ لقد تَعِدُ الفَسْلَ الظنونُ فتُخلِفُ(٣)

ومنها :

ولما قَضينا ما عَنانا أداؤه وكلٌّ بما يُرضِيكَ داعٍ فمُلحِفُ
١٠ رأيناكَ فى أعْلَى المصَلَّى كأنما تطلَّعَ من محرابِ داودَ يوسُفُ
ولما حضرْنا الإذْنَ والدَّهْرُ خادمٌ تُشِيرُ فيُمضِى والقَضاءُ مُصرِّفُ
وصلْنا فقبَّلْنا النَدَى منكَ فى يَدٍ بها يُتلَفُ المالُ الجسيمُ ويُخْلَفُ
ولولاكَ لم يَسْهُلْ من الدَّهرِ جانبٌ ولا ذَلَّ مُقْتادٌ ولا لانَ مَعْطِفُ(٤)
لكَ الخيرُ أنَّى لى بشكرِكَ نهضَةٌ وكيفَ أُؤدِّى فرضَ ما أنتَ مُسْلِفُ؟
١٥ أَرَتْ بَهِيمَ الحالِ مِنِّىَ غُرَّةً يقابلُها طرْفُ الحسودِ فيُطْرَفُ

قولُه : «وما ولَعى بالرَّاح» ، البيت ، أراهُ قلبَ قولَ أبى الطيب(٥) :

وما شرَقى بالماءِ إلا تذكُّرًا لماء به أهلُ الحبيبِ نُزُولُ(٦)

---

(١) لم يقع هذا البيت فى ر (٢) ب ، ت : لب ، ده : «الطلاقة»

(٣) لم يقع هذا البيت فى ر (٤) لم تقع هذه الأبيات الثلاثة فى ر

(٥) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٧٩)

(٦) ب ، ت ، لب ، ده : «حلول»

وقوله : « ويذكرنى العِقْدَ المرنَّ » ، البيت ، نسخَهُ من قولِ أبى تمام[(١)] ونقصَ عنه :

وبالحَلْىِ إن قامت ترنَّمُ فوقَها ... حَمَامًا إذا لاقى حمامًا ترنَّما

وقولُه : « طلاقةُ وجهِهِ » ، البيت ، معنًى مشهور ، وهو فى شعرِهم كثير ، ومنه قولُ البحترى[(٢)] :

ويحسُنُ دَلُّها والموتُ فيـهِ ... كما يُستحسَنُ السَّيفُ الصَّقيلُ

وزادَ فيهِ بعضُ أهلِ عصرِى زيادةً مليحةً فقال :

مضاءٌ كحدِّ السَّيفِ لدْنًا مَهزُّهُ ... يكفكِفُه حِلْمٌ كحاشيةِ البُرْدِ

وقولُه : « ولما حضرْنا الإذْنَ » ، البيت ، مع الذى بعده ، أرى أبا الوليد احتذَى فيه حَذْوَ الوليد فى أبياتٍ أُنشِدُها لحسنِها ، وهى مِنْ أحسَنِ ما قيـل فى الهَيبة :

ولما حضرْنا سُدَّةَ الإذْنِ أُخِّرَتْ ... رجالٌ عن البابِ الذى أنا داخلُهُ[(٣)]

فأفضيتُ من قربٍ إلى ذى مَهابةٍ ... أقابلُ بدرَ التِّمِّ حين أقابلُهْ

كما انتصبَ الرُّمحُ الرُّدَيْنىُّ ثُقِّفَتْ ... أنابيبُهُ واهْتزَّ للطعنِ عاملُهْ

وكالبـدرِ وافتْهُ لِتِمٍّ سعودُه ... وتمَّ سَناهُ واستهلَّتْ منازلُهْ

فسلَّمْتُ فاعتاقتْ جَنانِىَ هَيبَـةٌ ... تنازِعُنِى القولَ الذى أنا قائلُهْ

فلما تأمَّلتُ الطلاقةَ وانثَنى ... إلىَّ ببشرٍ آنسَتْنِى مخـايلُهْ[(٤)]

دنوتُ فقبَّلْتُ الندَى من يدِ امرِئٍ ... كريمٍ مُحياهُ سِباطٍ أناملُهْ

صَفتْ ، مثلَ ما تصفُو المُدامُ ، خلالُهُ ... ورقَّتْ ، كما رَقَّ النسيمُ ، شمائلُهْ

---

(١) راجع ديوانه ص ٢٦١ (٢) راجع ديوانه ص ١٩٤

(٣) راجع ديوان البحترى (ج١ ص٣٣) (٤) لم يقع هذا البيت فى ر

وقول ابنِ زيدون : « وصلْنا فقبّلْنا النّدَى » ، البيت ، معنًى مليح ، ولفظٌ صحيح ؛ إلا أنه كما تراه ، لفظُ بيتِ البحتُرى ومعناه . ويقولُ بعضُ أدبائنا إن ابنَ زيدون بحترىّ زماننا وصدقوا ، لأنه حذَا حذْوَ الوليد إلا أن أبا الوليدِ فى بعضِ قصائدِه كابْنِ حُمَيدِ سعِيدٍ . وقال بعضُ أهلِ عصرِنا وهُو أبو محمد ابنُ سارةَ الشَّنْترِينى[١] من جملةِ أبيات[١] :

٥

وإنَّ فمِى يصافحُ راحتَيْه ... فيعرفُ فيهما عَرْفَ السِّيادَهْ

وقالَ بعضُ أهل العصر :

ولثَمْتُ يمناهُ فأعْيا حُسَّدِى ... أأنا لثمتُ العارِضَ المثعَنْجِرا ؟[٢]

وقال ابن زيدون[٣] من جملة قصيدة[٣] :

١٠ يأيُّها الملِكُ الذى تدبيرُه ... أضْحَى لمملكةِ الزمانِ مِلاكا[٤]

أَعْرِضْ عنِ الخطَراتِ إنكَ إنْ تَشا ... تكُنِ النجومُ أسنةً لقَناكا

هُصِرَ النَّعيمُ بعطفِ دَهْرِكَ فانثنَى ... وجرَى الفِرِنْدُ بصَفْحتَىْ دنياكا

دُنيا لزهرتِها شُعاعٌ مُذْهَبٌ ... لو كانَ وصفاً كانَ بعضَ حُلاكَا

فتجَلَّ[٥] فى فُرُشِ الكَرامةِ ناعمًا ... واعقِدْ بمرتبةِ السُّرورِ حُباكا

١٥ وأطِلْ إلى شَدْوِ القِيانِ إصاخةً ... وتلَقَّ مُتْرَعَةَ الكؤوسِ دِراكا

لكَ أرْيحيَّةُ ماجدٍ إنْ تعترِضْ ... فى لهْوِ راحِكَ تستهِلَّ[٦] لُهَاكا

مَن كانَ يعلَقُ فى خِلالِ نِدَامِه ... ذمٌّ ببعضِ خِلالِه فخَلاكا

(١—١) ب ف ر (٢) ب : « المتفجرا »

(٣—٣) ب ف ر (٤) راجع ديوان ابن زيدون ص ١٣٦

(٥) ب ، ب : « فتحل » (٦) ر : « تستمل »

أُسْبوعُ أُنسٍ محدثٌ لِى وحْشَةً علماً بأَنِّى لستُ فيــهِ أراكا[1]
وأنا المعذَّبُ غيرَ أنِّى مُشعَرٌ ثِقــةً بأنكَ ناعمٌ فهناكا
أنِّى أقومُ بشكرِ طَوْلِكَ بعدَ ما مَلأَتْ مِن الدُّنيا يدَىَّ يداكا !
بَرَدَتْ ظِلالُ ذَراكَ ، واحْلَوْلَى جَنَى نُعماكَ لِى ، وصفَتْ جِمامُ نداكا

وله من أخرى فى ابن جهور أوّلها[2] : ٥

هذَا الصَّباحُ على سُرَاكِ رقيبَا فَصِلِى بفرْعِكِ ليلَكِ الغِرْبيبَا
ولديكِ أمثالُ النجومِ قلائدٌ أَلِفتْ سماءكِ لَبَّةً وترِيبَا[3]

يقول فيها :

لِيَنُبْ عن الجوزاءِ قُرْطُكِ كلَّما جنحَتْ تَحُثُّ جَناحَها تغْرِيبَا
وإذا الوشاحُ تعرّضَتْ أثناؤه طلعَتْ ثُرَيَّا لم تكُنْ لتغِيبَا ١٠
ولطالما أبديْتِ[4] إذْ حَيَّيْتِنَا كَفًّا هى الكَفُّ الخضيبُ خضيبا
أظَنينةً[5] ، دعْوَى البراءةِ شأْنُها أنتِ العدوُّ ، فلِمْ دُعِيتِ حَبيبَا ؟[6]
ما الهَجْرُ إلا البَيْنُ إلا أنهُ لم يشْحُ فَاه بهِ الغُرابُ نَعِيبَا[7]

ومنها فى المدح :

مُتمرِّسٌ بالدهرِ يقعُدُ صرفُه إن قامَ فى نادِى الخطوبِ خطِيبَا[8] ١٥
لا يوسَمُ الرأىُ الفَطِيرُ بهِ ولَا يعتادُ إرسالَ الكلامِ قضِيبَا
بسَّامُ ثغرِ السِّنِّ إن عقَدَ الحُبَا فرأيتَ وضَّاحًا هُناكَ مَهِيبَا

---

(١) هذا البيت والأبيات التى تليه لم تقع فى ر (٢) راجع ديوانه ص ٦٩
(٣) لم يقع هذا البيت فى ر (٤) ب ، ت ، لب ، وه : «أحييت»
(٥) ت ، لب : «أضنينة» (٦) لم يقع هذا البيت فى وه
(٧) لم يقع هذا البيت فى ر ، وه (٨) لم يقع هذا البيت فى وه

مَلأ النـواظرَ صامتاً ولربّما ملأَ المسامعَ سائلًا ومُجيبَا
إنّ الجهاوِرَةَ الملوكَ تبوّءوا شرَفاً جرى معه السِّماكُ جَنيبَا
عِقْدٌ تألّفَ فى نظامِ رياسَةٍ نَسَقَ اللآلِئ مُنْجِباً ونجيبَا
فإذا دعوتَ وليدَهم لعظيمةٍ لبّاكَ رَقْرَاقَ السّماحِ أديبَا
٥ هِمَمٌ تعاقبها النجومُ وقد تلا فى سؤدُدٍ منها العقيبُ عقيبَا
ومحاسنٌ تَنْدَى رَقائِقُ ذِكْرِها فتكادُ توهِمكَ المديحَ نسيبَا
كانَ الوشاةُ، وقدمُنيتُ بإفْكِهِمْ، أسْباطَ يعقوبٍ وكنتُ الذِّيبَا

قوله: «فصِلِي بفرعِكِ ليلكِ الغربيبا»، من قول أبى الطيّب[1]:

كشفَتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرِها فى ليلةٍ فأرتْ ليالِيَ أربعَا

١٠ [2] وينظرُ إليه قولُ المعرّى[3]:

يودُّ أن ظلامَ الليلِ دامَ لهُ وزِيدَ فيه سوادُ القلبِ والبصرِ[2]

وقال التِّهامى[4]:

وتودُّ لو جَعلتْ سوادَ قلوبِها وسوادَ عينَيْها سوادَ عِذارِى

وقال محمد بن هانىء[5]:

١٥ قد أظلَموا بالدُّهْمِ منها فَجْرَهم فتكدّرتْ[6] شمسُ النهارِ تغضُّبا
واستأنفوا بشِياتِها فَجْراً فلَوْ عقدوا نواصيَها أعادُوا الغَيْهَبَا

وقوله: «فتكادُ توهِمُكَ المديحَ نسيبَا»، البيت، من قول حبيب[7]:

طابَ فيه المديحُ والتذَّ حتى فاقَ وصفَ الديارِ والتَّشْبِيبَا

---

(١) راجع ديوانه (ج ١ ص ٤٢٥) (٢ — ٢) ىه فى ر
(٣) راجع سقط الزند (ج ١ ص ٣١) (٤) راجع ديوانه ص ٣١
(٥) راجع تبيين المعانى ص ٧٣ (٦) ب، لب، ىه، ت: «فتكورت»
(٧) راجع ديوانه ص ٣٠

وقوله : « ملأ النَّواظِرَ صامتاً » ، البيت ، من قوله أيضاً :

فاسألنها[١] واجعلْ بُكاكَ جواباً تجِد الشَّوْقَ سائلًا ومُجيبا

وينظر إلى هذا المعنى مِن بعض الوجوهِ لفظُ أبى الطيب[٢] حيث يقولُ فى ابن العميد :

فدعاكَ حُسَّدُكَ الرئيسَ وأمسكُوا ودعاكَ خالقُك الرئيسَ الأكبَرا ٥

خلقَتْ صِفاتُك فى العيونِ كلامَه كالخَطِّ يملأ مِسْمَعَىْ مَنْ أبصَرا

ويلمحُ أيضاً هذا المعنى قولُ أبى نُوَاس ، على ما فسَّرَه بعضُ الناس :

* ألَا فاسْقِنى خمراً وقل لى : هى الخمرُ *

وهذا التَّفْسير فيه ، أضعفُ الوجُوه . وبيتُ ابن شَرَفٍ أشبهُ من هذا كلّه ببيت ابنِ زيدون ، وهو قولُه يمدح صاحب القَيْرَوان : ١٠

سَلْ عنْه ، وانطِقْ به ، وانظرْ إليه ، تجدْ مِلْءَ المسامعِ والأفـواهِ والمُقَلِ

وقال ابنُ زيدُونَ[٣] من أخرى :

أمَا وألحاظٍ مِراضٍ صِحَاحْ تُصْبِى[٤] ، وأعطافٍ نَشاوَى صَوَاحْ

لِفاتِنٍ[٥] بالحسْنِ فى خَدِّه وَرْدٌ ، وأثناء ثَنـاياهُ راحْ

لم أنْسَ إذْ باتَتْ يدِى ليلةً وشاحَـهُ اللاصقَ دُونَ الوِشَاحْ ١٥

لاضْـفِيَنَّ المرتضَى جَهْوَرًا عهدًا لروْضِ الحسنِ عنهُ افتضاحْ

بَشَّرَتْ آمالِى بتأميـلِه فما عَدَانِى منهُ فَوْزُ القِـدَاحْ

لم أشِمِ الـبرقَ جَهامًا ولم أقتَـدِحِ النارَ بزَنْدٍ شَحَاحْ

(١) فى جميع النسخ « اسألنها » ، والتصحيح عن الديوان .
(٢) راجع ديوانه (ج ١ ص ٣٦٧) (٣) راجع ديوانه ص ٨٩
(٤) ر : « تسبى » (٥) ب ، ت ، لب : « لبائن »

يا مرشِدى جهلًا إلى غيرِهِ أغنَى عن المصباحِ ضوءُ الصباحْ
ذو باطنٍ أُقبِسَ نورَ التُّقَى وظاهرٍ أُشرِبَ ماءَ السَّماحْ
إيهٍ أبا الحزمِ اهْتَبِلْ غِرَّةً أَلْسِنةُ الدَّهرِ عليها فِصاحْ (١)
لا طارَ لِى حَظٌّ إلى غايةٍ إن لم أكُنْ منكَ مَرِيشَ (٢) الجَناحْ
٥ عُتْباكَ بعد العَتْبِ أُمنيّةٌ مالِى على الدّهرِ سِواها اقْتِراحْ
لم يَثْنِنى عن أملٍ ما جرَى قد يُرْقَعُ الخَرْقُ وتُوسَى الجِراحْ
واشْفَعْ فللشافِعِ نُعْمَى بما سنّاهُ من عَقْدِ وثيقِ النَّوَاحْ
إنّ سحابَ الأُفقِ مِنها الحَيَا والحمدُ فى تأليفِها للرِّياحْ

قوله : « وشاحَه اللّاصِقَ » ، البيت ، معنى متداوَلٌ (٣) ، ومِنْ أقربِهِ
١٠ عصرًا قولُ النَّخْلِىِّ من أهلِ وقتِنا :

إن العزيزَ عَلَىَّ خَصْرُكِ إنّهُ بالرِّدفِ حُمِّلَ منهُ (٤) ما لا يَحمِلُ
فَخُذِى لَهُ جِسْمِى مكانَ وشاحِهِ إنّ العليلَ بشكلِهِ يتعلَّلُ

وقال ابنُ زيدونَ (٥) من أخرى فى بنى جَهْور عندَ نكبةِ بنى ذكوان :

لولا بنو جهْوَرٍ ما أشْرَقَتْ هِمَمٌ غِيدُ السَّوالفِ فى أجْيادِها تَلَعُ (٦)
١٥ قومٌ متى تَحْتَفِلْ فى وصْفِ سُؤدُدِهِم لا يأخذِ الوصفُ إلّا بعضَ ما يَدَعُ
أبو الوليد قد استوفَى مناقبَهُ فللتفاريقِ منها فيهِ مجتمَعُ

---

(١) هذا البيت إلى آخر القصيدة ناقص فى ر

(٢) د : « مراش » (٣) د فى ر

(٤) ب ، ت ، لب ، د : « منك » (٥) راجع ديوانه ص ١٣١

(٦) كذا فى النسخ ، ورواية الديوان :

لولا بنو جهور ما أشرقت همى كمثل بيض الليالى دونها الدرع
هم الملوك ملوك الأرض دونهم غيد السوالف فى أجيادها تلع

مهذَّب أخلصَتْه أوَّليَّتُه كالسيف بالغَ فى إخلاصِهِ الصَّنَعُ
إنَّ السيوفَ متى ما طابَ جوهرُها فى أوَّلِ الطَّبْعِ لم يعْلَقْ بها الطَّبَعُ
قل للوزير الذى تأميله وَزَرى إن ضاق مضطرَبُ أوْهال مُضْطلَعُ :[1]
أَصِخْ لهمْسِ عِتابٍ تحتَهُ مِقَةٌ تُكَلِّفُ النفسُ فيهِ[2] فوقَ ما تَسَعُ
ما للمِتاتِ الذى أحْصَفْتَ عقدتَه قد خامرَ القلبَ من تضْييعِه جزَعُ ؟ ٥
لاتستَجِزْ وضعَ قَدْرى بعدرَفْعِكَهُ فاللهُ لا يرْفَعُ القدرَ الذى تَضَعُ
إنَّ الأُلَى كنتُ من قبلِ افتضاحِهِمُ مثلَ الشَّجَى فى لَهاهُم ليس يُنتزَعُ[3]
تلكَ العرانينُ لم يصلُحْ لها شمَمٌ فكانَ أهونَ ما نِيلَتْ به الجدَعُ
أودعْتَ نعماكَ منهمْ شرَّ مُغترَسٍ لَنْ يَكْرُمَ[4] الغرسُ حتى تكرُمَ البُقَعُ[5]

قوله : « إن السُّيوفَ إذا ما طابَ جوهرُها » ، البيت ، ينظرُ من ١٠
لحظٍ[6] مُريب ، إلى قول حبيب[7] :

والسَّيفُ ما لمْ يُلفَ فيه صيقَلٌ من سِنْخِهِ لم يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

وله من أخرى يهنئ المعتضِدَ عبّاداً[8] بهزيمةِ ابنه إسماعيل لابن الأفطسِ ،
وقتْلِ ولدِ إسحاقَ بن عبدِ الله فى تلك الحرب[9] :

(١) هذا البيت ناقص فى ر ، وقد جاء فيها بعد البيت السابق لهذا : « ومنها فى عتابه أيضاً » ويلى ذلك : « أصخ لهمس عتاب » إلى آخر الأبيات

(٢) ب ، ت ، لب ، ه : « منه »

(٣) بعد هذا البيت فى الديوان :
لم أحظ إذ هم عدى باد نفاقهم إلا كما كنت أحظى إذ هم شيع

(٤) ب ، ت ، لب : « لم يكرم »

(٥) لم يقع هذا البيت فى ر

(٦) ب ، ت ، لب ، ه : « بلحظ »

(٧) راجع ديوانه ص ٢٣٥

(٧) ه فى ر

(٩) راجع ديوانه ص ٢١٦

لِيَهْنِ الهُدَى إنجاحُ سَعْيِكَ فى العِدَى ... وأَنْ راحَ صُنعُ اللهِ نحوكَ أو غَدَا[١]

وبشْراكَ دُنيا غضّةُ العَهْدِ طَلْقَةٌ ... كما ابتسمَ النُّوّارُ عن أدمعِ النَّدَى

دعوتَ فقالَ النصرُ: لَبَّيْكَ ماثلاً ... ولم تكُ كالدّاعِى يُجاوِبُهُ الصَّدَى

وأَحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فى دَرَكِ المُنَى ... كما بلغ السّارِى الصباحَ فأَحْمَدا[٢]

٥ ولما اعتمدْتَ[٣] اللهَ كنتَ مؤهَّلاً ... لديْهِ بأنْ تُحْمَى وتُكْفَى وتُعْضَدَا

وجَدْناكَ إنْ ألقحْتَ سعْيًا نَتَجْتَهُ ... وغيرُكَ شاوٍ حينَ أنضجَ رَمَّدَا

سَلِ الخائنَ المغْترَّ كيفَ احتقابُهُ ... مع الدهرِ عاراً بالفِرارِ مخلَّدَا

رأى أنه أضْحَى هِزَبْراً مُصَمِّماً ... فلم يعْدُ أن أمسَى ظَليماً مشرَّدَا

وهذا منقولٌ من قولِ أبى الطيب[٤]:

١٠ فأَتيتَ معتزِماً ولَا أَسَدٌ ... ومضيتَ منهزِماً ولَا وَعِلُ

رَجْع:

يودُّ إذا ماجَنَّهُ الليـــلُ أنَّهُ ... أقامَ عليهِ آخِرَ الدّهرِ[٥] سَرْمَدَا[٦]

لَبِئْسَ الوفاءُ اسْتَنَّ فى ابنِ عقيدهِ ... عشيةَ لم يُصْدِرْهُ مِن حيثُ أوْرَدَا

وأصبحَ يبكِيهِ المصابُ بثُكْلِهِ ... بُكاءَ لبيدٍ حينَ فارقَ أرْبَدَا

١٥ وكتب إلى المظفَّرِ سيفِ الدّولة أبى بكر ابن الأفطس من رقعةٍ وضَمَّنها قصيدةً أولُها[٧]:

---

(١) ب، لب، وه: «واغتدى» (٢) هذا البيت ناقص فى ر

(٣) ب، ت، لب، وه: «دعوت» (٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢١٩)

(٥) فى جميع الأصول: «آخر الليل» والتصحيح عن الديوان ص ٢١٩

(٦) لم يقع هذا البيت فى ر

(٧) هنا يبدأ خرم فى ر، وسننبه على رجع الكلام فيها بعد.

لبيضِ الطُّلَى ولسُودِ اللِّمَمْ   بعقلى — مُذْ بِنَّ عنّى — لَمَمْ :

لمّا لبِسَ الحاجبُ — أعزّه الله — رداءَ المجْدِ مُعْلَما ، وحَمَل لواءَ الحمدِ مُعْلَنا ، فاستطارَ بارقُ فَجرِه ، واستضَاعَ فائحُ ذكرِه ، وشُهِرتْ محاسنُه على كل لسان ، وسارتْ مآثرُه مسيرَ[1] الشمسِ بكلِّ مكان ، لِما سوّغَ من كَرَمِه ، وأسْبغَ منْ نِعمِه ، ووطّأَ للآملِين من أكنافِه ، وهزَّ إلى الراغبينَ من أعطافِه ، ورفرفتْ أجنحةُ الأهواءِ عليه[2] ، واهتزّتْ جوانحُ الآمالِ[3] إليه ، وكثر التغايُر على تفيُّؤِ ظِلِّه ، والتنافسُ فى الاعتلاقِ بحبلِه ، وكلٌّ استفرَغَ جَهْدَه ، وتوسلَ علَى حسبِ ما عندَه ، ولا غرْوَ أنْ[4] يُسْتمطرَ الغَمام ، [5]ويؤمّلَ الكِرام[5] ، ويكْثُرَ فى المشربِ العَذبِ الزِّحام .

وما زلتُ — أبقى الله الحاجبَ — أتلقّى من مساعِيه المشكورة ، ويقرَعُ سمعِى بمآثرِه المأثورَة ، ما هو أندَى من بلوغِ الأمل ، وأشهَى من اختلاسِ القُبَل ، وأغضُّ من جَنَىِّ[6] الزَّهَر ، وألطفُ[7] من نسيمِ السَّحَر ، حتى انقادَتْ نفسِى فى زمامِ التأميل والمودّة ، ونازعتْ إلى الأخذِ بحظٍّ من الاعتلاقِ والممازَجَة . ونظرتُ إلى ما دُونَ ذلكَ من أسبابِ البُعْدِ المانعة ، وامتدادِ البلادِ المعترضة ، فغضَضْتُ طرْفَ الخيْبة ، وطويْتُ كشْحًا على اليأسِ من دَرَكِ الأُمنيّة ، إلى أن ندَبَنى الأديبُ أبو فلان إلى مخاطبتِه ، وحرّضَنى على مكاتبتِه ، ونبّهَنِى على ما فى التثاقُلِ عنْ مُداخلته ، من التضْييعِ الصّريح ، والتقصيرِ البيِّن

(١) ب ، ت : « مسيرة »

(٢) فى الأصول : « إليه »

(٣) ب ، ت ، لب : « الأمل »

(٤) ب ، ت ، لب : « فى أن »

(٥—٥) ليس فى م

(٦) ب : « جناء »

(٧) ب ، ت ، لب ، م : « ما هو ألطف »

الصَّحيح ؛ إذ هي أسْنَى عِلْقٍ غُولِي به[١] ، وأنفسُ ذُخْرٍ نوفِسَ فيه . فطربْتُ إلى
ذلكَ « كما طرِبَ النشوانُ مالتْ به الخمر » ، واهتززْتُ له « كما اهتزَّ تحتَ البارحِ
الغُصنُ الرَّطْبُ » . ورأيتُ منْ شُكْرِ يَدِ العلياء فيما حَثَّني إليه ، وحضَّنِي عليه ،
مما فيه حِليةُ الفخر ، ومكرُمةُ الدهر ، أن أستفتِحَ بابَ المكاتبةِ بالشفاعة ، وأنهِجَ
٥ طريقَ المخاطبةِ في العنايةِ به ، وبينَنَا ، بَعْدُ ، من ذِمامِ الطلبِ ، وحُرمةِ
الودِّ والأدَب ، ما أستقْصِرُ نفسي معهُ أنْ تَقَدَّمَ[٢] في خدمَةِ رغبتِه قلمِي[٣] ،
وقد تأخرتْ قدَمِي ، ويُعَدَّ لاقتِصارِ بُغيتِه[٤] كتابي ، دون أن أزُمَّ إليه[٥]
رِكابِي ، وهو فتًى نامَ جَدُّهُ ، واستيقَظ حَـدُّه ؛ فتنكَّرَ الزمانُ له ، واعترَّتِ[٦]
الأيام به بين ذئابِ سِعايةٍ عوَتْ عليه ، وعقاربِ وِشايةٍ دبَّتْ إليه ، وأُصْلِيَ بنارِ
١٠ جرْبٍ لم يجْنِها ، وأعْدَتْه مبارِكُ جَرَبٍ[٧] التبَس بها[٧] ، وآلَ به الأمرُ إلى
فراقِ أحبَّتِه ، والبُعدِ[٨] عن مسقطِ رأسِه ، ومَعَقِّ تمـائِمه ، على ضيقِ حالِه ،
وضعفِ إحسانه . وأشهدُ أنَّ ذلكَ لم يزِد الحاجبَ إلاَّ ولاءً ، وعليه إلا ثناءً .
وأنه لا يزالُ يُعيدُ شكرَه ويُبديه ، وينشُرُ حمدَه ويَطْوِيه ، والحاجبُ — أدامَ
اللهُ إعزازَه — وَلِيُّ إعدائِه على زمنِه الغشُوم ، وأمْلا بإنصافِه من دهرِه الظَّلُوم ،
١٥ بإلباسِه من جميلِ رأيِه ما عُرِّيَ منه ، وإيرادِه منْ شريعةِ رضاهُ ما حُلِّئَ عنه ،
والتَّخلِيَةِ بينَه وبينَ الأفُقِ الَّذي لم يَرَ كوكبَ سَعْدٍ إلا فيه ، ولا تَلَقَّى نسيمَ

---

(١) في النسخ « فيه »
(٢) في جميع الأصول : « أتقدم »
(٣) هنا يبدأ خرم في لب
(٤) ب ، ت : « غيبته »
(٥) ب ، ت : « لذلك »
(٦) ب ، ت : « واعترت »
(٧—٧) لـه في له
(٨) ب ، ت : « وأبعد »

حياة[١] إلاَّ منه ، فإنه مِمَّا يُوليه[٢] من إحسانه ، ويأتيه من الفضلِ فى شانه ، مستجزلُ شُكرَ مَنْ أنْهضه لسان ، واستقلَّ به بَيان ، وهو أهْلُ الفضل ، والمَعْهودُ منه كرمُ الفِعل ، والله يُبقِيهِ ويُعْلِيه ، وهُو حَسبُه وحَسْبِى فيه .

ولما اطَّرَدَ هذا النثرُ لحسْنِ اتساقِه ، ولَذَّ مساقه ، هزَّت النَّظْمَ أريحيَّةٌ جَذَبَ لها بعِنانه ، وعارضَه بها فى مَيْدانِه ؛ وأَبَتْ أَنْ ينفرِدَ النَّثرُ بلقاءِ الحاجبِ ومشافهتِه ، ويستبدَّ بأَنْ تلمحَ غُرَّتَه ، وتخدُمَ بالحضُورِ حضْرتَه ، فأثبتُّ منه ما إنْ أنعَمَ عند تصفُّحِه بالصَّفْح عنِ الزَّلَل يعْرِضُ فيه ، والخللِ يبدو منه ، وصَلَ النِّعمةَ بمثلِها ، وقرَنَ العارِفَةَ بشكلها :

لِبيضِ الطُّلَى ولسُودِ اللِّمَمْ ... بعقْلِيَ — مُذْ بِنَّ عَنِّى — لَمَمْ[٣]

فَفِى ناظِرِى عن رشادٍ عمًى ... وفى أُذُنِى عن مَلامٍ[٤] صَمَمْ

قضَتْ بِشماسِى عَلَى[٥] العاذِلينَ ... شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بالظُّلَمْ

وما سقِمتْ لحظاتُ العُيو ... نِ إلَّا لتُغْرِيَنِى بالسَّقَمْ

يلومُ الخلِيُّ علَى أنْ أحِنَّ ... وقد مزَجَ الشَّوقُ دمْعِى بدَمْ

وما ذُو التذكُّرِ ممَّن يُلامُ ... ولا كَرَمُ العَهْدِ مِمَّا يُذَمّ

وإنِى أُراحُ إذا ما الجَنُو ... بُ راحتْ برَيَّا جنوبِ[٦] العَلَمْ

وأَصْبُو لِعرْفانِ عَرْفِ الصَّبَا ... وأَهْدِى السلامَ إلى ذِى سَلَمْ

ومنْ طَرَبٍ عادَ نحوَ البِرا ... قِ أَجْهَشْتُ للبَرْقِ حينَ[٧] ابتسَمْ

---

(١) فى جميع النسخ : « حياء » (٢) ه : « يؤلفه »
(٣) راجع ديوان ابن زيدون ص ١٢٢ (٤) ب ، ت : « ملامى »
(٥) ه : « عن » (٦) ب ، ت : « الجنوب »
(٧) ه : « لما »

أمَا وزمَانٍ مضَى عَهْـدُهُ حَميداً لقـد جارَ لمّا حَكَمْ
قضَى بالصّـبابةِ لمَّا انقضَى وما اتّصلَ الوُدُّ حتى انصرَمْ
ليـاليَ نامتْ عيونُ الوُشا ةِ عَنّا وعينُ الرِّضَـا لمْ تنَمْ
ومالَتْ علينا غُصونُ الهوَى فأَجْنتْ ثِمارَ الْمُنَى منْ أَمَمْ
٥ وأيامُنَا مُذْهَبـاتُ البُرودِ رقاقُ الحواشِي صَوافِي الأَدَمْ
كأَنَّ أبا بكْرٍ المسْلَمِيَّ أَجْرَى(١) عليْهَا فِرِنْدَ الـكرَمْ
وَوَشحَ زهرةَ ذاكَ الزمانِ بمـا حازَ مِنْ زُهْرِ تلكَ الشِّيَمْ
هو الحاجِبُ المعتلِي للعُـلَا شمـاريخَ كُلِّ مُنيفٍ أشَمّ
مَليكٌ إذَا سابقَتْهُ المـلوكُ حوَى الخَصْلَ ، أو ساهمتْه سَهَمْ
١٠ فأطْولُهـمْ بالأيادِي يداً وأثبتهمْ فى المعالِي قدَمْ
وأرْوعُ ، لا مُبْتَغِى رِفْدِه يخيبُ ، ولا جارُهُ يُهْتَضَمْ
ذَلُولُ الدّماثةِ صَعْبُ الإباءِ ثقيفُ العَزيمِ إذا ما اعتزَمْ
سَما للْمَجرَّةِ فى أفقِهـا فجرَّ عليهـا ذُيُولَ الهِمَمْ
وناصَتْ مساعيه زُهْرَ النُجومِ وبارَتْ عطاياهُ وُطْفَ الدِّيَمْ
١٥ نَهِيكٌ إذا جَن لَيلُ العَجاجِ سَرَى منه فى جِنْحِه بدْرُ تِمّ
فشامَ السُّيوفَ بهامِ الـكُماةِ وروَّى القنَا فى نُحُورِ البُهَمْ
جَوادٌ ذراهُ مَطَافُ العُفـاةِ ويُمناهُ رُكْنُ النّـدَى المُستلَمْ
يَهِيـجُ النِّزالُ به والسُّؤا لُ ليثاً هَصُوراً وبحراً خِضَمّ
شَهِدْنَا لَاوتِيَ فَصْلَ الخِطابِ وخُصَّ بفضْلِ النُّهَى والحِكَمْ
٢٠ وهلْ فاتَ شىءٌ من المكرُماتِ جَرَى السَّيفُ يطلُبُهُ والقلَمْ ؟

(١) م : « أدار »

وَمُسْـتَحْمِدٌ بكريمِ الفعا ... لِ عَفْوًا إذا ما اللّئيمُ استذَمْ
شمائلُ تهجرُ عنها الشَّمولُ ... وتُجْفَى لها مُشْجِياتُ النَّغَمْ
على الرَّوضِ منها رُواءٌ يروقُ ... وفى المسكِ طِيبٌ أريجٌ يُشَمْ
أبُوهُ الذى فَلَّ غَرْبَ الضَّلالِ ... ولاءَمَ شَعْبَ الهُدَى فالْتَأَمْ
ولاذَ بهِ الدِّينُ مُستعصِماً ... بذِمَّةِ أبلجَ وافِى الذِّمَمْ ٥
وجاهَدَ فى اللهِ حقَّ الجها ... دِ مَنْ دانَ مِنْ دُونه بالظُّلَمْ[1]
فلا سامِىَ الطَّرْفِ إلَّا أذَلَّ ... ولا شامِخَ الأنفِ إلا رَغَمْ
تَقَيَّلَ فى العِزِّ من حِمْيَرٍ ... مقاوِلَ عَزُّوا جميعَ الأمَمْ
همُ نعَشُوا المُلْكَ حتَّى استقلَّ ... وهمْ ظلَموا الخطْبَ حتى اظّلَمْ
نجومُ هُدًى والمعالِى بُروجٌ ... وأُسْدُ وَغًى والعوالِى أجَمْ ١٠
أبَا بكرٍ اسلَمْ عَلَى الحادثاتِ ... ولا زلْتَ من رَيْبِها فى حَرَمْ
أُناديكَ عن مِقَةٍ عَهْدُها ... كما وَشَّتِ الرَّوضَ أيْدِى الرِّهَمْ
وإنْ يَمْدُنِى عنكَ شحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أخَسُّ ونفسِى ظَلِمْ
وإنِّى لأُصْفِيكَ مَحْضَ الهوَى ... وأُخفِى لبُعدِكَ بَرْحَ الألَمْ
ومستشفِعٍ بِىَ بشَّرْتُهُ ... على ثقةٍ بالنَّجاحِ الأتَمّ ١٥
وغيرُكَ أخْفَرَ عهدَ الذِّمامِ ... إذا حُسْنُ ظَنِّى عليهِ أذَمّ
وقِدْمًا أقلْتَ مُسِىءَ العِثارِ ... وأحسَنْتَ بالصفحِ عما اجترَمْ
وعندِى لشكرِكَ نظمُ العُقودِ ... تناسَقُ فيها اللآلِى التُّوَمْ
تُجِدُّ لفخرِكَ بُرْدَ الشَّبابِ ... إذا لبسَ الدهرُ[2] بُرْدَ الهَرَمْ

(١) كذا فى جميع النسخ ، وفى الديوان ص ١٢٧ : « بالصنم »

(٢) ى : « المرء »

فعِشْ مُعْصِمًا بيَفاعِ السُّعودِ ودُمْ ناعمًا فى ظلالِ النِّـعَمْ
ولا يَزَلِ[١] الدهرُ أيامُه لَـكَ حَشَمٌ والليالى خَدَمْ

هذا — أعزّ اللهُ الحاجبَ — ما اقتضتْهُ القريحةُ مع اقتِضائِها، وأجابَتْنا بِه البَديهةُ عند استِدْعائِها، والذّهنُ عَليل، والطبعُ كَليل، والرَّوِيَّةُ فاسِدَة، وسُوقُ الأدبِ إلا عندَه كاسِدَة. ولو أنّى أُوتيتُ فى النَّثرِ غزارةَ عَمْرو، وبراعةَ ابنِ سَهْل، وأُمْدِدْتُ فى النَّظمِ بطبْعِ البحترى، وصِناعةِ الطّائى، لما رددْتُ إلى الحاجبِ إلّا ما أخذْتُ منه، ولا أوْرَدْتُ عليه غيرَ ماصدَر عنه، ولمَا أنْفَذْتُ مَا أنفذْتُ إلا بينَ أملٍ يَنْبسُط، وخَجلٍ يَقْبِض، فرأيُه موفقًا فى أن يمنحَ ما بعثَ الأملَ إسعافا، وما أوجبَ الخجلَ إغضاء، لِيأْتىَ الإحسانَ من جِهاتِه، ويَسْلُكَ إلى الفضلِ طُرقاتِه. ومُراجعتُهُ لِى عن كتابِى بعهدِ كريم، يكونُ كُحْلًا لعينِ الرِّضا بوجْنةِ القَبول[٢]، أقِفُ بِهِ مِنْ تَوالى النِّعمِ عليه، وانتظامِ الأحوالِ بالصَّلاحِ لَديْه، على ما تبتهجُ له نفْسى، وينتظِمُ معَه عِقْدُ أُنسِى يدٌ عندى جناها شَهْد، وشذَاها عنبرٌ وورد، أُزْفِلُها[٣] الشكرَ الجزيل، وأُتبِعُها الثناءَ الجميلَ إنْ شاءَ الله. ولْيُبلغْ منّى سلامًا يُهْدِى إليه نفسَه، وتحيّةً آخرُها عندِى وأولُها عندَه.

وكَتبَ منْ قُرطبةَ إلى ابنِ مَسْلمةَ بإشبيليّةَ قبلَ تحوُّلِه إليها:

يا سيِّدِى، وأرْفعَ عُدَدِى، وأوّلَ الذخائرِ فى عَددِى، وأخطرَ عِلْقٍ ملأْتُ منَ اقتنائِه يدِى، ومَنْ أبقاهُ اللهُ فى عِيشةٍ باردةِ الظِّلال، ونعمةٍ سابغةِ

---

(١) ب، ت: «ولا تزل» (٢) م: «القول»

(٣) م: «ورداؤها»

الأذيال ، قد تقاصر الثناء عليك ، وتوالى الحديثُ الحسنُ عنك ، حتى حلّت محلّ الأمانة ، وكنت موضع تقليد الوطر ، وإثبات الطوية . والله يُمتّعك[(١)] بما حازه لك من الخير ، ووفّره عليك من طيّب الذكر .

فى علمك — أعزّك الله — ما تقتضيه العُطْلة من إظلام الخاطر ، وصدإ النّفس ، ويجنيه طولُ المُقام من إخلاق الدّيباجة ، وإرخاص القدْر . وقد آن أن أجتنى ثمرةً من آداب أطلْتُ الاعتناء بها ، وأخلاق أدنْتُ رياضة الأنفس عليها . ولمّا مخضْتُ الملوك ، وجدْتُ عميدَهم الّذى أنسى السالفَ قبلَه ، وتقدّم الرّاهنَ معه ، وأتعب الغابرَ بعده ، الحاجبَ فخرَ الدولة مولاى ، ومَنْ أطال اللهُ بقاءه ، وكبتَ أعداءه ، لِما خصّهُ اللهُ به من سَناء الهِمَم ، وسماحة الشِّيَم ، وانتظام أسباب الرّياسة ، وكمال آلات السّياسة ، واجتماع المناقب التى أفردتْهُ من النُّظراء ، وأعلَتْه عن مراتب الأكفاء ، فرأيتُ قبلَ أن أحملَ[(٢)] لغيره نعمة ، أو أوسَمَ ممّنْ سواه بصَنيعة ، أن أعرضَ نفسِى مملوكةً عليه ، عرْضَ مَنْ لايؤهّلها لإجازته إلا بالاستجازة[(٣)] ، ولا يَطمعُ لها فى قبوله إلا مع المسامحة[(٤)] ، فلو كنتُ الوليدَ بنَ عُبيد براعةَ نظْم ، وجعفرَ بنَ يحيى بلاغةَ نثْر ، وإبراهيمَ بنَ المهْدىّ طِيبَ مجالسة ، وإمْتاعَ مُشاهدة ، ثم حضرتُ مجلسَه[(٥)] العالى ، لمَا كنتُ بِسعة[(٦)] إحاطته إلّا فى جانب التّقْصير ، وتحتَ عُهدةِ النُّقصان ، غير أنه لم يَعْدِم فىَّ[(٧)] نجابةَ غرْسِ اليَد ، وإصابةَ طريق

---

(١) ب : « يعتمدك »
(٢) م : « أحتمل »
(٣) م : « بإجازته إلا بالاستجارة »
(٤) م : « بالمسامحة »
(٥) ب ، ت : « بساطه »
(٦) ب ، ت : « مع سعة »
(٧) ب ، ت : « منى »

المصنع[١] ، من ولايةٍ أخلصها ، ونصيحةٍ أمحضها ، وشُكرٍ أجْنيه الغضّ من زَهَراته ، وثناء أهْدى إليه العطر من نفحاته ، [٢]فقوّضتُ إليك[٣] هذه السّفارة ، واعتمدتُك بتكليف النيابة ، لوجوهٍ : منها حُظْوتُك لديْه ، ومكانتُك منه[٢] ، سوّغك اللهُ الموهبةَ فى ذلك ، وأنهضك بأعباء الشُّكر لها . ومنها سَرْوُ مذهبك ، وكرمُ سجيّتك ، وصحةُ مُشاركتِك ، لمنْ لم يستوجبْها استيجابى ، ولا استدعاها بمثلِ أسبابى ، منْ تدانى الجدار ، وتصافى السّلَف ، والانتماء إلى أسرةِ الأدب . فإنْ وافقتَ السّانحةُ[٤] الإرادة ، فحظٌّ أقبل ، وعبْدٌ بلغ من قبول سيِّده ما أمّل ، ولم أقلْ : « عَمْرَكَ الله » كما قيلَ فى النّجمين ، بل قلتُ : « وقد يجمعُ الله الشتيتيْن » ، وإن عاقَ حرمانٌ عادَتُه أنْ يعوقَ عن الظفر ، ويعترضَ دونَ الأمل ، فأعلِمْهُ — أيّدهُ الله — أنّى فى حالَى العُطلة مع غيره والتصرُّف ، ويوْمَى الإيطانِ والتطوُّف ، كالمهتدى بالنّجم حينَ عدمِ ذُكاء ، ومُتيمِّمِ الصعيدِ إذا[٥] لم يجد الماء .

فإنْ أغشَ قومًا غيْرَه أو أزُرْهُمُ   فكالوحْشِ يُدنيه من الأنَسِ المَحْلُ

واللهُ يتولّاهُ بالفُسْحةِ فى عُمره ، والإعْلاء لأمرِه ، ويُصرّفُ الأقدارَ مع إيثارِه ، ويَصْرِفُ وجوهَ التوفيقِ إلى اختياره .

ولكَ ياسيِّدى فى انتدابِك لما ندبتُك له ، مَا للسّاعِى المُنجحِ من الشُّكر ، وللمجتهدِ البالغِ من العُذر ، وملاكُ الأمرِ تقديمُ المراجعة بالإيجاب فأسكنُ إليها ، والجوابِ فأعتمدُ عليه ، وأهْدِى إليكَ نَدِىَّ الغضِّ الناضرِ من سلامى ، والأرِجَ العاطِرَ من تحيّتى .

---

(١) د : « الصنع »   (٢ — ٢) د فى د

(٣) فى الأصول : « إليه »   (٤) ب ، ت « السابحة »   (٥) د : « حين »

وكتب إثْرَ ذلك إلى المُعْتضِد رُقعةً يقولُ فيها :

أطالَ اللهُ بقاء الحاجب فخرِ الدولةِ مولاىَ وسيدى ، ومولَى المناقبِ الجليلة ، والضَّرائب النفيسة ، فى أكملِ ما تكفَّلَ[1] له به من عُلُوِّ القدْر ، ونفاذِ الأمرِ ، وخصَّه من النِّعم بأسْبغِها سِرْبالا ، وأبردِها ظِلَالا ، وأحمدِها مآلا .

كنتُ — أعزَّ اللهُ الحاجبَ مولاى — قد كتبتُ إلى الوزيرِ أبى عامرٍ عبْدِه بما أيقنتُ أنه انتهى إليه ، واشتملَ عليه . فكتب الوزيرُ إلى بعضِ أسبابه بما يقومُ مقامَ المُراجعةِ لى بما يرتفِعُ عن[2] قدْرِى ، ولا تتَّسع له ساحةُ شكرِى ، لعلمِى أنَّه عن الحاجبِ — أيَّده الله — صَدَر ، وبإذْنِه نَفَذ ، والذى عَدانى عن أن يكونَ الكتابُ فى ذلكَ إلى الحاجبِ — أبقاه الله — التأدُّبُ بآدابِ حُصفاء العَبيدِ فى الإجلالِ والإعظام ، وتركِ التبسُّط والإقدام . وقلَّما استغْنَتْ أوائلُ مُطالبِ الأتباعِ لحضرةِ[3] الملوكِ عن[4] وسائطَ تُمهِّدُ لها ، وتعتمدُ أوقاتَ الإمكانِ بها ، لاأنِّى اتخذتُ إلى الحاجبِ — أدامَ اللهُ عُلُوَّهُ — [5] غيرَ سيادتِه ذريعَة ، أو التمستُ إليه إلاَّ منْ نفاسةِ نفسِه شفاعة . وأنَّى مَعْدَلٌ لمثلِى عن تفيُّؤ ظلالِه ، والاعتمادِ بحبْلِه ، وصناعةُ الأدبِ كاسدةٌ إلا عليه ، وطريقُ الأملِ موحشَةٌ إلَّا إليه ! ولَمْ[6] يدعُنِى[5] إلى استطلاعِ ما قِبلَهُ شَكٌّ فى كرمِه ، ولا سُوءُ ظنٍّ بسماحةِ شِيَمه ، بل لُزُومُ الطريقةِ فى التَّوطِئةِ للمطْلَب ، والتدرُّجِ إلى إحرازِ الأرَب . وحسبِى أنَّ أملِى قدِ ارْتادَ الجنابَ الرَّحْب ، والمشْربَ العَذْب ، ولعلَّ الحظوظَ ستُكْشَف ، والنَّوائبَ

(١) ب ، ت : « ماتكفل »
(٢) ب : « مما يرتفع من »
(٣) ب ، ت : « بحضرة »
(٤) فى الأصول : « من »
(٥ — ٥) ~~ فى ب ، ت
(٦) فى الأصول : « ولا »

ستُصرف ، إلى أنْ أبلُغَ[١] إلى أبعدِ غاياتِ الأملِ من مشاهدةِ حضرتِه العَلياء ، والنَّظرِ إلى غُرّته الزَّهْراء ، فواللهِ ما ينصرفُ فكرى ، ولا ينصرمُ حينٌ من عُمرِى إلا فى الذِّكرِ له ، والشَّوقِ إليه ، وتصوُّرِ[٢] المثُولِ بين يديْه ، وأنا أُقدّم الاعتذارَ من مهابةٍ تستملكُ جَنانى ، وحَصَرٍ يكادُ يقطعُ فى أوّلِ المشافهةِ

٥ لسانى ، فإنْ حَدثَ ذلكَ فعُذْرى عُذرُ الفضلِ بنِ سَهْل ، وقد انقطعَ بين يدَى الرشيدِ فقالَ[٣] : يا أميرَ المؤمنين ، مِنْ فَرَاهةِ العَبْدِ أنْ تملِكَ قَلْبَهُ مهابةُ سيِّده .

وسيُفْضِى ذلكَ بمشيئةِ الله إلى ما يستجيزُهُ الحاجبُ مولاىَ مِنْ إمتاع ، ويقبَلُهُ مِنْ شاهِد ، ويستطْرِفُهُ مِن أدب ، ويستلطِفُهُ[٤] من إجمالِ طلب ،

١٠ وجمالِ مذهَب . كما أنى أعلمُ أنّى سأصِلُ إلى ما لمْ أعهدْ مثلَه مِنْ بهاءِ منظر ، وسناءِ مَخْبَر ، ورفعةِ شان ، وعِظَمِ سُلطان . ولعلَّ السَّعادةَ أنْ[٥] تُهيِّئَ لِى من الحظِّ ما أُثبِتُ به ما ادَّعَيتُه لنفسى من هذه الصِّفات ، وأُنجزُ معه ما قدّمتُ عنها مِنْ هذه العِدَات ، فحَوْلُ اللهِ فى ذلكَ كفيل ، وهو حسْبِى ونِعْمَ الوَكيل . زادَ اللهُ الحاجبَ مولاىَ من سَنِىِّ قِسَمِه ، وهَنِىِّ نِعَمِه ، وبلَّغه

١٥ النهايةَ من آماله ، وصرفَ بعزَّته[٦] غِيَرَ الزمانِ عن كماله[٦] .

---

(١) ى : «أبعد»

(٢) ليس فى ى

(٣) ب ، ت : «فقال له»

(٤) ى : «يستطلعه»

(٥) ليس فى ب ، ت

(٦—٦) ليس فى ى

وكتبَ إليه بعدَ أنْ صَدرَ عن حَضرتِه إلى قُرْطبةَ رُقعةً يقولُ فيها :

أطالَ اللهُ بقاءَ مولاىَ للنِّعمِ يطوِّقُها ، [(١)] والآمالِ يُصدِّقُها [(١)] ، والمِنَنِ يُقلِّدُها ، والأحْرارِ يستعْبدُها ، يعلمُ الذى أسألُه إعزازَ مولاى ، وإعلاءَ أمرِه ، وصِلةَ تأييدِه ، وتمكينَ نصْرِه ، أنِّى لم أزَلْ منذُ فارقتُ حَضرتَه الجليلةَ ، ٥ حضْرةَ المجدِ والسِّيادَة ، ومحلَّ الإقبالِ والسَّعادة ، لهِجَ اللِّسانِ بما أجْناني من ثمارِ الحِكمة والنِّعمَة ، وأفادَنِى من عُقَدِ الأدبِ والنَّشب ، فمِنْ كبدِ حاسدٍ تصدَّعت ، وأنفاسِ مُنافسٍ تقطَّعت ، وناعمِ البالِ كَسَفَتْ بالَه ، ومُتمنٍّ لِحالى طالما تمنَّيتُ حالَه ، وقلَّ لِمَنْ [(٢)] نالَ أدنَى مكانةٍ منه ، ورقِىَ أوَّلَ درجةٍ من الخُصوصِ به ، أن تحْسُدَهُ الكواكبُ فى إشراقِها ، وتنْحشِدَ إليهِ ١٠ الأمانىُّ من أطْرافِها ، [(٣)] واللهُ يُبْقيهِ [(٣)] لعبيدِه الذين أنا آخرُهم فى الخِدْمَة ، وأوَّلُهم فى شُكرِ النِّعمَة ، ويرفعُ من هِمَمِهِم ما انخفَض ، ويبسُطُ من آمالِهم ما انقبَض ، ولا يَعْدِمُهم التَّقلُّبَ فى نِعَمِه [(٤)] ، والاعتلاقَ بأسبابِ ذِمَمِه [(٥)] ، بمجدِه وكرمِه .

وكانتْ من مولاىَ — أعزَّه اللهُ — إشارةٌ بل عبارةٌ أعدَدْتُها طليعةً ١٥ لسُعودٍ تتوافَى [(٦)] طَلَقا ، ومقدِّمةً لمسراتٍ تتوالَى نَسَقا [(٧)] . فلما لحقَ الجِسمُ

(١ — ١) لا فى ب (٢) و : « قلما »

(٣ — ٣) لا فى و (٤) و : « نعمته »

(٥) و : « ذمته » (٦) ب ، ت : « ستتوافى »

(٧) ب ، ت « ستتوالى سبقا »

بعد تركه النفسَ لديه ، والبراءةِ منها[1] إليه ، بالوطنِ الذى أسْلانى عنه ، وأسْنَى لى العوضَ منه ، تأتَّيتُ من طاعته المُقْتَرِنَةِ بطاعةِ اللهِ فى نفسى مملوكتِه ، [2] لِمَا أنا مهنَّأٌ به ، منافَسٌ فيه ، فساعفتِ المآرب ، وأسمحتِ المطالِب ، ولم يَرِبْنى تعذُّرُ وجهٍ [2] حاولتُه ، ولا عدانى تيسُّرُ أمرٍ تناولتُه ، ولم تَبقَ علة تسوِّغُ باعتراضِها الاعتذارَ إلّا ما يَتَراخَى[3] ريثما يعاوِدُ أمرُه ، ويتجدَّدُ فى

٥

الحركةِ إذْنُه . ولم أستأذنْ لأنَّ الإذنَ بعُدَ عهدُه[4] ، وأنَّ الميعادَ لم يحكمْ عَقدُه ، بل تجنبتُ أن أُدِلَّ بتركِ المشاورة ، أو أُخِلَّ برسمِ المؤامرة[4] . فلولاىَ الطَّوْلُ فى أمرِ الواسطةِ عَبْدِه بمُراجعةٍ أعتمِدُ عليها ، وأجتهِدُ فى الانتهاءِ إليها . واللهُ يبلِّغُنى الأملَ من وقفةٍ بحضْرتِه ، ونظرةٍ إلى غُرَّتِه ، وتقبيلٍ لراحتِه ، وتصرُّفٍ فى ساحتِه ، فهو المالكُ لذلك ، والقادرُ عليه[5] .

١٠

وله[6] من رسالةٍ حذفَ أبو الحسن رحمهُ اللهُ هنا أكثرَها ، ولم يذكرْ منها إلا قَطْرةً من وابلٍ ، أو نَفْثةً من سِحْرِ بابلٍ ، وها أنا مُثْبِتُها على تواليها ، إشادةً بحسْنِ مَعانيها ، واستِفادةً من سَنِيِّ آدابِه فيها ، وهى :

يا سيِّدى الذى كنتُ أراه أعدَّ عُددِى لأبدِى ، وأخصَّ جُنَنِى من زَمَنِى ، ومَنْ أبقاهُ اللهُ فى أصلحِ الأحوال ، وأفسحِ الآمال ، أبدأُ[7] من كتابِى إليكَ ، بشَرْحِ الضَّرورةِ الحافزةِ إلى ما صنعتُ ، مما بلغَنى أنَّك صدرُ اللائمِين لى عليه ، وأولُ المسفِّهِينَ لرأيى فيه ، ومن أمثالِهم ويلٌ للشجِىِّ

١٥

---

(١) ب ، ت : « منه » (٢ — ٢) ــه فى ب

(٣) ت : « مايراح » (٤ — ٤) ــه فى ب (٥) ــه : « القادر »

(٦) تقدم ذكر هذه الرسالة موجزة فى ص ٣٠٥ ، ويظهر من قوله : « وله من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها » أن غير المؤلف أضافها إلى الكتاب ، وقد أثبتناها فى المتن لورودها كاملة فى معظم النسخ . (٧) ــه : « جرى »

منَ الخَلِيِّ ، وهانَ عَلَى الأَمْلَسِ ما لاقَى[١] الدَّبِر ، وأُوَسِّطُه بمُعاتبَتِك عَلَى ما كانَ من انفصالِك عنِّى ، وبراءتِك أَمَدَ المِحْنةِ منِّى ، وأَنَّكَ لم تكنْ فى وِرْدٍ[٢] ولا صَـدَرٍ من مُشاركتِى فيها ، ولا كانتْ لك ناقةٌ ولا جملٌ فى مُظاهَرتكَ لِى عَليْها ، مع القُدْرَةِ بكَ على تهْوِينِ خَطْبِها ، وتذْليلِ صَعْبِها ، وتلْيينِ شديدِها ، وتقْريبِ بَعيدِها ٥

فأَرَى صِـدْقَكَ الحديثَ وما ذا كَ لبُخلِى عليكَ بالإغضاءِ[٣]
أنتَ عَيْنِى وليْسَ من حقِّ عينِى غَضُّ أجفانِهـا على الأَقْذاءِ

وإنَّما يُعاتَبُ الأَدِيمُ ذُو البَشَرةِ . والمثلُ السائر : « ويبقَى الوُدُّ ما بقِىَ العِتابُ » وقال الأَوَّل :

أَبْلِـغْ أَبا مِسْمَعٍ عنِّى مُغلْغَلَةً وفى العِتابِ حياةٌ بَيْنَ أَقوامِ ١٠

وأخْتِمُه بتكْليفِكَ ما كانَ سببَ الكتاب ، والداعىَ إلى الخطاب ، عساكَ أنْ تتلافَى عَوْدًا ما ضيَّعْتَ بدْءًا ، وتهتَبِلَ آخِرًا ما أغْفلتَ أوَّلاً ، فيعودَ غيثُه علَى ما أفسَد ، وإن كنتَ فى ذلك كدابِغَةٍ وقدْ حَلِمَ الأَديمُ ، فمنفعةُ القُوتِ قبلَ العطَبِ

وخيرُ الأَمرِ ما استقبلْتَ منْـه وليسَ بأنْ تتَبَّعَهُ اتِّباعَا ١٥

فى علمك أَنِّى سُجِنتُ مُغالَبَةً بالهوَى ، وهو أَخُو العَمَى ، وقد نهَى الله تعالى عن اتِّباعِه ، وذَكَرَ أنَّه مُضِلٌّ عن[٤] سبيلِه إذ يقول : « ولا تتَّبعِ الهوَى فيضلَّكَ عن سبيلِ الله »[٥] . وقال الشاعر :

---

(١) ب ، ت : « بلق » (٢) ب : « مورد »
(٣) راجع ديوان ابن الرومى ص ٣٨ (٤) ه : « يضل »
(٥) راجع سورة ٣٨ : ٢٦

إذا أنت لم تَعصِ الهوى قادكَ الهوى — إلى بعضِ ما فيه عليكَ مقالُ

دونَ تأنٍّ تُدرِكُ بعضُ الحاجةِ به ، أوِ استثباتٍ تؤمَنُ مواقعةُ الزَّللِ معه ، بلْ

أوردَها سَعدٌ وسعدٌ مُشتَمِلْ — [١]ما هكذا توردُ ياسعدُ الإبلْ[١]

وشهد ابنُ العطّارِ العشّارُ العاري عن[٢] الثّقةِ والأمانةِ ، البعيدُ من الرّعْيةِ

٥ والصّيانةِ ، الناشرُ لأُذُنَيْهِ طمعا ، الآكلُ بيدَيْه جشعا ، فكانَ القولُ ما قالتْ

حَذَامِ . ولم يقتصِرْ على أنْ أُلحِقَ بالشُّهودِ وهو واوُ عمرٍو فيهم ، ونُونُ الجَمْعِ

المُضافِ معهم ، دون أن يُلْحَقَ بخُزيمةَ ذِي الشّهادتَيْن ، وينوبَ منفردًا عنِ اثنَين:

وليسَ على الله بمُستنكرٍ — أنْ يجمعَ العالَمَ في واحِدِ

وليتَني مع من لا يحِلُّ قولُه[٣] عليَّ ، أُعْذِرَ في شهادتِه إليَّ ، ولم يقترِنِ الحشَفُ

١٠ مع سُوءِ الكِيلَةِ ، وتُستَضعَفْ لي الغُدّةُ[٤] إلى الموتِ في بيتِ سَلُولِيّةِ

خُطَّتا خَسْفٍ لم أرَ النجاءَ منهما إلاّ أن ركبتُ الحوْلِيَّ الأشهبَ ،

ورأيتُ خراسانَ مكانَ السُّوقِ أو هي أقرب[٥] ، وكان المتولِّي سِجنِي بَعْدَ شهرٍ

من إنفاذِه ، له مجلسٌ حَضَرَه فقهاءُ الحضْرةِ ، ومَنْ أُعلمَ بسيماهم ، وجرَى في

غِشْيانِ الحكّامِ مَجْراهم ، فذَكرَ له أنّه اتّهمني بالمغيبِ على عهْدِ المتوفَّى مولايَ

١٥ كانَ ، نفع اللهُ صَداه ، وبلَّ ثَراه ، وثبتَ عِندَه مع ذلكَ أني ممن تَعلَقُه التُّهم ،

ولا ترتفِعُ عنه الظِّنَن ، فكلّهم أفتَى بالإعذارِ إليَّ ، فيما شهِدَ به من ذلك عليَّ ،

ثم سِجْني إنْ لم آتِ بمَدْفَع ، أوأُصدَعْ منَ الحجةِ بمَقْنَع ؛ فاحتاطَ واجْتَهد ، وتحرَّى

واقتَصد ، وصالحَنِي من هذه الفُتيا على النِّصْف ، بتأخيرِ الإعذار ، وتقديمِ

(١ — ١) ليس في ط — (٢) ب ، ت : «من»

(٣) ب ، ت : «قبوله» — (٤) ب ، ت : «العدة»

(٥) ب ، ت : «أو أقرب»

السجن ، والصُّلحُ جائزٌ بين المسلمين . ثم أظهرتُ إليه عقدًا كانَ المتوفَّى — قدَّسَ الله روحَه ونوَّر ضريحَه — قد أشهدَ فيه أنْ لا مالَ له ، وأنَّ جميع ما تحيطُ به الدارُ التى تُوُفِّى بُعيدَ هذا الإشهادِ فيها إنَّما هو للغانيةِ[1] التى فى عِصْمته حاشا دقائقَ بيِّنَها ، ومحقَّراتٍ عيَّنها . ومَعْلومٌ أنَّ مَنْ أشهدَ بهذا على نفسه ، وتقيَّدَ إلى مثله من لفظه ، فمُحالٌ أن يُخلِّفَ عهدًا ، أو يهلِكَ عَنْ وصيَّة . وسألتُه الشُّورَى فيما أثبتُّه من هذا العقد ، فلم يجِبْنى إلى ذلك . ولو لمْ تكنِ الشُّورَى من أدبِ اللهِ إذ يقول : « وشاوِرْهُمْ فى الأمْرِ فإذا عزَمْتَ فتوكَّلْ علَى الله »[2] لوجبَ أن يعلمَ أنها لَقاحُ العقل ، ورائدُ الصَّواب ، وأنَّ للمُشاورِ إحْدَى الحسنيَيْن : صوابًا يفوزُ بمحْمَدتِه ، أو خَطأً يُشارَكُ فى مَذمَّتِه . قال الشاعر :

ولا تجعلِ الشُّورَى عليكَ غضاضةً ... فإنَّ الخوافِى عُـدَّةٌ للقَوادمِ

قد قُرِعَتْ له العصَا ، ونُبِّهَ على الذى دَعَوْتُه إليه ، لا يَسوغُ لِى دفعُه عنـه ، ولا يجُوزُ مَنْعِى[3] منه ، فحينئذٍ عَلَّنى بمواعيدَ * كانتْ مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثَلاً * ، * إذا قطعْنَ عَلَمًا بدَا علَم * . وكان آخرَها الذى نُسِخَ بهِ ما قبلَه أنْ تُدرَجَ الشُّورى إلى إبقاءِ الشُّورَى للورثة . فثويْتُ أرقبُ هذا الحَيْنَ وأرجُو أن يحِينَ ، * كما يرجُو أخُو السَّنةِ الربيعا * ، و * كما فى بُطونِ الحاملاتِ رجاءُ *

فكنتُ وإيَّاهُ سحابةَ مُمْحِلٍ ... رجاها فلمَّا جاوزَتْهُ استهلَّتِ

وفى فصل منها :

ولم أقُصَّ عليكَ يا سيِّدِى ممَّا اجْتلبْتُه إلَّا ما شُهِر شُهْرَةَ الاسم ، وعُرِف

(١) ب : « للغلامة »

(٢) راجع سورة ٣ : ١٥٩

(٣) فى النسخ : « معنى » ، والتصحيح عن الديوان ص ٣٦٣

معرفةَ النَّسب ، و « ما يومُ حليمةَ بِسِرّ » . وكنتُ أولَ حَبْسِى قد وُضِعتُ من السجنِ فى موضعٍ جرتِ العادةُ بوضعِ مستُورى الناس وذوى الهيئاتِ منهم فيهِ ، وفى الشَّر خيارٌ ، وبعضُه أهونُ من بعض . فمُنِيتُ مِن مطالبةِ بعضِ مَنْ يأتمرُ الناظِرُون فِى السجنِ له ، ويسمعُونَ منه ، بما اقتضَى نقلى إلى حيثُ
٥ الجُناةُ المفسِدُون ، واللُّصوصُ المقيَّدُون . وشكوتُ ذلكَ إلى الحاكِمِ الحابسِ لِى فى اليومِ الَّذِى مضَى ذكرُه بمشهدِ مَنْ تقـدَّم وصفُه ، فانتفَى من الرِّضا به ، وأظهرَ الامتعاضَ منه ، وتقدَّم إلى الموكَّلِ بالسِّجنِ فى اختيار مجلسٍ أُباينُ فيهِ مَنْ لا تليقُ بى ملابستُه ، وأنتبِذُ عمَّن لا تُرضَى لِى مجالستُه . ثم لم ألبثْ أنْ أحْضَرَهُ مجلسَ نظرِه ، وأمر بتأديبه على امتثالهِ فىَّ ما أمرَهُ به ، وانتهائِه إلى
١٠ ما حدَّ له . واستأنفَ العهدَ فى التضييق علَىَّ ، ومنع مَنِ اعتادَ صِلتى من الوصولِ إلىَّ ، فأُصعِدْتُ إلى غرفة فى السجنِ اقنعَنِى بها مع خَساستها ، وأسْلانى عن المصيبةِ بالـكونِ فيها على مضاضتِها ، انفرادِى مِن لفيفِ الأخْلاطِ ، ومَنْ ضمَّه السجنُ من السِّفلةِ والسُّقَّاط . فحِينَ استوانى إليها عهِدَ بحطِّى إليهم وخَلْطِى بهم ، ووضْعِى بينهم . فنقلْتُ فى نفْسِى ثلاثَ نُقَل على أقبحِ النُّصب ، وأسْوإِ
١٥ الرُّتَب . ودخلَ إلىَّ فى هذه الحالِ مَنْ أبلغنى عن ابنِ أخى الحـكمِ رسالةً جامعةً من السبِّ الفاحشِ لفنون ، مشتملةً من الوعيدِ المرهِبِ عَلَى ضُروب ، فلو ذاتُ سِـوارٍ لطمتْنِى !

وإنَّكَ لم يفخَرْ عليكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبْكَ مثلُ مُغلَّبِ

فلم أستطعْ صبراً ، وعلمتُ أنِّى قد أبليْتُ عُذْراً ، ولم يبْقَ إلَّا أنْ يَعذِرَنى لبيد
٢٠ وكاد ، ورأيتُ أنَّ العاجزَ من لا يستبدّ ، فالمرء يعجزُ لا المحالة[1] ، ولم أستجِزْ

(١) م : « لا محالة »

أن أكونَ ثالثَ الأذلَّيْن : العَيْرِ والوَتِد . وذكرتُ أنَّ الفِرارَ من الظُّلم ، والهربَ مِمّا لا يطاقُ من سُنَنِ المرسلين ، قال الله عزَّ وجلَّ على لسانِ موسَى عليه السلام : « ففررْتُ منكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ(١) » ، وقالَ الشاعر :

لا عارَ لا عارَ فى الفِرارَ فقد فَرَّ نَبِىُّ الهدَى إلى الغَار

ونظرتُ فى مفارقةِ الوطن ، والبيْنِ عن الأحبَّة ، فتبينَ لِى أنَّ إيحاشَ نفسِى ، بإيناسِ أهلى ، وقطعَها فى صِلَةِ وطنى ، غَبْنٌ فِى الرأى ، وخَوَرٌ فى العزم ، ووجدتُ الحرَّ ينام على الثُّكل ، ولا ينامُ على الذُّل ، وأذِنتُ إلى قولهم : ليسَ بينَك و بين البلادِ نَسَب فخيْرُها ما حَمَلَك .

* وإذا نَبا بِكَ منزلٌ فتحوَّلِ *

وقالَ بعضُ المحدَثين :

أرى النـاسَ أحدوثةً فكونى حديثاً حسنْ
كأنْ لم يَزَلْ ما أتى وما قد قضَى لم يَكنْ
إذا وَطَنٌ رابَنِى فَكلٌّ مكانٍ وَطَنْ

ولم أستغربْ أن أُسامَ مثلَ هذا الخَسفِ فى مسقَطِ رأسِى ، ومعقِّ تمائِمى ، وأوَّلِ أرضٍ مسَّ ترابُها جِلْدِى . فقـديماً ضاع المرء الفاضلُ فى وطنه ، وكسَدَ العِلْقُ الغبيطُ فى معدِنه . قال بعضُهم :

أُضِيعُ فى معْشَرِى وكم بلدٍ يُعَدُّ عُودُ الكِباء من حَطَبِهْ

فاستخَرْتُ اللهَ عزَّ وجلَّ ، واضحَ وجهِ العُذْر ، ثابتَ قدَم الحجَّة ، عندَ مَنْ غَضَّ عينَ الهوى ، وخزَنَ لسانَ التعَسُّف . والله يُصِيبُ غَرضَ الصَّوابِ برأيى(٢) ،

---

(١) راجع سورة ٢٦ : ٢١ (٢) ه : « برأى »

ويُقرِّبُ غايةَ النجاحِ على سَعْيِى ، حَسْبَما[1] فى علمِه أنِّى مظلوم ، مَبغِىٌّ عليه ، منسوبٌ مالَمْ آتِه إلىَّ ، فهو المؤمَّل بذلك والمرْجُوُّ له .

ولعمرُكَ يا سَيِّدى إنَّ ساحةَ العُذرِ لتضيقُ عنك ، وما تكادُ تتسعُ لك فى إسلامِكَ تِلْمِيذَكَ[2] وابنَ جارِكَ وشيخِكَ الّذى لم تزَلْ مُتوفِّرًا عليه ، آخذًا عنه ، مقتبِسًا منه ، مع إكثارِكَ من ذِكرِ هذا ، والاعتدادِ به ، وادِّعاءِ الحفظِ له . وقد روَيْتَ أنَّ حُسْنَ العهدِ من الإيمان ، وسمعتَ المثَل : « انصرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا » ، فالمرءُ كثيرٌ بأخيه ، ولا أقلَّ من[3] استعمالِ الجدِّ ، واستِغْراقِ الجَهْد .

* فمُبلِـغُ نفْسٍ عُذرَها مثلُ مُنْجِحٍ *

* ولا لَوْمَ فى أمْرِى إذا بلغَ العُذرُ *

ولـكنْ مَنْ لكَ بأخيكَ كلِّه ؟ وأينَ الشريكُ فى المرِّ أينما ؟ و بعدَ ما مرَّ بى فالقضاءُ غالِب ، وما حُمَّ وَاقِع ، ولا حذرَ مِنْ قدَر ، وقد سَبق السيفُ العَذَل ، وتقدَّم من فِعلِى ما جَفَّ به القلم ، وأنا الآنَ بحيثُ أُمِنْتُ بعضَ الأمْن ، إلا أنَّ رِزًا من وعيدٍ سقَطَ إلىَّ بأنَّ السَّعىَ لم يرتفِـعْ ، وأنَّ مادةَ البَغْىِ لم تنقطِـعْ ، وأنَّ البصيرةَ مَستحكِمةٌ فى استرجاعِى من الأُفُقِ الذى أَحُلُّ به ، والجنابِ الّذى أحُطُّ فيه . وأ كَّدَ ذلكَ فى ظنِّى ما كانَ أشارَ إليه بعضُ مَنْ كنتُ آوِى إلى الثقةِ بعهدِه ، وأبْنِى على الوَثاقةِ مِنْ عَقْدِه ، من الفقهاءِ الموسومينَ بالأَثَرةِ عندَ الحكَمِ المذكورِ ، والمكانةِ منه . وقد عاتبتُه على تأخرِه عن مُظافرَتى ، وتقصيرِه فى مؤازرَتى ، فاعتذرَ بأَنَّ ذلكَ لا سبيلَ إليه ، ولا منفذَ للحِيلةِ فيــه ، إذِ المُحرِّضُ علىَّ لا تتأتَّى معارضَتُه ، ولا يَتهيَّأُ الاستبدادُ عليه ؛ وأنَّه وصفَنِى بالبذاءِ ، وعابَنِى

(١) ه : « حسبما ذلك » (٢) ب ، ت : « لتلميذك » (٣) ه : «مع»

بالتسلُّطِ على الأَعْراض ، ووالله ما استجَزْتُ هذا بعدَ أنْ هُتِكَ مِن سِتْرِى ما هُتك ، وانتُهِكَ من حُرُماتى ما انتُهِك ، إذ كنتُ أقولُ معذورا ، وأنفُثُ مصْدُورا ، فكيفَ قبْلَ ذلكَ إذْ لم يحدُثْ سَبَب ، ولا عرضَ مُوجب ؟ * ومالِى وهذا المجتنى[1] ثم ماليا ؟ * ، و « سَتُكْتَبُ شَهادَتُهم ويُسْئَلُون[2] » . وليستْ هذِه ببكْرٍ من النَّمائم التى دُخلَ بها بينَ العصَا ولِحَائِها ٥

وإنى رأيتُ غُواةَ الرِّجا ل لا يتركُونَ أديمًا صحيحَا

ومَنْ يأْذَنْ إلى الواشِينَ تُسلَقْ مسامعُهُ بألْسِنةٍ حِـدَادِ[3]

ويا سيِّدى :

لو بغـيرِ الماء حَلْقِى شَرِقٌ كنتُ كالغَصَّانِ بالماء اعتصارِى

ووالله ما توهّمْتُ أنّى أُوتَى ممّن زعَم أنّى أتيتُ منه ، مع اتّصالِى به ، وانقطاعِى ١٠ إليه ، واتّسامِى بالتأْميلِ له ، والتعويلِ عليه ، * إنّ المعارفَ فى أهلِ النُّهى ذِمَمٌ * ، ولـكن

إذا كانَ غيرُ اللهِ للمرءِ عُدَّةً أتتْه الرَّزايا من وُجُوهِ الفوائدِ

لقد كانَ من محاسنِ الشِّيَم ، وشروطِ المروءة والـكرَم ، أنْ يهَبَ لى ما أنكرَ لِمَا عرَف ، ويغفِرَ ما سخط لِمَا رضى[4] ، ويدفعَ بالتى هى أحسن ، ويؤْثِرَ ١٥ الّذى هو أجْملُ وأرْفق ، ويتوقّفَ عندما نُصَّ عليهِ[5] من سِعايَة ، وزُفَّ إليه من وِشايَة ؛ فإنْ كانَ باطلاً ألغاه ، وفضَح المخبِرَ المتقرِّبَ به وأقْصاه ، وإنْ كانَ حقًّا صبَرَ صبْرَ الحليم ، وأغضَى إغضاءَ الـكريم ، وقبِلَ إنابةَ المُعْتِب ، واقتصدَ

(١) ب ، ت : « وإهداء الجنى » — ه : « وهذا الجنى »

(٢) سورة ٤٣ : ١٩ (٣) راجع ديوان أبى تمام ص ٧٥

(٤) ب ، ت : « أسخط لما أرضى » (٥) ه : « له »

فى مؤاخذةِ المُذْنب ، فقدّم التّوقيفَ قبلَ التّثقيف ، والتأنيبَ قبلَ التأْديب ،
* فإنّ الرفقَ بالجانِي عِتابُ * ، و * الحرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ *

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المهذَّبُ ؟[1]

وهو يرى ويَسمعُ أنَّ بالحضرةِ قومًا لا يحصُرُهم العَدُّ ، تُحتَملُ سقطاتُهم ، وتُغتفَرُ
٥ هَفواتُهم ، وتقالُ عثراتُهم

وما شَرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو بصاحبكِ الذى لا تَصْبَحينا

ومَا أعلمُ أنّهم يُدلُون بوسيلةٍ لا أُشارِكهم فيها ، ولا يَمُتُّون بذَريعةٍ ينفردُون
دُونِى بها

هو الجَدُّ حتّى تَفْضُلَ العينُ أختَها وحتى يكُونَ اليومُ لليومِ سَيّدا[2]

١٠ فإن كانتْ مُسامحتُهم لسابقةٍ سلفتْ فقد أحرزْتُ منها الحظَّ الأعلَى ، أوْ لـكمالِ
أدبٍ فقد ضربتُ فيهِ بالقِدْحِ المُعَلّى ، أو لُلطفِ تودُّدٍ فما قصَّرتُ فى الاجتهادِ ،
غيرَ أنّى حُرِمْتُ التوفيقَ

والأمرُ للهِ ربَّ مجتهدٍ ما خابَ إلا لأنه جاهِدْ !

فإنْ كانَ ذنبى أنَّ أحْسَنَ مطلبى أساءَ فَفِى سُوءِ القضاءِ لِىَ العُذْرُ[3]

١٥ واللهِ لقدْ أظهرتُ مدحَه ، وأضْمَرْتُ نُصْحَه ، وتَمَمتُ على الصّاغيةِ له ، وجريتُ
مِلْءَ العِنانِ إلى الاعتلاقِ به ، أُسْقِيه السائغَ من مِياهِ وُدّى ، وأ كْسُوه[4]
السابغَ من بُرُودِ حَمدِى ، وأُجْنِيه الغضَّ من ثمراتِ شُكرِى ، وأُهْدِى إليه
العَطِرَ من نفحَاتِ ذِكرِى ، لا يُفيدُنى التحبُّبُ إليه إلاّ ضَياعًا لديْه ،
ولا يزيدُنى التقرُّبُ منه إلاّ بُعدًا عنه

(١) راجع ديوان النابغة فى العقد الثمين ص ٥
(٢) راجع ديوان المتنبى (ج ١ ص ١٩٠)
(٣) راجع ديوان أبى تمام ص ٤٢٤ (٤) ور : « وأكسيه »

كأنّىَ أستدنى بهِ ابنَ حنيّةٍ إذا النزعُ أدناهُ من الصدرِ أبعدا

والذى أُحبّه منك ، وأثقُ فى المسارعةِ إليه بك ، لقاؤُه مُجاريًا ذِكرِى ، مفاوضًا فى أمرِى ، مُعلِمًا له بما لا يذهبُ عنه مِن أنّ الذى اخترتُه لنفسِى غايةُ ما يُسىء العُروبةَ ، ويُساء المولَى منه ، فالجلاء أخُ القتل ، والغربةُ أحدُ السّباءين ، قال اللهُ تعالى : « ولو أنّا كتبنا عليهِمْ أنِ اقتُلوا أنفُسَكُمْ أوِ اخرُجوا مِنْ ديارِكُمْ ما فعلوهُ إلاّ قليلٌ منهمْ »(١) ، وقالَ الشاعر :

ومنْ يغتربْ عنْ دارِه لا [يزَلْ] يرَى(٢) مصارِعَ مَظْلُومٍ مجرًّا ومَسْحَبا(٣)

وتُدْفَنُ منهُ الصالحاتُ وإنْ يُسِئْ يكنْ ما أساءَ النارَ فى رَأْسِ كبْكبا

وقد هَجَرْتُ الأرضَ التى هى ظِئْرِى ، والدارَ التى كانتْ مَهْدِى(٤) ، وغِبتُ عن أُمٍّ أنا واحدُها ، تمتدُّ أنفاسُها شوقًا إلىَّ ، (٥) وتُغَضُّ أجفانُها حزنًا علىّ(٥) ، واللهُ يرى بُكاءها ، ويَسمَعُ لى علَى مَنْ ظَلَمنِى نِداءَها ، فالاستجابةُ مضمونةٌ للمُخلِصِ والمظلوم . وقد حملتُ السِّمَتَيْن ، واستوْجبت الصِّفتَيْن ، ولتكُن بُغيتُكَ التى تدّخرُها عليها كلِمَةَ تأمين ، وإشارةً إلى تأنيسٍ وتسكين ، تُراجِعُنى بها فأظهرُ بحيثُ أنا آمنًا ، وأُلقِى العصا مُطْمئنًّا ، فإنْ وجدْتَ محزَّ الشَّفرةِ فالعَوانُ لا تُعلَّمُ الخِمْرَةَ ، فإنْ أشبهت الليلةُ البارِحةَ أعلمْتَنِى بذلك ، فطلبتُ الأمنَ فى مظانّه ، وتقرّيْتُ السلامةَ فى مواطنِها ، وصَبرْتُ حتى يحكُمَ اللهُ لِى وهو خيرُ الحاكمين ، « كُلَّ يومٍ هُوَ فى شأنٍ »(٦) ، ومعَ اليوم غدٌ

---

(١) سورة ٤ : ٦٦

(٢) د : «لايرى له» — راجع رسائل ابن زيدون فى ديوانه ص ٣٦٩

(٣) ب ، ت : « ومحسبا » (٤) د : « مهادى »

(٥—٥) د فى ب ، ت (٦) راجع سورة ٤ : ٧٠

ولكلّ حالٍ مُعقِبٌ ولرُبّما أجْلَى لكَ المكروهُ عمّا تَحْمَدُ

ولكَ يا سيِّدِى فى انتدابِك لما ندبتُك إليه الفضْل ؛ والأيادِى فروضٌ[1] ، والصنائعُ ودائع ، « لا يذهب العُرْفُ بيْنَ اللهِ والناسِ » ، والتحيةُ الطيِّبةُ والسلامُ المردَّدُ على سيِّدِى .

٥ ومما يتعلّقُ بذكْرِ وفاةِ ذِى الوزارتين رحمةُ الله عليه

فصلٌ من تاريخ الشيخ أبى مروانَ ابن حيَّان ، رأيتُ إثباتَه لنُبلِ مَساقِه ، وحُسْنِ اتِّساقِه ، يقولُ فيه :

وفى يومِ الاثنين لثلاثَ عشْرةَ ليلةً خلتْ من ذِى الحِجَّة سنة اثنتيْن وستّين وأربعِمائة ، سار الحاجبُ سراجُ الدولةِ عبّادُ بن محمد إلى إشبيليَّةَ الحَضْرةِ الأثيرةِ

١٠ لمطالعتِها وتأنيسِ أهلِها منْ وَحشةٍ خامرتْ عامّتَهم ، من أجْلِ عُدْوانِ رجلٍ منهم على يهودِىّ ، جاء لامرجة السوقَ عندَهم ، ماراه[2] فى بعض الأمر ، فزعمَ أنّه سبَّ الشريعةَ ، فبطَشَ به المسْلِمُ وسْطَ السُّوق وجَرحَه وحرّكَ عليه العامّةَ ، فقبَضَ عليه صاحبُ المدينةِ عبدُ الله بنُ سَلام واعتقلَه ، فكانَ لِعامّةِ الناسِ فى إنكارِ حَبْسِه كلامٌ وإكثارٌ خَشِىَ وبالَه[3] ، فخاطبَ السلطانَ بقرطبةَ يعرّفه[4]

١٥ ما كانَ منه ويستأمِرُه فى شأنه ، فعجَّل إنفاذَ ولدِه الحاجبِ سراجِ الدولةِ إلى إشبيليّةَ فى جيش كثيفٍ مِنْ نُخبَةِ غلمانه ووجوهِ رجاله ، لمُشارفةِ القِصّة ، والاحتياطِ على العامّة ، فغدَوْا معه وسْط هذا اليومِ ، وأنفَذَ معه ذَا الوزارتين

(١) رجع الكلام فى لب (٢) ب ، ت ، لب « ما أراه »

(٣) فى الأصول : « ونالَه » (٤) مه فى ب ، ت ، لب

أبا الوليدِ ابنَ زيدُون أحدَ الثلاثةِ كابِرى[١] وُزرائه المثنَّاةِ وزارَتهم ، عَمَدِ دولتِه ، ألزمهُ[٢] النفوذَ مع الحاجبِ عَلَى بقيةِ وَعْكٍ كان متألمًا منه ، ولم يَعذِرْه فى التوقُّفِ من أجْله . فمضَى لطِيَّته ، مَسُوقًا إلى مَنيَّته ، وخلَّفَ ولدَه أبا بكر الفذَّ الوزارة ، المرْتَسِمَ بالكتابةِ وراءه ، سَادًّا مكانَه بالحضْرةِ ، فأقرَّ فيها أيامًا ، ثم أُمِرَ بالمسيرِ وراءَ وَالدِه لأمرٍ كَلَّفَه ، أُعْجِلَ بالانطلاقِ له ؛ فمضَى بعيْنِه غداة يومِ السَّبتِ لثمانٍ خلونَ من المحرَّمِ سنةَ ثلاثٍ وستِّين بعدها . فخلَتْ منهُم منازلُهم بقرطبةَ وصُيِّرَتْ إلَى سواهم ، فتحدَّثَ الناسُ بنُبُوِّ[٣] مكانِ الأديبِ ابنِ زيدونَ لدَى السلطانِ ، وأنَّ استمساكَهُ بعلِيِّ مرتبتِه ، بعد مُختَصَّةِ المعتضِدِ باللهِ ، كان من المعتمِدِ عَلَى الله رعايةً لخُصوصِيَّةِ ابنِه به ، يَغَصُّ باستمرارِها ثقتاهُ المُختصَّانِ به ، الحَظِيَّانِ لديه ، المستهِمَانِ لخاصَّته : ابنُ مَرْتين وابنُ عمَّار ، إلى أنْ عملا فى إبعادِه وإبعادِ ابنه الرقيبِ بعده ، فأمْضَيَ خلفَه ، فعندها استصَاغا[٤] غُصَّته ، واسْتَهَمَا مكانَه ، واحتوَيَا عَلَى خاصَّةِ السلطانِ وتدبيرِ دولتِه ؛ ولكلِّ دولةٍ رجال ، ولكلٍّ مُكتفٍ أبدال . ولم يطُلِ الأمَدُ بابنِ زيدونَ — رحمَهُ اللهُ — بعدَ لَحَاقِ ابنِه به ، ووجْدانِه إياه مُتزايدًا فى مرضِه ، نازحًا عنْ أُلَّافِه ، عَلَى جَهدِه فى استدعائِها[٥] على انتهاءِ المدَّةِ ، وانتهاكِ القوَّةِ .فاستقرَّ به وجَعُه إلى أنْ قَضَى نَحْبَه ، وهلَكَ بدارِ هجرتِه إشبيلِيَّةَ صدْرَ رجبٍ سنةَ ثلاثٍ وستِّين ، فدُفِن بهَا مشهودًا مُفْتَقَدًا ، واحتوَى ترْبُها عليه ، فيابُعْدَ ما بينَ قبرِه وقبرِ ابنِه لدينَا رحمةُ الله عليهما ! فقد تولَّى من أبي الوليدِ كهلٌ لنْ يُخْلِفَ الدَّهرُ مثلَه جمالاً وبيانا ، وبراعةً ولسانا ، وظَرْفًا وحُلُولاً من مراتبِ البلاغةِ نظمًا ونثرا ، بمرْقبةٍ

(١) ه : « أكابر » (٢) ه فى ب ، ت ، لب

(٣) ه : « بسبق » (٤) ه : « استساغا »

(٥) لعل الضمير يعود على : « ألافه »

لم يُخلِفْ لها بعدَه عاطياً ، بقِرانِه بينَ الكلامَيْن ، و براعتِه فى الفنَّين ، إلّا أنْ يكونَ عند أُولِى التحقيقِ والتحصيلِ فى النظمِ أمدَّ طَلَقا ، وأحثَّ عَنَقَا ، فلا يلْحَقُه فيهِ تقصيرٌ ولا يخْشَى رهَقا ، شهودُه[1] فى الفنَّينِ عُدُولٌ مقانعُ حضُورٌ عندَ أهلِ المعرفة .

٥ لقد اتَّصَلَ خبرُ هُلْكِه بعشيرتِهِ أهلِ قرطبةَ فتناعَوْه ، وسيئُوا لفقدِه ، وحزِنُوا عليه ، إذ كانَ منهم ، متعصِّبًا لهم ، هاوياً إليهم ، حَدِباً عليهم ، وليجة خيْرٍ بينَهم و بينَ سلطانِهم الحديثِ الولايةِ ، فصار مُصابُه لديْهم كِفاءَ ما اجْتُثَّ فيه من تأميلِهم . والبقاء لمن تفرَّدَ به وحدَه ، [2] لا ربَّ غيرُه . ولا جَرَمَ إذ عزَّى اللهُ إخوانَه عنه بامتدادِ بقاءِ فتاهُ النَّدْبِ أبى بكرٍ ولدِه بعده[2] سَادًّا ثُلمَهُ ، سامياً مسْماه ، غائظًا عِداه ، عاطياً منتهاه ، بأنواطِ صِدْقٍ ، يجذِبْنَ إلى العلاءِ

١٠ بضَبْعِه ، من شماخَةٍ[3] ودماثةٍ وحصافةٍ ونزاهةٍ ومعرفةٍ ، ووفورِ حظٍّ من أدبِ بلاغةٍ وكتابةٍ ، وشركةٍ فى التعاليمِ المِلْية[4] ، واشتدادٍ فى رعايةِ متقادمِ الذِّمةِ ، لم يفقدْ إخوانُ أبيهِ معها إلاَّ عينَه . خِلالٌ حرَّكْنَ حالَه عما قليلٍ بعدَ أبيهِ عند سُلطانِه قِسْطاسِ السياسةِ ؛ فاستبْصَرَ فى إحضارِه[5] ، وأدناهُ من اجتبائه[6] ،

١٥ ورقَّاهُ فى مراتبِ والدِه ، منقِّلًا له فى درجاتِها ، راضيًا بلاءَهُ فيما ناطَ به منها ، حتى فرعَ ذِرْوَتَها عمَّا قليل ، فأحْظاهُ بالوزارة وصيَّرهُ وزيرًا لحضرته[7] الأثيرةِ إشبيليَّة ، وجمعَ له أعاظمَ خِططِها العليَّةِ ، معاطنِ التنافسِ مِن قوَّامِ المملكة

---

(١) ب ، ت ، لب : « أشهاده » (٢ — ٢) سه فى ب ، ت
(٣) ه : « سماحة » (٤) ه : « العلمية »
(٥) ه : « استحضاره » (٦) ب : « أحبائه »
(٧) ب ، ت ، لب : «وزره بحضرته»

خِطَّةِ ولايةِ المدينة [(١)] مجموعةً إلى خِطَّةِ ولايةِ السِّكَّةِ ؛ بكلٍّ استقلَّ ، وعلى كلٍّ استظهَرَ ، فكفَى وعدلَ ، فاغتبطَ به [(١)] السلطان ، وواتاهُ الزمان ، « واللهُ يؤتى فضلَه منْ يشاء » له الفضلُ والامتنان .

وفى فصل : وكانَ أبو الوليدِ ممَّنْ أنشأتْهُ دولةُ الجهاورَة ، واصطفَتْه اصطفاءَ الفُرسِ للأساورة ؛ اختُصَّ بأبى الوليدِ اختصاصَ القُرْحِ بالنَّوْر ، ٥
وارتبطَ بِهم ارتباطَ الإفاضةِ بالفَوْر . وأبو الحزم ابنُ جَهْور إذ ذاكَ رأسُ الجماعَة ، وأصلُ تلكَ الإمْرةِ المطَاعة ، مِنْ رجُلٍ أدهى من قفيدِ عُمـان ، وأجْرأ من لَيْثِ خَفَّان ، وأدهَى من عمرِو بن الجمّان .

وكان ابنُ زيدونَ متَّصلًا بابنِه أبى الوليدِ أطولَ حِقْبة ، اتصالَ أبِى زَبيدٍ بالوليدِ بنِ عُقْبة ، وبينهُما تألُّفُ أحْرَما بكعبته وطافا ، وسُقِيا [(٢)] من تصافِيهما نِطَافا . وابنُ زيدُونَ يَعتَدُّ ذلكَ حُساماً مَسلُولا ، ويرَى أنه يرُدُّ به صعبَ ١٠
الخُطوب ذَلُولا ، إلى أن طُلِب عندَ أبيهِ أبى الحزم وتوسَّل ، فاستدْفَع به تلكَ الأسِنَّةَ الُمشْرَعةَ والأسل ، فما ثَنَى إليْهِ عِنَانَ عَطْفِه ، ولا كَفَّ عنهُ سنان صَرفِه ، مع استعطافِه له بكلِّ مقالٍ يحلُّ سخائمَ الأحقاد ، واستلطافِه إياه بما يُرُدُّ الصَّعبَ سَلِسَ القياد ؛ فمن بديعِ ذلكَ وأحسنِه قولُه [(٣)] : ١٥

إيهِ أبا الحزمِ اهتبـلْ غِرّةً	ألْسِـنةُ الشـكرِ عليها فِصَاحْ
لا طَـار لى حظٌّ إلى غايةٍ	إنْ لمْ أكن منْكَ مَريشَ الجَناحْ
عُتباكَ بعـدَ العَتْبِ أُمنيّةٌ	مالِى على الدهرِ سِواهَا اقتراحْ
لم يثْنِنِى عن أملٍ ما جَرى	قد يُرْقَعُ الخرْقُ وتؤسَى الجِراحْ

(١ — ١) ىه فى ب — وفى ىه « فاكتفى واعتدل »

(٢) ب ، ت ، لب « وسقياه » (٣) راجع ديوان ابن زيدون ص ٩٠

فاشحذْ بحُسْنِ الرأىِ عزمِى يُرَعْ　　منه العِدَا بكلّ شاكِى[١] السِّلاحْ
واشفَعْ فللشافِع نُعمَى بما　　تُمِرُّ من عَقْدٍ وَثِيقِ النَّواحْ
إنّ سحابَ الأُفْقِ منها الحيَا　　والحمْـــدُ فى تأليفها للرِّياحْ

وكان القاضِى أبو بكر ابنُ ذكوانَ ، أجلَّ مَن اشتملَ عليه أوان ، مَجْدًا وشرَفا ، وتفنُّنًا فى العلم وتصرُّفا ، مع دُعابةٍ حينَ خَلَواتِه تحُلُّ حُبَى المحتبِى ، ورَقاعةٍ عند نَشَواته كالتَّنوخىّ والمُهَلَّبِى ؛ فإذَا أصبحُوا بكرَ أبو بكرٍ إلى مُصادرةِ ما يتَّجهُ عليه الحُكْمُ ومواجهَته ، وأنكرَ ما كانَ عليهِ من فكاهته ، فكأنَّما فى بُرديهِ الإمام[٢] ، وكأنّه وقارٌ يدخل أو شمام ، مع عدلِه فى قضائِه ، وإنفاذِ الحكمِ بمقتضَى الحقّ وإمضائِه . حتى إذا راحَ الرَّوّاح عادُوا إلى القَصف ، وتجاوزُوا فى ميْدَانهم كلّ وصف ؛ إلى أنِ اختُلِسَ أبو بكرٍ منهما ، وتقلّصَ ذيلُ مُؤانستِه عنهما ، فاعْتاضَا عنه بسِواه ، وأفاضَا فيما كانَا فيه وما تعدَّياه .

واتفقَ أنْ مرَّ يوماً بقبرِه فى لُمَّةٍ من إخوانه ، وجماعةٍ من عُمّارِ ميْدانِه ، فعطفُوا عليه مسلِّمين ووقفُوا عليْه متألِّمين ، فقال أبو الوليد[٣] :

ما أقْبحَ الدُّنيا خِلافَ مُودَّعٍ　　غَنِيَتْ به فى حُسنِها تختالُ
يا قبْرَهُ العطِرَ الثَّرى لا يبعَدَنْ　　حُلْوٌ منَ الفتيانِ فيكَ حِلالُ
ما أنتَ إلا الجفْنُ أصبحَ طيَّهُ　　نَصْلٌ عليه من الشَّبابِ صِقالُ
يا مَنْ شَأى الأمثالَ منهُ واحدٌ　　ضُرِبتْ به فى السؤددِ الأمثالُ
نقصتْ حياتُكَ حينَ فضلُكَ كاملٌ　　هلّا استضاف[٤] إلى الكمالِ كمالُ !

(١) كذا فى الأصول ، وفى الديوان : « أليس شاكى »
(٢) ب ، ت ، لب : « الأنام »　(٣) راجع ديوانه ص ١٥٤
(٤) كذا فى جميع الأصول ، وفى الديوان : « استضيف »

زرناكَ لم تأذنْ كأنّكَ غافلٌ ما كانَ منكَ لواجبٍ إغفالُ
أينَ الحفاوةُ روضُها غضُّ الجنَى ؟ أينَ الطلاقةُ ماؤُها سَلْسالُ ؟
هيهاتَ لا عهدٌ كعهدِكَ عائدٌ[1] إذْ أنتَ فى وجهِ الزّمانِ جمالُ
فاذهبْ ذهابَ البُرْءِ أعقبَه الضّنَى والأَمْنِ وافتْ بعدَه الأوْجالُ
حيَّا الحيَا مثواكَ وامتدتْ عَلَى ضَاحِى ثَراكَ من النعيمِ ظِلَالُ ٥
وإذَا النسيمُ اعْتلَّ فاعْتامتْ بهِ ساحاتِكَ الغُدُواتُ والآصالُ
ولئِنْ أذالكَ بعدَ طولِ صِيانةٍ قدرٌ فكلُّ مصونةٍ ستُذَالُ

وله[2] :

عَلَى دارةِ الشَّرْقِ[3] منّى تحيةٌ زكتْ وعَلَى وادِى العقيقِ سَلَامُ
ولا زالَ روضٌ بالرُّصافةِ ضاحكٌ بأرجائِها يبكِى عليهِ غَمامُ ١٠
معاهدُ لَهْوٍ لمْ نزَلْ فى ظِلالِها تُدارُ علينا للسُّرورِ مُدامُ
زمانَ رياضُ العيشِ خُضْرٌ نواعِمٌ تَرِفُّ وأمواهُ النعيمِ جِمامُ
فإنْ بانَ منّى عهدُها فبلَوْعَةٍ يُشَبُّ لَها بينَ الضلوعِ ضِرامُ
تذكَّرتُ أيامِى بِها فتبادَرتْ دُموعِى كَمَا خانَ الفَريدَ نظامُ
ومِنْ أجلِها أدعُو لقرطُبَةَ المُنَى بِسُقْيَا ضَعيفِ الطَّلِّ وهْوَ رِهَامُ ١٥
فما لحقَتْ تلكَ اللّيالِى ملامةٌ ولا ذُمَّ من ذاكَ الحبيبِ ذِمامُ[4]

---

(١) ب ، ت ، لب : « غابر » (٢) راجع ديوانه ص ٢٧٦
(٣) كذا فى الأصول ، وفى الديوان : « على الثغب الشهدى »
(٤) كذا فى الديوان ، وفى جميع الأصول : « حمام »

وله[١] :

خَلِيلَيَّ لا فِطْرٌ يسُرُّ ولَا أضْحَى فما حالُ مَنْ أمسَى مشُوقاً كما أضْحَى ؟

لِئِنْ شاقَنِي شَرقُ العُقابِ فلم أزَلْ أخُصُّ بمَخْصوصِ الهوَى ذلكَ السَّفْحا[٢]

وما انفكَّ جوفِيُّ الرُّصافةِ مُشْعِرِى دواعِيَ بثٍّ يُعقِبُ الأسفَ البَرْحا

ويهْتاجُ قصرُ الفارسِيِّ صبابةً لقلبِيَ لا تأْلُو زِنادَ الأسَى قَدْحا

٥ وليسَ ذميماً عهدُ مجلسِ ناصحٍ فأقبلَ فى فرطِ الوُلوعِ به نُصْحا

كأنِّيَ لم أشهدْ لدَى عَينِ شَهْدَةٍ نِزَالَ عتابٍ كانَ آخرُه الفتْحا[٣]

وقائعُ جانيهَا التجَنِّى فإنْ مشَى سفيرُ خضُوعٍ بيننَا أكّدَ الصُّلحا

وأيامُ وصْلٍ بالعقيقِ اقتضَيْتُها فإنْ لا يكُنْ ميعادُه العِيدَ فالفِصْحا

معاهدُ لذّاتٍ وأوطانُ صَبْوَةٍ أجَلْتُ المُعَلَّى فى الأمانِى بها قِدْحا

١٠ ألا هلْ إلى الزَّهراءِ أوبةُ نازحٍ تقضَّتْ مبانِيهَا مدامعَه نَزْحا !

مقاصِرُ مُلْكٍ أشرقَتْ جَنَباتُها فخِلْنا العِشاءَ الجَوْنَ أثناءَها صُبْحا

محَلُّ ارْتِياحٍ يذْكِرُ الخُلْدَ طِيبُهُ إذا عزَّ أنْ يَصْدَى الفتَى فيه أو يَضْحَى

هناكَ الجِمامُ الزُّرْقُ تندَى حِفافُها ظِلالٌ عهِدْتُ الدَّهرَ فيها فتًى سَمْحا

تعوّضْتُ منْ شدْوِ القِيانِ خِلالَها صَدَى فَلَوَاتٍ قدأطارَ الكَرى ضَبْحا

١٥ ومِنْ حَمْلِيَ الكأسَ المفدَّى مُدِيرُها تقحُّمَ أهوالٍ حمَلْتُ لها الرُّمْحا

وله يرثى[٤] :

أعبّادُ يا أوْفَى الملوكِ لقد عدَا عليك زمانٌ مِنْ سجِيَّتِهِ الغَدْرُ

---

(١) راجع ديوانه س ٥٤ (٢) لم يقع هذا البيت فى وه

(٣) ب ، ت ، لب : « الفلحا » (٤) راجع ديوانه س ١٤١

فهلّا عداه أنّ علياك حليه — وذكراك فى أردان أيامه عطر ؟

أأنفس نفس فى الورى أقصد الرّدى ؟ — وأخطر علق للهدى أفقد الدهر ؟

فهل عَلِمَ الشّلو المقدّس أننى — مسوّغ حال ضلّ فى كنهها(١) الفكر ؟

وأنّ مناى لم يضعه محمدٌ — خليفتك العدل الرّضا وابنك البرّ ؟

وأرغم فى برّى أنوف عصابة — لقاؤهم جهم ومنظرهم شزر

إذا ما استوى فى الدّست عاقد حبوة — وقام سماطا حفله فلى الصّدر

ونلمع(٢) من أخبار هذه الوقعة بلمعة :

قال أبو مروان(٣) : وفى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة(٤) أوقع ابن عبّاد بابن الأفطس إلى جنب يابرة . وكان سبب هذه الحرب أنّ فتح بن يحيى(٥) صاحب لبلة يومئذ حليف(٦) ابن الأفطس والى عبّادا(٧) لضرورة ، فكاشفه ابن الأفطس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصّامت ، عند ما حمله إليه وديعة وقت تورّطه فى حرب عبّاد قبل ؛ وانبتّت بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفطس فى ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستغاث عبّادا فأرسل إليه خيلا منتقاة ، فلحقت الخيل الأفطسيّة وهى قد شنّت الغارة على لبلة ، فكرّت عليهم إذ كانوا ضعفهم ، واسترسلوا فى اتّباع العبّاديّين ولا يشعرون ، فإذا بعبّاد بجملته فى كمين قد خرج إثرهم ، فدهشوا وولّوا الأدبار فركبهم

(١) م : « وهمها »
(٢) رجع الكلام فى ر
(٣) ذكر الخبر مجملا فى ر ، ومفصلا فى بقية النسخ . وقد آثرنا إثبات الرواية المفصلة
(٤) ز فى ب ، ت ، م ، لب
(٥) ر : « ابن عباد »
(٦) ب ، ت ، لب ، م : « خليفة »
(٧) م : « آل عباد »

السَّيفُ ، وبذلَ عبّادُ المالَ فى رُؤوسِهِم ، وكانتْ نَقاوةَ خيلِ ابن الأفطسِ وأبطالَ رجالِه ، فجُزَّ لعبّادٍ من رؤوسهم مائةٌ وخمسُون رأساً ومن خيلِهم مثلُها . فقصَّ جَناحَ قِرْنِه ، وأفنى حُماةَ رجالِه. ثم إنَّ عبّادًا إثْرَ ذلكَ جمعَ خيلَ حُلفائِه وخيلَه وقوَّد عليها ابنَه إسماعيلَ مع وزيرِه ابنِ سَلّام ، وخرج نحو بَلَدِ ابن الأفطسِ يابُرة . وقد استدعَى أيضاً ابنُ الأفطسِ حَليفَه إسحاقَ بنَ عبدِ الله فلحقتْ به خيلُه مع ابنــه العِزِّ بعد أنْ جمعَ ابنُ الأفطسِ بقايا جيشِه من هزيمتِهم المتقدِّمةِ الذِّكر ، وأخرجَ كلَّ مَن قدَر على ركوبِ دابّةٍ من البياضِ ببلدِه ، وحشَر من رجال البوادى بعَمله خلقاً كثيراً ، وأقبلَ بجمعِه هذا المنْخوبِ ليدفعَ خيلَ ابنِ عبّادٍ عن بلدِه يابُرة ، وقد كان برابرةُ حليفه إسحاق فى عسكرِه قالوا له : لا تلقَهُم[1] فلستَ تعرِفُ قدْرَ مَن زحفَ نحوَكَ ، ونحنُ رأيناهُم وسمعنا بجمعِهم بإشبيليّة ، فلم يسمعْ منهم ومضَى. فالتقَى الفريقانِ من غيرِ نزولٍ ولا تعبئةٍ ، فاختلطُوا واجتلدُوا مليًا ، فحقّق العبّاديُّون الضِّرابَ ، وتابعُوا الشَّدّات ، فحاد البرابرُ عنـه أصحابُ إسحاق ، وانهزمَ ابنُ الأفطسِ ، وحُمِلَ السيفُ على جميعِ من معَه ، فاستأْصَلَهم القتلُ ، وقُتِلَ ولدُ إسحاقَ العِزُّ ، وحُزَّ رأسه وبُعِثَ به إلى إشبيليّة مع رأسِ ابنِ عمِّ ابنِ الأفطسِ صاحبِ يابُرة يُدعَى عبيدَ الله الخرّاز ، ونجا ابنُ الأفطسِ فى قطعةٍ من خيلِه إلى يابُرة .

قال أبو مروان : وأقلُّ ما سمعتُ فى إحْصاء قتلَى هـذه الوقيعةِ من ثلاثةِ آلافِ رجلٍ فأزْيد . وأخبرنِي مَنْ أثقُ به أن بَطَلْيوسَ بقيَتْ مدةً خاليـةَ الدَّكاكينِ والأسواقِ من استئصالِ القتْلِ لأهلِها فى وقعةِ ابنِ عبّادٍ هذه بفتيان

(١) ب ، ت ، لب : « لا تتبعهم »

أغمار إلاَّ الشيوخَ والكهولَ الذين أصيبوا يومئذ . فاستدَلّتْ بذلك على فشُوّ المصيبةِ . وجزع إسحاقُ بنُ عبدِ الله من مُصاب ابنه ، ولم يخضع لضِدّه عبادٍ فى طلبِ رأسِ ابنه ، فإنَّ عبَّادًا ضافهُ إلى رأس جدّه محمدِ بنِ عبدِ الله الذى هو مختزن عنده بإشبيليَة . انتهى كلامُ ابنِ حيان .

قالَ ابنُ بَسّام : ولم يزَل الرأسانِ عندَ آلِ عبّادٍ مع عِدّةِ رؤوسٍ أهدتْها ٥ إليهم الفتنةُ المُبيدةُ ، حتى فُتحتْ إشبيليَّةُ عَلَى الأميرِ الأجلّ سيرِ بنِ أَبى بكر فجىء بجُوالِقٍ مقفلٍ مطبوعٍ عليه[1] ، فأمرَ بفتحه ، لا يشكُّ أنّه مالٌ أو ذخيرةٌ ، فإذا هو مملوءٌ مِنْ رُؤوس . فأعظمَ ذلكَ وهالَه ، وأمرَ بدفعِ كل رأسٍ منها إلى مَنْ بَقِيَ مِنْ عقبِه بالحضْرة .

حدثنى مَنْ رأى رأسَ يحيى بنِ على الحمُّودىّ ثابتَ الرَّسْمِ ، غيرَ متغيّرِ ١٠ الشكلِ ، فدُفعَ إلى بعضِ ولدِه فدفنَه .

قال ابنُ زيدونَ فى ابن جهْوَرٍ منْ قصيدةٍ أولها[2] :

أجَلْ ! إن ليلَى حيثُ أحياؤها الأَزْدُ	مهاةٌ حمتْها فى مراتِعها[3] الأُسْدُ
يمانيّـــةٌ تدنُو وينأى مزارُهَا	فسيّانِ منْها فى الهوَى القربُ والبُعْدُ[4]
إذَا نحنُ زُرْناها تمرّدَ ماردٌ	وعزَّ ، فلمْ نظْفرْ به[5] ، الأبلقُ الفرْدُ ١٥
هو الملكُ المشفوعُ بالنُّسْكِ مُلْكُه[6]	فلِلّهِ ما يخفَى ولِلّهِ[7] ما يَبْدُو

(١) م : « مختوم عليه » (٢) راجع ديوانه ص ١٧٧

(٣) ب ، ت ، لب ، م : « مرابضها »

(٤) لم يقع هذا البيت والذى يليه فى ر

(٥) كذا فى الديوان ، وفى جميع الأصول : « فلم يظفر بها »

(٦) ب ، ت ، لب ، م : « قلبه »

(٧) ب ، ت ، لب : « فيا ملك ما يخفى ويا سرّ »

لقد أوْسَعَ الإسْلامَ بالأمسِ حِسْبةً نَحتْ غرضَ الأجرِ الجزيلِ فلم تَعْدُ
أباحَ حِمَى الخمرِ الخبيثةِ حائطًا حِمَى الدِّينِ من أن يُستباحَ له حَدُّ
فطوّقَ باستئصالها المِصْرَ مِنَّــةً يكادُ يؤدّى شكرَها الحجرُ الصَّلْدُ
غَنِيٌّ، فحُسْنُ الظَّنِّ باللهِ ما لَهُ عَزيزٌ، فصُنْعُ اللهِ من حَوْلِه جُنْدُ[1]
٥ لنعمَ حديثُ البِرِّ أوْضَعَتْ[2] الصَّبَا تَبُثُّ نثاهُ حيثُ لا يُوضِعُ البُرْدُ[3]

وكانَ ابنُ جهورٍ كسرَ يومئذٍ دِنَانَ الخمرِ، وكان مدحه أيضاً يومئذ بمثل ذلكَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ سعيد المصغّر[4] بشعرٍ أوّلُه:

كسَرْتَ لِجَبْرِ الدينِ أوعيةَ الخمرِ فأحرزْتَ خَصْلَ السَّبقِ فى الكَسْرِ والجَبْرِ
عمدْتَ إلى الشَّرِّ الذى جَمَعُوا لَهُ ففرّقْتَ منهُ، فاسترحْنا من الشَّرِّ[5]

١٠ فى أبياتٍ غيرِ هذه استبردْتُ جملتَها. وإنما ذهبَ إلى عكسِ قولِ من تقدّم من عُبّاثِ[6] الشعراء من ذمِّ صبِّ الشرابِ. ومن أشهرِه قولُ بكرِ بن حارثةَ الكُوفى، وقد رأى من سلطانِ وقتِهِ مثلَ ذلكَ فقال:

يا لقَومِي ممّا جنَى[7] السلطانُ لا يكُنْ للّذى أهانَ الهوانُ!
سَكَبُوا فى التُّرابِ من حَلَبِ الكرْ مِ عُقَارًا كأنّها الزَّعفرانُ
١٥ صبَّهَا فى مكانِ سَوْءٍ، لقد صا دَفَ سعدَ السُّعودِ ذاكَ المكانُ

(١) كذا فى الديوان، وفى الأصول:
عزيز بحسن الظن بالله، ماله عرين، فصنع الله من حوله جند
(٢) ب، ت، لب، وه: «أوضعت»
(٣) لم يقع هذا البيت والذى قبله فى ر
(٤) ر: «عبد الرحمن بن الأسعد» — وه: «عبد الرحمن بن سعد»
(٥) لم يقع هذا البيت فى ر (٦) وه: «أعيان»
(٧) ب، ت، لب، وه: «لقد جنى»

مِنْ كُمَيْتٍ يُبْـدِى المِزاجُ لها لُؤْ   لُؤَ نظمٍ والفَصْـــلُ(١) فيها جُمانُ
فإذا ما اصطبَحْتُها صَفَّرَتْ فى القَدْ   رِ عنـــدِى مَنْ أُمُّهُ الخيزُرانُ
كيف صبْرِى عن بعضِ نفسى وهل يصْ   بِرُ عن بعضِ نفسِـــه الإنسانُ ؟

وبلغنى أنّ الجاحظَ أُنشِدَ هذهِ الأبياتَ ، فقالَ للمُنشِدِ : « مِنْ حقّ الفتوّةِ أنْ أكتبَها قائماً ، وما أقدِرُ إلاّ أنْ تَعْمِدَنِى » لِنقرِسٍ كان به . قال المحدّث : فعمدْتُه وقام فكتبها .

وكان بكرُ بنُ حارثةَ هـذَا مولَى بنِى أسدٍ ، طيّبَ الشّعرِ ، خليعًا ما جنًا ، وكانَ يألَفُ هُدْهُداً فى موضِـعٍ يأتيه كلّ يومٍ بِقنّينةِ شرابٍ ، فلا يزالُ يشربُ على صوتهِ إلى أنْ يَسْكَرَ(٢) ، وكانَ أيضاً يهوَى غلامًا نصرانيًا وهو القائل :

(٣)زُنّارُه فى خَصْرِهِ معْقودُ   كأنّه من كبدِى مقْدودُ

وبكرٌ القائل(٣) :

قلْبِى إلَى ما ضَرّنِى دَاعِى   يكثِرُ أسقـــامِى وأوجاعِى(٤)
كيفَ احتِراسِى من عدُوّى إذا   كان عدُوّى بينَ أضْـــلاعِى ؟

ولصَالحِ بنِ عُبَيْدٍ فى مثلِ ما تقدّم :

ليسَ هَمّى ولا طَويلُ انتحابِى   لمشيبٍ أدَالَ(٥) عنّى شـبابِى
لاَ ، ولاَ لا غترابِ أحبابِ قلبى   أو لصَدّ الإخوانِ والأصْحابِ
إنّما حسْرتِى وعَــبْرةُ عَيْنِى   لِشَرابٍ يُصَبُّ فوقَ التّرابِ
سُرّتِ الأرضُ حينَ صُبَّ عليْهَا   فبكتْ صَبّةً عيونُ السّـحابِ

(١) ر : « والفضل » (٢) ر ، لب : « يسكن » (٣ — ٣) د فى ب
(٤) هذان البيتان ينسبان إلى العباس بن الأحنف . (راجع ديوانه ص ١٠١)
(٥) ب ، ت ، د ، لب : « أزال »

رجع :

وقالَ ابنُ زيدونَ[١] يرثِي [القاضى أبا بكر ابن ذكوان[٢]] :

انظرْ لحَالِ السَّرْوِ كيفَ تحالُ ولدولةِ العَلْياءِ كيفَ تُدالُ[٣]

مَنْ سُرَّ لمَّا عاشَ قلَّ متاعُهُ فالعيشُ نومٌ والسُّرورُ خيالُ

٥ ولَّى أبُو بكرٍ فراعَ له الوَرَى هولٌ تقاصرُ دونَهُ الأهوالُ

يا مَنْ شأَى الأَمثَالَ منهُ واحدٌ ضُربتْ بهِ فى السؤْدُدِ الأَمثالُ

نقَصتْ حياتُكَ حينَ فضلُكَ كاملٌ هلاَّ استُضِيفَ إلى الكمالِ كمالُ ؟

مَنْ للقَضَاءِ يعزُّ فى أثنائِهِ إيضاحُ مُشكِلةٍ لها إشكَالُ

مَنْ لليتيمِ تتابعتْ أرزاؤُهُ ؟ هلكَ الأبُ الحانِى وضاعَ المالُ

١٠ هيهاتَ لا عهدٌ كعهدِكَ عائدٌ إذْ أنْتَ فى وجهِ الزَّمانِ جمالُ

حيَّا الحيا مثْوَاكَ وامتدَّتْ عَلَى ضاحِى ثَراكَ من النَّعيمِ ظِلالُ

وإذَا النَّسيمُ اعتلَّ فاعْتامَتْ بهِ ساحاتِكَ الغُدُوَاتُ والآصَالُ

ولَئِنْ أذالكَ[٤] بعد طُولِ صِيانةٍ قدرٌ فكلُّ مَصُونةٍ ستُذالُ

وقال ابن زيدون[٥] يرثى أبا الحزمِ ابن جهْور من قصيدة أولها[٦] :

١٥ ألمْ ترَ أنَّ الشمسَ قد ضمَّها القَبْرُ وأنْ قد كفانَا فقدَها القمرُ البدْرُ ؟

وأنَّ الحيَا إنْ كانَ أقلعَ صَوْبُهُ فقدْ فاضَ للآمالِ فى إثْرِهِ البَحرُ

إساءةُ دهرٍ أحسَنَ الفِعلَ بعدَها وذنبُ زمانٍ جاءَ يتبعُه العُذْرُ

---

(١) ذكرت أبيات من هذا الرثاء فى ص ٣٥٨ (٢) راجع ص ٣٥٨

(٣) لم تقع هذه القصيدة فى ر (٤) فى الأصول : « أذلك »

(٥) راجع ديوانه ص ١٥٠ (٦) ب ، ت ، لب ، ه : « وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثى بها أبا الحزم ابن جهور »

فلا يتهنَّ الكاشحون فما دجا ... لنا الليلُ إلاَّ ريثما طلع الفجرُ
وإن يكُ ولَّى جهورٌ فمحمَّدٌ ... خليفتُه العدْلُ الرِّضا وابنُه البَرُّ[1]
لعمرى لنِعْمَ العلقُ أتلفه الرَّدى ... فبانَ ونعمَ العلقُ أخلفه الدهرُ
هُمامٌ جرى يتْلو أباهُ كما جرى ... مُعاويةٌ يتلو الَّذى سَنَّهُ صَخْرُ[2]
فقلْ للحيارى قد بدَا علَمُ الهُدَى ... وللطامعِ المغرورِ قد قُضِيَ الأمرُ
أبا الحزمِ قد ذابتْ عليكَ من الأسَى ... قلوبٌ ، ومنها الصَّبرُ لوساعدَ الصبْرُ
دعِ الدَّهرَ يفجعْ بالذَّخائرِ أهْلَهُ ... فما لنفيسٍ إذْ طواكَ الرَّدى قَدْرُ
مَساعيكَ حَلْىٌ للزمانِ مُرَصَّعٌ ... وذِكْرُكَ فى أرْدانِ أيّامها[3] عِطْرُ[4]
أمامكَ مِن حفظِ الإلهِ صنيعَةٌ ... وحولكَ من آلائه عَسْكرٌ مَجْرُ
وما بكَ من فقْرٍ إلى نَصْرِ ناصرٍ ... كفتْكَ من اللهِ الكَلاءةُ والنصرُ
تحامَى العِدَا لَمَّا اعتلقتُكَ جانِبى ... وقالَ المُناوى : شبَّ عن طَوقه عَمْرُو

ووجدتُ له قصيدةً أخرى ، على رويِّها ووزنِها ، رثى بها أم أبى الوليد ابن جهْور ، وكرَّر أكثر أبياتها ، أولُها[5] :

هوَ الدَّهْرُ فاصبرْ للَّذى أحدثَ الدهْرُ ... فمن شِيَمِ الأحرارِ فى مثلِها الصبرُ

يقول فيها :

هنيئاً لبطنِ الأرضِ أنسٌ مُجَدَّدٌ ... بثاوِيَةٍ حلَّتْهُ فاستَوْحشَ الظَّهرُ
بطاهرةِ الأثوابِ قانتةِ الضُّحَى ... مُسبِّحةِ الآناءِ محرابُها الخِدْرُ[6]

(١) هذا البيت والأبيات الأربعة التى تليه ناقصة فى ر

(٢) لم يقع هذا البيت فى ديوانه (٣) فى النسخ : « أيام أردانها »

(٤) هذا البيت وما يليه إلى آخر القصيدة ناقص فى ر

(٥) راجع ديوانه ص ١٧٤ (٦) لم يقع هذا البيت فى ر

فإنْ أُنِّثتْ فالنَّفسُ أُنْثى نفيسةٌ إذِ الجِسْمُ لا يسْمُو بتذكيرِه ذِكْرُ
حَصَانٌ إذا التَّقوى استبدّتْ بذِكْرِها (١) (٢) فمِنْ صَالحِ الأعمالِ يُسْتَوْضَحُ الجَهْرُ
بنِى جَهْوَرٍ أنتم سماءُ رياسةٍ مناقِبُكُم فى أُفْقِها أنجمٌ زُهْرُ
تَرَى الدَّهرَ إنْ يبطِشْ فمنكمْ يمينُهُ وإنْ تضحكِ الدنْيَا فأنتمْ لها ثغْرُ
٥ لكم كلُّ رَقراقِ السَّماحِ كأنَّهُ حُسامٌ عليهِ من طَلاقتِهِ أثْرُ

إلى أبياتٍ غيرِ هذِه من سائرِ أبياتِ القَصيدةِ استمرَّ فيها بالتقديمِ والتأخيرِ، والتأنيثِ والتذكير[1]، ثم رثى بها آخرًا عبَّادًا المعتضِدَ، وجعلَ أوّلَ قصيدتِه قولَه :

* هو الدهرُ فاصبِرْ للذى أحدثَ الدهرُ *

١٠ البيت المتقدم، ثم أتبعَه بقولِه[3] :

حياةُ الورَى نهجٌ إلى الموتِ مهْيَعٌ لهُ فيهِ إيضاعٌ كما يُوضِعُ السَّفْرُ[4]
فيا وَاضِحَ المِنْهاجِ جُرْتَ، فإنَّما هُوَ الفجْرُ يَهْدِيكَ الصِّراطَ أوِ البَحْرُ
إذَا الموتُ أضْحَى قَصْرَ كلِّ مُعمَّرٍ فإنَّ سَواءً طالَ أو قَصُرَ العُمْرُ
ألمْ تَرَ أنَّ الدِّينَ ضِيمَ ذِمارُهُ فلم تُغنِ أنصارٌ عديدُهم كُثْرُ؟
١٥ بحيْثُ استقلَّ الملكُ ثانِيَ عِطفِهِ وجرَّرَ منْ أذيالِهِ العسْكَرُ المَجْرُ
أأنفسَ نفسٍ فى الورَى أقصدَ الرَّدَى وأخطرَ عِلْقٍ للهُدَى أفقدَ الدَّهرُ[5]
أعبَّادُ يا أوْفَى الملوكِ لقدْ عدَا عليْكَ زمانٌ من سجيَّتِهِ الغَدْرُ
فهلَّا عَدَاهُ أنَّ علياكَ حَلْيُهُ وذِكْرَكَ فى أردانِ أيامِهِ عِطْرُ؟

(١ — ١) ىه فى ر (٢) كذا فى النسخ، وفى الديوان : « بسرها »
(٣) ذكرت أبيات من هذا الرثاء فى ص ٣٦٠، ٣٦١
(٤) لم يقع هذا البيت فى ر (٥) هذا البيت ناقص فى ر

غُشِيتَ فلم تَغشَ الطِّرادَ سَوابِحٌ ولا جُرِّدَتْ بِيضٌ ولا أُشْرِعَتْ سُمرُ[(١)]
لَئِنْ كانَ بَطْنُ الأَرضِ هُنِّئَ أُنسَهُ بأَنَّكَ تأوِيهِ لقد أوحشَ الظَّهْرُ
ولا ثَنَتِ المحْذُورَ عنكَ جَلالةٌ ولا عَدَدٌ دَثْرٌ ولا نائلٌ غَمْرُ[(٢)]
فهلْ عِلِمَ الشِّلْوُ المقدَّسُ أنَّنِي مُسَوَّغُ حالٍ ضلَّ فى كنهها الفِكْرُ ؟
وأَنَّ مَتاتِي لم يُضِعْهُ محمّدٌ خليفتُكَ العَدْلُ الرِّضَا وابنُكَ البَرُّ ؟
وأَرْغَمَ فى بِرِّى أُنوفَ عِصابةٍ لقاؤُهُم جَهْمٌ ولحظُهُمُ شَزْرُ
إذا ما اسْتَوَى فى الدَّستِ عاقدَ حَبْوةٍ وقامَ سِماطًا حَفْلِهِ فلِيَ الصَّدْرُ

فتلاعَبَ أبو الوليد كما ترى فِي هذه القصيدةِ تلاعُبَ الحطيئةِ بنسبه[(٣)] ، وتصرَّفَ تصرُّفَ أبى حنيفةَ فى مذهبِه ، فأنَّثَ وذكَّرَ ، وقدَّم وأخَّر . قال أبو العلاء[(٤)] :

رُبَّ لَحْدٍ قد صارَ لَحْدًا مراراً ضاحِكٍ منْ تزاحُمِ الاضْدادِ

و بلغنِي أنه وُجِدَ لابنِ زيدونَ إثْرَ موتِ عبَّادٍ شِعرٌ يقولُ فيه :

لقدْ سرَّنا أنَّ النَّعِيَّ مُوَكَّلٌ بِطاغِيةٍ قد حُمَّ منهُ حِمَامُ[(٥)]
تجانبَ صَوْبُ المزْنِ عن ذلكَ الصَّدَى ومَرَّ عليْهِ الغيثُ وَهْو جَهَامُ

وقال يخاطبُ الوزيرَ أبا عامرِ ابنَ عبْدُوسَ من قصيدةٍ أوَّلُها[(٦)] :

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرَى إذْ رَبَضْ ونبَّهتَهُ إذ هَدَا فاغتمضْ
ومَا زِلْتَ تبسُطُ مُسْتَرسِلاً إليْه يدَ البَغْيِ لمَّا انقبضْ[(٧)]

(١) هذا البيت ناقص فى ر (٢) هذا البيت وما يليه إلى آخر القصيدة ناقص فى ر
(٣) ر : « فى نسبه » (٤) راجع سقط الزند ص ٢٠٩
(٥) هذان البيتان فى ديوانه (٦) راجع ديوان ابن زيدون ص ٢٣٧
(٧) هذا البيت ناقص فى ر

أرَى كلَّ مُجْـرٍ أبَا عامرٍ يُسَرُّ إذا فى خلاه رَكَضْ[(١)]
أُعيذُكَ مِن أنْ ترَى مَنْزَعِى إذا وترَى بالمنايَا انتفضْ
أبا عامرٍ أينَ ذاكَ الوَفاء إذِ الدّهرُ وسنانُ والعيشُ غضّ ؟
وأينَ الّذى كنتَ تعتَـدُّ مِنْ مُصافاتِىَ الواجبَ المُفترَضْ ؟[(٢)]
٥ عَمَدْتَ لشِـعْرِى ولم تَتَّئِدْ تُعارِضُ جوهرَه بالعرَضْ
لعَمْرِى لفوّقْتَ سَهْمَ النِّضالِ وأرسلْتَه لو أصبْتَ الغرَضْ[(٣)]
وشمّرْتَ للخوضِ فِى لُجَّةٍ هِى الموتُ سـاحلُها لم يُخَضْ
وغرّكَ من عهْـدِ وَلّادةٍ سَرابٌ تراءى وبرْقٌ ومَضْ
هِى الماء يأبَى علَى قابضٍ ويمنعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ
١٠ وبعدُ ما أمسكت عنه.[(٤)]

قوله : « هو الماء يأبى على قابض » ، البيت ، أبلغُ منه فى المعنى قولُ الوزير أبى محمد ابن عبد الغفور :

هى الشمسُ تأبَى على قابضٍ إذا الماء نالتْ نداه اليَـدُ[(٤)]

ونُبِّئْتُها بعدِىَ استحمـدَتْ بسيرٍ إليكَ لمغْـنًى غَمَضْ[(٥)]
١٥ أبا عامرٍ عَثْرَةٌ ، فاسْـتَقِلْ لتُبرِمَ مِنْ وُدِّهَا ما انتقَضْ
ولا تَعتصِمْ ضَـلّةً بالحِجَاجِ وَسَلِّمْ فربَّ احتجاجٍ دَحَضْ[(٦)]
وحسْبِىَ أنّى أطِبْتُ الجَنَى لأفنَـانِهِ وَأبحْتُ النَّفَضْ

(١) لم يقع هـذا البيت والذى يليه إلا فى ر
(٢) هذا البيت ناقص فى ر (٣) لم يقع هذا البيت فى ر
(٤ — ٤) ره فى ب ، ت ، لب ، وه
(٥) لم يقع هذا البيت ولا الأبيات التى تليه فى ر
(٦) كذا فى الديوان ، وفى الأصول : « غمض »

ويهْنِيكَ أنَّكَ يا سَـيِّدِى غَدوتَ مُقارِنَ[١] ذاكَ الرَّبَضْ

ومما[٢] أغفلَ ابنُ بسّام ، من نسيبِ أبى الوليدِ الصَّحيحِ الأقسام ، النازحِ عن الأطماعِ والأوهام ، المُصدِّقِ قولَ الجعفريةِ فيما يُنصُّ من الإلهام ، قولُه[٣] :

لئن قهرَ اليأسُ فيكِ الأمَلْ وحالَ تجنّيكِ دونَ الحِيَلْ

وناجاكِ بالإفكِ فِيَّ الحسُودُ فأعطيْتِهِ جهرَةً ما سأَلْ

وراقكِ سحرُ العِدَا المفْتَرَى وغَرَّكِ زُورُهمُ المفتعَلْ

وأقبَلْتِهِمْ فِيَّ وجْهَ القبُولِ وقابَلْهُم بِشْرُكِ المقتبَلْ[٤]

فإنَّ ذِمامَ الهوَى لَنْ أزالَ أُبَقِّيهِ حِفْظاً[٥] كما لمْ أزَلْ

فَدَيتُكِ ، إنَ تعْجَلِى بالوفاءِ[٦] فقد يهَبُ الرَّيْثَ بعضُ العَجلْ

عَلامَ اطَّبَتْكِ[٧] دواعِى القِلَى وفيمَ نهتْكِ نواهِى العَذَلْ ؟

ألمْ أُوثِرِ الصَّبرَ كيما أخِفَّ ألمْ أُكثِرِ الهجْرَ كيلاَ أُمَلّ ؟

ألمْ أرْضَ منكِ بغيرِ الرِّضا وأُبدِى السُّرورَ بما لمْ أنَلْ ؟

ألمْ أغتفِرْ مُوبقاتِ الذُّنو بِ عَمْدًا أتيْتِ بها أمْ زَلَلْ ؟

وما ساءَ ظنِّىَ فِى أن يُسِيءَ بِىَ الفعلَ حسنُكِ حتَّى فعَلْ

عَلَى حِينَ أصبحْتِ حَسْبَ الضَّميرِ ولم تَبْغِ منْكِ الأمانِى بَدَلْ

وَصانَكِ منِّى وفِيٌّ أبِيٌّ لِعِلْقِ العَلاقةِ أنْ يُبْتذَلْ

(١) كذا فى الديوان ، وفى النسخ « فى هول » (٢) هنا يبدأ خرم فى ر وينتهى بابتداء خبر ولادة ص ٣٧٦ . وأغلب الظن أن غير المؤلف أضاف هذه الزيادة فى النسخ الأخرى . (٣) راجع ديوانه ص ١٩٥ (٤) هذا البيت لم يقع فى ب

(٥) كذلك فى الديوان ، وفى الاصول : « أبليه حفظك »

(٦) فى الديوان « بالجفا » (٧) ر : « علام أطمت »

سَعَيْتَ لتكديرِ عَهْدٍ صَفَا ... وحاولتَ نقضَ ودادٍ كَمَلْ

فَما عُوفِيَتْ مِقَتِي منْ أذَى ... ولا أُعفيت ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ

ومهما هززْتُ إليكَ العتا ... بَ ظاهرتَ بين ضُروبِ[1] العِلَلْ

كأنّكَ ناظرتَ أهلَ الكلامِ ... وأوتيتَ فهمًا بعلمِ الجدَلْ

٥ ولو شئتَ راجعتَ حُرَّ الفعالِ ... وعُدتَ لتلكَ السجايا الأُوَلْ

فلمْ يكُ حظّيَ منكَ الأخسَّ ... ولا عُدَّ[2] سهمِيَ فيكَ الأقلّ

عليكَ السّلامُ سلامَ الوداعِ ... وَداعِ هوًى ماتَ قبلَ الأجلْ

وما باختياري تسلّيتُ عنكَ ... ولكنّني مكرَهٌ لا بَطَلْ

ولم يدرِ قلبِيَ كيفَ النُّزُوعُ ... إلى أنْ رأى سيرةً فامتثَلْ

١٠ وليتَ الذي قادَ عفوًا إليكَ ... أبِيَّ الهوى في عِنانِ الغزَلْ

يحيلُ عُذوبةَ ذاكِ اللّمى ... ويشفِي منَ السُّقمِ تلكِ المُقَلْ

وقولُه أيضًا :

فَديتُكِ ليسَ لي قلبٌ فأسْلُو ... ولا نفسٌ فآنفَ إنْ جُفيتُ[3]

فإنْ يكنِ الهوى داءً مميتًا ... لمَنْ يهوى فإنّي مُستَميتُ

١٥ أُسِرُّ عليكِ عَتْبًا ليسَ يَبْقَى ... وأُضمرُ فيكِ غَيْظًا لا يَبيتُ[4]

وما رَدّي على الواشينَ إلّا ... رَضيتُ بحبِّ قاتلتي رضيتُ

وقولُه :

أنّى أُضيّعُ عَهْدَكْ[5] ... أمْ كيفَ أُخلِفُ وعدَكْ ؟

وقدْ رأتكَ الأماني ... رضًا فلَمْ تتعَدَّكْ

٢٠ يا ليتَ مالكَ عندِي ... من الهوى لِيَ عندَكْ

(١) كذا في الديوان ، وفي الأصول : «صروف» (٢) في الأصول « عهد »
(٣) لم يرد هذا البيت ولا الذي يليه في الديوان (٤) راجع الديوان ص ٢٦٧
(٥) راجع الديوان ص ٢٦٦

وطالَ ليلُكَ بَعْدِى … كطولِ ليلِىَ بَعْدَكْ

سَلِى حياتِى أَهَبْها … فلستُ أَملِكُ رَدَّكْ

الدَّهرُ عبدِىَ لمَّا … أصبحتُ فى الحبِّ عبْدَكْ

ولأبى بكرِ بن عمارٍ يخاطبُ أبا الوليدِ ابنَ زيدُون رحمهما الله :

٥ كيفَ اعتززتَ علَى الذَّليلِ … وقطعتَ أسبابَ الوُصول؟

وقتلتَنِى وزعمتَ أنَّ م … الذَّنْبَ مِنَّا للقتيلِ

وعليكَ جاهَدْتُ العِدَا … وإليكَ مِلْتُ عنِ العَذُول

يا قاتِلِى ودَمِى بصَفْ … حَةِ خَدِّهِ أهدَى دَليلِ

ما أليقَ الفعلَ الجَمِي … لَ بذلكَ الوجْهِ الجميلِ !

١٠ أبرزتَ فِى خَلْقِ الكري … م وراءه خلق البَخيلِ

ودعوتَنِى حتَّى أجبْ … تُكَ ثمَّ حِدْتَ عنِ السَّبيلِ

جُدْ بالقليلِ فإنَّ نَفْ … سِىَ منكَ تقنعُ بالقَليلِ

واذكُرْ على زمنٍ قطعْ … نَاهُ بصافيةٍ شمولِ

إذْ نسْحَبُ الأذيالَ مَا … بينَ الخليجِ إلى النَّخيلِ

١٥ ونَحُلُّ من سيفِ الغديـ … ـرِ بقُبَّةِ الظلِّ الظَّليلِ

والرَّوضُ ممطورٌ تنِمّ م … عليهِ أنفاسُ القَبُولِ

والشمسُ ترمُقُنا خلا … لَ الغيمِ عن طَرْفٍ كَليلِ

إبَّانَ يحْدُو الرَّعْدُ مِنْ … وُرْقِ السَّحائبِ كالحُمُولِ (١)

ويهزُّ كفُّ البرقِ فِى الْ … آفاقِ مرهفَةَ النُّصولِ

٢٠ زمنٌ ستبكيه الحَما … مُ معِى وتذهَلُ عن هديلِ

يا برقُ أدِّ رسالَتِي تَفْدِيكَ نفسِى منْ رسُولِ
عرِّجْ بشِلْبَ مُحَيِّيًا ماشئْتَ من تلكَ الطُّلولِ
والْمَعْ على شُرُفاتِ حِمْـ ـصَ قرارةِ الشرفِ الأثيلِ
فإذا اجتلاكَ أَبُو الوليـ ـدِ بناظِرِ اليقظِ النبيلِ
٥ فاقرأْهُ من قلبى سلَا مًا يقتضى حسنَ القبُولِ
يا غُـرَّةَ الزمنِ البهيـ ـمِ وعِزَّةَ الأدبِ الذَّلِيلِ
ومُحكِّمَ القلَمِ القصيـ ـرِ عَلَى شبَا الرُّمْحِ الطَّوِيلِ
أعلِمْتَ أنى خادمٌ ذِكْرَاكَ بالشكرِ الجزِيلِ؟
لم أستَحِلْ عمَّا عهِـدْ تَ مع الزَّمانِ المستحيلِ
١٠ أشْفِعْ عنايتكَ الجليـ ـلةَ لى لدى الملكِ الجليلِ
ولئنْ أجبْتَ لراغبٍ وأقلْتَ عَـثْرَةَ مُسْتَقِيلِ
فلَكَمْ أتيتَ بمثلِها وَهْىَ الصَّنيعةُ فى مَثِيلِ
يا أُنسَ بدرٍ[1] فى الظَّلا مِ وبَرْدَ ظِلٍّ فى المَقِيلِ

وله يتغزَّلُ فى ولَّادة[2] :

١٥ يا نازحًا وضَـمِيرُ القلبِ مثْواهُ أنْسَتْكَ دنياكَ عبداً أنتَ مَوْلَاهُ
أَلْهَتْكَ عنـهُ فكاهاتٌ تلَذُّ بها فليس يجرِى ببالٍ منك ذِكْرَاهُ
علَّ الليالَى تُبْقِينِى إلى أمَلٍ[3] الدَّهرُ يعلـمُ والأيامُ معناهُ

وله يتشوَّقُ إليها[4] :

غريبٌ بأقصَى الشَّرْقِ يشكرُ للصَّبا تَحَمُّلَها منهُ السَّلامَ إلى الغرْبِ

---

(١) ب ، ت ، لب : « بدرى » (٢) راجع ديوانه ص ٢٥٨
(٣) كذا فى الديوان ، وفى النسخ : « أجل » (٤) راجع الديوان ص ٣٤

وما ضرَّ أنفاسَ الصَّبا فى احتمالِها ... سلامَ فَتًى يُهديه جسمٌ إلى قَلْبِ

وله (١) :

أيُوحِشُنِى الزَّمانُ وأنتِ أُنْسِى ... ويُظْلِمُ لى النهارُ وأنتِ شَمْسِى ؟

وأغْرِسُ فى محبتِكِ الأمانِى ... فأجْنِى الموتَ من ثمراتِ غَرْسِى ؟

لقد جازيْتِ هَجْرًا عن وَفاءٍ ... وبعتِ مودَّتى ظلمًا بِبَخْسِ ٥

ولو أنَّ الزَّمانَ أطاعَ حُكْمِى ... فديتُكِ من مَكارِهِه بنفسِى

وله (٢) :

ولقد شكوتُكَ للهوى [...] ... ودعَوْتُ من حنَقٍ عليك فأمَّنَا

مَنَّيتُ نفسِى مِنْ هَواكَ بِضَلَّةٍ ... ولقدْ تغرُّ المرْءَ بارقةُ المُنَى

وله يتغزَّلُ ويُعاتِبُ مَنْ يستعْطِفُ ويستنزِلُ : ١٠

يا مُستخِفًّا بعاشِقِيهِ ... ومُستغِشًّا لناصِحِيهِ

ومن أطاعَ الوشاةَ فِينا ... حتى أطعْنَا السُّلوَّ فيهِ

الحمدُ للهِ إذْ أرانِى ... تكذيبَ ما كنتَ تدَّعيهِ

وكتب عن المعتضِدِ إلى صِهرِه الموفَّقِ أبى الجَيْشِ ابنِ مُجاهد :

عرَفتُ عَرْفَ الصَّبا إذ هبَّ عاطِرُهُ ... مِنْ أفْقِ مَنْ أنا فى قلبى أُشاطِرُهُ ١٥

أرادَ تجديدَ ذِكْرَاهُ على شحَطٍ ... وما تيقَّنَ أنِّى الدَّهرَ ذاكِرُهُ

نأى المزارُ به والدارُ دانيةٌ ... يا حبذَا الفألُ لو صحَّتْ زواجِرُهُ

خِلِّى أبا الجيْشِ ، هلْ يُقضَى اللِّقاءُ لنا ... فيَشتفِى منكَ قلبٌ أنتَ هاجِرُهُ ؟

---

(١) راجع الديوان ص ١١١ (٢) راجع الديوان ص ٢٦٥

بعضُ خبر وَلَّادة(١)

قال ابن بسام(٢) : وأمّا وَلَّادةُ الّتى ذكرَها أبو الوليدِ ابنُ زيدونَ فى شعرِه فإنها بنتُ محمدِ بنِ عبد الرّحمنِ النّاصرى . وكانت فى نساءِ أهلِ زمانِها ، واحدةَ أقرانِها(٣) ، حضورَ شاهد ، وحرارةَ أوابِد ، وحُسْنَ منظرٍ ومَخْبَر ، وحَلاوَةَ موردٍ ومصدَر . وكان مجلسُها بقرطبةَ منتدًى لأحرارِ المِصْر ، وفِناؤُها ملعباً لجيادِ النَّظمِ والنَّثر ؛ يعشُو أهلُ الأدبِ إلى ضوءِ غُرَّتِها ، ويتهالكُ أفرادُ الشُّعراءِ والكُتَّابِ على حَلاوةِ عِشرتِها ، إلى سهولةِ حِجابِها ، وكَثْرةِ مُنتابِها . تخلطُ ذلكَ بعُلُوِّ نِصاب ، وكرمِ أنْساب(٤) ، وطهارةِ أثواب . على أنها — سَمحَ اللهُ لها ، وتغمد زللها — اطّرحتِ التحصيل ، وأوجدَتْ إلى القولِ فيها السَّبيل ، بقلّةِ مُبالاتِها ، ومجاهرَتِها بلذّاتِها . كتبتْ — زعمُوا — عَلَى أحَدِ عاتِقَىْ ثوبِها :

أنَا واللهِ أَصْلحُ للمعالِى وأَمْشِى مِشْيَتِى وأتيـــهُ تِيهَا

وكتبتْ على الآخرِ :

وأُمْكِنُ عاشِقِى من صحْنِ خَدِّى وأُعطِى قُبلَتِى مَنْ يشتَهِيهَا

هكذَا وجدتُ هذا الخبرَ ، وأبرأُ إلى اللهِ منْ عُهْدةِ ناقليه ، و إلى الأدبِ من غَلَطِ النقلِ إن كانَ وقعَ فيه .

ولها معَ أبى الوليد ابن زيدون أخبارٌ طوالٌ وقِصار ، يفوت إحصاؤُها ،

---

(١) ورد هذا العنوان فى نسخة ر على الهامش ، وهو فى هامش ره : « التعريف بولادة »   (٢) رجع الكلام فى ر   (٣) ب ، ت ، اب : « أوانها »

(٤) ر : « انتساب »

ويشُقُّ استقصاؤُها .

قالَ أبو الوليد(١) : كنتُ فى أيامِ الشَّباب ، وغَمْرةِ التَّصاب ، هائماً بغادة ، تُدعى ولّادة ، فلمّا قدَّر اللّقاء ، وساعَدَ القضاء ، كَتبتْ إلىَّ :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظّلامُ زيارتى ... فإنِّى رأيتُ اللَّيلَ أكتمَ للسِّرِّ

وبِى منْكَ مالو كانَ بالبَدْرِ ما بَدَا ... وباللَّيلِ ماأدْجَى ، وبالنَّجمِ لم يَسْرِ ٥

فلما طَوَى النهارُ كافُورَه ، ونشَر الليلُ عَنْبرَه(٢) ، أقبلَتْ بقَدٍّ كالقضيب ، وردْفٍ كالكَثيب ، وقدْ أطبقَتْ نرجِسَ المُقَل ، على وَرْدِ الخَجل ، فمِلْنَا إلى روضٍ مُدبَّج ، وظِلٍّ سَجْسَج ، قد قامتْ راياتُ أشجارِه ، وفاضتْ سلَاسِلُ أنهارِه ، ودُرُّ الطَّلِّ مَنثُور ، وجيْبُ الرَّاح مَزْرُور ، فلمّا شبَبْنَا نارَها ، وأدرَكتْ فينا ثارَها ، باح كلٌّ منّا بحبِّه ، وشكا أليمَ ما بقلبِه ، وبتْنَا بليْلةٍ نجنى أُقْحوانَ الثغور ، ونقْطِفُ رمّانَ الصُّدور . فلما انفصلْتُ عنها صَباحا ، أنشدتُها ارْتياحا : ١٠

ودَّعَ الصَّبرَ محبٌّ ودَعَكْ ... ذائعٌ من سرِّه ما استودعَكْ

يقرعُ السِّنَّ عَلَى أنْ لم يكُنْ ... زادَ فى تلكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

يا أَخَا البدرِ سَناءً وسَنًا ... حفِظَ اللهُ زمانًا أطْلعَكْ

إنْ يطُلْ بعدكَ لَيْلِى فلكَمْ ... بِتُّ أشْكو قِصَرَ اللَّيلِ معَكْ ! ١٥

قال أبو الوليد : وكانت عُتْبةُ قد غَنَّتْنَا :

أحبَّتَنَا إنِّى بلغتُ مؤمَّلِى ... وساعَدَنِى دهرِى وواصلَنى حِبِّى

وجاءَ يُهنِّينِى البشيرُ بقُرْبِه ... فأعطيتُه نفسِى وزِدْتُ له قَلْبِى

---

(١) رجع الكلام فى ﺭ (٢) ﺭ : « عبيره »

فسألتُها الإعادة ، بغيرِ أمْرِ ولّادة ، فخَبَا منها برقُ التبسُّم ، وبَدا عارضُ التجهُّم ، وعاتبتْ عُتبةَ ، فقلتُ :

وما ضَرَبَتْ عُتْبى لذنبٍ أتتْ بِهِ ... ولكنّما وَلّادةٌ تشتهى ضَرْبِى

فقامتْ تَجُرُّ الذيلَ عاثِرةً بِهِ ... وتمسَحُ طَلَّ الدَّمْعِ بالعَنَمِ الرَّطْبِ

٥ فبتْنا على العِتاب ، فى غيرِ اصطِحاب ، ودمُ المُدامِ مَسْفُوك ، ومأْخَذُ اللهوِ متْرُوك . فلمّا قامتْ خطباءُ الأطيار ، على منابرِ الأشجار ، وأنفتْ من الاعتراف ، وباكرتْ إلى الانصراف ، وشَتْ بمِسكِ الأنْفَاس ، على كافور الأَطْراس :

لو كنتَ تُنصِفُ فى الهوَى مابيْنَنا ... لم تَهْوَ جاريتى ولم تتخَيَّرِ

١٠ وتركْتَ غُصْنًا مُثمِرًا بجمالِهِ ... وجَنَحْتَ للغُصْنِ الذى لم يُثمِرِ

ولقد علِمتَ بأنّنى بدرُ السما ... لكنْ دُهيتَ لشِقوتى بالمشترِى(١)

وأمّا ذكاءُ خاطِرِها ، وحَرارةُ نوادِرِها ، فآيةٌ من آياتِ فاطِرِها .

مرّتْ بالوزيرِ أبى عامرِ ابنِ عبْدوس المتقدّمِ الذِّكر ، وكانَ بقرطبةَ أحدَ أعيانِ المِصر ، وبعضَ مَنْ هَذى باسمِها ، وتصرّفَ على حُكْمِها ، وأمامَ دارِهِ بِرْكةٌ

١٥ دائمةٌ تتولّدُ عن كثْرةِ الأمطار ، وربّما استمدّتْ بشىءٍ مما هنالِكَ مِن الأقْذار ، وقد نشَرَ أبو عامرٍ كُمَّيْه ، ونظرَ فى عِطْفَيْه ، وحشرَ أعوانَه إليه ، فقالت له : أبا عامرٍ !

أنتَ الخَصيبُ وهذِهِ مِصْرُ ... فتَدَفّقَا فكِلا كُما بَحْرُ

فتركَتْهُ لا يُحيرُ حَرْفا ، ولا يَرُدُّ طَرْفا .

(١) لم يقع هذا البيت فى ب ، ت

وطال عُمْرُها وعُمْرُ أبى عامر حتَّى أرْبَيا على الثمانين ، وهو لا يَدَعُ مواصَلَتَها ، ولا يُغفِلُ مراسلَتَها . وتحيَّفَ هذا الدَّهرُ المُستطيلُ حالَ ولَّادَةَ ، فكان يَحْمِلُ كَلَّها ، ويَرْقعُ ظِلَّها ، على جَدْبِ واديه ، وجمُودِ روائحه وغواديه ، أثراً جميلاً أبقاه ، وطَلَقاً منَ الظَّرفِ جَرَى إليه حتَّى استوْفاه .

وكانتْ — زعموا — تقرضُ أبياتاً من الشِّعرِ ، وقد قرأتُ أشياء منه فى بعضِ التَّعاليق ، أضربتُ عن ذِكْرِه ، وطويته بأسْرِه ، لأنَّ أكثرَهُ هِجاء ، وليسَ له عندى إعادةٌ ولا إبْداء ، ولا مِنْ كتابى أرضٌ ولاَ سَماء .

ونشيرُ هاهُنا أيضاً إلى شىء منْ أخبارِ أبيها المستكفِى مَدًّا لأطنابِ الآدابِ ، ووفاء بشَرْطِ الكتاب .

التعريف بمُحمَّدِ بنِ عبدِ الرَّحمٰنِ بن عُبَيْدِ اللهِ النَّاصِرى والد وَلَّادة[1]

قال أبو حيان[2] : بُويعَ محمدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الناصرىُّ ، يومَ قُتِلَ عبدُ الرَّحمنِ المستظهرُ يومَ السَّبتِ لثلاثٍ خلونَ منْ ذى القَعدةِ سنةَ أربعَ عشرةَ وأربعمائة ، فتَسَمَّى بالمستكفِى بالله ، اسماً ذُكِرَ له فاختارَه لنفسِه ، وحكَمَ به سوء الاتِّفاق عليه ، لمشاكلتِه لعبدِ الله المستكفِى العباسِى أولِ مَنْ تسمَّى به فى أفْنه ووَهْنه ، وتخلُّفِه وضَعْفِه ، بل كانَ هذا زائداً علَيْه فى ذلك ، مُقصِّراً عن خِلاَلِ مُلوكيَّةٍ كانتْ فى المستكْفِى سميِّه ، لم يُحْسِنْها محمدٌ هذا لفَرْطِ تخلفِه على اشْتباهِهِمَا فى سائرِ ذلكَ كلِّه : من توثُّبِهِمَا فى الفتنةِ[3] ، واستِظْهارِهِما بالفَسَقَة ، واعتداء

(١) وقع هذا العنوان فى ب فقط على الهامش

(٢) ذكر الخبر موجزا فى ر (٣) ب : « بالفتنة »

كلّ واحدٍ منهما على ابن عمّ ذى رَحِمٍ ماسّة ، وتوسّط كلّ واحدٍ منهما فى شأنه بامرأةٍ خَبيثة ، فلذلك حسناء الشّيرازية ، ولهذا بنتُ سَكْرى المَروريّة ؛ فأصبحا فى ذلك على فرْطِ التنائى عِبْرة .

وقال صاحبُ كتاب نقْطِ العَرُوس : ومِن العجب اتفاقهما فِى الأخلاقِ وفى العُمر واللّقب ، وأنّ كلّ واحدٍ منهما خُلِع عن الأمْر ، وكلّ واحدٍ منهما ٥ ترَكهُ أبوه صغيراً .

قال أبو حيان : ولم يكُنْ هذا المستكفى مِن هذا الأمرِ فى وِرْدٍ ولا صَدَر ، إنّما أرسلَهُ اللهُ تعالى علَى أهل قرطبة مِحنَةً وبَليّة ، إذْ كانَ مُنْذُ عُرِفَ غُفْلاً عُطُلاً منقطِعًا إلى البَطالة ، مَجْبولاً على الجَهالة ، عاطلاً منْ كُلّ خَلّةٍ تدُلُّ عَلَى ١٠ فضيلَة . عضّتهُ الفِتْنةُ فأمْلَقَ حتى استجازَ طَلَبَ الصّدَقة . رأيته أيامَ الخسْفِ بأهلِ بيتهِ فى الدولة الحَمُّوديّة ، ولم يكنْ ممّن لحقَه الاعتقالُ لتحقيرِ أمرِه ، يَقصِدُ أهلَ الفِلاحَةِ أوانَ ضَمّهم لغلّاتهم يسألُهم من زَكاتها تكلّياً ومُخاطَبة .

وبالجملةِ فى تلخيصِ التعريفِ بأمرِه أن أجمعَ أهلُ التّحصيلِ أنّه لم يجلِسْ فى الإمارةِ مدةَ تلكَ الفتنةِ أسقطُ منهُ ولا أنْقصُ ، إذ لم يزَلْ معروفاً بالتخلّفِ ١٥ والرّكاكةِ ، مُشْتَهِراً بالشّربِ والبَطالة ، سقيمَ السّرّ والعلانية ، أسيرَ الشّهوةِ ، عاهِرَ الخَلْوة ، ضدًّا لقتيلِه عبدِ الرّحمنِ المستظهرِ فى الأدب[1] والمعرفَة . وكان افتتح هذِه السّنةَ المؤرخَةَ القاسمُ بنُ حَمُّودٍ بخلافتِه ، واختتمها هذا المستكفى المذكورُ . وكان بينهما عبدُ الرحمنِ المستظهرُ القتيل ، فتصرّمَتْ تلكَ السّنةُ النّكِدَةُ عن ثلاثةِ خلفاء . وهذا من غريبِ الأنباء ، ولله البقاء السّرْمدى .

---

(١) ب ، ت ، لب ، م : « اللب »

وقُلِّد هذا المستكفى الأمْرَ ولمْ يكنْ منْ أهلِه ، فتلقَّى جميعَ النَّاسِ بالإيناسِ واستمالَهُم بالأهْوية ، ورأى أنَّ المالَ عَزيزٌ ، فظنَّ البِشرَ الرخيص يقومُ مقامَهُ ، أو ينوبُ مَنابَه . فكان يقولُ للناسِ أجمعين : ارتعُوا كيفَ شئْتُمْ ، وتَسمَّوْا بما أحببتُم من الخِطَط . فتسمَّى بالوِزارَةِ فى أيامِه مفردةً(١) ومُثنَّاةً أراذلُ الدَّائرة ، وأخابثُ النُّظار ، فضلاً عن زعانِفِ الكُتَّابِ والخَدمة . وأمَّا الشرطةُ العُليا وما دُونَها من رفيعِ المنازلِ فحملَها كثيرٌ من التجارِ والعامَّةِ ، وانثالَ الناسُ عَلَى ابتغاءِ هذهِ المنازلِ عندَ السلطانِ بالطَّاعيَةِ فى كرَّةِ الدَّولة ، فغشُوا بابَه ، وعَمَرُوا فِناءَه ، وتعلَّلوا بالمُنى . فلمَّا استبانُوا ضعفَه رفضُوا خِطَطَهُم ، وتبرَّأ كثيرٌ منهم منها . وأقْسَمَ أنَّه لم يتقلَّدْها ، ولاسيَّما عند تكرُّرِ التَّقسيطِ عليهم للغرامةِ عندَ إلحاحِ الإضاقة(٢) ، فجرَتْ لبعضِهم عندَ الانتفاءِ عن تلكَ الخِطَط نوادرُ ظريفةٌ مضحكة . وانتهى هذَا التنويهُ العَام ، بهذَا الملِكِ الهُمامِ ، إلى أن فصَّلَه(٣) أيضا فى طبقاتِ أهلِ العلمِ ، فأسْهمَ منهم الفقهاء ، فآثَرَ العِليَةَ منهم المُشاورين أصحابَ الفتوى بالإرقاءِ إلى خِطَّة الوزارةِ ، خالطاً بهم فيها مَنْ ذكرْناه من زعانفِ الخَدمَة ، وكِبارِ الدَّائرةِ النُّظَّار . وجاءوا فى ذلكَ بطامَّةٍ لم تُسمَعْ فى الأعصُرِ الخالية ، فأخطأوا وألحقُوا بالدِّينِ وَصْمةً ، وطَلبُوا زيادةَ المُعتلَى على العامَّةِ ، ففُتِنُوا(٤) بهذهِ الخِطة ، وشدُّوا أيديَهُم عليْها ، وهجَرُوا مَن حَطَّهُم فى الخِطَابِ عنها ، مُعرِّضين بما يُعابُ منْ ذلك ، إلى أن مضَوْا بسَبيلِهم . وارتقَى المستكفى أيضاً بكثيرٍ ممَّن يحمِلُ المحابِرَ ، ويدرُسُ مسائلَ الدفاتر ، من أصاغِرِ الطَّبقةِ الفقهيَّة ، إلى ما بلغت(٥) عِليَتُهمْ منْ منزلةِ الشُّورَى ، فوسمَ كافَّتَهم بوسْمِ الفتوَى ، فأسْرفَ فِي ذلكَ

(١) ب : «منفردة» (٢) ى : «الإخافة» (٣) ب ، ت ، لب : «قصه»

(٤) ى : «فافتتنوا» (٥) ب ، ت ، لب : «بعلت»

حتى بلغَ عددُهم بقرطبةَ يومئذٍ إلى الأربعين ، وذلكَ ممّا لم يُعهَدْ فى الغابرين .

وكثُرَ الإرجافُ بتغيير رجالِ[1] الدائرة ، فاضطربَتْ قرطبةُ لكثرةِ مَن كانَ فيها من المَرَدَةِ ، فقبضَ على جماعةٍ من بنى عمّه وحاشيتِه ، منهم علىُّ بن أحمدَ بنِ حزم ، وعبدُ الوهابِ ابنُ عمّهِ المتقدما الذِّكر ، سُجِنُوا بالمُطْبِق ، ثم عاجلَ المستكفِى ابنَ عمّهِ عبدَ العزيزِ العراقِى ، فَخُنِقَ وأمسَى ميتاً ونعاهُ إلى النّاس ، فلمْ يخْفَ عليهم اغتِيالُه .

وفى أيام المستكفى هذا استوْصِلَ بقيةُ قُصورِ جدِّه الناصرِ بالخَرَاب ، وطُمِستْ أعْلامُ قصرِ الزّهراء ، واقتُلِعَ نُحاسُ الأبوابِ ورصاصُ القُنِىّ ، وغيرُ ذلكَ من الآلات . فطُوِىَ بخرابِها بساطُ الدُّنيا ، وتغيَّرَ حُسْنُها ، إذْ كانتْ جَنّةَ الأرض ، فعَدَا عليها قبلَ تمامِ المائةِ من كانَ أضعفَ قوةً من فَارَةِ المِسْك ، وأوهنَ بِنْيَةً منْ بَعُوضَةِ النّمْرُود ، واللهُ يسلِّطُ جنودَهُ على مَنْ يشاء ، لهُ العِزّةُ والجَبَروت .

فلما كانتْ سنةُ ستَّ عَشْرَةَ وتحرَّكَ يحيَى بنُ حَمُّودٍ إلى قُرطبةَ ، وضعفَ أمرُ المستكفِى ، اتفقَ الملأُ على خَلْعِه ، فدخلُوا عليه ، وقالوا له : قد علِمَ اللهُ اجتهادَنا فى تثْبيتِك ، فاعْتَاصَ ذلكَ علينا ، واضْطُرِرنَا إلى مقارعَةِ عدوِّنا ، وهانحنُ خارجُونَ إليه ، ولا ندرى ما يحدُثُ عليكَ بعدَنا ، فإنْ تكُ لكَ الكرّةُ فلا تُسرّ ، فمَعَ اليومِ غد . فأجملَ الرّدَّ ، وانْقادَ للدَّنيّةِ ، واستشعَرَ الذُّلَّ ، واهتبَلَ الغِرّةَ ، وعزمَ عَلَى الهُروب . فخرجَ عَلَى وجهِه وقد لبِسَ ثيابَ الغانياتِ مُتنقِّباً بين امرأتَيْنِ لم يُميَّزْ منهُما لمرَانِهِ عَلَى التّخنيثِ . وخرجَ عن قرطُبةَ فماتَ بأقْليش ، فكانتْ

(١) ب ، ت ، لب : « رجالة »

دولتُه سبْعَةَ عشَر شهراً صِعاباً نَكِدات ، سُودًا مشوَّهاتٍ مَشْؤُومات . انتهى ما لخَّصتُه فى حديثِه من كلامِ ابنِ حَيَّان .

فصلٌ فى ذكرِ الأديبِ أبى عبدِ اللهِ ابنِ الحنَّاطِ الكفيفِ ، وسياقةِ جملةٍ من نثرِه ونظمِه .

وأبو عبدِ اللهِ ابنُ الحنَّاطِ هذا زعيمٌ منْ زعماء العصر كان ، ورئيسٌ منْ رؤساء النَّظمِ والنَّثرِ فى ذلكَ الأوان ، وجمرةُ فهمٍ لفحتْ وُجوهَ الأيَّام ، وغمرةُ عِلْمٍ سالتْ بأعلامِ الأنَام . فكم له منْ وَقْدَةٍ لا يَبْرَأُ أَميمُها ، ونَكْزَةٍ لا يسْلَمُ سليمُها . وكانت بينه وبينَ أبى عامرِ ابنِ شُهيْدٍ بعدَ تمسُّكه بأسْبابه ، وانْحِيَاشه كانَ إلَى جَنابه ، مناقضَاتٌ فى عدَّةِ رسائلَ وقَصائدَ أَشْرَقَتْ أبا عامرٍ بالماء ، وأخذَتْ عليْه بفُروجِ الهَواء . وقد أوْرَدْتُ منْ ذلِكَ ما يكونُ أنْطَقَ لسانٍ بنباهَةِ ذِكْرِه ، وأعدَلَ شاهِدٍ على بَراعةِ قَدْرِه .

وقد ذكرَهُ ابنُ حيانَ فى فصلٍ من كتابه فقالَ :

وفى سنةِ سبعٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ نُعِيَ إلينا أبو عبدِ الله محمدُ بنُ سليمانَ ابنِ الحنَّاطِ الشَّاعرُ الضَّريرُ القُرطُبىُّ ، بقيةُ الأُدباء[(1)] النَّحاريرِ فِى الشِّعرِ . هلَكَ بالجزيرَةِ الخضراء فِى كنَفِ الأَميرِ محمدِ بنِ القاسِمِ[(1)] ، وهلَكَ إثْرَهُ ابنُهُ الَّذى لم يكُنْ له سِواهُ بمالقَةَ فاجتُثَّ أَصْلُه .

وكانَ مِنْ أوسَعِ الناسِ عِلْماً بعُلومِ الجاهليَّةِ والإسلام ، بصيراً بالآثارِ

(١—١) ىه فى ر

العُلْوِيَّة ،⁽¹⁾ عالمًا بالأفلاكِ والهَيْئَة⁽¹⁾ ، حاذِقا بالطِّبِّ والفلسفةِ ، ماهِراً فى العربيَّة⁽²⁾ والآدابِ الإسلامية ،⁽³⁾ وسائرِ التعاليمِ الأوائليَّةِ⁽³⁾ ، من رجلٍ مُوَهَّنٍ فى دينه ،⁽⁴⁾ مضطربٍ فى تدبيره ، سيِّءُ الظَّنِّ بمَعارفه ، شديدِ الحذَرِ على نَفسه⁽⁴⁾ ، فاسِدِ التوهُّمِ فى ذاته ، عجيبِ الشَّأْنِ فى تفاوُتِ أحْوالِه . وُلِدأعْشى الحِمْلاقِ ، ضعيفَ البَصَر ، متوقِّدَ الخاطِر ، فقرَأ كثيراً فى حالِ عَشاه ، ثُمَّ طَفِئَ نورُ عيْنَيْه بالكُلِّيَّة ، فازدَاد براعةً ، ونظرَ فى الطِّبِّ بعدَ ذلكَ فأنجح علاجًا . وكانَ ابنُه يصِفُ له مِياهَ الناسِ المُسْتفْتِين عنده ، فيهتدِى منها إلى مَا لا يهتدِى له البَصير ، ولا يخطئُ الصَّوابَ فى فتْواهُ ببراعةِ الاسْتِنْباط . وتطبَّبَ عندَه الأعيانُ والمُلوكُ والخاصَّة⁽⁵⁾ ، فاعترِفَ لهُ بمنافِعَ جَسيمةٍ ، ولهُ مع ذلكَ أخبارٌ كثيرةٌ مأثُورةٌ .

جملةٌ منْ نَثْرِه

فصلٌ لهُ من رقْعةٍ خاطبَ بهَا ابنَ دُرِّى :

حنانَيْكَ أيُّها الغيثُ الهَطِل ، ولبَّيْكَ أيُّها الرَّوْضُ الخضِل ! فإنَّه طلعَ علَيْنا من رُعَيْنٍ رائدٌ رتع بروضك ، وكَرَعَ فى حوْضِك . هَزَّ بِكَ عِطْفَ الشِّعر ، فمدَّ إليكَ طرْفَهُ ، وثَنى إليكَ عِنانَ الشُّكر ، فحثَّ نحوكَ طِرْفَه .

وكان فلانٌ ذو الخَلْقِ العَميم ، والخُلُقِ الكَريم — «ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم » — يتْحِفُنا من ذكْرِكَ بنافِجةِ مِسْك ، ويُخْبِرُنا بخبَرِكَ عنْ واسِطَةِ سِلْك ، وتُعرِّفُ مواقِعُ الغيْثِ برُوَّاده ، ويُوقَفُ عَلَى مواضِعِ الماءِ بُورَّادِه . فعَنْ مِقةٍ نزَعْنا إليكَ فاجْتهَدْنا ، وعن ثِقةٍ نبَّهنا لهَا عُمرَ ثُمَّ نِمْنا ،

(١ — ١) لا فى ر، لا (٢) ب، ت : « العربية واللغة » (٣ — ٣) لا فى ر، لا

(٤ — ٤) لا فى ر، لا (٥) لا فى ر، لا

وما حر كْنا منْ أدبكَ ساكنا ، ولا أثرْنا منْ كرمكَ كامِنا ، غيرَ أنّ الجَمْرَ يُحَشُّ عَلَى ذَكائه ، والنَّصْلَ يهزُّ على مَضائِه ، فدُونَـكها قد حبَّر الحِبْرُ تَطْريزَها ، وإليكَها قد خلَّصَ الفِكْرُ إبْريزَها ، تتلفَّعُ منْها فى حُلَّة ثناء ، وتُتوَّجُ منْها إكليلَ بهاء ، يُخَالُ مِدادُها مِنْ بهيمِ اللَّيل صُنع ، ويُحسَبُ رَقُّها منْ أديمِ الصُّبْحِ قُطِع .
أرسَلْناهَا كافورةً بمسْكٍ موسُومَة ، وأهديْناها دُرّةً بياقوتٍ مختومة ، وأُقدِّمُ أوّلاً الاعْترافَ بالتّقصير ، وأذْعِنُ فى الكَفِّ[(١)] عَنِ التّعْبير ، إذ أهْديْتُ الدُّرَّ إلى مُنظِّمه ، وخلَعْتُ[(٢)] الوَشْيَ عَلَى مُنَمْنِمه .

وله من أخرى :

الإسهابُ كُلْفَة ، والإيجازُ حِكْمة ، وخواطِرُ الالبابِ سهام ، يصابُ بها أغراضُ الكَلام ؛ وأخُونا أبو عامرٍ يُسْهِبُ نثرا ، ويُطيلُ[(٣)] نظما ، شامخاً بأنفِه ، ثانياً منْ عِطْفِه ، مُتَخيلاً أنّه قد أحْرزَ السّباقَ[(٤)] فى الآداب ، وأُوتِيَ فصْلَ الخِطَاب . فهُو يستَقْصِرُ أسَاتِيذَ الأُدباء ، ويستَجْهِلُ شُيُوخَ العُلماء .

وابنُ اللَّبُونِ إذا ما لُزَّ فِى قَرَنٍ لم يستطعْ صَوْلةَ البُزْلِ القناعِيسِ

وفى فصلٍ منها :

فى ليلةٍ بتُّها ، والكفُّ الخضيبُ سِوارُها البَدْر ، والشِّعْرَى العَبورُ وِشاحُها النَّسْر ، وكأنَّما سَماؤُها روضَةٌ تفتحتِ النجومُ وسْطها زَهرا ، وتفجّرَتِ المَجَرّةُ خلالَها نَهرا . وادٍ يَسيلُ بعسْجد ، عَلَى رَضْراضِ زبَرْجَد . [(٥)] فلما أصبْتُ الغِرّة ، وأقصدْتُ الثُّغْرة ، تقلَّبْتُ عِرارا ، وتناوَمْتُ غِرَارا ، حتّى أنبهني الفَجْرُ[(٥)]

(١) وه : « الكشف » (٢) ر : « وجعلت »
(٣) ب ، ت ، ر ، لب : « ويطول » (٤) وه : « السبق »
(٥ — ٥) نه فى وه ، ر

ببَرْدِه[(1)] ، وسربَلَنِى الصَّباحُ ببُرْدِه ، وهبَبْتُ منَ النوْمَةِ ، وصحَوْتُ من النَّشْوةِ[(1)] ، فزفَفْتُها إليكَ بنتَ ليلتِها عَذْرَاء ، وجَلوْتُها عليكَ كريمةً حسناء[(2)] ، تتلفع بحَبَرَةِ حبْر[(3)] ، وتتبختَرُ فى شعارِ شِعر[(4)] ، مؤتلفٌ بين رَقّها ومدادِها ، ومجتمعٌ فى بيَاضِها وسوادِها ، اللَّيلُ إذا عَسْعَسَ ، والصبحُ إذا تنفس ، رقعتُها

٥ كافورٌ نُمْنِمَ بمِسْك ، وختامُها ياقوتٌ نُظِمَ فى سِلْكٍ ، فتحسَبُ خطَّها تيّمَ لفظَها فشَكا ، وتخالُ القلمَ رقَّ لِما بِه فبكَى ، فأنشِدْها أخاكَ الشُّهيدىَّ ، وكلِّفْهُ على العروضِ والقافيةِ مُعارضَتَها ، وحمِّله على اللِّينِ والشدَّةِ مقارضتَها ، فستوقدُ بقلبِه قبَسا ، وتَضْرِبُ فى أُذنِه جرَسا ، [(5)] فيتَبيَّنُ به حَظَّه ، ويعرِفُ لغيرِه فضلَه[(5)] .

وختمَ الرقعةَ بهذهِ الأبياتِ :

١٠ قصَّرَ عنْ لوْمِىَ اللَّائمُ ... لمَّا درَى أنَّنِى هَائمُ

ما زلْتُ فى حُبِّهِ منْصفاً ... مَنْ لم يزَلْ وهْوَ لِى ظَالِمُ

أسْهرَ لَيْلِى غرَامًا بهِ ... وَهْوَ أخُو سَلْوَةٍ نائمُ

مُهَفْهَفٌ ماسَ فى[(6)] بُرْدِهِ ... غُصْنٌ يُثنّيهِ الصَّبا نَاعِمُ

شمْسٌ ولكنَّما فَرْعُها ... ليلٌ على صُبْحِهَا فاحِمُ[(7)]

١٥ إنَّ ابنَ ذكْوَانَ ذُو رَاحةٍ ... كَديمةٍ صَوبُها دائمُ

لم يأْتلِقْ برْقُها خُلّبًا ... ولاَ اتَّقَى خُلْفَهُ الشَّائمُ

ومَنْ أبُوهُ أبُو حَاتِمٍ ... قصَّرَ عنْ جُودِه حاتمُ

يبنى العُلاَ بالنَّدَى جاهِدًا ... وغَيرُهُ للعُلاَ هَادِمُ

(١ — ١) ـه فى ـه ، ـر

(٢) ب ، لب ، ت : « فكرتها »

(٣) كذا بالأصول ولعلها : « نثر »

(٤) ـر : « فى شعر أو شعر »

(٥ — ٥) ـه فى ـر ، ـه

(٦) ـه : « سار وفى »

(٧) لم يقع هذا البيت فى ـر ، ـه

مُحكَّكٌ حُوَّلٌ قُلَّبٌ   مُحنَّكٌ حازِمٌ عازِمُ
تُبصِرُهُ دهرَهُ قاعِداً   وهْوَ بأعبائهِ قائِمُ
إذا انتضَى سيفَهُ مُعلَماً   لم تدرِ أيُّهما الصّارِمُ
مَنْ لمْ يكُنْ شاعِراً عالِماً   فإنَّنى الشاعرُ العالِمُ
البَدْرُ فى أخْمَصِى شِسْعُهُ   والشَّمْسُ فى خِنْصَرِى خاتَمُ ٥
والدُّرُّ لوْ بلغُوهُ المُنَى   نظّمَهُ فى فَمِىَ الناظِمُ[1]

قوله : « لم تدرِ أيُّهما الصّارمُ » ، كقولِ حسّانَ بنِ المَصِيصىّ :

قَوْمٌ يمانُونَ إن سَلُّوا يمانِيَةً   لمْ تعرفِ السّيفَ فى الهَيْجاءِ مِن الرّجُلِ

وقال عبد الجَليل :

شَبِيهٌ ما اعتقَلُوه من ذوابلِهِمْ   فالحربُ جاهِلَةٌ مَنْ منهمُ الأسَلُ ١٠

ولابنِ عبدِ رَبِّه :

إذا أدارتْ بنانُهُ قلَماً   لم تدرِ للشِّبْهِ أيُّها القَلَمُ

وقالَ بعضُ أهْلِ العَصرِ :

بِها الخيلُ والأبطالُ والبِيضُ والقَنا   سواءٌ بحكمِ العينِ والأُذْنِ واللُّبِّ
فلا فرقَ إلّا أنْ يَهُبَّ بها الرَّدَى   فيُعرَفَ أنَّ الفضلَ للرَّجلِ النَّدْبِ[2] ١٥

وقال أبو الطيب[3] :

هُمامٌ إذا ما فارقَ السيفُ غِمْدَهُ   وعايَنْتَهُ لم تدرِ أيُّهما النَّصْلُ

---

(١) لم يقع هذا البيت فى ر ، ه   (٢) لم يقع هذا البيت فى ب ، ت
(٣) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٣٤)

وكرّرهُ فى مَوضِعٍ آخرَ فقال[١] :

قُلوبُهمْ فِى مضاءِ ما امتشقوا قاماتُهُمْ فِى قوامِ مَا اعْتَقَلُوا

وهو من متداوَلاتِ المعانِى . وإنما نقلُوا كلُّهم بيْتَ الحَمَّانِى :

ما عُلِّقَ السَّيفُ منَّا بابنِ عاشرةٍ إلَّا وعزْمَتُهُ أَمْضَى منَ السَّيفِ

٥ وكرّره أيضا الحَمَّانِى فقال :

والسَّيْفُ إنْ قستَهُ يومًا بنا شَبَهًا فِى الرَّوْعِ لم تدرِ عزْمًا أيُّنا السَّيفُ

وله من رقعة طويلةٍ خاطبَ بها المظفَّرَ بنَ الأفْطسِ قالَ فى أوَّلها :

حجبَ اللهُ عن الحاجب المظفَّرِ[٢] أعْيُنَ النائبات ، وقبضَ دونه أيدِى الحادِثات ، فإنَّه مُذ كانَ أنورَ من الشَّمسِ ضِياء ، وأكملَ من البـدرِ بهاء ، ١٠ وأندَى من الغيثِ كفًّا ، وأحمَى من الليثِ أنْفا ، وأسخَى من البحرِ بنَانا ، وأمضَى من النَّصلِ لسانا ، وأنجبَهُ المنصورُ لِجرَى على سَنَنِه ، وأدَّبَه فأخذ بسُنَنِه ، وكانت الرِّياسةُ عليه مَوْقوفَة ، والسِّياسةُ إليه مَصْروفة ، قَصرت الأوهامُ عن كُنهِ فضلِه ، وعجزَت الأقلامُ عن وصفِ مثلِه . غيرَ أنَّ الفضائلَ لا بدَّ من نَشْرِها ، والمكارمَ لا عُذرَ فى تركِ شُكرِها .

١٥ فالشُّكرُ للإنسانِ أربحُ متجرٍ لم يَعدَم الخسرانَ منْ لمْ يَشكُرِ[٣]

وله فى فصْلٍ :

وردَنِى كتابٌ كريم جعلتُه عِوَضَ يدِهِ البيْضَاءِ فقبَّلتُه ، ولمحتُهُ

(١) راجع ديوانه (ج٢ ص ١٥٤)

(٢) ب ، ث ، لب : « الحاجب مولاى وسيدى »

(٣) لم يقع هذا البيت فى ر ، ره

بدلَ غُرَّته الغرّاء ، فأجلَلْتُه ، (١) كتابُ أُلقِى عليه الحِبْرِ حِبَرَه ، وأهدى إليه السحرُ فِقَرَه ، أنذر ببلوغ المُنى ، و بشّرَ بحصول (١) الغِنى ، تَخيَّرَ له البيانُ فطبّقَ مَفصِلَه ، ورماه البَنانُ فصادفَ مقتلَه . (٢) مَعارِكُ آداب ، ووقائعُ ألباب ، سالَ المِدادُ به نجيعا ، وجَرى الغرضُ المُجْرَى إليه صريعا (٢) ، ووصلَ معـهُ الملوكُ والملوكةُ اللّذانِ سمّاهُما هَدِيةً ، وتنزّه كرمًا أنْ يقولَ عطيّة . هِمّةٌ تزحَمُ السّماكيْنِ ، ونِعْمةٌ تملأُ الأُذُنَ والعيْن . ٥

(٣) ومنْه :

كتبتُ علَى البعْدِ مستجدِياً | لعلمِىَ أنّكَ لا تبخَلُ
فجاء الرسولُ كما أشتَهِى | وقد ساقَ فوقَ الذى آملُ (٤)
وما كانَ وجهُكَ ذاكَ الجميلُ | ليفعَلَ غيرَ الذِى يجمُلُ (٣) ١٠

وفى فصل :

وما حرّكَ الحاجبُ — أيّده اللهُ — بكتابِه ساكناً بحمدِه ، ولا نبّه نائماً عن قصْدِه ، كيفَ وقد طلعت الشّمسُ التى صارَ بها المغربُ (٥) شَرْقا ، وهبّت الريحُ التى صارَ بها الحِرمانُ رِزْقا ؟ صاحبُ لواءِ الحمد ، وفارسُ مَيْدانِ المجد ، طلّاعُ كلِّ ثنية ، وفعّالُ كلِّ سنِيَّة ، يسيرُ (٥) صدْرَ الجيشِ وهُو ربُّه ، و يتقلّبُ فيه وهو قلبُه . ولواءُ النّصرِ عليه منْشُور ، وفؤادُ الكُفْرِ منه مذْعُور . ١٥

(٧) وفى رسالتِه هـذهِ طولٌ تصرّفَ فيها فى أنواعِ البَديع ، تصرّفَ المطبُوع (٧) ، واندرجَ له فى أثنائِها عدةُ مقطوعاتٍ من شعرِه كقولِه (٨) :

(١ — ١) ه فى ب ، ت (٢ — ٢) ه فى ر ، ه
(٣ — ٣) ه فى ر ، ه (٤) « آمل » مع ألف التأسيس ، مع سقوطها فى الأبيات الأخرى . (٥) ب ، ت ، لب : « الغرب »
(٦) ه فى ب ، ت ، ر ، لب (٧ — ٧) ه فى ر ، ه
(٨) ر ، ه : « واندرج له فى فصول هذه الرسالة عدة مقطوعات من شعره منها قوله : »

ومُهَفْهَفٍ قَلِقِ الوشاحِ يروعُهُ ... جرْسُ السّوار، ويشتكى من ضيقِهِ
وسَنَانَ خَطَّ المسكُ فوقَ عِذارِهِ ... لامًا فهِمْتُ الموتَ فى تعريقِهِ
مزجَ المُدامَ بريقِهِ لما سَقَى ... فسكِرْتُ من فمِهِ[1] ومنْ إبريقِهِ

وختم الرقعة بقصيدةٍ هنّأهُ فيها بخروجه من الأَسْرِ، منها قولُه:

٥ لمّا أقالَ اللهُ عثرتَكَ الّتى ... قضى اللهُ فيها بالنّجاةِ[2] وقدّرا
تهلّلت الدُّنيا وأشرَق نورُها ... وأقبلَ سعدٌ كانَ بالأمسِ أدْبرا

وسينخرِطُ فى سلكِ أخبارِ ابنِ عبادٍ خبرُ إساره، وكيف خرجَ بدرُه من سراره، إن شاء الله.

ما أخرجتُه من قصائدِه فى المدح، وما يتشبّثُ بهِ
١٠ من الأوصاف.

له من قصيدةٍ فى علىِّ بنِ حمُّود أولها:

راحَتْ تذكّرُ بالنّسيمِ الرّاحا ... وطفاء تكسرُ للجُنوحِ جناحا
أخفَى مسالِكَها الظلامُ فأوقدتْ ... من برقِها كَىْ تهتدِى مصْباحا
وكأنّ صوتَ الرّعدِ خلفَ سَحابِها ... حادٍ إذا ونتِ السحائبُ صَاحا
١٥ جادَتْ على التّلعاتِ فاكتَسَتِ الرُّبى ... حُلَلاً أقامَ لها الرّبيعُ وِشاحا
روضٌ يحاكِى الفاطِمىَّ شمائلاً ... طِيباً، ومزنٌ قد حكاهُ سَماحا
أعلىُّ إنْ تعلُ الملوكَ فإنّهُم ... بُهْمٌ جُعلْتَ أغرّها الوضّاحا
لما طَلَعتَ لها بكلِّ ثنيّةٍ ... أنسيْتَها المنصورَ والسّفّاحا

وله من أخرى:

٢٠ سُقِى بعدَنا بالبُعْدِ منْ نُعْمَ نَعْمانُ ... وأوحَشَ منْ لُبنَى على البعدِ لُبنانُ[3]

---

(١) ب، ت، لب: «فيه» (٢) ب، ت، لب: «بالنجاح»
(٣) لم يقع هذا البيت فى ر، و ه

سَقَى القَطْرُ مابَيْنَ العقيقِ وضَارجٍ ... معارفَ فيها للأحبَّـةِ عِرفانُ
وحيَّا الحيا عهداً عهدناه باللِّوَى ... لَوَى بيننا فيـهِ صدودٌ وهِجْرانُ
ليَالِيَ روضُ الوصْلِ فيهنَّ ممرِعٌ ... وغصنُ الصِّبا إذ ذاكَ أخضرُ فينانُ
تُديرُ علينا الرَّاحَ فيها جآذِرٌ ... ويُسْكِرُنا بالَّلحْظِ منهنَّ غِزْلانُ
ولمْ أرَ مثْلِي كيفَ صارَ بقلبِهِ ... منَ الوجْدِ بركانٌ وفي الجفنِ طُوفانُ
ولا مثلَ هذَا العَذْلِ كيفَ أعادَهُ ... عليَّ، وقد مرَّتْ منَ الظُّلْمِ أزمانُ

وله منْ أُخْرَى فيه أيضاً :

بكيتُ لهـا شَجْواً وهنَّ الحمائمُ ... يَنُحْنَ بلا دمعٍ ودمعُكَ ساجِمُ[1]
ولمّا علَوْنَ الحَزْنَ واعتسفَتْ بنَا ... رسومَ الدِّيارِ اليعْمَلاتُ الرَّواسِمُ
لَوَيْنا بأعْناقِ المطيِّ إلى اللِّوَى ... وقد علَّمتْنا اللُّبْثَ[2] تلكَ المعالِمُ
لئِنْ أوحشَ الرَّبعُ الذى كان آنساً ... وأقوتْ من الحيِّ الرسُومُ الطَّواسِمُ[3]
فكَمْ ليـلةٍ فيهِ وصلْتُ نعيمَها ... بأخرى، وأنفُ الهجرِ بالوصْلِ راغِمُ
سقَى منبتَ اللَّذَّاتِ منها ابنُ هاشمٍ ... إذا انهملتْ من راحتَيْهِ الغمائمُ
إمامٌ أقامَ الدينَ حـدُّ حُسامِهِ ... طريراً، ومنهُ فى يدِ اللهِ قائمُ
ويزهرُ فى يمناهُ نَوْرٌ من الظُّبَا ... له من رؤوسِ الدَّارِعينَ كمائمُ

وهذا البيتُ ينظر إلى قولِ المتنبِّى[4] :

سقاكِ وحيَّانَا بكِ اللهُ إنّما ... على العِيسِ نوْرٌ والخدورُ كمائمُهْ

وقالَ أبو بكر ابنُ عمّار :

نَدامَى وما غيرُ السُّيُوفِ أزاهرٌ ... لديهِمْ، وما غيرُ الغُمودِ كمائمُ

---

(١) لم يقع هذا البيت فى ر، ه
(٢) ب، ت، ه، لب : « البث »
(٣) لم يقع هذا البيت فى ر، ه
(٤) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٣٤)

وكذلكَ البيتُ الذى قبلَه كقولِ المتنبى[(١)] :

على عاتقِ المَلْكِ الأغرِّ نجادُه وفى يد جبّار السمواتِ قائمُهْ

وهو من قول حبيب[(٢)] :

لقد حانَ مَنْ يُهدِى سُويداءَ قلبِهِ لحدِّ سِــنانٍ فى يدِ اللهِ عاملُه[(٣)]

٥ وفى هذهِ القصيدة يقولُ ابنُ الحنّاط :

سيوفٌ إذا اعتلّتْ جهاتُ ثغورِها فمنهُنَّ فى أعنــاقهنَّ تمائمُ

بكلِّ خميس طَبَقَ[(٤)] الجوَّ نقْعُهُ وضيّقَ مَسْراهُ الجيادُ الصَّلادِمُ

كأنَّ مُثارَ النَّقعِ إثمِدُ عينِهِ وأشفارَ جفنَيْه الشِّفارُ الصَّوارمُ

تعدُّ عليْه الطَّيرُ والوَحْشُ قوتَها إذا سَارَ والتفَّتْ عليْه القَشاعِمُ

١٠ وهذا المعنَى قد تقدَّم منه جملةٌ فى مكانه ، وذكرتُ من استَنّ[(٥)] فى ميدانه .

وقولُه : « سيوفٌ إذا اعتلّتْ » البيت ، من قولِ المتنبّى[(٦)] :

وكانَ بِها مثلُ الجنونِ فأصبحَتْ ومِنْ جثثِ القتْلَى عليها تمائمُ

وله من أُخرى :

لم يخلُ من نُوَبِ الزمانِ أديبُ كلّاً فشأنُ النائباتِ تنوبُ

١٥ أُمسِي قرارًا للخُطوبِ وأغتدِى غرَضًا تفوِّقُ نَحْوَه فتُصيبُ[(٧)]

وإذا انتهيْتَ إلى العلومِ وجدتَها شيئًا يُعَــدُّ به عليكَ ذُنوبُ

---

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٤٣) (٢) راجع ديوان أبى تمام ص ٢٣١

(٣) لم يقع هذا البيت فى ه (٤) ر ، ه : « طوق »

(٥) ب ، ت ، لب « اقتن » — ه : « استبق »

(٦) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٢٧١) (٧) لم يقع هذا البيت فى ر ، ه

وغَضَارةُ الأيامِ تأبَى أنْ يُرَى   فيها لأبنــاءِ الذَّكاء نصِيبُ
ولِذَاكَ مَنْ صحِبَ الليالِي طالباً   جَــدًّا وفهمًا فاتَهُ المطلوبُ

وهذا أيضا من قولِ المتنبّى (١) :

وما الجمعُ بينَ المـاءِ والنارِ فى يدِى   بأصْعبَ مِنْ أنْ أجمعَ الجدَّ والفهما

وقال أبو على ابنُ رشيق ، وولّد معنًى زائداً مستظرَفاً : ٥

أشْقَى لجَدِّكَ أنْ تكونَ أديبَا   أو أنْ يرَى فيكَ الورَى تهذِيبَا
ما دمْتَ مُستوِياً ففعلُكَ كلُّهُ   عِوَجٌ وإن أخطأْتَ كنتَ مصيبَا
كالنَّقْشِ ليسَ يتمُّ معنَى ختْمِهِ   حتى يكونَ بناؤُهُ مقْلوبَا

ومنهـا :

أمَتْ أمــيرَ المؤمنينَ مَواحِلاً   فسقَى صـداها غيثُه الشُؤْبوبُ ١٠
المعتَلِى باللهِ والملِكُ الذِى   تاجُ الفخارِ برأســهِ معصُوبُ
إنْ كانَ عدُّوا حبَّ (٢) آلِ محمدٍ   ذنبًا فإنِّى لستُ منــه أتوبُ

وهذا كقولِ العباس بنِ الأحنفِ (٣) :

إن كانَ ذَنبِى فى الزيارة فاعلمِى   إنِّى علَى كسبِ الذنوبِ لجاهِدُ (٤)

وله من قصيدةٍ يرثى أبَا الحزمِ ابنَ جهورٍ ، ويُهنِّئ ابنه أبا الوليد ، وكتبَ ١٥
بها من الجزيرة الخضراء ، إذ أُقصِىَ عن قرطبةَ ، أولُها :

إنَّا إلَى اللهِ فى الرُّزْءِ الذى فجَعَا   والحمدُ للهِ فى الحكْمِ الذى وقعَا
ولَّى أبُو الحزمِ عنْ مُلكٍ تقلَّدَهُ   أبو الوليـدِ فعزَّ الملكُ وامتنعَا

---

(١) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٦٨)   (٢) ب ، ت ، اب : «مدح»
(٣) راجع ديوانه ص ٤٨   (٤) م : « مجاهد » .

أبٌ كريمٌ غدا الفِردَوْسُ مَسكنَهُ وابنٌ نجيبٌ تولّى الأمرَ واضطلعَا[١]

للهِ شمسُ ضُحًى فى اللحدِ[٢] قدغرَبتْ فأعقبتْ قمرًا[٣] بالسّعدِ قد طلَعَا

يا واحدَ الدِّينِ والدُّنيا أقِلْ زَللاً يدعوكَ جَانيه أن تقْتصَّ أو تدعَا

لو أنّه أعطِىَ الدُّنيا بما رحُبَتْ ولم ينَلْ عفوَكَ المأمولَ ما قنعَا

٥ وما عسَاكَ سِوَى الإحسانِ تصنَعُه إلى مُسِىءٍ رجَا عُتْباكَ فارتَجعَا

وقد رأيتَ ابنَ سعْدٍ حينَ أمكنَهُ بِشْرٌ عفا عنه فادفعْ بالذى[٤] دفعَا

ليَمْحُوَنَّ مَديحِى فيكَ من كثَبٍ[٥] مَحْوًا حديثَ ملامِى حيثُما سُمِعَا

وقال من أُخرى :

تفرغْتُ من شغْلِ العدَاوَةِ والظَّعْنِ وصرتُ إلى دار الإقامةِ والأمنِ[٦]

١٠ أمقتولَةَ الأجْفانِ مِنْ دمعِ حُزْنِها أفيقِى فإنِّى قد أفقتُ من الحُزنِ

فلله سَيْرِى يومَ ودّعتُ صُحبَتِى زَماعًا ولمْ أقرَعْ على ندمٍ سِنِّى[٧]

رحلْتُ فكَمْ من جؤْذُرٍ وغضَنْفَرٍ يُروِّى الثّرَى من فَضْلِ أدمُعِه الهُتْنِ

وما عنْ قِلًى فارقْتُ تربَةَ أرضِكُمْ ولكنّنِى أشفقْتُ فيها من الدّفْنِ

وينظرُ هذَا إلى قولِ القسطلِّى :

١٥ وفاحَتْ ليالِى الدّهرِ[٨] منِّىَ مَيِّتاً[٩] فأخْزَيْنَ أيّامًا دُفِنتُ بها حَيًّا

وكذلكَ قوله : « رحلت فكم منْ جؤذُر » ، البيت ، من قولِ المتنبى[١٠] :

---

(١) ب ، ت ، لب ، هـ : « فاضطلعا » (٢) ب ، ت ، لب : « القبر »

(٣) ب ، ت ، ر ، لب : « أبقته بدر دجى » (٤) هـ : « مثل ما »

(٥) ب ، ت ، لب : « عن » (٦) لم يقع هذا البيت فى ر ، هـ

(٧) لم يقع هذا البيت فى ر ، هـ (٨) كذا ، وفى ب ، ت ، ر : « الترب »

(٩) ب ، ت ، لب : « عنبرا » (١٠) راجع ديوانه (ج ٢ ص ٣٩٠)

رحلتُ فكَمْ باكٍ بأجفانِ شادنٍ ... علىّ ، وكم باكٍ بأجفانِ ضَيْغَمِ

ومنها :

مرَرْتُ بشُوسٍ والنجومُ كأنها ... توقَّدُ من فِكرى وتُسرَجُ من ذِهْنى

وأسريْتُ(١) من بدر الظلام بألْبةٍ ... بصحبةِ مطفِى الجمرِ أو مكفِىءِ الظَّعنِ

لبسْنَا بها ليلاً من الثلج أبيضاً ... كسْته يدُ الصِّنَّبرِ ثوباً من القُطْنِ ٥

ورُحنا على ألْبيرةٍ فاستقلَّ بى ... جَناحُ عُقابٍ لا يرُوحُ إلى وَكْنِ

ولمّا تنكَّبنا المنكّبَ لم نجدْ ... لنا مركبًا أهدَى سبيلاً من السُّفْنِ

ترامتْ بنا الأهْوالُ فى كلِّ لُجَّةٍ ... تخيَّلُها جوًّا تجلَّلَ بالدَّجْنِ(٢)

ترَى السُّفْنَ فوقَ الموجِ فيها كأنَّها ... تَحدَّرُ منْ رَعْنٍ وتُوفِى على رَعْنِ

فبوَّأتُ رَحْلِى ظلَّ أروعَ ماجدٍ ... يقولُ بلا خُلْفٍ ويعطِى بلا مَنِّ ١٠

إمامٍ ، وَصِىُّ المصطفَى وابنُ عمِّهِ ... أبُوه ، فتَمَّ الفخرُ بينَ أبٍ وابنِ

وله من أخرى :

أرقتُ وقد غنَّى الحمامُ الهواتفُ ... بمُنعرَجِ الأجْزاعِ والليلُ عاكفُ

أعَدْنَ لِىَ الشّوقَ القديمَ وطافَ بِى ... عَلَى النَّأْيِ من ذِكرَى المليحةِ طائفُ

وما الجانبُ الشرقىُّ من رملِ عالجٍ ... بحيثُ استوتْ غيطانُه والنفانفُ ١٥

إذا ما تغنَّى الرعدُ فوقَ هِضابه ... سقى الروضَ من وَبْلِ الغمامةِ واكفُ

بأحسنَ من أطلالِ علْوَةَ منظرًا ... وإنْ درَست آياتُه والمعارفُ

خليلَىَّ هلْ بالخَيْفِ للشَّملِ ألفةٌ ... فيأْمَنَ قلبٌ من نَوى الخيْفِ خائفُ ؟

أَفِى وقفةٍ عندَ العقيقِ ملامةٌ ... على دنِفٍ شاقتْه تلكَ المواقفُ ؟

---

(١) ت ، لب : « وأسررت » (٢) لم يقع هذا البيت فى ر ، وه

سَقَى عرصاتِ الدّارِ كلُّ مُلِثَّةٍ من المزنِ تُزْجيها البُرُوقُ الخواطِفُ(١)
كأنّ نثيرَ القَطْرِ منها جواهرٌ تُفرّقُهــا للريحِ أيدٍ عواصِفُ
كأنّ ابتسامَ البرقِ فيها إذا بدتْ سُيوفُ عليٍّ بالدماء رواعِفُ

وله من أخرى فى أبى القاسمِ ابنِ حمّود ، ويصفُ خَيْرانَ الصّقلّى ، وقتلَ
٥ المرتضَى المروانىّ أولُها :

لكَ الخير ، خيرانٌ مضَى لِسبيلِهِ وأصبحَ ملكُ اللهِ فى ابنِ رسولِهِ

يقول فيها :

وفُرّقَ جمعُ الـكفرِ واجتمعَ الورَى على ابنِ حبيبِ اللهِ بعدَ خليلِهِ(٢)
وقامَ لواءُ الجمعِ(٣) فوقَ ممنَّعٍ من النّصرِ جبريلٌ أمامَ رعيلِهِ
١٠ وأشرقتِ الدُّنيا بنورِ خليفةٍ بهِ لاحَ بدرُ الحقّ بعدَ أُفُولِهِ
مِن الهاشميّينَ الذينَ بمجدِهمْ تعوّدَ شخصُ المجدِ جرَّ ذيُولِهِ(٤)
فلا تَسَلِ الأيامَ عما أتتْ بهِ فما زالت الأيامُ تأتِى بسُولِهِ
عوائدُ نصرٍ ميزَتْهُ ســيُوفُهُ له غُرَرٌ موصــولَةٌ بحجولِهِ
ولمادعَا الشيطانُ فى الخيلِ(٥) حزبَهُ وأقبلَ(٦) حزبُ اللهِ فوقَ خيولِهِ
١٥ كتائبُ منْ صَنْهاجَةٍ وزناتَةٍ تَضايَقُ فى عَرْضِ الفضاء وطُولِهِ
تقدّمَ خيرانٌ إليهــا بزعْمِهِ ليدركَ ما قدْ فاتَهُ من ذُحولِهِ
فأجحَمَ تحتَ النقعِ والخيلُ تدّعِى كما ازدَلَفَ الليثُ الهزبرُ لِغيلِهِ

(١) ترتيب هذا البيت والذى يليه معكوس فى ر (٢) لم يقع هذا البيت فى ر ، ط
(٣) ر ، ط : « الرفع » (٤) لم يقع هذا البيت والبيتان التاليان له فى ر ، ط
(٥) ط : « الحرب » (٦) ط : « وأصبح »

فلمّا التقَى الجمعانِ عاودَ رأيَهُ   فخلّى لبعضِ الهَوْلِ جُلَّ فضُولِهِ
وولّى وأبقَى منذراً من ورائِهِ   يقيمُ لأهلِ الغدْرِ عُذرَ نكولِهِ

ذكر الخبر عن مقتلِ الأميرِ المرتضَى المذكور

قال ابن حيان[1] : كان عبدُ الرحمنِ بنُ محمدٍ من ولدِ الناصرِ لدين الله قد نُصبَ خليفةً بشرقِيِّ الأندلُسِ ، وسُمى المرتضى ، فزحف بمَنْ تألَّفَ معه من الموالِي العامرِيِّين وغيرِهم إلى غزْوِ البرابرة المُنْتزِين بقرطبةَ وأعمالِها ، وأميرُها يومئذٍ القاسمُ بنُ حمُّود . وعقدُوا مع المرتضى على غزو قرطبة ، فخرجوا بجملتِهم سنةَ تسْعٍ وأربعمائة ، فعرَّجوا به فى طريقِهم إلى غرناطةَ ليبدأُوا بحربِ ذلك الفريقِ من صَنْهاجة لما ارتأَوْهُ من الغَدرِ بسلطانِهم[2] ، فأوبقوا الجماعةَ وأحلُّوا بهَا الفاقرة ، على أيدِى البرابرة ، ورسا بتلكَ الوقعة مُلكُ الحمُّوديَّةِ ، وإذا قضى اللهُ أمراً سبَّبَ له أسباباً .

فجاءوا معهُم ، فى جملتِهم منذرٌ التُّجِيبِيُّ وخيرانُ الصِّقلِّى وقطعةٌ من خيلِ الإفرنجة . ولما حلُّوا غرناطَةَ وأميرُها يومئذٍ زاوِى بن زِيرى بن مَناد ، ارتاعت صنهاجةُ واعصوصَبُوا بأميرِهم زاوى كبشِ الحروبِ ، فأحكَمَ لهم التدبيرَ ، والدولةُ تسعدُه ، والمقدارُ ينجده . وحُملتْ عنه فى تلك الحروبِ حكاياتٌ بديعة . منها أنَّ المرتضى لما نازله خاطبه بكتابٍ يدعوه فيه إلى طاعته ، ومسحَ أعطافَه ، وأجملَ موعده . فلما قرِئَ على زاوِى قال لكاتبه : اكتب على ظهر رقعتِه : « قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » السورة . لا تزِدْه . فلما بلغت المرتضى أعادَ إليه كتابَ وعيد ، فلما قُرِئَ على زاوى قال : ردُّوا عليه « أَلْهَاكُمُ

(١) فى هذا الفصل زيادات لم ترد فى نسخة ر

(٢) ر : « وقد أسروا الغدر بسلطانهم المرتضى »

التَّكَاثُرُ » إلى آخرِها لم يزِدْهُ حرفًا . فازداد المرتضَى غيظًا ، ويئسَ منه ،
وناشبَه القتالَ ودنَا إليـه فى تعبئةٍ محكَمة ، وكَرَادِيسَ منتظِمة ، فاقتتلوا
أيامًا إلى أن انهزمَ الأندلسـيون ، وطارُوا على وجوهِهم مسلمُوهم وإفرنجُهم ،
لا يَلوِى أحدٌ على أحد ، والخيل تطردُهم فى تلك المضايق . وصُرِع المرتضى
٥ فى ضَـنْكِ ذلك المأزق ، ووقع البرابرةُ من نهبِ مَحَلَّةِ المرتضى على ما لا كِفاء
له اتساعًا وكثرة . ظلّ الفارس منهم يجىءُ من إتباعِهِ المنهزمين ، ومعه العشرةُ
الأبغُل فما دونَ ذلك مُوقَرَةً بفاخرِ النهْب ، ورفيع الشارة والحلْية ،
وحيزتْ فساطِيطُ أولئك الأمراء ، ومضاربُ الرؤساء ، الذين كانُوا فى
جمع ذلكَ المعسْكرِ المخذولِ يتباهَوْنَ بالقوةِ والشارة ، بجميعِ مافيها . وسبَق
١٠ سلطانُهم زاوِى إلى سرادِقِ الخائنِ المرتضى ، فحازه بما حوَاه مما كانَ الأمراء قد
جمعُوا له وجمّلوه به . وكان أمراؤه والوجوهُ من أهلِه قد تناغَوْا بالبشارة ، وجاءوا
مجىء منْ لا يشُكُّ فى الظَّفَرِ ، فساقُوا معَ أنفُسِهم رفيعَ الحليةِ كى يتباهَوْا بذلك
إذا دخلوا قرطبة ، حتى إن كثيرًا من جاليتِها والتجارِ المتجهِّزِين منهم ومنْ سواهم
اغترُّوا بذلك العسكر الخاوِى فصحِبُوه مبادِرين مَيْسَرَةَ الفتح ، وسـعةَ الرِّبح ،
١٥ فخابوا وحاقَ البغىُ بهم ، وخسِرُوا أموالَهم .

وأول من انهزَمَ من ذلكَ العسكر منذرُ بن يحيى وخيرانُ الصِّقلّى . وكان
منذرٌ قد أوْقعَ فى نفوسِ مَدَدِهِ مِن رجالِ الإفرنجة الذُّعْرَ من غدر الموالى العامريِّين
فشُغِلَ بذلكَ بالُهم . فلمّا انهزمَ لم يعرفُوا السِّرَّ ، وأجفل منذرٌ فى أصحابه الثغريِّين
فمرَّ بسليمانَ بن هُود صاحبـه وهو مثبِّتٌ للإفرنجةِ لا يريمُ مَوقفَه . فصاح به :
٢٠ النجاةَ يا ابن الفاعلة ، فلستُ أقِفُ عليك ! فقال له سليمان : جئْتَ واللهِ بها صلعاء ،
وفضَحْتَ أهلَ الأندلس ! ثم انقلعَ وراءه ببقيّـةِ عسكرِه ، وانقلعَ أيضًا خيرانُ

برجاله . وصبَرَ الموالى العامريون قليلاً حولَ صاحبِهم المرتضَى على أحرَّ من جمرِ الغضَا ، وهو مع جُبنِه حسنُ الثباتِ حتى استحرَّ القتلُ فى أصحابه ، وصُرِع كثيرٌ منهم حولَه ، فانكشفوا عنه ، وخاف أن يُقبَضَ عليه فولَّى ، فوضَع عليه خيرانُ عيوناً لئلَّا يخفى أثرُه . فلحقوهُ بقربِ وادِى آش وقد أمِنَ على نفسِه فهجَمُوا عليه وقتَلُوه ، وجاءوا برأسِه إلى خيرانَ ومُنذِر ، وقد لحقا بالمريَّة ، فتحدَّثَ الناسُ أنهُما اصطبحا على رأسِه سُرورًا بمهْلِكه ، وتناولاه من الذِّكرِ عبثًا بما لم يكُنْ أهلًا له ، وجعلَا يقولَانِ : يا أُحيمق[1] قُمْ فاعرِضْ جندَك ! كلمةٌ تُحدِّثُ بها عنهُما جُرأةً علَى اللهِ ونكْثًا لعهودِه . ففُقِد المرتضَى على هذهِ السَّبيل ، ونجا من تلك الملحمةِ أخوهُ أبو بكر ابنُ هشامٍ ، ولحق بالموالِي العامريِّين فزهدوا فيه فاستقرَّ عندَ ابنِ القاسم صاحبِ حصنِ البُونْت[2] ، وكان شيعةَ المروانيَّةِ على سوءِ ما أسلفُوه فى سلفِه ، فأجارَه وضيَّفه ، ولم يزلْ مقيماً عندَه إلى أنْ كانَ مِنْ تقديمه للخلافةِ ما كان .

قال ابن حيان : لحلَّ بهذهِ الوقعةِ على جماعةٍ من الأندلسِ مصيبةٌ سوداء أنْسَتْ ما قبلَها ، ولم يجتمِعْ لهم على البَرْبرِ جمعٌ بعدُ . وأقرُّوا بالإدبار ، وباءوا بالصَّغار .

وورَدَ على القاسمِ بقرطبةَ كتابُ زَاوِى بشرحِها مع نصيبِه من الغَنيمةِ ، وفِى جملتِها سُرادِقُ المرتضى . فضربَه القاسمُ على نهرِ قرطبةَ وغشِيَه من النَّظَّارَةِ جُملةٌ من عِلْيةِ الناسِ وقلوبُهم تَقطَّعُ حسْرَةً منه . فركدتْ رِيحُ المروانيَّةِ من

(١) ب ، ت ، ر ، لب : « يا أحيمر »

(٢) ر : « حصن البنت » — ب ، ت ، لب : « البويب »

ذلكَ الوقتِ بقتلِ[١] مَنْ نجمَ منهم فى أطرافِ الأرضِ ، وأيِسَ الناسُ من دولَتِهم ، وألْوَى الخُمولُ بجُملتِهم ، فتقطّعُوا فى البلاد ودخلوا فى غمارِ الناس ، وامتُهِنُوا واستُهِينُوا .

حدّثَتْ بزوائد فى شرحِها حصَرْتُها تتْمِيماً للقصة[٢] :

٥ قالوا : لما جاء منذرٌ التُّجيبى فى جيشِه مع الإفرنجِ وغيرِهم للاجتماعِ بالمرتضى بشاطِبةَ لغزو قرطبةَ ، وفى جملتِه ابن مسوف ، اجتازَ على بَلَنْسِيَةَ فأغلقَ واليها المباركُ[٣] بابَها فى وجهِه ومنعَه من دخولِها . فلمّا اجتمعَ بالمرتضى بشاطبةَ أغراهُ على مبارك[٤] أنْ يُخرجَه معهُم للغزْوِ فلم يجبْه المرتضى لذلك ، وأقامَ عُذْرَ مباركٍ وأقعده خلفَه لجمعِ الأموال و إنفاذِها خلفه ، فأحقده عليـه فتجمع ابن مسوف

١٠ وخيران ومنذر ، وتظ هَروا على الغَدْرِ بِه ، فمالُوا به إلى غرناطةَ ، وقالوا : لا يصلُح أنْ نَسيرَ إلى قرطُبةَ ، ووراءنا هذا العدو ، ثم دسُّوا إلى زاوِى وأسَرُّوا عليـه الغَدْرَ بالمرتضى . فلمّا أصبحُوا للقتالِ جعلَ منذرٌ يُحرِّضُ الموالِىَ العامريّين سُخْريةً يبغِى توريطَهُم ، ويقولُ : أينَ أنتُمْ معشرَ أربابِ المملكةِ المؤثَّرِينَ على كلِّ طبقةٍ ؟ أينَ أصحابُ الوظائفِ المرتّبةِ ؟ هـذا يومُكُم ، تقدّمُوا . فحمِىَ القومُ

١٥ وخرجَتْ صَنْهاجَة ومغراوة منْ زَناتَةَ فاجتلدُوا أيّامًا ، فلمّـا حمِىَ الوطِيسُ أشارَ منذرٌ وخيرانُ بإدناء المحَلّةِ إلى قُربِ حومَةِ القتالِ . فلمّـا زُحْزِحَت صنهاجةُ من موضِعِها اضطرَبَ العسْـكرُ[٥] ، وشدَّ البرابرُ شدّةً منكرةً ، فانحازَ منذرٌ وخيرانُ

(١) ه : « وقتل » (٢) هذا الحديث إلى قوله : « ولهول ما عاينه زاوى » فى الصفحة التالية س ٩ لم يقع فى ر ، ه (٣) لب : « مبارك »

(٤) فى الأصول : « أغراه مبارك على » (٥) لب : « المعسكر »

لأوّلِ وقتِهما وانهزمَا على وجوهِهِما ، فلمْ يكُ للنَّاسِ ثباتٌ بعدَهُما ، فاستمرَّتْ بهم الهزيمةُ حسْبَما تقدَّم .

وأُخبِرَ عنْ منذرٍ أنّه الذى ورّطَ المرتضَى وحُلفاءه[(١)] ، وأقحمَهُم أوْعارًا صعبةً حتّى أنزلُوهُمْ فوقَ رؤوسِ صنهاجَة فى الجبلِ المطِلِّ عليهم . ولمّا شرَعَ فى قتالِهم بانَ لمُنذرٍ جِدُّ الموالِى العامريِّين ، ولم يشكَّ فِى ظهورِهم فحسدَهُم وتحيَّلَ لهُم بما فَلَّ حدَّهم . وكان بلغَه أيضاً عنْ زاوِى أنّه لا يشُكُّ فى الغلبةِ فتدارَكَهُ بكتابٍ يَثْنيهِ به عن حربِهِ ، فتراجَعَتْ نفسُ زاوِى وطمِعَ فى النجاةِ فلذلكَ ما جَدَّ فى القتال .

ولهوْلِ ما عاينَهُ زاوِى من اقتِدارِ[(٢)] أهلِ الأندلُسِ فى تلكَ الحربِ وجَعْجاعِهم بهِ ، وإشرافِهم على التغلُّبِ عليْهِ ، ما هانَ[(٣)] سلطانُه عندَه بالأندلسِ وعزَمَ على الخروجِ عنها نظراً فِى عاقبةِ أمرِه[(٤)] ، ودعا جماعةَ قومِه مُستنصِحاً فعصَوْهُ فى ذلكَ ، لظنِّهم بطِيبِ معيشتِهم بالأندلسِ ، فلمْ يثنِه ذلكَ عن عزمِه ، وركِبَ هو البحرَ بمالِه وأهلِه فلحِقَ بإفريقيَّةَ وطنِه . فكانَ من أغربِ الأخبارِ فى تلكَ الدَّولةِ الحمُّودية انزعاجُ ذلكَ الشيخِ الباقعةِ زاوِى بن زيرِى عن سلطانه ، ولفظُه لما كانَ يلُوكُه من فلذةِ كبدِ الأندلسِ أرضِ ألبيرةَ بأثَرِ الفتحِ العظيمِ الذِى أُتيحَ له على المرتضَى ومن كانَ معَه منْ عساكرِ أهلِ الأندلس . فأخذَ فى عبورِ البحرِ حينَ صفَا العيشُ واخضرَّ عودُه ، ووُقِم

(١) فى النسخ : « وحلفاءهم » (٢) م : « اعتداد »

(٣) م : « ما هون »

(٤) ب ، ت : « أمره ، فتجدد لذلك أثر الفتح عليه ، ودعا »

العَدُوُّ وفَلَّ غَربهُ ، فصمَّ فِي الرَّحيلِ بعدَ أن استأذَن صاحبَ إفريقيَّةَ يومئذٍ المعزَّ
ابنَ باديس ابنَ عمِّه فى ذلك فأذِنَ له ، وحرَصَ جميعُ بَنِي عمِّـه بالقيْرَوانِ على
رجوعِه لهُم لحالِ سِنِّه ، وتعرِّيهم يومئذٍ عن مثيلِه من مَشْيَخَتِهم لمهلكِ جميعِ
إخوتِهم ، وحصوله هُو[1] . فعَدَدُ بنِي منادٍ ، الغريبُ شأنه ، فى ألاّ يحتجبَ
٥ عنهُ من نسائِهم زهاء ألفِ امرأةٍ فى ذلكَ الوقت هُنَّ محرمٌ[2] لهُ من بناتِ
إخوتِه وبناتِهِنَّ وبنى بنيهِنَّ . فرحلَ عن الأندلس سـنةَ عشرٍ وأربعمائة ،
واستقلَّتْ به سفنُه منْ مرسَى المُنـكَّب ، وفى شِحْنتِها من ذخائرِ الأندلسِ
ما يفوتُ الإحصاء كثرةً لعظيمِ ما خمسَهُ أيامَ الفتنة . فاجتمعَ شملُه بالقيرَوَان ،
وأقرَّه المعزُّ فِي دولتِه وكَنَفِه . إلا أنَّه لمْ يؤثِرْه ولَا أنافَ بمحلِّه ولا قلّدَه ولا
١٠ واحدًا منْ ولدِه شيئاً من عمله[3] ، بل وكَلَهم إلى سُحْتِهم[4] .

قال ابن حيان :

وحُدِّثتُ عَنِ السببِ المزعج كانَ لزَاوِي يومئذٍ فى ارتحالِه . وذلكَ أنه لما
انهزَم المرْتَضَى قال زاوِى لقومه : كيف رأيتُم ما قد خلَصْنا منه ؟ قالوا : عظيماً !
قال : فلا تتناسَوْه وتُغالِطُوا أنفسَكم بعـدَه . إنَّ انهزامَ مَنْ رأيتموه لم يكُنْ
١٥ عنْ قوَّةٍ منَّا . إنما جرَّهُ مع القضاء غَدْرُ ملوكِهم لسلطانِهم ليهلِـكوه كما فعلوا ،
فإني عرفتُ ذلكَ من يومِ نزُولهم ، ولذلكَ ما كنتُ أُقوِّى نفوسَكم وقد نجَّانا
اللهُ منهم برحمتِه ، ومضَى القومُ ولمْ يعـدَمُوا إلّا رئيسَهم ، واستخْلافُه هيِّنٌ
عليهم ، ولستُ آمَنُ عَوْدَهم جملةً إليكم فيما بَعْد فلا يكونَ لنا قِوامٌ بهم . فالرأىُ

(١) ب ، ت ، لب ، ر : « وحصوله »

(٢) ب ، ت ، لب : « زعموا محرم »

(٣) ب ، ت ، لب : « أولاده شيئا من أعماله » (٤) ر : « محنهم »

الخروجُ عن أرضِهم ، واغتنامُ السَّلامةِ مع إحرازِ الغنيمةِ ، والرجوعُ إلى الجملةِ التى انفصَلْنا عنها كانفِينَ للعيالِ والذُّرِّيَّةِ ، مباعدِين لهُم لما وراءنا من أهلِ جنسنا[1] زناتةَ ، الأعداء فى الحقيقةِ ، الذينَ لا يغفلون عنَّا وإن غفلت الخليقةُ ، لا سيَّما وقدْ قرَفْنا قرْحَهم ، ونبَشْنا أحقادَهُم المدفونةَ . فإنْ فرَغُوا لنا على قِلَّةِ عَدَدِنا ، وظاهَرُوا علينا الأندلُسَ وقعْنا منهم بين لِحْيَىْ أسَد فاصْطَلَمونا .
وها أنا قد أدّيتُ لكُمُ النصيحة ، وأنا رَاحِلٌ عن الأندلسِ ، فمن أطاعنِى فليرحَلْ معى . فلمْ يساعدْه أحدٌ ، فرحلَ كما وصفناه .

وبلغنى أن حلالى بن زاوى تلوّم بغرناطة بعد حصولِ والدِه بالمُنكَّب أيامًا لتتميم لُباناتِه[2] . وقد دبَّر معَ الراحلين[3] من بنى عمِّهِ القبضَ على قاضِى البلدِ ابن أبى زمنين والمشيخةِ من أهلِه إذا رجعُوا من تشييعِ أبيه ليأخذَ أموالَهم .
فاهتدى ابنُ أبى زمنين لتدبيرِه ونكَّب عن المنكَّبِ إلى حَبُّوس ، وكان متوقِّفًا بحصنِ آش يرتقبُ ركوبَ عمِّهِ البحرَ فيلحق بغرناطة ، فكان ذلك كذلك .
فركب مع ابن أبى زمنين وقد خوّفه بوائقَ الإبطاء ، فلم تشعرْ صَنهاجةُ حتى أطلَّ عليهم قارعًا طبولَه ، فخرجتْ صنهاجةُ تستقبلُه ووقف ابنُ عمِّه حلالى بباب البلدِ حائرًا قد فسدَ تدبيرُهُ على ابن أبى زمنين ، ولم يُعرِّجْ حَبُّوس عليه حتى صعِد إلى قصبةِ غرناطة فضبطَها وحطَّ رحلَه فيها . ثم خرجَ إلى ابنِ عمِّه حلالى ليودِّعَه فعاتبه حلالى فى اقتحامه عليهم وقال له : الفوتَ خفتَ أبا مسعُود فى بِدارِك !
أهذا دخولُ مُكتئِبٍ بفراقِ عشيرتِه ؟ هو بدخولِ شامتٍ أشبَه ! كأنكَ فتحتَ بلدًا وطردْتَ عدُوًّا ! فاعتذرَ له حَبُّوس ، وقالَ : ما ذاكَ إلا لرسْمِ الإمارةِ ، وإرهابِ الرعيَّة . ثم استوطَن حَبُّوس البلدَ وأورثَه عقِبَه .

(١) ب، ت، ر : « جنسه » (٢) ب، ت، لب : « حاجاته » (٣) ر : « الداخلين »

قال ابن حيان : وبلغنى أنّ زاوِى استوهبَ علىَّ بن حمّود ، يومَ قُتل سليمانُ بن الحكَمَ رأسَه ، حنَقاً على بنى مروان المهدَى إليهم رأسُ زيرى والدِه ، وأنّه أسعفَهُ بذلك ، فصار عندَه ، ونقلَه من الأندلسِ معه فى ذلكَ الوقت مفتخراً به على أهلِ بيتِه . فإنْ يكنْ ذلك حقًّا فزاوِى أكبرُ مَنْ أدركَ الثأرَ المُنيم ، ورحَضَ العارَ المُقيم . وأخبارُ هذا الداهيةِ زاوى كثيرةٌ ، ونوادِرُ أفعاله مأثورة .

وكان حَبُّوس هذا أحد نابِهِي برابرةِ الأندلُس الذين يعتدُّ بهم[١] ، لم يبق بعدَه يومئذٍ سوَى محمد بن عبد الله نظيره مَن تُرهب له شَذاةٌ . وكان على قسوته يُصغى إلى الأدب ، وينتمى فى العرب ، للأثر المقفوِّ فى قومِه صَنهاجةَ . وكان يؤثِرُ لذلكَ « كتابَ التِّيجانِ » فى ذكر مناقِبهم[٢] ، ولا يُغِبُّ سماعَه ومطالعتَه . وكان وقوراً حليماً ، نظًّا مَهيبًا ، نزرَ الكلام ، قليلَ الضحك ، كثيرَ[٣] الفكر ، شديدَ الغَضب ، غليظَ العقاب[٤] ، شُجاعًا حسنَ الفروسيَّةِ ، جبَّارًا متكبِّرًا داهيةً ، واسعَ الحيلةِ ، كاملَ الرجولةِ[٥] ، له فى كلِّ ذلك أخبارٌ مأثورة[٦] .

أخبرنى أبو الوليد ابن زيدونَ قال :

سألَ حَبُّوس يومًا محمدَ بن عبدِ اللهِ فى بعضِ التقائِهما عن سِنِّه بمعراض فقال : ابنَ كم كنتَ يومَ قُتِلَ محمدُ بن الخير ؟ فأجابه مُسرعًا : كنتُ يومَ قُتِل

(١) ب ، ت ، لب : « يفترقون عنها »

(٢) ب ، ت ، لب : « كتاب التيجان لابن دريد فى ذكر مناقبهم »

(٣) ب ، لب ، ت ، ه : « طويل »

(٤) ب ، ت : « الحجاب »

(٥) ب ، ت ، لب ، ه : « الرجولية »

(٦) ب ، ت ، لب ، ه : « مشهورة »

زيرى بن مَناد يَفعَةً ، وشهدتُ وقعته مع قومى ابنَ كذا ! فتبسَّم حَبُّوس ، وعجِبَ مَن حضر مِن فطنتهما . وإنما أراد حَبُّوس تعييرَ ابنِ عبد الله بمقتلِ ابن الخيرِ سلطانِ زناتةَ المُصابِ فى وقعةِ صَنهاجَة ، فعارضَه ابن عبد الله بذكر وقعتهم بجدِّ حبُّوسٍ زيرى بن مَناد . فلو كانا فى الرَّعيل الأول من أذكياء العرب مازادا على ما أتيا به . ٥

وقد أعاد علىٌّ ولدُ ابنِ عبد الله أيامَ لقيتُه بقرطبة عنْ والدِه محمدِ ابن عبدِ الله بألطفَ مِنْ هذا التَّعريض ، مكتفياً باسم الموْضِعيْن عن ذكر اسم الرجُلين ، فقال : قال حَبُّوس لوالدى يومًا : أشهدتَ يومَ تلمْسان ؟ فقال له والدى : لا ، أوّلُ مشاهدى يومُ كَرْض ! ويومُ تلمْسانَ يومُ الخيرِ وزناتةَ ، ويومُ كَرْضٍ يومُ زيرى وصَنْهاجة . فلم يزد أحدُهما على التبسمِ ، وما درى من معهما ما ذهبا إليه . انتهى كلام ابن حيان . ١٠

قال ابن بسّام : ومن مليح التلويح بالمعاريضِ قولُ رجُلٍ من نُميرٍ وقد سايَرَهُ ابنُ هُبيرةَ الفَزارى فزادت بغلةُ النُّميرىّ عليه . فقال له ابن هبيرة : غُضَّ من لِجامِها ! فقال : إنها مكْتوبةٌ أعزكَ الله ! فضحك . وإنما أراد ابنُ هُبيرة قولَ جرير : ١٥

* فغُضَّ الطرفَ إنّك من نميرٍ *

وأراد النُّميرى قولَ ابنِ دارةَ فى فَزارة :

لا تأمنَنَّ فَزاريًّا خلوتَ به   على قلوصِكَ واكتبْها بأسْيارِ

وكانت فَزارةُ تُرمَى بإتيان الإبل ، ولذلك قال الفرزدق يهجو ابنَ هبيرة :

أميرَ المؤمنين وأنتَ برٌّ   حليمٌ لستَ بالجشعِ الحريصِ[1] ٢٠

(١) لم يقع هذا البيت فى ب ، ت ، لب

أولّيتَ العِـــراقَ ورافدَيْهِ فزاريًّا أحـــذَّ يدِ القميصِ ؟
ولم يكُ قبْلَها راعى مَخاضٍ ليأْمَنَهُ على وَرِكَىْ قَلُوصِ

ومن المعاريضِ : أن رجلاً هِلاليًا باتَ مع رجل من مُحاربٍ على بعضِ المياه ، وقد كثُر فيه صياحُ الضّفادِع ، فقال الهلالىُّ : ما تركتْنا شيوخُ مُحارب
٥ تنامُ الليلة ! فقال له المحاربىُّ : إنها أضلّت[1] بُرْقعًا فجعلتْ تطلبُه ! أراد الهلالىُّ قولَ القائل :

تَجِيشُ بلا شىء شيوخُ مُحاربٍ وما خِلْتُها كانت تَرِيشُ ولا تَبرِى
ضَفادِعُ فى ظلماء ليلٍ تجاوبتْ فَدَلَّ عليها صوتُها حيَّةَ البحْرِ

وأرادَ المحاربىُّ قولَ الآخر :

١٠ لكلِّ هِلالىٍّ من اللؤمِ بُرْقُعٌ ولابنِ يزيدٍ بُرْقُعٌ وجِلَالُ[2]

وحضر بابَ عبدِ الملكِ ناسٌ من العرب فيهم تَميمىٌّ ونُميرىٌّ ، فمرَّ عليهم رجلٌ يحملُ بازيًا ، فقالَ التّميمى : ما أحسنَ هـذا البازى ! فقال النُّميرىُّ : أجَلْ ، وهو يَصيدُ القَطَا ! أراد التّميمىُّ قولَ جَرير :

أنَا البـازِى المطلُّ علَى نُمَيْرٍ أُتيحَ لها مِن الجوِّ انصِبابَا

١٥ وأراد النُّميرىُّ قولَ الطِّرِمَّاح :

تَميمٌ بطُرْقِ اللؤمِ أهدَى من القَطَا ولو سلـكتْ سُبْلَ المكارمِ ضَلَّتِ

ومن المعاريضِ : قول معـاويةَ للأحْنَف بن قَيْس : ما الشىء الملفَّفُ فى البجاد ؟ قالَ السخينةُ يا أميرَ المؤمنين ! أراد معاويةُ قولَ القائل :

(١) م : « أضاعت »
(٢) كذا ، وفى العقد الفريد (ج ٢ ص ١٤) : « برقع وقيس »

إذا ما ماتَ ميْتٌ من تميمٍ فسرَّكَ[(١)] أنْ يعيشَ فجئْ بزادِ
بخُبْزٍ أو بتمـرٍ أو بسمْنٍ أو الشيءِ المُلفَّفِ فى البِجـادِ

وأرادَ الأحنفُ أنَّ قُريشاً كانتْ تُعيَّرُ بأكْلِ السَّخينةِ[(٢)] ، وهى حَساءٌ منْ دقيق يُتَّخَذُ عند غَلاءِ السِّعر . وفى ذلكَ يقولُ شاعرُ كِنانَة :

يا شَدَّةً ما شدَدْنا غيرَ كاذبةٍ[(٣)] على سخينةَ لولاَ اللَّيلُ والحَرَمُ ٥

ومن المعاريض : قولُ النبيِّ صلَّى الله عليـهِ وسلَّمَ حين هاجر إلى المدينةِ مُخفِياً لشأنِه عن قُريش ، ومعَهُ أبو بكرٍ ، فكلَّما سألَهُما سائلٌ عن شأنِهما قال : نحنُ باغٍ وهادٍ ، يريدُ باغياً للخيرِ ، وهادياً إليه .

ومنه : قولُه عليه السلام ، حينَ خرجَ هو وأبو بكر يتجسَّسانِ عن العيرِ ، وقد سألاَ بَسْبَسًا فأخبرهُما على أن يخبراه بأمرِهما ، فلمَّا أخبرهما وسألَهُما ، قال له عليه ١٠ السلام : نحن من ماء . فقـال لهما بَسْبَس : ما رأيتُ كاليومِ عجباً ، أمِنْ ماءِ كذا ، أمْ من ماء كذا ؟ يعدِّد مياهَ العرب . وقد قالَ عليه السلامُ لأصحابه ، حينَ أرسلَهُمْ إلى بنى قُريظةَ أيَّامَ الأحزاب : إن رأيتُموهم على غيرِ ما أحِبُّ فالحنُوا لى . فلمَّا انصرفُوا قالوا له : يا رسولَ الله ، عَضَلٌ والقَارَة . وقد كان هذان القبيلان غدرَا ، فـكنَى له بهما أصحابُه عن غَدْرِ بنى قُرِيْظَة . ١٥

ومما يتعلَّق ببابِ المعاريضِ : قولُه عليهِ السلامُ للمرأة : علِّمى حَفْصَةَ رُقْيَةَ النَّملة ! وكانتْ حفصةُ عليهـا السلام عندما يريدُها صلى الله عليه وسلم ربما تأبَّتْ ، فأرادَ أن يلْحَنَ لها برُقيةِ النَّملة ، وكانتِ العربُ ترْقِيها فى

(١) ب ، ت ، ه : « وسرك » (٢) ر ، ه : « بالسخينة »
(٣) ب ، ت ، لب : « منكرة »

الجاهليّةِ . يقول لها : العروسُ تكتحِل وتحتفِل ، وكلُّ شيء تفتعِل ، غيرَ تعَاصِي الرجُل .

وشبيهُ هذا ما فعلَه معاويةُ — رحمهُ الله — حين بلغَه أن بعضَ بناتهِ تمتنع ، فدخَل عليها ، فجعلَ ينكُتُ بقضيبِه ويُنشِد :

٥ من الخفِراتِ البِيضِ أمَّا حَرامُها فصَعْبٌ ، وأما حِلُّها فذلُولُ

ومن المعاريضِ : الخبرُ المأثورُ عن كُثَيِّر وجميلٍ قال : زار جميلٌ بثينةَ ورامَ إيصالَ شيء إليها فعزَّه ذلك . فلقِيَ كُثيِّرًا وقد ارتحل من عندِ أبيها ، فسأله عن موضعِ مَبِيتِه ، فقال : كنتُ عندَ أبِي بثينةَ . فقال له : هل إلى إعلامِها أنِّي ها هنا سَبيلٌ [(١)] ؟ فقال : هل كانَ بينَكُما شيءٌ تعرفُه هي ؟ فقال : نعَمْ ، ١٠ آخرُ عهدِي بها بأسفلِ وادِي الدَّوم ، وأصابَ عِمامَتِي شيءٌ فغسلَتْه جاريتُها . فرجعَ كُثيِّر قبلَ أن يقومَ والدُ بثينةَ من مجلسِه ، فقالَ : مارجعَك ؟ قال له كُثيِّر : أبياتٌ قلتُها وأحببتُ أن تسمعَها . قال : هاتِ ما عندَك . فأنشده :

وقلتُ لها : يا عَزُّ أُرسلُ صاحبِي على طولِ نأيٍ والرسولُ موكَّلُ

بأن تجعلِي بيني وبينكِ موعدًا وأن تأمرِيني بالذى فيه أفعَلُ [(٢)]

١٥ وآخرُ عهدِي منكِ يومَ لقيتِنِي بأسفلِ وادِي الدَّوْمِ والثوبُ يُغسَلُ

فقالت بُثَينة : اخسأْ ! فقالَ أبوها : مالَكِ يابُثينة ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا هوَّم الناسُ من وراءِ هذهِ الرابية !

قال : ودخلَ محمدُ بنُ أميةَ الشاعرُ مجلسًا فيه قينةٌ تغنى فأعجبتْه فقالَ لها : جُعلتُ فِداكِ ، أتُحسِنينَ أن تُغنِّي :

---

(١) ه : « هل إلى إعلامها الليلة سبيل أنى ها هنا ؟ »

(٢) لم يقع هذان البيتان إلا فى ر ، ه

خبِّرِيني : مَن الرَّسُولُ إليكِ ؟ واجعليهِ مَنْ لا يَنِمُّ عليكِ

فقالتْ له : لَا ، وقُدِّمتُ قبلكَ ، ولـكنِّى أغنِّى فى طريقتِه :

أَحمدُ قال لى ، ولم يَدْرِ مابِى : أَتُحبُّ الغَــداةَ عُتْبَةَ حقًّا ؟

وأومأتْ إلى مُخنَّثٍ كانَ على رأسِها اسمُه أحمد .

وقد أرخص الفقهاء فى هذهِ المعاريضِ . وقالَ بعضُ السَّلَفِ : فى المعاريضِ ٥ مندوحةٌ عن الـكذب .

وكان النَّخَعِى إذَا خرج من عندِه أصحابُه يقولُ لهم : قولُوا لمَنْ سألَـكم عنِّى : لا نَدْرِى أينَ هو ، فإنَّـكم لا تدرُونَ أينَ أتحوَّلُ مِن الدَّار .

ومنها قولُ شُرَيحٍ رحمهُ الله فى شأنِ عبدِ الملك ، وقد عادَه فى علَّتِه التى ماتَ منها : تركتُه يأمرُ وينهَى ! فلما استُفْهِمَ[١] قال : يأمرُ بالوصيَّةِ ، وينهَى ١٠ عن البُكاء .

وأهْدَى علىُّ بن هشامٍ إلى المأمونِ جاريةً اسمُها صرْف حينَ أحسَّ بتغيُّرِه عليـه ، وأمرَها أنْ تكتبَ إليه بما عسَى أنْ تُحِسَّ به من ذلك إليه . فوقفَ[٢] يوما بين يديْه فسقطتْ منه رقعةٌ ، فأخذَها المأمونُ فإذا فيها : « يا مُوسى ! ياموسى ! ليس شىءٌ غيرُ ذلك . فقالَ المأمونُ لجلسائه : أيُّـكم يعلمُ إيماء هذهِ الرقعة ؟ ١٥ فكلُّهم قال : لا أدْرى . فقال : هذه كُتِبتْ مِن قصْرِى ، تُخوِّفُ هذَا الرجلَ بادِرتِى . أراد كاتبُها قولَهُ تعالى : « يا موسَى إنَّ الملأَ يأتمرُون بكَ ليقتُلوكَ[٣] » ثم حذَفَ إخفاء ، وكرَّر توكيدًا . فبحث عن أمرِ الرقعةِ فإذا هِى لصرف .

---

(١) ب ، ت ، لب : « استفسر » (٢) هنا يبدأ خرم فى لب

(٣) راجع سورة ٢٨ : ٢٠

ومن مليح فطنة المأمون أيضاً — وله بهذا الباب بعض تعلّق — أنه : جلس يوماً في بعض مجالس أُنْسه ، وفي المجلس عُرَيبُ المأمونيّةُ ، وأحمدُ بن محمد بن حمدون الذي كان يهواها ، فأَومأَ إليها بقُبلة ، فاندفعتْ تغنّى بيتَ النّابغة الجعديّ .

رمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطعنةٍ كحاشيةِ البُرْدِ اليماني المسهّمِ

٥ فقالَ المأمونُ : مَن أومأَ إلى عُريب بقُبْلة ؟ فوجمَ الحاضرون ، فعزم عليهم ليخبروه[١] . فقال أبو عيسى أخوه : لا تظلِمِ النـاس . مَنْ يجترئُ على هذَا إلّا هذَا الفاسقُ ؟ وأومأَ إلى ابنِ حمدون . فاستُفسرَ المأمونُ من أينَ وقع لَه ذلك . فقال : هي لا تغنّى حتى تؤمَر واندفعَتْ تغنّى ارتجالاً .

[٢]ودخلَ حارثةُ بن زيد على زيادٍ وفي وجهِه أثَر . فقالَ له زيادٌ : ما هذا ١٠ الأثرُ في وجهكَ ؟ قال : ركبتُ فرسي الأشقَر فجمحَ بي ! فقال : أمَا إنّك لو ركبتَ فرسَك الأشهبَ ما فعلَ ذلك ! فكَنَى بالأشقَرِ عن النّبيذِ ، وبالأشهبِ عن اللّبن[٢] .

---

(١) ب ، ت : « عليّ وعليّ لئن لم تخبرونى لأقتلنكم »

(٢—٢) ل ف ر ، ل

* * *

انتهى المجلد الأول من القسم الأول

ويليه

المجلد الثانى من القسم نفسه

وأوله ترجمة عُبادة بن ماء السماء .

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

الخطا والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	١١	وأشدُّ عارضةَ	وأشدُّ عارضةٍ
٢٥	٨	وأذْنى	وأذهى
٢٥	١٣	وبعُدِ	وبعْثْ
٣٠	١٥	قَطَعَ	قُطِعَ
٣٣	١	كَفى	كَبَا
٣٥	٢	يُدِبُّ	يَدُبُّ
«	١٢	أبطآ	أبطأا
٤١	١	تَرى جونَها	تُرى جونُها
٤٤	١٠	مُعْجِبًا	مُعْجَبًا
٤٦	٥	تُشْهَرُ	تَشْهَرُ
٤٨	٤	عيُّوا	عيُوا
٥١	١٥	السِّتْرُ	البَرُّ
٥٧	٣	نَفَخْن	نفخن
٦١	١٤	بأفواهكم	بأفواههم
٦٣	١	البِيض	البَيْض
٨٧	١٤	يقعُ — ويعتذرُ	يقعْ — ويعتذرْ
٨٩	٢	قريبَ المكاتب	قريبَ المكانة
«	٤	ولا يجاوزْ	ولا يجاوزُ
٩٣	١٦	يُطوَى	يُجْذِى
٩٦	١٥	فضافت سِهامُه	فصافت سِهامُه
١١٥	٨	سَمِعْنا	سُمِعْنا
١٢٠	٥	وكذا البقاء بغيرِ مرتفع	وكذا البناء فغيرُ مرتفعِ
٢٤١	٨	أطلَق	أُطلِق
٢٤٥	١٦	إذا هجع	إذا ما هجع
٢٤٧	١٣	همّةٍ	همّةٌ
٢٥٤	٩	الخِلّان	الخُلّان
٢٦٠	١٢	ابن	بن
٢٦٥	٢	سكرانًا	سكرانَ
٢٧٧	١٣	يمنعا	تمنعا
٢٨٢	١٣	وداخِلها	ودَاخلَها
٢٨٥	١٣	الفلْحُ	الفلْجُ
٢٩٥	٣	واستُمْجِد	واستَمْجَدَ
٣٣٠	١٦	مناقبه	مناقبهم
٣٣٢	١٠	منهزما	منهزماً
٣٣٤	١٠	حرْبِ	جُرْبِ
«	١٢	يزدِ الحاجبَ	يزده للحاجبِ
٣٣٥	٦	تلمحَ وتخدم	يلمحَ ويخدمَ
٣٣٦	١٩	لاوتى	لأوتى
٣٤٣	١٠	إشراقِها	إشرافِها
٣٤٤	١٤	وأحصنَّ	وأحْصنَ
٣٤٥	١٣	القوتِ	الغوْثِ
٣٤٧	١٤	الحَيْن	الحِين
٣٥٠	١٥	مَسْتحكِمةً	مُسْتحكِمةً
٣٥٣	٤	العُروبة	القَرونةَ
٣٦٠	١١	تقضّتْ	تَقضّتْ
٣٦٩	٢	تأويه	ثاويه
٣٨٧	٥	شِسْعُهُ	شِسْعَهُ
٣٩٠	٢٠	سُقِى	شَقِى
٣٩١	٢	بيْننا	دِيْننا
«	٨	بَكَيْتُ	بَكَيْتَ

ملحوظة — قد فاتنا أن نثبت فى صفحة (ى) رمزين وردا فى حواشى الكتاب وهما: (نه) ومعناها نقص و(ز) ومعناها زيادة.

Publications de l'Université Egyptienne

Faculté des Lettres.

P.T.

1— GRAINDOR, P : *Athènes sous Auguste*, 1 vol. Le Caire, 1927 . . . . 15.—

2— HASSAN, S. Bey : *Le Poème dit de Pentaour et le Rapport Official sur la bataille de Qudesh.* 1 vol. Le Caire, 1929 . . . . 40.—

3— GUIDI, I. : *Summarium Grammaticae Veteris linguae Arabicae meridionalis*, 1 vol. Le Caire, 1930 . . . . 5.—

4— VIKENTIEV, V. : *La Haute Crue due Nil et l'averse de l'an 6 du roi Taharqa*, 1 vol. Le Caire, 1930 . . . . 30.—

5— GRAINDOR, P. : *Un Milliardaire Antique, Herode Atticus et sa famille*, 1 vol. Le Caire, 1930 . . . . 20.—

6— GRAINDOR, P. : *Delphes et son Oracle*, 1 vol. Le Caire, 1930 . . . . 5.—

7— GRAINDOR, P. : *La Guerre d'Alexandrie*, 1 vol. Le Caire, 1931 . . . 12.—

8— GRAINDOR, P. : *Athènes de Tibère à Trajan*, 1 vol. Le Caire, 1631 . 75.—

9— TAYLOR, W. : *Etymological List of Arabic Words in England*, 1 vol. Cairo, 1634 . . . . 5.—

10— PEYRE, H. : *Shelley et la France, Lyrismes Anglais et Français au XIX^{e} Siècle*, 1 vol, Le Caire 1935 . . . . 30.—

11— GRAINDOR, P. : *Bustes et Statues-Portraits d'Egypte Romaine*, 1 vol. Le Caire, 1936 . . . . 25.—

12— HOCART, A. M. : *Kings & Councillors*, 1 vol. Cairo, 1936 . . . . . 20.—

13— SCHACHT, J. & MEYERHOF, M. : *The Medico-Philosophical Controvery between Ibn Butlan of Baghdud and Ibn Ridwan of Cairo, A Contribution to the History of Greek Learning Among the Arabs* 1 vol. Cairo, 1937 . . . . 15.—

14— LALANDF, A. : *La Psychologie des Jugements de Valeur* (*Texte Arabe-Français*), Le Caire, 1929 . . . . 10.—

15— HUSSEIN, T. Bey et EL-ABADI, A. EL-H. : *Nakd An-Nathr by Dja'far Al Katib Al Baghdadi*, 1 vol. Le Caire, 1933 . . . . 10.—

16— GRAINDOR, P. : *Athènes sous Hadrien*, 1 vol. Le Caire, 1934 43,7

17— HASSAN, S. Bey : *Excavations at Giza, 1929-1930*, 1 vol. Oxford, 1932 100.—
" " " " " " *1930-1931*, 1 vol. Cairo, 1936 300.—

18— SOBHY, G. Bey : *The Book of the Proverbs of Solomon in the Dialect of Upper Egypt*, 1 vol. Cairo, 1927 . . . . 8.—

19— MENGHIN, O. & AMER, M. : *The Excavations in the Neolthic Site at Maadi Season 1930-31.* Cairo, 1932 . . . . 25.—
" *Season 1932* Cairo, 1936 . . . . 60.—

20— KOYRÉ, A. : *Trois Leçons sur Deecarts* (*Arabe-Français*), 1 vol. Le Caire, 1937 . . . .

21— CRAWFORD, D. S. : *Greek and Latin*, 1 vol. Cairo, 1938 . . . . .

22— الطب الروحاني تأليف أبي بكر محمد بن زكريا الرازى وتصحيح الأستاذ بول كراوس بكلية الآداب مجلد طبع مصر سنة ١٩٣٨

23— Lalande, A. Cours de Pholosophie 1 vol. in 8 (sous presse) . . . .

24— HOCART, A. M. Northern State of Fije 1 vol. (in 8° sous presse) . .

25— Herodotus Historia, 1 vol. in 16° (sous presse) . . . .